بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله بتحميده يستفتح كل كتاب وبذكره يصدر كل خطاب وبحمده يتنعم اهل النعيم في
دار الثواب وباسمه يتسلى الاشقياء وان ارخى دونهم الحجاب وضرب بينهم وبين السعداء
باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ونتوب اليه توبة من يوقن انه رب
الارباب ومسبب الاسباب ونرجوه رجاء من يعلم انه الملك الرحيم الغفور التواب ونمزج
برجائنا الخوف مزج من لا يرتاب انه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد
العقاب نصلي على نبيه محمد وصحبه الاكرمين صلوة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض
والحساب وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب فان التوبة من الذنوب بالرجوع الى ستار
العيوب وعلام الغيوب مبدا طريق السالكين وراس مال الفائزين واول اقدام المريدين ومفتاح
استقامة المائلين ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ولابينا آدم صلى الله عليه وعلى سائر الانبياء
اجمعين وما احدر بالاولاد الاقتداء بالآباء والاجداد فلا غرو ان اذنب الآدمي واجترم فهي شنشنة نعرفها
من اخزم ومن اشبه اباه فما ظلم ولكن الاب اذا جبر بعد ان كسر وعمر بعد ان هدم فليكن النزوع اليه في كلا
طرفي النفي والاثبات والوجود والعدم ولقد قرع آدم سن الندم وتندم على ما سبق منه وتقدم فمن
اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم بل التجرد لمحض الخير داب الملائكة المقربين والتجرد للشر دون
التلافي سجية الشياطين والملاقي للشر بالرجوع الى الخير بالحقيقة انسان فقد ازدوج في طينة الانسان شائبتان
واصطحب فيه سجيتان وكل عبد مصحح نسبه اما الى الملك او الى آدم او الى الشيطان فالتائب قد اقام البرهان على صحة نسبه الى آدم
بملازمة حد الانسان والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان فاما تصحيح النسب الى الملائكة بالتجرد لمحض الخير الى الملائكة
فخارج عن حيز الامكان فان الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه الا احدى النارين نار الندم او نار جهنم فالاحراق
بالنار ضروري في تخليص جوهر الانسان عن خبائث الشيطان واليك الآن اختيار اهون النارين والمبادرة الى اخف الشرين قبل
ان يطوى بساط الاختيار ويساق الى دار الاضطرار اما الى الجنة واما الى النار واذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب

وجب تقديمها في شرح ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والادوية
الميسرة لها ويتضح ذلك بذكر اربعة اركان **الركن الاول** في نفس التوبة وبيان حدها وانها واجبة على الفور وعلى جميع
الاشخاص وفي جميع الاحوال وانها اذا صحت كانت مقبولة **الركن الثاني** فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها
الى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات
والسيئات وبيان الاسباب التي بها تعظم الصغائر **الركن الثالث** في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك
ما مضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان اقسام التائبين في دوام التوبة **الركن الرابع** في السبب الباعث
على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الاصرار من المذنبين ويتم المقصود بهذه الاركان الاربعة ان شاء الله تعالى **الركن**
الاول في نفس التوبة **بيان حقيقة التوبة وحدها** اعلم ان التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم
من ثلثة امور مرتبة علم وحال وفعل فالعلم اول والحال ثان والفعل ثالث والاول موجب للثاني والثاني
موجب للثالث ايجابا اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت اما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب
وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه
المعرفة تالم القلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تالم فان كان بفعله
تاسف على الفعل المفوت فيسمى تالمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما فاذا غلب هذا الالم على القلب
واستولى انبعث من هذا الالم في القلب حالة اخرى تسمى ارادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال وبالماضي
والاستقبال اما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابسا له واما بالاستقبال فبالعزم
على ترك الذنب المفوت للمحبوب الى آخر العمر واما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء ان كان قابلا للجبر
فالعلم هو الاول وهو مطلع هذه الخيرات واعني بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق
بان الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تاكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب
فيثمر نور هذا الايمان مهما اشرق على القلب نار الندم فيتالم بها القلب حيث يبصر باشراق نور الايمان انه صار
محجوبا عن محبوبه كمن اشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيطلع النور عليه بانقشاع سحاب او انحسار
حجاب فراى محبوبه قد اشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه فتنبعث بتلك النيران ارادته للانتهاض
للتدارك فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلثة معان مرتبة في
الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق
والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتاخر وبهذا الاعتبار قال النبي صلى الله عليه وسلم الندم توبة اذ لا يخلو الندم

عن علم وجيه وإثمه وعن عزم يتبعه ويتلوه فيكون الندم محفوفاً بطرفيه أعني ثمرته ومثمره ولهذا الاعتبار قيل في
حد التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ فإن هذا يعرض لمجرد الألم ولذلك قيل هو نار في القلب
تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر
بساط الوفاء وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ولا يتم ذلك
إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر
وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حدود التوبة قاصر عن الإحاطة
بجميع معانيها وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة **بيان وجوب التوبة وفضلها** اعلم
أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور
الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنياً عن قائد يقوده في كل خطوة
فالسالك إما أعمى لا يستغني عن القائد في خطوه وإما بصير يهتدي إلى الطريق أول الطريق ثم يهتدي
بنفسه وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه
فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصاً من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما يعوزه ذلك فيتحير فهو هذا
وإن طال عمره وعظم جده مختصر خطاه قاصر ومن سعد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتنبه
بأدنى إشارة لسلوك طرق معوصة وقطع عقبات متعبة فيشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان
وهو لشدة نور باطنه يجتزئ بأدنى بيان فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار فإذا مسته نار
فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب
التوبة فينظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هي ثم إلى الوجوب ما معناه ثم يجمع بين معنى الوجوب
والتوبة فلا يشك في ثبوته لها وذلك بأن يعلم أن معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة
الأبد والنجاة من هلاك الأبد وأنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه
واجباً معنى وقول القائل صار واجباً بالإيجاب حديث محض فإن ما لا غرض لنا عاجلاً وآجلاً
في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه فإذا عرف معنى الوجوب
وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد وعلم أن لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله وأن كل محجوب عنه يشقى
لا محالة محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله تعالى إلا اتباع
الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعاً وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله عز وجل

الا قطع

إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والإقبال بالكلية على الله جل جلاله طلباً للأنس بدوام
ذكره والمحبة له بمعرفة كماله وجلاله على قدر طاقته وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين
أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله فلا شك في أن الانصراف عن طريق البعد
واجب للوصول إلى القرب وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فإنه ما لم يعلم أن الذنوب
أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد وما لم يتوجع فلا يرجع ومعنى
الرجوع الترك والعزم فلا شك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب وهكذا يكون الإيمان
الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ففي التقليد
والاتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك فليلاحظ قول الله تعالى وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقول السلف الصالحين رضي الله عنهم فقد قال الله عز وجل وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون وهذا
أمر على العموم وقال عز وجل يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم
الآية ومعنى النصوح الخالص لله خالياً عن الشوائب مأخوذ من النصح ويدل على فضل التوبة قوله جل
اسمه إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا
ذنب له وقال صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته
عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد
عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده
ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا
براحلته وفي بعض الألفاظ فقال من فرحه إذا أراد شكر الله أنا ربك وأنت عبدي ويروى عن الحسن
البصري رحمه الله عليه قال لما تاب الله على آدم عليه السلام هنأته الملائكة فهبط جبريل وميكائيل عليهما السلام و
فقالوا يا آدم قرت عينك بتوبة الله عز وجل عليك فقال آدم عليه السلام يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين
مقامي فأوحى الله إليه يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة من دعاني منهم لبيته كما لبيتك
ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأني قريب مجيب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم
مستجاب والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها إذ معناه العلم بأن الذنوب
والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله وهذا داخل في وجوب الإيمان ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم
إزالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال

وتدارك ما سبق من التقصير في سائر الاحوال وذلك لا شك في وجوبه واما الندم على ما سبق
والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبه وبه تمام التلافي فكيف لا يكون واجبا بل هو نوع الم يحصل له
لا محاله عقيب حقيقة المعرفه بما فات من العمر وضاع في سخط الله **فان قلت** تألم القلب امر ضروري لا يدخل
تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب فاعلم ان سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل الى تحصيل
سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى ان العلم يخلقه العبد لا بمعنى ان العلم يخلقه
العبد ويحدثه في نفسه فان ذلك محال بل العلم والندم والفعل والاراده والقدره والقادر الكل
من خلق الله وفعله والله عز وجل خلقكم وما تعملون هذا هو الحق عند ذوي البصاير وما سوى هذا ضلال
فان قلت فليس للعبد اختيار في الفعل والترك قلنا نعم وذلك لا يناقض قولنا ان الكل من خلق الله
بل الاختيار ايضا من خلق الله والعبد مضطر في الاختيار الذي له فان الله اذا خلق اليد الصحيحه وخلق
الطعام اللذيذ وخلق الشهوه للطعام في المعده وخلق العلم في القلب فان هذا الطعام يسكن الشهوه وخلق الخواطر
المتعارضه في ان هذا الطعام هل فيه مضره مع انه يسكن الشهوه وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله
ام لا ثم خلق العلم بانه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الاسباب تنجزم الاراده الباعثه على التناول فانجزام الاراده
بعد تردد الخواطر المعارضه وبعد وقوع الشهوه للطعام يسمى اختيارا ولا بد من حصوله عند تمام اسبابه
فاذا حصل انجزام الاراده بخلق الله اياها تحركت اليد الصحيحه الى جهة الطعام فلا محاله اذ بعد تمام
الاراده والقدره يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل الحركه بخلق الله بعد حصول القدره وانجزام
الاراده وهما من خلق الله وانجزام الاراده يحصل بعد صدق الشهوه والعلم بعدم الموانع وهما
ايضا من خلق الله ولكن بعض هذه المخلوقات تترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله في خلقه ولن تجد
لسنة الله تبديلا فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومه ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدره وما لم يخلق
فيها حياه وما لم يخلق اراده مجزومه ولا يخلق الاراده المجزومه ما لم يخلق شهوه وميلا في النفس ولا
ينبعث هذا الميل انبعاثا ما لم يخلق علما بانه موافق للنفس اما في الحال واما في المال ولا يخلق العلم
ايضا الا باسباب اخر ترجع الى حركه واراده وعلم فالعلم والميل الطبيعي ابدا يستتبع الاراده الجازمه
والاراده والقدره ابدا تستتبع الحركه وهكذا الترتيب في كل فعل والكل من اختراع الله ولكن بعض
مخلوقاته شرط للبعض فلذلك يجب تقدم البعض وتاخر البعض كما لا تخلق الاراده الا بعد العلم ولا
تخلق العلم الا بعد الحياه ولا تخلق الحياه الا بعد الجسم شرطا لحدوث الحياه لا ان الحياه تتولد من الجسم
ويكون

ويكون خلق الحياه شرطا لخلق العلم لا ان العلم يتولد من الحياه ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم
الا اذا كان حيا ويكون خلق العلم لجزم الاراده لا ان العلم يولد الاراده ولكن لا يقبل الاراده الا جسم حي
عالم ولا يدخل في الوجود الا الممكن وللامكان ترتيب لا يقبل التغير لان تغيره محال فمهما وجد
شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الالهي والقدره الازليه
عند حصول الاستعداد ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله
ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبه وهي مرتبه في قضا الله الذي هو واحد كلمح البصر
ترتيبا كليا لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العباده بقوله تعالى انا
كل شي خلقناه بقدر وعن القضا الكلي الازلي العباده بقوله تعالى وما امرنا الا واحده كلمح بالبصر واما
العباد فانهم مسخرون تحت مجاري القضا والقدر ومن جمله القدر خلق حركه في يد الكاتب بعد خلق صفه مخصوصه
في يده تسمى القدره وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمى القصد وبعد علم بما اليه ميله يسمى الادراك
والمعرفه فاذا ظهرت من باطن الملكوت **هذه الامور** الاربعه على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير
سبق اهل عالم الملك والشهاده المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا ايها الرجل قد تحركت وكتبت
ورميت ونودي من وراء حجب الغيب وسرادقات الملكوت وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وما قتلت
اذ قتلت ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم وعند هذا تتحير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهاده
فمن قايل انه جبر محض ومن قايل انه اختراع صرف ومن متوسط مايل الى انه كسب ولو فتح لهم
ابواب السما فنظروا الى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم ان كل واحد صادق من وجه وان القصور شامل
لجميعهم فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الامر ولم يحط علمه بجوانبه وتمام علمه ينال باشراق النور من
كوه نافذه الى عالم الغيب وانه تعالى عالم الغيب والشهاده فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى وقد يطلع
على الشهاده من لم يدخل حيز الارتضا ومن حرك سلسلة الاسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه
ارتباط سلسلتها بمسبب الاسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا ان لا خالق الا الله ولا مبدع
سواه **فان قلت** فقد قضيت على كل واحد من القايلين بالجبر والقدر والاختراع والكسب بانه صادق
من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا متناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن ايصال الى
الافهام بمثال فاعلم ان جماعه من العميان سمعوا انه قد حمل الى البلده حيوان عجيب يسمى الفيل وما

كانوا قد شاهدوا صورته ولا سمعوا باسمه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي
نقدر عليه فطلبوه فلما وصلوا اليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجله ووقع يد بعضهم على انيابه
ووقع يد بعضهم على اذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت اجوبتهم
فقال الذي لمس الرجل ان الفيل ما هو الا مثل اسطوانة خشن الظاهر الا انه الين منه وقال الذي لمس
الناب ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه واملس لا خشونة فيه وليس في غلظ الاسطوانة
اصلا بل هو مثل عمود وقال الذي لمس الاذن لعمري هو لين وفيه خشونة فصدق احدهما فيه
ولكن قال ما هو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وانما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من
هؤلاء صدق من وجه اذ اخبر كل واحد عما اصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد منهم عن وصف
الفيل ولكن بجملتهم قصروا عن الاحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فانه
مثال اكثر ما اختلف فيه الناس وان كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك امواجها وليس
ذلك من غرضنا فلنرجع الى ما كنا بصدده وهو بيان ان التوبة واجبة بجميع اجزائها الثلاثة العلم
والندم والترك وان الندم داخل في الوجوب لكونه واقعا في جملة افعال الله المحصورة بين علم العبد
وارادته وقدرته المتخللة بينها وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله

بيان ان وجوب التوبة على الفور

اما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه اذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الايمان وهو واجب
على الفور والمتفصي عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل فان هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفة
التي لا تتعلق بعمل بل من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصي عن عهدته ما لم يصر
باعثا فالعلم بضرر الذنوب انما اريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من
الايمان وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وما اراد به نفي الايمان الذي
يرجع الى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينافيه الزنا
والمعاصي وانما اراد به نفي الايمان لكون الزنا مبعدا عن الله وموجبا للمقت كما اذا قال الطبيب هذا سم فلا
تتناوله فاذا تناوله يقال تناوله وهو غير مؤمن لا بمعنى انه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا
وغير مصدق به بل المراد انه غير مصدق بقوله انه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناوله اصلا والعاصي بالضرورة
ناقص الايمان وليس الايمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا اعلاها شهادة ان لا اله الا الله وادناها

اماطة

اماطة الاذى عن الطريق ومثاله قول القائل ليس الانسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا
اعلاها القلب والروح وادناها اماطة الاذى عن البشرة بان يكون مقصوص الشارب مقلوم الاظفار نقي البشرة
عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بارواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها واظلافها وهذا مثال مطابق
فالايمان كالانسان وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح والذي ليس له الا شهادة
التوحيد والرسالة فهو كانسان مقطوع الاطراف مفقوء العينين فاقد لجميع اعضائه الظاهرة والباطنة الا
اصل الروح وكما ان من هذا حاله قريب من ان يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف
عنها الاعضاء التي تمدها وتقويها فكذلك من ليس له الا اصل الايمان وهو مقصر في الاعمال قريب من ان
تنقلع شجرة ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده
فكل ايمان لم يثبت في اليقين اصله ولم تنتشر في الاعمال فروعه لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك
الموت وخيف عليه سوء الخاتمة الا ما سقي بماء الطاعات على توالي الايام حتى رسخ وثبت وقول العاصي للمطيع اني
مؤمن كما انك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر اني شجرة وانت شجرة وما احسن جواب شجرة الصنوبر
اذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم اذا عصفت رياح الخريف فعند ذلك تنقطع اصولك وتتناثر
اوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن اسباب ثبات الاشجار ؛ سوف ترى اذا انجلى الغبار
افرس تحتك ام حمار ؛ فانما ينقطع نياط العارفين خوفا من دواهي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها
الا الاقلون فالعاصي اذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرة اذا كان لا يخاف
الموت بسببه ولان الموت غالبا لا يقع فجأة فيقال له الصحيح يخاف المرض ثم اذا مرض خاف الموت وكذلك
العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم اذا ختم له بالسوء وجب الخلود في النار فالمعاصي للايمان كالماكولات المضرة للابدان فلا
تزال تجتمع في الباطن حتى تغير امزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها الى ان يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك
العاصي وان كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من الماكولات في كل حال وعلى الفور فالخائف
من هلاك الابد اولى بان يجب عليه ذلك وان كان متناول السم اذا ندم يجب عليه ان يتقيأ ويرجع عن تناوله بابطاله واخراجه
عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه الا هذه الدنيا الفانية فمتناول
سموم الدين وهي الذنوب اولى بان يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام يبقى للتدارك مهلة وهي العمر فان المخوف من هذا
السم فوات الاخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي لا ينصرم باضعاف اعمار
الدنيا دون عشر عشيره اذ ليس لمدته اخر البتة فالبدار البدار الى التوبة قبل ان تعمل سموم الذنوب بروح الايمان

علاجاً تجاوز الامر حد اختيار الاطباء ولا ينفع بعده الاحتما فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين ويحق الكلمة عليه انه كان من الهالكين ويدخل تحت عموم قوله سبحانه وتعالى انا جعلنا في اعناقهم اغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون ولا يغرنك لفظ الايمان فتقول المراد به الكافرون اذ تبين لك ان الايمان بضع وسبعون بابا وان الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن فالمحجوب عن الايمان الذي هو شعب **وفروع** يحجب في الخاتمة عن الايمان الذي هو اصل كما ان الشخص الفاقد لجميع الاطراف التي هي فروع ينساق الى الموت المعدم للروح التي هي اصل فلا بقاء للاصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الاصل ولا فرق بين الفرع والاصل الا في شيء واحد وهو ان وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعي وجود الاصل واما وجود الاصل فلا يستدعي وجود الفرع فبقاء الاصل بالفرع ووجود الفرع بالاصل فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الاصل والفرع فلا يستغني احدهما عن الاخر وان كان احدهما في رتبة الاصل والاخر في رتبة التابع وعلوم المعاملة اذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فانها اذا لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤكدة للحجة على صاحبها ولذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما اوردناه من الاخبار في كتاب العلم

بيان ان وجوب التوبة عام في الاشخاص والاحوال فلا ينفك عنه احد البتة

اعلم ان ظاهر الكتاب قد دل على هذا اذ قال سبحانه وتعالى وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون ونور البصيرة ايضا يرشد اليه اذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب الى الشيطان فلا يتصور ذلك الا من عاقل ولا تكمل غريزة العقل الا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان الى اغواء الانسان اذ كمال العقل انما يكون عند مقاربة الاربعين واصله انما يتم عند مراهقة البلوغ ومبادئه تظهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة فاذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة اذ لا يثبت احدهما للاخر فانهما ضدان فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة فمهما غلب احدهما ازعج الاخر بالضرورة فاذا كانت الشهوات تكمل في الصبى والشاب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب الفة وانس لا محالة بمقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر النزوع عنه ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ اوليائه من ايدي اعدائه شيئا فشيئا على التدريج فان لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وانجز اللعين موعده حيث قال لاحتنكن ذريته الا قليلا وان كمل العقل وقوي كان اول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر الى العبادات ولا معنى للتوبة الا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان الى طريق الله وليس في الوجود ادمي الا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة

على

على غريزته التي هي عدة الملائكة فالرجوع عما سبق اليه على مساعدة الشهوات ضروري في حق كل انسان نبيا كان او غبيا فلا تظنن ان هذه الضرورة اختصت بادم صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها . سجية نفس كل غانية هند . بل هو حكم ازلي مكتوب على جنس الانس لا يمكن فرض خلافه ما لم يتبدل السنة الالهية التي لا مطمع في تبديلها فاذن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من كفره وجهله فان بلغ مسلما تبعا لابويه غافلا عن حقيقة اسلامه فعليه التوبة عن غفلته بتفهم معنى الاسلام فانه لا يغني عنه اسلام ابويه شيئا ما لم يسلم بنفسه فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته والفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع الى قالب حدود الله في المنع والاطلاق والانكفاف والاسترسال وهو من اشق ابواب التوبة وفيه هلك الاكثرون اذ عجزوا عنه فكل هذا رجوع وتوبة فدل ان التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور ان يستغني عنها احد من البشر كما لم يستغن عنه آدم عليه السلام فخلقة الولد لا تتسع ما لم يتسع له خلقة الوالد اصلا **واما بيان وجوبه على الدوام وفي كل حال** فهو ان كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه اذ لم يخل عنه الانبياء كما ورد في القرآن من خطايا الانبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم فان خلا في بعض الاحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب فان خلا عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وبصفاته وافعاله وكل ذلك نقص وله اسباب وترك اسبابه بالتشاغل باضدادها رجوع عن طريق الى ضده والمراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو في حق الادمي عن هذا النقص وانما يتفاوتون في المقادير واما الاصل فلابد منه قال صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة الحديث ولذلك اكرمه الله تعالى بان قال ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر واذا كان هذا حاله فكيف حال غيره **فان قلت** لا يخفى ان ما يطرأ على القلب من الهم والخواطر نقص وان الكمال في الخلو عنه وان القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص وانه كلما ازداد المعرفة زاد الكمال وان الانتقال الى الكمال من اسباب النقصان رجوع والرجوع توبة ولكن هذه فضائل لا فرائض وقد اطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال والتوبة عن هذه الامور ليست واجبة اذ درك الكمال غير واجب في الشرع فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال فاعلم انه قد سبق ان الانسان لا يخلو في مبدأ خلقته عن اتباع الشهوات اصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك ما مضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة الى قلبه كما يرتفع من نفس الانسان ظلمة الى وجه المرآة الصقيلة فان تراكمت ظلمة الشهوات صارت رينا كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون فاذا تراكم الرين

صار طبعا يطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة اذا تراكم وطال زمانه وغاص في جرم الحديد وافسده وصار
لا يقبل التصقيل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لا بد
من محو تلك الآثار التي انطبعت في القلب كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الانفاس والبخارات المسودة
لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الآثار وكما يرتفع الى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات
فيرتفع اليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم اتبع السيئة
الحسنة تمحها فاذن لا يستغني العبد في حال من احواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها
آثار تلك السيئات هذا في قلب حصل اولا صفاؤه وجلاؤه ثم اظلم باسباب عارضة فاما التصقيل الاول ففيه
يطول الشغل اذ ليس شغل الصقل في ازالة الصدى عن المرآة كشغله في عمل اصل المرآة فهذه اشغال طويلة
لا تنقطع اصلا وكل ذلك يرجع الى التوبة فاما قولك ان هذا لا يسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال فاعلم
ان الواجب له معنيان احدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل
كافة الخلق به لم يخرب العالم ولو كلف الناس كلهم ان يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية
ثم يؤدي ذلك الى بطلان التقوى بالكلية فانه مهما فسدت المعايش لم يتفرغ احد للتقوى بل شغل الحياكة
والحراثة والخبز يستغرق جميع عمر كل واحد فيما يحتاج اليه فجميع هذه الدرجات ليست واجبة بهذا الاعتبار والواجب والبناء و
الثاني هو الذي لا بد منه للوصول به الى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين والتوبة
عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول اليه كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع اي لمن يريدها فانه لا يصل اليها
الا بها فاما من رضي بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لاجلها وكما يقال
العين والاذن واليد والرجل شرط في وجود الانسان يعني انه شرط لمن يريد ان يكون انسانا كاملا ينتفع
بانسانيته ويتوصل بها الى الدرجات العلى في الدنيا فاما من قنع باصل الحياة ورضي بان يكون كلحم على وضم
وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل واذن فاصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة
لا يوصل الا الى اصل النجاة واصل النجاة كاصل الحياة وما وراء اصل النجاة من الكمالات التي بها تتهيأ النجاة يجري
مجرى الاعضاء والآلات التي بها تتهيأ الحياة وفيه سعي الانبياء والاولياء والعلماء والامثل فالامثل عليه كان من السعادات
حرصهم وحواليه كان تطوافهم ولاجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية حتى انتهى عيسى عليه السلام الى ان توسد حجرا
في منامه فجاء اليه الشيطان وقال اما كنت تركت الدنيا للآخرة فقال نعم والذي حدث فقال توسدك لهذا الحجر
تنعم

تنعم بالدنيا فلم لا تضع رأسك على الارض فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الارض وكان رميه بالحجر توبة عن
ذلك التنعم افترى ان عيسى عليه السلام لم يعلم ان وضع الرأس على الارض لا يسمى واجبا في فتاوى العامة افترى ان نبينا
صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلاته حتى نزعه وشغله شراك نعله الذي جدده حتى اعاد الشراك
الخلق فاعلم ان ذلك ليس واجبا في شرعه الذي هو شرعه لكافة العباد فاذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل
كان ذلك الا لانه رآه مؤثرا في قلبه اثرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي كان قد وعد به او ترى ان الصديق
وجهه بعد ان شرب اللبن وعرف انه من غير وجهه ادخل اصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ما علم من الفقه
هذا القدر وهو انما اكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه اخراجه فلم تاب عن اكله بالتدارك على حسب
امكانه بتخلية المعدة عنه وهل كان ذلك الا لسر وقر في صدره عرفه ذلك السر ان فتوى العامة حديث آخر وان خطر
طريق الآخرة لا يعرفه الا الصديقون فتأمل احوال هؤلاء القوم الذين هم اعرف خلق الله تعالى بطريق الله عز وجل وبمكر الله
وبمكامن الغرور بالله واياك مرة واحدة ان تغرك الحياة الدنيا واياك ثم اياك الف مرة ان يغرك بالله الغرور
فهذه اسرار من استنشق مبادي روائحها علم ان لزوم التوبة ملازم للعبد السالك في كل نفس من انفاسه ولو عمر
عمر نوح وان كان ذلك واجبا على الفور من غير مهلة ولقد صدق ابو سليمان الداراني رحمه الله حيث قال لو لم يبك العاقل
فيما بقي من عمره الا على فوت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقا ان يحزنه ذلك الى الممات فكيف من يستقبل ما
بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله وانما قال هذا لان العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة اذا ضاعت منه بغير فائدة بكى عليها
لا محالة فان ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها اشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة
لا خلف لها ولا بدل عنها فانها صالحة لان توصلك الى سعادة الابد وتنقذك من شقاوة الابد واي جوهر انفس من هذا
فاذا اضعتها في الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا وان صرفتها الى معصية فقد هلكت هلاكا فاحشا فان كنت لا تبكي
على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك اعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها انه
صاحب مصيبة فان نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا فعند ذلك ينكشف لكل
مفلس افلاسه ولكل مصاب مصيبته وقد رفع العلاج عنها التدارك قال بعض العارفين ان ملك الموت عليه السلام
اذا ظهر للعبد اعلمه انه قد بقي من عمرك ساعة وانك لا تستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الاسف والحسرة
ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على ان يضم الى تلك الساعة ساعة اخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه
فلا يجد اليه سبيلا وهو اول ما يظهر من معاني قوله تعالى وحيل بينهم وبين ما يشتهون واليه الاشارة بقوله
عز وجل من قبل ان يأتي احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتني الى اجل قريب فاصدق واكون من الصالحين ولن يؤخر

الله تعالى اذا جا اجلها فيقول الاجل القريب الذي يطلبه معناه ان يقول عند كشف الغطا للعبد باتيان الموت اخرني يوما اعتذر فيه الى ربي واتوب اليه واتزود صالحا لنفسي فيقول فنيت الايام فلا يوم فيقول اخرني ساعة فيقول فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتتردد انفاسه في شراسيفه ويتجرع غصة الياس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب اصل ايمانه في صدمات تلك الاهوال فاذا زهقت نفسه فان كان سبقت له من الله تعالى الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة وان سبق له القضا بالشقاوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة ولمثل هذا قال وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال اني تبت الان وقال انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بان يتندم عليها ويمحو اثرها بحسنة يردفها بها قبل ان يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اتبع السيئة الحسنة تمحها ولذلك قال لقمان عليه السلام لابنه يا بني لا تؤخر التوبة فان الموت ياتي بغتة ومن ترك المبادرة الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين احدهما ان تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى تصير رينا وطبعا فلا تقبل المحو الثاني ان يعاجله المرض او الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد في الخبر ان اكثر صياح اهل النار من التسويف فما هلك من هلك الا بالتسويف فيكون تسويد القلب نقدا وجلاوه بالطاعة نسيئة الى ان يختطفه الاجل فياتي الله بقلب غير سليم ولا ينجو الا من اتى الله بقلب سليم فالقلب امانة الله عند عبده والعمر امانة الله عنده وكذا سائر اسباب الطاعة فمن خان في الامانة ولم يتدارك خيانته فامره مخطور قال بعض العارفين ان لله الى عبده سرين يسرهما اليه على سبيل الالهام احدهما اذا خرج من بطن امه يقول له عبدي قد اخرجتك الى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الامانة وانظر كيف تلقاني والثاني عند خروج روحه يقول عبدي ماذا صنعت في امانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فالقاك على الوفا او اضعتها فالقاك بالمطالبة والعقاب واليه الاشارة بقوله تعالى اوفوا بعهدي اوف بعهدكم وبقوله والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون

بيان ان التوبة اذا استجمعت شرايطها فهي مقبولة لا محالة

اعلم انك اذا فهمت معنى القبول لم تشك في ان كل توبة صحيحة فهي مقبولة فالناظرون بنور البصاير المستمدون من انوار القران يعلمون ان كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الاخرة في جوار الله ومستعد لان ينظر بعينه الباقية الى وجه الله ويعلمون ان القلب خلق سليما في الاصل فكل مولود يولد على الفطرة وانما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها ويعلمون ان نار الندم تحرق تلك الغبرة وان نور الحسنة

يمحو

يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة وانه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار وكما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون وكما ان الثوب الوسخ لا يقبله الملك لان يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله لان يكون في جواره وكما ان استعمال الثوب في الاعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والما الحار ينظفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بما الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول كما ان كل ثوب نظيف فهو مقبول وانما عليك التزكية والتطهير واما القبول فمبذول قد سبق به القضا الازلي الذي لا مرد له وهو المسمى فلاحا في قوله قد افلح المومنون وقال قد افلح من زكاها ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة اقوى واجلى من المشاهدة بالبصر ان القلب يتاثر بالمعاصي والطاعات تاثرا متضادا يستعار لاحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل ويستعار للاخر لفظ النور كما يستعار للعلم وان بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يمكن الجمع بينهما فكانه لم يعرف من الدين الا قشوره ولم يعلق به الا اسماوه وقلبه في غطا كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ومن جهل نفسه فهو بغيره اجهل اعني به قلبه اذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه فمن يتوهم ان التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم ان الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول الا ان يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك ان تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب اصلا ما لم تتغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن منه فهذا مثال امتناع اصل التوبة وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية فهذا البيان كاف عند ذوي البصاير في قبول التوبة ولكنا نعضد جناحه بنقل الايات والاخبار والاثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به وقال الله عز وجل وهو الذي يقبل التوبة عن عباده وقال عز وجل غافر الذنب وقابل التوب الى غير ذلك من الايات وقال صلى الله عليه وسلم لله افرح بتوبة العبد الحديث والفرح ورا القبول فهو دليل على القبول وزيادة وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يبسط يده بالتوبة لمسي الليل الى النهار ولمسي النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب ورا القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب الا وهو قابل وقال صلى الله عليه وسلم لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السما ثم ندمتم لتاب الله عليكم وقال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة فقيل وكيف ذلك يا رسول الله قال

يكون نصب عينه تائبا فارا حتى يدخل الجنة وقال صلى الله عليه وسلم كفارة الذنب الندامة وقال صلى الله
عليه وسلم التائب من الذنب كمن لا ذنب له وروي ان حبشيا قال يا رسول الله اني كنت اعمل الفواحش فهل لي من توبة
قال نعم قال ثم قال يا رسول الله اكان يراني وانا اعملها فقال صلى الله عليه وسلم نعم فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها نفسه
ويروى ان الله لما لعن ابليس سأله النظرة فانظره الى يوم القيامة فقال وعزتك لا اخرجن من قلب ابن ادم
ما دام فيه الروح فقال الله وعزتي لا احجبنه عن التوبة ما دام فيه الروح وقال صلى الله عليه وسلم ان الحسنات يذهبن السيئات
كما يذهب الماء الوسخ والاخبار في هذا مما لا تحصى كثرة **والاثار** قال سعيد بن المسيب رحمه الله انزل الله قوله تعالى
انه كان للاوابين غفورا في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وقال الفضيل رحمه الله قال الله بشر المذنبين
انهم ان تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين اني ان وضعت عليهم عدلي عذبتهم وقال طلق بن حبيب ان حقوق الله اعظم
من ان يقوم بها العبيد ولكن اصبحوا تائبين وامسوا تائبين وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من ذكر خطيئة المها
فوجل منها قلبه محيت عنه في ام الكتاب ويروى ان نبيا من انبياء بني اسرائيل اذنب فاوحى الله عز وجل اليه وعزتي
لئن عدت لاعذبنك فقال يا رب انت انت وانا انا لئن لم تعصمني لاعودن فعصمه الله وقال بعضهم ان العبد
ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول ابليس ليتني لم اوقعه في الذنب وقال حبيب بن ثابت تعرض
على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول اما اني قد كنت مشفقا منه قال فيغفر له ويروى ان رجلا سال
ابن مسعود عن ذنب الم به هل له من توبة فاعرض عنه ابن مسعود ثم التفت اليه فراى عينيه تذرفان بالدموع فقال
له ان للجنة ثمانية ابواب كلها تفتح وتغلق الا باب التوبة فان عليه ملكا موكلا به لا يغلق فاعمل ولا تياس وقال عبد الرحمن
ابن ابي القسم تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف فقال اني لارجو ان
يكون المسلم احسن حالا عند الله ولقد بلغني ان توبة المسلم كاسلام بعد اسلام وقال عبد الله بن سلام لا احدثكم الا عن
نبي مرسل او كتاب منزل ان العبد اذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه اسرع من طرفة عين وقال عمر رضي الله عنه
اجلسوا الى التوابين فانهم ارق افئدة وقال بعضهم انا اعلم متى يغفر لي قيل ومتى قال اذا تاب علي وقال اخر انا من ان احرم
التوبة اخوف من ان احرم المغفرة اي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة ويروى انه كان في بني اسرائيل
شاب عبد الله عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في المراة فراى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال الهي اطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة
فان رجعت اليك اتقبلني فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا احببتنا فاحببناك وتركتنا فتركناك وعصيتنا فامهلناك
وان رجعت الينا قبلناك وقال ذو النون المصري رحمه الله ان لله عبادا غرسوا اشجار الخطايا نصب روايق القلوب
وسقوها بماء التوبة فاثمرت ندما وحزنا فجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير عي ولا بكم وانهم لهم البلغاء الفصحاء

العارفون

العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكاس الصفاء فورثوا الصبر على البلاء ثم ولهت قلوبهم في الملكوت وجالت فكرهم بين
سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقروا صحيفة الخطايا فاورثوا انفسهم الجزع حتى وصلوا الى علو الزهد
بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة وسرحت
ارواحهم في العلى حتى اناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجوع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفنا
العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة واقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا الى رياض الراحة ومعدن العز
والكرامة فهذا القدر كاف في بيان ان كل توبة صحيحة فمقبولة لا محالة **فان قيل** فتقول ما قاله المعتزلة من ان قبول التوبة واجب
على الله **فاقول** لا اعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله الا ما يريده القايل بقوله ان الثوب اذا غسل بالصابون
وجب زوال الوسخ وان العطشان اذا شرب الماء وجب زوال العطش وانه اذا منع الماء مدة وجب العطش وانه اذا دام العطش
وجب الموت وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالايجاب على الله بل اقول خلق الله الطاعة مكفرة للمعصية والحسنة ماحية
للسيئة كما خلق الماء مزيلا للعطش والقدرة متسعة لخلافه لو سبقت به المشية فلا واجب على الله ولكن ما سبقت به
ارادته الازلية فواجب كونه لا محالة **فان قيل** فما من تائب الا وهو شاك في قبول توبته والشارب للماء لا يشك في
زوال العطش **فاقول** شكه في القبول كشكه في وجود شرايط الصحة فان للتوبة اركانا وشروطا دقيقة كما ياتي
وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للاسهال في انه هل يسهل وذلك لشكه في حصول شروط
الاسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وادويته فهذا وامثاله
موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لا محالة على ما سياتي في شروطها ان شاء الله تعالى **الركن الثاني فيما
عنه التوبة وهي الذنوب صغائرها وكبائرها** اعلم ان التوبة ترك الذنب ولا يمكن ترك الشيء الا
بعد معرفته واذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل اليها الا به واجبا فمعرفة الذنوب اذا واجبة والذنب عبارة
عن كل ما هو مخالف لامر الله من ترك او فعل وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من اولها الى اخرها وليس ذلك
من غرضنا ولكنا نشير الى مجامعها وروابط اقسامها **بيان اقسام الذنوب بالاضافة الى صفات
العبد** اعلم ان للانسان اخلاقا واوصافا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله ولكن تنحصر
مثارات الذنوب في اربع صفات صفات ربوبية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية وذلك لان طينة
الانسان عجنت من اخلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الاخلاط في المعجون اثرا من الاثار كما يقتضي السكر والخل والزعفران
في السكنجبين اثارا مختلفة فاما ما يقتضي النزوع الى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء
والعز والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كانه يريد ان يقول انا ربكم الاعلى وهذا تشعب منه

جملة من كبائر الذنوب غفل عنها أكثر الخلق ولم يعدوها ذنوبا وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي
كما استقصيناه في ربع المهلكات الثانية هي الصفات الشيطانية التي منها تنشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع
والأمر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال الثالثة هي الصفات البهيمية
ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه تتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام
وجمع الحطام لأجل الشهوات الرابعة هي الصفات السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم
والقتل واستهلاك الأموال ويتفرع عنها جمل من الذنوب وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة **والصفة** البهيمية
هي التي تغلب أولا ثم يتلوها الصفة السبعية ثانيا ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة
الشيطانية ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهو الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق
فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة
والنفاق وإضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين
وبعضها على جميع البدن ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح **قسمة ثانية** اعلم أن الذنوب تنقسم
إلى ما بين العبد وبين الله وإلى ما يتعلق بحقوق العباد فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات
الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كترك الزكاة وقتل النفس وغصب الأموال وشتم الأعراض وكل متناول
من حق الغير فإما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البدعة
والترغيب في المعاصي وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما
يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ وما بين العبد وبين الله إذا لم يكن شركا فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء في الخبر
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدواوين ثلاثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك فالديوان الذي
يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك وأما الديوان الذي لا يترك فمظالم العباد
أي لا بد وأن يطالب بها حتى يقضى عنها **قسمة ثالثة** اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر وقد كثر
اختلاف الناس فيها فقال قائلون لا صغيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف إذ قال الله تعالى إن
تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وقال تعالى الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم
وقال صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنبت الكبائر وفي لفظ آخر كفارات ما بينهن
إلا الكبائر وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين
وقتل النفس واليمين الغموس واختلف الصحابة رضي الله عنهم والتابعون رحمهم الله في عدد الكبائر من أربع إلى سبع

إلى تسع

إلى تسع إلى إحدى عشر فما فوق ذلك فقال ابن مسعود هن أربع وقال ابن عمر هن سبع وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا بلغه
قول ابن عمر رضي الله عنه الكبائر سبع يقول هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبع وقال مرة كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره
كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر وقال بعض السلف كل ما أوجب الحد في الدنيا فهو كبيرة وقيل إنها
مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة وقال ابن مسعود رضي الله عنه لما سئل عنها اقرأ من أول سورة
النساء إلى رأس ثلاثين آية منها إلى عند قوله إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم فكل ما نهى الله عنه في هذه
السورة إلى هاهنا فهو كبيرة وقال أبو طالب المكي رحمه الله الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع
من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم رضي الله عنهم أربعة في القلب وهو الشرك بالله والإصرار على معصيته
والقنوط من رحمته والأمن من مكره وأربع في اللسان وهي شهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس وهي التي يحق
بها باطلا أو يبطل بها حقا وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم ولو سواكا من أراك وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها
في النار والسحر وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة وثلاث في البطن وهو شرب الخمر والسكر
من كل شراب وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا وهو يعلم واثنتان في الفرج وهما الزنا واللواط واثنتان في اليدين
وهو القتل والسرقة وواحدة في الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من عشرين وواحدة في جميع
البدن وهو عقوق الوالدين قال وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما وإن سألاه حاجة فلا
يعطيهما وإن يسباه فيضربهما أو يجوعا فلا يطعمهما هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء إذ
يمكن الزيادة عليه والنقصان منه فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر وهو جناية على الأموال ولم يذكر
في كبائر النفوس إلا القتل فأما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض
له وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل ماله كيف وفي الخبر من الكبائر السبتان بالسبة ومن
الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم وهذا زائد على قذف المحصن وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وغيره من الصحابة
إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر وقالت طائفة
كل عمد كبيرة وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أهي كبيرة أم لا لا يصح ما لم يفهم
معنى الكبيرة والمراد بها كقول القائل السرقة حرام أم لا ولا مطمع في معرفته إلا بعد تقرير معنى الحرام أولا ثم البحث
عن وجوده في السرقة فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع وذلك لأن الكبيرة
والصغيرة من المضافات وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه وصغير بالإضافة إلى ما فوقه والمضاجعة مع الأجنبية
كبيرة بالإضافة إلى النظر صغيرة بالإضافة إلى الزنا وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه صغيرة بالإضافة إلى قتله نعم للإنسان

ان يطلق ما يوعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ونعني بوصفه بالكبيرة ان العقوبة بالنار عظيمة وله ان يطلق على
ما اوجب الحد مصيرا الى ان ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيمة وله ان يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه فيقول
تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه ثم يكون عظيما وكبيرة لا محالة بالاضافة اذ منصوصات القرآن ايضا تتفاوت
درجاتها فهذه الاطلاقات لا حرج فيها وما نقل من الفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ولا يبعد تنزيلها على شيء من
هذه الاحتمالات نعم من المهمات ان يعلم معنى قول الله ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وقول رسول الله
عليه السلام الصلوات كفارات لما بينهن الا الكبائر فان هذا اثبات حكم ما يعلم انها معدودة في الصغائر واما ما يشك فيه فلا يدرى
حكمه فالطمع في عد حاصر او حد جامع مانع طلب لما لا يمكن فان ذلك لا يمكن الا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بان
يقول اني اردت بالكبائر عشرا او خمسا ويفصلها واذ لم يرد بل ورد في بعض الالفاظ ثلث من الكبائر وفي بعضها سبع
من الكبائر ثم ورد ان السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر وهو خارج عن السبع والثلث علم انه لم يقصد به الحصر والعدد فكيف
يطمع في عدد ما لم يعدده الشرع وربما قصد الشرع ابهامه ليكون العباد منه على وجل كما ابهم ليلة القدر ليعظم جد
الناس في طلبها نعم لنا سبيل كلي يمكننا ان نعرف به اجناس الكبائر وانواعها بالتحقيق فاما اعيانها فنعرف
بالظن والتقريب ونعرف ايضا اكبر الكبائر واما اصغر الصغائر فلا سبيل الى معرفته وبيانه فانا نعلم بشواهد
الشرع وانوار البصائر جميعا ان مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق الى جوار الله وسعادة لقائه وانه لا وصول
لهم الى ذلك الا بمعرفة الله ومعرفة صفاته ورسله وكتبه واليه الاشارة بقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون
اي ليكونوا عبيدا لي ولا يكون العبد عبدا ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية فلا بد وان يعرف نفسه وربه
فهذا المقصود الاقصى ببعثة الانبياء ولكن لا يتم هذا الا في الحياة الدنيا وهو المعنى بقوله عليه السلام الدنيا مزرعة الآخرة
فصار حفظ الدنيا ايضا مقصودا تابعا للدين لانه وسيلة اليه والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان النفوس والاموال
فكل ما يسد باب معرفة الله فهو من اكبر الكبائر ويليه ما يسد حياة النفوس فهذه ثلث مراتب حفظ المعرفة على القلوب
والحياة على الابدان والاموال على الاشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها وهذه ثلثة امور لا يتصور ان تختلف فيها
الملل فلا يجوز ان يبعث الله نبيا يريد ببعثه اصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته
ومعرفة رسله او يأمرهم باهلاك النفوس او اهلاك الاموال فحصل من هذا ان الكبائر على ثلث مراتب **الاول**
ما يمنع من معرفة الله ومعرفة رسله عليهم السلام وهو الكفر ولا كبيرة فوق الكفر اذ الحجاب بين العبد وبين الله هو الجهل والوسيلة
المقربة اليه هي المعرفة والعلم وقربه بقدر معرفته وبعده بقدر جهله ويتلو الجهل الذي يسمى كفرا الامن من مكر الله والقنوط
من رحمة الله فان هذا ايضا عين الجهل فمن عرف الله لم يتصور ان يكون آمنا ولا ان يكون آيسا ويتلو هذه الرتبة البدع
كلها

كلها المتعلقة بذات الله تعالى وصفاته وافعاله وبعضها اشد من بعض وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها
وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبافعاله وشرايعه وباوامره ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تنقسم الى ما يعلم
انها داخلة تحت ذكر الكباير المذكورة في القرآن والى ما يعلم انه لا يدخل والى ما يشك وطلب رفع الشك في القسم
المتوسط طمع في غير مطمع **الرتبة الثانية** النفوس اذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة
بالله فقتل النفس لا محالة من الكباير وان كان دون الكفر لان ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود
اذ حياة الدنيا لا تراد الا للآخرة والتوصل اليها بمعرفة الله ويتلو هذه الكبيرة قطع الاطراف وكل ما يفضي الى الهلاك
حتى الضرب وبعضها اكبر من بعض ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط لانه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في
قضاء الشهوة انقطع النسل ودفع الوجود قريب من قطع الوجود واما الزنا فانه لا يفوت اصل الوجود ولكن
يشوش الانساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الامور التي لا ينتظم العيش الا بها بل كيف يتم النظام مع اباحة
الزنا ولا تنتظم امور البهائم ما لم يتميز الفحل منها باناث تختص بها عن ساير الفحول ولذلك لا يتصور ان الزنا يكون مباحا
في شرع قصد به الاصلاح وينبغي ان يكون الزنا في الرتبة دون القتل فانه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع اصله
ولكنه يفوت تمييز الانساب ويحرك من الاسباب ما يكاد يفضي الى التقاتل وينبغي ان يكون اشد من اللواط لان الشهوة داعية
اليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم اثر الضرر بكثرته **الرتبة الثالثة** الاموال فانها معايش الخلق ولا يجوز تسليط
الناس على تناولها كيف شاؤوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما بل ينبغي ان تحفظ لتبقى ببقائها النفوس الا ان الاموال
اذا اخذت امكن استردادها وان اكلت امكن تغريمها فليس يعظم الامر فيها نعم اذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي
ان يكون ذلك من الكباير وذلك باربع طرق احدها الخفية وهي السرقة فانه اذا لم يطلع عليه غالبا فكيف يتدارك
والثاني اكل مال اليتيم وهذا ايضا من الخفية واعني به في حق الولي والقيم فانه موتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير
لا يعرفه فتعظيم الامر فيه واجب بخلاف الغصب فانه ظاهر يعرف بخلاف الخيانة في الوديعة فان المودع فيه خصم ينتصف لنفسه
الثالث تفويتها بشهادة الزور والرابع اخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فان هذه طرق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز
ان تختلف الشرايع في تحريمها اصلا وبعضها اشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس وهذه الاربعة جديرة بان
تكون مرادة بالكباير وان لم يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن كثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها واما اكل
الربا فليس فيه الا اكل مال الغير بالتراضي مع الاخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد ان تختلف الشرايع في مثله واذا لم يجعل
الغصب الذي هو اكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكباير فاكل الربا برضى المالك ولكن دون رضى الشرع
وان عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم ايضا الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة والمصير الى ان اكل دانق بالخيانة

والغصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر وينبغي
أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرائع فيه ليكون ضروريا في الدين فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي رحمه الله القذف
والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر
وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا لأن العقل محفوظ كما أن النفس محفوظة بل لا خير في النفس
دون العقل فإزالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر ولا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر
لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس والقطرة وحدها في محل الشك وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم
أمره فيعد ذلك من الكبائر بالشرع وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فإن ثبت إجماع في أنه
كبيرة وجب الاتباع وإلا فللتوقف فيه مجال وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض والأعراض دون الأموال
في الرتبة ولتناولها مراتب وأعظمها التناول بالإضافة إلى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع أمره وأظن ظنا غالبا
أن الصحابة كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس وهو الذي نريده بالكبيرة الآن
ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن
العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزني فله أن يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرد شهادته فإن لم تقبل شهادته فحده
ليس ضروريا في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات فإذا هذا أيضا يلحق بالكبائر
في حق من عرف حكم الشرع فأما من ظن أن له أن يشهد وحده أو ظن أنه يساعده على الشهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل
في حقه من الكبائر وأما السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض
أو غيره وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف
وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا وضربهم والظلم عليهم بغصب أموالهم وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم
وإجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك في السبعة عشر المشهورة الكبيرة وهو أكثر ما قيل فيه فالتوقف
في هذا غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسميتها كبيرة فليلحق بالكبائر فإذن رجع حاصل الأمر إلى أنا نعني بالكبيرة
ما لا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا وإلى ما ينبغي أن تكفره وإلى ما
يتوقف فيه فالمتوقف فيه بعضه مظنون به بالنفي والإثبات وبعضه مشكوك وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب
أو سنة وإذ لا مطمع فيهما فطلب رفع الشك فيه محال **فإن قلت** فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها
فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام لأن
دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة بل موجبات الحدود معلومة

بأسمائها

بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرهما فأما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها وهذا أمر يتعلق بالآخرة والإبهام
أليق بها حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرؤون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب
الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة
إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع ويقتصر على نظر ولمس
فإن مجاهدته نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيرا في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه فهذا معنى تكفيره
فإن كان عنينا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلا
وكل من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي
والأوتار نعم من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع فمجاهدته النفس بالكف
ربما يمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع وكل هذه أحكام أخروية ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك ويكون ارتفعت
من المتشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد في النص بعد ولا حد جامع بل ورد بألفاظ مختلفة فقد روى أبو
هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك
بالله وترك السنة ونكث الصفقة قيل وما ترك السنة قال صلى الله عليه وسلم الخروج من الجماعة ونكث الصفقة أن يبايع
رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله فهذا وأمثاله من الألفاظ التي لا تحيط بالعدد كله ولا تدل على حد جامع فيبقى لا محالة
مبهما **فإن قلت** الشهادة لا تقبل إلا ممن يجتنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرطا في قبول الشهادة وهذا من أحكام
الدنيا فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف في أن من يسمع الملاهي ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب
ويشرب من أواني الفضة والذهب لا تقبل شهادته ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر وقال الشافعي رحمه الله إذا
شرب الحنفي النبيذ حددته ولم أرد شهادته فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل أن الشهادة نفيا وإثباتا
لا تدور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تقدح في العدالة إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالبا بضرورة مجاري
العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض الأحوال وسماع الغيبة وترك الأمر بالمعروف وأكل الشبهات
وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائدا على حد المصلحة وإكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار والتكاسل
عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه في أمر الدين فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها
إلا بأن يعتزل الناس ويتجرد لأمر الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل إلا قول
مثله لعز وجوده وبطل الأحكام والشهادات وليس لبس الحرير وسماع الملاهي واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب وقت الشرب
والخلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل فإلى مثل هذا المنهج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها

لا الى الكبيرة والصغيرة من احاد هذه الصغيرة التي لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لا ترد الشهادة كمن اتخذ
الغيبة وثلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم والصغيرة تكبر بالمواظبة كما ان المباح يصير صغيرة
بالمواظبة كاللعب بالشطرنج والترنم بالغنا على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغاير والكباير **بيان كيفية
توزع الدرجات والدركات في الاخرة على الحسنات والسيات في الدنيا** اعلم ان الدنيا من عالم الملك
والشهادة والاخرة من عالم الغيب والملكوت واعني بالدنيا حالتك قبل الموت وبالاخرة حالتك بعد الموت
فدنياك واخرتك صفاتك واحوالك فيسمى القريب الداني منها دنيا والمتاخر اخرة ونحن الان نتكلم من الدنيا
في الاخرة فانا الان في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الاخرة وهي عالم الملكوت ولا يتصور شرح عالم الملكوت
في عالم الملك الا بضرب الامثال ولذلك قال تعالى وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون وهذا لان
عالم الملك نوم بالاضافة الى عالم الملكوت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وما سيكون
في اليقظة لا يتبين لك في النوم الا بضرب الامثال المحوجة الى التعبير فكذلك ما سيكون في يقظة الاخرة لا يتبين في
نوم الدنيا الا في كسوة الامثال واعني بكسوة الامثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه ان كنت فطنا ثلثة امثلة
فقد جاء رجل الى ابن سيرين وقال رايت كان في يدي خاتما اختم به افواه الرجال وفروج النسا فقال انك مؤذن تؤذن
في رمضان قبل الفجر فقال صدقت وجاء اخر فقال رايت كاني اصب الزيت في الزيتون فقال ان كان تحتك جارية
اشتريتها ففتش عن حالها فانها امك لان الزيتون اصل الزيت فهو رد الى الاصل فنظر فاذا جاريته كانت امه وقد
سبيت في صغره وقال له اخر رايت كاني اقلد الدر في اعناق الخنازير فقال انك تعلم الحكمة غير اهلها فكان كما قال
والتعبير من اوله الى اخره امثال تعرفك طريق ضرب الامثال وانما نعني بالمثل الذي يؤدي المعنى في صورة ان نظر الى معناه
وجد صادقا وان نظر الى صورته وجد كاذبا فالمؤذن ان نظر الى صورة الخاتم والختم به على الفروج راه كاذبا
وان لم يختم به قط وان نظر الى معناه وجده صادقا اذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذي يراد الختم
له وليس للانبيا ان يتكلموا مع الخلق الا بضرب الامثال لانهم كلفوا ان يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم
انهم في النوم والنايم لا يكشف له شي الا بمثل فاذا ماتوا انتبهوا وعرفوا ان المثل صادق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن وهو من المثال الذي لا يعقله الا العالمون فاما الجاهل فلا يجاوز قدره
ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذي يسمى تاويلا كما يسمى تفسير ما يرى من الامثلة في النوم تعبيرا فيثبت لله تعالى
يدا واصبعا تعالى الله عن قوله وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق ادم على صورته فانه لا يفهم من الصورة الا
اللون والشكل والهيية فيثبت لله تعالى مثل ذلك تعالى الله عن قوله علوا كبيرا **ومن ههنا** زل من زل في صفات

الالهية

الالهية حتى في الكلام وجعلوا صوتا وحرفا الى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول وكذلك قد يرد في امر الاخرة
ضرب امثلة يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالموت
يوم القيمة في صورة كبش املح فيذبح فيثور الملحد الاحمق ويكذب به ويستدل على كذب الانبيا ويقول يا سبحان الله
الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما وهل هذا الا محال ولكن الله عزل هولا الحمقى عن معرفة
اسراره فقال وما يعقلها الا العالمون ولا يدري المسكين ان من قال رايت في منامي انه جي بكبش وقيل هذا
هو الوبا الذي في البلد وذبح فقال المعبر صدقت والامر كما رايت وهذا يدل على ان الوبا ينقطع ولا
يعود قط لان المذبوح وقع الياس عنه فاذن المعبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته ويرجع
حقيقته الى ان الملك الموكل بالرويا وهو يطلع الارواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرفه ما في اللوح
المحفوظ بمثل ضربه له لان النايم انما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا فالرسل ايضا انما يكلمون
الناس في الدنيا وهي بالاضافة الى الاخرة نوم فيوصلون المعاني الى افهامهم بالامثلة حكمة من الله سبحانه ولطفا
بعباده وتيسيرا لادراكهم فانهم يعجزون عن ادراكه دون ضرب المثل فقوله يؤتى بالموت في صورة كبش املح مثال
ضربه ليوصل الى الافهام حصول الياس عن الموت وقد جبلت القلوب على التاثر بالامثلة وثبوت المعاني فيها
بواسطتها ولذلك عبر القران بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله قلب المؤمن بين اصبعين من
اصابع الرحمن عن سرعة التقليب وقد اشرنا الى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقايد من ربع العبادات فلنرجع الان الى
الغرض فالمقصود ان تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيات لا يمكن الا بضرب الامثال فليفهم من المثل الذي
نضربه معناه لا صورته **فنقول** الناس ينقسمون في الاخرة اصنافا وتتفاوت درجاتهم في السعادة والشقاوة
تفاوتا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الاخرة الدنيا في هذا المعنى
اصلا البتة فان مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسنته الصادرة عن الارادة الازلية مطردة لا تبديل
لها الا انا ان عجزنا عن احصا احاد الدرجات فلا نعجز عن احصا الاجناس فنقول الناس في الاخرة ينقسمون بالضرورة
الى اربعة اقسام هالكين ومعذبين وناجين وفايزين **ومثاله** من الدنيا ان يستولي ملك من الملوك على
اقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ويخلي بعضهم فهم الناجون
ويخلع على بعضهم فهم الفايزون فان كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك الا باستحقاق فلا يقتل الا جاحدا
لاستحقاق الملك معاندا له في اصل الدولة ولا يعذب الا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ولا يخلي الا
معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع الا على من ابلى عمره في الخدمة والنصرة ثم

ان يكون خلق الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجات منهم واهلاك الهالكين اما حز الرقبة او
تنكيلا بالمثلة بحسب درجات عقائدهم وتعذيب المعذبين في الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد انواعها واختلافها
بحسب درجات تقصيرهم فينقسم كل رتبة من هذه الرتب الى درجات لا تنحصر فكذلك فافهم ان الناس في الاخرة هكذا يتفاوتون
فمن هالك ومن معذب مدة ومن ناج يحل في دار السلام ومن فائز والفائزون ينقسمون الى من يحلون في جنات
عدن او جنات الماوى او جنات الفردوس والمعذبون ينقسمون الى من يعذب قليلا والى من يعذب الف سنة الى
سبعة الاف سنة وذلك اخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر وكذلك الهالكون الايسون من رحمة الله تتفاوت
درجاتهم وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزعها عليها **اما الرتبة الاولى**
وهي الهلاك ونعني بالهالكين الايسين من رحمة الله اذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه
ايس من رضا الملك واكرامه فلا تغفل عن معاني المثال وهذه الدرجة لا تكون الا للجاحدين والمعرضين المتجردين
للدنيا المكذبين بالله ورسوله وكتبه فان السعادة الاخروية في القرب من الله والنظر الى وجهه الكريم وذلك
لا ينال اصلا الا بالمعرفة التي يعبر عنها بالايمان والتصديق والجاحدون هم المنكرون والمكذبون فهم الايسون
عن رحمة الله ابد الاباد وهم الذين يكذبون برب العالمين وبانبيائه المرسلين انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون
لا محالة وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهيه فهو لا محالة يكون محترقا مع نار جهنم بنار الفراق
ولذلك قال العارفون ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين انما مطلبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب
فقط وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لئيم او يعبده لطلب جنته او لخوف ناره بل العارف يعبده لذاته ولا
واما الحور والفواكه فقد لا يشتهيها واما النار فقد لا يتقيها اذ نار الفراق اذا استولت ربما غلبت
بالنار المحرقة للاجسام فان نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة ونار جهنم لا شغل لها الا مع
الاجسام والم الاجسام يستحقر مع الم الفؤاد ولذلك قيل وفي فؤاد المحب نار هوى احر نار الجحيم ابردها
ولا ينبغي ان تنكر هذا في عالم الاخرة اذ له نظير في عالم مشاهد في عالم الدنيا فقد رئي من غلب عليه الوجد ما عدا
على النار وعلى اصول القصب الجارحة وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه وترى الغضبان يستولي عليه الغضب في
القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لان الغضب نار في القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الغضب
قطعة من النار واحتراق الفؤاد اشد من احتراق الاجساد والاشد يبطل الاحساس بالاضعف كما تراه وليس
الفرق بين القطعة من النار والسيف الا من حيث انه يفرق بين جزئين يرتبط احدهما بالاخر برابطة التاليف فالنار اشد
احكاما من تاليف الاجسام فهو اشد تالما ان كنت من ارباب البصاير وارباب القلوب ولا يبعد ان لا يدركه
من لا

١٣

من لا قلب له فان عدم هذا الالم ويستحقر بالاضافة الى الم الجسم فالصبي لو خير بين الم الحرمان عن الكرة والصولجان وبين
الم الحرمان عن السلطان اصلا لاختار اللعب ولم يعد ذلك الما وقال العدو في الميدان مع الصولجان احب الي من سرير الملك
والتسلط مع الجلوس عليه بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلوى وبين فعل جميل يقهر به الاعداء ويفرح
به الاصدقاء لاثر الهريسة والحلوى وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوبا ووجود المعنى الذي بوجوده
يصير الطعام لذيذا ولذلك لمن استغرقته صفات البهائم والسباع ولم يظهر فيه الصفات الملكية التي لا تناسبها ولا
يلذها الا القرب من رب العالمين ولا يولمها الا البعد والحجاب كما لا يكون الذوق الا في اللسان والسمع الا في الاذن
فلا تكون هذه الصفة الا في القلب فمن لا قلب له ليس له هذا الحس كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الالحان وحسن
الصور والالوان وليس لكل انسان قلب ولو كان لم يصح قوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب فجعل من لم يتذكر
بالقران مفلسا من القلب ولست اعني بالقلب هذا اللحم الذي تكنفه عظام الصدر بل اعني به السر الذي هو من عالم الامر
وهذا اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه وساير الاعضاء عالمه ومملكته ولله الخلق والامر جميعا ولكن
ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه قل الروح من امر ربي هو الملك والامير لانه بين عالم الامر وبين عالم الخلق ترتيبا
وعالم الامر امير على عالم الخلق وهي اللطيفة التي اذا صلحت صلح لها ساير الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه
فقد عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادي روايح المعنى المطوي تحت قوله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى خلق ادم على صورته ونظر
بعين الرحمة الى الحامدين على ظاهر لفظه والى المتعسفين في طرق تاويله وان كانت رحمته على اللفظ اكثر من رحمته للمتعسف
في التاويل لان الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة اولئك اكثر وان اشتركوا في مصيبة الحرمان عن حقيقة الامر فالحقيقة
فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهي حكمة يختص بها من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا ولنعد الى
الغرض فقد ارخينا الطول وطولنا النفس في امر هو اعلى من علوم المعاملة التي نقصدها في هذا الكتاب فقد ظهر ان رتبة
الهلاك ليست الا للجهال المكذبين وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل تحت الحصر فلذلك لم نورده
الرتبة الثانية رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى باصل الايمان ولكن قصر في الوفا
بمقتضاه فان راس الايمان هو التوحيد وهو ان لا يعبد الا الله ومن اتبع هواه فقد اتخذ الهه هواه فهو موحد بلسانه
لا بالحقيقة بل معنى قولك لا اله الا الله قوله تعالى ثم ذرهم وهو ان يذر بالكلية غير الله ومعنى قوله تعالى الذين قالوا ربنا الله ثم
استقاموا ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد الا بالاستقامة عليه ادق من الشعر واحد من السيف مثل
الصراط الموصوف في الاخرة فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في امر يسير اذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل
وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضي لا محالة نقصانا في درجة القرب ومع كل

نقصان نار ان نار الفراق لذلك الكمال للغاية بالنقصان ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون نكالها بل على الصراط
المستقيم معذبا بين صنوف جحيم ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة انما يكون بسببين
احدهما قوة الايمان وضعفه والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته اذ لا يخلو بشر في غالب الامر عن نوع من الاجرام قال
الله وان منكم الا واردها الى قوله جثيا قال الخائفون من السلف انما خوفنا لانا تيقنا انا على النار واردون
وشككنا في النجاة ولما روى الحسن رحمه الله الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد الف عام وانه ينادي يا حنان يا منان
قال الحسن رحمه الله يا ليتني كنت ذلك الرجل واعلم ان في الاخبار ما يدل على ان من يخرج من النار بعد سبعة الاف سنة
وان الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة الاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على الصراط كبرق خاطف ولا يكون له فيه
لبث وبين اللحظة وبين سبعة الاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والاسبوع والشهر وسائر المدد فان الاختلاف بالشدة
لا نهاية لاعلاه وادناه التعذيب بالمناقشة في الحساب كان الملك قد يعذب بعض المقصرين في الاعمال بالمناقشة في الحساب
ثم يعفو وقد يضرب بالسياط وقد يعذب بانواع اخر من العذاب ويتطرق الى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة
وهو اختلاف الانواع اذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب باخذ المال وقتل الولد واستباحة
الحريم وتعذيب الاقارب والضرب وقطع اللسان واليد والانف والاذن وغيرها فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب
الاخرة دل عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف قوة الايمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها
اما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها واما كثرته فبكثرتها واما اختلاف انواعه فباختلاف انواع السيئات
وقد انكشف هذا لارباب القلوب في شواهد القرآن بنور الايمان وهو المعنى بقوله وما ربك بظلام للعبيد وبقوله اليوم
تجزى كل نفس بما كسبت وبقوله وان ليس للانسان الا ما سعى وبقوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال
ذرة شرا يره الى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العذاب والثواب جزاء على الاعمال وكل ذلك بعدل لا ظلم
فيه وجانب العفو والرحمة ارجح اذ قال الله وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
مما اخبر عنه سبقت رحمتي غضبي فهذه الامور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع
الشرع ونور المعرفة **فاما التفصيل فلا يعرف الا ظنا ومستنده ظاهر الاخبار**
ونوع حدس يستمد من انوار الاستبصار بعين الاعتبار **فنقول** كل من احكم اصل الايمان واجتنب جميع
الكباير واحسن جميع الفرائض اعني الاركان الخمسة ولم يكن منه الا صغاير متفرقة لم يصر عليها فيشبه ان يكون عذابه
المناقشة في الحساب فقط فانه اذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته اذ ورد في الاخبار ان الصلوات الخمس والجمعة
وصوم رمضان كفارات لما بينهن وكذلك اجتناب الكباير بحكم نص القرآن تكفير للصغاير واقل درجات التكفير ان يدفع العذاب

وان لم

وان لم يدفع الحساب وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغي ان يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب
في عيشة راضية ثم التحاقه باصحاب اليمين او بالمقربين ونزوله في جنات عدن او في الفردوس الاعلى فذلك يتبع اصناف الايمان لان الايمان
ايمانان **تقليدي** كايمان العوام يصدقون بما يسمعون ويستمرون عليه **وايمان كشفي** يحصل بانشراح الصدر بنور الله
حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح ان الكل الى الله مرجعه ومصيره اذ ليس في الوجود الا الله وصفاته وافعاله
فهذا الصنف هم المقربون النازلون في الفردوس الاعلى وهم على غاية القرب من الملا الاعلى وهم ايضا على اصناف **فمنهم** السابقون
ومنهم دونهم وتفاوتهم بحسب تفاوتهم بمعرفة الله ودرجات العارفين في المعرفة لا تنحصر اذ الاحاطة بكنه جلال الله غير ممكن
وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وانما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم من الله في الازل فالطريق الى
الله لا نهاية لمنازله والسالكون الى سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم واما المؤمن ايمانا تقليديا فهو من اصحاب اليمين ودرجاتهم دون
درجات المقربين وهم ايضا على درجات فالاعلى من درجات اصحاب اليمين تقارب رتبته الادنى من درجات المقربين هذا حال من اجتنب كل الكباير
وادى الفرائض اعني الاركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج فاما من ارتكب
كبيرة او كباير او اهمل بعض اركان الاسلام فان تاب توبة نصوحا قبل قرب الاجل التحق بمن لم يرتكب لان التائب من الذنب كمن لا ذنب
له والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ اصلا فان مات قبل التوبة فهذا امر مخطر عند الموت اذ ربما يكون موته على الاصرار
سببا لتزلزل ايمانه فيختم له بسوء الخاتمة لا سيما اذا كان ايمانه تقليديا فان التقليد وان كان جزما فانه قابل للانحلال بادنى
شك وخيال والعارف البصير ابعد ان يخاف عليه سوء الخاتمة وكلاهما اذا ماتا على الايمان يعذبان الا ان يعفو الله عذابا
يزيد على عذاب المناقشة في الحساب ويكون كثرة المقام من حيث المدة بحسب كثرة الاصرار ومن حيث الشدة بحسب قبح الكباير
ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف اصناف السيئات وعند انقضاء العقاب ينزل البله المقلدون في درجات اصحاب اليمين
والعارفون المستبصرون في اعلى عليين ففي الخبر اخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشر اضعافها ولا يظنن ان المراد
به تضعيفه بالمساحة لاطراف الاجسام بان يقابل فرسخ بفرسخ او عشرة فان هذا جهل بطريق ضرب الامثال بل هو كقول
القائل اخذ منه جملا واعطاه عشرة امثاله وكان الجمل يسوى عشرة دنانير فاعطاه مائة دينار لو وضعت في كفة
الميزان والجمل في الكفة الاخرى لم يكن عشر عشره بل هو موازنة معاني الاجسام وارواحها دون اشخاصها وهياكلها فان
الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته فروح المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة امثاله
بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والابل بل لو اعطاه
جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة درهم وقال اعطيته عشرة امثاله كان صادقا ولكن لا يدرك صدقه الا الجوهري
فان روح الجوهرية لا تدرك بمجرد النظر بل بمعرفة اخرى وراء البصر فلذلك يكذب به الصبي والقروي والبدوي فيقول ما هذه الا

الجوهر الاحمر وزنه مثقال ووزن الجمل الف الف مثقال فقد كذب في قوله اني اعطيته عشره والكاذب
بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل له الى تحقيق ذلك الا بعد الانتهاء الى حد البلوغ والكمال وان يحدث في قلبه النور الذي
به يدرك ارواح الجواهر وساير الاموال فعند ذلك ينكشف له الصدق والعارف عاجز عن تفهيم المغفل القاصر
صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة اذ يقول الجنة في السموات كما ورد في الاخبار والسموات من الدنيا فكيف
يكون عشرة امثال الدنيا في الدنيا وهذا العجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة وكذلك عن تفهيم البدوي وكما
ان الجوهري مرحوم اذا ابتلي بالبدوي والقروي في تفهيم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ارحموا ثلثة عالما بين الجهال وغني
قوم افتقر وعزيز قوم ذل والانبياء مرحومون بين الامة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الامة فتنة لهم وامتحانا
وابتلاء من الله وبلاء موكلا بهم بسبق توكيل القضاء الازلي وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم البلاء موكل بالانبياء ثم الامثل
فالامثل فلا تظنن ان البلاء بلاء ايوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن فان بلاء نوح عليه السلام ايضا من البلاء العظيم اذ بلي بجماعة
كان لا يزيدهم دعاؤه الى الله الا فرارا ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال رحم الله اخي موسى
لقد اوذي باكثر من هذا فصبر كما لا تخلو الانبياء عن الابتلاء بالجاحدين فلا تخلو الاولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ولذلك قلما انفك
الاولياء عن ضروب من الايذاء وانواع البلايا بالاخراج من البلاد والسعاية الى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج
عن الدين واجب ان يكون اهل المعرفة عند اهل الجهل من الكافرين كما يجب ان يكون المعتاض بالابل الكثيرة جوهرة صغيرة
عند الجاهلين من المبذرين المضيعين فاذا عرفت هذه الدقايق فآمن بقوله صلى الله عليه وسلم انه ليعطى اخر من يخرج من
النار مثل الدنيا عشر مرات واياك ان تقتصر تصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حمارا برجليين
لان الحمار يشاركك في الحواس الخمس وانما انت مفارق للحمار بسر الهي عرض على السموات والارض والجبال فابين ان يحملنه
واشفقن منه فادراك ما خرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف الا في عالم ذلك السر الذي به فارق الحمار وساير
البهايم فمن ذهل عن ذلك وعطله واهمله وقنع بدرجة البهايم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي اهلك نفسه بتعطيلها ونسيها
بالاعراض عنها فلا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم فكل من لم يعرف الا المدرك بالحواس فقد نسي الله اذ ليس ذات
الله مدركا في هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسي الله انساه الله لا محالة نفسه ونزل الى رتبة البهايم وترك الترقي الى
افق الملاء الاعلى وخان في الامانة التي اودعه الله تعالى وانعم بها عليه كافرا لنعمته ومتعرضا لنقمته الا انه اسوأ حالا
من البهيمة فان البهيمة تتخلص بالموت واما هذا فعنده امانة سترجع لا محالة الى مودعها فاليه مرجع الامانة ومصيرها
وتلك الامانة كالشمس الزاهرة وانما هبطت الى هذا القالب الفاني وغربت فيه وستطلع هذه الشمس عند خراب القالب
من مغربها وتعود الى باريها وخالقها اما مظلمة منكسفة واما زاهرة مشرقة والزاهرة المشرقة غير المحجوبة عن حضرة

الربوبية

والمظلمة ايضا راجعة الى الحضرة اذ المرجع والمصير للكل اليه الا انها ناكسة رؤوسها عن جهة العلا الى الجهة السافلين ولذلك
قال تعالى ولو ترى اذ المجرمون الاية الا انهم منكوسون محوشون قد انقلبت وجوههم الى اقفيتهم وانتكست رؤوسهم عن
جهة فوق الى جهة اسفل وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه فنعوذ بالله من الضلال والنزول في منازل
الجهال فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشر امثال الدنيا واكثر ولا يخرج من النار الا موحد ولست اعني
بالتوحيد ان تقول بلسانك لا اله الا الله فان اللسان من عالم الملك والشهادة ولا ينفع الا في عالم الملك فيرفع عن رقبته وايدي الغانمين
عن ماله ومدة الرقبة والمال مدة الحياة بحيث لا يبقى نفسه ولا ماله لا ينفع القول باللسان وانما ينفع الصدق في التوحيد
وكمال التوحيد ان لا يرى الامور كلها الا من الله وعلامته ان لا يغضب على احد من الخلق بما يجري عليه من الامور اذ لا يرى الوسايط
وانما يرى مسبب الاسباب كما سيأتي تحقيقه في كتاب التوكل وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ومنهم
من له مثقال خردلة وذرة فمن في قلبه مثقال دينار **فهو اول** من يخرج من النار وفي الخبر يقال اخرجوا من النار من في قلبه
مثقال ذرة من ايمان **وما بين المثقال والذرة على تفاوت درجاتهم يخرجون** بين طبقة المثقال وبين طبقة
الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرناه من الموازنة بين اعيان الاموال وبين النقود واكثر ما يدخل الموحدين
النار مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك **واما** بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير اليها ففي الاثر ان
العبد ليوقف بين يدي الله وله من الحسنات امثال الجبال لو سلمت له لكان من اهل الجنة فيقوم اصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا
واخذ مال هذا وضرب هذا فيقتص من حسناته حتى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة يا ربنا قد فنيت حسناته وبقي طالبون كثير
فيقول القوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا الى النار وكما يهلك هو بسبب غيره بطريق القصاص
ولذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم اذ تنقل اليه عوضا عما ظلم به وقد حكي عن ابن الجلاء ان بعض اخوانه اغتابه ثم ارسل
اليه يستحله فقال لا افعل ان في صحيفتي افضل منها فكيف امحوها وقال هو وغيره ذنوب اخواني من حسناتي اريد ان ازين
بها صحيفتي فهذا ما اردنا ان نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر الاسباب
يضاهي حكم الطبيب على مريض بانه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض اخر بان عارضه خفيف وعلاجه هين فان ذلك ظن
يصيب في اكثر الاحوال ولكن قد يتوب الى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب وقد يأتي الى ذي العارض الخفيف
اجله من حيث لا يطلع عليه وذلك لاسرار الله تعالى الخفية في ارواح الاحياء وغموض الاسباب التي هي مسببات الاسباب بتقدير معلوم
اذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها ولذلك النجاة والفوز في الاخرة لها اسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها
يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي الى النجاة بالعفو والرضا وعما يفضي الى الهلاك بالغضب والانتقام ووراء ذلك
سر المشيئة الازلية التي لا يطلع الخلق عليها فلذلك يجب علينا ان نجوز العفو عن العاصين وان كثرت سيئاته الظاهرة

والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة فإن الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب وهو أغمض من أن يطلع
عليه صاحبه فكيف غيره ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضي العفو والغضب جزاء
على الأعمال والأوصاف وإذا لم يكن جزاء لم يكن عدلا ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد وقوله
إن الله لا يظلم مثقال ذرة وكل ذلك صحيح فليس للإنسان إلا ما سعى وسعيه هو الذي يرى وكل نفس بما كسبت رهينة ولما
زاغوا أزاغ الله قلوبهم ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وهذا
كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الغلط فيه إذ قد يرى البعيد قريبا
والكبير صغيرا ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا
يتصور فيه الكذب وإليه الإشارة بقوله تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى **الرتبة الثالثة رتبة الناجين**
وأعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم
ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم
الدعوة في أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية ولا وسيلة
تقربهم ولا جناية تبعدهم فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين
عبر الشرع عنه بالأعراف وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم بقيام من الآيات والأخبار ومن أنوار الاعتبار فأما الحكم على
التعيين كالحكم مثلا بأن الصبيان منهم فهذا مظنون وليس مستيقن والاطلاع عليه تحقيقا في عالم النبوة ويبعد أن يرتقي
إليه رتبة الأولياء والعلماء والأخبار في حق الصبيان أيضا متعارضة حتى قالت عائشة رضي الله عنها لما مات بعض الصبيان عصفور
من عصافير الجنة فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وقال ما يدريك فإذا الإشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام **الرتبة**
الرابعة الفائزون وهم العارفون دون المقلدين وهم المقربون السابقون فإن المقلد وإن كان
له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقربون وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان والقدر
الممكن ذكره ما فصله القرآن فليس بعد بيان الله بيان والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى
فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وقوله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر
في هذا العالم فأما الحور والقصور والفواكه واللبن والعسل والخمر والحلي والأساور فإنهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها
لم يقنعوا بها ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله الكريم فهي غاية السعادات ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية كيف
رغبتك في الجنة فقالت الجار ثم الدار فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم
ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه فإنه في حال الاستغراق غافل

عن نفسه

عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فني عن نفسه ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره وصارت
همومه هما واحدا وهو محبوبه ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لا نفسه ولا غير نفسه وهذه الحالة هي التي
توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصور أن تخطر صور الألوان والألحان
على قلب الأصم والأكمه إلى أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل
ذلك فالدنيا حجاب على التحقيق ورفعه بكشف الغطاء فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة وإن الدار الآخرة لهي الحيوان
لو كانوا يعلمون فهذا القدر كاف في تنويع الدرجات على الحسنات **بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب**
اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الإصرار والمواظبة ولذلك قيل لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار وكبيرة واحدة
تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء
تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة لم يؤثر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم خير الأعمال أدومها
وإن قل والكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب
إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر فقلما يزني الزاني بغتة من غير
مراودة ومقدمات وقلما يقتل من غير مشاحنة سابقة ومعاداة فكل كبيرة يكتنفها صغائر سابقة ولاحقة ولو تصورت
كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو عنها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره **ومنها** أن يستصغر الذنب
فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله وكلما استصغره كبر عند الله لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب
عنه وكراهيته له وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به واستصغاره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب
والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما
يجري في الغفلة وقد جاء في الخبر المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره
وقال بعضهم الذنب الذي لا يغفر قول العبد ليت كل ما عملته مثل هذا وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله فإذا نظر
إلى عظم من عصى به رأى الصغير كبيرا وقد أوحى الله إلى بعض أنبيائه لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ولا تنظر
إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين لا صغيرة بل كل مخالفة فهي كبيرة وكذلك
قال بعض الصحابة رضي الله عنهم للتابعين رحمهم الله إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله
صلى الله عليه وسلم من الموبقات إذ كانت معرفة الصحابة رضي الله عنهم بجلال الله أتم فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله
كبائر وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف لأن الذنب والمخالفة
تكبر بمعرفة قدر المخالف **ومنها** السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة

فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم اثرها في تسويد قلبه حتى ان من المذنبين من يتمدح
بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته اياه كما يقول اما رايتني كيف مزقت عرضه ويقول المناظر في مناظرته اما
رايتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى خجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ويقول المعامل
في التجارة اما رايت كيف روجت عليه الزيف وكيف خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته فهذا وامثاله تكبر به
الصغائر فان الذنوب مهلكات واذا دفع اليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي ان يكون في مصيبة وتاسف بسبب
غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله فالمريض الذي يفرح بان ينكسر اناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من الم شربه
لا يرجى شفاؤه ومنها ان يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وامهاله اياه ولا يدري انه انما يمهل مقتا ليزداد بالامهال
اثما فيظن ان تمكنه من المعاصي عناية من الله به كما قال تعالى ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها
فبئس المصير ومنها ان ياتي الذنب ويظهره بان يذكره بعد اتيانه او ياتيه في مشهد غيره فان ذلك منه جناية على ستر الله الذي
اسدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن اسمعه ذنبه او اشهده فعله فهما جنايتان انضمتا الى جنايته فتغلظت به وان انضاف
الى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الاسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الامر وفي الخبر كل الناس معافى الا المجاهرين
يبيت احدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه وهذا لان من صفات الله ونعمه انه يظهر الجميل ويستر
القبيح ولا يهتك الستر فالاظهار كفران لهذه النعمة وقال بعضهم لا تذنب فان كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين
ولذلك قال تعالى المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض الاية وقال بعض السلف ما انتهك المرء من اخيه حرمة اعظم من ان يساعده
على معصيته ثم يهونها عليه ومنها ان يكون المذنب عالما يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم
الابريسم وركوبه مراكب الذهب واخذه اموال الشبهة من اموال السلاطين وتردده اليهم ومساعدته اياهم بترك الانكار عليهم
واطلاقه اللسان في الاعراض وتعديه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلم بما لا يقصد منه الا الجاه كعلم الجدل
والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا في العالم اياما متطاولة فطوبى لمن اذا مات
ماتت معه ذنوبه وفي الخبر من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من اوزارهم شيئا وقال تعالى ونكتب
ما قدموا واثارهم والاثار ما يلحق من الاعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس رضي الله عنهما ويل للعالم من الاتباع يزل
زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الافاق وقال بعضهم مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق
اهلها وفي الاسرائيليات ان عالما كان يضل الناس بالبدعة ثم ادركته التوبة فعمل في الاصلاح دهرا فاوحى الله الى نبيهم عليه السلام
قل له ان ذنبك لو كان فيما بينك وبيني لغفرته لك ولكن كيف بمن اضللت من عبادي فادخلتهم النار فبهذا يتضح ان امر العلماء
مخطر فعليهم وظيفتان احديهما ترك الذنب والاخرى اخفاؤه وكما تتضاعف اوزارهم على الذنوب فكذلك تتضاعف ثوابهم

على الحسن

اذا اتبعوا فاذا ترك التجمل والميل الى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع
عليه ويقتدي به العلماء والعوام ويكون له مثل ثوابهم وان مال الى التجمل مالت طباع من دونه الى التشبه به ولا يقدرون
على التجمل الا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان
تتضاعف اثارها اما بالربح واما بالخسران وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها **الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامها الى اخر العمر** قد ذكرنا ان التوبة عبارة عن ندم
يورث عزما وقصدا وذلك الندم اورثه العلم بكون المعاصي حائلا بينه وبين محبوبه ولكل واحد من العلم والندم
والعزم دوام وتمام ولتمامها علامة ولدوامها شرط فلا بد من بيانها اما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسياتي
واما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء
والفكر فمن استشعر عقوبة نازلة بولده او ببعض اعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه واي عزيز اعز عليه من نفسه واي عقوبة اشد
من النار واي شيء ادل على نزول العقوبة من المعاصي واي مخبر اصدق من الله ورسوله ولو حدثه انسان واحد يسمى طبيبا ان مرض
ولده المريض لا يبرأ وانه سيموت منه لطال في الحال حزنه فليس ولده باعز عليه من نفسه ولا الطبيب باعلم ولا اصدق من الله
ورسوله ولا الموت باشد من النار ولا المرض بادل على الموت من المعاصي على سخط الله والتعرض بها للنار فالم الندم
كلما كان اشد كان تكفير الذنوب به ارجى فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي الخبر جالسوا التوابين فانهم ارق افئدة
ومن علامته ان تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة وفي الاسرائيليات
ان الله سبحانه قال لبعض انبيائه عليهم السلام وقد سأله قبول توبة عبد بعد ان اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته
فقال وعزتي لو شفع فيه اهل السموات والارض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب منه في قلبه **فان قلت** فالذنوب
هي اعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها **فاقول** من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض
وطال مرضه والمه وتناثر شعره وفلجت اعضاؤه فاذا قدم اليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة
فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل ام لا **فان قلت** لا فهو جحد للمشاهد بل ربما ينفر عن العسل الذي ليس فيه سم ايضا لشبهه به
فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بان كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة
ولا تصدق الا بمثل هذا الايمان ولما عز مثل هذا الايمان عزت التوبة والتائبون فلا ترى الا معرضا عن الله متهاونا
بالذنوب مصرا عليها فهذا شرط تمام الندم وينبغي ان يدوم الى الموت وينبغي ان يجد هذه المرارة في جميع الذنوب
وان لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم ان فيه مثل ذلك السم ان لم يكن
ضرره من العسل بل مما فيه ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث انه سرقة وزنا بل من حيث انه مخالفة امر الله وذلك جار في كل ذنب

واما القصد الذي ينبعث منه وهو ارادة التدارك فله تعلق بالحال وهو موجب ترك كل محظور هو ملابس له واداء
كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضي وهو تدارك ما فرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام
ترك المعصية الى الموت وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي ان يرد فكره الى اول يوم بلغ فيه بالسن او الاحتلام ويفتش عما
مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا وينظر الى الطاعات ما الذي قصر فيه منها فان كان قد ترك
صلاة او صلاها مع ثوب نجس او صلاها بغير نية صحيحة لجهله بشرط النية فيقضيها عن اخرها فان شك في عدد ما فاته
منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن انه اداه ويقضي الباقي وله ان ياخذ فيه بغالب الظن ويصل
اليه على سبيل التحري والاجتهاد واما الصوم فان كان قد تركه في سفر ولم يقضه او افطر عمدا او نسي النية
بالليل ولم يقض فيتعرف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه واما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد
السنين من اول ملكه لا من زمان البلوغ فان الزكاة واجبة في مال الصبي فيؤدي ما علم بغالب الظن انه في ذمته وان
اداه لا على وجه يوافق مذهبه بان لم يصرف الى الاصناف الثمانية او اخرج البدل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله فيقضي
جميع ذلك فان ذلك لا يجزيه اصلا وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه الى تامل شاف ويلزمه السؤال
عن كيفية الخروج عنه من العلماء واما الحج فان كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والان قد
افلس فعليه الخروج فان لم يقدر مع الافلاس فعليه ان يكتسب من الحلال قدر الزاد فان لم يكن له كسب ولا مال فعليه
ان يسال الناس ليصرف اليه من الزكاة او الصدقات ما يحج به فانه ان مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام من مات ولم يحج
فليمت ان شاء يهوديا وان شاء نصرانيا والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات
وتداركها واما المعاصي فينبغي ان يفتش من اول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه
وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع ايامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها
وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان بينه وبين الله من حيث لا يتعلق بمظالم العباد كنظر الى محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس
مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاهي وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنه
بالندم والتحسر عليها وبان يحسب مقدارها من حيث الكثرة ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية حسنة تناسبها فياتي
من الحسنات بمقدار تلك السيئات اخذا من قوله صلى الله عليه وسلم اتق الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها بل من قوله تعالى
ان الحسنات يذهبن السيئات فيكفر سماع الملاهي بسماع القران وبمجالس الذكر ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف
فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر مس المصحف محدثا باكرام المصحف وكثرة قراءة القران فيه وكثرة العهد به وبان
يكتب مصحفا ويجعله وقفا ويكفر شرب الخمر بالتصدق بكل شراب حلال هو اطيب واحب اليه وعد جميع المعاصي

غير

غير ممكن وانما المقصود سلوك الطريق المضاد فان المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت الى القلب بالمعصية فلا يمحوها الا
نور يرتفع اليها بحسنة تضادها فالبياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة وهو التدريج والتحقق من التلطف
في طريق المحو فالرجاء فيه اصدق والثقة به اكثر من ان يواظب على نوع من العبادات وان كان ذلك ايضا مؤثرا في المحو فهذا
حكم ما بينه وبين الله ويدل على ان الشيء يكفر بضده ان حب الدنيا راس كل خطيئة واثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها
والانس بها والحنين اليها لا جرم كان كل اذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له اذ القلب يتجافى
بالغموم والهموم عن دار الهموم قال صلى الله عليه وسلم من الذنوب ذنوب لا يكفرها الا الهموم وفي لفظ الا الهم بطلب المعيشة
وفي حديث عائشة رضي الله عنها اذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له اعمال تكفرها ادخل الله عليه الغموم فتكون كفارة لذنوبه
ويقال ان الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرفه هو ظلمة الذنوب والهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع
فان قلت هم الانسان غالبا بماله وولده وجاهه خطيئة فكيف يكون كفارة فاعلم ان الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة
ولو تمتع به لتمت الخطيئة به فقد روي ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له كيف تركت الشيخ الكئيب
فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى قال فما له عند الله قال اجر مائة شهيد فاذا الهموم ايضا مكفرات حقوق الله
تعالى فهذا حكم ما بينه وبين الله واما مظالم العباد ففيها ايضا معصية وجناية على حق الله تعالى فان الله تعالى نهى
عن ظلم العباد ايضا فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والاتيان بالحسنات التي
هي اضدادها فيقابل ايذاءه الناس بالاحسان اليهم ويكفر غصب اموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول اعراضهم بالغيبة
والقدح بالثناء على اهل الدين واظهار ما يعرف من خصال الخير من اقرانه وامثاله ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب لان ذلك
احياء اذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده فالاعتاق ايجاد لا يقدر الانسان على اكثر منه فيقابل الاعدام بالايجاد
وبهذا يعرف ان ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل باعتاق رقبة
ثم اذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج من مظالم العباد ومظالم العباد اما في النفوس او الاموال او الاعراض
او القلوب اعني به الايذاء المحض اما في النفوس فان جرى عليه قتل خطا فتوبته بتسليم الدية ووصولها الى المستحق اما منه او من
عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وان كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص فان لم يعرف فيجب عليه ان يعرف عند
ولي المقتول ويحكمه في روحه فان شاء عفا وان شاء قتله ولا تسقط عهدته الا بهذا ولا يجوز له الاخفاء وليس هذا كما لو زنا او شرب
او سرق او قطع الطريق او باشر ما يجب فيه حد الله تعالى فانه لا يلزمه في التوبة ان يفضح نفسه او يهتك ستره ويلتمس من الوالي
استيفاء حق الله بل عليه ان يستتر بستر الله ويقيم حد الله على نفسه بانواع المجاهدة والتعذيب والعفو في محض حقوق الله قريب
من التائبين النادمين فان رفع امره الى الوالي حتى اقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله بدليل

ما روي ان ماعز بن مالك رضي الله عنه اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني قد ظلمت نفسي وزنيت واني اريد ان تطهرني فرده فلما كان من الغد اتاه فقال يا رسول الله اني قد زنيت فرده الثانية فلما كان في الرابعة امر به فحفر له حفيرة ثم امر به فرجم فكان الناس فيه فريقين فقائل يقول لقد هلك لقد احاطت به خطيئته وقائل يقول ما توبة اصدق من توبة ماعز فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد تاب توبة لو قسمت بين امة لوسعتهم وجاءت الغامدية رضي الله عنها فقالت يا رسول الله اني زنيت فطهرني وانه ردها فلما كان من الغد قالت يا رسول الله لم تردني لعلك تردني كما رددت ماعزا فوالله اني لحبلى فقال اما الان فاذهبي حتى تلدي فلما ولدت اتته بالصبي في خرقة فقالت هذا قد ولدته قال اذهبي فارضعيه حتى تفطميه فلما فطمته اتته بالصبي في يده كسرة خبز فقالت هذا يا نبي الله قد فطمته فقد اكل الطعام فدفع الصبي الى رجل من المسلمين ثم امر بها فحفر لها الى صدرها وامر الناس فرجموها فاقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه بحجر فرمى راسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه اياها فقال مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم امر بها فصلى عليها ودفنت واما القصاص وحد القذف فلا بد من تحكيم المستحق فيه فان المتناول مالا تناوله بغصب او جناية او غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف او ستر عيب من المبيع او نقص اجرة اجير او منع اجرته فكل ذلك يجب ان يفتش عنه من حد بلوغه بل من اول مدة وجوده فان ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي اخراجه بعد البلوغ ان كان الولي قد قصر فيه وان لم يفعل كان ظالما مطالبا به اذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من اول يوم حياته الى يوم توبته قبل ان يحاسب في القيمة وليناقش قبل ان يناقش فمن لم يحاسب نفسه طال في الاخرة حسابه فاذا حصل جميع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب اسامي اصحاب المظالم واحدا واحدا وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلهم وليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فانهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل احد منهم ان يفعل ما يقدر عليه فان عجز فلا يبقى له طريق الا ان يكثر من الحسنات حتى تفيض منه يوم القيامة فتؤخذ حسناته بقدر كثرة مظالمه فان لم تف بها حسناته حمل من سيئات ارباب المظالم فيهلك بسيئات غيره فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف وربما يكون الاجل قريبا فينبغي ان يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق اشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الاوقات الثابتة بعد منها اما امواله الحاضرة فليرد الى المالك ما يعرف له مالكا معينا وما لا يعرف له مالكا معينا فعليه ان يتصدق به فاذا اختلط الحلال بالحرام عرف قدر الحرام بالاجتهاد وتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام واما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوءهم او يعيبهم في

الغيبة

الغيبة فليطلب كل من تعرض له بلسانه او اذى قلبه بفعل من افعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات او غاب فقد فات امره فلا يتدارك الا بتكثير الحسنات ليؤخذ منه عوضا في القيمة واما من وجده واحله بطيبة قلب فذلك كفارة وعليه ان يعرفه قدر جنايته وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكفي وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالاستحلال وادخر ذلك في القيمة ذخيرة ياخذها من حسناته او يحمله من سيئاته فان كان في جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته او اهله او نسبته باللسان الى عيب من خفايا عيوبه يعظم اذاه مهما صوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال فليس له الا ان يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغايب واما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنايته وعرفه المجني عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فان هذا حقه فليتلطف به وليسع في مهماته واغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فان الانسان عبد الاحسان وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالاحلال فان ابى الا الاصرار فيكون تلطفه به واعتذاره اليه من جملة حسناته التي يمكن ان يجبر بها في القيمة جنايته وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في ايذائه حتى اذا قاوم احدهما الاخر او زاد عليه اخذ ذلك منه عوضا في القيمة بحكم الله به عليه كمن اتلف في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له من القبول ومن الابرا فان الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء ام ابى فكذلك يحكم في صعيد القيمة احكم الحاكمين واعدل المقسطين وفي المتفق عليه من الصحيحين عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسال عن اعلم اهل الارض فدل على راهب فاتاه فقال انه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة فقال لا فقتله فكمل به مائة ثم سال عن اعلم اهل الارض فدل على رجل عالم فقال انه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق الى ارض كذا وكذا فان بها اناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع الى ارضك فانها ارض سوء فانطلق حتى اذا نصف الطريق اتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه الى الله وقالت ملائكة العذاب انه لم يعمل خيرا قط فاتاهم ملك في صورة ادمي فجعلوه بينهم فقال قيسوا ما بين الارضين فالى ايتهما كان ادنى فهو له فقاسوا فوجدوه ادنى الى الارض التي اراد فقبضته ملائكة الرحمة وفي رواية فكان الى القرية الصالحة اقرب منها بشبر فجعل من اهلها وفي رواية فاوحى الله الى هذه ان تباعدي والى هذه ان تقربي فوجدوه الى هذه اقرب بشبر فغفر له فبهذا تعرف انه لا خلاص الا بترجيح ميزان الحسنات ولو بمثقال فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضي واما العزم المرتبط بالاستقبال فهو ان يعقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد وثيق انه لا يعود الى تلك الذنوب ولا الى امثالها كالذي يعلم في مرضه ان الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزما جزما انه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه فان هذا العزم يتاكد في الحال وان كان يتصور ان تغلبه الشهوة في ثاني الحال وان لا يكون تائبا ما لم يتاكد عزمه في الحال ولا يتصور ان يتم ذلك للتائب في اول امره الا بالعزلة والصمت وقلة الاكل والنوم

واحراز قوت حلال فان كان له مال موروث حلالا او كانت له حرفة يكتسب منها قدر الكفاية فليقتصر عليه فان من
المعاصي اكل الحرام فكيف يكون تائبا مع الاصرار عليه ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك التنعم في
الماكولات والملبوسات قال بعضهم من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه سبع مرات لم يبتل بها وقال اخر من تاب
من ذنب واستقام عليه سبع سنين لم يعد اليه ابدا **ومن مهمات التائب** اذا لم يكن عالما ان يتعلم ما يجب عليه في المستقبل
وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وان لم يوثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة الا ان يتوب عن بعض الذنوب كالذي
يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس ان هذه التوبة لا تصح وقال قائلون
تصح **ولفظ** الصحة في هذا المقام مجمل بل نقول لمن قال لا تصح ان عنيت به ان تركه بعض الذنوب لا يفيد اصلا بل وجوده
كعدمه فما اعظم خطاك فانا نعلم ان كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته ونقول لمن قال تصح ان اردت به
ان التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل الى النجاة او الفوز فهذا ايضا خطا بل النجاة والفوز بترك الجميع
هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم في خفايا اسرار عفو الله فان قال القائل مذهب انه لا يصح اي اردت به ان التوبة عبارة عن
الندم وانما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لا لكونها سرقة ويستحيل ان يندم عليها دون الزنا ان كان توجعه لاجل
المعصية فان العلة شاملة لهما اذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين لان توجعه لفوات محبوبه سوا
كان بالسيف او السكين فكذلك توجع العبد لفوات محبوبه وذلك بالمعصية سوا عصى بالسرقة او الزنا فكيف يتوجع على البعض
دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث انها معصية فلا يتصور ان يكون على بعض المعاصي
دون بعض ولو جاز هذا لجاز ان يتوب من شرب الخمر من احد الدنين دون الاخر فان استحال ذلك من حيث ان المعصية
في الخمرين واحدة وانما الدنان ظروف فكذلك اعيان المعاصي الات بالمعصية والمعصية من حيث مخالفة الامر واحدة فاذا معنى
عدم الصحة انه وعد التائبين مرتبة تلك الرتبة لا تنال الا بالندم ولا يتصور الندم على بعض المتماثلات فهو كالملك
المرتب على الايجاب والقبول فاذا لم يتم الايجاب والقبول يقال ان العقد لم يصح اي لا يترتب عليه الثمرة وهو الملك وتحقيق هذا
ان ثمرة مجرد الترك ان ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمرة الندم تكفير ما سبق فتكفير السرقة لا يكفر الزنا بل الندم عليها
ولا يتصور الندم الا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي وهذا الكلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل يكشف
الغطا **فنقول** التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو اما ان تكون عن الكباير دون الصغاير او عن الصغاير دون الكباير
او عن كبيرة دون كبيرة اما التوبة عن الكباير دون الصغاير فممكن لانه يعلم ان الكباير اعظم عند الله واجلب لسخط الله
ومقته والصغاير اقرب الى تطرق العفو اليها فلا يستحيل ان يتوب عن الاعظم ويتندم عليه كالذي يجني على اهل
الملك وحرمه ويجني على دابته فيكون خايفا من الجناية على الاهل مستحقرا للجناية على الدابة بحسب استعظام الذنب واعتقاده

لكن

كونه مبعدا عن الله وهذا ممكن من وجوه في الشرع فقد كثر التائبون في الاعصار الخالية ولم يكن احد منهم معصوما فلا تستدعي
التوبة العصمة والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا ويحذره السكر تحذيرا اخف منه على وجه يشعره معه انه
ربما لا يظهر ضرر السكر اصلا فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وان اكلهما جميعا بحكم الشهوة
ندم على اكل العسل دون السكر الثاني ان يتوب عن بعض الكباير دون بعض وهذا ايضا ممكن لاعتقاده ان بعض الكباير اشد
واغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه بان ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو
اليه فهذا ايضا ممكن كما في تفاوت الصغاير والكباير لان الكباير ايضا متفاوتة في انفسها وفي اعتقاد مرتكبيها ولذلك قد يتوب
عن الكباير التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا لانه يتضح له ان الخمر مفتاح الشر وانه اذا زال عقله
ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فيترجح الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا في المستقبل وندما على الماضي الثالث
ان يتوب عن صغيرة او صغاير وهو مصر على كبيرة يعلم انها كبيرة كالذي يتوب عن الغيبة او عن النظر الى غير المحرم وما يجري مجراه
وهو مصر على شرب الخمر وهو ايضا ممكن ووجه امكانه انه ما من مومن الا وهو خايف على المعصية نادم على فعله ندما اما ضعيفا واما
قويا ولكن يكون لذة نفسه في تلك المعصية اقوى من الم قلبه من الخوف منها لاسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة واسباب
توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون موليا لتحريك العزم ولا قويا عليه فان سلم عن شهوة اقوى منه بل لم
يعارضه الا ما هو اضعف منه قهر الخوف الشهوة وغلبها واوجب ذلك ترك المعصية وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر
ويكون له ضراوة اما بالغيبة وثلب الناس والنظر الى غير المحرم وخوفه من الله قد بلغ مبلغا قمع هذه الشهوة الضعيفة دون
القوية فيوجب عليه جنبة الخوف انبعاث العزم لتركه بل يقول هذا الفاسق في نفسه ان قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة
في بعض المعاصي فلا ينبغي ان اخلع العذار وارخي العنان بالكلية بل اجاهده في بعض المعاصي فعسى اغلبه فيكون قهري له في البعض كفارة
لبعض ذنوبي ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق ان يصلي ويصوم ويقال له ان كانت صلاتك لغير الله فلا تصح وان
كانت لله فاترك الفسق لله فان امر الله فيه واحد فلا يتصور ان تقصد بصلاتك التقرب الى الله ما لم تتقرب بترك الفسق
وهذا محال بل يقول لله علي امران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان وانا مليء في احدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الاخر فانا اقهره
فيما اقدر وارجو ان المجاهدة فيه ان يكفر عني ما عجزت عنه بفرط الشهوة فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم اذ لا مسلم الا
وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له الا هذا واذا فهم هذا فهم ان غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجوده
والخوف اذا كان فعل ماض اورث الندم والندم يورث العزم وقال النبي صلى الله عليه وسلم الندم توبة ولم يشترط الندم على
كل ذنب وقال عليه السلام التايب من الذنب كمن لا ذنب له ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه المعاني ان التوبة عن بعض
الذنوب غير ممكن لانه مما يتناقض في حق الشهوة وفي حق التعرض لسخط الله نعم يجوز ان يتوب عن الخمر دون النبيذ لتساويهما في اقتضاء
السخط ويتوب عن الكثير دون القليل لان لكثرة المعصية تاثيرا في كثرة العقوبة فيساعد للشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ويترك

بعض شهوته لله كالمريض الذي حذره الطبيب الفاكهة فانه قد يتناول قليلها ولكن لا يتناول كثيرها فقد حصل من هذا انه
لا يمكن ان يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لابد وان يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقي عليه اما في شدة المعصية واما في غلبة
الشهوة واذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حالة الخوف والندم فيتصور اختلاف حاله في الترك فخوفه
على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وان لم يكن قد اطلع في جميع الاوامر والنواهي **فان قلت**
فهل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة **فاقول** لا لان التوبة عبارة عن ندم ينبعث العزم على الترك فيما
يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه اياه ولكني اقول لو طرى عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا
الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع باقية لكان حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها
فاني ارجو ان يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته اذ لا خلاف في انه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيبه كان من التائبين وان لم تطر
عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر اسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار ان ندمه بلغ مبلغا اوجب صرف قصده عن الزنا لو
ظهر قصده فاذا لا يستحيل ان يبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ الا انه لا يعرفه من نفسه فان كل من لا يشتهي شيئا يقدر نفسه
قادرا على تركه بادنى خوف والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه بل الظاهر انه يقبله والحقيقة في هذا
ترجع الى ان ظلمة المعصية تمحى عن القلب بشيئين احدهما حرقة الندم والاخر شدة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة
بزوال الشهوة ولكن ليس محالا ان يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ولولا هذا لقلنا ان التوبة لا تقبل ما لم
يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه اصلا
فان قلت اذا فرضنا تائبين احدهما سكنت نفسه عن النزوع الى الذنب والاخر بقي في نفسه نزوع اليه وهو يجاهدها
ويمنعها فايهما افضل فاعلم ان هذا مما اختلف العلماء فيه فقال احمد بن ابي الحواري واصحاب ابي سليمان الداراني رحمهم الله ان المجاهد
افضل لان له مع التوبة فضل الجهاد وقال علماء البصرة رحمهم الله ذلك الاخر افضل لانه لو فتر في توبته كان اقرب الى السلامة من المجاهد الذي
هو في عرضة الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حظ من الحق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه
ان الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان احديهما ان يكون انقطاع نزوعها اليه بسبب فتور في النفس في الشهوة فقط فالمجاهد
افضل من هذا اذ ترك المجاهدة دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة
الدين واعني بقوة الدين قوة الارادة التي تنبعث باشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة باشارة الشياطين فهاتان قوتان
تدل المجاهدة عليهما قطعا وقول القائل ان هذا اسلم اذ لو فتر لا يعود الى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الافضل فيه
خطأ وهو كقول القائل العنين افضل لانه في امن من خطر الشهوة والصبي افضل من البالغ لانه اسلم والمفلس افضل من الملك
القاهر القامع لاعدائه لان المفلس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وان غلب مرات وهذا كلام جاهل لم ينتفع القلب فاقتصر النظر
على الظاهر غير عالم بان العز في الاخطار وان العلو شرطه اقتحام الاغوار بل هو كقول القائل الصياد الذي ليس له فرس
ولا كلب

ولا كلب افضل في صناعة الاصطياد واعلى رتبة من الذي له الكلب والفرس لانه امن من ان يجمح به فرسه فينكسر اعضاؤه عند
السقوط على الارض وامن من ان يجمح به فرسه او يعضه الكلب بعضة او يتعدى عليه وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب اذا كان قويا
عالما بطريق تاديبهما اعلا رتبة واحرى بدرك سعادة الصيد **الحالة الثانية** ان يكون بطلان النزوع
بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة اذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تادبت بادب الشرع فلا تهيج الا
باشارة الدين فقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا اعلا رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها وقول القائل
لذلك فضل الجهاد قصور عن الاحاطة بمقصود الجهاد فالجهاد ليس مقصود العينه بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى
لا يتحرك الى شهواته وان عجز عن استدراجك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين فاذا قهرته وحصل المقصود فقد ظفرت وما
دمت في المجاهدة فانت بعد في طلب الظفر ومثاله مثال من قهر العدو واسترقه بالاضافة الى من هو مشغول بالجهاد في صف
القتال ولا يدري كيف يسلم ومثاله ايضا مثال من علم كلب الصيد وارض الفرس فهما تائبان عنده بعد ترك الكلب للضراوة والفرس
للجماح بالاضافة الى من هو مشغول بمقاساة التاديب بعد ولقد زل في هذا فريق فظنوا ان الجهاد هو المقصود الاقصى
ولم يعلموا ان ذلك طلب الخلاص من عوائق الطريق وظن اخرون ان قمع الشهوات واماطتها بالكلية مقصود حتى جربه بعضهم
فعجز عنه فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الاباحة واسترسل في اتباع الشهوات وكل ذلك جهل وضلال
وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات **فان قلت** فما قولك في تائبين احدهما نسي الذنب ولم يشتغل
بالتفكر فيه والاخر جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه ايهما افضل فاعلم ان هذا ايضا قد اختلفوا فيه
فقال بعضهم حقيقة التوبة ان تنصب ذنبك بين عينيك وقال الاخر حقيقة التوبة ان تنسى ذنبك وكل واحد من المذهبين عندنا حق
ولكن بالاضافة الى حالين وكلام المتصوفة ابدا يكون قاصرا فان عادة كل واحد ان يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال
غيره فيختلف الاجوبة لاختلاف الاحوال وهذا نقصان بالاضافة الى درجة العلم فان معرفة الاشياء على ما هي عليه افضل واعلى
ولكنه كمال بالاضافة الى الهمة والارادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمه امر غيره اذ
طريقه الى الله تعالى في منازل واحوال وقد يكون طريق العبد الى الله العلم والتعليم فالطرق الى الله كثيرة وان كانت
مختلفة في القرب والبعد والله اعلم بمن هو اهدى سبيلا مع الاشتراك في اصل الهداية **فاقول** تصور الذنب وذكره والتفجع عليه
كمال في حق المبتدي المريد لانه اذا نسيه لم تكثر احتراقه فلا تقوى ارادته وانبعاثه لسلوك الطريق لان ذلك يستخرج منه
الحزن والخوف الوازع عن الرجوع الى مثله فهو بالاضافة الى الغافل كمال ولكنه بالاضافة الى سالك الطريق نقصان
فانه شغل مانع من سلوك الطريق بل لا ينبغي ان يعرج سالك الطريق على غير السلوك فان ظهر له مبادي الوصول وانكشف له
انوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات الى ما سبق من احواله وهو الكمال بل لو عاق عن الطريق
الى الله ذكر البلاد نهر جار طال تعب المسافر في عبوره من حيث انه كان فرح بجبره من قبل لجلس على شاطي النهر بعض عمره

يبكي منا شفقاً على خراب الجسر فهذا ما نعاه إذا اشتغل به بعد الفراغ عن ذلك المانع نعم إن لم يبق الوقت فتأخر الرحيل
إن كان ليلاً فيقعد الطالب وكان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يجرفها فليطل بكاؤه وحزنه على خراب الجسر ليتأكد
بطول الحزن عزمه على أن لا يعود لمثله فيحصل له من التنبيه ما يوثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى من
الاشتغال بذكر خراب الجسر والبكاء عليه وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك وقد أشرنا
إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربع المهلكات بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة لتزيد رغبته
ولكن إن كان شاباً فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ما له نظير في الدنيا كالحور والقصور فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب
العاجلة ولا يرضى بالآجلة بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك ذكر الذنب
قد يكون محركاً للشهوة فالمبتدي أيضاً قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق
ما يحكى لك من بكاء داود عليه السلام ونياحته فإن قياس حالك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم
وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأممهم فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم فعليهم التلبيس بما ينتفع أممهم بمشاهدته وإن كان ذلك
نازلاً عن ذروة مقامهم فقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريد بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنياً عنها لفراغه
عن المجاهدة وتأديب النفس وكيف للأمر على المريد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشرع ولا تتعجب من هذا
فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء وكالمواشي في كنف الرعاة أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي
كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسين رضي الله عنه كخ كخ لما أخذ تمرة من الصدقة فإنه حرام ولكنه إذا علم
أنه لا يفهم منطقه ترك فصاحته ونزل إلى لكنته بل الذي يعلم شاة أو طيراً يصوت به رغاء وصفيراً تشبهاً بالبهيمة والطائر
تلطفاً في تعليمه فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها مزلة أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين **بيان أقسام العباد** [illegible] **في قبول التوبة**
اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات **الطبقة الأولى** أن يتوب العاصي ويستقيم
على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها
في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة فهذه هي الاستقامة في التوبة وصاحبها هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات
واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين
إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً
فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوة فمن
تائب سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صراعها وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس
ولكنه ملي بمجاهدتها وردها ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع وكذلك
يختلفون من حيث طول العمر فمن مختطف يموت قريباً من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ومن ممهل
طال

طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته وحال هذا أفضل وأعلى إذ كل سيئة فإنما يمحوها حسنة
حتى قال بعض العلماء إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي عشر مرات أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه
ويكسر شهوته خوفاً من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف
أن يسلك هذا الطريق في تهييج الشهوة وتحصيل الأسباب حتى يتمكن من موقع الانكفاف فإنه لا يأمن خروج عنان الشهوة عن اختياره
فيقدم على المعصية وينقض توبته بل طريقه الفرار من أسباب المعصية الميسرة لها حتى يسد طرقها على نفسه ويسعى مع ذلك في كسر
شهوته بما يقدر عليه فيسلم توبته في الابتداء **الطبقة الثانية** تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك
الفواحش كلها إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله
من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز
من أسبابها التي تعرضه لها وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة إذ تلوم صاحبها على ما يتعرض له من الأحوال
الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمير رأي وقصد وهذه أيضاً رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهي أغلب أحوال
التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي فقلما ينفك عنه وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات
فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله إذ قال تعالى الذين يجتنبون كبائر الإثم
والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفس عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه
وقد قال تعالى والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم فأثنى عليهم مع ظلمهم أنفسهم لتندمهم
ولومهم أنفسهم عليه وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه علي كرم الله وجهه خياركم كل مفتن تواب وفي خبر
آخر المؤمن كالسنبلة يفيء أحياناً ويميل أحياناً وفي الخبر لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة أي الحين بعد الحين فكل ذلك
أدلة قاطعة أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس
الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار وكالفقيه الذي يؤيس المتفقه
عن درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه بل الفقيه في الدين
هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال صلى الله عليه وسلم كل بني آدم خطاء وخير الخطائين
المستغفرون وقال أيضاً المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه أي واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال تعالى أولئك يؤتون
أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة فما وصفهم بعدم السيئة أصلاً **الطبقة الثالثة** أن يتوب ويستمر على
الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك
مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله
على قمعها وكفاه شرها هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي

في نهج الحق لكنه يتول نفسه ويسوف توبته مرة بعد اخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس التي تسمى النفس المسولة وصاحبها
من الذين قال الله تعالى فيهم واخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا واخر سيئا فامره من حيث مواظبته على الطاعات
وكراهيته لما تعاطاه مرجو فعسى الله ان يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتاخيره فربما يختطف قبل التوبة ويقع
امره في المشية فان تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وان غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى ان
يحق عليه من الخاتمة ما سبق عليه من القول في الازل لانه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على انه
سبق في الازل ان يكون من الجاهلين فيضعف الرجا في حقه واذا يسرت له اسباب المواظبة على التحصيل دل على انه سبق له في الازل
ان يكون من جملة العالمين وكذلك ارتباط نعيم الاخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بتقدير مسبب الاسباب كارتباط
المرض والصحة بتناول الاغذية والادوية وارتباط حصول فقه النفس الذي يستحق به المناصب العلية في الدنيا بترك
الكسل والمواظبة على تفقه النفس فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضا والتقدم بالعلم الا نفس صارت فقيهة بطول التفقه
ولا يصلح لملك الاخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين الا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير هكذا سبق في الازل
بتدبير رب الارباب ولذلك قال تعالى ونفس وما سواها الى قوله دساها فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة
نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل بعمل اهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس انه من اهلها
ولا يبقى بينه وبينها الا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها فاذا الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس فهي
خاتمة اذ يمكن ان يكون الموت متصلا به فليراقب الانفاس والا وقع المحذور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر **الطبقة
الرابعة** ان يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود الى مقارفة الذنب والذنوب من غير ان يحدث نفسه
بالتوبة ومن غير ان يتاسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هي
الامارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة وامره في مشية الله تعالى فان ختم له بالسوء شقي شقاوة لا اخر لها وان ختم
له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل ان يشمله عموم العفو بسبب خفي لا يطلع عليه
كما لا يستحيل ان يدخل الانسان خرابا ليجد كنزا فيتفق ان يجده ولا ان يجلس في البيت ليحصل له علما بالعلوم من غير تعلم كما كان الانبيا
صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالتعلم والجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها
بمجرد الرجا مع خراب الاعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة وليس من اجتهد تعلم وليس من اتجر استغنى
وليس من صام وصلى غفر له فالناس كلهم محرومون الا العاملين والعاملون كلهم محرومون الا المخلصين والمخلصون كلهم على خطر
عظيم وكما ان من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم انه ينتظر فضل الله بان يرزقه كنزا يجده تحت
الارض في بيته الخرب يعد عند ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين وان كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله
فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله وهو مقصر في الذنوب غير سالك سبيل المغفرة معدود عند ارباب القلوب من المعتوهين

والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته في صيغة حسنة اذ يقول ان الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي
ليست تضره ثم تراه يركب البحار ويقتحم الاوعار في طلب الدينار واذا قيل له ان الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن
فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب فيستحمق قائل هذا ويستهزئ به
ويقول ما هذا الهوس السما لا تمطر ذهبا ولا فضة وانما ينال ذلك بالكسب هكذا قدره رب الارباب واجرى به سنته ولا تبديل
لسنة الله ولا يعلم المغرور ان رب الاخرة ورب الدنيا واحد وان سنته لا تبديل لها فيهما جميعا وانه قد اخبر اذ قال وان ليس
للانسان الا ما سعى فكيف يعتقد انه كريم في الاخرة وليس بكريم في الدنيا وكيف يقول ان مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه
الفتور عن الملك المقيم والنعيم وان ذلك بحكم الكرم ويعطيه من غير جهد وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الامر فنعوذ بالله
من العمى والضلال فما هذا الا انتكاس على ام الراس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحبه جدير بان يكون داخلا تحت قوله تعالى ولو ترى
اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ارجعنا نعمل صالحا اي علمنا انك صدقت اذ قلت ان ليس للانسان الا ما سعى فارجعنا
نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب وحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب الباعث بالضرورة
الى سوء المنقلب والماب **بيان ما ينبغي ان يكر الاتفاق** اعلم ان الواجب عليه التوبة والندم بالتكفير بحسنة تضاده
كما ذكرنا طريقه فان لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن احد الواجبين فلا ينبغي ان يترك
الواجب الثاني وهو ان يدرا السيئة بالحسنة ليمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا واخر سيئا فالحسنات المكفرة للسيئات اما بالقلب واما
باللسان واما بالجوارح ولتكن الحسنة في محل السيئة وما يتعلق باسبابها فاما بالقلب فليكفره بالتضرع الى الله في سؤال المغفرة
والعفو ويتذلل تذلل العبد الابق ويكون ذلك بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد الابق المذنب
وجه التكبر على العباد وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات واما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار
فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفر لي ذنوبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما اوردناه في كتاب الدعوات
والاذكار واما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وانواع العبادات وفي الاثار ما يدل على ان الذنب اذا اتبع بثمانية
اعمال كان العفو عنه مرجوا **اربعة** من اعمال القلوب وهي التوبة او العزم على التوبة وحب الاقلاع عن الذنب وخوف العقاب عليه
ورجا المغفرة له **واربعة** من اعمال الجوارح وهو ان تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم
وبحمده مائة مرة ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم يوما وفي بعض الاثار تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين وفي بعض الاخبار
تصلي اربع ركعات وفي الخبر اذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية ولذلك قيل صدقة السر
تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار وفي الخبر الصحيح ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني عالجت امراة فاصبت
منها كل شي الا المسيس فاقض علي بحكم الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم او ما صليت معنا صلاة الغداة فقال بلى فقال ان الحسنات
يذهبن السيئات وهذا يدل على ان ما دون الزنا من معالجة النسا صغيرة اذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم

الصلوات كفارة لما بينهن الا الكبائر فعلى الاحوال كلها ينبغي ان يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد في دفعها بالحسنات
فان قلت فكيف يكون الاستغفار من غير حل عقدة الاصرار وفي الخبر المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله
وكان بعضهم يقول استغفر الله من قولي استغفر الله وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين وقالت رابعة العدوية استغفارنا
يحتاج الى استغفار كثير فاعلم ان ما ورد في فضل الاستغفار اخبار خارجة عن الحصر ذكرناها في كتاب الاذكار والدعوات
حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول فقال تعالى وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم الآية فكان بعض الصحابة رضي الله عنه يقول كان
لنا امانان ذهب احدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار فان ذهب هلكنا فنقول الاستغفار هو توبة الكذابين
هو الاستغفار باللسان من غير ان يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن راس الغفلة استغفر الله وكما يقول
اذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير ان يتأثر به قلبه وهذا يرجع الى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فاما اذا انضاف
اليه تضرع القلب الى الله وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق ارادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح لان
تدفع بها السيئة وعلى هذا تحمل الاخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم ما اصر من استغفر ولو عاد في اليوم
وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب والتوبة والاستغفار درجات واوائلها لا تخلو عن الفائدة وان لم ينته الى اواخرها
ولذلك قال سهل رحمه الله لابد للعبد في كل حال من مولاه فاحسن احواله ان يرجع اليه في كل شيء فان عصى قال يا رب استر
علي واذا فرغ من المعصية قال يا رب تب علي فاذا تاب قال يا رب ارزقني العصمة واذا عمل قال يا رب تقبل مني وسئل رحمه الله ايضا
عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال اول الاستغفار الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة فالاستجابة اعمال الجوارح والانابة
اعمال القلوب والتوبة اقباله على مولاه بان يترك الخلق ثم يستغفر من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند
ذلك يغفر له ويكون عنده ماواه ثم التنقل الى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم القرب ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة
ثم محادثة السر وهو الخلة ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه
ثم ينظر الله اليه فيرفعه الى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش وسئل ايضا رحمه الله عن قوله صلى الله عليه وسلم التائب
حبيب الله فقال انما يكون حبيبا اذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى التائبون العابدون الحامدون الآية وقال
الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه والمقصود ان للتوبة ثمرتين احداهما تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب
والثاني نيل الدرجات حتى يصير حبيبا وللتكفير ايضا درجات فبعضه محو لاصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت
ذلك بتفاوت درجات التوبة فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وان خلا عن حل عقدة الاصرار من اوائل الدرجات فليس
يخلو عن الفائدة اصلا فلا ينبغي ان تظن ان وجودها كعدمها بل عرف اهل المشاهدة وارباب القلوب معرفة لا ريب فيها
ان قول الله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره صدق وانه لا تخلو ذرة من الخير عن اثر كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان
عن اثر ولو خلت الشعيرة الاولى عن اثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجح الميزان باحمال الذرة وذلك بالضرورة محال بل
ميزان

ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير الى ان يثقل فتشيل كفة السيئات فاياك ان تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها او ذرات المعاصي
فلا تتقيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بانها لا تقدر في كل ساعة الا على خيط واحد وتقول اي غنى يحصل
بخيط وما وقع ذلك في الثياب وما تدري المعتوهة ان ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وان اجسام العالم مع اتساع
اقطارها اجتمعت ذرة ذرة فاذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله اصلا بل اقول الاستغفار
باللسان ايضا حسنة اذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم او فضول كلام بل هو خير
من السكوت عنه فيظهر فضله بالاضافة الى السكوت عنه وانما يكون نقصا بالاضافة الى السكوت عنه وانما يكون نقصا
بالاضافة الى عمل القلب فلذلك قال بعضهم لشيخه ابي عثمان المغربي رحمه الله ان لساني في بعض الاحوال يجري بالذكر والقرآن
وقلبي غافل فقال اشكر الله الذي استعمل جارحة من جوارحك في خير وعوده الخير الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعوده
الفضول وما ذكره حق فان تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي فمن تعود لسانه
الاستغفار اذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه الى ما تعود فقال استغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه الى ان
يقول ما احمقك وما اقبح كذبك ومن تعود الاستعاذة اذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير قال
بحكم سبق اللسان نعوذ بالله واذا تعود الفضول قال لعنه الله فيعصي في احدى الكلمتين ويسلم في الاخرى وسلامته
اثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى ان الله لا يضيع اجر المحسنين ومعاني قوله تعالى وان تك حسنة
يضاعفها فانظر كيف ضاعفها اذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان
بالغيبة واللعن والفضول هذا تضعيف في الدنيا لادنى الطاعات وتضعيف الآخرة اكثر لو كانوا يعلمون فاياك
ان تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك في العبادات فان هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين وخيل اليهم
انهم ارباب البصائر واهل الفطنة للخفايا والسرائر فاي خير في ذكر اللسان مع غفلة القلب فانقسم الخلق في هذه المكيدة الى
ثلاثة اقسام ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات اما السابق فقال صدقت يا ملعون ولكن هي كلمة حق
اريد بها باطل فلا جرم اعذبك مرتين وارغم انفك من وجهين فاضيف الى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذي
داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه واما الظالم المغرور فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز
عن الاخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فاسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاكلة
والموافقة كما قيل وافق شن طبقه وافقه فاعتنقه واما المقتصد فلم يقدر على ارغامه باشراك القلب في العمل
وتفطن لنقصان حركة اللسان بالاضافة الى القلب ولكن اهتدى الى كماله بالاضافة الى السكوت والفضول فاستمر عليه
وسأل الله تعالى ان يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير فكان السابق كالحائك الذي ذمت حياكته فتركها
واصبح كاتبا والظالم المتخلف كالذي ترك الحياكة واصبح كناسا والمقتصد كالذي عجز عن الكتابة فقال لا انكر مذمة الحياكة

ولكن الجاهل مذموم بالاضافة الى الكاتب لا بالاضافة الى الكاتب فان عجز عن الكتابة فلا ترك الحياكة ولما قالت رابعة العدوية ان
استغفارنا يحتاج الى استغفار فلا تظن انها تذم حركة اللسان من حيث انه ذكر بل تذم غفلة القلب فهو يحتاج الى الاستغفار
من غفلته لا من حركة لسانه فان سكت عن الاستغفار باللسان ايضا احتاج الى الاستغفارين لا الى استغفار واحد فهكذا ينبغي
ان يفهم ذم ما ذم وحمد ما حمد والا جهلت معنى ما قال القائل الصادق حسنات الابرار سيئات المقربين فان هذه امور تثبت بالاضافة الابرار
فلا ينبغي ان يوجد منه غرض اضافة بل لا ينبغي ان يستحقر ذرة من الطاعات والمعاصي ولذلك قال جعفر الصادق رحمه الله عليه ان الله تعالى
خبا ثلثا في ثلث رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيا فلعل رضاه فيه وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيا فلعل غضبه فيه
وخبا ولايته في عباده فلا تحقروا منهم احدا فلعله ولي الله **الركن الرابع في دوا التوبة وطريق العلاج**
لحل عقدة الاصرار اعلم ان الناس قسمان شاب لا صبوة له نشا على الخير واجتناب الشر وهو الذي قال فيه رسول الله
صلى الله عليه وسلم يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة وهذا عزيز نادر والقسم الثاني هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب
ثم هم ينقسمون الى مصرين والى تائبين وغرضنا ان نبين العلاج في حل عقدة الاصرار ونذكر الدوا فيه فاعلم ان شفا
التوبة لا يحصل الا بالدوا ولا يقف على الدوا الا من عرف الدا اذ لا معنى للدوا الا مناقضة اسباب الدا فكل دا حصل من سبب فدواه حل ذلك السبب
ورفعه وابطاله ولا يبطل الشي الا بضده ولا سبب للاصرار الا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة الا العلم ولا يضاد الشهوة
الا الصبر على قطع الاسباب المحركة للشهوة والغفلة راس الخطايا قال الله تعالى اوليك هم الغافلون لا جرم انهم في الاخرة
هم الخاسرون فلا دوا للتوبة الا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة
الخل ويقصد بكل واحد منهما غرض اخر في العلاج بمجموعهما تقمع الاسباب المهيجة للصفرا فكذا ينبغي ان يفهم علاج القلب
عما به من مرض الاصرار فاذن لهذا الدوا اصلان احدهما العلم والاخر الصبر فلا بد من بيانهما **فان قلت** اينفع كل علم
لحل الاصرار ام لا بد من علم مخصوص فاعلم ان كل العلوم بجملتها ادوية لامراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه كما ان علم
الطب نافع في علاج الامراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دا الاصرار فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض
الابدان ليكون اقرب الى الفهم **فنقول** يحتاج المريض الى ان يصدق بامور **الاول** ان يصدق على الجملة بان للمرض
والصحة اسبابا يتوصل اليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الاسباب وهذا هو الايمان باصل الطب فان من لا يومن به لا يشتغل بالعلاج
ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه الايمان باصل الشرع وهو ان للسعادة في الاخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا
وهو المعصية وهو الايمان باصل الشرايع وهذا لا بد من حصوله اما عن تحقيق او تقليد وكلاهما من جملة الايمان **الثاني** انه
لا بد ان يعتقد المريض في طبيب معين انه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب فان ايمانه باصل الطب
لا ينفعه بمجرده دون هذا الايمان ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان بان كل ما يقوله حق وصدق
لا كذب فيه ولا خلف **الثالث** انه لا بد وان يصغى الى الطبيب فيما يحذره منه من تناول الفواكه واسباب المضرة على الجملة حتى

يغلب

غلب عليه الخوف في ترك الاحتما فيكون شدة الخوف باعثا له على الاحتما ووزانه من الدين الاصغا الى الايات والاخبار
المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلقى اليه سمعه من ذلك من غير
شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوي على الصبر الذي هو الركن الاخر في العلاج **الرابع** ان يصغى الى الطبيب فيما يخص
مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتما عنه ليعرفه اولا تفصيل ما يضره من افعاله واحواله ومأكوله ومشروبه فليس على كل مريض الاحتما
عن كل شي ولا ينفعه كل دوا بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص ووزانه من الدين ان كل عبد فليس يبتلي بكل شهوة وارتكاب
كل ذنب بل لكل مومن ذنب مخصوص او ذنوب مخصوصة وانما حاجته في الحال مرهقة الى العلم بانها ذنوب ثم الى العلم بافاتها
وقدر ضررها في الدين ثم الى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها فهذه علوم يختص بها اطبا الدين وهم العلما ورثة الانبيا فالعاصي
ان علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وان كان لا يدري ان ما يرتكبه ذنب فعلى العالم ان يعرفه ذلك بان يتكفل
كل عالم باقليم او بلدة او محلة او مسجد او مشهد فيعلم اهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ولا
ينبغي ان يصبر الى ان يسال عنه بل ينبغي ان يتصدى لدعوة الناس الى نفسه فانهم ورثة الانبيا والانبيا ما تركوا الناس على
جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على ابواب دورهم في الابتدا ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان مرضى
القلوب لا يعرفون مرضهم كما ان الذي ظهر على وجهه برص ولا مراة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلما
كافة وعلى السلاطين كافة ان يرتبوا في كل موضع قرية وفي كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم فان الخلق لا يولدون الا جهالا
ولا بد من تبليغ الدعوة اليهم في الاصل والفرع فالدنيا دار مرضى اذ ليس في بطن الارض الا ميت ولا على ظهرها الا سقيم ومرضى القلوب
اكثر من مرضى الابدان والعلما اطبا والسلاطين قوام دار المرضى فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم الى السلطان ليكف
شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي والذي غلب عليه الجنون الى القيم ليقيده بالسلاسل والاغلال ويكف شره عن سائر الناس وانما صار
مرض القلوب اكثر من مرض الابدان لثلث علل احدها ان المريض به لا يدري انه مريض والثاني ان عاقبته غير مشاهدة في هذا
العالم بخلاف مرض البدن فان عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه وما بعد الموت غير مشاهد فقلت النفرة عن الذنوب
وان علمها مرتكبها فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال والثالث وهو الدا
العضال فقد الطبيب فان الاطبا هم العلما وقد مرضوا في هذه الاعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه وصارت لهم سلوة
في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا الى اغوا الخلق والاشارة عليهم بما يزيدهم مرضا لان الدا المهلك هو حب الدنيا
وقد غلب هذا الدا على الاطبا فلم يقدروا على تحذير الخلق منها استنكافا من ان يقال لهم فما بالكم تامرون بالعلاج وتنسون انفسكم
فبهذا السبب عم الدا وعظم الوبا وانقطع الدوا وهلك الخلق لفقد الاطبا بل اشتغل الاطبا بفنون الاغوا فليتهم اذ لم ينصحوا
لم يغشوا وليتهم سكتوا وما نطقوا فانهم اذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم الا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصلون
الى ذلك الا بالارجا وتغليب اسباب الرجا وذكر دلايل الرحمة لان ذلك الذ في السماع واخف على الطباع لينصرف الخلق عن

مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله ومهما كان الطبيب جاهلا او خائنا اهلك
بالدواء حيث يضعه في غير موضعه فالرجاء والخوف دواءان لشخصين متضادي العلة اما الذي غلب عليه الخوف
حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا يطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فيكسر سورة اسرافه في الخوف بذكر
اسباب الرجاء ليعود الى الاعتدال وكذا المصر على الذنوب المشتهي للتوبة الممتنع منها بحكم القنوط واليأس استعظاما للذنوب
التي سبقت فيعالج ايضا باسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب فاما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر اسباب الرجاء فيضاهي
معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال والاغبياء فاذا فساد الاطباء هو المعضلة الكبرى التي لا تقبل الدواء
اصلا **فان قلت** فاذكر الطريق الذي ينبغي ان يسلكه الواعظ في وعظه مع الخلق فاعلم ان ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه
نعم نشير الى الانواع النافعة في حل عقدة الاصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي اربعة انواع **النوع الاول**
ان يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين وكذلك ما ورد من الاخبار والآثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم
ما من يوم يطلع فجره ولا ليلة يغيب شفقها الا وملكان يتجاوبان باربعة اصوات يقول احدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ويقول
الآخر يا ليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ويقول الآخر ويا ليتهم اذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا وفي بعض الروايات
تجالسوا فتذاكروا ما علموا ويقول الآخر ويا ليتهم اذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا وقال بعض السلف اذا اذنب العبد امر
صاحب اليمين صاحب الشمال وهو امير عليه ان يرفع القلم عنه ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبها عليه وان لم يستغفر كتبها
وقال بعض السلف ما من عبد يعصي الا استأذن مكانه من الارض ان يخسف به واستأذن سقفه من السماء ان يسقط عليه كسفا
فيقول الله تعالى للسماء والارض كفا عن عبدي وامهلاه فانكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه لعله يتوب الي فاغفر له لعله
يستبدل صالحا فابدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا الآية وفي حديث عمر بن الخطاب
رضي الله عنه الطابع معلق بقائمة العرش فاذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم ارسل الطابع فطبع على القلوب بما فيها وفي
حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة كلما اذنب ذنبا انقبضت اصبع حتى تنقبض الاصابع كلها فيسد على القلب
وذلك هو القفل وقال الحسن ان بين العبد وبين الله حدا في المعاصي معلوما اذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعد
لخير والاخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى فينبغي ان يستكثر الواعظ منها ان كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم
فانه ما خلف دينارا ولا درهما انما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما اصابه **النوع الثاني** حكايات الانبياء
والسلف وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل احوال آدم صلى الله عليه
في عصيانه وما لقيه من الاخراج من الجنة حتى روي انه لما اكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته فاستحيى
التاج والاكليل من وجهه ان يرتفعا عنه فجاء جبريل فاخذ التاج عن رأسه وحل الاكليل عن جبينه ونودي من فوق العرش
اهبطا من جواري فانه لا يجاورني من عصاني قال فالتفت آدم الى حواء باكيا وقال هذا اول شؤم المعصية اخرجنا

من جوار

من جوار الحبيب وروي ان سليمان عليه السلام لما عوقب على خطيئته لاجل التمثال الذي عبد في داره اربعين يوما وقيل لان المرأة سألته ان يحكم
لابيها فقال نعم ولم يفعل وقيل بل احب بقلبه ان يكون الحكم لابيها على خصمه لمكانها فسلب ملكه اربعين يوما فهرب تائها على وجهه وكان
يسأل بكفه ولا يطعم فاذا قال اطعموني فاني سليمان بن داود شج وضرب وروي انه استطعم من بيت امرأة فطردته وبزقت
في وجهه وفي رواية اخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه الى ان اخرج له الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء
الاربعين ايام العقوبة قال فجاءت الطيور فعكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله واعتذر اليه بعض من كان
جنى عليه فقال لا الومكم فيما فعلتم من قبل ولا احمدكم في عذركم الآن ان هذا امر كان من السماء ولا بد منه وروي في الاسرائيليات ان
رجلا تزوج امرأة من بلدة اخرى فارسل عبده ليحملها اليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم فنبأه الله تعالى
ببركة تقواه فكان نبيا في بني اسرائيل وفي قصص موسى عليه السلام انه قال للخضر عليه السلام بم اطلعك الله على علم الغيب قال بتركي المعاصي
لاجل الله وروي ان الريح كانت تسير بسليمان فنظر الى قميصه نظرة وكان قميصا جديدا فكأنه اعجبه قال فوضعته الريح فقال
لم فعلت ولم آمرك فقالت انما نطيعك اذا اطعت الله وروي ان الله تعالى اوحى الى يعقوب عليه السلام اتدري لم فرقت بينك
وبين ولدك يوسف قال لا قال لقولك لاخوته اني اخاف ان يأكله الذئب لم خفت عليه الذئب ولم ترجني ولم نظرت الى غفلة اخوته
ولم تنظر الى حفظي له ولذلك لما قال يوسف اذكرني عند ربك قال فانساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين
وامثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والاخبار ايراد الاسمار بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ليعلم ان الانبياء
لم يتجاوز عن عيوبهم وكانت سعادتهم في ان عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا الى الآخرة والاشقياء يمهلون ليزدادوا
اثما ولان عذاب الآخرة اشد واكبر فهذا ايضا مما ينبغي ان يكثر جنسه على اسماع المصرين فانه نافع في تحريك دواعي التوبة
النوع الثالث ان يقرر عندهم ان تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنب وان كل ما يصيب العبد من المصائب فهو
بسبب جناياته فرب عبد يتساهل في امر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا اكثر لفرط جهله فينبغي ان يخوف بها فان
الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الامر كما حكي في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى قد يضيق على العبد رزقه بسبب
ذنوبه وقد تسقط منزلته عن القلوب ويستولي عليه اعداؤه قال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه
وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه ابدا وقال بعض السلف ليست اللعنة سوادا في الوجه
ونقصانا في المال انما اللعنة ان لا تخرج من ذنب الا وقعت في مثله او شر منه وهو كما قال لان اللعنة هي الطرد والابعاد فاذا
لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد ابعد والحرمان عن رزق التوفيق اعظم حرمان وكل ذنب فانه يدعو الى ذنب آخر
ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع في مجالسة العلماء المنكرين للذنوب وعن مجالسة الصالحين بل يمقته الصالحون
وحكي عن بعض العارفين انه كان يمشي في الوحل جامعا ثيابه محترزا حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشي في وسط الوحل
ويبكي ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين فعنده يخوض في الذنوب خوضا

وهو اشارة تعجل عقوبته بالاغترار الذي ينا خوه ولذلك قال الفضيل رحمه الله ما انكرت من تغير الزمان وجفا الاخوان
فذنوبك ورثتك ذلك قال بعضهم اني لاعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري وقال اخر اعرف العقوبة حتى في
فار بيتي وقال بعض صوفية الشام نظرت الى غلام حسن الوجه فوقفت انظر اليه فمر بي ابن الجلا الدمشقي رحمه الله فاخذ
بيدي فاستحييت منه فقلت يا ابا عبد الله سبحان الله تعجب من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار
فغمز يدي وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فعوقبت بعد ثلاثين سنة وقال ابو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة
وقال لا يفوت احد صلاة جماعة الا بذنب يذنبه وفي الخبر ما انكرتم من زمانكم فبما غيرتم من اعمالكم وفي خبر
يقول الله تعالى ان ادنى ما اصنع بالعبد اذا اثر شهوته على طاعتي ان احرمه لذيذ مناجاتي وحكي ان ابا عمرو بن علوان
في قصة يطول ذكرها قال فيها كنت قائما اصلي ذات يوم فخامر قلبي هوى طاولته بفكري حتى تولد منه شهوة الرجال
فوقعت الى الارض فاسود وجهي وجسدي كله واستترت في البيت فلم اخرج ثلاثة ايام وكنت اعالج غسله في الحمام بالصابون
فلا يزداد الا سوادا حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيد وكان قد وجه الي فاشخصني من الرقة فلما اتيته قال لي اما استحييت من الله
كنت قائما بين يديه فسامرت نفسك بشهوة حتى استولت عليك فاخرجتك من بين يدي الله فلولا اني دعوت الله لك وتبت
اليه عنك للقيت الله بذلك اللون قال فتعجبت كيف علم ذلك وهو ببغداد وانا بالرقة واعلم انه لا يذنب العبد ذنبا
الا اسود وجه قلبه فان كان سعيدا اظهر السواد على ظاهره لينزجر وان كان شقيا اخفي عنه حتى ينهمك ويستوجب النار
فالاخبار كثيرة في افات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شوم الذنب في الدنيا على الجملة ان تكتسب ما بعده صفته
فان ابتلي بشي كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاوه وان اصابته نعمة كانت استدراجا له ويحرم جميل
الشكر حتى يعاقب على كفرانه واما المطيع فمن بركة طاعته ان تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل
بلاء كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته **النوع الرابع** ذكر ما ورد من العقوبات على احاد الذنوب كالخمر والزنا
والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد وذلك مما لا يمكن حصره وذكره مع غير اهله وضع للدوا في غير موضعه بل ينبغي
ان يكون العالم كالطبيب الحاذق يستدل اولا بالنبض والسحنة ووجوه الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها وليستدل
بقراين الاحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه فنقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد اوصني ولا تكثر علي
فقال لا تغضب وقال له اخر اوصني فقال عليك بالياس مما في ايدي الناس فان ذلك هو الغنى واياك والطمع فانه الفقر الحاضر
وصل صلاة مودع واياك وما تعتذر منه وقال رجل لمحمد بن واسع اوصني فقال اوصيك ان تكون ملكا في الدنيا والاخرة
قال وكيف لي بذلك فقال الزم الزهد في الدنيا فكانه صلى الله عليه وسلم توسم في السايل الاول مخايل الغضب فنهاه عنه وفي
السايل الثاني مخايل الطمع في الناس وطول الامل وتخيل محمد بن واسع رحمه الله في السايل مخايل الحرص على الدنيا وقال رجل
لمعاذ رضي الله عنه اوصني فقال كن رحيما اكن لك بالجنة زعيما فكانه تفرس فيه اثار الفظاظة والغلظة وقال رجل لابرهيم

ابن ادهم

ابن ادهم اوصني فقال اياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فان الناس هم الناس وليس كل الناس
بالناس ذهب الناس وبقي النسناس وما اراهم بالناس بل غموا في ماء الناس وكانه تفرس فيه آفة المخالطة فاجابه بما هو
الغالب على حاله في وقته وكان الغالب اذاه بالناس والكلام على قدر حال السايل اهم من ان يكون بحسب حال القايل وكتب
معاوية الى عايشة رضي الله عنها ان اكتبي لي كتابا توصيني فيه ولا تكثري فكتبت اليه من عايشة الى معاوية سلام عليك
اما بعد فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس ومن التمس رضا الله بسخط
الناس كفاه الله مونة الناس والسلام عليك فانظر الى فقهها رضي الله عنها كيف تعرضت للافة التي تكون الولاة بصددها
وهو مراعاة الناس وطلب مرضاتهم وكتبت مرة اخرى اما بعد فاتق الله فانك ان اتقيت الله كفاك الناس وان اتقيت
الناس لم يغنوا عنك من الله شيا والسلام عليك فاذا على كل ناصح ان تكون عنايته مصروفة الى تعرف الصفات الخفية وتوسم
الاحوال اللايقة ليكون اشتغاله بالمهم فان حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل احد غير ممكن والاشتغال بوعظه بما
هو مستغن عن الوعظ فيه تضييع زمان **فان قلت** فان كان الواعظ يتكلم في جمع او سالني من لا يدري باطن حاله انه يعظه فكيف يفعل
فاعلم ان طريقه في ذلك ان يعظ بما يشترك كافة الخلق في الحاجة اليه اما على العموم واما على الاكثر فان في علوم الشرع اغذية
وادوية فالاغذية للكافة والادوية لارباب العلل ومثاله ما روي ان رجلا قال لابي سعيد الخدري رحمه الله اوصني فقال عليك
بتقوى الله فانه راس كل خير وعليك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام وعليك بالقران فانه نور لك في اهل الارض وذكر لك في
اهل السما وعليك بالصمت الا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان وقال رجل للحسن اوصني فقال اعز امر الله يعزك الله وقال لقمان لابنه
يا بني زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك وخذ من الدنيا بلاغك وانفق فضول كسبك لاخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض
فتكون عيالا وعلى اعناق الرجال كلا وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة افضل من الصوم ولا
تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين وقال ايضا لابنه يا بني لا تضحك من غير عجب ولا تمش في غير ارب ولا تسال عما لا يعنيك ولا تضيع
مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت يا بني من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر ياثم
ومن لا يملك لسانه يندم وقال رجل لابي حازم اوصني فقال كل ما لو جاءك الموت عليه رايته غنيمة فالزمه وكل ما لو جاءك
الموت عليه فرايته مصيبة فاجتنبه وقال موسى عليه السلام للخضر عليه السلام اوصني فقال كن بساما ولا تكن غضابا وكن نفاعا ولا تكن ضرارا
وانزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطايين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران وقال رجل لمحمد
ابن كرام اوصني فقال اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل لحامد اللفاف اوصني فقال اجعل لدينك غلافا
كغلاف المصحف ان لا تدنسه الآفات قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا الا ما لا بد منه وكتب الحسن الى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله
اما بعد فخف ما خوفك الله واحذر ما حذرك الله وخذ مما في يديك لما بين يديك فعند الموت ياتيك الخبر اليقين والسلام
وكتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن رحمهما الله يساله ان يعظه فكتب اليه اما بعد فان الهول الاعظم والامور المفظعات امامك ولا بد لك

من شاهد ذلك اما بالنجاة واما بالعطب واعلم ان من جانب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب نجا ومن اطاع
هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف امن ومن امن اعتبر ومن اعتبر ابصر ومن ابصر فهم ومن فهم علم فاذا زللت فارجع واذا ندمت
فاقلع واذا جهلت فاسأل واذا غضبت فامسك وكتب مطرف بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله اما بعد فان
الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يغتر من لا علم عنده فكن فيها يا امير المومنين كالمداوي جرحه يصبر على شدة
الدوا لما يخاف من عاقبة الدا وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن ارطاة اما بعد فان الدنيا عدوة اوليا الله وعدوة اعدا الله اما
اولياوه فغمتهم واما اعداوه فغرتهم وكتب ايضا الى بعض عماله اما بعد فقد امكنتك القدرة من ظلم العباد فاذا
هممت بظلم احد فاذكر قدرة الله عليك واعلم انك لا تاتي الى الناس شيا الا كان زايلا عنهم باقيا عليك واعلم ان الله عز وجل
اخذ للمظلوم من الظالم والسلم فهكذا ينبغي ان يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقعته فهذه
المواعظ مثل الاغذية التي تشترك الكافة في الانتفاع بها ولاجل فقد مثل هولا الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصي واستشرى
وبلي الخلق بوعاظ يزخرفون اسجاعا وينشدون ابياتا ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم
فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل الى القلب بل القايل متصلف والمستمع متكلف وكل واحد
منهما مدبر ومتخلف فاذا كان طب الطبيب سبب علاج المرضى فطب العلما سبب علاج العاصي فهذا احد اركان العلاج واول اصوله

الاصل الثاني الصبر ووجه الحاجة اليه ان المريض انما يطول مرضه لتناوله ما يضره وانما يتناول ذلك اما لغفلة عن مضرته
او لشدة غلبة شهوته وله سببان ما ذكرناه علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجه قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس
وحاصله ان المريض اذا اشتدت ضراوته بما كول مضر فطريقه ان يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى
عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوة الخوف على الالم الذي يناله فلا بد على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة
في المعاصي كالشاب مثلا اذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه وحفظ قلبه وحفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي
ان يستشعر ضرر دينه بان يستقري المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا اشتد خوفه تباعد عن الاسباب
المهيجة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر اليه وعلاجه الهرب والعزلة ومن داخل تناول لذايذ الاطعمة
وعلاجه الجوع والصوم الدايم وكل ذلك لا يتم الا بصبر ولا يصبر الا عن خوف ولا يخاف الا عن علم ولا يعلم الا عن بصيرة وافتكار
او عن سماع وتقليد فاول الامر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن ساير الشواغل مصروف الى السماع ثم التفكر
لتمام الفهم وينبعث من تمامه لا محالة خوف واذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطلب العلاج وتوفيق الله وتيسيره
من وراء ذلك فمن اعطى من قلبه حسن الاصغا واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى
واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى ثم لا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى
وما على الانبيا الا شرح طرق الهدى وانما لله الاخرة والاولى **فان قلت** فقد رجع الامر كله الى الايمان لان ترك الذنب الممكن

الا بالصبر

الا بالصبر والصبر لا يمكن الا بمعرفة الخوف والخوف لا يحصل الا بالعلم بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب
هو تصديق الله ورسوله وهو الايمان فكان من اصر على الذنب لا يصر الا لانه غير مومن فاعلم ان هذا لا يكون لفقد الايمان
بل يكون لضعف الايمان اذ كل مومن مصدق بان المعصية سبب البعد من الله وسبب العقاب في الاخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب امور
احدها ان العقاب الموعود به غيب ليس بحاضر والنفس جبلت متاثرة بالحاضر فتاثرها بالموعود ضعيف بالاضافة
الى تاثرها بالحاضر **الثاني** ان الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال اخذة بالمخنق وقد قوي ذلك واستولى
بسبب الاعتياد والالف فان العادة طبيعة خامسة والنزوع عن العاجل لخوف الاجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى
كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الاخرة وقال تعالى بل توثرون الحياة الدنيا وقد عبر عن شدة الامر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم
حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وعزتك لا يسمع بها احد فيدخلها فحفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر اليها فنظر
فقال وعزتك لقد خشيت ان لا يبقى احد الا دخلها وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلم اذهب فانظر اليها فنظر فقال وعزتك لا يسمع
بها احد الا دخلها فحفها بالمكاره ثم اذهب فانظر اليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت ان لا يدخلها احد فاذن كون الشهوة
مرهقة في الحال وكون العقاب متاخرا الى المال سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول اصل الايمان فليس كل من شرب في مرضه الثلج
لشدة عطشه مكذبا باصل الطب ولا مكذبا بان ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة تغلبه والم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الالم
المنتظر الثالث انه ما من مذنب مومن الا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيات بالحسنات وقد وعد بان ذلك
يجبره الا ان طول الامل غالب على الطباع فلا يزال يسوف بالتوبة والتكفير فمن حيث رجاوه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع
الايمان **الرابع** انه ما من مومن موقن الا وهو معتقد ان الذنب لا يوجب العقوبة ايجابا لا يمكن العفو عنه فهو يذنب وينتظر
العفو اتكالا على فضل الله فهذه اسباب اربعة موجبة للاصرار على الذنب مع بقا اصل الايمان نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح
في اصل ايمانه وهو كونه شاكا في صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذي يحذره الطبيب تناول ما يضره في المرض وكان المحذر ممن لا
يعتقد فيه انه عالم بالطب فيكذبه او يشك فيه فلا يبالي به فهذا هو الكفر **فان قلت** فما علاج الاسباب الخمسة **فاقول** هو الفكر
وذلك بان يقرر على نفسه في السبب الاول وهو تاخر العقاب ان كل ما هو ات ات وان غدا للناظر قريب وان الموت اقرب الى كل احد
من شراك نعله فما يدريه فلعل الساعة قريب والمتاخر اذا وقع صار ناجزا ويذكر نفسه انه في دنياه ابدا يتعب في الحال لخوف امر
في الاستقبال اذ يركب البحار ويقاسي الاسفار لاجل الربح الذي يظن انه قد يحتاج اليه في ثاني الحال بل لو مرض فاخبره نصراني
طبيب بان شرب الما البارد يضره ويسوقه الى الموت وكان الما البارد الذ الاشيا عنده تركه مع ان الموت الم لحظة واذا الخوف ما بعده مفارقة
للدنيا الا بعدمه ولم ينسبه وجوده في الدنيا الى عدمه ازلا وابدا فلينظر كيف يبادر الى ترك ملاذه بقول ذمي لم يقم معجزة على
طبه فيقول كيف يليق بعقلي ان يكون قول الانبيا المويدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعي الطب لنفسه بلا معجزة على طبه
ولا يشهد له الا عوام الخلق وكيف يكون عذاب النار اخف عندي من عذاب المرض وكل يوم من الاخرة بمقدار خمسين الف سنة من ايام

وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه في تكلف نعمة تركها ونقول اذا كنت لا تقدر على ترك الباقي ايام العمر وهي ايام قلائل
فكيف تقدر على ذلك ابد الاباد واذا كنت لا تطيق الم الصبر فكيف تطيق الم النار واذا كنت لا تصبر على زخارف الدنيا مع الكدورة
فيعالجه بالفكر فان صياح اهل النار من التسويف لان المسوف يبني الامر على ما ليس اليه وهو البقا فلعله لا يبقى وان
بقي فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعري هل عجز في الحال الا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غدا
بل تتضاعف اذ تتاكد بالاعتياد فليست الشهوة التي اكدها الانسان بالعادة كالتي لم يوكدها وعن هذا هلك المسوفون لانهم
يظنون الفرق بين المتماثلين لا يظنون ان الايام متشابهة في ان ترك الشهوات فيها ابدا شاق وما مثال المسوف الا مثال من احتاج
الى قلع شجرة فراها قوية لا تنقلع الا بمشقة شديدة فقال اوخرها سنة ثم اعود اليها وهو يعلم ان الشجرة كلما بقيت ازدادت
رسوخا وكلما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا اعظم من حماقته اذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فاخذ
ينتظر الغلبة عليه اذا ضعف هو في نفسه وقوي الضعيف **واما المعنى الرابع** وهو استبعاد عفوه فعلاجه
ما [illegible] جميع امواله وترك نفسه وعياله فقرا منتظرا من فضل السلطان ان يرزقه العثور على كنز في ارض خربة فان
امكان العفو عن الذنب مثل هذا الامكان وهو مثل من توقع النهب من الظلمة في بلدة وترك ذخائر امواله في صحن داره وقدر على دفنها
واخفائها فلم يفعل وقال انتظر من فضل الله ان يسلط غفلة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ الى داري واذا انتهى الى داري
ما [illegible] الموت ممكن والغفلة ممكنة وقد حكي في بعض الاسمار ان مثل ذلك وقع فانا انتظر من فضل الله مثله فمنتظر
هذا منتظر امر ممكن ولكنه في حماقة **واما الخامس** وهو الشك فهذا كفر وعلاجه الاسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك
يطول ولكن يمكن ان يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له ما قاله الانبياء المويدون بالمعجزات هل صدقه ممكن او تقول
اعلم انه محال كما اعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة فان قال اعلم استحالته كما اعلم ذلك فهو احمق معتوه وكانه
لا وجود لمثل هذا في العقلا فان قال انا شاك فيه فيقال لو اخبرك شخص واحد مجهول عن طعام لك في البيت وانت تاكله
فقال انه قد ولغت فيه حية والقت فيه سما وجوزت صدقه فهل تاكله او تتركه وان كان الذ الاطعمة فسيقول اتركه لا محالة لاني اقول
ان كذب فلا يفوتني الا هذا الطعام والصبر عنه وان كان شديدا فهو قريب وان صدق فيفوتني الحياة والموت بالاضافة
الى الم الصبر عن الطعام واضاعته شديد فيقال يا سبحان الله كيف توخر صدق الانبيا كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق
كافة العلما والاوليا والحكما بل جميع اصناف العقلا ولست اعني بهم جهال العوام بل ذوي الالباب عن صدق رجل واحد
مجهول لعل له غرضا فيما يقول فليس في العقلا الا من صدق باليوم الاخر واثبت ثوابا وعقابا وان اختلفوا في كيفيته فان صدقوا
فقد اشرفت على عذاب يبقى ابد الاباد وان كذبوا فلا يفوتك الا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة فلا يبقى له توقف ان كان
عاقلا مع هذا الفكر اذ لا نسبة لمدة العمر الى ابد الاباد بل لو قدرنا الدنيا مملوة بالذرة وقدرنا طايرا يلتقط في كل الف سنة حبة
واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص ابد الاباد شيئا فكيف يفتر رايه في الاقدام على الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لاجل سعادة
تبقى

ابد الاباد وذلك لا منتهى له ولذلك قال ابو العلا المعري: قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الاموات قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر او صح قولي فالخسار عليكما ولذلك قال علي كرم الله وجهه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق
الامور ان كان ما قلت فقد تخلصنا جميعا والا فقد تخلصنا وهلكت اي العاقل يسلك طريق الامن في جميع الاحوال
فان قلت هذه امور جلية ولكنها ليست تنال الا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته وما علاج القلوب
لردها الى الفكر لا سيما من امن باصل الشرع وتفصيله فاعلم ان المانع من الفكر امران احدهما ان الفكر النافع هو الفكر في عقاب
الاخرة واهوالها وشدايدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم **وهذا** فكر لذاع مولم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر
في امور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة **والثاني** ان الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من انسان الا وله
في كل حال من احواله ونفس من انفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخرا لشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت
لذته في طلب الحيلة فيه او في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك **واما** علاج هذين المانعين فهو ان يقول لقلبه ما اشد
غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تالما بذكره مع استحقار الم موافقته فكيف تصبر على مقاساته اذا وقع وانت عاجز
عن الصبر عن تقدير الموت وما بعده ومتالم به **واما** الثاني فهو كون الفكر مفوتا للذات الدنيا فهو ان يتحقق ان فوت لذة الاخرة
اشد واعظم فانها لا اخر لها ولا كدورة فيها ولذات الدنيا سريعة الدثور وهي مشوبة بالمكدرات وما فيها لذة صافية عن كدر في التوبة
عن المعاصي والاقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الانس به ولو لم يكن للمطيع جزا على عمله الا ما يجد
من حلاوة الطاعة وروح الانس بمناجاته لكان ذلك كافيا فكيف بما ينضاف اليه من نعيم الاخرة نعم هذه اللذة لا تكون في ابتدا التوبة
ولكن يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا فالنفس قابلة ما عودتها تتعود والخير عادة والشر لجاجة
فاذن هذه الافكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ويهيج هذه الافكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقرع القلب باسباب تتفق
لانه خارج الحصر فيصير الفكر موافقا للطبع فيميل الى الفكر ويعرض عن الشهوات ويسمى وقوع الموافقة بين الطبع وبين الفكر الذي هو سبب
الخير توفيقا اذ التوفيق هو التاليف بين الارادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الاخرة وقد روي في حديث طويل انه
قام عمار بن ياسر رضي الله عنه فقال يا امير المومنين اخبرنا عن الكفر على ماذا بني فقال على اربع دعايم على الجفا والعمى
والغفلة والشك فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ومن عمي نسي الذكر ومن غفل حاد عن الرشد وغرته الاماني
فاخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب فما ذكرناه بيان بعض افات الغفلة عن التفكر وهذا القدر في التوبة كاف واذا
كان الصبر من اركان التوبة فلا بد من بيان الصبر ونذكره في كتاب مفرد ان شا الله تعالى تم كتاب التوبة ويتلوه كتاب الصبر والشكر بالله تعالى

كتاب الصبر والشكر وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من احيا علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله اهل الحمد والثنا المنفرد برداء الكبريا المتوحد بصفات المجد والعلا
المويد صفوة الاوليا بقوة الصبر على السرا والضرا والشكر على البلا والنعما والصلاة على محمد سيد الانبيا وعلى اصحابه السادة الاصفيا

وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء أما بعد فإن الإيمان
نصفان نصف صبر ونصف شكر كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار وهما أيضا وصفان من أوصاف الله واسمان من أسمائه الحسنى
إذ سمى نفسه صبورا وشكورا فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن تعالى
ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله إلا بالإيمان وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان ومن به الإيمان
والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح
والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى **الشطر الأول في الصبر وفيه**
بيان فضيلة الصبر وبيان حده وحقيقته وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف أساميه
باختلاف متعلقاته وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف وبيان مظان الحاجة
إلى الصبر وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده **بيان فضيلة الصبر**
قد وصف الله الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا وأضاف أكثر الخيرات والدرجات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز
من قائل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وقال وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا وقال تعالى ولنجزين
أجرهم مرتين بما صبروا وقال تعالى إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ولأجل
كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى الصوم لي وأنا أجزي به فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه
معهم فقال تعالى واصبروا إن الله مع الصابرين وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا الآية
وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون فالهدى والصلوات والرحمة
مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم الصبر نصف الإيمان على ما يأتي وجه
كونه نصفا وقال صلى الله عليه وسلم من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطي حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار
ولأن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر
بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله
باق ولنجزين الذين صبروا الآية وروى جابر رضي الله عنه أنه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال الصبر والسماحة وقال أيضا
الصبر كنز من كنوز الجنة وسئل مرة ما الإيمان فقال الصبر وهذا يشبه قوله عليه السلام الحج عرفة وقال عليه السلام أيضا أفضل الأعمال ما أكرهت
عليه النفوس وقيل أوحى الله إلى داود عليه السلام تخلق بأخلاقي وإن من أخلاقي أني أنا الصبور وفي حديث عطاء عن ابن عباس
رضي الله عنهما لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال أمؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر رضي الله عنه نعم يا رسول الله
فقال وما علامة إيمانكم فقالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة
وقال صلى الله عليه وسلم في الصبر على ما تكرهون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين
والأخبار

والأخبار في هذا لا تحصى **وأما الآثار** فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما عليك
بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر الصبر في المصائب حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله واعلم أن الصبر
ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال علي كرم الله وجهه بني الإيمان على أربع دعائم
اليقين والصبر والجهاد والعدل وقال أيضا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان
لمن لا صبر له وكان عمر رضي الله عنه يقول نعم العدلان ونعم العلاوة للصابرين يعني بالعدلين الصلاة والرحمة وبالعلاوة الهدى
والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وكان حبيب بن أبي حبيب
إذا قرأ هذه الآية إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب بكى وقال واعجباه أعطى وأثنى أي هو المعطي للصبر والمثني عليه
وقال أبو الدرداء ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل فأما من حيث النظر بعين الاعتبار
فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر
حقيقته ومعناه **بيان حقيقة الصبر ومعناه** اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات
الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور معارف وأحوال وأعمال فالمعارف هي الأصول وهي تورث الأحوال والأحوال تثمر الأعمال فالمعارف
كالأشجار والأحوال كالأغصان والأعمال كالثمار وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف
وتارة يطلق على الكل كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والإسلام في كتاب قواعد العقائد وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة
قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم
فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة أما في البهائم فلنقصانها وأما في الملائكة فلكمالها وبيانه أن البهائم سلطت عليها
الشهوات فصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى
ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا وأما الملائكة فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب
ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف وأما الإنسان
فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة
النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر البتة إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما
ومطالبهما وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم ولكن الله بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل
به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين أحدهما يهديه والآخر يقويه فيتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين إحداهما معرفة الله
ومعرفة رسوله صلى الله عليه وسلم ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف فالبهيمة لا معرفة
لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهوتها في الحال فقط فلذلك لا تطلب إلا اللذيذ وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال فلا
تعرفه فلا تطلبه فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ولكن لم تكن هذه الهداية كافية

ما لم تكن له قوة على ترك ما هو مضر له فكم من مريض يعرف ضرر الاشياء كالمريض النازل به مثلا ولكن لا قدرة له في دفعه فافتقر
الى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها ويملك القوى حتى يقطعها عن نفسه فوكل الله به ملكا اخر يسدده
ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها وامر هذا الجند بقتال جنود الشهوات فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك
بحسب امداد الله تعالى عباده بالتأييد كما ان نور الهداية ايضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التي بها فارق
الانسان في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم ان القتال قائم بين باعث الدين
وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله ومدد باعث الشهوة
من الشياطين الناصرين لاعداء الله فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة فان ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة
فان ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين وان تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق
باتباع الشياطين فاذن ترك الاعمال المشتهاة عمل يثمره حال تسمى الصبر وهو ثبات باعث الدين الذي في مقابلة باعث الشهوة وثبات
باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لاسباب السعادات في الدنيا والاخرة فاذا قوي يقينه اعني المعرفة التي
تسمى ايمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله قوي ثبات باعث الدين واذا قوي ثباته تمت الافعال على خلاف
ما تتقاضاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة الا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والايمان تقبح مغبة الشهوات
وسوء عاقبتها وهذان الملكان هما المتوكلان بهذين الجندين باذن الله وتسخيره اياهما وهما الكرام الكاتبين وهما الموكلان
بكل شخص من الادميين واذا عرفت ان رتبة الملك الهادي اعلى من رتبة الملك المقوي لم يخف عليك ان جانب اليمين الذي هو
اشرف الجانبين من جنبي الدين ينبغي ان يكون مسلما له فهو اذن صاحب اليمين والاخر صاحب الشمال والعبد طوران في الغفلة والفكر
وفي الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء اليه فيكتب اعراضه سيئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه
الهداية فهو به محسن فيكتب له حسنة وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسيء اليه فيكتب سيئة
وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة وانما ثبتت هذه الحسنات والسيئات باثباتهما فلذلك سميا كراما كاتبين اما
الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما وان الملائكة كلهم كرام بررة واما الكاتبين فلاثباتهما الحسنات والسيئات وانما
يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم فانهما وكتبهما وصحائفهما وجملة
ما يتعلق بهما من عالم الغيب والملكوت لا من عالم الشهادة وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الابصار في هذا العالم ثم تنشر
هذه الصحائف المطوية عنه مرتين مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى واعني بالقيامة الصغرى
حالة الموت اذ قال صلى الله عليه وسلم من مات فقد قامت قيامته وفي هذه القيمة يكون العبد وحده وعندها
يقال ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وفيها يقال كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا اما في القيمة
الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق وفيها يساق المتقون الى الجنة
والمجرمون

والمجرمون الى النار زمرا لا احادا والهول الاول هو هول القيامة الصغرى ولجميع اهوال القيامة الكبرى
نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الارض مثلا فان ارضك الخاصة تتزلزل بك في الموت فانك تعلم ان الزلزلة
اذا زلزلت بلد صدق ان يقال قد زلزلت ارضهم وان لم تتزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل مسكن
انسان وداره فقد حصلت الزلزلة في حقه لانه انما يتضرر عند زلزلة جميع الارض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة
مسكن غيره فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان واعلم انك ارضي مخلوق من التراب وحظك الخاص من التراب
بدنك فقط فاما بدن غيرك فليس بحظك والارض التي انت جالس عليها بالاضافة الى بدنك ظرف ومكان وانما
تخاف من زلزلته ان يتزلزل بدنك بسببه والا فالهواء ابدا متزلزل وانت لا تخشاه اذ ليس يتزلزل به بدنك
فحظك من زلزلة الارض كلها زلزلة بدنك فقط فهي ارضك وترابك الخاص وعظامك جبال ارضك وراسك
سماء ارضك وقلبك شمس ارضك وسمعك وبصرك وسائر حواسك نجوم سمائك ومفيض العرق من بدنك بحر ارضك
وشعورك نبات ارضك واطرافك اشجار ارضك وهكذا الى جميع اجزائك فاذا انهدم بالموت اركان بدنك فقد
زلزلت الارض زلزالها فاذا انفصلت العظام عن اللحم فقد حملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة فاذا رمت العظام
فقد نسفت الجبال نسفا فاذا اظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا فاذا بطل سمعك وبصرك وسائر
حواسك فقد انكدرت النجوم انكدارا فاذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقا فاذا انفجرت من هول
الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيرا واذا التفت احدى ساقيك بالاخرى وهي مطيتاك فقد عطلت العشار
تعطيلا فاذا فارقت الروح الجسد فقد مدت الارض حتى القت ما فيها وتخلت ولست اطول بموازنة جميع الاحوال والاهوال
ولكني اقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيمة ولا يفوتك من الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك فان بقاء الكواكب
في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت حواسك التي تنتفع بها بالكواكب في حق غيرك والاعمى يستوي عنده الليل
والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لانه قد كسفت في حقه دفعة واحدة وهو حصته منها والانجلاء بعد ذلك حصة غيره
ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه اذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس فمن لا رأس له لا سماء له فمن اين ينفعه بقاء
السماء لغيره فهذه هي القيمة الصغرى وللخوف بعدها اشغال الهول بعد امتحن وذلك اذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع
الخصوص وبطلت السموات والارض ونسفت الجبال وتمت الاهوال واعلم ان هذه الصغرى وان طولنا في وصفها
فانا لم نذكر عشر عشر اوصافها فهي بالنسبة الى القيمة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة الى الولادة الكبرى فان
للانسان ولادتين احداهما الخروج من الصلب والترائب الى مستودع الارحام وهو في الرحم في قرار مكين الى قدر معلوم
وله في سلوكه الى الكمال منازل واطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها الى ان يخرج من مضيق الرحم الى فضاء العالم
فنسبة عموم القيمة الكبرى الى خصوص القيمة الصغرى كنسبة فضاء العالم الى ضيق فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي

تقدم العبد عليه بالموت الى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا ايضا الى الرحم بل اوسع واعظم فقس الاخرة بالاولى
ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وما النشاة الثانية الا على قياس النشاة الاولى بل اعداد النشاة ليست
محصورة في اثنين والى الاشارة بقوله تعالى وننشئكم فيما لا تعلمون والمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب
والشهادة موقن بالملك والملكوت والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء الى احد العالمين وذلك
هو الجهل والضلال والاقتداء بالاعور الدجال فما اعظم غفلتك يا مسكين وكلنا ذلك المسكين وبين يديك
هذه الاهوال فانك ان لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال فلا تكفيك القيامة الصغرى او ما سمعت قول سيد
الانبياء عليه السلام كفى بالموت واعظا او سمعت بكربه صلى الله عليه وسلم في قرب الموت حتى قال اللهم هون على محمد سكرات
سكرات الموت او ما تستحيي من استبطائك هجوم الموت اقتداء بعادة الغافلين الذين ما ينظرون الا صيحة واحدة
تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون فياتيهم المرض نذيرا من الموت فلا
ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولا منه فلا يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به
يستهزءون افيظنون انهم في الدنيا خالدون الم يروا كم اهلكنا قبلهم من القرون انهم اليهم لا يرجعون ام يحسبون
ان الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا ان كل لما جميع لدينا محضرون ولكن ما تأتيهم من آية الا كانوا
عنها معرضون وذلك لانا جعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم الآية
ولنرجع الى الغرض فان هذه تلويحات تشير الى بحور اعلام علوم المعاملة **فنقول** قد ظهر ان الصبر عبارة عن
ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصية الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا
يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين اذ ذكرنا ان الحسنة في الاقبال على الاشتغال فلا ينفعون ... اقبال ولا اعراض وهما
لا يكتبان الا الاقبال والاعراض من القادرين على الاقبال والاعراض ولعمري انه يظهر مبادي اشراق نور الهداية عند سن التمييز
وينمو على التدريج الى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح الى ان يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد الى مضار الآخرة
بل الى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب في الآخرة ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة
بل على القيم العدل والولي البر المشفق ان كان من الابرار وكان على سمت الكرام البررة الاخيار ان يكتب على الصبي سيئته وحسنته
على صحيفة قلبه فيكتب عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب فكل ولي يصلح لهذا اسمه في حق الصبي فقد ورث الاخلاق
الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين من
الصديقين واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم انا وكافل اليتيم كهاتين **بيان كون الصبر نصف الايمان**
اعلم ان الايمان تارة يخص في اطلاقه بالتصديقات باصول الدين وتارة يخص بالاعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما
جميعا وللمعارف ابواب وللاعمال ابواب واشتمال لفظ الايمان على جميعها كان الايمان نيفا وسبعين بابا واختلاف هذه الاطلاقات ذكرناه

في كتاب

في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ولكن الصبر نصف الايمان باعتبارين وعلى مقتضى اطلاقين احدهما اليقين
والآخر الصبر والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله عبده الى اصول الدين والمراد بالصبر العمل
بمقتضى اليقين اذ اليقين يعرفه ان المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة الا بالصبر
وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الايمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع
رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال من اقل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث الى آخره **الاعتبار الثاني** ان يطلق على
الاحوال المثمرة للاعمال لا على المعارف وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد الى ما ينفعه في الدنيا والآخرة او يضره فيهما
وله بالاضافة الى ما يضره حال الصبر وبالاضافة الى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر احد شطري الايمان بهذا
الاعتبار كما كان اليقين احد الشطرين بالاعتبار الاول وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه الايمان نصفان نصف صبر
ونصف شكر وقد يرفع ايضا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان
باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة وباعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم
وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار
الصوم نصف الصبر لان كمال الصبر بالصبر عن داعي الشهوة وداعي الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع
الايمان فهكذا ينبغي ان تفهم تقديرات الشرع بحدود الاعمال والاحوال ونسبتها الى الايمان والاصل فيه ان تعرف كثرة ابواب
الايمان فان اسم الايمان يطلق على وجوه مختلفة **بيان الاسامي التي تتجدد للصبر بالاضافة الى ما عنه الصبر**
اعلم ان الصبر ضربان ضرب بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليه وهو اما بالفعل كتعاطي الاعمال الشاقة اما
من العبادات او من غيرها واما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة وذلك قد يكون
محمودا اذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى
ثم هذا الضرب ان كان صبرا عن شهوة البطن والفرج سمي عفة وان كان على احتمال مكروه اختلفت اساميه عند الناس
باختلاف المكروه الذي عليه الصبر فان كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ويضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو اطلاق
داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها وان كان في احتمال الغنى يسمى ضبط
النفس ويضاده حالة تسمى البطر وان كان في حرب ومقاتلة يسمى شجاعة ويضاده الجبن وان كان في كظم الغيظ والغضب
يسمى حلما ويضاده التذمر وان كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة يسمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر
وان كان في اخفاء كلام يسمى كتمان السر ويسمى صاحبه كتوما وان كان عن فضول العيش يسمى زهدا ويضاده الحرص
وان كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ يسمى قناعة ويضاده الشره فاكثر اخلاق الايمان داخل في الصبر ولذلك لما
سئل صلى الله عليه وسلم عن الايمان قال هو الصبر لانه اكثر اعماله واعزها كما قال صلى الله عليه وسلم الحج عرفة وقد جمع الله تعالى

اقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى والصابرين في البأساء والضراء البأساء المصيبة والضراء الفقر وحين البأس اي المحاربة اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون فاذن هذه اقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن ياخذ المعاني من الاسامي يظن ان هذه احوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث راى ان الاسامي مختلفة والذي يسلك الطريق وينظر بنور الله يلحظ المعاني اولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الاسامي فانها وضعت دالة على المعاني فالمعاني هي الاصول والالفاظ هي التوابع ومن يطلب الاصول من التوابع لا بد وان يزل والى الفريقين الاشارة بقوله تعالى افمن يمشي مكبا على وجهه اهدى الاية فان الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا الا بمثل هذه الانعكاسات

بيان انقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم ان باعث الدين بالاضافة الى باعث الهوى له ثلاثة احوال احداها ان يقهر داعي الهوى فلا يبقى له قوة المنازعة ويتوصل اليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون الى هذه الرتبة هم الاقلون فلا جرم انهم هم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمانت نفوسهم على مقتضى باعث الدين واياهم ينادي المنادي يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية **الحالة الثانية** ان تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه الى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه عن المجاهدة وهؤلاء هم الغافلون وهم الاكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا اعداء الله في قلوبهم التي هي سر من اسرار الله عز وجل وامر من امره واليهم الاشارة بقوله تعالى ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالاخرة فخسرت صفقتهم وقيل لمن قصد ارشادهم فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم وهذه الحالة علامتها الياس والقنوط والغرور بالاماني وهو غاية الحمق كما قال صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله وصاحب هذه الحالة اذا وعظ قال انا مشتاق الى التوبة ولكنها قد تعذرت علي فلست اطمع فيها او لم يكن مشتاقا الى التوبة ولكن قال انه غفور رحيم كريم فلا حاجة له الى توبتي وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلا يستعمل عقله الا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل الى قضاء شهواته فقد صار عقله في يد شهوته كمسلم اسير في ايدي الكفار فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها ومحله عند الله محل من يقهر مسلما ويسلمه الى الكفار ويجعله اسيرا عندهم لانه بفاحش جنايته سخر ما كان حقه ان يتسخر وسلط من كان حقه ان يتسلط عليه وانما استحق المسلم ان يكون متسلطا لما فيه من معرفة الله تعالى وباعث الدين وانما استحق الكافر ان يكون متسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه اوجب من حق غيره عليه فمهما سخر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله عز وجل وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله كان كمن ارق مسلما لكافر بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فاخذ اعز اولاده وسلمه الى ابغض اعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته لان الهوى ابغض اله عبد في الارض

عند الله

عند الله والعقل اعز موجود خلق في الارض **الحالة الثالثة** ان يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين يعد لا من الظافرين واهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا واخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم هذا باعتبار القوة والضعف ويتطرق اليه ايضا ثلاثة احوال باعتبار عدد ما يصبر عنه فانه اما ان يغلب جميع الشهوات او لا يغلب شيئا منها او يغلب بعضها دون بعض وتنزيل قوله تعالى خلطوا عملا صالحا واخر سيئا على من عجز عن بعض الشهوات دون البعض اولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالانعام بل هم اضل اذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق له ذلك وعطله فهو الناقص حقا المدبر يقينا ولذلك **قيل** ولم ار في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام ۞ وينقسم الصبر ايضا باعتبار اليسر والعسر الى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه الا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا والى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بادنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر واذا دام التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى **ومثال** هذه القسمة قدرة المصارع على غيره فان الرجل القوي يقدر على ان يصرع الضعيف بادنى حملة وقوة بحيث لا يلقاه في مصارعته اعياء ولا لغوب ولا يضطرب فيه نفسه ولا ينبهر ولا يقوى ان يصرع الشديد الا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ومهما اذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة اورث ذلك مقام الرضا كما سياتي في كتاب الرضا والرضا اعلى من الصبر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير قال بعض العارفين اهل الصبر على **ثلث** مقامات اولها ترك الشكوى وهذه درجة التائبين **والثانية** الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين **والثالثة** المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين وسنبين في كتاب المحبة ان مقام المحبة اعلى من مقام الرضا كما ان مقام الرضا اعلى من مقام الصبر وكان هذا الانقسام في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا واعلم ان الصبر ايضا ينقسم باعتبار حكمه الى فرض ونفل ومكروه ومحرم فالصبر على المحظورات فرض وعلى المكاره نفل والصبر على الاذى المحظور محظور كمن تقطع يده او يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن اظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على اهله فهذا الصبر محرم والصبر المكروه هو الصبر على اذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر فكون الصبر نصف الايمان لا ينبغي ان يخيل اليك ان جميعه محمود بل المراد به انواع من الصبر مخصوصة بيان مظان الحاجة الى الصبر وان العبد لا يستغني عنه في حال من الاحوال اعلم ان جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين احدهما هو الذي لا يوافقه بل يكرهه وهو محتاج الى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الاحوال لا يخلو عن احد هذين النوعين او عن كليهما فهو اذا لا يستغني قط عن الصبر **النوع الاول** ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الاسباب وكثرة

الاتباع والانصار وجميع ملاذ الدنيا وما احوج العبد الى الصبر على هذه الامور فانه ان لم يضبط نفسه عن الاسترسال
والركون اليها والانهماك في ملاذها المباحة منها اخرجه ذلك الى البطر والطغيان فان الانسان ليطغى ان رآه استغنى حتى
قال بعض العارفين البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي لا يصبر عليها الا صديق وقال سهل الصبر على العافية اشد من الصبر على البلاء
ولما فتحت ابواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ولذلك حذر الله
عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال تعالى لا تلهكم اموالكم
ولا اولادكم عن ذكر الله وقال صلى الله عليه وآله الولد مبخلة مجبنة محزنة ولما نظر الى ابنه الحسن يعثر في قميصه نزل عن المنبر
واحتضنه ثم قال صدق الله انما اموالكم واولادكم فتنة اني لما رأيت ابني يعثر لم املك نفسي ان اخذته ففي ذلك عبرة
لاولي الابصار والرجل كل الرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر عليها ان لا يركن اليها ويعلم ان كل ذلك مستودع عنده عسى
ان يسترجع على القرب وان لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب وان يرعى حقوق الله في ماله
بالانفاق وفي بدنه ببذل المعونة للخلق وفي لسانه ببذل الصدق وفي سائر ما انعم الله عليه وهذا الصبر متصل
بالشكر فلا يتم الا بالقيام بحق الشكر كما ياتي وانما كان الصبر على السراء اشد لانه مقرون بالقدرة فمن العصمة ان لا تقدر والصبر
على الحجامة والفصد اذا تولاه غيرك ايسر من الصبر على فصدك نفسك بحجامتك لها والجائع عند غيبة الطعام اقدر على
الصبر منه اذا حضرته الاطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها فلذلك عظمت فتنة السراء **النوع الثاني** ما لا يوافق الهوى والطبع
وذلك لا يخلو اما ان يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي او لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب او لا يرتبط
اوله باختياره ولكن له اختيار في ازالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه فهي ثلاثة اقسام **القسم الاول** ما يرتبط
باختياره وهو سائر افعاله التي توصف بكونها طاعة او معصية وهما ضربان **الضرب الاول** الطاعات والعبد
يحتاج الى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لان النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية ولذلك
قال بعض العارفين ما من نفس الا وهي مضمرة ما اظهره فرعون من قوله انا ربكم الاعلى ولكن فرعون وجد
له مجالا وقبولا فاظهره اذ استخف قومه فاطاعوه وما من احد الا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه
واتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وان كان ممتنعا من اظهاره فان اغتياظه وغيظه عند تقصيرهم
في خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر الا عن اضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء فاذا العبودية
شاقة على النفس مطلقا ثم من العبادات ما تكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة
ومنها ما يكره بسببهما كالحج والجهاد فالصبر في الطاعات صبر على الشدائد ويحتاج المطيع الى الصبر على طاعته
في ثلاثة احوال **الاول** قبل الطاعة وذلك في تصحيح النية والاخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات وعقد
العزم على الاخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند معرفة حقيقة النية والاخلاص وآفات الرياء ومكايد

النفس

ومكايد النفس وقد نبه عليه صلى الله عليه وآله اذ قال انما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى وقال تعالى وما امروا
الا ليعبدوا الها واحدا وقال وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين بهذا المعنى قدم الله الصبر على العمل
وقال تعالى الا الذين صبروا وعملوا الصالحات **الحالة الثانية** حالة العمل لئلا يغفل عن الله في اثناء عمله ولا يتكاسل
عن تحقيق آدابه وسننه ويداوم على شرط الادب الى الآخر فيلازم الصبر عن دواعي الفتور الى الفراغ وهذا ايضا من شدائد
الصبر ولعله المراد بقوله تعالى نعم اجر العاملين الذين صبروا اي صبروا الى تمام العمل **الحالة الثالثة** بعد الفراغ من العمل
اذ يحتاج الى الصبر عن افشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر اليه بعين العجب وكل ما يبطل عمله ويحبط اثره كما
قال تعالى لا تبطلوا اعمالكم وقال تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والاذى فقد
ابطل عمله والطاعات تنقسم الى فرض ونفل وهو يحتاج الى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله في قوله ان الله يامر بالعدل والاحسان
الآية فالعدل هو الفرض والاحسان هو النفل وايتاء ذي القربى هو المروة وصلة الرحم وكل ذلك يحتاج الى الصبر **الضرب الثاني**
المعاصي ما احوج العبد الى الصبر عنها وقد جمع الله في قوله وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وقال صلى الله عليه وآله المهاجر من هاجر
السوء والمجاهد من جاهد هواه والمعاصي مقتضى باعث الهوى واشد انواع الصبر الصبر عن المعاصي التي صارت مالوفة بالعادة
فان العادة طبيعة خامسة فاذا انضاف الى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا تقوى باعث الدين
على قمعها ثم ان كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عليه اثقل على النفس كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء
على النفس تعريضا وتصريحا وانواع المزاح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الازراء والاستحقار وذكر الموتى
والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم فان ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان احداهما نفي
الغير والثانية اثبات نفسه وبها تتم له الربوبية التي في طبعه وهي ضد ما امر به من العبودية ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك
اللسان ويصير ذلك معتادا في المحاورات فيعسر الصبر عنها حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكررها وعموم الانس
فترى الانسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في اعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد
في الخبر من ان الغيبة اشد من الزنا ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره فالصبر
على الانفراد اهون من الصبر على السكوت مع المخالطة وتختلف شدة الصبر في احاد المعاصي باختلاف داعية المعصية في قوتها وضعفها وايسر
من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوسواس فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه اصلا الا بان يغلب على
القلب هم آخر في الدين يستغرقه كمن اصبح وهمومه هم واحد والا فان لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه
القسم الثاني ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه كما لو اوذي بفعل او قول وجني عليه في نفسه او ماله
فالصبر على ذلك بترك المكافاة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة قال بعض الصحابة رضي الله عنهم ما كنا نعد ايمان الرجل
ايمانا اذا لم يصبر على الاذى وقال الله ولنصبرن على ما آذيتمونا الآية وقسم رسول الله صلى الله عليه وآله مرة مالا فقال بعض الاعراب

من أنسلم هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحمرت وجنتاه ثم قال رحم الله أخي موسى لقد أوذي
بأكثر من هذا فصبر وقال تعالى ودع أذاهم وقال تعالى واصبر على ما يقولون الآية وقال تعالى ولقد نعلم أنك يضيق صدرك الآية
وقال تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب الآية أي تصبروا عن المكافاة ولذلك مدح الله العافين عن حقوقهم في القصاص
وغيره وقال تعالى ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وقال صلى الله عليه وسلم صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك ورأيت
في الإنجيل قال عيسى عليه السلام لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب
خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ومن سخرك ليسير معه ميلا فسر معه ميلين وكل ذلك أمر
بالصبر على الأذى فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا

القسم الثالث ما لا يدخل تحت الاختيار أوله وآخره كالمصائب مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض
وعمى العين وفساد الأعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر قال ابن عباس رضي الله عنه الصبر في
القرآن على ثلاثة أوجه صبر على أداء فرائض الله فله ثلاثمائة درجة وصبر عن محارم الله فله ستمائة درجة وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى
فله تسعمائة درجة وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم
فأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه إلا ببضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أسألك من اليقين
ما تهون به علي مصائب الدنيا فهذا صبر مستنده حسن اليقين وقال أبو سليمان الداراني والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره وقال
النبي صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو في ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل
استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا وقال صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج بالصبر عبادة وقال عليه السلام
ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأعقبني خيرا منها إلا فعل
الله ذلك به وقال أنس رضي الله عنه حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه قالوا سبحانك
لا علم لنا إلا ما علمتنا قال جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي وقال عليه السلام يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدي ببلاء
فصبر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته فإلى رحمتي وقال
داود عليه السلام يا رب ما جزاء الحزين يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا
وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه عنها الصبر إلا كان ما عوضه منه أفضل مما انتزع
وقرأ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وسئل فضيل رحمه الله عن الصبر فقال هو الرضا بقضاء الله قيل وكيف ذلك قال الراضي
لا يتمنى فوق منزلته وقيل حبس الشبلي في المارستان فدخل عليه جماعة فقال من أنتم قالوا أحبابك جاؤوك زائرين فأخذ
يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة
ويطالعها وكان فيها واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وقيل إن امرأة فتح الموصلي رحمها الله عثرت فانقطع ظفرها فضحكت

فقيل

فقيل لها أما تجدين الوجع فقالت إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى
المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات وقال نبينا صلى الله عليه وسلم من إجلال
الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفي كمه
صرة فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كمه فقال بارك الله له فيها لعله أحوج إليها مني وروي عن بعضهم أنه قال مررت على
سالم مولى أبي حذيفة رحمهما الله في القتلى وبه رمق فقلت له أسقيك ماء فقال جرني قليلا إلى العدو واجعل الماء في الترس
فإني صائم فإن عشت إلى الليل شربته هكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله **فإن قلت** فبماذا تنال درجة الصبر في المصائب
وليس الأمر إلى اختياره فهو مضطر شاء أو أبى فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل
في الاختيار فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى وإظهار
الكآبة وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر
الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روي أن الرميصاء أم سليم رضي الله عنها
أنها قالت توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت فقدم أبو طلحة رضي الله عنه فقمت فهيأت له إفطاره
فجعل يأكل فقال كيف الصبي فقلت بأحسن حال بحمد الله ومنه فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع
قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته ثم قلت ألا تعجب من جيراننا قال ما لهم قلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم جزعوا فقال بئس ما صنعوا
فقلت هذا ابنك كان عارية من الله وإن الله قبضه إليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال
اللهم بارك لهما في ليلتهما قال الراوي فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرأ القرآن وروى جابر رضي الله عنه
أنه عليه السلام قال رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة رضي الله عنهما وقيل الصبر الجميل هو أن لا يعرف فيه صاحب المصيبة
من غيره ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع على الميت فإن ذلك مقتضى البشرية
ولا يفارق الإنسان إلى الموت ولذلك لما مات إبراهيم ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له أما نهيتنا عن هذا
فقال إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا فالمقدم على الفصد والحجامة راض
به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله وكتب ابن أبي نجيح يعزي
بعض الخلفاء فكتب إن أحق من عرف حق الله فيما أخذ منه من عظم حق الله عنده فيما أبقاه واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي
لك والباقي بعدك هو المأجور فيك واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم مما يعافون فيه فإذا
مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعم الله عليه بالثواب نال درجة الصابرين نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب
وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال
والأفعال فإن الذي كفي الشهوات كلها واعتزل وحده فلا يستغني عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا وعن وساوس

الشيطان باطنا فان اختلاج الخواطر لا يمكن واكثر جولان الخواطر انما يكون في غايب لا تداركه لما او في مستقبل لابد ان
يحصل منه ما هو مقدر فيه فكيف ما كان تضييع زمان واله العبد قلبه وبضاعته عمره فاذا غفل القلب في نفس واحد
عن ذكر شيء يستفيد به انسا بالله وعن فكر يستفيد به معرفة ليستفيد بالمعرفة محبة فهو مغبون هذا ان كان
فكره ووسواسه في المباحات مقصورا عليه ولا يكون كذلك غالبا بل يتفكر في وجه الحيل لقضاء الشهوات لا يزال ينازع
كل من يحول على خلاف غرضه في جميع عمره او من يتوهم به انه ينازعه ويخالف غرضه بظهور امارة له منه بل يقدر المخالفة
من اخلص الناس في حبه حتى في اهله وولده ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما
يعللون به في مخالفته ولا يزال في شغل دايم فللشيطان جندان جند يطير وجند يسير والوسواس عبارة عن حركة
جنده الطيار والشهوة عبارة عن جنده السيار وهذا لان الشيطان خلق من النار وخلق الانسان من صلصال كالفخار
والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبعه السكون والنار طبعها الحركة فلا تتصور نار مشتعلة لا تتحرك
بل لا تزال تتحرك بطبعها وقد كلف الملعون المخلوق من النار ان يطمئن عن حركته ساجدا لما خلق من الطين
فابى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصايه بان قال خلقتني من نار وخلقته من طين فاذا احتشم بسجود الملعون
لابينا ادم صلوات الله عليه فلا ينبغي ان يطمع في سجوده لاولاده ومهما كف عن القلب شواته وعداوته وطيرانه
وجولانه فقد اظهر انقياده واذعانه وانقياده بالاذعان سجود منه فهو روح السجود وانما وضع الجبهة على
الارض قالبه وعلامته الدالة بالاصطلاح عليه ولو جعل وضع الجبهة على الارض علامة الاستخفاف بالاصطلاح لتصور
ذلك كما ان الانبطاح بين يدي المعظم المحترم يرى استخفافا بالعبادة فلا ينبغي ان يدهشك صدف الجوهر عن
الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب وتحقق ان
الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لذلك بالكف عن الوسواس الى يوم الدين الا ان تصبح وهمومك هم واحد فيشتغل
قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالا فيك فعند ذلك تكون من عباد الله الصالحين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة
هذا اللعين ولا تظنن انه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجري من ابن ادم مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء
في القدح فانك ان اردت ان يخلو القدح عن الهواء من غير ان تشغله بالماء او بغيره فقد طمعت في غير مطمع
بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء فلذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين يخلو عن جولان الشيطان
والا فمن غفل عن الله ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين الا الشيطان ولذلك قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن
نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يبغض الشاب الفارغ اذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين
على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم تزدوج افراخه ايضا وتبيض
اخرى وتفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا اسرع من توالد سائر الحيوانات لان طبعه من النار فاذا

وجد

وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده فلا يزال يتولد النار من النار ولا ينقطع البتة بل يسري شيئا فشيئا على
الاتصال فالشهوة في نفس الانسان للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار وكما لا تبقى النار اذا لم يبق لها قوت وهو
الحطب فلا يبقى للشيطان مجال اذا لم يكن شهوة فاذا تاملت علمت ان اعدا عدوك شهوتك وهي صفة نفسك ولذلك
قال الحسين بن منصور الحلاج رحمه الله لمن كان حسبك يصلي وقد سئل عن التصوف فقيل ما هو فقال هي نفسك ان
لم تشغلها فاذا حقيقة الصبر وكماله الصبر عن كل حركة مذمومة وحركة الباطن اولى بالصبر عن ذلك وهذا صبر دائم لا ينقطع
الا بالموت **بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه** اعلم ان الذي انزل الداء انزل الدواء ووعد الشفاء
فالصبر وان كان شاقا او ممتنعا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل فالعلم والعمل هما الاخلاط التي منهما تركب
الادوية لامراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرض الى علم اخر وعمل اخر كما ان اقسام الصبر مختلفة فاقسام العلل المانعة منها
مختلفة واذا اختلفت العلل اختلف العلاج اذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك مما يطول ولكنا
نعرف الطريق في بعض الامثلة **فنقول** اذا افتقر الى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا وقد غلبت عليه بحيث
لن يملك معها فرجه او يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه او يملك عينه لكن ليس يملك قلبه ونفسه اذ لا يزال يحدثه بمقتضيات
الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والاعمال الصالحة **فنقول** قد قدمنا ان الصبر عبارة عن مصارعة
باعث الدين مع باعث الهوى وكل متصارعين اردنا ان يغلب احدهما الاخر فلا طريق لنا فيه الا تقوية من اردنا ان تكون
له اليد العليا وتضعيف الاخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فاما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه
ثلثة امور احدها ان ينظر الى مادة قوتها وهي الاغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها فلابد من قطعها
بالصوم الدائم مع الاقتصار عند الافطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والاطعمة المهيجة للشهوة
والثاني قطع اسبابه المهيجة له في الحال فانه انما يهيج بالنظر الى مظان الشهوة اذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا
يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم النظرة سهم
مسموم من سهام ابليس وهذا سهم يسدده الملعون ولا مانع منه الا تغميض الاجفان والهرب من صوب رميه فانه انما يرمي هذا
السهم عن قوس الصور فاذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه **والثالث** تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح
فان كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات ما يغني عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الانفع في حق الاكثر فان قطع الغذاء قد يضعف عن سائر الاعمال
ثم لا يقمع الشهوة في حق اكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء فهذه
ثلثة اسباب **فالعلاج الاول** وهو قطع الطعام يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوته
والثاني يضاهي تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها **والثالث** يضاهي تسليتها
بشيء قليل مما يميل اليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التاديب واما تقوية باعث الدين فانما يكون بطريقين احدهما

الطاعة في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن
عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الآثار أن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة إذ فاته ما لا يبقى معه
إلا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر ومن أسلم خسيسا في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوت الخسيس في الحال وهذا من
المعارف وهو من الإيمان وتارة يضعف وتارة يقوى فإن قوي قوي باعث الدين وهيجه تهييجا شديدا وإن ضعف ضعفه وإنما قوة
الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر والثاني أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر
فيستجرئ عليها وتقوى منته في مصارعتها فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال
ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين وبالجملة الممارسين للأعمال الشاقة على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصلحاء
وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة فالعلاج الأول يضاهي إطماع المصارع في الخلعة عند الغلبة ووعده بأنواع الكرامة كما
وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى عليه السلام حيث قال وإنكم إذا لمن المقربين والثاني يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه
المصارعة والمقاتلة المباشرة لأسباب ذلك منذ الصبى حتى يأنس به ويستجرئ عليه وتقوى فيه منته فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر
ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد فهذا منهاج
العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه وإنما أشقها كف الباطن عن حديث النفس وإنما يشتد ذلك على من تفرغ
له بأن قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر فإن الوساوس لا تزال تجاذبه من جانب إلى جانب وهذا
لا علاج له البتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء ثم الاعتزال
إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصر الهموم هما واحدا وهو الله عز وجل
ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير بالباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله
وسائر أبواب معرفة الله حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه وإن لم يكن له سير بالباطن
فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من القراءة والأذكار والصلوات ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فإن
الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها إذ لا يخلو
في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالطه
إذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة فهذا أحد الأنواع الشاغلة **وأما النوع الثاني** فهو ضروري
أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعايش فإن تهيئة ذلك أيضا يحوج إلى شغل إن تولاه
بنفسه وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم يهجم
به ملمة أو واقعة وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر الفكر وينكشف فيه من أسرار الله في ملكوت السموات والأرض
ما لا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن
تنال بالاكتساب والجهد فأما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله في الأحوال والأعمال فذلك يجري

مجرى

مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقد يقل الجهد ويكثر الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ والمعول
وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فإنها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد نعم
اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فإن المجذوب إلى أسفل السافلين لا ينجذب
إلى أعلى عليين وكل مهموم بالدنيا فهو مجذوب إليها فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم
إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله
وفي السماء رزقكم وما توعدون وهذا من أعلى أنواع الرزق والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى ييسر الله
أسباب الرزق فما علينا إلا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض وينقيها
من الحشيش ويبث البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطر ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر إلا أنه يثق بفضل الله أنه لا يخلي
سنة عن مطر ولذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات فينبغي أن يكون العبد قد طهر
أرض القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيها بذر الإرادة والإخلاص وعرضها لمهاب رياح الرحمة وكما تقوى
انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيث فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد
القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان فإن الهمم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله لاستدرار رحمة الله حتى
تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء وهي لاستدرار أمطار المكاشفات وبطائن لطائف من خزائن الملكوت
أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار بل الأحوال والمكاشفات
حاضرة معك في قلبك وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها فلا تحتاج
إلا إلى أن تنكسر الشهوة وترفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب وإظهار ماء الأرض بحفر القني أسهل وأقرب
من نزاله إليها من الجبال والمكان البعيد فيحتبس عنها وللحجاب في القلب منسيا بالشغل عنه تسمى
جميع معارف الإيمان تذكرا فقال عز وجل وليتذكر أولو الألباب وقال تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل
من مدكر فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وإنما الصبر عن العلائق
كلها مقدم على الصبر عن الخواطر قال الجنيد المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق
في جنب الحق شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق وأشد
العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه فإن لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات
في الدنيا على نفوس العقلاء وكيف لا تكون أعلى اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله وهي الربوبية والربوبية
مطلوبة محبوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة للأمور الربوبية وعنه العبارة بقوله تعالى قل الروح من أمر ربي وليس
القلب مذموما على حبه لذلك فإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الأمر

ادحضه ابليس على كونه من عالم الامر فاضله واغواه وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب
سعادة الاخرة ليس الا بقا لا فنا فيه وعز لا ذل فيه وامنا لا خوف فيه وغنا لا فقر فيه وكمالا
لا نقصان فيه وهذه كلها من اوصاف الربوبية وليس مذموما على طلب ذلك بل حق كل عبد ان
يطلب ملكا عظيما لا اخر له وطالب الملك طالب العلو والعز والكمال لا محالة ولكن الملك ملكان
ملك مشوب بانواع الالام ومحفوف بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك
مخلد دائم لا يشوبه كدر ولا الم ولا يقطعه قاطع ولكنه اجل وقد خلق الانسان عجولا راغبا في العاجلة
فجا الشيطان وتوسل اليه بواسطة العجلة التي في طبعه فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة
وتوسل اليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور في الاخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الاخرة كما قال
صلى الله عليه وسلم الاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله سبحانه فانخدع المخذول بغروره واشتغل ب
طلب الدنيا وملكها على قدر امكانه ولم يبال الموفق بحبل غروره اذ علم مداخل مكره فاعرض عن العاجلة
فعبر عن المخدوعين فقال تعالى كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الاخرة وقال تعالى ان هؤلاء يحبون العاجلة
ويذرون وراءهم يوما ثقيلا وقال تعالى فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك
مبلغهم من العلم ولما عظم مكر الشيطان في كافة الخلق ارسل الله الملائكة الى الرسل فاوحوا اليهم ما تم على
الخلق من اهلاك عدوهم واغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق الى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا اصل له
ان سلم ولا دوام له اصلا فنادوهم يا ايها الذين امنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم
الى الارض الاية فالتورية والانجيل والزبور والقران وصحف موسى عليه السلام وكل كتاب انزل ما انزل
الا لدعوة الخلق الى الملك الدائم المخلد والمراد منهم ان يكونوا ملوكا في الدنيا ملوكا في الاخرة اما ملك
الدنيا فالزهد فيها والقناعة باليسير منها واما ملك الاخرة فالقرب من الله بدرك بقا لا فنا فيه وعز
لا ذل فيه وقرة عين اخفيت في هذا العالم لا يعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم الى ملك الدنيا لعلمه
بان ملك الاخرة يفوت به اذ الدنيا والاخرة ضرتان وبعلمه بان الدنيا لا تسلم لهم ايضا وان كانت تسلم لكان
يحسده ايضا ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والكدورات وطول الهموم في التدبيرات وكذلك سائر اسباب
الحياة ثم كانت لا تسلم ثم تنتهي الاسباب بنقص العمر حتى اذا اخذت الارض زخرفها الاية فضرب الله لها مثلا وقال
واضرب لهم مثل الحياة الدنيا الى قوله الرياح والزهد في الدنيا لما ان كان ملكا حاضرا حسده الشيطان
عليه فصده عنه **ومعنى الزهد** ان يملك العبد شهوته وغضبه فينقادا لباعث الدين واشارة الايمان
وهذا ملك بالاستحقاق اذ به يصير صاحبه حرا وباستيلا الشهوة عليه يصير عبدا لبطنه وفرجه وسائر

اغراضه

اغراضه فيكون مسخرا مثل البهيمة مملوكا يستسخره زمام الشهوة اخذا بمخنقه الى حيث يريد ويهوى فما اعظم
اغترار الانسان اذ ظن انه ينال الملك بان يصير مملوكا وينال الربوبية بان يصير عبدا ومثل هذا هل يكون
الا معكوسا في الدنيا منكوسا في الاخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد هل من حاجة قال رحمه الله
كيف اطلب منك حاجة وملكي اعظم من ملكك فقال كيف فقال من انت عبده فهو عبد لي فقال فكيف ذلك
قال انت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكتهم فكلهم عبيد لي فهذا اذا هو الملك
في الدنيا وهو الذي يسوق الى الملك في الاخرة فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والاخرة جميعا
والذين وفقوا للاستوا على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والاخرة جميعا فاذا عرفت الان معنى الملك
والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبيسه سهل عليك النزوع
عن الملك والجاه والاعراض عنه والصبر عند فواته اذ تصير بتركه ملكا في الحال وترجو به ملكا في الاخرة
ومن كوشف بهذه الامور بعد ان الف الجاه وانس به ورسخ فيه بالعادة لمباشرة اسبابه فيعسر عليه الصبر
مع الاسباب كما يهرب من غلبة الشهوة عن مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الارض
اذ قال تعالى الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها **الثاني** ان يكلف نفسه في اعماله افعالا تخالف
ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل وزي الحشمة بزي التواضع وكذلك كل هيئة وحالة وفعل في مسكن
وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفق مقتضى جاهه فينبغي ان يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد
ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده فلا معنى للمعالجة الا المضادة **الثالث** ان يراعي في ذلك
التلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة الى الطرف الاقصى من التبذل فان الطبع نفور ولا يمكن نقله عن
اخلاقه الا بالتدريج فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض ثم اذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدا بترك البعض
من ذلك البعض الى ان يقنع بالبقية وهكذا يفعل شيا شيا الى ان يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه والى هذا التدريج
الاشارة بقوله عليه السلام لا تشادوا هذا الدين فان من شاده يغلبه فاذا ما ذكرناه من علاج الصبر في جميع
الاقسام التي فصلناها من قبل فان تفصيل احاده يطول ومن اعظم التدريج ترقيه الصبر الى حالة يشق عليه الصبر
معه فتنعكس اموره فيصير ما كان عنده محبوبا عنده ممقوتا وما كان مكروها عنده مشربا هنيا لا يصبر عنه وهذا
لا يعرف الا بالتجربة والذوق وله نظير في العادات فان الصبي يحمل على التعلم في الابتدا قهرا فيشق عليه الصبر عن اللعب
والصبر مع العلم حتى اذا انفتحت بصيرته وانس بالعلم انقلب الامر فصار يشق عليه الصبر عن التعلم والصبر على اللعب والى
هذا يشير ما حكي عن بعض العارفين رحمهم الله انه سال الشبلي عن الصبر ايه اشد فقال الصبر في الله تعالى فقال لا فقال الصبر
لله فقال لا فقال الصبر مع الله قال لا قال فايش قال الصبر عن الله فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف وقد

قيل في معنى قوله تعالى اصبروا وصابروا ورابطوا اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وقيل الصبر لله غنى والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وقد قيل في معناه والصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر في سائر الاشياء محمود وقيل الصبر يجمل في المواطن كلها الا عليك فانه لا يجمل فهذا آخر ما اوردناه من علوم الصبر واسراره ويتلوه الشطر الثاني

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر

وله ثلثه اركان الركن الاول في فضيلة الشكر وحقيقته واقسامه واحكامه الركن الثاني في حقيقة النعم واقسامها الخاصة والعامة الركن الثالث في بيان الافضل من الصبر والشكر

الركن الاول في نفس الشكر بيان فضيلة الشكر

اعلم ان الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع انه قال تعالى ولذكر الله اكبر فقال تعالى فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون وقال الله تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وقال تعالى وسنجزي الشاكرين وقال تعالى اخبارا عن ابليس اللعين لاقعدن لهم صراطك المستقيم الى قوله شاكرين وقال تعالى وقليل من عبادي الشكور وقد قطع الله المزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى ولئن شكرتم لازيدنكم واستثنى في خمسة في الاغناء والاجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء وقال تعالى فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وقال تعالى يرزق من يشاء ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال تعالى ويتوب الله على من يشاء وهو خلق من اخلاق الربوبية اذ قال تعالى والله شكور حليم وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام اهل الجنة فقال تعالى وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وقال تعالى وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين

واما الاخبار

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر وروي عن عطاء انه قال دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت اخبرينا باعجب ما رايت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت واي شأنه لم يكن عجبا انه اتاني ليلة فدخل معي في فراشي او قالت في لحافي حتى مس جلده جلدي ثم قال يا ابنة ابي بكر ذريني اتعبد لربي قالت قلت اني احب قربك فاذنت له فقام الى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع راسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر قال افلا اكون عبدا شكورا ولم لا افعل وقد انزل علي ان في خلق السموات والارض الآية وهذا يدل على ان البكاء ينبغي ان لا ينقطع ابدا والى هذا السر يشير ما روي ان بعض الانبياء عليهم السلام مر بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فانطقه الله تعالى فقال منذ سمعت قوله تعالى وقودها الناس والحجارة فانا ابكي من خوفه فسأله ان يجيره من النار فاجاره ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال لم تبكي الآن فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة او اشد قسوة ولا تزول قسوته الا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ينادي يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن الحمادون قال الذين يشكرون الله على كل حال

وفي لفظ

وفي لفظ آخر الذين يشكرون الله على السراء والضراء وقال صلى الله عليه وسلم الحمد رداء الرحمن واوحى الله تعالى الى ايوب عليه السلام اني رضيت بالشكر مكافاة من اوليائي في كلام طويل واوحى الله اليه ايضا في صفة الصابرين ان دارهم دار السلام اذا دخلوها الهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر استزيدهم وبالنظر الي ازيدهم ولما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر رضي الله عنه اي المال نتخذ فقال عليه السلام ليتخذ احدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا فامر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال وقال ابن مسعود رضي الله عنه الشكر نصف الايمان

بيان حد الشكر وحقيقته

اعلم ان الشكر من جملة مقامات السالكين وهو ايضا ينتظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الاصل فيورث الحال والحال يورث العمل فاما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الاحاطة بحقيقة الشكر فان كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكمال معانيه

الاصل الاول

العلم وهو علم ثلثة امور بعين النعمة ووجه كونها نعمة في حقه وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الانعام ويصدر الانعام منه عليه فلا بد من نعمة ومنعم ومنعم عليه تصل اليه النعمة من المنعم بقصد وارادة فهذه الامور لا بد من معرفتها هذا في حق غير الله تعالى فاما في حق الله تعالى فلا يتم الا بان يعرف ان النعم كلها من الله وهو المنعم والوسائط مسخرون من جهته وهذه المعرفة وراء التقديس والتوحيد اذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل الرتبة الاولى في معارف الايمان التقديس ثم اذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف انه لا مقدس الا واحد وما عداه غير مقدس وهو التوحيد ثم يعلم ان كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط والكل نعمة منه فيقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة اذ تنطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا اله الا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلثون حسنة وقال عليه السلام افضل الذكر لا اله الا الله وافضل الدعاء الحمد لله وقال ليس شيء من الاذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله ولا تظنن ان هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ولا اله الا الله كلمة تدل على التوحيد والحمد لله تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق فالحسنات بازاء هذه المعارف التي هي من ابواب الايمان واليقين واعلم ان تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الافعال فمن انعم عليه ملك من الملوك بشيء فان رأى لوزيره او وكيله دخلا في ايصال ذلك اليه فهو اشراك له مع الملك في النعمة فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه بل منه بوجه ومن غيره بوجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا في حق الملك نعم لا يقدح في توحيده في حق الملك وكمال شكره ان يرى النعمة واصلة اليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه وبالكاغد الذي كتب عليه فانه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما لانه لا يرى لهما مدخلا من حيث هما موجودان مسخران تحت قدرة الملك وقد يعلم ان الوكيل الموصل والخازن ايضا مضطران من جهة الملك في الايصال وانه لو رد الامر اليهما ولم يكن من جهة الملك ارهاق وامر جزم خاف عاقبته لما اعطاه شيئا فاذا عرف ذلك كان نظره الى الخازن الموصل كنظره الى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا في توحيده من اضافة

من اضافة النعم الى الملوك وذلك من عرف الله وعرف افعاله علم ان الشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره كالقلم مثلا في يد
الكاتب وان الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها وان الله تعالى هو المسلط للدواعي عليها لتفعل شاءت ام ابت
كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلا الى مخالفة الملك ولو خلي ونفسه ما اعطاك ذرة مما في يده فكل من وصل اليك
نعمة الله على يده فهو مضطر اذ سلط الله عليه الارادة وهيج عليه الدواعي والقى في قلبه ان خيره في الدنيا والاخرة في ان يعطيك
ما اعطاك وان غرضه المقصود عنده في الحال والمال لا يحصل الا به وبعد ان خلق الله له هذا الاعتقاد فلا يجد سبيلا
الى تركه فهو اذا انما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه في العطا لما اعطاك ولو لم يعلم ان منفعته في منفعتك
لما نفعك فهو اذا انما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعما عليك بل اتخذك وسيلة الى نعمة اخرى هو يرجوها وانما الذي
انعم عليك هو الذي سخره لك والقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطرا الى الايصال اليك واذا عرفت
الامور كذلك فقد عرفت الله وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا
ولذلك قال موسى عليه السلم في مناجاته الهي خلقت ادم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك فقال علم ان ذلك مني فكانت معرفته
شكرا فاذا لا تشكر الا بان تعرف ان الكل منه وان خالجك ريب في هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم ولا تفرح بالمنعم وحده
بل بغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك وبنقصان حالك ينقص عملك فهذا بيان هذا الاصل **الاصل الثاني الحال**
المستمد من اصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو ايضا في نفسه شكر على تجرده
كما ان المعرفة شكر ولكن انما يكون شكرا اذا كان جامعا شرطه وشرطه ان يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالانعام
ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثالا **فنقول** الملك الذي يريد الخروج الى سفر فانعم بفرس على انسان يتصور
ان يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلثة اوجه احدها ان يفرح بالفرس من حيث انه فرس وانه مال ينتفع به
ومركوب يوافق غرضه وانه جواد نفيس وهذا فرح من لا حظ له في الملك بل غرضه الفرس ولو وجده في صحرا فاخذه
لكان فرحه مثل ذلك والوجه الثاني ان يفرح لا من حيث انه فرس بل يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه
واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس في صحرا او اعطاه غير الملك لكان لا يفرح به اصلا لاستغنائه عن الفرس اصلا او
لاستحقاره به بالاضافة الى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك الوجه الثالث ان يفرح به ليركبه فيخرج في خدمة الملك
ويحتمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه ويرتقي الى درجة الوزارة من حيث انه ليس يقنع بان يكون محله في قلب الملك
بشي من عنايته على حد الا بواسطته انه ليس يريد من الوزارة ايضا الا مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب
دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب حتى لو خير بين القرب دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب
فهذه ثلاث درجات فالاولى لا يدخل فيها معنى الشكر اصلا لان نظر صاحبها مقصور على الفرس فرحه بالفرس لا بالمعطي
وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث انها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر والثاني داخل في معنى
الشكر

الشكر من حيث انه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الانعام في المستقبل
وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه وانما الشكر التام في الفرح الثالث
وهو ان يكون فرح العبد بنعمة الله من حيث انه يقدر بها على التوصل الى القرب منه والنزول في جواره والنظر الى
وجهه على الدوام فهذا هو الرتبة العليا وامارته ان لا يفرح من الدنيا الا بما هو مزرعة الاخرة ومعينة عليها
ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله وتصده عن سبيله لانه ليس يريد النعمة لانها لذيذة كما لم يرد صاحب الفرس
الفرس لانه جواد مهملج بل من حيث انه يحمله في صحبة الملك حتى يدوم مشاهدته له والقرب منه ولذلك قال الشبلي
رحمه الله الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة وقال الخواص رحمه الله شكر العامة على المطعم والملبس وشكر الخاصة على واردات
القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الالوان والاصوات
وخلا عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ في حال الصحة الا بذكر الله ومعرفته ولقائه وانما يلتذ بغيره اذا مرض بسوء العادات
كما يلتذ بعض الناس باكل الطين وكما يستبشع المرضى الاشياء الحلوة ويستحلي الاشياء المرة وقيل
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا فهذا شرط الفرح بنعمة الله فان لم يكن اهلا لفرح وان لم يكن هذا
فالدرجة الثانية اما الاولى فخارجة عن كل حساب فمن فرح من ربه الا لينعم عليه وكم من عبد الله ليصل بها اليه
الاصل الثالث العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم وهذا العمل يتعلق بالقلب واللسان والجوارح
اما بالقلب فقصد الخير واضماره لكافة الخلق واما باللسان فاظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه واما بالجوارح
فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته حتى ان شكر العينين ان تستر كل عيب تراه لمسلم
وشكر الاذنين ان تستر كل عيب تسمعه فيدخل هذا في جملة شكر نعمة هذه الاعضاء والشكر باللسان لاظهار الرضا عن الله
وهو مامور به وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل كيف اصبحت فقال بخير فاعاد السوال حتى قال في الثالثة احمد الله واشكره
فقال هذا الذي اردت منك وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا
وما كان قصدهم الريا باظهار الشكر وكل عبد سئل عن حال فهو بين ان يشكر او يشكو او يسكت فالشكر طاعة والشكوى
معصية قبيحة من اهل الدين وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك الى عبد مملوك لا يقدر على شي فالاحرى بالعبد ان لم
يحسن الصبر على البلاء والقضاء وافضى به الضعف الى الشكوى ان تكون شكواه الى الله فهو المبلي والقادر على ازالة البلاء
وذل العبد لمولاه عز وشكواه الى غيره ذل واظهار الذل للعبيد مع كونهم اذلا قبيح قال تعالى ان الذين تعبدون من دون الله
عباد امثالكم فالشكر باللسان من جملة الشكر وقد روي ان وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم
فقال عمر الكبر الكبر فقال يا امير المومنين لو كان الامر بالسن لكان في المسلمين من هو اسن منك فقال تكلم فقال لسنا وفد
الرغبة ولا وفد الرهبة اما الرغبة فقد اوصلها الينا فضلك واما الرهبة فقد امننا منها عدلك وانما نحن وفد الشكر

جنابه لتشكره بالثناء وتعرف نفسه عبده فهي من اصول معاني الشكر المحيطة بجميع حقيقته فاما قول من قال ان الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم
على وجه الخضوع فهو نظر الى فعل اللسان مع بعض احوال القلب وقول من قال ان الشكر هو الثناء على المحسن بذكر احسانه نظر الى مجرد
عمل اللسان وقول القائل ان الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة جامع لمعاني الشكر لا يشذ منه الا عمل اللسان
وقول حمدون القصار شكر النعمة ان ترى نفسك فيه طفيليا اشارة الى معنى المعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجنيد
الشكر ان لا ترى نفسك اهلا للنعمة اشارة الى حال من احوال القلب على الخصوص وهذه الاقوال تعرب عن احوال السائلين ولذلك
تختلف اجوبتهم ولا تتفق ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لانهم لا يتكلمون الا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا
بما يهمهم او يتكلمون بما يرونه لائقا بحال السائل اقتصارا على ذكر القدر الذي يحتاج اليه واعراضا عما لا يحتاج اليه
فلا ينبغي ان تظن بما ذكرناه طعنا عليهم وانه لو عرض عليهم مجامع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها بل لا يظن
ذلك بعاقل اصلا الا ان نعرض منازعة من حيث اللفظ في ان اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني او يتناول
بعضها مقصودا ويتبع المعاني يكون من توابعه ولوازمه فلسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم
طريق الآخرة في شيء **بيان كيفية طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله** لعله يخطر ببالك ان الشكر انما يعقل
في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر فانا نشكر الملوك اما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به
صيتهم وجاههم وبالخدمة التي هي اعانة لهم على بعض اغراضهم او بالمثول بين ايديهم في صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم
وسبب لزيادة جاههم ولا يكون شكرهم الا بشيء من ذلك وهذا محال في حق الله من وجهين احدهما ان الله تعالى منزه عن
الحظوظ والاغراض مقدس عن الحاجة الى الخدمة والاعانة وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والاطراء وعن تكثير سواد الخدم بالمثول
بين يديه راكعا وساجدا فشكرنا اياه بما لا حظ له فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بان ننام في بيوتنا او نسجد او نركع اذ لا
ملاحظ للملك فيه ولا حظ لله تعالى في افعالنا كلها والوجه الثاني ان جميع ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة اخرى
من نعم الله اذ جوارحنا وقدرتنا وداعيتنا وارادتنا وسائر الامور التي هي اسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله ونعمته فكيف
نشكر نعمة بنعمة ولو اعطانا الملك مركوبا فاخذنا مركوبا آخر وركبناه واعطانا مركوبا آخر لم يكن الثاني شكرا للاول منا
بل كان الثاني يحتاج الى شكر كما يحتاج الاول ثم لا يمكن شكر الشكر الا بنعمة اخرى فيؤدي الى ان يكون الشكر محالا في حق الله
من هذين الوجهين ولسنا نشك في الامرين جميعا والشرع قد ورد به فكيف السبيل الى الجمع فاعلم ان هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام
وكذلك لموسى عليه السلام فقال يا رب كيف اشكرك وانا لا استطيع ان اشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك وفي لفظ آخر وشكري لك نعمة
اخرى منك توجب علي الشكر لك فاوحى الله اليه اذا عرفت هذا فقد شكرتني وفي خبر آخر اذا عرفت ان النعمة مني فقد رضيت
منك بذلك شكرا **فان قيل** فقد فهمت السؤال فهم قاصر عنا دليله معنى ما اوحي اليه فانا نعلم استحالة الشكر لله تعالى فكيف صار
كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا نعرف فان هذا العلم ايضا نعمة منه فكيف صار شكرا وكان الحاصل يرجع الى ان من لم يشكر

فقد

فقد شكر وان قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الاولى والفهم قاصر عن ادراك السر فيه فان امكن تعريفه بذلك
بمثال فهو مهم في نفسه فاعلم ان هذا طرف من باب من المعارف وهي اعلى من علوم المعاملة ولكنا نشير منها الى ملامح **ونقول**
ههنا نظران نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعا انه الشاكر وانه المشكور وانه المحب وانه المحبوب وهذا
نظر من عرف انه ليس في الوجود غيره وان كل شيء هالك الا وجهه وان ذلك صدق في كل حال ازلا وابدا لان
الغير هو الذي يتصور ان يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال ان يوجد اذ الموجود المحقق
هو القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره فان اعتبر ذاته
ولم يلتفت الى غيره لم يكن له وجود البتة وانما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي
موجودا فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم الا الواحد ولا يتصور ان يكون غيره
فاذا ليس في الوجود غير الحي القيوم وهو الواحد الصمد فاذا نظرت من هذا المقام علمت ان الكل منه مصدره واليه مرجعه
فهو الشاكر هو المشكور وهو المحب هو المحبوب ومن ههنا نظر حبيب بن ابي حبيب رحمه الله حيث قرأ قوله تعالى انا وجدناه
صابرا نعم العبد انه اواب فقال واعجباه اعطى واثنى اشارة الى انه اذا اثنى على عطائه فعلى نفسه اثنى فهو المثني وهو المثنى
عليه ومن ههنا نظر الشيخ ابو سعيد الميهني رحمه الله حيث قرئ بين يديه يحبهم ويحبونه فقال بحق يحبهم ودعه
يحبهم فبحق يحبهم لانه انما يحب نفسه اشارة الى انه المحب وانه المحبوب وهذه رتبة عالية لا تفهمها الا بمثال على حد عقلك
ولا يخفى عليك ان المصنف اذا احب تصنيفه فقد احب نفسه والصانع اذا احب صنعته فقد احب نفسه والوالد اذا احب
ولده من حيث هو ولده فقد احب نفسه وكل ما في الوجود سوى الله فهو تصنيف الله وصنعته فان احبه فما احب الا نفسه واذا
لم يحب الا نفسه فبحق احب ما احب هذا كله نظر بعين التوحيد وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس اي فني عن نفسه
وعن غير الله فلم ير الا الله فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول كيف فني وطول ظله اربعة اذرع ولعله يأكل في كل يوم ارطالا
من الخبز فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعاني كلامهم وضحكة العارفين يكون على الجهال اوفى الا تراه قال الله تعالى
ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون الى قوله حافظين ثم بين ان ضحك العارفين
عليهم اعظم اذ قال فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون الآية وقال نوح عليه السلام ان تسخروا منا فانا نسخر منكم
كما تسخرون فهذا احد النظرين **النظر الثاني** نظر من لم يصل الى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء فريقان فريق
لم يثبتوا الا وجود انفسهم وانكروا ان يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم في كلتي العينين
لانهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به ولم
يقتصروا على هذا حتى اثبتوا انفسهم ولو عرفوا لعلموا انهم من حيث هم هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم وانما وجودهم
من حيث اوجدوا لا من حيث وجدوا وفرق بين الموجود وبين الموجد وليس في الوجود الا موجود واحد

وموجد والموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان واذا كان
كل من عليها فان فلا يبقى الا وجه ربك ذو الجلال والاكرام **القسم الثاني** من لهم عين ولكن لهم عين فانهم يبصرون
فانهم بالعينين وجود الموجود الحق فلا يتركونه والعين الاخرى انهم عماها لم يبصرونها فنا غير الموجود الحق فاثبت
موجود الاخر مع الله تعالى وهذا شرك حقيقة كما كان الذي قبله جاحدا حقيقة فاجاوز حد العمى الى العمش او درجة
تفاوتا بين الموجودات فاثبت عبدا وربا فبهذا القدر من اثبات البينية القصر من الموجود الاخر ودخل في حد
التوحيد ثم ان تكحل بصره بما يزيد في انواره فيقل غمشه ويقدر ما يزيد في بصره يظهر له من نقصان ما اثبته سوى الله
فان دام في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به النقصان الى المحو فينمحي عن رؤيته ما سوى الله فلا يرى الا الله فيكون قد بلغ
كمال التوحيد وحيث ادرك نقصانا في وجود ما سوى الله دخل في اوايل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فبهذا تفاوت
درجات الموحدين وكتب الله على الفيه رسله هي الكحل الذي يحصل به انوار الابصار والانبياء الكحالون وقد جاوا داعين
الى التوحيد المحض وترجمته قول لا اله الا الله ومعناه ان لا يرى الا الواحد الحق والواصلون الى كمال التوحيد هم الاقلون
والجاحدون والمشركون ايضا قليلون وهم على الطرف الاقصى المقابل لطرف التوحيد اذ عبدة الاوثان قالوا انما نعبدهم
ليقربونا الى الله زلفى فكانوا داخلين في اوايل ابواب التوحيد وهولاء ضعفاء والمتوسطون هم الاكثرون وفيهم من تنفتح
بصيرته في بعض الاحوال فتلوح له حقايق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا
ما ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز لكل اذا شا العلى حركات وكل عزيز في الرجال ثبات ولما امر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم
بطلب القرب فقيل له واسجد واقترب قال في سجوده اعوذ بعفوك من عقابك واعوذ برضاك من سخطك واعوذ
بك منك لا احصي ثنا عليك انت كما اثنيت على نفسك فقوله اعوذ بعفوك من عقابك كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكانه
لم ير الا الله وافعاله فاستعاذ بفعله من فعله ثم اقترب ففني عن مشاهدة الافعال وترقى الى مصادر الافعال وهي الصفات
فقال اعوذ برضاك من سخطك وهما صفتان ثم راى ذلك نقصانا في التوحيد فاقترب ورقا من مقام مشاهدة الصفات
الى مشاهدة الذات فقال اعوذ بك منك وهذا فرار منه اليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه راى نفسه فارا منه اليه ومستعيذا
ومثنيا ففني عن مشاهدة نفسه اذ راى ذلك نقصانا واقترب فقال لا احصي ثنا عليك انت كما اثنيت على نفسك فقوله
لا احصي خبر عن فنا نفسه وخروجه عن مشاهدتها وقوله انت كما اثنيت على نفسك بيان انه المثني والمثنى عليه وان الكل منه
بدا واليه يعود وان كل شي هالك الا وجهه فكان اول مقامه نهاية مقام الموحدين وهو ان لا يرى الا الله وافعاله
فستعيذ بفعل من فعل وانظر الى ما اذا انتهت نهايته اذ انتهى الى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومن مشاهدته سوى الذات
الحق ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة الى اخرى الا ويرى الاول بعدا بالاضافة الى الثانية فكان يستغفر الله من الاولى
ويرى ذلك نقصانا في سلوكه وتقصيرا في مقامه واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم

والليلة

والليلة فكان ذلك لترقيه الى سبعين مقاما بعضها بعد البعض وان كان مجاوزا اقصى غايات الخلق ولكن كان نقصانا
بالاضافة الى اواخرها فكان استغفاره لذلك ولما قالت عايشة رضي الله عنها قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما
تاخر فما هذا البكا في السجود وما هذا الجهد الشديد قال افلا اكون عبدا شكورا معناه افلا اكون طالبا للمزيد في المقامات
فان الشكر سبب الزيادة حيث قال الله تعالى لئن شكرتم لازيدنكم واذ تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان ولنرجع
الى ما يليق بالمعاملة **فنقول** الانبيا بعثوا لدعوة الخلق الى كمال التوحيد الذي وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول
اليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وانما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند
ذلك يكون النظر عن مشاهدة اخرى ومقام اخر فيظهر في ذلك المقام وبالاضافة الى ذلك المشاهد الشكر والشاكر
والمشكور ولا نعرف ذلك الا بمثال **فاقول** يمكنك ان تفهم ان ملكا من الملوك ارسل الى عبد قد بعد منه مركوبا
وملبوسا ونقدا لاجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان
احداهما ان يكون قصده من وصول العبد الى حضرته ان يقوم ببعض مهماته ويكون له عنا في خدمته والثانية
ان لا يكون للملك حظ في العبد والحاجة به اليه بل حضوره لا يزيد في ملكه لانه لا يقوى على القيام بخدمة
تغني عنه غنا وغيبته لا تنقص من ملكه فيكون قصده من الانعام عليه بالمركوب والزاد ان يحظى العبد بالقرب
منه وينال سعادة حضرته وينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه فمنزل العباد من الله تعالى
المنزلة الثانية لا في المنزلة الاولى فان الاولى محال على الله والثانية غير محال ثم اعلم ان العبد لا يكون شاكرا في الحالة الاولى
بمجرد الركوب والوصول الى حضرته ما لم تنفق منه في ارادة الملك منه واما في الحالة الثانية فلا يحتاج الى الخدمة اصلا ومع
ذلك يتصور ان يكون شاكرا وكافرا ويكون شكره بان يستعمل ما انفذه اليه مولاه فيما احبه لاجله لا لاجل نفسه كي
ان لا يستعمل في المعصية بل يعطله او يستعمله فيما يزيد بعده منه فهما لبس العبد الثوب وركب المركوب ولم يسلك الطريق الا في
الطريق فقد شكر مولاه اذا استعمل نعمته مجتنبا اي فيما احبه لعبده لا للنفع وان ركبه واستدبر حضرته واخذ يبعد منه فقد
كفر نعمته اي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا للنفع وان جلس لم يركب لا في طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر ايضا نعمته
اذ اهملها وعطلها وان كان هذا دون ما لو ابعد عنه فكذلك خلق الله الخلق وهم في ابتدا فطرتهم يحتاجون الى استعمال
الشهوات لتكمل بها ابدانهم فيبعدون بها من حضرته وانما سعادتهم في القرب منه فاعد لهم من النعم ما يقدرون على استعماله
في نيل درجة القرب عن بعدهم وقربهم عبر تعالى اذ قال لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين
الا لاجل العبد حتى ينال به سعادة القرب والله غني عنه قربوا او بعدوا والعبد فيه بين ان يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر
لموافقه محبة مولاه وبين ان يستعملها في المعصية فقد كفر لاقتحامه لما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فان الله لا يرضى لعباده
الكفر والمعصية وان عطلها ولم يستعملها في طاعة ولا في معصية فهو ايضا كفران النعمة بالتضييع وكل ما خلق في الدنيا

انما خلق الله العبد ليتوصل به الى السعادة الاخرة ونيل القرب من الله فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر لنعمة الله في الاسباب
التي استعملها في الطاعة وكل كسلان ترك الاستعمال او عصى فاستعمل طريق البعد فهو كافر جاحد في غير محبة الله والمعصية
والطاعة تشملهما المشية لكن لا تشملهما المحبة والكراهة بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه ووراء هذه
الدقيقة سر القدر الذي منع من افشايه وقد انحل بهذا الاشكال الاول وهو انه اذا لم يكن للشكور حظ فكيف يكون
للشكر وبهذا ايضا ينحل الثاني فانا لم نعن بالشكر الا انصراف نعمة الله الى جهة محبة الله فاذا انصرفت النعمة الى جهة المحبة بفعل
الله فقد حصل المراد وفعلك عطاء الله من حيث انت محله فقد اثنى عليك وثناؤه نعمة اخرى منه اليك فهو الذي اعطى
وهو الذي اثنى وصار احد فعليه سببا لانصراف فعله الثاني الى جهة محبته فله الشكر على كل حال وانت موصوف بانك
شاكر بمعنى انك محل للمعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى انك موجد له كما انك موصوف بانك عارف وعالم لا بمعنى انك
خالق العلم وموجده ولكن بمعنى انك محل له وقد وجد بالقدرة الازلية فيك فوصفك بانك شاكر اثبات لشيئيتك وانت
شي اذ جعلك خالق الاشيا شيا وانما انت لا شي اذ كنت انت طانا لنفسك شيئية من ذاتك فاما باعتبار النظر الى الذي
جعل الاشيا اشيا فانت شي اذ جعلك شيا فان قطع النظر عن جعله كنت لا شيا تحقيقا والى هذا اشار صلى الله عليه وسلم حيث قال
اعملوا فكل ميسر لما خلق له لما قيل فقيم العمل اذا كانت الاشيا قد فرغ منها من قبل فبين ان الخلق مجاري قدرة الله ومحل
افعاله وان كانوا هم ايضا من افعاله ولكن بعض افعاله محل للبعض فقوله اعملوا وان كان جاريا على لسان الرسول صلى الله عليه
وسلم فهو فعل من افعاله وهو سبب لعلم الخلق بان العمل نافع وعلمهم فعل من افعال الله والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة
الى الحركة والطاعة وانبعاث الداعية ايضا من افعال الله وهو سبب لحركة الاعضا وهو ايضا فعل من افعال الله ولكن بعض افعاله
سبب للبعض اي الاول شرط الثاني كما ان خلق الجسم سبب لخلق العرض اذ لا يخلق العرض قبله وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق
العلم شرط لخلق الارادة والكل من افعال الله وبعضها سبب للبعض اي هو شرط ومعنى كونه شرطا انه لا يستعد لقبول فعل
الحياة الا جوهر ولا يستعد لقبول العلم الا ذو حياة ولا لقبول الارادة الا ذو علم فيكون بعض افعاله سببا للبعض بهذا المعنى
لا بمعنى ان بعض افعاله موجد لغيره بل يمهد شرط الحصول لغيره وهذا اذا حقق ترقى الى درجة التوحيد الذي ذكرناه فان قلت
فلم قال الله تعالى اعملوا والا فانتم معاقبون ومذمومون على العصيان وما الينا شي فكيف نذم وانما الكل الى الله فاعلم ان هذا
القول من الله سبب لحصول اعتقاد فينا والاعتقاد سبب لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الغرور وذلك
سبب للوصول الى جوار الله تعالى والله تعالى مسبب الاسباب ومرتبها فمن سبق له في الازل السعادة يسر له هذه الاسباب حتى يقوده
بسلسلتها الى الجنة ويعبر عن مثله بان كلا ميسر لما خلق له ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسوله عليه السلام
وكلام العلما رحمهم الله تعالى فاذا لم يسمع لم يعلم واذا لم يعلم لم يخف واذا لم يخف لم يترك الركون الى الدنيا بقي في حزب الشيطان
وان جهنم لموعدهم اجمعين فاذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل فما من احد الا وهو مقود الى الجنة بالسلاسل

الانبيا

الانبيا وهو تسليط العلم والخوف عليه وما من مخذول الا وهو مقود الى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة
والامن والغرور عليه فالمتقون يساقون الى الجنة قهرا والمجرمون يقادون الى النار قهرا ولا قاهر الا الله الواحد القهار
ولا قادر الا الملك الجبار واذا انكشف الغطا عن عين الغافلين فشاهدوا الامر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادي
لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم وانما ذلك اليوم على الخصوص ولكن الغافلين لا يسمعون
هذا النداء الا ذلك اليوم فهو نبا عما يتجدد للغافلين من كشف الاحوال حيث لا ينفعهم الكشف فنعوذ بالله من الجهل والعمى
اصل اسباب الهلاك

بيان تمييز ما يحبه الله عما يكرهه

اعلم ان فعل الشكر وترك الكفران لا يتم الا بمعرفة ما يحبه الله
اذ معنى الشكر استعمال نعمه في محابه ومعنى الكفر نقيض ذلك اما بترك الاستعمال او باستعماله في مكارهه ولتمييز ما يحبه الله عما يكرهه
مدركان احدهما السمع ومستنده الايات والاخبار والثاني بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار وهذا الاخير عسير وهو لاجل
ذلك عزيز فلذلك ارسل الله الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع احكام الشرع في افعال العباد
فمن لا يطلع على احكام الشرع في جميع افعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر اصلا واما الثاني وهو النظر بعين الاعتبار فهو ادراك حكمة الله
في كل موجود خلقه اذ ما خلق شيا في العالم الا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة
الى خفية وجلية اما الجلية فكالعلم بان الحكمة في خلق الشمس ان يحصل بها الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل لباسا
فتتيسر الحركة عند الابصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها بل فيها حكم اخرى كثيرة دقيقة
وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الامطار وذلك لانشقاق الارض بانواع النبات مطعما للخلق ومرعى للانعام وقد انطوى
القران على جملة من الحكم الجلية التي تحتملها افهام الخلق دون الدقيقة التي يقصرون عن فهمها اذ قال تعالى انا صببنا الما
صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا الاية واما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية لا يطلع عليها
كافة الخلق والقدر الذي يحتمله فهم الخلق انها زينة السما لتستلذ العين بالنظر اليها واشار اليه قوله تعالى انا زينا السما الدنيا
بزينة الكواكب فجميع اجزا العالم سماوه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته واعضاء حيواناته
لا تخلو ذرة منها عن حكم كثيرة من حكمة واحدة الى عشر الى الف الى عشرة الاف وكذلك اعضا الحيوان تنقسم الى ما تعرف حكمتها كالعلم بان العين
للابصار لا للبطش واليد للبطش لا للمشي والرجل للمشي لا للشم فاما الاعضا الباطنة من الامعا والمرارة والكلية والكبد وآحاد
العروق والاعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف
الحكمة فيها كافة الناس والذين يعرفونها لا يعرفون الا قدرا يسيرا بالاضافة الى علم الله تعالى وما اوتيتم من العلم الا قليلا فاذا
كل من استعمل شيئا في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي اريد به فقد كفر فيه نعمة الله فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد
اذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره ومن نظر الى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة
الشمس اذ الابصار يتم بهما وانما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما في غير ما اريد به

وهذا الآن لم أراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس
في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على الفكر
والذكر إلا بدوام البدن ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء والغذاء ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر
الأعضاء ظاهرا وباطنا فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس والراجع إلى الله هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة
ولذلك قال تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون فكل من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي
لا بد منها لإقدامه على تلك المعصية ولنذكر مثالا واحدا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريق الشكر
والكفران على النعم **فنقول** من نعم الله خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة في أعيانهما ولكن يضطر
الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك ما
يستغني عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ومن يملك الجمل ربما يستغني عنه ويحتاج إلى الزعفران فلا بد بينهما
من معاوضة ولا بد في مقدار العوض من تقدير إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة بين الجمل
والزعفران حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة وكذا من يشتري دارا بثياب أو عبدا بخف أو دقيقا بحمار فهذه الأشياء لا تناسب
فيها فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعذر المعاملات جدا فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينهما
يحكم فيها بعدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي
فخلق الله الدراهم والدنانير حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما فيقال هذا الجمل يسوى مائة وهذا القدر
من الزعفران يسوى مائة فهما من حيث إنهما متساويان بشيء واحد إذا متساويان وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لا غرض في أعيانهما
ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحا ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الأمر
فإذا خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدي ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ولحكمة أخرى وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما
عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانهما ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوبا
فإنه لم يملك إلا الثوب فلو احتاج إلى الطعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلا فاحتيج إلى شيء هو في صورته
كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء والشيء إنما تستوي نسبته إلى المختلفات إذا لم يكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها
كالمرآة لا لون لها وتحكي كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض وكالحرف لا معنى له في نفسه وتظهر به المعاني
في غيره فهذه هي الحكمة الثانية وفيهما أيضا حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود
بالحكم فقد كفر نعمة الله فيهما فإذا من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكم فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه لأنه إذا
كنز فقد ضيع ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدراهم لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لا غرض للآحاد في أعيانهما فإنهما
حجران وإنما خلقتا لتتداولهما الأيدي فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب فأخبر الله تعالى الذين
يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت الذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة
أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وصل إليهم بواسطة الحروف والصوت الذي عجزوا عن إدراكه فقال

والذين

والذين يكنزون الذهب والفضة الآية فكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا ممن كنز
النعمة فكنز لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة والكنس والأعمال التي تقوم بها أخساء الناس والحبس أهون
منه وذلك أن الخزف والحديد والنحاس والرصاص تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدد وإنما الأواني
لحفظ المائعات ولا يكفي الخزف والحديد في المقصود الذي أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل
له من شرب في آنية الذهب أو الفضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة
وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما إذ لا غرض في عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة إذ طلب النقد لغير
ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر أن يشتري به طعاما ودابة وربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب
فهو معذور في بيعه بنقد ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده وإنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانهما وموقعهما من الأموال
كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون هو الذي جاء لمعنى في غيره وكموقع المرآة من الألوان فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيع بالنقد
فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيدا عنده وينزل منزلة المكنوز وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم
كما أن حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للادخار وهو ظلم **فإن قيل** فلم جاز بيع أحد النقدين
بالآخر ولم جاز بيع الدرهم بمثله فاعلم أن أحد النقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث
كثرته كالدراهم تتفرق في الحاجات قليلا قليلا ففي المنع منه ما يشوش المقصود الخاص به وهو تيسر التوصل به إلى غيره وأما
بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فإنه عبث يجري
مجرى الدرهم على الأرض وأخذه ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ولا نمنع وضع
مما لا تتشوف النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر وذلك أيضا لا يتصور جريانه إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء
فلا ينتظم العقد وإن طلب زيادة في الرديء فذلك مما قد يقصده الآخر من ينعم منه وحكم بأن جيدها ورديئها سواء لأن الجود
والرداءة ينبغي أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه وما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينظر إلى مصادقة دقيقة في صفاته وإنما الذي ظلم
هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة حتى صارت في أعيانها وحقها أن لا تقصد وإذا باع درهما بدرهم مثله
فإنما لم يجز لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد للإحسان في القرض وهو مكرمة مندوب إليها لتبقى صورة المسامحة فيكون له
حمد وأجر في المعاملة وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها فإن فتح باب المعاملة
فيها يوجب تقييدها في الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذي أريد له فما خلق الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة
فينبغي أن تخرج عن يد المستغني عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغن عنها إذ من معه الطعام فلم لا يأكله
إن كان محتاجا ولم يجعله بضاعة تجارة فإن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن طلبه بعوض غير الطعام ليكون محتاجا
إليه فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغن عنه ولهذا لعن في الشرع المحتكر وورد فيه من التشديدات

ما ذكرناه اذ ابطلنا الكتب نعم بايع التمر بالتمر معذور اذ احدهما لا يسد مسد الاخر في الغرض وبايع صاع من البر بصاع منه غير معذور
ولكنه عابث فلا يحتاج الى منع لان النفوس لا تسمح به الا عند التفاوت في الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الردي
لا يرضى به صاحب الجيد واما جيد برديين فقد يقصد ولكن لما كانت الاطعمة من الضروريات والجيد يساوي الردي في اصل
الفايدة ويخالفه في وجوه التنعم اسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا وقد انكشف لنا
هذا بعد الاعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فانه اقوى من جميع ما اوردناه في الخلافيات وبهذا يتضح رجحان مذهب
الشافعي في التخصيص بالاطعمة دون المكيلات اذ لو دخل الجص فيه لكان الثياب والدواب اولى بالدخول ولولا الملح لكان
مذهب مالك رحمه الله اقوم المذاهب فيه اذ خصصه بالاقوات ولكن كل معنى رعاه الشرع فلا بد وان ينضبط بحد وتحديد
هذا اذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعوم فراى الشرع التحديد بجنس المطعوم احرى لكل ما هو ضرورة البقا
وتحديدات الشرع قد تحيط باطراف لا تقوى في اصل المعنى الباعث على الحكم ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة
ولو لم يحد لتحير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالاحوال والاشخاص فتعين المعنى بكمال قوته يختلف بالاحوال والاشخاص
فيكون الحد ضروريا ولذلك قال الله تعالى ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ولان اصول هذه المعاني لا تختلف
فيها الشرائع وانما تختلف في وجوه التحديد كما يحد شرع عيسى عليه السلام تحريم الخمر بالسكر وقد حده شرعنا بكونه من جنس
المسكرات لان قليله يدعو الى كثيره والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل اصل المعنى بالحكمة الالهية
فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين فينبغي ان تعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكلما خلق لحكمة فلا ينبغي
ان يصرف عنها ولا يعرف هذا الا من عرف الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا ولكن لا تصادف جواهر الحكمة في قلوب هي مزابل الشهوات
وملاعب الشياطين بل لا يتذكر الا اولو الالباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بني ادم لنظروا الى ملكوت
السموات فاذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركاتك وسكناتك ونطقك وسكوتك وكل فعل صادر منك فانه اما شكر واما كفران
اذ لا يتصور ان ينفك عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي هو لغة العوام من الخلق بالكراهة وبعضه بالحظر وكل ذلك
عند ارباب القلوب موصوف بالحظر **فاقول** لو استنجيت باليمين فقد كفرت نعمة اليدين اذ خلق الله لك اليدين وجعل احدهما اقوى
من الاخرى فاستحق الاقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل اذ تفضيل الناقص عدول عن العدل والله تعالى لا يامر الا بالعدل
ثم احوجك الى ان تعاطي باليد اعمالا بعضها شريفة كاخذ المصحف وبعضها خسيسة كازالة النجاسة فاذا اخذت المصحف باليسار
وازلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل ولذلك اذا بزقت
مثلا في جهة القبلة او استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات وخلق سعة العالم لانه خلق الجهات لتكون متسعة
في حركاتك وقسم الجهات الى ما لم يشرفها والى ما شرفها بان وضع فيها بيتا فاضافه الى نفسه استمالة لقلبك اليه ليتقيد به قلبك فيتقيد
بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار اذا عبدت ربك وكذلك انقسمت افعالك الى ما هي شريفة كالطاعات والى ما هي خسيسة
كقضاء الحاجة ورمي البصاق فاذا رميت بصاقك الى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله عليك بوضع القبلة الى موضعها
كما

كالعماد لك وكذلك اذا لبست خفك فبدأت باليسرى فقد ظلمت لان الخف وقاية للرجل فالرجل فيه حظ والبداية
بالحظوظ ينبغي ان تكون بالاشرف فهو العدل والوفا بالحكمة ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الرجل والخف وهذا عند العارفين كبيرة
وان سماه الفقيه مكروها حتى ان بعضهم كان قد جمع اكرارا من الحنطة وكان يتصدق بها فسئل عن سببه فقال لبست المداس مرة
فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا فاريد ان اكفره بالصدقة نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الامر في هذه الامور لانه مسكين بلي باصلاح
العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الانعام وهم منغمسون في ظلمات اظلم واعظم من ان تظهر امثال هذه الظلمات بالاضافة
اليها فقبيح ان يقال الذي يشرب الخمر اخذ القدح بيساره فقد تعدى من وجهين احدهما الشرب والاخر الاخذ باليسار ومن
باع خمرا في وقت النداء يوم الجمعة فقبيح ان يقال خالف من وجهين احدهما بيع الخمر والاخر البيع في وقت النداء ومن قضى حاجته
في محراب المسجد مستدبرا القبلة فقبيح ان يذكر تركه للادب في قضاء الحاجة من حيث لم يجعل القبلة على يمينه فالمعاصي كلها
ظلمات بعضها فوق بعض فيمحو بعضها في جنب البعض فالسيد قد يعاقب عبده اذا استعمل سكينه بغير اذنه ولكن لو قتل
بتلك السكين اعز اولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذنه حكم ونكاية في نفسه فكلما راعاه الانبياء والاولياء من الاداب وتساهل فيه الفقيه
مع العوام فسببه هذه الضرورة والا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد الى درجة
القرب نعم بعضها يؤثر في البعد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب الى عالم البعد الذي هو
مستقر الشياطين وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الاشجار وخلق اليد
اما اليد فانها لم تخلق للعبث بل للطاعة والاعمال المعينة على الطاعة واما الشجر فانما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق اليه
الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود
الحكمة وعدول عن العدل فان كان له غرض صحيح فله ذلك اذ الشجر والحيوان جعلا فداء لاغراض الانسان فانهما جميعا فانيان هالكان
فافناء الاخس في بقاء الاشرف مدة ما اقرب الى العدل من تضييعهما جميعا واليه الاشارة بقوله تعالى وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه
نعم اذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم ايضا وان كان محتاجا لان كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم بل تفي بحاجة واحد
ولو خصص واحد به من غير رجحان واختصاص كان ظلما وصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضعه في الارض وساق
اليه الماء وقام بالتعهد فهو اولى به من غيره فيرجح جانبه بذلك فان نبت ذلك في موات الارض لا بسعي ادمي اختص بغرسه او بغرس ابيه فلا بد من طلب
اختصاص اخر وهو السبق الى اخذه فللسابق خاصية السبق فالعدل ان يكون هو اولى به وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك
وهو مجاز محض اذ لا ملك الا لملك الملوك الذي له ما في السموات وما في الارض وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه
بل هو ملك غيره نعم الخلق عباد الله والارض مائدة الله وقد اذن لهم في الاكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعبيده
فمن اخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه فجاء عبد اخر واراد انتزاعها منه لم يمكن منه لا لان اللقمة صارت ملكا له بالاخذ باليد فان اليد وصاحب
اليد ايضا مملوك ولكن اذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول نوع من الترجيح والاختصاص
والاخذ اختصاص يتفرد به العبد فيمنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته فهكذا ينبغي ان تفهم امر الله في عباده ولذلك
نقول من اخذ من اموال الدنيا اكثر من حاجته وكنزه وامسكه وفي عباد الله من يحتاج اليه فهو ظالم وهو من الذين يكنزون الذهب
والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وانما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته اموال الدنيا اذ بها تندفع ضروراتهم
وترفع حاجاتهم نعم لا يدخل هذا في حد فتاوي الفقه لان مقادير الحاجات خفية والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال
مختلفة واواخر الاعمار غير معلومة فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكون عن كثير كلامهم
هزوهم وهم يحسبونه نقصا انهم لا يطيقونه فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو واباحتنا اياهم ذلك لا يدل على ان اللهو واللعب
حق فكذلك اباحتنا للعوام حفظ الاموال والاقتصار في الانفاق على قدر الزكوات لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على
انه غاية الحق وقد اشار القران اليه اذ قال تعالى ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا بل الحق الذي لا مرية فيه والعدل الذي لا ظلم
فيه ان لا ياخذ احد من عباد الله من مال الله الا بقدر زاد الراكب وكل عباد الله ركاب لمطايا الابدان الى حضرة الملك الديان

فمن احتوى زيادة عليه منعه من راكب اخر محتاج اليه فهو ظالم تارك العدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله
عليه بالقران والرسول والعقل وسائر الادلة التي عرف بها ان ما سوى زاد الراكب بال عليه في الدنيا والاخرة فمن
فهم حكمة الله في جميع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك يحتاج الى مجلدات ثم لا يفي الا قليلا وانما اوردنا
هذا القدر لتعلم علة الفضل الصدق في قوله تعالى وقليل من عبادي الشكور وفرح ابليس لعنه الله بقوله ولا تجد اكثرهم شاكرين
فلا يعلم معنى هذه الاية من لم يعرف هذا كله وامور اخر وراء هذا تستقصى الاعمار دون استيفاء مباديها فاما تفسير الاية
ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة وبهذا تبين الفرق بين المعنى والتفسير **فان قلت** فقد رجع حاصل الكلام
الى ان لله حكمة في كل شيء وانه جعل بعض افعال العباد سببا لتمام الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض افعالهم مانعا
من تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة الى غايتها فهو شكر وكلما خالف ووضع الاسباب ان تساق الى غاية
مرادة فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الاشكال باق في هو ان فعل العبد المنقسم الى ما يتم الحكمة والى ما يدفعها هو ايضا
من فعل الله فاين العبد في البين حتى يكون شاكرا مرة وكافرا اخرى فاعلم ان تمام التحقيق في هذا يشتمل من تيار بحر عظيم
من علوم المكاشفة وقد رمزنا فيما تقدم الى تلويحات مبادئها ونحن الان نعبر بعبارة وجيزة عن اخرها وغايتها يفهمها
من عرف منطق الطير ويجحدها من عجز عن الايضاع في السير فضلا عن ان يجول في جو الملكوت جولان الطير **فنقول** ان لله سبحانه
وتعالى في جلاله وكبريائه صفة عنها تصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة اعلى واجل من ان تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر
بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن في العالم عبارة لها لعلو شانها وانحطاط رتبة واضعي اللغة عن ان يمتد طرفهم
الى مبادي اشراقها فانخفضت عن ذروتها ابصارهم كما تنخفض ابصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في
ابصار الخفافيش فاضطر الذين فتحت ابصارهم لملاحظة جلالها الى ان يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم
من مبادي حقايقها شيا ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله صفة هي القدرة
عنها يصدر الخلق والاختراع ثم الخلق ينقسم الى اقسام وخصوص صفات ومصدر انقسام هذه الاقسام واختصاصها بخصوص صفاتها
صفة اخرى استعير لها مثل الضرورة التي يسبق عبارة المشية فهي توهم منها امرا مجملا عند المتناطقين باللغات التي هي حروف واصوات
المتفاهمين بها ونصوره لفظ المشية عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها قصور لفظ القدرة عنها ثم انقسمت الافعال الصادرة من القدرة الى
ما تنساق الى المنتهى الذي هو غاية حكمتها والى ما يقف دون الغاية وكان لكل واحد نسبة الى صفة المشية لرجوعها الى الاحكام ما
التي بها تتم القسمة والاختلاف فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة وقيل انهما جميعا داخلان في صفة المشية ولكن لكل
واحد منهما خاصة اخرى في النسبة توهم لفظ المحبة والكراهة منهما امرا مجملا عند طالبي الفهم من الالفاظ واللغات ثم انقسم عباد الله الذين
هم ايضا من خلقه واختراعه الى من سبقت لهم في الازل ان يستعملهم لسياقة حكمته الى غايتها في بعض الادوار فكان لكل واحد من القسمين
نسبة الى المشية خاصة فاستعير لنسبة المستعملين في اتمام الحكمة دون غايتها عبارة الغضب وظهر على من غضب عليه في الازل

فعل

فعل وقعت الحكمة دون غايتها فاستعير له الكفران ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في نكاله ومن ارتضاه في الازل فعل
انساقت بسببه الحكمة الى غايتها فاستعير له اسم الشكر واردف به الثناء والاطراء زيادة في الرضا والقبول والاقبال فكان
الحاصل انه اعطى الجمال ثم اثنى واعطى النكال ثم قبح وارعى وكان مثاله ان يتنظف الملك الوسخ عن عبده من اوساخه ثم يلبسه
محاسن ثيابه فاذا تم زينته قال يا جميل ما اجملك واجمل ثيابك وانظف وجهك فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثني
عن الجمال فهو المثني عليه كل حال وكانه لم يثن من حيث المعنى الا على نفسه وانما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة فهكذا
كانت الامور في ازل الازل وهكذا تسلسلت الاسباب والمسببات بتقدير رب الارباب ومسبب الاسباب ولم يكن ذلك عن اتفاق وبخت
بل عن ارادة وحكمة وحكم حق وامر جزم استعير له لفظ القضاء وقيل انه كلمح البصر ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك
القضاء الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتب احاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بازاء الامر
الواحد الكلي ولفظ القدر بازاء التفصيل المتمادي الى غير نهاية وقيل ان ذلك شيء ليس خارجا من القضاء والقدر
فخطر لبعض العباد ان القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الامر والاحتواء على
مجامعه فالجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم لا يسئل عما يفعل وهم يسالون
وامتلات مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله في السموات والارض فكاد زيتهم يضيء ولو لم تمسسه نار فمسته نار
فاشتعل نورا على نور فاشرقت اقطار الملكوت بين ايديهم بنور ربها فادركوا الامور كما هي عليه فقيل لهم تادبوا باداب الله
اسكتوا واذا ذكر القدر فامسكوا فان للحيطان اذانا وحواليكم ضعفاء الابصار فسيروا بسير اضعفكم ولا تكشفوا
حجاب الشمس لابصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاككم فتخلقوا باخلاق الله وانزلوا الى سماء الدنيا من منتهى علوكم لياتنس
بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا انواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل فيحيى
حياة يحتملها شخصه وحاله وان كان لا يحيى حياة المتردد في كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم شربنا شرابا طيبا عند طيب
كذاك شراب الطيبين يطيب • شربنا واهرقنا على الارض فضلة • وللارض من كاس الكرام نصيب • فهكذا كان اول الامر
واخره ولا تفهمه الا اذا كنت اهلا له واذا كنت اهلا فتحت العين وابصرت فلا تحتاج الى قائد يقودك والاعمى يمكن ان
يقاد ولكن الى حد ما فاذا ضاق الطريق وصار احد من السيف وارق من الشعر قدر الطاير ان يطير عليه ولم يقدر
على ان يستجر وراءه اعمى واذا دق المجال ولطف كالماء مثلا ولم يمكن العبور الا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة
ان يعبر بنفسه وربما لم يقدر ان يستجر وراءه اخر فهذه امور نسبة السير عليها الى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشي
على الماء الى المشي على الارض والسباحة يمكن ان يتعلم فاما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعلم بل ينال بقوة اليقين ولذلك قيل للنبي
صلى الله عليه وسلم ان عيسى عليه السلام يقال انه مشى على الماء فقال عليه السلام لو ازداد يقينا لمشى على الهواء فهذه رموز واشارات
الى معنى الكراهة والمحبة والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة اكثر منها ولكن ضرب الله لذلك مثلا تقريبا الى

اهم الخلق اذ عرف انه ما خلق الجن والانس الا ليعبدوه وكانت عبادتهم في غاية الحكم فيهم اختار ان له عبدان
يحب احدهما واسمه جبريل والروح القدس والامين وهو عنده محبوب مطاع مكين والاخر يبغضه واسمه ابليس
وهو اللعين المنظر الى يوم الدين ثم احال الارشاد الى جبريل عليه السلام فقال قل نزله روح القدس من ربك بالحق
وقال تعالى يلقي الروح من امره على من يشاء من عباده واحال الاغواء الى ابليس فقال تعالى ليضلهم عن سبيله والاغواء هو
استيفاء العباد دون بلوغ الحكم فانظر كيف نسبه الى العبد الذي غضب عليه والارشاد ثناء لهم الى الغاية فانظر كيف
نسبه الى العبد الذي احبه وعندك في العادة لهذا مثال فالملك اذا كان يحتاج الى من يسقيه الشراب والى من يحجمه وينظف
حواليه الحاجة من القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للتنظيف والحجامة الا اقبحهما واخسهما ولا يفوض حمل الشراب الطيب
الا الى احسنهما واجملهما اليه واكملهما فلا ينبغي ان تقول هذا فعله فلم يكن فعله على دون فعل فانك اخطأت اذ اضفت ذلك
الى نفسك بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب اتماما
للعدل فان العدل تارة يتم بامور لا مدخل لك فيها وتارة يتم بك فانك ايضا من افعاله فداعيتك وقدرتك وعلمك
وسائر اسباب حركتك في التعيين هو فعله الذي رتبه بالعدل ترتيبا تصدر منه الافعال المعتدلة الا انك لا ترى الا نفسك
فتظن ان ما يظهر عليك من عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت ولذلك تضيفه الى نفسك وانما انت
مثل الصبي الذي ينظر ليلا الى لعب المشعوذ الذي يخرج صورا من وراء الستار ترقص وتقوم وتقعد وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك
بانفسها انما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورءوسها في يد المشعوذ وهو محتجب عن ابصار الصبيان فيفرحون
ويتعجبون لظنهم ان تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد واما العقلاء فانهم يعلمون ان ذلك تحريك وليس بتحرك
ولكنهم ربما لا يعلمون تفصيله والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلم المشعبذ الذي الامر اليه والحاذق بكرته فكذلك
صبيان اهل الدنيا والخلق كلهم صبيان الا العلماء ينظرون الى هذه الاشخاص فيظنون انها المتحركة فيحيلون عليها والعلماء
يعلمون انهم محركون الا انهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الاكثرون الا العارفين والعلماء الراسخين فانهم ادركوا بحدة ابصارهم
خيوطا دقيقة عنكبوتية بل ادق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الاطراف باشخاص اهل الارض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها
بهذه الابصار الظاهرة ثم شاهدوا رءوس تلك الخيوط في مناطات لها هي متعلقة بها وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في ايدي
الملائكة المحركين للسموات وشاهدوا ابصار ملائكة السموات مصروفة الى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من حضرة الامر
الربوبية كيلا يعصوا الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون **وعبر** عن هذه المكاشفات في القرآن فقال وفي السماء
رزقكم وما توعدون **وعبر** عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل عليهم من الامر والقدر فقال خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن
يتنزل الامر بينهن لتعلموا الاية وهذه امور لا يعلم تأويلها الا الله والراسخون في العلم **وعبر** ابن عباس عن اختصاص الراسخين
في العلم بعلوم لا تحتملها افهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى يتنزل الامر بينهن فقال لو ذكرت ما اعرفه من معنى هذه الاية لرجمتمو
وفي لفظ

وفي لفظ لقلتم انه كافر ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما لا ينبغي
فلنرجع الى مقاصد الشكر **فنقول** قد رجع حقيقة الشكر الى كون العبد مستعملا في اتمام حكمة الله فاشكر العباد
احبهم الى الله واقربهم الى الله الملائكة ولهم ايضا ترتيب وما منهم الا له مقام معلوم واعلاهم في رتبة القرب اسرافيل
وانما علو درجتهم لانهم في انفسهم كرام بررة وقد اصلح الله بهم الانبياء وهم اشرف مخلوق على وجه الارض **ويلي** درجتهم
درجة الانبياء فانهم في انفسهم اخيار وقد هدى بهم سائر الخلق وتمم بهم حكمته واعلاهم رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم اذ كمل
به الدين وختم به النبيين **ويليهم** العلماء الذين هم ورثة الانبياء فانهم في انفسهم صالحون وقد اصلح الله بهم سائر الخلق ودرجة
كل واحد منهم بقدر ما اصلح من نفسه ومن غيره **ثم يليهم** السلاطين بالعدل لانهم اصلحوا دنيا الخلق كما اصلح العلماء دينهم ولاجل
اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا صلى الله عليه وسلم كان افضل من سائر الانبياء فانه اكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم
يكن السيف والملك لغيره من الانبياء صلى الله عليهم **ثم يلي** العلماء والسلاطين الصالحون الذين اصلحوا نفوسهم فقط فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم
ومن عدا هؤلاء فهمج رعاع واعلم ان السلطان به قوام الدين فلا ينبغي ان يستحقر وان كان ظالما فاسقا قال عمرو بن العاص امام غشوم
خير من فتنة تدوم وقال صلى الله عليه وسلم يكون عليكم امراء تعرفون وتنكرون ويفسدون وما يصلح الله بهم اكثر فان احسنوا فلهم الاجر وعليكم الشكر وان
اساؤا فعليهم الوزر وعليكم الصبر وقال سهل من انكر امامة السلطان فهو زنديق ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع
ومن اتاه من غير دعوة فهو جاهل وسئل اي الناس خير فقال السلطان فقيل كنا نرى ان شر الناس السلطان فقال مهلا ان لله
تعالى كل يوم نظرتين نظرة الى سلامة اموال المسلمين ونظرة الى سلامة ابدانهم فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنوبه وكان يقول
الخشبات السود المعلقة على ابوابهم خير من سبعين قاصا يقصون

الركن الثاني من اركان الشكر ما عليه الشكر وهو النعمة ولنذكر
فيه حقيقة النعمة واقسامها ودرجاتها واصنافها ومجامعها فيما يخص وما يعم فان احصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال
تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فنقدم امورا كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم ثم نشتغل بذكر الآحاد

بيان حقيقة النعمة واقسامها

اعلم ان كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر يسمى نعمة ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الاخروية وتسمية ما سواها نعمة وسعادة
اما غلط واما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة فان ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ولكنه
يكون اطلاقه على السعادة الاخروية اصدق فكل سبب يوصل الى سعادة الآخرة ويعين عليها اما بواسطة واحدة او بوسائط
فان تسميته نعمة صحيح وصدق لاجل انه يفضي الى النعمة الحقيقية وللاسباب المعينة واللذات المسماة نعمة لشرحها تقسيمات

القسمة الاولى

ان الامور كلها بالاضافة الينا تنقسم الى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق والى ما هو ضار فيهما جميعا
كالجهل وسوء الخلق والى ما ينفع في الحال ويضر في المآل كالتلذذ باتباع الشهوات والى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل
كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضار فيهما هو البلاء تحقيقا وهو
ضدهما والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوي الابصار وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع اذا وجد عسلا فيه سم فانه
يعده نعمة ان كان جاهلا واذا علمه علم ان ذلك بلاء سيق اليه والضار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوي الالباب

بلا عوض الجهال مع مثاله الدواء البشع في الحال مذاقه لا انه شامل الامراض و الاسقام و جالب الصحة والسلامة فالصبي الجاهل
اذا كلف شربه نفر والعاقل يعده نعمة و يقبل المنة ممن يهديه اليه ويهيئ له اسبابه فلذلك تمنع الام ولدها من الحجامة والاب
يدعوه اليها فان الاب لكمال عقله يلحظ العاقبة والام لقصورها وفرط حبها تلحظ الالم الحالي فيه والصبي لجهله يتقلد منها من
دون ابيه ويانس اليها والى شفقتها وينفر من الاب عدوا له ولو عقل لعلم ان الام عدوه باطنا في صورة صديق لان منعها اياه
من الحجامة يسوقه الى امراض والام اشد من الحجامة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل وكل انسان فانه صديق نفسه ولكنها
صديق جاهل فلذلك تعمل به ما لا يعمل العدو **القسمة الثانية** اعلم ان الاشياء الدنيوية مختلط فيها امتزج خيرها بشرها
فقلما يصفو خيرها كالاهل والمال والولد والاقارب والجاه وسائر الاشياء وكل ينقسم الى ما نفعه اكثر من ضرره كقدر
الكفاية من المال والجاه وسائر الاشياء والى ما ضرره اكثر من نفعه في حق اكثر الاشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع والى ما يكافئ ضرره
نفعه وهذه امور تختلف بالاشخاص فرب انسان صالح ينتفع بالمال الصالح وان كثر فينفقه في سبيل الله ويصرفه الى الخيرات
فهو مع هذا التوفيق نعمة في حقه ورب انسان يتضرر بالقليل ايضا اذ لا يزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه فيكون
ذلك مع الخذلان بلاء في حقه **القسمة الثالثة** اعلم ان الخيرات باعتبار اخر ينقسم الى ما هو مؤثر لذاته والى ما هو مؤثر لغيره
والى ما هو مؤثر لذاته و غيره **فالاول** ما يؤثر لذاته لا لغيره كلذة النظر الى وجه الله و سعادة لقائه و بالجملة سعادة الاخرة
التي لا انقضاء لها فانها لا تطلب ليتوصل بها الى غاية اخرى مقصودة ورائها بل تطلب لذاتها **الثاني ما يقصد لغيره** ولا
غرض اصلا في ذاته كالدراهم والدنانير فان الحاجات لو كانت لا تنقضي بها لكانت هي والحصباء بمثابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة
الى اللذات سريعة الايصال اليها صارت عند الجهال محبوبة في انفسها حتى يجمعونها و يكنزونها و يتعارفون عليها بالربوا و يظنون انها
مقصودة ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه و بينه ثم ينسى في محبة الرسول محبة الاصل فيعرض عنه طول عمره
ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده وهو غاية الجهل والضلال **الثالث ما يقصد لذاته ولغيره** كالصحة والسلامة
لنقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين الى لقاء الله تعالى او ليتوصل بها الى استيفاء لذات الدنيا و تقصد ايضا لذاتها فان الانسان وان استغنى عن الشيء
الذي يراد سلامة الرجل لاجله فيريد ايضا سلامة الرجل من حيث انها سلامة فاذن المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا وما
يؤثر لذاته ولغيره فهو ايضا نعمة ولكن دون الاول فاما ما لا يؤثر الا لغيره كالنقدين فلا يوصفان في انفسهما من حيث هما جوهران
بانهما نعمة بل من حيث انهما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد امرا ليس يمكنه ان يتوصل اليه الا بهما فلو كان مقصوده العلم والعبادة
ومعه الكفاية التي هي ضرورة حاجاته استوى عنده الذهب والمدر فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغله
وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة **القسمة الرابعة** اعلم ان الخيرات باعتبار اخر ينقسم الى
نافع وجميل ولذيذ فاللذيذ هو الذي يدرك راحته في الحال والنافع هو الذي يفيد في المآل والجميل هو الذي يستحسن في
سائر الاحوال والشرور ايضا ينقسم الى ضار وقبيح ومولم فلكل واحد من القسمين ضربان مطلق ومقيد فالمطلق هو الذي
اجتمع فيه الاوصاف الثلاثة اما في الخير فكالعلم والحكمة فانها نافعة وجميلة ولذيذة عند اهل العلم والحكمة واما في الشر كالجهل
فانه ضار

فانه ضار و قبيح و مولم وانما يحس بالم الجهل الجاهل بجهله اذا عرف انه جاهل وذلك بان يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا
ليدرك الم النقص فينبعث منه شهوة العلم اللذيذ ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان
فيعظم المه فانه ان ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان وان اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات او بترك الكبر وذل التعلم
ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة **والضرب الثاني** مقيد وهو الذي جمع بعض هذه الاوصاف دون بعض فرب
نافع مولم كقطع الاصبع المتآكلة والسلعة الخارجة من البدن ورب نافع قبيح كالحمق فانه بالاضافة الى بعض الاحوال نافع وقد
قيل استراح من لا عقل له فانه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال الى ان يحين وقت هلاكه ورب نافع من وجه ضار من وجه كالقاء
المال في البحر عند خوف الغرق فانه ضار للمال و نافع للنفس في نجاتها والنافع قسمان ضروري كالايمان وحسن الخلق في الايصال
الى سعادة الاخرة واعني بهما العلم والعمل اذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما والى ما لا يكون ضروريا كالسكنجبين مثلا في تسكين الصفراء
فانه قد يمكن تسكينها بما يقوم مقامه **قسمة خامسة** اعلم ان النعم يعبر بها عن كل لذيذ واللذات بالاضافة الى الانسان
من حيث اختصاصه بها او مشاركته لغيره ثلثة انواع عقلية بدنية مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات
اما العقلية فكلذة العلم والحكمة اذ ليس يستلذ بها السمع والبصر والشم ولا البطن ولا الفرج وانما يستلذ بها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها
بالعقل وهذه اقل اللذات وجودا وهي اشرفها اما قلتها فلان العلم لا يستلذه الا العالم والحكمة لا يستلذها الا الحكيم وما اقل اهل
العلم والحكمة وما اكثر المتشبهين بالعلماء والمترسمين برسومهم **واما** شرفها فلانها لازمة لا تزول ابدا لا في الدنيا ولا
في الاخرة ودائمة لا تمل فالطعام يشبع منه و يمل وشهوة الوقاع يفرغ منها و يستثقل والعلم والحكمة قط لا يتصور ان يمل
ويستثقل ومن قدر على الشريف الباقي ابد الاباد ورضي بالخسيس الفاني في اقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وادباره
واقل امر فيه ان العقل والعلم لا يحتاج الى اعوان وحفظة بخلاف المال اذ العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم يزيد
بالانفاق والمال ينقص بالانفاق والمال يسرق والولاية تعزل عنها والعلم لا تمتد اليه ايدي السراق بالاخذ ولا ايدي
السلاطين بالعزل فيكون صاحبه في روح الامن ابدا وصاحب المال والجاه في كرب الخوف ابدا ثم العلم نافع ولذيذ وجميل
في كل حال والمال تارة يجذب الى الهلاك وتارة يجذب الى النجاة ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وان سماه
خيرا في مواضع **واما** قصور اكثر الخلق عن ادراك لذة العلم فلعدم الذوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق اذ الشوق
تبع الذوق **واما** لفساد امزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه
مرا **واما** لقصور فهمهم وفطنتهم اذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي تستلذ العلم كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل
والطيور السمان ولا يستلذ الا اللبن وذلك لا يدل على انها ليست لذيذة ولا استطابته اللبن تدل على انه الذ الاشياء فالقاصرون
عن درك لذة العلم والحكمة ثلثة اما من لم تحي باطنه كالطفل واما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات واما من مرض باتباع الشهوات
وقوله تعالى في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا اشارة الى مرض العقول وقوله لينذر من كان حيا اشارة الى من لم تحي حياة طبيعية

وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وان كان عند الجهال من الاحياء ولذلك كان الشهداء احياء عند ربهم يرزقون
فرحين وان كانوا موتى بالابدان الثانية عبارة عن لذة يشارك الانسان فيه بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك
موجود في الاسد والنمر وبعض الحيوانات والثالثة ما يشارك فيه سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج وهذه اكثرها وجودا واخسها
ولذلك اشترك فيه من هب ودرج حتى الديدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة تشبث بلذة الغلبة وهي اشدها التصاقا
بالعاقلين فان جاوز ذلك ارتقى الى الثالثة فصار اغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة لا سيما لذة معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته
وافعاله وهذه رتبة الصديقين ولا ينال تمامها الا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب واخر ما يخرج من رؤوس الصديقين
حب الرياسة واما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا يقوى على قمعها الا الصديقون فاما
قمعها بالكلية حتى لا يقع بها الاحساس على الدوام وفي اختلاف الاحوال فيشبه ان يكون خارجا عن مقدور البشر نعم تغلب لذة معرفة
الله تعالى في احوال لا يقع معها الاحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فيعود اليه الصفات البشرية
فتكون موجودة لكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل وعند هذا ينقسم القلوب الى اربعة اقسام
قلب لا يحب الا الله ولا يستريح الا بزيادة المعرفة والفكر فيه وقلب لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى الانس بالله وانما لذته بالجاه والرياسة
والمال وسائر الشهوات البدنية وقلب اغلب احواله الانس بالله والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه في بعض الاحوال الرجوع
الى اوصاف البشرية وقلب اغلب احواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه في بعض الاحوال التلذذ بالعلم والمعرفة **اما الاول** فان
كان ممكنا في الوجود فهو في غاية الندور **واما الثاني** فالدنيا طافحة به **واما الثالث والرابع** فموجود ولكن على غاية الندور
ولا يتصور ان يكون ذلك الا نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة وانما يكون كثرته في الاعصار القريبة من اعصار
الانبياء فلا يزال يزداد العهد طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة الى ان تقرب الساعة ويقضي الله امرا كان مفعولا وانما وجب
ان يكون هذا نادرا لانه مبادي ملك الاخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرون فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال الا نادرا
واكثر الناس من دونهم فهكذا في ملك الاخرة فان الدنيا مرآة للاخرة وانها عبارة عن عالم الشهادة والاخرة عن عالم الغيب وعالم الشهادة
تابع لعالم الغيب كما ان الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة والصورة في المرآة وان كانت هي الثانية في رتبة الوجود فانها
اولى في حق رؤيتك فانك لا ترى نفسك وترى صورتك في المرآة اولا فتعرف بها الصورة التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة فانقلب
التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة وانقلب المتأخر متقدما وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة
هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم
الملك الا ويعبر به الى عالم الملكوت فسمي عبوره عبرة وقد امر الخلق به فقال فاعتبروا يا اولي الابصار ومنهم من عميت بصيرته
فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستفتح الى حبسه ابواب جهنم وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها ان تطلع على الافئدة
الا ان بينه وبين ادراك [illegible] حجابا فاذا رفع الحجاب بالموت ادركه وعن هذا اظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق
فقالوا

فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم تدرك مرة بادراك يسمى علم اليقين ومرة بادراك اخر يسمى عين اليقين وعين اليقين
لا يكون الا في الاخرة وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفروا حظهم من نور اليقين فلذلك قال الله كلا لو تعلمون علم
اليقين لترون الجحيم اي في الدنيا ثم لترونها عين اليقين اي في الاخرة فاذا قد ظهر ان القلب الصالح لملك الاخرة لا يكون
الا عزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا **القسمة الثانية** حاوية لمجامع النعم اعلم ان النعم تنقسم الى ما هي غاية مطلوبة
لذاتها والى ما هي مطلوبة لاجل الغاية **اما الغاية** فانها سعادة الاخرة ويرجع حاصلها الى اربعة امور بقاء لا فناء له
وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى لا فقر بعده وهي النعمة الحقيقية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عيش الا عيش
الاخرة وقال ذلك مرة في الشدة تسلية للنفس وذلك في وقت حفر الخندق في شدة الضر وقال ذلك مرة في السرور
منعا للنفس من الركون الى سرور الدنيا وذلك عند احداق الناس به في حجة الوداع وقال رجل اللهم اني اسألك تمام النعمة
فقال صلى الله عليه وسلم وهل تعلم ما تمام النعمة قال لا قال دخول الجنة **واما الوسائل** فتنقسم الى الاقرب الاخص كفضائل
النفس والى ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني والى ما يليه في القرب ويجاوز الى غير البدن كالاسباب المطيفة بالبدن
من المال والاهل والعشيرة والى ما يجمع بين هذه الاسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية فهي اذا
اربعة انواع **النوع الاول** وهو الاخص الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب اطرافها الى الايمان وحسن الخلق
وينقسم الايمان الى علم المكاشفة وهو العلم بالله وصفاته وملائكته ورسله والى علم المعاملة وحسن الخلق ينقسم الى قسمين ترك مقتضى
الشهوة والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والاقدام حتى لا يمتنع اصلا ولا يقدم كيف شاء بل يكون
اقدامه واحجامه بالميزان العدل الذي انزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم اذ قال تعالى الا تطغوا في الميزان واقيموا الوزن
بالقسط ولا تخسروا الميزان فمن اخصى نفسه لترك شهوة النكاح او ترك النكاح مع القدرة والامن من الافات او ترك الاكل حتى ضعف
عن العبادة والذكر والفكر فقد اخسر الميزان ومن انهمك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الميزان وانما العدل ان يخلو
وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فيعتدل به كفتا الميزان فاذا الفضائل الخاصة بالنفس المقربة الى الله اربعة علم مكاشفة
وعلم معاملة وعفة وعدالة ولا يتم هذا في غالب الامر الا بالنوع الثاني وهي الفضائل البدنية وهي اربعة الصحة والقوة والجمال وطول العمر
ولا تتهيأ هذه الامور الاربعة الا بالنوع الثالث وهي النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهي اربعة المال والجاه والاهل وكثرة العشيرة ولا
ينتفع بشيء من هذه الاسباب الخارجة والبدنية الا بالنوع الرابع وهي الاسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهي
اربعة هداية الله ورشده وتسديده وتأييده فمجموع هذه النعم ستة عشر اذ قسمناها الى اربعة وقسمنا كل واحد الى اربعة وهذه
الجملة يحتاج البعض منها الى البعض اما حاجة ضرورية او نافعة **اما الحاجة الضرورية** فكحاجة سعادة الاخرة الى الايمان وحسن الخلق
اذ لا سبيل الى الوصول الى سعادة الاخرة البتة الا بهما فليس للانسان الا ما سعى وليس لاحد في الاخرة الا ما تزود من الدنيا ولذلك حاجة
الفضائل النفسية بكسب العلوم وتهذيب الاخلاق الى صحة البدن ضرورية **واما الحاجة النافعة** فكحاجة هذه النعم

النفيسة والبدنية الى النعم الخارجة مثل المال والعز والاهل فانه اذا عدم ذلك او عدم سببها تطرق الخلل الى بعض النعم الداخلة
فان قلت فما وجه الحاجة لطريق الآخرة الى النعم الخارجة من المال والاهل والجاه والعشيرة **فاعلم** ان هذه الاسباب جارية
مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود **اما المال** فالفقير في طلب العلم والكمال وليس معه كفاية كساع الى الهيجا بغير
سلاح وكباز يروم الصيد بلا جناح ولذلك قال صلى الله عليه وسلم نعم المال الصالح للرجل الصالح وقال صلى الله عليه وسلم
نعم العون على تقوى الله المال وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الاوقات في طلب الاقوات وفي تهيئة اللباس والمسكن وضرورات
المعيشة ثم يتعرض لانواع من الاذى يشغله عن الفكر والذكر ولا يندفع الا بسلاح المال ثم مع ذلك يحرم فضيلة الحج والزكاة والصدقات
واضافة الخيرات وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعيم فقال الغنى فاني رأيت الفقير لا عيش له قيل له زدنا قال الامن فاني رأيت
الخائف لا عيش له قيل له زدنا قال العافية فاني رأيت المريض لا عيش له قيل له زدنا قال الشباب فاني رأيت الهرم لا عيش له وكان ما ذكره
اشارة الى نعيم الدنيا ولكنه من حيث انه معين على الآخرة فهو نعمة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من اصبح معافى في بدنه آمنا في سربه
عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها **واما الاهل والولد الصالح** فلا يخفى وجه الحاجة اليهما اذ قال صلى الله
عليه وسلم نعم العون على الدين المرأة الصالحة وقال في الولد اذا مات العبد المؤمن انقطع عمله الا من ثلث ولد صالح يدعو له الحديث
وقد ذكرنا فوائد الاهل والولد في كتاب النكاح **واما الاقارب** فمهما كثرت اولاد الرجل واقاربه كانوا له مثل الاعين
والايدي فيتيسر له بسببهم من الامور الدنيوية المهمة في دينه ما لو انفرد به لطال شغله وكل ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو
معين على الدين فهو اذا نعمة **واما العز والجاه** فبه يدفع الانسان عن نفسه الضيم والذل ولا يستغني عنه مسلم فانه لا ينفك عن
عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه وقلبه رأس ماله وانما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه
ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان وقال الله عز وجل ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولا معنى للجاه الا ملك
القلوب كما لا معنى للغنى الا ملك الدراهم ومن ملك القلوب تسخرت له القلوب لدفع الاذى عنه فكما يحتاج الى سقف يدفع عنه
المطر وجبة تدفع عنه البرد وكلب يدفع عنه الذئب عن ماشيته فيحتاج ايضا الى من يدفع الشر عن نفسه وعلى هذا القصد
كان الانبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه وكذا اتباعهم علماء الدين لا على قصد التناول
من خزائنهم والاستيثار والاستكثار في الدنيا بمتابعتهم ولا تظنن ان نعمة الله على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره واكمل
دينه واظهره على اعدائه ومكن له في القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت اقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب
حتى افتقر الى الهرب والهجرة **فان قلت** العشيرة وشرف الاهل هو من النعم ام لا **فاقول** نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم الائمة من قريش ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من اكرم ارومة في نسب آدم عليه السلم ولذلك قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم الاكفاء وقال صلى الله عليه وسلم اياكم وخضراء الدمن فقيل وما خضراء الدمن قال المرأة الحسناء
في المنبت السوء فهذا ايضا من النعم ولست اعني به الانتساب الى الظلمة وارباب الدنيا بل الانتساب الى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم
والى الائمة العلماء والصالحين الابرار المتوسمين بالعلم والعمل **فان قلت** فما معنى الفضائل البدنية **فاقول** لا خفاء بشدة
الحاجة

الحاجة الى الصحة والقوة والى طول العمر اذ لا يتم علم وعمل الا بهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم افضل السعادات طول العمر في طاعة الله
عز وجل وانما يستحقر من جملتها امر الجمال فيقال يكفي ان يكون البدن سليما من الامراض الشاغلة عن تحري الخيرات ولعمري الجمال
قليل الغنى ولكنه من الخيرات ايضا اما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها واما في الآخرة فمن وجهين احدهما ان القبيح مذموم والطباع
عنه نافرة وحاجات الجميل الى الاجابة اقرب وجاهه في الصدور اوسع فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالجاه والمال اذ هو نوع
قدرة اذ يقدر الجميل الوجه على تنجز حاجات لا يقدر عليها القبيح وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها والثاني
ان الجمال في الاكثر يدل على فضيلة النفس لان نور النفس اذا تم اشراقه تأدى الى البدن فالمنظر والمخبر كثيرا ما يتلازمان ولذلك
عول اصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفوس على هيئات البدن وقالوا الوجه والعين مرآة الباطن ولذلك يظهر فيه اثر الغضب
والسرور والغم ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان ما في النفس وقيل ما في الارض قبيح الا ووجهه احسن ما فيه واستعرض المأمون
جيشا فعرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فاذا هو الكن فاسقط اسمه من الديوان وقال ان الروح اذا اشرقت على الظاهر
فصباحة او على الباطن ففصاحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن وقد قال صلى الله عليه وسلم اطلبوا الخير عند حسان الوجوه وقال عمر
كرم الله وجهه اذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه حسن الاسم وقال الفقهاء اذا تساوت درجات المصلين فاحسنهم
وجها اولاهم بالامامة وقال الله تعالى ممتنا به وزاده بسطة في العلم والجسم ولسنا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك انوثة
وانما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الاعضاء وتناسب خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليه
فان قلت فقد ادخلت المال والجاه والاهل والولد في حيز النعم وقد ذم الله عز وجل المال والجاه وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا
العلماء وقال الله ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال عز وجل انما اموالكم واولادكم فتنة وقال علي كرم الله وجهه في ذم النسب
الناس ابناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه وقيل المرء بنفسه لا بابيه فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا **فاعلم**
ان من يأخذ العلوم من الالفاظ المنقولة المتأولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه اغلب ما لم يهتد بنور الله الى ادراك الامور على ما هي
عليه ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص اخرى فهذه نعم معينة على امر الآخرة لا سبيل الى جحدها
الا ان فيها فتنا ومخاوف فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع وسم ناقع فان اصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز
عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة وان اصابها السوادي الغر فهي عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر فان كان عالما
بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه وان خاضه جاهلا بذلك هلك فلذلك مدح الله المال
وسماه خيرا ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم العون على تقوى الله المال وكذلك مدح الجاه والعز اذ من على رسوله صلى
الله عليه وسلم بان اظهره على الدين وحببه في قلوب الخلق وهو المعني بالجاه ولكن المنقول في مدحهما قليل والمنقول في ذم المال
والجاه كثير وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه اذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب ومعنى الجاه ملك القلوب وانما كثر هذا وقل ذاك
لان الناس اكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص في بحر الجاه فوجب تحذيرهم فانهم يهلكون بسم المال قبل الوصول

الوصول الى رياضة وتعلمهم تشاح بحر الجاه قبل العبور على جواهره ولو كانا في اعيانهما مذمومين بالاضافة
الى كل احد لما تصور ان ينضاف الى النبوة الملك كما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ان ينضاف اليها الغنى كما كان لسليمان
عليه السلم فالناس كلهم صبيان والاموال حيات والانبيا والعارفون معزمون وقد يضر الصبي ما لا يضر المعزم لو كان
له ولد يريد بقاوه واصلاحه وقد وجد حية وعلم انه لو اخذها لاجل ترياقها لاقتدى به ولده واخذ الحية اذا
راها ليلعب بها فيهلك فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد وان كان يقدر على الصبر على الترياق ولا يتضرر
ضررا كثيرا ولو اخذها لاخذها الصبي ويعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه ان يهرب عن الحية اذا راها ويشير على الصبي
بالهرب ويقبح صورتها في عينه ويعرفه ان فيها سما قاتلا لا ينجو منه احد ولا يحدثه اصلا بما فيها من نفع الترياق فان ذلك ربما يغره فيقدم
عليه من غير تمام المعرفة وكذلك الغواص اذا علم انه لو غاص في البحر بمراى من ولده لاتبعه وهلك فواجب عليه ان يحذر الصبي
ساحل البحر والنهر فان كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما راى اباه يحوم حول الساحل فواجب عليه ان يبعد عن الساحل مع الصبي
فلا يقرب منه بين يديه فكذلك الامة في حجر الانبيا كالصبيان الاغبيا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم انما انا لكم مثل الوالد
لولده وقال عليه السلم انكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وانا اخذ بحجزكم وحظهم الاوفر في حفظ اولادهم عن المهالك
فانهم لم يبعثوا الا لذلك وليس لهم في الدنيا حظ الا بقدر ما يشرب به القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل لم
يمسكوه بل انفقوه فان الانفاق فيه هو الترياق والامساك فيه السم فلو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا الى
سم الامساك ورغبوا عن ترياق الانفاق ولذلك قبحت الاموال والمعنى به تقبيح امساكها والحرص عليها للاستكثار منها
والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون الى الدنيا ولذاتها واما اخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل الى الخيرات فليس بمذموم
وحق كل مسافر ان لا يحمل الا بقدر زاده في السفر اذا صمم العزم على ان يختص بما يحمله فاما اذا سمحت نفسه باطعام الطعام
وبتوسيع الزاد على الرفقا فلا باس بالاستكثار وقوله عليه السلم ليكن بلاغ احدكم من الدنيا كزاد الراكب معناه لانفسكم
خاصة والا فقد كان ممن يروي هذا الحديث ويعمل به ياخذ مائة الف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه
ولا يمسك منها حبة ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الاغنيا يدخلون الجنة بشوه استاذنه عبد الرحمن بن عوف
رضي الله عنه في ان يخرج من جميع ما يملكه فاذن له فنزل جبريل وقال مره ان يطعم المسكين ويكسو العاري ويقري
الضيف الحديث فاذا النعم الدنياوية مشوبة قد امتزج دواها بدائها ومرجوها بمخوفها ونفعها بضرها
فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله ان يقرب منها متقيا داها ومستخرجا دواها ومن لا فالبعد البعد والفرار الفرار
عن مظان الاخطار فلا يعدل بالسلامة شيا في حق هولا وهم الخلق كلهم الا من عصم الله وهداه الطريقة
فان قلت فما معنى النعم التوفيقية الراجعة الى الهداية والرشد والتاييد والتسديد فاعلم ان التوفيق لا يستغني
عنه احد وهو عبارة عن التاليف والتلفيق بين اراده العبد وبين قضا الله وقدره وهذا يشمل الخير والشر وما
هو سعادة وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضا الله

وقدره

وقدره كما ان الالحاد عبارة عن الميل فخصص بمن يميل الى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفا بالحاجة الى التوفيق ولذلك
قيل اذا لم يكن عون من الله للفتى فاكثر ما يجني عليه اجتهاده واما الهداية فلا سبيل لاحد الى طلب السعادة الا بها
لان داعية الانسان قد تكون مايلة الى ما فيه صلاح اخرته ولكن اذا لم يعلم ما فيه صلاح اخرته وحتى يظن الفساد صلاحا
فمن اين ينفعه مجرد الارادة فلا فايدة في الارادة والقدرة والاسباب الا بعد الهداية ولذلك قال تعالى ربنا الذي اعطى
كل شي خلقه ثم هدى وقال ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من احد ابدا ولكن الله يزكي من يشا وقال صلى الله
عليه وسلم ما من احد يدخل الجنة الا برحمة الله اي بهدايته فقيل ولا انت يا رسول الله فقال ولا انا والهداية ثلث
منازل الاولى معرفة طريق الخير والشر المشار اليه بقوله تعالى وهديناه النجدين وقد انعم الله على كافة عباده بعضه بالعقل
وبعضه على لسان الرسل ولذلك قال تعالى واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فاسباب الهدى هي الكتب والرسل
وبصاير العقول وهي مبذولة ولا يمنع منها الا الحسد والكبر وحب الدنيا والاسباب التي تعمي القلوب وان كانت لا تعمي الابصار
ومن جملة المعميات الالف والعادة وحب استصحابها وعنه العبارة بقوله تعالى انا وجدنا اباءنا على امة الاية وقوله لولا نزل
هذا القران على رجل الاية وقوله تعالى ابشرا منا واحدا نتبعه فهذه المعميات هي التي منعت الاهتدا والهداية الثانية
ورا هذه الهداية العامة وهي التي يمد الله بها العبد حالا بعد حال وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى والذين جاهدوا
فينا الاية وهو المراد بقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى والهداية الثالثة ورا الثانية وهو النور الذي
يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فيهتدي بها الى ما لا يهتدى اليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وامكان
تعلم العلوم به وهو الهدى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات وهو الذي شرفه الله بتخصيص الاضافة اليه وان كان الكل
من جهته فقال تعالى قل ان هدى الله هو الهدى وهو المسمى حياة في قوله او من كان ميتا فاحييناه وجعلنا
له نورا يمشي به في الناس وبقوله افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه واما الرشد فنعني به العناية
الالهية التي تعين الانسان على توجهه الى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى ولقد
اتينا ابراهيم رشده الاية فالرشد عبارة عن هداية باعثة الى جهة السعادة محركة اليها فالصبي اذا بلغ خبيرا بحفظ
المال وطرق التجارة والاستنما ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنما لا يسمى رشيدا لا لعدم هدايته بل لقصور
هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على ما يعلم انه يضره فقد اعطي الهداية وميز بها عن الجاهل
الذي لا يدري انه يضره ولكن ما اعطي الرشد فالرشد بهذا الاعتبار اكمل من مجرد الهداية الى وجوه الاعمال
وهي نعمة عظيمة واما التسديد فهو توجيه حركاته الى صوب المطلوب وتيسيرها عليه ليشتد في صوب الصواب
في اسرع وقت فان الهداية بمجردها لا تكفي بل لا بد من الحركة بمساعدة الاعضا والالات حتى يتم المراد مما انبعث
اليه الداعية فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك والتسديد اعانة ونصرة بتحريك الاعضا

في صوب السداد وأما التأييد فكأنه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وقوة البطش ومساعدة
الأسباب من خارج وهو المراد بقوله تعالى إذ أيدتك بروح القدس وتقرب منه العصمة وهي عبارة عن جود إلهي يسبح في الباطن
يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس وإياه عنى بقوله تعالى ولولا أن رأى برهان ربه فهذه هي
مجامع النعم ولن تثبت إلا بما خوله الله به من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير المتواضع المراعي والمعلم الناصح والمال
الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء ويستدعي كل
واحد من هذه الأسباب عشرة أسباب ويستدعي كل واحد من تلك الأسباب أسبابا إلى أن ينتهي بالآخرة إلى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين وذلك رب
الأرباب ومسبب الأسباب وإذا كانت الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى وإن
تعدوا نعمة الله لا تحصوها

بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم أنا جعلنا النعم في ستة عشر ضربا وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة
فلو أردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة الواحدة لم نقدر عليها ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة
من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة وكل حركة فلا بد لها من جسم متحرك
هو آلتها ولا بد لها من قدرة على الحركة ولا بد من إرادة الحركة ولا بد من علم بالمراد وإدراك له ولا بد للأكل من مأكول ولا بد للمأكول
من أصل منه يحصل ولا بد له من صانع يصلحه فلنذكر أسباب الإدراك ثم أسباب الإرادة ثم أسباب القدرة ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح
لا على سبيل الاستقصاء

الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا
من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تنمو ولا تغتذي فإن النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إليه من جهة أصله
وعروقه التي في الأرض وهي آلات له فيها يجتذب الغذاء وهو العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة تغلظ أصولها ثم تتشعب ولا تزال تتشعب
وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر إلا أن النبات مع هذا الكمال ناقص فإنه لو أعوزه غذاء ساق إليه
ويماس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال إليه والنبات عاجز
عن ذلك فمن نعمة الله عليك أن خلق لك آلات الإحساس وآلات الحركة في طلب الغذاء فانظر إلى ترتيب حكمة الله في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك
فأولها حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب منه وهذا أول حس يخلق للحيوان
ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس لأنه إن لم يحس أصلا فليس بحيوان وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه ويماسه
فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتم لا محالة وهذا الحس موجود لكل حيوان حتى الدودة التي في الطين فإنها إذا غرز فيها
إبرة انقبضت للهرب لا كالنبات فإن النبات يقطع ولا ينقبض إذ لا يحس بالقطع إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصا
كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يماس بدنك فتحس به فتجذبه إليك فقط فافتقرت إلى حس تدرك به
ما بعد عنك فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية فتحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب فربما
تعثر

تعثر على الغذاء الذي شممت ريحه وربما لم تعثر فتكون في غاية النقصان إن لم يخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك
وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصا إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب فتبصر غذاء
ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فخلق لك
السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران عند جريان الحركات ولأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئا حاضرا وأما الغائب فلا يمكنك معرفته
إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك ذلك وميزت بفهم الكلام عن سائر
الحيوانات وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله
فتهلك كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجتذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم
يخلق في مقدم دماغك إدراك آخر يسمى حسا مشتركا تتأدى إليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه ولولاه لطال الأمر عليك
فإنك إذا أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مرا مخالفا لك فتركته فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر مضر ما لم تذقه ثانيا
لولا الحس المشترك إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف يمتنع عنه والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة فلا بد
من حاكم يجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مر فيمتنع عن تناوله ثانيا وثالثا وهذا كله
يشاركك فيه الحيوانات إذ للشاة هذه الحواس كلها فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصا إذ البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدري
كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص إذا قيدت وقد تلقي نفسها في بئر ولا تدري أن ذلك يهلكها ولذلك قد تأكل
البهيمة ما تستلذه في الحال ويضرها في ثاني الحال فتمرض فتموت إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر فأما إدراك العواقب فلا
فميزك الله وأكرمك بصفة أخرى هي أشرف من الكل وهي العقل فتدرك به مضرة الأطعمة ومنفعتها وما يضر في المآل وبه تدرك
كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك وهو أخس فوائد العقل
وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في عالمه وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس في حقك
فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحي المملكة قد وكلت واحدة منها بأخبار الألوان والأخرى
بأخبار الأصوات والأخرى بأخبار الروائح والأخرى بأخبار الطعوم والأخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة
واللين والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك والحس
المشترك قاعد في مقدمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب الواردة على الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم
فيأخذها وهي مختومة إذ ليس له إلا أخذها وحفظها فأما معرفة حقائق ما فيها فلا ولكن إذا صادف القلب العاقل
الذي هو الأمير والملك سلم الإنهاءات إليه مختومة فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة
لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود وهي الأعضاء مرة في الطلب ومرة في
الهرب ومرة في تمام التدبيرات التي تعن له **مهم** بيان نعم الله عليك في الإدراكات ولا تظن أنا استوفيناها في الحواس

الطاهره هي بعض الادراك والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة له وقد ركبت العين من عشر
طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها اغشية وبعض الاغشية كانها نسج العنكبوت وبعضها كالمشيمة وبعض تلك
الرطوبات كانه بياض البيض وبعضها كانه الجمد ولكل واحدة من هذه الطبقات صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض
وتدوير وتركيب لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر او صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل
البصر وعجز عنه الاطبا والكحالون كلهم فهذا في حس واحد فقس به حاسة السمع وساير الحواس بل
لا يمكن ان يستوفى حكم الله وانواع نعمته في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة مع ان جملته لا تزيد على جوزة صغيرة
فكيف ظنك بجميع البدن وساير اعضايه وعجايبه فهذه رموز الى نعم الله بخلق الادراكات **الطرف الثاني**
في اصناف النعم في خلق الارادات اعلم انه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذا من بعد ولم يخلق لك ميلا في الطبع
وشوقا اليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى الطعام وهو انفع الاشيا
له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر والادراك معطلا في حقه فاضطررت الى ان يكون
لك ميل الى ما يوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك يسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة
فخلق الله فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلها بك كالمتقاضي الذي يضطرك الى التناول حتى تتناول
وتغتذي فتبقى بالغذا وهذا مما شاركك فيه الحيوان دون النبات ثم هذه الشهوة لو لم تسكن اذا اخذت
مقدار الحاجة اسرفت واهلكت نفسك فخلق الله الكراهة عند الشبع لتترك الاكل بها لا كالزرع فانه لا يزال
يجذب الما اذا انصب في اسافله حتى يفسد فيحتاج الى آدمي يقدر غذاه بقدر الحاجة فيسقيه مرة ويقطع
عنه الما اخرى وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تاكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الوقاع حتى تجامع
فيبقى به نسلك ولو قصصنا عليك صنع الله في خلق الرحم وخلق دم الحيض وتاليف الجنين من النطفة ودم الحيض
وكيفية خلق الانثيين والعروق السالكة اليهما من الفقار الذي هو مستقر النطفة وكيفية انصباب ما المراة
من الترايب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم الى قوالب النطفة في بعضها فيتشكل بشكل الذكور
وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الاناث وكيفية ادارتها في اطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظما ولحما ودما
وكيفية قسمة اجزايها الى الراس ورجل وبطن وظهر ويد وساير الاعضا لقضيت من انواع نعم الله عليك
في مبدا خلقك كل العجب فضلا مما تراه الآن ولكنا لسنا نريد ان نتعرض الا لنعم الله في الاكل وحده
كي لا يطول الكلام فاذا شهوة الطعام احد ضرب الارادات وذلك لا يكفيك فانه ياتيك المهلكات من
الجوانب فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للافات
ولاخذ منك كل ما حصلته من الغذا فان كل احد يشتهي ما في يديك فتحتاج الى داعية في دفعه ومقاتلته
وهي داعية الغضب ثم هذا لا يكفيك اذ الشهوة والغضب لا يدعوان الا الى ما يضر وينفع في الحال اما

في المال

في المال فلا يكفي فيه هذه الارادة فخلق الله لك ارادة اخرى مسخرة تحت اشارة العقل المعرف للعواقب كما
خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت دراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل اذ كان مجرد المعرفة
بان هذه الشهوة مثلا تضرك لا تغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل الى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة افردت
بها عن البهايم اكراما لبني آدم عليه السلام كما افردت بمعرفة العواقب وقد سمينا هذه الارادة باعثا دينيا وفصلناه
في كتاب الصبر تفصيلا وفي من هذا **الطرف الثالث** في نعم الله تعالى في خلق القدرة والات الحركة اعلم ان الحس
لا يفيد الا الادراك والارادة لا معنى لها الا الميل الى الطلب والهرب وهذا لا كفاية فيه ما لم يكن له الطلب والهرب
فكم من مشتاق الى شي بعيد عنه مدرك له لا يمكنه ان يمشي اليه لفقد رجليه ولا يمكنه تناوله لفقد يديه
او لفلج وخدر فيهما فلا بد من الات للحركة وقدرة في تلك الالات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا
وبمقتضى الكراهة هربا فلذلك خلق الله لك الاعضا التي تنظر الى ظاهرها ولا تعرف اسرارها **فمنها** ما هو للطلب كالرجل
للانسان والجناح للطير والقوايم للدواب **ومنها** ما هو للدفع كالاسلحة للانسان والقرون للحيوانات وفي هذا تختلف الحيوانات
اختلافا كثيرا **فمنها** ما يكثر اعداؤه ويبعد غذاؤه فيحتاج الى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة **ومنها** ما خلق
له اربع قوايم **ومنها** ما له رجلان **ومنها** ما يدب وذكر ذلك يطول فلنذكر الاعضا التي بها يتم الاكل فقط
لنقاس عليها غيرها **فنقول** رويتك الطعام من بعد وحركتك اليه لا تكفي ما لم تاخذه فافتقرت الى الة باطشة
فانعم الله عليك بخلق اليدين وهما طويلتان فتمتدان الى الاشيا وهما مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات فتمتد وتنثني
اليك ولا تكون كخشبة منصوبة ثم جعل راس اليد عريضا بخلق الكف ثم قسم راس الكف بخمسة اقسام هي الاصابع
وجعلها في صفين بحيث يكون الابهام في جانب ويدور على الاربعة الباقية ولو كانت مجتمعة او متراكمة لم يحصل بها
تمام غرضك فوضعها وضعا ان بسطتها كانت لك مجرفة وان ضممتها كانت لك مغرفة وان جمعتها كانت
لك الة للضرب وان نشرتها ثم قبضتها كانت لك الة في القبض ثم خلق لها اظفارا واسند اليها رؤوس الاصابع
حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الاشيا الدقيقة التي لا تحويها الاصابع فتاخذها برؤوس اظفارك ثم هب انك
اخذت الطعام باليد فمن اين يكفيك هذا ما لم يصل الى المعدة وهي في الباطن فلا بد وان يكون من الظاهر دهليز
اليها حتى يدخل الطعام منه فجعل الفم منفذا الى المعدة ثم ان وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة
فلا تقدر على ابتلاعه فتحتاج الى طاحونة ليطحن بها الطعام فخلق لك اللحيين من عظمين وركب فيهما الاسنان
وطبق الاضراس من العليا على السفلى ليطحن بها الطعام تارة يحتاج الى الكسر وتارة الى القطع ثم يحتاج الى الطحن بعد
فقسم الاسنان الى عريضة طواحن كالاضراس والى حادة قواطع كالرباعيات والى ما يصلح للكسر كالانياب ثم جعل
مفصل اللحيين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتاخر حتى يدور على الفك الاعلى دوران الرحا ولولا ذلك لما
تيسر الا ضرب احدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك لا يتم الطحن فجعل اللحي الاسفل متحركا حركة

دورية والتي الاعلى ثابتا لا تحرك فانظر الى عجيب صنع الله فان كل رحا صنعه الخلق فيتحرك منه الحجر الاسفل
ويبقى الاعلى لا على هذا الرحا الذي صنعه الله اذ يدور الاسفل منه على الاعلى فسبحانه ما اعظم شانه واتم برهانه
واوضح امتنانه ثم هب انك وضعت الطعام في فضا الفم فكيف تحرك الطعام الى ما تحت الاسنان وكيف تحركه
الاسنان الى نفسها وكيف تتصرف باليد في داخل الفم فانظر كيف انعم الله عليك بخلق اللسان فانه يطوف في جوانب
الفم ويرد الطعام من الوسط الى الاسنان بحسب الحاجة كالمجرفه التي ترد الطعام الى الرحا هذا مع ما فيه من
فايدة الذوق وعجايب قوة النطق التي لسنا نطنب بذكرها ثم هب انك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس
فلا تقدر على الابتلاع الا بان يتزلق الى الحلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق الله تحت اللسان عينا تفيض اللعاب منها
وينصب بقدر الحاجة حتى يتعجن به الطعام وانظر كيف سخرها الله لهذا الامر فانك ترى الطعام من بعيد فتثور
الملبية للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب اشداقك والطعام بعد بعيد منك ثم هذا الطعام المطحون المعجون
من يوصله الى المعده وهو في الفم ولا تقدر على ان تدفعه باليد ولا في المعده يد تمتد حتى تجذب الطعام
فانظر كيف هيا الله المري والحنجره وجعل على راسها طبقا تنفتح لاخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى ينقلب
الطعام بضغطه فيهوي الى المعده في دهليز المري فاذا ورد الطعام على المعده فهو خبز وفاكهة مقطعه
فلا يصلح لان يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة فيحصل في قدر فينضج فيها الطعام فتحتوي عليه وتغلق
عليه الابواب فلا يزال لابثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحراره التي تحيط بالمعده من الاعضا الباطنه اذ من
جانبها الكبد ومن الايسر الطحال ومن قدام الترب ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحراره اليها من تسخين هذه
الاعضا من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مايعا متشابها يصلح للنفوذ في تجاويف العروق وعند
ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه اجزايه ورقته وهو بعد لا يصلح للتغذيه فخلق الله بينها وبين الكبد
مجاري من العروق وجعل لها افواها كثيره حتى ينصب الطعام فيها فينتهي الى الكبد والكبد معجون
من طينة الدم حتى كانه دم وفيه عروق كثيره شعريه منتشره في اجزايها حتى يستولي عليه قوة
الكبد فتصبغه بلون الدم فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج اخر ويحصل به هيئة الدم الصافي الصالح لغذا
الاعضا الا ان حراره الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع
ما يطبخ احديهما شبيهه بالدردي والعكر وهو الخلط السوداوي والاخرى شبيهه بالرغوة وهي
الصفرا ولو لم تفصل عنهما الفضلتان فسد مزاج الاعضا فخلق الله المراره والطحال وجعل لكل واحد
منهما عنقا ممدودا الى الكبد داخلا في تجويفه فتجتذب المرارة الفضله الصفراويه ويجتذب الطحال
العكر السوداوي فيبقى الدم صافيا ليس فيه الا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائيه ولولاها
لما انتشر في تلك العروق الشعريه ولا خرج منها متصاعدا الى الاعضا فخلق الله الكليتين واخرج من

كل واحد

كل واحد منهما عنقا طويلا الى الكبد ومن عجايب حكمة الله تعالى ان عنقهما ليس داخلا في تجويف الكبد بل متصل بالعروق
الطالعه من حدبة الكبد حتى يجذب مايتها بعد الطلوع من العروق الرقيقة التي في الكبد اذ لو اجتذب قبل
ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق فاذا انفصلت منه المائيه فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلث نقيا
من كل ما يفسد الغذا ثم ان الله اطلع من الكبد عروقا ثم قسمها بعد الطلوع اقساما وشعب كل قسم شعبا وانتشر
ذلك في البدن كله من القرن الى القدم ظاهرا وباطنا فيجري الدم الصافي فيها ويصل الى ساير الاعضا حتى تصير
العروق المنقسمه شعريه كعروق الاوراق والاشجار بحيث لا تدرك بالابصار فيصل منها الغذا بالترشح الى ساير
الاجزا ولو حلت بالمرارة افه فسد الدم وحصل منه الامراض الصفراويه كاليرقان والبثور والحمرة وان حل بالطحال
افه فلم يجذب الخلط السوداوي حدثت الامراض السوداويه كالبهق والجذام والماليخوليا وغيره وان لم تدفع
المائيه نحو الكلى حدث منه الاستسقا وغيره ثم انظر الى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب منافع على هذه الفضلات الثلث
الخسيسه اما المراره فانها تجذب باحد عنقيها وتقذف بعنق اخر الى الامعا لتحصل به في ثقل الطعام رطوبة
مزلقه ويحدث في الامعا لذع يحركها للدفع فتنضغط حتى يندفع الثفل وينزلق ويكون صفرته لذلك واما
الطحال فانه يحيل تلك الفضله احالة يحصل بها فيه حموضه وقبض ثم يرسل منها في كل يوم شيا الى فم المعده فيحرك الشهوة
بحموضتها وينبهها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثفل واما الكليه فانها تتغذى بما في تلك المائيه من دم وترسل
الباقي الى المثانه ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله في الاسباب التي اعدت للاكل ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد الى
القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الاعضا الرييسه الى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب
الى ساير البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد الى ساير البدن وبواسطتها
يصل الغذا ثم كيفية تركيب الاعضا وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها واوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها
لطال الكلام وكل ذلك يحتاج اليه للاكل ولامور اخر سواه بل في الادمي الاف من العضلات والعروق والاعصاب مختلفه
بالصغر والكبر والدقه والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولا شي منها الا وفيه حكمة او اثنتان او ثلث او اربع الى عشر وزيادة
وكل ذلك نعمة من نعم الله عليك لو سكن من جملتها عرق متحرك او تحرك عرق ساكن لهلكت يا مسكين فانظر الى نعمة الله
اولا لتقوى بعدها على الشكر فانك لا تعرف من نعم الله الا الاكل وهي اخسها ثم لا تعرف منها الا انك تجوع فتاكل
والحمار ايضا يعلم انه يجوع فياكل ويتعب فينام ويشتهي فيجامع ويستنزي فيتمرغ فاذا لم تعرف انت من نفسك
الا ما يعرفه الحمار فكيف تقوم بشكر الله وهذا الذي رمزنا اليه على الايجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط
فقس على الاجمال ما اهملنا من جملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالاضافة الى ما لم يعرفوه من نعم الله اقل من قطرة من بحر
الا ان من علم شيا من هذا ادرك شمة من معاني قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ثم انظر كيف ربط الله قوام هذه
الاعضا وقوام منافعها وادراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الاخلاط الاربعه ومستقره القلب ويسري

في جميع البدن بواسطة العروق الضوارب ولا ينتهي إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء
ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذي يدار في أطراف البيت ولا يصل إلى جزء إلا ويحصل
بسبب وصوله على أجزاء البيت ضوء على حيطانه واختراعه ولكن جعل الروح سماه حكمته وهو بخار لطيف **هو الذي**
تسميه الأطباء الروح ومحله القلب ومثاله جرم نار السراج والقلب كالمسرجة والدم الأسود الذي في باطن القلب
كالفتيلة والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن شبيه بضوء السراج في جملة البيت وكما أن السراج إذا انقطع
زيته انطفأ فسراج الروح أيضا ينطفي مهما انقطع غذاؤه وكما أن الفتيلة قد تحترق وتصير رمادا بحيث لا تقبل الزيت
وينطفي السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي يثبت به هذه الحرارة في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب
وينطفي مع وجود الغذاء الذي يبقى منه الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولا تثبت به النار وكما أن السراج تارة
ينطفي بسبب من داخله كما ذكرناه وتارة بسبب خارج كريح عاصفة فكذلك الروح تارة ينطفي بسبب من داخل
وتارة بسبب من خارج وهو القتل وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت وفساد الفتيلة أو بريح عاصف وبإطفاء
إنسان لا يكون إلا بأسباب مقدرة في علم الله سبحانه ويكون كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما أن انطفاء السراج
هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما أن انطفاء
السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فكذلك الروح إذا انطفأت أظلم البدن كله وفارقته أنواره التي كان يستفيدها من الروح
وهي أنوار الإحساسات والقدرة والإرادة وسائرها يجمعها معنى لفظ الحياة **فهذا** أيضا رمز وجيز إلى عالم آخر من عالم
نعم الله وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنه لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي فتعسا للمنكر بالله
تعسا وسحقا للمكفر بنعمته سحقا **فإن قلت** فقد وصفت الروح وعللته وهو الذي سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح فلم يزد على
أن قال قل الروح من أمر ربي فلم لم يصفه على هذا الوجه **فاعلم** أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح فإن
الروح تطلق لمعان كثيرة لا نطول بذكرها ونحن إنما وصفنا من جملتها جسما لطيفا تسميه الأطباء روحا وقد عرفوا
صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الإحساس والقوى في الأعضاء به حتى إذا أحس
بعض الأعضاء علموا أن ذلك لشيء وقع في مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع
السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة فإن هذا الجسم لطيف ينفذ في شباك العصب وبواسطته ينادي من القلب
إلى سائر الأعضاء وما يرتقي إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت
فسد بها سائر البدن فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال هو أمر رباني
كما قال تعالى قل الروح من أمر ربي والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق وأما
الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات وتتزلزل في مبادي وصفها معاقد
العقول المقيدة بالعرض والجوهر المحبوسة في مضيقها فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من
العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية ونسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال وقد خلق الله
الخلق أطوارا فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد وكذلك يدرك
البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءها لأن ذلك طور لم يبلغه بعد وإنه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية
فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد بل لا يطلع عليه إلا الواحد

بعد واحد ولجناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب وفي أول الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر
الرباني فمن لم يكن على العتبة له جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحال أن يصل إلى الميدان فكيف بالانتهاء إلى ما
وراءه من المشاهد العالية ولذلك قيل من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه وأنى يصادف هذا في خزانة الأطباء ومن أين للطبيب
أن يلاحظه بل المعنى المسمى روحا عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان الملك
بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحركها صولجان الملك
فظن أنه رأى الملك ولا شك في أن خطأه فاحش وهذا الخطأ أفحش منه جدا ولما كانت العقول التي يحصل بها التكليف
ويدرك بها مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كيفية هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث
عنه بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا لكن ذكر نسبته وفعله ولم
يذكر ذاته أما نسبته ففي قوله تعالى قل الروح من أمر ربي وأما فعله فقد ذكره في قوله تعالى ارجعي إلى ربك راضية
مرضية إليه ولنرجع الآن إلى الغرض فالمقصود ذكر نعم الله في الأكل فقد ذكرنا بعض نعم الله في آلات الأكل **الطرف**
الرابع في نعم الله في الأصول التي منها تحصل الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعه **اعلم** أن الأطعمة
كثيرة ولله في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب متوالية لا تتناهى وذكر ذلك في كل طعام مما يطول فإنها أما أدوية وأما
فواكه وأما أغذية **فلنأخذ** الأغذية فإنها الأصل ولنأخذ من جملتها حبة من البر ولندع سائر الأغذية **فنقول**
إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعا فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف
حتى تفي بتمام حاجتك فخلق الله في حبة الحنطة من القوى ما تغتذي به كما خلق فيك فإن النبات إنما يفارقك في الحس
والحركة ولا يفارقك في الاغتذاء لأنه يغتذي بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تغتذي أنت وتجتذب
ولسنا نطنب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشير إلى غذائه **فنقول** كما أن الخشب والتراب لا يغذيك بل
تحتاج إلى طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تغتذي بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص بدليل أنك لو تركتها في البيت
لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا الهواء ومجرد الهواء لا يصلح لغذائه ولو تركتها في الماء لم تزد ولو تركتها في أرض لا ماء فيها
لم تزد بل لا بد من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينا وإليه الإشارة بقوله أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا
الأرض شقا ثم لا يكفي الماء والتراب إذ لو تركتها في أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء فيحتاج إلى تركها في أرض رخوة
متخلخلة يتغلغل الهواء فيها ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ
فيها وإليه الإشارة بقوله تعالى وأرسلنا الرياح لواقح وإنما إلقاحها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض ثم كل
ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات فيحتاج إلى حرارة الربيع والصيف فقد بان احتياج غذائك إلى
هذه الأربعة فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد إذ يحتاج الماء ليساق إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي

فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون واجرى منها الانهار ثم الارض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع اليها فانظر كيف
خلق الله الغيوم وكيف سلط الرياح عليها تسوقها باذنه الى اقطار العالم وهي سحب ثقال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا
على الاراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للماء تتفجر منها العيون تدريجا ولو خرجت
دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشي ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والامطار لا يمكن احصاؤها واما الحرارة
فانها لا تحصل من الماء والارض وكلاهما باردان فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الارض مسخنة للارض
في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة الى البرد والحر عند الحاجة الى الحر فهذه احدى حكم الشمس والحكم فيها اكثر
من ان تحصى ثم النبات اذا ارتفع عن الارض كان في الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر الى رطوبة تنضجها وانظر كيف خلق القمر
وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم
ولذلك لو كانت الاشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة حتى ان الشجرة
الصغيرة تفسد اذا اظلتها شجرة كبيرة وتعرف ترطيب القمر بان تكشف راسك له في الليل فتغلب على راسك الرطوبة
التي يعبر عنها بالزكام فكما يرطب راسك يرطب الفواكه ولا نطول فيما لا مطمع في استقصائه **بل نقول** كل
كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس والقمر فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر باحصائها
ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك وقوله وما خلقنا السماء
والارض وما بينهما لاعبين وكما انه ليس في اعضاء بدنك عضو الا لفائدة فليس في اعضاء بدن العالم عضو الا لفائدة
والعالم كله كشخص واحد وآحاد اجسامه كالاعضاء وهي متعاونة تعاون اعضاء بدنك في جملة بدنك وشرح ذلك
ولا ينبغي ان يظن ان الايمان بان النجوم والشمس والقمر مسخرات بامر الله في امور جعلت اسبابا لها بحكم الحكمة مخالف للشرع
لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم بل المنهي عنه في النجوم امران احدهما ان تصدق بانها
فاعلة لآثارها مستقلة بها وانها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر والثاني
تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها لانهم يقولون
ذلك عن جهل فان علم احكام النجوم كان معجزة لبعض الانبياء **ثم اندرس** ذلك العلم فلم يبق الا ما هو
مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطا فاعتقاد كون الكواكب اسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الارض
وفي النبات والحيوان ليس قادحا في الدين بل هو حق ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل
قادح في الدين ولذلك اذا كان معك ثوب غسلته وتريد ان تجففه فقال لك غيرك اخرج الثوب وابسطه
فان الشمس قد طلعت وحمي الهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الانكار عليه بحوالته حمي الهواء على طلوع
الشمس واذا سالت عن تغير وجه الانسان فقال قرعتني الشمس فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه وقس بهذا سائر
الآثار الا ان الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه والمعلوم بعضه معلوم للناس
كافة

كما في حصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس وبعضها لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر فان الكواكب ما خلقت
عبثا بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السماء وقرا قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا
الآية ثم قال ويل لمن قرا هذه الآية ثم مسح بها سبلته ومعناه ان يقرا ويترك التامل ويقتصر من فهم ملكوت السموات
على ان يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم ايضا فمن قنع بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته
فلله في ملكوت السموات والآفاق والانفس والحيوانات والنبات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله فان من احب عالما فلا يزال
مشغوفا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبا له فكذلك الامر في عجائب صنع الله فان العالم
كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده فان تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من
المصنف بل من الذي سخر المصنف لتاليفه بما انعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه كما اذا رايت لعب المشعوذ ترقص
وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تتعجب من اللعب فانها خرق لا تتحرك ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط
روابط دقيقة خفية عن الابصار فاذا المقصود غذاء النبات لا يتم الا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ولا يتم ذلك الا بالافلاك
التي هي مركوزة فيها ولا تتم الافلاك الا بحركاتها ولا تتم حركاتها الا بملائكة سماوية يحركونها وكذلك يتمادى ذلك الى اسباب بعيدة تركنا
ذكرها تنبيها بما ذكرناه على ما اهملناه ولنقتصر على هذا من ذكر اسباب غذاء النبات **الطرف الخامس في نعم** الله في الاسباب
الموصلة للاطعمة اليك اعلم ان هذه الاطعمة كلها لا توجد في كل مكان بل لها شروط مخصوصة لاجلها توجد في بعض الاماكن
دون بعض والناس منتشرون على وجه الارض وقد تبعد عنهم الاطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبراري فانظر كيف
سخر الله التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع انهم لا يغنيهم في غالب الامر شيء بل يجمعون فاما ان تغرق بهم السفن
او تنهبها قطاع الطريق او يموتون في بعض البلاد فتاخذها السلاطين واحسن احوالهم ان ياخذها ورثتهم وهم اشد اعدائهم
لو عرفوا فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح ويركبوا الاخطار ويغرروا بالارواح
في ركوب البحار فيحملوا الاطعمة وانواع الحوائج من اقصى الشرق والغرب اليك وانظر كيف علمهم الله صنعة السفن وكيفية الركوب
فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل في البراري وانظر الى الابل كيف خلقت والى الفرس كيف امده بسرعة
الحركة والى الحمار كيف جعله صبورا على التعب والى الجمال كيف تقطع البراري وتطوي المراحل تحت الاعباء الثقيلة على
الجوع والعطش فانظر كيف سيرهم الله بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا اليك الاطعمة وسائر الحوائج وتامل
ما تحتاج اليه الحيوانات من اسبابها وادواتها وعلفها وما تحتاج اليه فقد خلق الله جميع ذلك الى حد الحاجة وفوق
الحاجة واحصاء ذلك غير ممكن ويتمادى هذا الى امور خارجة عن الحصر تركناها طلبا للايجاز **الطرف السادس**
في اصلاح الاطعمة اعلم ان الذي ينبت من الارض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن ان يقضم ويؤكل هو كذلك
بل لا بد في كل واحد من اصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بالقاء البعض وابقاء البعض الى امور لا تحصى واستقصاء ذلك
في كل طعام تطويل فلنعين رغيفا واحدا ولننظر الى ما يحتاج اليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للاكل
من بعد القاء البذر في الارض فاول ما يحتاج اليه الحراث ليزرع ويصلح الارض ثم الى الثور الذي يثير الارض والفدان
وجميع اسبابه ثم بعد ذلك التعهد بسقي الماء مدة ثم تنقية الارض من الحشيش ثم الحصاد ثم الفرك والتنقية ثم الطحن والعجن

ثم الخبز فتامل عدد هذه الافعال التي ذكرناها وما لم نذكره وعدد الاشخاص العاملين لها وعدد الالات التي يحتاج اليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر الى اعمال الصناع في اصلاح الات الحراثة والطحن والخبز من نجار وحداد وغيرهما وانظر الى حاجة الحداد الى الحديد والرصاص والنحاس وانظر كيف خلق الله الجبال والاحجار والمعادن وكيف جعل الارض قطعا متجاورات مختلفة فان فتشت علمت ان رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لاكلك يا مسكين ما لم يعمل عليه اكثر من الف صانع فابتدئ من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء الى اخر الاعمال من جهة الملائكة حتى تنتهي النوبة الى عمل الانسان فاذا استدار طلبه قريب من سبعة الاف صانع كل صانع اصل من اصول الصناع التي بها تتم مصلحة الخلق ثم تامل كثرة اعمال الانسان في تلك الالات حتى ان الابرة التي هي الة صغيرة فايدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لا تكمل صورتها من حديدة تصلح للابرة الا بعد ان تمر على يدي الابري خمسا وعشرين مرة ويتعاطى في كل مرة منها عملا فلو لم يجمع الله البلاد ولم يسخر العباد وافتقرت الى عمل المنجل الذي تحصد به البر مثلا بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه افلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قذرة لان يعمل هذه الاعمال العجيبة والصنايع الغريبة فانظر الى المقراض مثلا وهما جلمان منطبقان ينطبق احدهما على الاخر فيتناولان الشي معا ويقطعانه بسرعة ولو لم يكشف الله طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا الى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم الى استخراج الحديد من الحجر والى تحصيل الالات التي بها يعمل المقراض وعمر الواحد منا عمر نوح عليه السلام واوتي اكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في اصلاح هذه الالة وحدها فضلا عن غيرها فسبحان من ... من الجودة ... الابصار بالعميان وتخلص منه التعب مع هذه البينة فانظر الان لو خلا بلدك عن الطحان مثلا او عن الحداد او عن الحجام الذي هو اخس العمال او عن الحائك او عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الاذى وكيف تضطرب عليك امورك كلها فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته ولنوجز القول في هذه الطبقة ايضا فان الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصا

الطرف التاسع في اصلاح المصلحين

اعلم ان هولا الصناع المصلحين للاطعمة وغيرها لو تفرقت اراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد فانظر كيف الف الله بين قلوبهم ولاجل الالف وتعارف الارواح اجتمعوا وايتلفوا وبنوا المدن والبلاد وبنوا المساكن والدور متقاربة متجاورة وبنوا الاسواق والخانات وساير اصناف البقاع مما يطول احصاوه ثم هذه المحبة تزول باغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها ففي جبلة الانسان الغيظ والحسد والمنافسة وذلك مما يودي الى التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله السلاطين وامدهم بالقوة والعدة والاسباب والقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى اذعنوا لهم طوعا وكرها وكيف هدى الله السلاطين الى طريق اصلاح البلاد حتى رتبوا اجزا البلد كانها اجزا شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض فرتبوا الرؤسا والقضاة والسجن وزعما الاسواق واضطروا الخلق الى قانون العدل والزموهم التساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب والخباز وساير اهل البلد وكلهم ينتفعون بالحداد وصار الحجام ينتفع بالحراث والحراث بالحجام وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب اجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه كما تتعاون جميع اعضا البدن وينتفع بعضها ببعض فانظر كيف بعث الله الانبيا حتى اصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعرفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من احكام الامامة والسلطنة

وحكم

واحكام الفقه ما اهتدوا به الى صلاح الدنيا فضلا عما ارشدوهم اليه من صلاح الدين وانظر كيف اصلح الله الانبيا بالملائكة وكيف اصلح الله الملائكة بعضهم ببعض الى ان ينتهي الى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالخباز يصلح العجين بالطبخ والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلح بالحصاد والحداد يصلح الات الحراثة والنجار يصلح الات الحداد وكذا جميع ارباب الصناعات المصلحين لالات الاطعمة والسلاطين يصلحون الصناع والانبيا يصلحون العلما الذين هم ورثتهم والعلما يصلحون السلاطين والملائكة يصلحون الانبيا الى ان ينتهي الى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشا كل ترتيب وتاليف وكل ذلك نعم من رب الارباب ومسبب الاسباب ولولا فضله وكرمه اذ قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا لما اهتدينا الى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله ولولا عزله ايانا ان نطمح بعين الطمع الى الاحاطة بكنه نعمته لتشوفنا الى طلب الاحاطة والاستقصا ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فان تكلمنا فباذنه انبسطنا وان سكتنا فبقهره انقبضنا اذ لا معطي لما منع ولا مانع لما اعطى لانا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار واسمعنا هذا النداء قبل انقضا الاعمار

الطرف الثامن في بيان نعمة الله في خلق الله الملائكة

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الملائكة باصلاح الانبيا عليهم السلام اجمعين وهدايتهم وتبليغ الوحي اليهم ولا تظنن انهم مقتصرون على ذلك القدر في افعالهم بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلث طبقات الارضية والسماوية وحملة العرش فانظر كيف وكلهم الله بك فيما يرجع الى الاكل والغذا الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرهما واعلم ان كل جز من اجزا بدنك بل من اجزا النبات لا يتغذى الا بان يوكل الله به سبعة من الملائكة واقله الى عشرة الى ماية الى ما ورا ذلك وبيانه ان معنى الغذا ان يقوم جز من الغذا مقام جز قد تلف وذلك الغذا يصير دما في اخر الامر ثم يصير لحما وعظما فاذا صار لحما وعظما تم اغتذاوك والدم واللحم اجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهي لا تتحرك بانفسها ولا تتغير بانفسها ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها في اطوارها كما ان البر بنفسه لا يصير طحينا ثم عجينا ثم خبزا مستديرا مطبوخا الا بالصناع فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما وعظما وعروقا وعصبا الا بالصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كما ان الصناع في الظاهر هم اهل البلد وقد اسبغ الله عليكم نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي ان تغفل عن نعمه الباطنة **فاقول** لا بد من ملك يجذب الغذا الى جوار اللحم والعظم فان الغذا لا يتحرك بنفسه ولا بد من ملك اخر يمسك الغذا في جواره ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعظم والعروق ولا بد من خامس يدفع الفاضل من حاجة الغذا ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا ولا بد

من تابع يرعى المقادير في الالصاق فيلحق بالمستدير مالا يبطل استدارته وبالعريض مالا يزيل عرضه وبالمجوف
مالا يبطل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذاء اليه للصبي ما يجمع على فخذه لكبرت فخذه
وبطل تجويفه وتشوهت صورته بل ينبغي ان يسوق الى الاجفان مع رقتها والى الحدقة مع صفائها والى الافخاذ مع غلظها
والى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل والا بطلت الصورة وربما يسمن المواضع ويضعف
بعض المواضع بل لو لم يراع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيط فساق الى راس الصبي وهو صغير من الغذاء ما يساق
الى احد الرجلين فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وعليه راس صغير كأنه راس صبي فلا ينتفع بنفسه البتة فمراعاة هذه
الهندسة في القسمة مفوض الى ملك من الملائكة ولا تظنن ان الدم بطبعه يهتدي ويستقل على نفسه فان من يحيل هذه
الامور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فالملائكة الارضية قد شغلوا بك وانت في النوم تستريح وفي الغفلة
تتردد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم وذلك في كل جزء من اجزائك الذي لا يتجزأ حتى يفتقر
بعض الاجزاء كالعين والقلب الى اكثر من مائة ملك تركنا تفصيل ذلك للايجاز والملائكة الارضية مددهم من الملائكة السماوية
من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت
جبار السموات والارض مالك الملك ذو الجلال والاكرام والاخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والارضين واجزاء النبات
والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب الى جانب اكثر من ان تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به **قال**
فمهما فوضت هذه الاعمال الى ملك واحد ولم افتقر الى سبعة املاك والحنطة انما تحتاج الى من يطحن اولا ثم الى من يميز
عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ثم الى من يصب الماء عليه ثالثا ثم الى من يعجن رابعا ثم الى من يقطعه كرات مدورة خامسا
ثم الى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ثم الى من يلصقها بالتنور سابعا ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل ويستقل به
مهلا كانت اعمال الملائكة بل طباعها كاعمال الانسان ظاهرا اعلم ان خلقة الملائكة تخالف خلقة الانسان وما من احد منهم الا وهو
وحداني الصفة ليس فيه خلط ولا تركيب البتة فلا يكون لكل واحد منهم الا فعل واحد واليه الاشارة بقوله تعالى
وما منا الا له مقام معلوم فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وفعله
عليه مثل الحواس الخمس فان البصر لا يزاحم السمع في ادراك الاصوات ولا الشم يزاحمهما ولا هما ينازعان الشم وليس
كاليد والرجل فانك قد تبطش باصابع الرجل بطشا ضعيفا فتزاحم به اليد وقد تضرب غيرك براسك
فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالانسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز فان هذا نوع من الاعوجاج
والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الانسان واختلاف دواعيه فانه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني
الفعل ولذلك ترى الانسان يطيع الله مرة ويعصيه اخرى لاختلاف دواعيه وصفاته وذلك غير ممكن في طباع
الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية في حقهم فلا جرم لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون
يسبحون الليل والنهار لا يفترون فالراكع منهم راكع ابدا والساجد ساجد ابدا والقائم قائم ابدا لا اختلاف
في افعالهم ولا فتور ولكل واحد منهم مقام معلوم لا يتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة
فيهم يمكن ان تشبه بطاعة اطرافك لك فانك مهما جزمت الارادة بفتح الاجفان لم يكن للجفن تردد واختلاف
في طاعته

في طاعتك مرة وفي معصيتك اخرى بل كانه منتظر لامرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلا باشارتك فهذا يشبهه
من وجه ولكن يخالفه من وجه اذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحا وانطباقا والملائكة احياء عالمون بما يعملون
فاذا هذه نعمة الله عليك في الملائكة الارضية والسماوية وحاجتك اليهم في غرض الاكل فقط دون ما عداها
من الحركات والحاجات كلها فانا لم نطول بذكرها فهذه طبقة اخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات فاذا قد اسبغ الله
عليك نعمه ظاهرة وباطنة قال تعالى وذروا ظاهر الاثم وباطنه فترك باطن الاثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن
والبدعة واضمار الشر للناس الى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الاثم الظاهر بالجوارح شكر
للنعم الظاهرة بل **اقول** كل من عصى الله ولو في تطريفة واحدة بان فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر
نعم الله عليه في السموات والارضين والحيوان والنبات بجملته فيجمع على كل واحد من العباد قد تم به استمتاعه وان انتفع به
غيره ايضا فان لله تعالى في كل تطريفة نعمتين في نفس الجفن اذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها اوتار ورباطات متصلة باعصاب
الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الاعلى وارتفاع الجفن الاسفل وعلى كل جفن شعور سود ونعمة الله في سوادها
انها تجمع ضوء العين اذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه ونعمة الله في ترتيبها صفا واحدا ان يكون مانعا للهوام
من الدبيب الى باطن العين ومتشبثا بالاقذاء التي تتناثر في الهواء ولله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين اصلها ومع
اللين قوام نصبها وله في اشتباك الاهداب نعمة اعظم من الكل وهو ان غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق
لم يبصر فيجمع الاجفان مقدار ما تتشابك الاهداب فينظر من وراء شباك الشعر مانعا من وصول الاقذاء من خارج وغير
مانع من امتداد البصر من داخل ثم ان اصاب الحدقة غبار فقد خلق اطراف الاجفان حادة منطبقة على الحدقة كالـ
المصقلة للمرآة فيطبق مرة او مرتين فتنصقل الحدقة عن الغبار ويخرج الاقذاء الى زوايا العين والاجفان
والذباب اذ لم يكن لحدقته جفن خلق الله له يدين فتراه على الدوام يمسح بهما حدقته ليصقلها عن الغبار واذ
تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره الى تطويل يزيد على اصل هذا الكتاب ولعلنا نستانف له كتابا
مقصودا فيه ان امهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله فلنرجع الى غرضنا **فنقول** قد ذكرنا بنعم
العين نعمة الله في الاجفان فلا تقوم الاجفان الا بعين ولا تقوم العين الا بالراس ولا الراس الا بجميع البدن ولا
البدن الا بالغذاء ولا الغذاء الا بالماء والارض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر ولا تقوم شيء من ذلك الا با
السموات ولا السموات الا بالملائكة فان الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط اعضاء البدن
بعضها ببعض فاذا قد كفر كل نعمة لله تعالى في الوجود من منتهى الثريا الى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا
حيوان ولا نبات ولا جماد الا وهو يلعنه ولذلك ورد في الخبر ان البقعة التي يجتمع فيها الناس اما ان تلعنهم
اذا تفرقوا او تستغفر لهم وكذلك ورد ان العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر وان الملائكة يلعنون
العصاة في الفاظ كثيرة لا يمكن احصاؤها وكل ذلك اشارة الى ان العاصي بتطريفة واحدة جنى على
جميع ما في الملك والملكوت وقد اهلك نفسه الا ان يتبع السيئة بحسنة تمحوها فيتبدل اللعن بالاستغفار
فعسى الله ان يتوب عليه ويتجاوز عنه واوحى الله تعالى الى ايوب عليه السلام ما من عبد لي من الادميين الا ومعه ملكان
فاذا شكرني على نعمائي قال الملكان اللهم زده نعما على نعم فانك اهل الحمد والشكر فكن من الشاكرين قريبا فكفى
بالشاكرين علو رتبة عندي اني اشكر شكرهم وملائكتي يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكي عليهم وكما
عرفت ان في كل تطريفة عين نعما كثيرة فاعلم ان في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين اذ بانبساطه يخرج الدخان
المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك وبانقباضه يجمع روح الهواء الى القلب ولو سد منفسه لاحترق قلبه بانقطاع
روح الهواء وترويحه عنه وهلك بل اليوم والليلة اربع وعشرون ساعة في كل ساعة قريب من الف نفس

وكل نفس قريب من عشرين نفسا فلعليك في كل لحظة الاف الاف نعمة في كل جزء من اجزاء بدنك بل في كل جزء من اجزاء
العالم فلينظر هل يتصور احصاء ذلك ام لا ولما انكشف لموسى عليه السلم حقيقة قوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها
قال الهي كيف اشكرك ولك في كل شعرة من جسدي نعمتان ان لينت اصلها وان طمنت راسها وكذلك ورد في الاثر
من لم يعرف نعمة الله تعالى الا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه وجميع ما ذكرناه يرجع الى المطعم والمشرب فاعتبر
ما سواه من النعم به فان البصر لا يقع في العالم على شي ولا يلم خاطره بموجود الا ويتحقق ان لله فيه نعمة عليه فلنترك
الاستقصا والتفصيل فانه طمع في غير مطمع **بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر** اعلم انه لم
تقصر بالخلق عن شكر النعمة الا الجهل والغفلة فانهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة
الا بعد معرفتها ثم ان عرفوا نعمة ظنوا ان الشكر عليها ان تقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ولم يعرفوا ان معنى الشكر ان يستعمل
النعمة في اتمام الحكمة التي اريدت بها وهي طاعة الله فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين الا غلبة الشهوة واستيلا
الشيطان اما الغفلة عن النعم فلها اسباب واحد اسبابها ان الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم في جميع
احوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على جميع ما ذكرناه من النعم لانها عامة للخلق مبذولة لهم في جميع فلا يرى كل واحد
لنفسه اختصاصا به ولا يعده نعمة فلا تراهم يشكرون الله على روح الهوا ولو اخذ بمخنقهم لحظة حتى انقطع الهوا
عنهم ماتوا ولو حبسوا في بيت حمام فيه هوا حار او في بير فيه هوا ثقيل برطوبة الما ماتوا غما فلو ابتلي واحد
بشي من ذلك ثم نجا وربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليه وهذا غاية الجهل اذ صار شكرهم موقوفا على ان يسلب عنهم
النعمة ثم ترد عليهم في بعض الاحوال والنعمة في جميع الاحوال اولى بان تشكر من النعمة في بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة البصر الا
ان يعمى فعند ذلك لو اعيد عليه احس به وشكره وعده نعمة ولو كانت رحمة الله واسعة عمت الخلق وبذل
لهم في جميع الاحوال لم يعده الجاهل نعمة وهذا الجاهل مثل العبد السو حقه ان يضرب دائما حتى اذا ترك ضربه
ساعة تقلد به منة فان ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لا يشكرون الا المال الذي
يتطرق الاختصاص اليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله عليهم كما شكا بعضهم فقره الى بعض ارباب البصاير واظهر
شدة اغتمامه به فقال ايسرك انك اعمى ولك عشرة الاف دينار فقال لا فقال ايسرك انك اخرس ولك عشرة
الاف دينار فقال لا فقال ايسرك انك اقطع اليدين والرجلين ولك عشرون الفا فقال لا فقال ايسرك انك مجنون
ولك عشرة الاف فقال لا فقال اما تستحي ان تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين الفا وحكي ان بعض القرا
اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فراى في المنام كان قائلا يقول له تود انا انسيناك سورة الانعام وان لك
الف دينار قال لا قال فسورة هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا قال فمعك قيمة مائة الف وانت تشكو
فاصبح وقد سري عنه ودخل ابن السماك على بعض الخلفا وفي يده كوز ما يشربه فقال عظني فقال له
لو لم تعط هذه الشربة الا ببذل جميع اموالك والا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه قال نعم فقال ولو لم
تعط الا بملكك كله فهل كنت تتركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ما فبهذا تبين ان نعمة الله

على العبد

على العبد في شربة ما عند العطش اعظم من ملك الارض كلها فاذا كانت الطباع مايلة الى عد النعم الخاصة نعمة دون
العامة وقد ذكرنا النعم العامة **فلنذكر** اشارة وجيزة الى النعم الخاصة **فنقول** ما من عبد الا ولو امعن
النظر في احواله راى من الله نعمة او نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما
لا يشاركه فيها احد وذلك يعترف به كل عبد في ثلثة امور في العقل والخلق والعلم اما العقل فما من عبد لله الا وهو راض
عن الله في عقله يعتقد انه اعقل الناس وقل ما يسال الله العقل وان من شرف العقل ان يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف
به فاذا كان اعتقاده انه اعقل الناس فيجب عليه ان يشكره لانه ان كان كذلك فالشكر واجب وان لم يكن ولكنه يعتقد
انه كذلك فهو نعمة في حقه فمن وضع كنزا تحت الارض فهو يفرح به ويشكر عليه فان اخذ الكنز من حيث لا يدري فيبقى
فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لانه في حقه كالباقي واما الخلق فما من عبد الا ويرى من غيره عيوبا يكرهها
واخلاقا يذمها وانما يذمها من حيث انه يرى نفسه بريا عنها فاذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي ان يشتغل بشكر الله
اذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء واما العلم فما من احد الا ويعرف من بواطن امور نفسه وخفايا افكاره
ما هو منفرد به ولو كشف الغطا حتى اطلع عليه احد من الخلق لافتضح فكيف لو اطلع الناس كافة فاذا لكل عبد علم بامر
خاص لا يشاركه فيه احد من عباد الله فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي ارسله على وجه مساويه فاظهر الجميل
وستر القبيح واخفى ذلك عن اعين الخلق وخص علمه به حتى لا يطلع عليه احد **فهذه** ثلث من النعم خاصة يعترف
بها كل احد اما مطلقا واما في بعض الامور فلننزل عن هذه الطبقة الى طبقة اخرى اعم منها قليلا **فنقول** ما من عبد الا وقد
رزقه الله في صورته او شخصه او اخلاقه او صفاته او اهله او ولده او مسكنه او بلده او رفيقه او اقاربه او عزته
او جاهه او في سائر محابه امورا لو سلب ذلك منه واعطي ما خصص به غيره لكان لا يرضى به وذلك مثل ان جعله
مومنا لا كافرا وحيا لا جمادا وانسانا لا بهيمة وذكرا لا انثى وصحيحا لا مريضا وسليما لا معيبا فان كل هذه
خصايص وان كان فيها عموم ايضا فان هذه الاحوال لو بدلت باضدادها لم يرض بها بل له امور لا يبدلها
باحوال الادميين ايضا وذلك اما ان يكون بحيث لا يبدله بما خص به احد من الخلق او لا يبدله بما خص به
الاكثر فان كان لا يبدل حاله بحال غيره فاذا حاله احسن من حال غيره فان كان لا يعرف شخصا يرضى
لنفسه حاله بدلا عن حال نفسه اما على الجملة واما على امر خاص فاذا لله تعالى نعم ليست له على احد من عباده سواه
وان كان يبدل حال نفسه بحال ~~[illegible]~~ بعضهم دون البعض فلينظر الى عدد المغبوطين
عنده فانه لا محالة يراهم اقل بالاضافة الى غيرهم فيكون من دونه في الحال اكثر بكثير ممن هو فوقه فما باله ينظر
الى من فوقه ليزدري نعمة الله على نفسه ولا ينظر الى من هو دونه ليستعظم نعمة الله عليه وما باله لا يسوي
دنياه بدينه اليس اذا لامته نفسه على سيئة تقارفها يعتذر اليها بان في الفساق كثرة فينظر ابدا في الدين

الى من هو دونه لا الى من هو فوقه فلم لا يكون نظرك في الدنيا كذلك فاذا كان حال اكثر الخلق في الدين خيرا منه
وحاله في الدنيا خيرا من حال اكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر ولهذا قال صلى الله عليه وسلم من نظر في الدنيا الى من هو
دونه ونظر في الدين الى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا ومن نظر في الدنيا الى من هو فوقه ونظر في الدين
الى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا فاذا كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله على نفسه
نعما كثيرة لا سيما من خص بالسنة والايمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والامن وغير ذلك ولذلك قال صلى
الله عليه وسلم من لم يستغن بآيات الله فلا اغناه الله وهذه اشارة الى نعمة العلم وقال صلى الله عليه وسلم ان القرآن
هو الغنى الذي لا غنى بعده ولا فقر معه وقال صلى الله عليه وسلم من آتاه الله القرآن فظن ان احدا اغنى منه
فقد استهزأ بآيات الله وقال عليه السلام ليس منا من لم يتغن بالقرآن وقال كفى باليقين غنى وقال بعض السلف
يقول الله ان عبدا اغنيته عن ثلث لقد اتممت عليه نعمتي عن سلطان يأتيه وطبيب يداويه وعما في يد اخيه
وعبر الشاعر عن هذا فقال اذا القوت يأتي لك والصحة والامن واصبحت اخا حزن فلا فارقك الحزن فارقك
بل ارشق العبارات وافصح الكلام كلام افصح من نطق بالضاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال من اصبح
آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها ومهما تاملت الناس كلهم
وجدتهم يشكون ويتالمون من امور وراء هذه الثلث مع انها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله عليهم في هذه الثلث
ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الايمان الذي به وصولهم الى النعيم المقيم والملك العظيم بل البصير ينبغي ان لا يفرح الا
بالمعرفة واليقين والايمان بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم اليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الارض من المشرق الى المغرب
من اموال واتباع وانصار وقيل له خذ هذا عوضا عن علمك بل عن عشر عشير علمك لم يأخذه وذلك لرجائه
ان نعمة العلم تفضي به الى قرب الله سبحانه وتعالى في الآخرة بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكماله فخذ هذه اللذات
بدلا عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذه لعلمه بان لذة العلم دائمة لا تنقطع وثابتة لا تسرق
ولا تغصب ولا تنافس فيها وانها صافية لا كدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة ولا يفي مرجوها
بمخوفها ولا لذتها بالمها ولا فرحها بغمها هكذا كانت الى الآن وهكذا يكون ما بقي الزمان اذ ما خلقت لذات الدنيا الا
لتجتلب بها العقول الناقصة وتخدع حتى اذا انخدعت وتقيدت بها ابت عليها واستعصت كالمرأة الجميلة ظاهرها تتزين
للشاب الغني حتى اذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في عناء دائم وتعب قائم وكل ذلك
باغتراره بلذة النظر اليها في لحظة ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فهكذا وقعت ارباب الدنيا
في شباك الدنيا وحبائلها فلا ينبغي ان تقول ان المعرض عن الدنيا متالم بالصبر عنها فان المقبل عليها متالم ايضا
بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها وتالم المعرض يفضي الى اللذة في الآخرة وتالم المقبل يفضي
الى الالم في الآخرة فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تالمون
فانهم يالمون كما تالمون وترجون من الله ما لا يرجون فاذا انما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب
النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة **فان قلت** فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله
فعساها تشكر **فاقول** اما القلوب البصيرة فعلاجها التامل فيما رمزنا اليه من اصناف نعم الله العامة

واما

واما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة الا اذا خصتها او اشعرت بالبلاء معها فسبيله ان ينظر ابدا
الى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية اذ كان يحضر كل يوم دار المرضى ليشاهد انواع بلاء الله عليهم ثم يتامل
في صحته وسلامته فيشعر قلبه نعمة الصحة عند شعوره ببلاء المرض ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع اطرافهم
ويعذبون بانواع العذاب ليشكر الله تعالى على نعمة الامن ويحضر المقابر فيعلم ان احب الاشياء الى الموتى ان يردوا الى الدنيا
ولو يوما واحدا اما من عصى فليتدارك واما من اطاع فليزد في طاعته فان يوم القيامة يوم التغابن فالمطيع مغبون
اذ يرى جزاء الطاعة فيقول كنت اقدر على اكثر من هذه الطاعة فما اعظم غبني اذ ضيعت بعض الاوقات في المباحات
واما العاصي فغبنه ظاهر فاذا شاهد المقابر وعلم ان احب الاشياء اليهم ان يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف
بقية العمر الى ما يشتهي اهل القبور العود لاجله ليكون ذلك معرفة لنعمه في بقية العمر بل في الامهال في كل نفس من الانفاس
واذا عرف تلك النعمة شكر بان يصرف العمر الى ما خلق العمر لاجله وهو التزود من الدنيا للآخرة **فهذا علاج** هذه القلوب
الغافلة لتشعر بنعم الله فعساها تشكر ولقد كان الربيع بن خثيم رحمه الله مع تمام استبصاره يستعين بهذا الطريق
تأكيدا للمعرفة وكان قد حفر في داره قبرا فكان يضع غلا في عنقه وينام في لحده ويقول رب ارجعون لعلي اعمل صالحا ثم يقوم
ويقول يا ربيع قد اعطيت ما سالت فاعمل قبل ان تسأل الرجوع ولا ترد ومما ينبغي ان يعالج به القلوب البعيدة
عن الشكر ان يعرف ان النعمة اذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك كان الفضيل رحمه الله يقول عليكم بدوام الشكر
على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت اليهم وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدوها بالشكر وفي الخبر ما عظمت نعمة الله على
عبد الا كثرت حوائج الناس اليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله ان الله لا يغير نعم [illegible] فهذا تمام هذا
الركن

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط

احدهما بالآخر **بيان وجه اجتماع الصبر والشكر** على شيء واحد لعلك تقول ما ذكرته من النعم اشارة الى ان لله
في كل موجود نعمة وهذا يشير الى ان البلاء لا وجود له اصلا فما معنى الصبر اذا وان كان البلاء موجودا فما معنى الشكر
على البلاء وقد ادعى مدعون انا نشكر على البلاء فضلا من الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء وكيف يشكر على ما يصبر
عليه والصبر يستدعي الما والشكر يستدعي فرحا وهما متضادان وما معنى ما ذكرتموه من ان لله في كل ما اوجده نعمة على
عباده فاعلم ان البلاء موجود كما ان النعمة موجودة والقول باثبات النعمة يوجب القول باثبات البلاء لانهما متضادان
ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ولكن قد سبق ان النعمة تنقسم الى نعمة مطلقة من كل وجه اما في الآخرة فكسعادة
العبد بالنزول في جوار الله واما في الدنيا فالايمان وحسن الخلق وما يعين عليهما والى نعمة مقيدة من وجه دون وجه
كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم الى مطلق ومقيد اما المطلق في الآخرة
فالبعد من الله اما مدة واما ابدا واما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر انواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين

بل في الدنيا والشكر المطلق للنعم المطلقة فاما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لان الكفر بلاء ولا معنى للصبر
عليه وكذى المعصية بل حق الكافر ان يترك كفره وكذا حق العاصي نعم الكافر قد لا يعرف انه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم
بسبب غشية او غيرها فلا صبر عليه والعاصي يعرف انه عاص فعليه ترك المعصية بل كل بلاء يقدر الانسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر
عليه فلو ترك الانسان الماء مع طول العطش حتى عظم المه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بازالة الالم وانما الصبر على الم ليس الى
العبد ازالته فاذا يرجع الصبر في الدنيا الى ما ليس ببلاء مطلق بل يجوز ان يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور ان
يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فان الغنى مثلا يجوز ان يصير سببا لهلاك الانسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل ويقتل
اولاده والصحة ايضا كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية الا ويجوز ان تصير بلاء ولكن بالاضافة اليه فكذلك
ما من بلاء الا ويجوز ان يصير نعمة ولكن بالاضافة الى حاله فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر
ماله لبطر وطغى قال تعالى ان الانسان ليطغى ان راه استغنى وقال صلى الله عليه وسلم ان الله ليحمي عبده الدنيا وهو يحبه
كما يحمي احدكم مريضه وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ما ذكرناه في الاقسام الستة عشر من النعم سوى الايمان وحسن
الخلق فانما يتصور ان يكون بلاء في حق بعض الناس فيكون اضدادها اذا نعما في حقهم اذ قد سبق ان المعرفة
كمال ونعمة فانها صفة من صفات الله ولكن قد يكون على العبد في بعض الامور بلاء ويكون فقدها نعمة مثاله جهل
الانسان باجله فانه نعمة عليه اذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه
من معارفه واقاربه نعمة عليه اذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال المه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك
جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه اذ لو عرفه لابغضه واذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والاخرة بل جهله
بالخصال المحمودة في غيره قد تكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله وهو يضطر الى ايذائه واهانته ولو عرف واذى
كان اثمه اعظم لا محالة فليس من اذى نبيا او وليا وهو يعرف كمن اذى وهو لا يعرف **ومنها** ابهام الله القيامة وابهامه
ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وابهامه بعض الكبائر فكل ذلك نعمة لان هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب
والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا ان لله في كل موجود نعمة فهو حق وذلك
مطرد في حق كل احد ولا يستثنى عنه بالظن الا الالام التي يخلقها في بعض الناس وهي ايضا قد تكون نعمة في حق المتألم بها
فان لم تكن نعمة في حقه كالالم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فانه يتألم به فمصائب قوم عند قوم
فوائد ولولا ان الله خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمته ولا كثر فرحهم بها ففرح اهل
الجنة انما يتضاعف اذا تفكروا في الام اهل النار اما ترى اهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة
حاجتهم اليها من حيث انها عامة مبذولة ولا يشتد فرحهم بالنظر الى زينة السماء وهي احسن من كل بستان لهم في
الارض يجتهدون في عمارته ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذا قد صح ما ذكرناه من

ان الله لم يخلق شيئا الا وفيه حكمة ولا خلق شيئا الا وفيه منفعة اما على جميع عباده او على بعضهم فاذا في خلق الله البلاء
ايضا نعمة اما على المبتلى واما على غير المبتلى فاذا كل حالة لا توصف بانها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها
على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا **فان قلت** فهما متضادان فكيف يجتمعان اذ لا صبر الا على غم ولا شكر الا على فرح
فاعلم ان الشيء الواحد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه اخر فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح
وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة امور ينبغي ان يفرح العاقل بها ويشكر عليها احدها ان كل مصيبة
ومرض فيتصور ان تكون اكبر منها اذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله وزادها ماذا كان يرده ويحجزه فليشكر
اذ لم تكن اعظم منها في الدنيا والثاني انه كان يمكن ان تكون مصيبته في دينه قال رجل لسهل رحمه الله دخل اللص بيتي
واخذ متاعي فقال اشكر الله لو دخل الشيطان قلبك وافسد التوحيد ماذا كنت تصنع ولذلك استعاذ
عيسى عليه السلام في دعائه اذ قال اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني وقال عمر رضي الله عنه الا كان لله علي فيه اربع نعم اذ لم يكن
في ديني واذ لم يكن اعظم منه واذ لم احرم الرضا به واذا رجوا الثواب عليه وكان لبعض ارباب القلوب صديق فحبسه السلطان
فارسل اليه فقال اشكر الله فضربه فقال اشكر الله فجيء بمجوسي مبطون وقيد وجعل حلقة من قيده على
رجله وحلقة على رجل المجوسي فقال اشكر الله فكان يحتاج ان يقوم المجوسي مرات ويحتاج ان يقوم معه ويقف
على راسه حتى يقضي حاجته فكتب اليه فقال اشكر الله فقال الى متى هذا واي بلاء اعظم من هذا فقال لو جعل الزنار
في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع فاذا ما من انسان قد اصيب ببلاء الا ولو تامل حق التامل في سوء ادبه ظاهرا وباطنا
في حق مولاه لكان يرى انه يستحق اكثر مما اصيب به عاجلا واجلا ومن استحق عليك ان يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة
فهو مستحق للشكر وان لك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على راسه طشت رماد فسجد سجدة الشكر فقيل له ما هذه السجدة
فقال كنت انتظر ان يصب علي النار فالاقتصار على الرماد نعمة وقيل لبعضهم الا تخرج للاستسقاء فقد احتبست الامطار فقال
انتم تستبطئون المطر وانا استبطئ الحجر **فان قلت** كيف افرح واري جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ولم
يصابوا بما اصبت به حتى الكفار فاعلم ان الكافر قد خبئ له ما هو اكبر وانما امهل حتى يستكثر من الاثم ويطول عليه العقاب
كما قال تعالى انما نملي لهم ليزدادوا اثما واما العاصي فمن اين يعلم ان في العالم من هو اعصى منه ورب خاطر سوء
في حق الله سبحانه وتعالى في صفاته اعظم واطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح ولذلك قال تعالى في مثله وتحسبونه
هينا وهو عند الله عظيم فمن اين يعلم ان غيره اعصى منه ثم لعله قد اخرت عقوبته الى الاخرة وعجلت عقوبتك في
الدنيا فلم لا تشكر الله على ذلك وهذا هو الوجه الثالث في الشكر وهو انه ما من عقوبة الا وكان يتصور ان تؤخر الى الاخرة
ومصائب الدنيا يتسلى عنها باسباب اخر تهون المصيبة فيخف وقعها ومصيبة الاخرة تدوم وان لم تدم فلا سبيل الى
تخفيفها بالتسلي اذ اسباب التسلي مقطوعة بالكلية في الاخرة من المعرض ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب

ثانيا اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا اذنب ذنبا فاصابه شدة وبلا في الدنيا فالله اكرم من ان يعذبه
ثانيا الرابع ان هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في ام الكتاب وكان لا بد من وصولها اليه وقد وصلت ووقع الفراغ
واستراح من بعضها او من جميعها فهذه نعمة الخامس ان ثوابها اكثر منها فان مصائب الدنيا طرق الى الآخرة من وجهين
احدهما الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ويكون المنع من اسباب اللعب نعمة في حق الصبي فانه لو خلي
واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والادب فكان يخسر جميع عمره ولذلك المال والاهل والاقارب والاعضاء حتى العين التي
هي اعز الاشياء قد تكون سببا لهلاكه فالعقلاء غدا يتمنون لو كانوا مجانين او صبيانا ولم يتصرفوا في دين الله بعقولهم
فما من شيء من هذه الاسباب يوجد من العبد الا ويتصور ان يكون له فيه خيرة في دينه فعليه ان يحسن الظن بالله ويقدر فيه
الخيرة ويشكره عليه فان حكمة الله وانعامه هو بمصالح العباد اعلم من العباد وغدا يشكره العباد على البلايا اذا راوا ثواب
البلاء كما يشكر الصبي بعد البلوغ والعقل استاذه على ضربه وتاديبه اذ يذكر ثمرة ما استفاده من التاديب والبلايا تاديب
من الله وعنايته بعباده اتم واوفر من عناية الآباء بالاولاد فقد روي ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اوصني قال
لا تتهم الله في شيء قضاه عليك ونظر صلى الله عليه وسلم الى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله للمومن ان قضى له بالسراء رضي
وكان خيرا له وان قضى له بالضراء رضي وكان خيرا له والوجه الثاني ان راس الخطايا المهلكة حب الدنيا وراس اسباب النجاة
التجافي بالقلب عن دار الغرور ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة يورث طمانينة القلب الى الدنيا
واسبابها حتى يصير كالجنة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته واذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا
ولم يسكن اليها ولم يانس بها وصارت الدنيا سجنا عليه وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ولذلك قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المومن وجنة الكافر والكافر كل من اعرض عن الله ولم يرد الا الحياة الدنيا ورضي بها واطمان
اليها والمومن كل منقلع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين الى الخروج منها والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي وبقدر حب الدنيا
في القلب يسري اليه الشرك الخفي بل الموحد المطلق هو الذي لا يحب الا الواحد الحق فاذا في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح
به واما التالم فهو ضروري وذلك ايضا هو فرحك عند الحاجة الى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا او يسقيك دواء
نافعا بشعا وهو مجان فانك تتالم وتفرح فتصبر على الالم وتشكره على سبب الفرح فكل بلاء في الامور الدنيا وبه مثال
الدواء الذي يولم في الحال وينفع في المال بل من دخل دار ملك للنظارة وعلم انه يخرج منها لا محالة فراى وجها حسنا
لا يخرج معه من الدار كان ذلك بلاء عليه لانه يورثه الانس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه في المقام خطر من ان يطلع عليه
الملك فيعذبه فاصابه ما يكره حتى يفرغ عن المقام كان ذلك نعمة من الله عليه والدنيا منزل فقد دخله الناس من باب
الرحم وهم خارجون منها من باب اللحد فكلما حققوا انسهم بالمنزل فهو بلاء وكلما ازعج قلوبهم عنها وقطع انسهم
بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصور منه ان يشكر على البلاء ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر لان الشكر
يتبع

يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يومن بان ثواب المصيبة اكثر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة وحكي ان اعرابيا
عزى ابن عباس على ابيه فقال اصبر نكن بك صابرين فانما صبر الرعية بعد صبر الراس خير من العباس اجرك بعده خير
منك للعباس بعده والله فقال ابن عباس رضي الله عنه ما عزاني احد احسن من تعزيته والاخبار الواردة
في الصبر على المصائب كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يصب منه وقال صلى الله عليه وسلم قال الله
اذا وجهت الى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه او ماله او ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيمة ان انصب له
ميزانا او انشر له ديوانا وقال عليه السلم ما من عبد اصيب بمصيبة فقال كما امر الله انا لله وانا اليه راجعون
اللهم اجرني في مصيبتي واعقبني خيرا منها الا فعل الله ذلك به وقال صلى الله عليه وسلم قال الله من سلبت كريمتيه فجزاؤه
الخلود في داري والنظر الى وجهي وروي ان رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال النبي صلى الله
عليه وسلم لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسده ان الله اذا احب عبدا ابتلاه واذا ابتلاه صبره وقال عليه السلم
ان الرجل لتكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يبتلى في جسمه فيبلغها بذلك وعن خباب بن الارت رضي الله عنه
قال اتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فشكونا اليه فقلنا يا رسول الله الا تدعو
الله تستنصر لنا فجلس محمرا لونه ثم قال ان من كان قبلكم ليوتى بالرجل فيحفر له في الارض حفيرة ويجاء بالمنشار
فيوضع على راسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه وعن علي كرم الله وجهه قال ايما رجل حبسه السلطان ظلما
فمات فهو شهيد وان ضرب فمات فهو شهيد وقال ايضا عليه السلم من اجلال الله ومعرفة حقه ان لا تشكو وجعك ولا تذكر
مصيبتك وقال ابو الدرداء رضي الله عنه تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرصون على ما يفنى وتذرون ما يبقى الا
حبذا المكروهات الثلث الفقر والمرض والموت وعن انس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بعبد خيرا
او اراد ان يصافيه صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا فاذا دعاه قالت الملائكة صوت معروف فان دعاه ثانيا
فقال يا رب قال الله لبيك عبدي وسعديك لا تسالني شيئا الا اعطيتك او دفعت عنك ما هو خير وادخرت لك
عندي ما هو افضل منه فاذا كان يوم القيمة جيء باهل الاعمال فوفوا اعمالهم بالميزان اهل الصلاة والصيام والصدقة
والحج ثم يوتى باهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الاجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء
صبا فيود اهل العافية في الدنيا لو انهم كانت تقرض اجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به اهل البلاء
من الثواب فذلك قوله تعالى انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب وعن ابن عباس رضي الله عنه قال شكا نبي من الانبياء
عليهم السلم الى ربه فقال يا رب العبد المومن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون
العبد الكافر لا يطيعك ويجترئ على معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا فاوحى الله اليه ان العباد
لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي فيكون المومن عليه من الذنوب فازوي عنه الدنيا واعرض له البلاء فيكون

كفارة لذنوبه حتى يلقاني فاجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فابسط له في الرزق وازوي عنه البلا فاجزيه
بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فاجزيه بسيئاته ويروى انه لما نزل قوله تعالى من يعمل سوا يجز به قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه
كيف الفرح بعد هذه الاية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا ابا بكر الست تمرض الست يصيبك الاذى
الست تحزن فهذا ما تجزون به يعني ان جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال اذا رايتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا ان ذلك استدراج ثم قرا
قوله تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شي حتى اذا فرحوا بما اوتوا اي بما اعطوا من الخير اخذناهم
بغتة وعن الحسن البصري رحمه الله ان رجلا من الصحابة رضي الله عنهم راى امراة يعرفها في الجاهلية فكلمها ثم تركها فجعل
الرجل يلتفت اليها وهو يمشي فصدم حائطا فاثر في وجهه فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فاخبره فقال النبي صلى الله عليه وسلم
اذا اراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا وقال علي كرم الله وجهه الا اخبركم بارجى اية في كتاب الله قالوا بلى
فقرا عليهم وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير فالمصائب في الدنيا بكسب الاوزار فاذا عاقبه الله في الدنيا
فالله اكرم من ان يعذبه يوم القيمة وعن انس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما تجرع عبد قط جرعتين احب
الى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها او ما قطرت قطرة احب الى الله من قطرة دم اهريقت
في سبيل الله وقطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه الا الله وما خطا عبد خطوتين احب الى الله من خطوة الى صلاة
الفريضة وخطوة الى صلة الرحم وعن ابي الدردا قال توفي ابن لسليمان بن داود عليهما السلم فوجد عليه وجدا شديدا فاتاه
ملكان فجلسا بين يديه في زي الخصوم فقال احدهما بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فافسده فقال للاخر ما تقول فقال الاخر
اخذت الجادة فاتيت على زرع فنظرت يمينا وشمالا فاذا الطريق عليه فقال سليمان عليه السلم ولم بذرت على الطريق اما علمت انه لا بد للناس
من الطريق قال فلم تحزن على ولدك اما علمت ان الموت سبيل الاخرة فتاب سليمان عليه السلم الى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك ودخل
عمر بن عبد العزيز رحمه الله على ابن له مريض فقال يا بني لان تكون في ميزاني احب الي من ان اكون في ميزانك فقال يا ابه لان يكون
ما تحب احب الي من ان يكون ما احب وعن ابن عباس انه نعي اليه ابنة له فاسترجع وقال عورة سترها الله ومونة كفاها الله
واجر ساقه الله ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال قد صنعنا ما امر الله قال الله واستعينوا بالصبر والصلاة الاية وعن ابن المبارك
انه مات ابن له فعزاه مجوسي يعرفه فقال له ينبغي للعاقل ان يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة ايام فقال ابن المبارك
رحمه الله اكتبوا عنه هذه وقال بعض العلما ان الله ليبتلي العبد بالبلا بعد البلا حتى يمشي على الارض ما له ذنب وقال
الفضيل رحمه الله ان الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلا كما يتعاهد الرجل اهله بالخير وقال حاتم الاصم ان الله يحتج على الخلق يوم
القيمة باربعة انفس على اربعة اجناس على الاغنيا بسليمان وعلى الفقرا بعيسى ع وعلى العبيد بيوسف ع وعلى المرضى بايوب صلوات
الله عليهم وروي ان زكريا عليه السلم لما هرب من الكفار من بني اسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك فجي بالمنشار فنشرت

الشجرة

الشجرة حتى بلغ المنشار الى راس زكريا عليه السلم فان انة فاوحى الله اليه يا زكريا لان صعدت منك انة ثانية لامحونك من
ديوان النبوة فعض زكريا عليه السلم على اصبعه حتى قطع شطرين وقال ابو مسعود البلخي من اصيب بمصيبة فمزق ثوبا
او ضرب صدرا فكانما اخذ رمحا يريد ان يقاتل به ربه وقال لقمن لابنه يا بني ان الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب
بالبلا واذا احب الله قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط وقال الاحنف بن قيس اصبحت يوما اشتكي
ضرسي فقلت لعمي ما نمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلثا فقال لقد اكثرت من ضرسك في ليلة واحدة وقد
ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها احد واوحى الله الى عزير عليه السلم اذا نزلت بك بلية فلا تشكني الى خلقي كما لا
اشكوك الى ملائكتي اذا صعدت مساويك وفضائحك **بيان فضل النعمة على البلا** لعلك تقول هذه الاخبار
تدل على ان البلا في الدنيا خير من النعم فهل لنا ان نسال الله البلا **فاقول** لا وجه لذلك لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه كان يستعيذ في دعائه من بلا الدنيا وبلا الاخرة وكان يقول هو والانبيا عليهم السلم ربنا اتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة
وكانوا يستعيذون من شماتة الاعدا وغيره وقال علي كرم الله وجهه اللهم اني اسالك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم لقد سالت
الله البلا فسله العافية وروى الصديق رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال سلوا الله العافية فما اعطي عبد
افضل من العافية الا اليقين واشار باليقين الى عافية القلب عن مرض الجهل والشك فعافية القلب اعلى من عافية البدن وقال
الحسن الخير الذي لا شر فيه العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر وقال مطرف بن عبد الله لان اعافى فاشكر احب الي من ان
ابتلى فاصبر وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه وعافيتك احب الي وهذا اظهر من ان يحتاج فيه الى استشهاد وهذا لان البلا
صار نعمة باعتبارين احدهما بالاضافة الى ما هو اكثر منه اما في الدنيا او في الدين والاخر بالاضافة الى ما يرجى
من الثواب فينبغي ان يسال الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من البلا ويساله الثواب في الاخرة على الشكر على نعمته
فانه قادر على ان يعطي على الشكر ما يعطيه على الصبر **فان قلت** فقد قال بعضهم اود ان اكون جسرا على النار يعبر علي الخلق
كلهم فينجون واكون انا في النار وقال سمنون رحمه الله وليس لي في سواك حظ فكيف ما شيت فاختبرني فهذا
سوال البلا فاعلم انه حكي ان سمنون ابتلي بعد هذا البيت بعلة الحصر فكان بعد ذلك يدور على ابواب المكاتب ويقول
للصبيان ادعوا لعمكم الكذاب واما محبة الانسان ان يكون في النار هو دون سائر الخلق فغير ممكن ولكن قد تغلب المحبة
على القلب حتى يظن المحب بنفسه حبا لذلك فمن شرب كاس المحبة سكر ومن سكر توسع في الكلام ولو زايله سكره علم ان ما
غلب عليه كان حالة لا حقيقة لها فما تسمعه من هذا الفن فهو كلام العشاق الذين افرط حبهم وكلام العشاق يستلذ سماعه
ولا يعول عليه كما حكي ان فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه فقال ما الذي يمنعك عني ولو اردت ان اقلب لك ملك سليمان
ظهرا لبطن لفعلت لاجلك فسمعه سليمان عليه السلم فاستدعاه وعاتبه فقال يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى وهو كما قال
الشاعر اريد وصاله ويريد هجري فاترك ما اريد لما يريد وهو ايضا محال ومعناه اني اريد ما لا اريد لانه اراد

الوصال بالهجر فكيف لا يراد الهجر الذي لم يرده. بل لا يصدق هذا الكلام الا بتأويل وهو احدهما ان يكون ذلك
في بعض الاحوال حتى يكتسب به رضاه الذي يتوصل به الى مراد الوصال في الاستقبال فيكون الهجر آلة وسيلة الى الرضا
والرضا وسيلة الى وصال المحبوب والوسيلة الى المحبوب محبوب فيكون مثاله مثال محب المال اذا سلم درهما في درهمين
فهو يحب الدرهم بترك الدرهم في الحال الثاني اذ يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث انه رضا فقط ويكون له لذة
في استشعار رضى محبوبه وتزيد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهيته فعند ذلك يتصور ان يريد ما فيه الرضا
فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين الى ان قد صارت لذتهم في استشعارهم رضى الله عنهم اكثر من لذتهم في العافية من غير شعور
الرضا فهو لا اذا فقد وارضاه في البلا صار البلا احب اليهم من العافية وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ولكنها لا تثبت
وان ثبتت مثلا فهل هي صحيحة او حالة اقتضتها حالة اخرى وردت على القلب مالت به عن الاعتدال فهذا فيه نظر وذكر تحقيقه
لا يليق بما نحن فيه وقد ظهر بما سبق ان العافية خير من البلا فلنسال الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة **بيان الافضل
من الصبر والشكر** اعلم ان الناس اختلفوا في ذلك فقال قائلون الصبر افضل من الشكر وقال آخرون الشكر افضل وقال
آخرون هما سيان وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الاحوال واستدل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلا
معنى للتطويل بالنقل بل المبادرة الى اظهار الحق اولى فنقول في بيان ذلك مقامان **المقام الاول** البيان على سبيل التساهل
وهو ان ينظر الى ظاهر الامر ولا يطلب بالتفتيش حقيقته وهو البيان الذي ينبغي ان يخاطب به عوام الخلق لقصور افهامهم عن
درك الحقائق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي ان يعتمده الوعاظ اذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام
اصلاحهم والطير المشفق لا ينبغي ان تصلح الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات بل باللبن اللطيف وعليها ان تؤخر عنه
اطايب الاطعمة الى ان يصير محتملا لها بقوته ويفارقه الضعف الذي هو عليه في جبلته فنقول لهذا المقام في البيان الذي هو البحث
والتفصيل ومقتضاه النظر الى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضي تفضيل الصبر فان الشكر وان وردت اخبار
في فضله فاذا اضيف اليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر اكثر بل فيه الفاظ صريحة في التفضيل كقوله عليه السلام من افضل
ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر وفي الخبر يؤتى باشكر اهل الارض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى باصبر اهل الارض فيقال له
ارضيت ان نجزيك كما جزينا هذا الشاكر فيقول نعم يا رب فيقول الله كلا انعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لاضعفن
لك الاجر عليه فيعطى اضعاف جزاء الشاكرين وقد قال الله انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب واما قوله صلى الله عليه وسلم
الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر فهو دليل على ان الفضيلة في الصبر اذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر
فالحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا انه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان الحاق الشكر به مبالغة في الشكر وهو كقوله
صلى الله عليه وسلم الجمعة حج المساكين وجهاد المراة حسن التبعل وكقوله شارب الخمر كعابد وثن ولا بد ان يكون المشبه به
اعلى رتبة فكذلك قوله الصبر نصف الايمان لا يدل على ان الشكر مثله وهو كقوله عليه السلام الصوم نصف الصبر فان كل ما ينقسم
بقسمين يسمى احدهما نصفا وان كان بينهما تفاوت كما يقال الايمان هو العلم والعمل فالعمل نصف الايمان فلا يدل ذلك
على ان

على ان العمل يساوي العلم وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم آخر الانبياء دخولا الى الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر
اصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه وفي خبر آخر يدخل سليمان بعد الانبياء باربعين خريفا وفي الخبر ابواب
الجنة كلها مصراعان الا باب الصبر فانه مصراع واحد واول من يدخله اهل البلا امامهم ايوب صلى الله عليه وسلم وكلما
ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر لان الصبر حال الفقير والشكر حال الغني فهذا هو المقام الذي يقنع العوام
ويكفيهم في الوعظ اللائق بهم والتعريف لما فيه صلاح دينهم **المقام الثاني** هو البيان الذي نقصد به تعريف
اهل العلم والاستبصار بحقائق الامور بطريق الكشف والايضاح **فنقول** فيه كل امرين مبهمين لا يمكن الموازنة
بينهما مع الابهام ما لم يكشف حقيقة كل واحد منهما وكل مكشوف يشتمل على اقسام لا يمكن الموازنة بين الجملة
والجملة بل يجب ان تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان والصبر والشكر اقسامهما وشعبهما كثيرة فلا
يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع الاجمال **فنقول** قد ذكرنا ان هذه المقامات تنتظم من ثلاثة امور علوم
واحوال واعمال ولما شكر الصبر وسائر المقامات كذلك وهذه الثلاثة اذا وزن البعض منها بالبعض لاح
للناظرين الى الظواهر ان العلوم تراد للاحوال والاحوال تراد للاعمال والاعمال هي الافضل واما ارباب
البصائر فالامر عندهم بالعكس من ذلك فان الاعمال تراد للاحوال والاحوال تراد للعلوم والافضل العلوم
ثم الاحوال ثم الاعمال لان كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة افضل منه واما آحاد هذه الثلاثة فالاعمال قد
تتساوى وقد تتفاوت اذا اضيف بعضها الى بعض وكذا آحاد الاحوال اذا اضيف بعضها الى بعض وكذا
آحاد المعارف وافضل المعارف علوم المكاشفة وهي ارفع من علوم المعاملة بل علوم المعاملة دون المعاملة
فانها تراد للمعاملة ففائدتها اصلاح العمل وانما فضل العالم بالمعاملة على العابد اذا كان علمه مما يعم نفعه
فيكون بالاضافة الى عمل خاص افضل والا فالعلم القاصر بالعمل ليس بافضل من العمل القاصر **فنقول**
فائدة اصلاح القلب ان ينكشف له جلال الله في ذاته وصفاته وافعاله فارفع علوم المكاشفة معرفة الله تعالى
وهي الغاية التي تطلب لذاتها فان السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بانها
عين السعادة وانما يشعر بها في الآخرة فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تتقيد بغيرها وكل ما عداها من المعارف
عبيد وخدم بالاضافة اليها فانها انما تراد لاجلها ولما كانت مرادة لاجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الافضاء الى
معرفة الله فان بعض المعارف يفضي الى بعض اما بواسطة واما بوسائط كثيرة فكلما كانت الوسائط بينه
وبين معرفة الله اقل فهي افضل واما الاحوال فنعني بها احوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب
الدنيا وشواغل الخلق حتى اذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق فاذا فضائل الاحوال بقدر تأثيرها
في اصلاح القلب في تطهيره واعداده لان يصلح لعلوم المكاشفة وكما ان تصقيل المرآة يحتاج الى ان يتقدم

على تمام احوال المراد بعضها اقرب الى الصفات من بعض فكذلك احوال القلب فالحالة القريبة او المقربة من صفات القلب
افضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود وهكذا ترتيب الاعمال فان تاثيرها في تاكيد صفات القلب وجلب
الاحوال اليه وكل عمل فاما ان يجلب اليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة الى زخارف الدنيا
واما ان يجلب اليه حالة مهياة للمكاشفة موجبة لصفا القلب وقطع علايق الدنيا عنه واسم الاول المعصية واسم الثاني
الطاعة والمعاصي من حيث التاثير في ظلمة القلب وقساوته وشغلوته وكذلك الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها
بحسب درجات تاثيرها وذلك يختلف باختلاف الاحوال مثال ذلك انا نقول بالقول المطلق ربما نقول ان الصلاة النافلة افضل
من عبادة النافلة وان الحج افضل من الصدقة وان قيام الليل افضل من غيره ولكن التحقيق فيه ان الغني الذي معه مال وقد
غلبه البخل وحب المال على امساكه فاخراج درهم له افضل من قيام ليال وصيام ايام لان الصيام يليق بمن غلبته
شهوة البطن فاراد كسرها او منعه الشبع عن صفا الفكر علوم المكاشفة فاراد تصفية القلب بالجوع فاما هذا الذي اذا
لم يكن حاله هذه الحال فليس يتضرر بشهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع تكلم ومنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله
الى حال غيره فهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن اذا اشتغل بالصداع فلا ينفع به بل حقه ان يتبع المهلك الذي استولى
عليه والشح المطاع من جملة المهلكات ولا يزيله صيام مائة سنة وقيام الف ليلة منه ذرة بل لا يزيله الا اخراج المال فعليه
ان يتصدق بما معه وتفصيل هذا بما ذكرناه في ربع المهلكات فلنرجع اليه فاذا باعتبار هذه الاحوال يختلف وعند
ذلك يعرف البصير ان الجواب المطلق فيه خطا اذ لو قال لنا قايل الخبز افضل ام الماء لم يكن فيه جواب حق الا ان الخبز للجايع
افضل والماء للعطشان افضل فان اجتمعا فينظر الى الاغلب فان كان العطش هو الاغلب فالماء افضل وان تساويا فهما
متساويان وكذا اذا قيل ان السكنجبين افضل ام شراب النيلوفر لم يصح الجواب عنه مطلقا اصلا نعم لو قيل لنا
السكنجبين افضل ام قمع الصفرا فنقول قمع الصفرا لان السكنجبين مراد له وما يراد لغيره فذلك الغير افضل منه لا محالة فاذا
فبذل المال الذي هو الانفاق يحصل به حالة هو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب تهيؤا بسبب القلب لخروج
حب الدنيا من القلب لمعرفة الله وحبه فالافضل المعرفة ودونها الحال ودونها العمل **فان قلت** فقد حث الشرع على الاعمال
وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله تعالى من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا وقال تعالى ويأخذ الصدقات فكيف لا يكون الفعل
والانفاق هو الافضل فاعلم ان الطبيب اذا اثنى على الدواء لم يدل على ان الدواء مراد لعينه او على انه افضل من الصحة والشفاء الحاصل
به ولكن الاعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلب مما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه فانه لا يشعر به ولو ذكر له
لا يصدق به فالسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بالورد مثلا ان كان ماء الورد يزيل البرص حتى يستحثه فرط الثناء
على المواظبة عليه فيزول مرضه فانه لو ذكر ان المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم ان وجهي لا عيب فيه **ولنضرب**
مثالا اقرب من هذا **فنقول** من له ولد وعلمه العلم والقران واراد ان يتم ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه وعلم انه لو امره بالتكرار
والدراسة لم يتم له حفظه فانه يقول انه محفوظ ولا حاجة الى تكرار ودراسة لانه يظن انما حفظه في الحال يبقى كذلك ابدا وكان
له ولد وعبيد فامر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم فربما يظن الصبي المسكين
ان المقصود تعلم العبيد القران وانه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الامر فيقول ما بالي استخدمت لاجل العبيد وانا اجل منهم
واعز عند الوالد واعلم ان ابي لو اراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي واعلم انه لا ينقصه او لا العبيد فضلا عن عدم علمهم
بالقران فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء ابيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقران ويبقى مدبرا
محروما من حيث لا يدري **وقد** انخدع بمثل هذا الخيال طايفة وسلكوا طريق الاباحة وقالوا ان الله غني عن عبادتنا وعن
ان يستقرض منا فاي معنى لقوله تعالى من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ولو شاء الله اطعام المساكين لاطعمهم فلا حاجة بنا الى
صرف اموالنا اليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفار واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا الاية وقالوا ايضا لو

شاالله

شاء الله ما اشركنا ولا اباؤنا فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم فسبحان من اذا شاء اهلك بالصدق واذا شاء
اسعد بالجهل يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا فهؤلاء لما ظنوا انهم استخدموا لاجل المساكين والفقراء او لاجل الله قالوا لا حظ لنا
في المساكين ولا حظ لله فينا وفي اموالنا سواء انفقنا او امسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن ان الوالد استخدمه لاجل العبيد
ولم يشعر بانه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتاكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا وانما كان ذلك من الوالد
تلطفا به في استجراره الى ما فيه سعادته **فهذا** المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق فان المسكين الاخذ لمالك يتوفى
بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك فانه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة
من باطنك فالحجام خادم لك لا انت خادم الحجام ولا يخرج الحجام عن كونه خادما بان يكون له غرض في ان ينتفع بالدم ولما كانت
الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم واهل بيته عنها كما نهى عن كسب الحجام وسماها
اوساخ اموال الناس وشرف اهل بيته بالصيانة عنها والمقصود ان الاعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربع المهلكات والقلب يحسب
تاثرها يستعد لقبول الهداية ونور المعرفة **فهذا** هو القول الكلي والقانون الاصلي الذي ينبغي ان يرجع اليه في معرفة فضائل
الاعمال والاحوال والمعارف **فلنرجع** الان الى خصوص ما نحن فيه من الشكر والصبر **فنقول** في كل واحد منهما معرفة
وحال وعمل ولا يجوز ان تقابل المعرفة في احدهما بالحال او العمل في الاخر بل تقابل كل واحد بنظيره حتى يظهر التناسب
وبعد التناسب يظهر الفضل فمهما قوبلت معرفة الشاكر بان يرى نعمة العينين مثلا من الله ومعرفة الصابر ان يرى العمى
من الله وهما معرفتان متلازمتان ومتساويتان هذا اذا اعتبر في القضاء والبلاء وقد بينا ان الصبر قد يكون في الطاعة لان الشكر
يرجع الى صرف نعم الله الى ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع الى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى فالصبر والشكر اسمان
لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالاضافة الى باعث الهوى ويسمى شكرا
بالاضافة الى باعث الدين اذ باعث الدين انما خلق لهذه الحكمة وهو ان يصرع به باعث الشهوة فقد صرفه الى المقصود بالحكمة
فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشي على نفسه فاذا مجاري الصبر ثلاثة الطاعة والمعصية والبلاء وقد ظهر حكمهما في الطاعة
والمعصية **اما** البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعم اما ان تقع ضرورية كالعينين مثلا **واما** ان تقع في محل الحاجة كالزيادة على
قدر الكفاية من المال **اما** العينان فصبر الاعمى عنهما بان لا يظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله ولا يترخص بسبب العمى في بعض
المعاصي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بامرين احدهما ان لا يستعين بهما على معصيته والاخر ان يستعملهما في الطاعة
وكل واحد من الامرين لا يخلو عن الصبر فان الاعمى كفي الصبر عن الصور الجميلة لانه لا يراها والبصير اذا وقع بصره على جميل
فصبر كان شاكرا لنعمة العينين وان اتبع النظر كفر بنعمة العينين فقد دخل الصبر في شكره وكذلك اذا استعان بالعينين
على الطاعة فلا بد فيه ايضا من صبر على الطاعة ثم قد يشكره بالنظر الى عجائب صنع الله ليتوصل به الى معرفة الله فيكون هذا الشكر
افضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام وغيره لانه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر على البصر
فوق مثلا وقد كان ضريرا من الانبيا
رتبة موسى عليه السلام

ولكن الكمال في ان يبتلى الانسان الاطراف كلها ويترك كلها ثم وذلك محال لان كل احد من هذه الاعضاء الا الدون
فيفوت بفواتها ذلك الركن من الدين فشكرها استعمالها فيما هي له لنيل الدين وذلك لا يكون الا بصبر وانما تعوق في محل
الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فانه اذا لم يصرف الا في الضرورة وهو محتاج الى ما وراءه ففي الصبر عنه مجاهدة وهو
جهاد الفقر وجود الزيادة نعمة وشكرها ان تصرف الى الخيرات وان لا تستعمل في المعصية فان اضيف الصبر الى الشكر الذي هو
صرف الى الطاعة فالشكر افضل لانه تضمن الصبر ايضا وفيه فرح بنعمة الله وفيه احتمال الم صرفه الى الفقراء فيصرفه الى التنعم المباح
وكان الحاصل يرجع الى شيئين افضلهما في ذلك والحق ان الجملة اعلا رتبة من البعض وهذا فيه خلل اذ الصحيح الموازنة بين الجملة وبين
ابعاضها واما اذا كان شكره بان لا يستعين به على معصية بل يصرفه الى التنعم المباح فالصبر ههنا افضل من الشكر والفقير الصابر
افضل من الغني الممسك ماله الصارف له الى المباحات لا من الغني الصارف ماله الى الخيرات لان الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها
واحسن الرضا على بلاء الله وهذه الحالة تستدعي لا محالة قوة والغني اتبع نهمته واطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح وفي
المباح مندوحة عن الحرام ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام ايضا الا ان القوة التي يصدر عنها صبر الفقير اعلى واتم
من القوة التي يصدر عنها الاقتصار في التنعم على المباح والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها فان الاعمال لا تراد
الا لاحوال القلب وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والايمان فما دل على زيادة قوة في الايمان فهو افضل
لا محالة وجميع ما ورد من تفضيل الصبر على الشكر من الآيات والاخبار انما اريد به هذه الرتبة على الخصوص لان السابق
الى افهام الناس من النعم الاموال والغنى بها والسابق الى الافهام من الشكر قول الانسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على
المعصية لا ان يصرفها الى الطاعة فاذا الصبر افضل من الشكر اي الصبر الذي تفهمه العامة والى هذا المعنى على الخصوص
اشار الجنيد حيث سئل عن الصبر والشكر ايهما افضل فقال ليس مدح الغني بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم وانما
المدح في الاثنين قيامهما بشروطهما عليهما فشرط الغني يصحبه فيما عليه اشياء ملائمة لصفته وتنعمها وتلذذها والفقير
يصحبه فيما عليه اشياء مؤلمة لصفته وتقبضها وتزعجها فاذا كان الاثنان قائمين بشروط ما عليهما كان الذي آلم صفته
وازعجها اتم حالا ممن متع صفته ونعمها والامر على ما قاله وهو صحيح في جملة اقسام الصبر والشكر في القسم الاخير الذي
ذكرناه وهو لم يرد سواه ويقال كان ابو العباس بن عطاء رحمه الله قد خالفه في ذلك وقال الغني الشاكر افضل
من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فاصابه ما اصابه من البلاء من قتل اولاده وتلف ماله وزوال عقله اربع عشر سنة
فكان يقول دعوة الجنيد اصابتني ورجع الى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها
علمت ان لكل واحد من القولين وجها في بعض الاحوال فرب فقير صابر افضل من غني شاكر كما سبق ورب غني شاكر افضل
من فقير صابر وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير اذ لا يمسك لنفسه من المال الا قدر الضرورة والباقي يصرفه
الى الخيرات او يمسكه على اعتقاد انه خازن للمحتاجين والمساكين وانما ينتظر حاجة محتاج حتى يصرف اليه ثم اذا صرفه لم يصرفه

لطلب

لطلب جاه وصيت ولا تقليد منه بل اداء الحق لله في تفقد عباده فهذا افضل من الصابر **فان قلت** فهذا لا يثقل على النفس
والفقير شاق عليه الفقر لان هذا لا يشعر بلذة القدرة وذلك يشعر بالم الصبر فانه كان يتالم بفراق المال فيستحر ذلك
بلذته في القدرة على الانفاق فاعلم ان الذي نراه ان الذي ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس اكمل حالا ممن ينفقه وهو
بخيل به وانما يقتطعه عن نفسه قهرا وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة فايلام النفس ليس مطلوبا بعينه
بل لتاديبها وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب المتادب اكمل من الكلب المحتاج الى الضرب وان كان صابرا على الضرب ولذلك
يحتاج الى الايلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج اليه في النهاية بل النهاية ان يصير ما كان مؤلما في حقه لذيذا عنده كما يصير التعلم
عند الصبي العاقل لذيذا وقد كان مؤلما له اولا ولكن لما كان الناس كلهم الا الاقلين في البداية بل قبل البداية بكثير كالصبيان اطلق
الجنيد القول بان الذي يؤلم صفته افضل وهو كما قال صحيح فيما اراده من عموم الخلق فاذا اذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه
لارادة الاكثر فاطلق القول بان الصبر افضل من الشكر فانه صحيح بالمعنى السابق الى الافهام واما اذا اردت التحقيق فتفصل
فان للصبر درجات اقلها ترك الشكوى مع الكراهة ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر ووراء الشكر على البلاء وهو وراء الرضا
اذ الصبر مع التالم والرضا يمكن فيما لا الم فيه ولا فرح والشكر لا يمكن الا على محبوب مفروح به ولذلك للشكر درجات كثيرة ذكرنا
اقصاها ويدخل في جملتها امور دونها فان حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار
من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر والاعتراف بان النعم ابتداء من الله من غير استحقاق شكر والعلم
بان الشكر ايضا نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر وحسن التواضع بالنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر اذ قال
عليه السلم من لم يشكر الناس لم يشكر الله وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب اسرار الزكاة وقلة الاعتراض وحسن الادب
بين يدي المنعم شكر وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر فما يندرج من الاحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر
آحادها وهي درجات مختلفة فكيف يمكن اجمال القول بتفضيل احدهما على الآخر الا على سبيل ارادة الخصوص باللفظ العام
كما ورد في الاخبار والآثار وقد روي عن بعضهم انه قال رايت في بعض الاسفار شيخا كبيرا قد طعن في السن فسالته عن حاله
فقال اني كنت في ابتداء عمري اهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت تهواني فاتفق انها زوجت مني فليلة زفافها قلت تعالي حتى
نحيي هذه الليلة شكرا لله على ما جمعنا فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ احدنا لصاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل
ذلك فصلينا طول الليل فمنذ سبعين او ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة اليس كذلك يا فلانة فقالت العجوز كما
يقول الشيخ فانظر اليهما لو صبرا على بلاء الفرقة اذ لو لم يجمع الله بينهما وانسا بصبر الفرقة الى شكر الوصال على هذا الوجه فلا
يخفى عليك ان هذا الشكر افضل فاذا لا وقوف على حقائق المفضلات الا بتفصيل كما سبق والله اعلم تم كتاب الصبر والشكر والحمد
والشكر على بلايه ونعمايه وله الجلال السرمدي والعزة ابدا يتلوه كتاب الرجا والخوف وهو الثالث من ربع المنجيات

كتاب الرجاء والخوف وهو الثالث من ربع المنجيات

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المرجا

لطفه وثوابه المخوف مكره وعقابه الذي عمر قلوب اوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف الائه الى النزول بفنائه والعدول عن دار البلاء التي هي مستنزل اعدائه وضرب بسياط التخويف وجوه المعرضين عن حضرته الى دار ثوابه وكرامته وصدهم عن التعرض لنقمته والتهدف لسخطه ونقمته قودا لاصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وازمة الرفق واللطف الى جنته والصلوة على محمد سيد انبيائه وخير خليقته وعلى اله واصحابه وعترته اما بعد فان الرجا والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الاخرة كل عقبة كؤود فلا يقود الى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الارجا ثقيل الاعباء محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والاعضا الا ازمة الرجا ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الاليم مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات الا سياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد اذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل الى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشتمل على شطرين **اما الشطر الاول فيشتمل على بيان حقيقة الرجا والشطر الثاني في الخوف وبيان دوا الرجا والطريق الذي به يجتلب الرجا**

اعلم ان الرجا من جملة مقامات السالكين واحوال الطالبين وانما يسمى الوصف مقاما اذا ثبت واقام وانما يسمى حالا اذا كان عارضا سريع الزوال وكما ان الصفرة تنقسم الى ثابتة كصفرة الذهب والى سريعة الزوال كصفرة الوجل والى ما هو بينهما كصفرة المريض فكذلك صفات القلوب تنقسم هذه الاقسام فالذي هو غير ثابت يسمى حالا لانه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من اوصاف القلب وغرضنا الان حقيقة الرجا والرجا ايضا يتم من علم وحال وعمل فالعلم سبب يثمر الحال والحال يقتضي العمل وكان الرجا اسم الحال من جملتها **وبيانه ان كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب** فينقسم الى موجود في الحال والى موجود فيما مضى والى منتظر في الاستقبال فاذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكرا وتذكرا وان كان ما خطر بقلبك موجودا في الحال سمي وجدا وذوقا وادراكا وانما سمي وجدا لانها حالة تجدها من نفسك وان كان قد خطر ببالك وجود شي في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمي انتظارا وتوقعا فان كان المنتظر مكروها حصل منه الم في القلب سمي خوفا واشفاقا وان كان محبوبا حصل من انتظاره وتعلق القلب به واخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمي ذلك الارتياح رجا فالرجا هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وان يكون له سبب فان كان انتظاره لاجل حصول اكثر اسبابه فاسم الرجا عليه صادق وان كان ذلك انتظارا مع انخرام اسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه اصدق من اسم الرجا وان لم تكن الاسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفا فاسم التمني اصدق على انتظاره لانه انتظار من غير سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجا والخوف الا على ما يتردد فيه اما ما يقطع به فلا اذ لا يقال ارجو طلوع الشمس وقت الطلوع واخاف غروبها وقت الغروب لان ذلك مقطوع به نعم يقال ارجو نزول المطر واخاف انقطاعه وقد علم ارباب القلوب ان الدنيا مزرعة الاخرة والقلب كالارض والايمان كالبذر فيه والطاعات جارية مجرى تقليب الارض وتطهيرها ومجرى حفر الانهار وسياقة الما اليها والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالارض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ويوم

القيمة

القيمة يوم الحصاد ولا يحصد احد الا ما زرع ولا ينمو زرع الا من بذر الايمان وقلما ينفع ايمان مع خبث القلب وسوء اخلاقه كما لا ينمو بذر في ارض سبخة فينبغي ان يقاس رجا العبد المغفرة برجا صاحب الزرع فكل من طلب ارضا طيبة والقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ثم امده بما يحتاج اليه وهو سياق الما اليه في اوقاته ثم نقى الارض عن الشوك والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر او يفسده ثم جلس منتظرا من فضل الله دفع الصواعق والافات المفسدة الى ان يتم الزرع ويبلغ غايته سمي انتظاره رجا وان بث البذر في ارض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب اليها الما ولم يشتغل بتعهد البذر اصلا ثم انتظر حصاد الزرع سمي انتظاره حمقا وغرورا لا رجا وان بث البذر في ارض طيبة ولكن لا ما لها واخذ ينتظر مياه الامطار حيث لا تغلب الامطار ولا تمتنع سمي انتظاره تمنيا لا رجا فاذا اسم الرجا انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع اسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق الا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله بصرف القواطع والمفسدات فالعبد اذا بث بذر الايمان وسقاه بما الطاعات وطهر القلب عن شوك الاخلاق الردية وانتظر من فضل الله تثبيته على ذلك الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجا حقيقيا محمودا في نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى اسباب الايمان في اتمام اسباب المغفرة الى الموت وان انقطع عن بذر الايمان تعهده بما الطاعات او ترك القلب مشحونا برذائل الاخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور قال النبي صلى الله عليه وسلم الاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله وقال تعالى فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلوة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا وقال تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ياخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا وذم الله صاحب البستان اذ دخل جنته فقال ما اظن ان تبيد هذه ابدا وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لاجدن خيرا منها منقلبا فاذا العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بان ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة الا بدخول الجنة واما العاصي فاذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بان يرجو قبول التوبة واما قبول التوبة اذا كان كارها للمعصية تسوؤه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشتاق اليها فحقيق بان يرجو من الله التوفيق للتوبة لان كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي قد يفضي الى التوبة وانما الرجا بعد تاكد الاسباب ولذلك قال تعالى ان الذين امنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله معناه اولئك يستحقون ان يرجوا رحمة الله وما اراد به تخصيص وجود الرجا لان غيرهم ايضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجا فاما من ينهمك فيما يكرهه الله ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجا من بث البذر في ارض سبخة وعزم على ان لا يتعهده بسقي ولا تنقية قال يحيى بن معاذ من اعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب على رجا العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله بغير طاعة وانتظار زرع الجنة ببذر النار وطلب دار المطيعين بالمعاصي وانتظار الجزا بغير عمل والتمني على الله مع الافراط فاذا عرفت حقيقة الرجا ومظنته فقد عرفت انه حالة اثمرها العلم بجريان اكثر الاسباب وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الاسباب على حسب الامكان فان من حسن بذره وطابت ارضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه فلا يزال يحمله صدق الرجا على تفقد الارض وتعهده وتنقية كل حشيش ينبت فيه ولا يفتر

عن تعهده اصلا الى وقت الحصاد وهذا لان الرجا يضاده اليأس واليأس يمنع من التعهد فمن عرف ان الارض سبخة وان الماء معوز
وان البذر لا ينبت فيترك لا محالة تفقد الارض والتعب في تعهدها والرجا محمود لانه باعث واليأس مذموم وهو ضده لانه
صارف عن العمل والخوف ليس بضد الرجا بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه بل هو باعث اخر بطريق الرهبة كما ان الرجا باعث
بطريق الرغبة فاذا حال الرجا يورث طول المجاهدة بالاعمال والمواظبة على الطاعات كيف ما تقلبت الاحوال ومن اثاره
التلذذ بدوام الاقبال على الله والتنعم بمناجاته والتلطف في التملق له فان هذه الاحوال لا بد وان يظهر على كل من يرجو
ملكا من الملوك او شخصا من الاشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حق الله فان كان ذلك لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجا
والنزول في حضيض الغرور والتمني فهذا هو البيان لحال الرجا ولما اثمره من العلم ولما استثمره من العمل ويدل على اثماره
لهذه الاعمال حديث زيد الخيل اذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيت لاسالك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد
وقال صلى الله عليه وسلم كيف اصبحت قال اصبحت احب الخير واهله واذا قدرت على شي منه سارعت اليه وايقنت بثوابه
فاذا فاتني شي منه حزنت عليه وحننت اليه فقال صلى الله عليه وسلم هذه علامة الله فيمن يريد ولو ارادك للاخرى هياك لها
ثم لا يبالي في اي اوديتها هلكت فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من اريد به الخير فمن ارتجى ان يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات
فهو مغرور

بيان فضيلة الرجا والترغيب فيه

اعلم ان العمل على الرجا اعلا منه على الخوف لان اقرب العباد الى الله
احبهم له والحب يغلب بالرجا واعتبر ذلك بملكين يخدم احدهما خوفا من عقابه والاخر رجا لثوابه ولذلك ورد في الرجا
وحسن الظن رغايب لا سيما وقت الموت قال الله لا تقنطوا من رحمة الله فحرم اصل اليأس وفي اخبار يعقوب عليه السلام
ان الله اوحى اليه اتدري لم فرقت بينك وبين يوسف لقولك اخاف ان ياكله الذيب وانتم عنه غافلون لم خفت الذيب ولم
ترجني ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بالله وقال
صلى الله عليه وسلم قال الله انا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شا ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزع فقال صلى الله عليه وسلم
كيف تجدك فقال اجدني اخاف ذنوبي وارجو رحمة ربي فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن الا اعطاه
الله ما رجا وامنه مما خاف وقال علي كرم الله وجهه لرجل اخرجه الخوف الى القنوط لكثرة ذنوبه يا هذا ياسك من رحمة الله
اعظم من ذنوبك وقال سفيان من اذنب ذنبا يعلم ان الله قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه قال لان الله
عير قوما فقال وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم ارداكم الاية وقال تعالى وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا وقال
صلى الله عليه وسلم ان الله يقول للعبد يوم القيمة ما منعك اذا رايت المنكر ان تنكره فان لقنه الله عز وجل حجته قال يا رب
رجوتك وخفت الناس فيقول الله قد غفرته لك وفي الخبر الصحيح ان رجلا كان يداين الناس ويسامح ويتجاوز عن المعسر
فلقي الله ولم يعمل خيرا قط فقال الله من احق بذلك منا فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه ان يعفو عنه مع افلاسه عن الطاعات
وقال عز وجل ان الذين يتلون كتاب الله واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة

لن تبور

لن تبور ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله انه غفور شكور ولما قال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا
ولبكيتم كثيرا ولخرجتم الى الصعدات تلدمون صدوركم وتجارون الى ربكم وتخرجون بيوتكم وتفرون الى ربكم فهبط جبريل
عليه السلام فقال ان ربك يقول لم تقنط عبادي فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم وفي الخبر ان الله عز وجل اوحى الى داود
عليه السلام احبني واحب من يحبني وحببني الى خلقي فقال يا رب كيف احببك الى خلقك قال اذكرني بالحسن الجميل واذكر الاي
واحساني وذكرهم نعمي فانهم لا يعرفون مني الا الجميل • وراى ابان بن ابي عياش في النوم وكان يكثر ذكر ابواب الرجا
فقيل له ما فعل الله بك فقال اوقفني بين يديه فقال ما حملك على الرجا فقلت اردت ان احببك الى خلقك فقال
الله عز وجل قد غفرت لك • وراى يحيى بن اكثم في النوم بعد موته فقيل له ما فعل الله بك فقال اوقفني بين يديه
فقال يا شيخ فعلت وفعلت فاخذني من الرعب ما يعلم الله به قلت يا رب ما هكذا حدثت عنك قال فما حدثت عني
فقلت حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن انس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام انك قلت انا عند ظن
عبدي بي فليظن بي ما شا وكنت اظن بك ان لا تعذبني فقال تعالى صدق جبريل وصدق نبيي وصدق انس وصدق
الزهري وصدق معمر وصدق عبد الرزاق فالبست ومشى بين يدي الولدان الى الجنة فقلت يا لها من فرحة • وكان
في بني اسرائيل رجل يقنط الناس ويشدد عليهم قال فيقول الله له يوم القيمة اليوم اويسك من رحمتي كما كنت تقنط
عبادي منها وقال صلى الله عليه وسلم ان رجلا يدخل النار فيمكث فيها الف سنة فينادي يا حنان يا منان فيقول
الله لجبريل عليه السلام اذهب فاتني بعبدي قال فيجي به فيوقفه على ربه فيقول الله عز وجل كيف وجدت مكانك
فيقول شر مكان فيقول الله ردوه الى مكانه قال فيمشي ويلتفت الى ورائه فيقول الله الى اي شي تلتفت فيقول لقد
رجوت ان لا تعيدني اليها بعد اذ اخرجتني منها فيقول الله اذهبوا به الى الجنة يدل على هذا ان الرجا كان سبب
نجاته

بيان دوا الرجا والسبب الذي منه يحصل حال الرجا ويغلب

اعلم ان هذا الدوا يحتاج اليه
احد رجلين اما رجل غلب عليه اليأس فترك العباده واما رجل غلب عليه الخوف فاسرف في المواظبة على العباده
حتى اضر بنفسه واهله وهذان رجلان مايلان عن الاعتدال الى طرفي الافراط والتفريط فيحتاجان الى علاج
يردهما الى الاعتدال فاما العاصي المغرور المتمني على الله مع الاعراض عن العباده واقتحام المعاصي فادوية الرجا
تنقلب سموما في حقه تهلكه وينزل منزلة العسل الذي هو شفا لمن غلب البرد وهو سم مهلك لمن غلب عليه
الحراره بل المغرور لا يستعمل في حقه الا ادوية الخوف والاسباب المهيجة له ولهذا يجب ان يكون واعظ الخلق
متلطفا ناظرا الى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها فان المطلوب هو العدل والقصد
في الصفات والاخلاق كلها وخير الامور اوساطها فاذا جاوز الوسط الى احد الطرفين عولج بما يرده الى الوسط
لا بما يزيد في ميله عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغي ان يستعمل فيه مع الخلق اسباب الرجا بل المبالغة في التخويف

فالتخويف ايضا يكاد ان لا يردهم الى جادة الحق وسنن الصواب فاما ذكر اسباب الرجا فيهلكهم ويرديهم بالكلية
ولكنهما لما كانا اخف على القلوب والذ عند النفوس ولم يكن غرض الوعاظ الا استمالة القلوب واستنطاق
الخلق بالثنا كيف ما كانوا مالوا الى الرجا حتى ازداد الفساد فسادا وازداد المنهمكون في طغيانهم
تماديا وقال علي كرم الله وجهه انما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ولا يومنهم من مكر الله ونحن
نذكر اسباب الرجا لتستعمل في حق الايس او فيمن غلب عليه الخوف اقتدا بكتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم
فانهما مشتملان على الخوف والرجا جميعا لانهما جامعان لاسباب الشفا في حق اصناف المرضى ليستعمله العلما الذين
هم ورثة الانبيا بحسب الحاجة كما يستعمله الطبيب الحاذق لا استعمال الاخرق الذي يظن ان كل شي من الادوية
صالح لكل مريض كيف ما كان وحال الرجا يغلب بطريقين احدهما بالاعتبار والثاني باستقرا الايات والاخبار
والاثار اما الاعتبار فهو ان تتامل جميع ما ذكرناه في اصناف النعم في كتاب الشكر حتى اذا علم لطايف نعم
الله بعباده في الدنيا وعجايب حكمه التي راعاها في فطرة الانسان حتى اعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في
دوام الوجود كالات الغذا وما هو محتاج اليه كالاظفار والاصابع وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين
واختلاف الوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود وانما كان يفوت به
مزية جمال فالعناية الالهية اذا لم تقصر عن عباده في مثل هذه الدقايق حتى لم يرض لعباده ان يفوتهم المزايد والمزايا
في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقتهم الى الهلاك المويد بل اذا نظر الانسان نظرا شافيا علم ان اكثر الخلق قد هيئ له
اسباب السعادة في الدنيا حتى انه يكره الانتقال من الدنيا بالموت وان اخبر بانه لا يعذب بعد الموت مثلا ولا يحشر
اصلا فليس كراهتهم للعدم الا لان اسباب النعم اغلب لا محالة وانما الذي يتمنى الموت نادر ثم لا يتمناه الا في حالة نادرة
وواقعة هاجمة غريبة فاذا كان اكثر الخلق في الدنيا الغالب عليهم الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلا فالغالب
ان امر الاخرة هكذا يكون لان مدبر الدنيا والاخرة واحد وهو غفور لطيف بعباده متعطف عليهم فهذا اذا
تامل حق التامل قوي به اسباب الرجا ومن الاعتبار ايضا النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة
على العباد بها حتى كان بعض العارفين يرى ان اية المداينة في البقرة من اقوى اسباب الرجا فقيل له وما فيها من الرجا فقال
الدنيا كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل من رزقه فانظر كيف انزل الله فيه اطول اية ليهدي به عبده الى
الطريق الاحتياط في حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض منه **الفن الثاني استقرا الايات والاخبار
والاثار مما ورد في الرجا خارج عن الحصر** اما الايات فقد قال الله يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم
لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وفي قراة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يغفر الذنوب
جميعا ولا يبالي انه هو الغفور الرحيم وقال عز وجل والملايكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض واخبر انه
ان النار

ان النار اعدها لاعدايه وانما خوف بها اولياءه فقال لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف
الله به عباده الاية وقال تعالى واتقوا النار التي اعدت للكافرين وقال تعالى فانذرتكم نارا تلظى لا يصلاها
الا الاشقى الذي كذب وتولى وقال تعالى وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم فقال ان النبي صلى الله عليه وسلم
لم يزل يسال في امته حتى قيل له اما ترضى وقد انزلت عليك هذه الاية وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وفي تفسير
قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى قال لا يرضى محمد صلى الله عليه وسلم وواحد من امته في النار وكان ابو جعفر محمد بن علي
عليهما السلام يقول انتم اهل العراق تقولون ان ارجى اية في كتاب الله قوله يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم الاية ونحن
اهل البيت نقول ارجى اية في كتاب الله ولسوف يعطيك ربك فترضى واما الاخبار فقد روى ابو موسى عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم انه قال امتي امة مرحومة لا عذاب عليها في الاخرة عجل عقابها في الدنيا الزلازل والفتن فاذا كان
يوم القيمة دفع الى كل رجل من امتي رجل من اهل الكتاب فقيل له هذا فداوك من النار وفي لفظ اخر ياتي كل رجل من هذه الامة بيهودي
او نصراني الى جهنم فيقول هذا فداوك من النار فيلقى فيها وقال صلى الله عليه وسلم الحمى من فيح جهنم وهو حظ المومن من النار
وروي في تفسير قوله يوم لا يخزي الله النبي والذين امنوا معه ان الله عز وجل اوحى الى نبيه صلى الله عليه وسلم اني اجعل
حساب امتك اليك فقال صلى الله عليه وسلم لا يا رب انت خير لهم مني فقال الله اذا لا اخزيك فيهم وروى انس ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم سال ربه عز وجل في ذنوب امته فقال يا رب اجعل حسابهم الي لئلا يطلع على مساويهم غيري فاوحى الله
اليه هم امتك وهم عبادي وانا ارحم بهم منك لا اجعل حسابهم الى غيري لئلا ينظر في مساويهم انت ولا غيرك وقال
صلى الله عليه وسلم حياتي خير لكم وموتي خير لكم اما حياتي فاسن لكم السنن واشرع لكم الشرايع واما موتي فان اعمالكم
تعرض علي فما رايت منها حسنا حمدت الله عليه وما رايت منها سيا استغفرت الله لكم وقال صلى الله عليه وسلم يوما يا كريم
العفو فقال جبريل عليه السلام اتدري ما تفسير يا كريم العفو هو ان عفى عن السيات برحمته ثم بدلها حسنات بكرمه
وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اني اسالك تمام النعمة فقال صلى الله عليه وسلم هل تدري ما تمام النعمة
قال لا قال صلى الله عليه وسلم دخول الجنة وقال العلما قد اتم نعمته علينا برضاه الاسلام لنا دينا اذ قال سبحانه واتممت
عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا • وفي الخبر اذا اذنب العبد ذنبا واستغفر فيقول الله لملايكته انظروا الى عبدي
اذنب ذنبا فعلم ان له ربا يغفر الذنوب وياخذ بالذنب اشهدكم اني قد غفرت له • وفي الخبر لو اذنب العبد حتى
تبلغ ذنوبه عنان السما غفرتها له ما استغفرني ورجاني • وفي الخبر لو لقيني عبدي بقراب الارض ذنوبا لقيته بقرابها
مغفرة • وفي الحديث ان الملك ليرفع القلم عن العبد ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه والا كتبها سيئة
وفي لفظ اخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو امير عليه الق هذه السيئة حتى القي من حسناته واحدة
من تضعيف العشر وارفع له تسع فيلقى عنه هذه السيئة وروى انس رضي الله عنه في حديث طويل انه قال صلى الله عليه وسلم

يقول لو لم يذنب المومن لكان يطير في الملكوت ولكن الله قمعه بالذنوب وقال الجنيد ان بدت عين من عيون الكرم
الحقت المسيين بالمحسنين ولقي مالك بن دينار ابان فقال له كم تحدث الناس بالرخص فقال يا ابا يحيى اني لارجو ان ترى
من عفو الله يوم القيمة ما تخرق له كساك هذا من الفرح وفي حديث ربعي بن حراش عن اخيه وكان من خيار التابعين وهو ممن
تكلم بعد الموت قال لما مات اخي سجي بثوبه والقيناه على نعشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا فقال اني لقيت
ربي عز وجل فحياني بروح وريحان ورب غير غضبان واني رايت الامر ايسر مما تظنون فلا تغتروا فان محمدا صلى الله عليه وسلم واصحابه
ينتظروني حتى ارجع اليهم قال ثم طرح نفسه فكانما كانت حصاة وقعت في طست فحملناه ودفناه • وفي الحديث
ان رجلين تواخيا في بني اسرايل في الله فكان احدهما مسرفا على نفسه وكان الاخر عابدا وكان يعظه ويزجره فكان يقول دعني
وربي ابعثت علي رقيبا حتى راه ذات يوم على كبيرة فغضب وقال لا يغفر الله لك قال فيقول الله يوم القيمة ايستطيع احد ان يحظر
رحمتي على عبادي اذهب فقد غفرت لك ثم يقول للعابد وانت فقد اوجبت لك النار قال فوالذي نفسي بيده لقد
تكلم بكلمة اهلكت دنياه واخرته • وروي ان لصا كان يقطع الطريق في بني اسرايل اربعين سنة فمر عليه عيسى عليه السلام وخلفه
عابد من عباد بني اسرايل من الحواريين فقال اللص في نفسه هذا نبي الله يمر والى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما
ثالثا قال فنزل فجعل يريد ان يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيما للحواري ويقول في نفسه مثلي لا يمشي الى جنب
هذا العابد قال واحس به الحواري فقال في نفسه هذا يمشي الى جانبي فضم نفسه منه وتقدم الى عيسى عليه السلام ومشى
الى جانبه فبقي اللص خلفه فاوحى الله الى عيسى عليه السلام قل لهما استانفا العمل فقد احبطت ما سلف من عملكما اما الحواري
فقد احبطت حسناته لعجبه بنفسه واما الاخر فقد احبطت سياته بما ازدرى على نفسه فاخبرهما بذلك وضم اللص اليه
في سياحته وجعله من حوارييه • وروي عن مسروق ان نبيا من الانبيا كان ساجدا فوطي بعض العتاة عنقه حتى الصق
الحصا بجبهته قال فرفع النبي عليه السلام راسه متغضبا وقال اذهب فلن يغفر الله لك فاوحى الله اليه تتالى على عبادي
اني قد غفرت له ويقرب من هذا ما روي عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته فنزل قوله
تعالى ليقطع طرفا من الذين كفروا او يكبتهم فينقلبوا خايبين ليس لك من الامر شي او يتوب عليهم الاية فترك الدعا عليهم وهدى
الله عامة اوليك الى الاسلام • وروي في الاثر ان رجلين كانا من العابدين سيا وفي العبادة قال فاذا ادخلا الجنة
رفع احدهما في الدرجات العلى على صاحبه فيقول يا رب ما كان هذا في الدنيا باكثر مني عبادة فرفعته علي في عليين فيقول الله
انه كان يسالني في الدنيا الدرجات العلى وانت كنت تسالني النجاة من النار فاعطيت كل عبد سوله وهذا يدل على ان العبادة
على الرجا افضل لان المحبة اغلب على الراجي منها على الخايف فكم من فرق في الملكوت بين من يخدم اتقا العقاب ومن يخدم
ابتغا لانعامه واكرامه ولذلك امر الله بحسن الظن وكذلك قال صلى الله عليه وسلم سلوا الله الدرجات العلى فانما تسلون
كريما وقال اذا سالتم الله فاعظموا الرغبة واسالوا الفردوس الاعلى فان الله لا يتعاظمه شي وقال بكر بن سليم الصواف
دخلنا

دخلنا على مالك بن انس في العشية التي قبض فيها فقلنا يا ابا عبد الله كيف تجدك فقال لا ادري ما اقول لكم الا انكم
ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب ثم ما برحنا حتى اغمضناه وقال يحيى بن معاذ رضي الله عنه في مناجاته يكاد رجاي
لك مع الذنوب يغلب رجاي لك مع الاعمال لاني اعتمد على عفوك في الاعمال على الاخلاص وكيف احرزها وانا بالافة
معروف واجدني في الذنوب اعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وانت بالجود موصوف • وقيل ان مجوسيا استضاف ابراهيم
الخليل صلى الله عليه وسلم فقال ان اسلمت اضفتك فمر المجوسي فاوحى الله الى ابراهيم عليه السلام يا ابراهيم لم تطعمه الا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة
نطعمه على كفره فلو اضفته ليلة ماذا كان عليك فمر ابراهيم عليه السلام في طلب المجوسي فرده واضافه فقال المجوسي ما السبب فيما
بدا لك فذكر له فقال المجوسي اهكذا يعاملني ثم قال اعرض علي الاسلام فاسلم • وراى الاستاذ ابو سهل الصعلوكي ابا سهل
الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الابد فقال له كيف حالك فقال وجدنا الامر اسهل مما توهمنا • وراى بعضهم
ابا سهل الصعلوكي في المنام على هيية حسنة لا توصف فقال له يا استاذ بم نلت هذا فقال بحسن ظني بربي • وحكي
ان ابا العباس بن سريج رضي الله عنه راى في مرض موته في منامه كان القيامة قد قامت واذا الجبار سبحانه وتعالى يقول
اين العلما قال فجاوا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم فقال فقلنا يا رب قصرنا واسانا قال فاعاد السوال كانه لم يرض
واراد جوابا اخر فقال فقلت اما انا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت ان تغفر ما دونه فقال عز وجل اذهبوا
فقد غفرت لكم ومات بعد ذلك بثلاث ليال • وقيل كان رجل شريبا فجمع قوما من ندمايه ودفع الى غلام له اربع دراهم
وامره ان يشتري شيا من الفواكه للمجلس فمر الغلام بمجلس منصور بن عمار وهو يسال الفقير شيا ويقول من دفع اليه اربعة دراهم
دعوت له اربع دعوات قال فدفع اليه الغلام الدراهم فقال منصور ما الذي تريد ان ادعو لك فقال لي سيد اريد ان
اتخلص منه فدعا له منصور فقال الاخرى قال ان يخلف الله علي دراهمي فدعا له ثم قال الاخرى قال ان يتوب الله على سيدي
فدعا له ثم قال الاخرى قال ان يغفر الله لي ولسيدي ولك وللحاضرين فدعا له منصور ثم رجع الغلام فقال له سيده لم ابطات فقص
عليه القصة قال وبم دعا لك قال سالت لنفسي العتق فقال اذهب فانت حر لوجه الله قال واي الثاني فقال
ان يخلف الله علي دراهمي فقال لك اربعة الاف درهم فقال واي الثالث قال ان يتوب الله عليك فقال تبت الى الله قال واي
الرابع قال ان يغفر الله لي ولك وللقوم وللمذكر قال هذا الواحد ليس لي فلما بات تلك الليلة راى في المنام كان قايلا
يقول له انت فعلت ما كان اليك افترى اني لا افعل ما الي قد غفرت لك وللغلام ولابن عمار وللقوم الحاضرين اجمعين
وروى عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي قال رايت جنازة يحملها ثلاث رجال وامراة قال فاخذت مكان المراة وذهبنا الى
المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت فقلت للمراة من كان هذا منك فقالت ابني قلت ولم يكن لكم جيران قالت نعم ولكن صغروا
امره فقلت واي شي كان هذا قالت مخنث قال فرحمتها فذهبت بها الى منزلي واعطيتها دراهم وحنطة وثيابا قال فرايت
تلك الليلة كانه اتاني ات ووجهه كالقمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يشكرني فقلت من انت فقال المخنث الذي

اذا اذنب العبد ذنبا كتب عليه فقال الاعرابي فان تاب عنه قال صلى الله عليه وسلم محي عنه من صحيفته قال فالى متى قال كان
يستغفر ويتوب الى الله تعالى لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار فاذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة
قبل ان يعملها فاذا عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله الى سبعمائة ضعف فاذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فاذا عملها كتبت
خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله وجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انى لا اصوم الا الشهر
لا ازيد عليه ولا اصلي الا الخمس لا ازيد عليها شيئا وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع فاين انا اذا مت فتبسم رسول
الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم معي ان حفظت قلبك من اثنتين الغل والحسد ولسانك من اثنتين الغيبة والكذب وعينك
من اثنتين النظر الى ما حرم الله وان تزدري بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحتي هاتين وفي الحديث الطويل الذي
ان اعرابيا قال يا رسول الله من يلي حساب الخلق فقال الله فقال هو بنفسه فقال صلى الله عليه وسلم نعم فتبسم الاعرابي فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم مم ضحكت يا اعرابي فقال ان الكريم اذا قدر عفا واذا حاسب سامح فقال صلى الله عليه وسلم صدق الاعرابي
ولا كريم اكرم من الله هو اكرم الاكرمين ثم قال صلى الله عليه وسلم فقه الاعرابي وفيه ايضا ان الله شرف الكعبة وعظمها
ولو ان عبدا هدمها حجرا حجرا ثم احرقها ما بلغ جرم من استخف بولي من اولياء الله قال الاعرابي ومن اولياء الله قال
المؤمنون كلهم اولياء الله اما سمعت قوله عز وجل الله ولي الذين امنوا يخرجهم من الظلمات الى النور وفي الخبر المؤمن افضل
من الكعبة والمؤمن طيب طاهر والمؤمن اكرم على الله من الملائكة وفي الخبر خلق الله جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به
عباده الى الجنة وفي حديث اخر يقول الله انما خلقت الخلق ليربحوا علي ولم اخلقهم لاربح عليهم وفي حديث ابي سعيد الخدري
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خلق الله شيئا الا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه وفي الخبر المشهور ان الله تعالى كتب على
نفسه قبل ان يخلق الخلق ان رحمتي تغلب غضبي وروى معاذ بن جبل وانس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قال لا اله الا الله دخل الجنة ومن
كان اخر كلامه قول لا اله الا الله لم تمسه النار ومن لقي الله عز وجل لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار ولا يدخل النار
من في قلبه وزن ذرة من الايمان وفي خبر اخر لو يعلم الكافر سعة رحمة الله ما ايس من رحمته احد ولما تلى صلى الله عليه وسلم
قوله تعالى ان زلزلة الساعة شيء عظيم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تدرون اي يوم هذا هذا يوم يقال فيه لادم
عليه السلام قم فابعث بعث النار من ذريتك فيقول كم فيقال من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعين الى النار وواحد
الى الجنة قال فابلس القوم وجعلوا يبكون يومهم اجمع وتعطلوا الاشغال والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال ما لكم لا تعملون فقالوا ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا الحديث فقال كم انتم في الامم اين تاويل وتاريس
ومنسك وياجوج وماجوج امم لا يحصيها الا الله انما انتم في سائر الامم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الاسود
وكالرقمة في ذراع الدابة فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بازمة الرجاء الى الله اذ ساقهم بسياط
الخوف اولا فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال الى افراط الياس داواهم بدواء الرجاء وردهم الى الاعتدال والاحتـ

بلغ

لم يكن مناقضا للاول ولكن ذكر في الاول ما كان سببا للشفاء واقتصر عليه وما احتاجوا الى المعالجة بالرجاء وذكر تمام
الامر فعلى الواعظ ان يقتدي بسيد الوعاظ ويتلطف في استعمال اخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد الاطلاع على
العلل الباطنة وان لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه اكثر مما يصلحه وفي الخبر لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون
ليغفر لهم وفي لفظ اخر لذهب بكم وجاء بخلق اخر يذنبون ليغفر لهم انه هو الغفور الرحيم وفي الخبر لو لم تذنبوا
لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل وما هو قال العجب وقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لله ارحم بعبده المؤمن
من الوالدة الشفيقة بولدها وفي الخبر ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب احد حتى ان ابليس ليتطاول
لها رجاء ان تصيبه وفي الخبر ان لله تعالى مائة رحمة ادخر عنده منها تسعا وتسعين رحمة واظهر منها في الدنيا رحمة
واحدة فبها يتراحم الخلق فتحن الوالدة الى ولدها وتعطف البهيمة على ولدها فاذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة الى التسع
والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه فكل رحمة منها طباق السموات والارض قال فلا يهلك على الله يومئذ الا هالك وفي الخبر
ما منكم من احد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار قالوا ولا انت قال صلى الله عليه وسلم ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمته
وقال صلى الله عليه وسلم اعملوا وابشروا واعلموا ان احدا لن ينجيه عمله وقال عليه السلام انما اختبات شفاعتي لاهل الكبائر من امتي
اترونها للمطيعين المتقين بل هي للخاطئين المتلوثين وقال بعثت بالحنيفية السمحة السهلة وقال احب ان يعلم اهل الكتابين ان في
ديننا سماحة ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا
الاية وقوله ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم وروى محمد بن الحنفية عن علي عليه السلام انه قال لما نزل قوله
تعالى فاصفح الصفح الجميل قال يا جبريل وما الصفح الجميل قال اذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه فقال يا جبريل فالله تعالى
اكرم من ان يعاتب من عفا عنه فبكى جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم فبعث الله اليهما ميكائيل عليه السلام فقال ان ربكما
عز وجل يقرئكما السلام ويقول كيف اعاتب من عفوت عنه هذا ما لا يشبه كرمي والاخبار الواردة في الرجاء وابوابه
كثيرة **واما الاثار** فقال علي رضي الله عنه من اذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا فالله اكرم من ان يكشف ستره
في الاخرة ومن اذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى اعدل من ان يثني عقوبته على عبده في الاخرة وقال الثوري
رحمه الله ما احب ان يجعل حسابي الى ابوي لاني اعلم ان الله ارحم بي منهما وقال بعض السلف المؤمن اذا عصى الله ستره الله
عن ابصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه وكتب محمد بن مصعب الى الاسود بن سالم بخطه ان العبد اذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه
يدعو فيقول يا رب حجبت الملائكة صوته فكذلك الثانية والثالثة حتى اذا قال الرابعة يا رب قال الله تعالى حتى متى تحجبون
صوت عبدي عني قد علم عبدي انه ليس له رب يغفر الذنوب غيري اشهدكم اني قد غفرت له وقال ابن ادهم خلا لي
الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت يا رب اعصمني حتى لا اعصيك ابدا فهتف بي هاتف
من البيت يا ابراهيم انت تسالني العصمة وكل عبادي المؤمنون يطلبون ذلك فاذا عصمتهم فعلى من اتفضل ولمن اغفر وكان الحسن

د فتمونني اليوم رحمني ربي باحتقار الناس اياي وقال ابراهيم الاطروش كنا قعودا ببغداد مع معروف الكرخي على
دجلة اذ مر قوم احداث في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا لمعروف اما تراهم يعصون الله مجاهرين
ادع الله عليهم فرفع يده وقال اللهم كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الاخرة فقالوا انا سالناك ان تدعو عليهم فقال اذا
فرحهم الله عز وجل في الاخرة تاب عليهم وكان بعض الصالحين من السلف يقول في دعائه يا رب واي اهل دهر لم يعصوك
ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ورزقك عليهم دارا سبحانك ما احلمك وعزتك انك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق
حتى كانك يا ربنا لا تغضب **فهذه** الاسباب التي
تجلب بها روح الرجاء الى قلوب الخائفين والايسين فاما الحمقى المغرورون فلا ينبغي ان يسمعوا شيئا من ذلك بل يسمعون
ما سنورده في اسباب الخوف فان اكثر الناس لا يصلح الا على الخوف كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيمون الا بالسوط
والعصا واظهار الخشونة في الكلام واما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح في الدنيا والدين

الشطر الثاني من الكتاب في الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجات الخوف وبيان الافضل من الخوف والرجاء وبيان اقسام المخاوف
وبيان فضيلة الخوف وبيان دواء الخوف وبيان معنى سوء الخاتمة وبيان احوال الخائفين من الانبياء والصالحين

بيان حقيقة الخوف اعلم ان الخوف عبارة عن تالم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال وقد ظهر هذا في بيان حقيقة
الرجاء ومن انس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات الى المستقبل
ولم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله اعلى من الخوف والرجاء فانهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج الى رعوناتها والى هذا
اشار الواسطي حيث قال الخوف حجاب بين الله وبين العبد وقال ايضا اذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف
وبالجملة اذا شغل المحب قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصانا في الشهود وانما دوام الشهود غاية المقامات
ولكنا الان انما نتكلم في اوائل المقامات **فنقول** حال الخوف ايضا ينتظم من علم وحال وعمل اما العلم فهو العلم
بالسبب المفضي الى المكروه وذلك كمن جنى على ملك جناية ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والافلات ولكن
يكون تالم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالاسباب المفضية الى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقودا
غضوبا منتقما وكونه محفوفا بمن يحثه على الانتقام خاليا عمن يشفع اليه في حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة
وحسنة تمحو اثر جنايته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الاسباب سبب لقوة الخوف وشدة تالم القلب وبحسب ضعف
هذه الاسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذي وقع
في مخالب سبع فانه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهو سطوته وحرصه على الافتراس غالبا وان كان افتراسه بالاختيار وقد يكون
من صفة جبلته كخوف من وقع في مجرى سيل او جوار حريق فان الماء يخاف لانه بطبعه مجبول على السيلان والاغراق
وكذا النار على الاحراق فالعلم باسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحتراق القلب وتالمه وذلك الاحتراق هو
الخوف

الخوف فكذلك الخوف من الله فتارة يكون لمعرفة الله ومعرفة صفاته وانه لو اهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع وتارة
يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله عز وجل
وتعاليه واستغنائه وانه لا يسال عما يفعل وهم يسالون تكون قوة خوفه فاخوف الناس لربه اعرفهم بنفسه وبربه ولذلك
قال صلى الله عليه وسلم انا اخوفكم لله واعرفكم ولذلك قال الله انما يخشى الله من عباده العلماء اذا كملت المعرفة اورثت حال الخوف
واحتراق القلب ثم يفيض اثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات اما في البدن فبالنحول والصفار والغشية
والزعقة والبكاء وقد تنشق المرارة فيفضي الى الموت او يصعد الى الدماغ فيفسد العقل او يقوى فيورث القنوط والياس
واما الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ولذلك قيل ليس الخائف
من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف ان يعاقب عليه وقال ابو القاسم الحكيم رحمه الله من خاف شيئا هرب منه
ومن خاف الله هرب اليه وقيل لذي النون متى يكون العبد خائفا قال اذا انزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة السقام
واما في الصفات فبان يقمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه اذا عرف
ان فيه سما فتحترق الشهوات بالخوف وتتادب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ويفارقه
الكبر والحقد والحسد بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل الا المراقبة
والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالانفاس واللحظات ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله حال
من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري انه يغفل عنه فيفلت او يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه
لا متسع فيه لغيره هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين في قوة المراقبة والمجاهدة
وبحسب قوة الخوف الذي هو تالم القلب واحتراقه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى وصفاته وافعاله
وبعيوب نفسه وما بين يديها من الاخطار والاهوال واقل درجات الخوف فيما يظهر اثره في الاعمال ان يمنع عن المحظورات ويسمى
الكف الحاصل عن المحظورات ورعا فان زادت قوته كف عما يتطرق اليه امكان التحريم فيكف عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك
تقوى اذ التقوى ان يترك ما يريبه الى ما لا يريبه وقد يحمله على ان يترك ما لا باس به مخافة مما به باس وهو الصدق
في التقوى فاذا انضم اليه التجرد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا ياكله ولا يلتفت الى دنيا يعلم انها تفارقه ولا يصرف
الى غير الله نفسا من انفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بان يسمى صديقا ويدخل في الصدق التقوى ويدخل في التقوى
الورع ويدخل في الورع العفة فانها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة فاذا الخوف يؤثر في الجوارح بالكف عن
الاقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوات واعلى منه الورع فانه اعم لانه كف عن كل محظور واعلى منه
التقوى فانه اسم للكف عن المحظورات والشبهات جميعا ووراءه اسم الصديق والمقرب وتجري الرتبة الاخيرة مما قبلها مجرى الاخص
من الاعم فاذا ذكرت الاخص منه فقد ذكرت الكل كما انك تقول الانسان اما عربي او عجمي والعربي اما قرشي او غيره والقرشي

اما هاشمي او غيره والهاشمي اما علوي او غيره والعلوي اما حسني واما حسيني فاذا ذكرت انه حسيني فقد وصفته بالجميع مثلا وان وصفته بانه علوي فقد وصفته بما فوقه مما هو اعم منه فكذلك اذا قلت صديق فقد قلت انه متق وعفيف فلا ينبغي ان تظن ان كثرة هذه الاسامي تدل على معان كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على كل من طلب المعاني من الالفاظ ولم يتبع الالفاظ المعاني فهذه اشارة الى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له او من جانب السفل كالاعمال الصادرة منه كفا واقداما

بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف

اعلم ان الخوف محمود وربما يظن ان كل ما هو محمود فكل ما كان اقوى واكثر كان احمد وهو غلط بل الخوف هو سوط الله يسوق به عباده الى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله والاصلح للبهيمة ان لا تخلو عن سوط وكذا الصبي ولكن ذلك لا يدل على ان المبالغة في الضرب محمودة وكذلك الخوف له قصور وله افراط وله اعتدال والمحمود هو الاعتدال والوسط فاما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع ولذلك عند مشاهدة سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب الى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألما مبرحا ولا يسوقها الى المقصد ولا يصلح لرياضتها وهكذا خوف الناس كلهم الا العارفين والعلماء ولست اعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين باسمائهم فانهم ابعد الناس عن الخوف بل اعني العلماء بالله وبايامه وافعاله وذلك مما عز وجوده الان ولذلك قال الفضيل اذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم كذبت واشار به الى ان الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق ان يسمى خوفا واما المفرط فهو الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج الى اليأس والقنوط وهو مذموم ايضا لانه يمنع من العمل والمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ولولاه ما كان الخوف كمالا لانه بالحقيقة نقصان لان منشأه الجهل والعجز اما الجهل فانه ليس يدري عاقبة امره ولو عرف لم يكن خائفا لان المخوف هو الذي يتردد فيه واما العجز فهو انه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه فاذا هو محمود بالاضافة الى نقص الآدمي وانما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكلما يجوز ان يوصف الله به وما لا يجوز وصف الله به فليس بكمال في ذاته وانما يصير محمودا بالاضافة الى نقص اعظم منه كما يكون احتمال ألم الدواء محمودا لانه اهون من ألم المرض والموت فما يخرج الى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف ايضا الى المرض والضعف والى الوله والدهشة وزوال العقل وقد يخرج الى الموت وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة او يمرضها او يكسر عضوا من اعضائها وانما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم اسباب الرجاء واكثر منها ليعالج بها صدمة الخوف المفرط المفضي الى القنوط او احد هذه الامور فكل ما يراد لامر فالمحمود منه ما يفضي الى المراد المقصود منه وما يقصر عنه او يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الاسباب الموصلة الى الله وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل

ما يقدح

ما يقدح في هذه الاسباب فهو مذموم **فان قلت** من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموما فاعلم ان معنى كونه شهيدا ان له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالاضافة اليه فضيلة فاما بالاضافة الى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة بل السالك لسبيل الله بطريق الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل او مجنون يفترسه سبع اعلى من رتبة نبي او ولي يموت حتف انفه وهو محال فلا ينبغي ان يظن هذا بل الفضل الاستكثار من طول العمر في طاعة الله فكلما ابطل العمر او العقل او الصحة التي تعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالاضافة الى امور وان كان بعض اقسامها فضيلة بالاضافة الى امور اخر كما كانت الشهادة فضيلة بالاضافة الى ما دونها لا بالاضافة الى درجة المتقين والصديقين فاذن الخوف ان لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة وان اثر فله درجات بحسب ظهور اثره فان لم يحمل الا على العفة وهو الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فاذا اثمر الورع فهو اعلى واقصى درجاته ان يثمر درجات الصديقين وهو ان يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله حتى لا يبقى لغير الله فيه متسع فهذا اقصى ما يحمد منه وذلك مع بقاء الصحة والعقل فان جاوز هذا الى ازالة العقل او الصحة فهو مرض يجب علاجه ان قدر عليه ولو كان محمودا لما وجب علاجه باسباب الرجاء وبغيره حتى كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع اياما كثيرة احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله ولي ناقص العقل

بيان اقسام الخوف بالاضافة الى ما يخاف منه

اعلم ان الخوف المتحقق لا يكون الا بانتظار مكروه والمكروه اما ان يكون مكروها في ذاته كالنار واما ان يكون مكروها لانه يفضي الى المكروه كما تكره المعاصي لادائها الى مكروه في الآخرة وكما يكره المريض الفواكه المضرة لادائها الى الموت فلا بد لكل خائف من ان يتمثل في نفسه مكروه من القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحترق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة او خوف نقض التوبة ونكث العهد او خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله او خوف زوال الرقة القلب وتبدلها بالقساوة او خوف الميل عن الاستقامة او خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المالوفة او خوف ان يكله الله الى حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله او خوف البطر بكثرة نعم الله عليه او خوف الاشتغال عن الله بغير الله او خوف الاستدراج بتواتر النعم او خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب او خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والخيانة والغش واضمار السوء او خوف ما لا يدري انه يحدث في بقية عمره او خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت او خوف الاغترار بزخارف الدنيا او خوف اطلاع الله على سريرته في حالة غفلته عنه او خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء او خوف السابقة التي سبقت له في الازل فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد منهم خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي الى المخوف فمن خاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة والذي يخاف من اطلاع الله على سريرته فيشتغل بتطهير قلبه عن الوسواس وهكذا الى بقية الاقسام واغلب هذه المخاوف على المتقين خوف الخاتمة

فان الامر فيه مخطر واعلى الاقسام وادلها على كمال المعرفة خوف السابقة لان الخاتمة تبع للسابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل اسباب كثيرة فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في ام الكتاب والخائف من الخاتمة بالاضافة الى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع يحتمل ان يكون فيه حز الرقبة ويحتمل ان يكون فيه تسليم الوزارة اليه ولم يصل التوقيع اليهما بعد فتعلق قلب احدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وانه عماذا يظهر وارتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وانه الذي خطر له وقت التوقيع من رحمة او غضب فهذا التفات الى السبب فهو اعلى من الالتفات الى ما هو فرع ولذلك الالتفات الى القضاء الازلي الذي جرى بتوقيعه القلم اعلى من الالتفات الى ما يظهر في الابد واليه اشار رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى فقال هذا كتاب الله كتب فيه اهل الجنة باسمائهم واسماء آبائهم وانسابهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم فقبض كفه اليسرى فقال هذا كتاب الله كتب فيه اهل النار باسمائهم وانسابهم لا يزاد فيهم ولا ينقص وليعملن اهل السعادة بعمل اهل الشقاوة حتى يقال كانهم منهم بل هم هم ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة وليعملن اهل الشقاوة بعمل اهل السعادة حتى يقال كانهم منهم بل هم هم ثم يخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة السعيد من سعد بقضاء الله والشقي من شقي بقضاء الله والاعمال بالخواتيم وهذا كان تقسيم الخائفين الى من خاف معصيته وجنايته والى من خاف الله لصفته وجلاله واوصافه التي تقتضي الهيبة لا محالة فهذا اعلى رتبة ولذلك يبقى خوفه وان كان في طاعة الصديقين اما الآخر فهو في عرضة الغرور والامن وان واظب على الطاعات والخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف الموحدين الصديقين وهو ثمرة المعرفة بالله فكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بان يخاف من غير جناية بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا انه مخوف في نفسه لما سخر الله للمعصية وسهل سبيلها وهيأ له اسبابها فان تيسير اسباب المعصية ابعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية يستحق بها ان يسخر للمعصية ويجري عليه اسبابها ولا سبق له قبل الطاعة وسيلة توسل بها حتى يسر له الطاعات ومهدت له سبل القرب فالعاصي قد قضي عليه المعصية شاء ام ابى وكذا المطيع فالذي رفع محمدا صلى الله عليه وسلم الى اعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ووضع ابا جهل في اسفل السافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده جدير بان يخاف لصفة جلاله فان من اطاع اطاع بان سلط عليه ارادة الطاعات واثاره القدرة وبعد خلق الارادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذي عصى عصى لانه سلط عليه ارادة قوية جازمة واثاره الاسباب والقدرة فكان الفعل بعد الارادة والقدرة ضروريا فليت شعري ما الذي اوجب اكرام هذا وتخصيصه بتسليط ارادة الطاعات عليه وما الذي اوجب اهانة الآخر وابعاده بتسليط دواعي المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد فاذا كان ينتهي بالآخرة الى القضاء الازلي من غير جناية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضي بما شاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ووراء هذا المعنى سر القدر الذي لا يجوز افشاؤه ولا يمكن تفهيم الخوف منه بصفات الامثال ولولا اذن الشرع لم يجترئ على ذكره ذو بصيرة فقد جاء في الخبر اوحى الله الى داود عليه السلام يا داود خفني كما تخاف السبع الضاري فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وان كان لا يطلعك على سببه فان الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ولا يكشف ذلك الا لاهله والحاصل ان السبع يخاف لا لجناية سبقت اليه بل لصفته وسطوته وكبريائه وهيبته ولانه يفعل ما يفعل ولا يبالي فانه ان قتلك لم يرق قلبه ولم يتألم بقتلك وان خلاك لم يخلك

شفقة

شفقة عليك وابقاء على روحك بل انت عنده اخس من ان يلتفت اليك حيا كنت او ميتا بل اهلاك الف مثلك واهلاك نملة عنده سواء اذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته ولله المثل الاعلى ولكن من عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي اقوى واوثق واجلى من المشاهدة الظاهرة انه صادق في قوله تعالى هؤلاء في الجنة ولا ابالي وهؤلاء في النار ولا ابالي ويكفيك من موجبات الهيبة المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة **الطبقة الثانية من الخائفين** ان يتمثل في انفسهم ما هو المكروه وذلك مثل سكرات الموت وشدته او سؤال منكر ونكير او عذاب القبر او هول المطلع او هيبة الموقف بين يدي الله او الحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير والخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه او الخوف من النار واغلالها واهوالها او الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات او الخوف من الحجاب عن الله وكل هذه الاسباب مكروهة في انفسها فهي لا محالة مخوفة وتختلف احوال الخائفين فيها واعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله وهو خوف العارفين وما قبل ذلك هو خوف العابدين والصالحين والزاهدين وكافة العاملين ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق فاذا ذكر له ان العارف لا يخاف النار وانما يخاف الحجاب وجد ذلك منكرا في باطنه وتعجب منه في نفسه وربما انكر لذة النظر الى وجه الله الكريم لولا منع الشرع اياه من انكاره فيكون اعترافه باللسان عن ضرورة التقليد والا فباطنه لا يصدق به لانه لا يعرف الا لذة الفرج والبطن والعين بالنظر الى الالوان والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة تشاركه البهائم فيها فاما لذات العارفين فلا يدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس اهلا له ومن كان اهلا له فيستبصر بنفسه فيستغني عن ان يشرحه غيره له فالى هذه الاقسام ترجع خوف الخائفين

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم ان فضيلة الخوف تارة تعرف بالتامل والاعتبار وتارة بالآيات والاخبار واما الاعتبار فسبيله ان فضيلة الشيء بقدر غنائه في الافضاء الى سعادة لقاء الله تعالى اذ لا مقصود سوى السعادة ولا سعادة للعبد الا في لقاء مولاه والقرب منه فكل ما اعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر اعانته وقد ظهر انه لا وصول الى سعادة لقاء الله في الآخرة الا بتحصيل محبته والانس به في الدنيا ولا تحصل المحبة الا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة الا بدوام الفكر ولا يحصل الانس الا بالمحبة ودوام الذكر ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر الا بانقطاع حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك الا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتهيات الا بقمع الشهوات ولا تنقمع الشهوات بشيء كما تنقمع بنار الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فاذا فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون للخوف فضيلة الفاضلة المحمودة التي تقرب الى الله زلفى **واما طريق الاقتباس من الآيات والاخبار** فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر وناهيك به دلالة على فضيلته جمع الله للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات اهل الجنان قال الله تعالى هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون وقال عز وجل انما يخشى الله من عباده العلماء فوصفهم بالعلم لخشيتهم وقال تعالى رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه وكلما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لان الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء في الخبر عن موسى عليه السلام

واما الخاشعون فانهم الرفيق الاعلى لا يشاركون فيه فانظر كيف افردهم بمرافقة الرفيق الاعلى وذلك لانهم العلماء والعلماء لهم
رتبة مرافقة الانبياء لانهم ورثة الانبياء ومرافقة الاعلى للانبياء ومن يلحق بهم ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء
في الدنيا وبين القدوم على الله كان صلى الله عليه وسلم يقول اسالك الرفيق الاعلى فاذا ان نظرت الى ثمرته فهو العلم وان نظرت الى ثمرته فالورع
والتقوى ولا يخفى ما ورد في فضايلها حتى ان العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة به كما صار الحمد مخصوصا باسم الله والصلاة مخصوصة
برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على محمد واله اجمعين وقد خص الله التقوى بالاضافة
الى نفسه فقال عز وجل لن ينال الله لحومها ولا دماوها ولكن يناله التقوى منكم وانما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف كما سبق
ولذلك قال الله ان اكرمكم عند الله اتقاكم وكذلك وصى الله تعالى الاولين والاخرين بالتقوى فقال ولقد وصينا الذين اوتوا
الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله وقال عز وجل وخافون ان كنتم مومنين فامر بالخوف واوجبه وشرطه في الايمان فلذلك لا يتصور
ان ينفك مومن عن خوف وان ضعف ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وايمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
في فضيلة التقوى اذا جمع الله الاولين والاخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمع اقصاهم كما يسمع ادناهم فيقول يا ايها
الناس اني قد انصت لكم منذ خلقتكم الى يومكم هذا فانصتوا الي اليوم انما هي اعمالكم ترد عليكم ايها الناس اني جعلت نسبا وجعلتم
نسبا فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم قلت ان اكرمكم عند الله اتقاكم وابيتم الا فلان بن فلان وفلان اغنى من فلان فاليوم اضع نسبكم
وارفع نسبي اين المتقون فينصب للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم الى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب وقال صلى الله عليه وسلم راس الحكمة
مخافة الله وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود اذا اردت ان تلقاني فاكثر من الخوف بعدي وقال الفضيل من خاف الله دله الخوف
على كل خير وقال الشبلي رحمة الله عليه ما خفت الله يوما الا رايت له بابا من الحكمة والعبرة ما رايته قط وقال يحيى بن معاذ الرازي
ما من مومن يعمل سيئة الا ويلحقه حسنتان خوف العقاب ورجاء العفو كثعلب بين اسدين وفي خبر موسى عليه السلام ان الله تعالى يقول اما
الورعون فانه لا يبقى احد الا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه الا الورعون فاني استحييهم واجلهم ان اوقفهم للحساب والورع
والتقوى اسامي اشتقت من معان شرطها الخوف فان خلا عن الخوف لم يسم بهذه الاسامي ولذلك ما ورد في فضايل الذكر لا يخفى
وقد جعله الله خصوصا بالخائفين فقال عز وجل سيذكر من يخشى وقال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقال صلى الله عليه وسلم
قال الله وعزتي وجلالي لا اجمع على عبدي خوفين ولا اجمع له امنين فاذا امنني في الدنيا اخفته يوم القيمة واذا خافني في الدنيا
امنته يوم القيمة وقال صلى الله عليه وسلم من خاف الله خافه كل شيء ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء وقال صلى الله عليه وسلم اتمكم عقلا
اشدكم لله خوفا واحسنكم فيما امر الله به ونهى عنه نظرا وقال يحيى بن معاذ مسكين ابن ادم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة
وقال ذو النون من خاف الله ذاب قلبه واشتد لله حبه وصح له لبه وقال ذو النون ايضا ينبغي ان يكون الخوف ابلغ من الرجاء فاذا
غلب الرجاء تشوش القلب وكان ابو الحسين الضرير يقول علامة السعادة خوف الشقاوة لان الخوف زمام بين الله وبين
عبده فاذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين وقيل ليحيى بن معاذ من امن الخلق يوم القيمة فقال اشدهم خوفا اليوم وقال سهل
لا تجد الخوف حتى تاكل الحلال وقيل للحسن يا ابا سعيد كيف نصنع بمجالس اقوام يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال والله
انك ان

انك ان تخالط قوما يخوفونك حتى يدركك امن خير لك من ان تصحب قوما يومنونك حتى يدركك الخوف وقال ابو سليمان
الداراني ما فارق الخوف قلبا الا خرب وقالت عائشة رضي الله عنها قلت يا رسول الله الذين يوتون ما اتوا وقلوبهم وجلة هو
الرجل يسرق ويزني قال صلى الله عليه وسلم لا بل الرجل يصوم ويتصدق ويصلي ويخاف ان لا يقبل منه والتشديدات الواردة
في الامن من مكر الله وعذابه لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لان مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه وضد الخوف الامن
كما ان ضد الرجاء الياس وكما دل مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك يدل مذمة الامن على فضيلة الخوف المضاد له بل اقول
كلما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لانهما متلازمان فان كل من رجا محبوبا فلا بد ان يخاف فوته فان لم يخف
فوته فهو اذا لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجيا والخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك احدهما عن الاخر نعم يجوز ان يغلب احدهما
على الاخر وهما مجتمعان ويجوز ان يشتغل القلب باحدهما ولا يلتفت الى الاخر في الحال لغفلته عنه وهذا لان من شرط الرجاء والخوف
تعلقهما بما هو مشكوك فيه اذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف فاذن المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة فتقدير وجوده
يروح القلب هو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب هو الخوف والتقديران يتقابلان لا محالة اذا كان ذلك الامر المنتظر مشكوكا فيه
نعم احد طرفي الشك قد يترجح بحضور بعض الاسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة احدهما على الاخر فاذا غلب على الظن
وجود المحبوب قوي الرجاء وخفي الخوف بالاضافة اليه وكذا بالعكس وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال الله ويدعوننا رغبا
ورهبا وقال عز وجل يدعون ربهم خوفا وطمعا ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا
اي لا تخافون وكثيرا ما ورد في القران الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما اذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه بل اقول كلما ورد في فضل
البكاء من خشية الله فهو اظهار لفضيلة الخشية فان البكاء ثمرة الخشية قال الله فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا وقال تعالى ويبكون ويزيدهم
خشوعا وقال تعالى افمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وقال صلى الله عليه وسلم ما من عبد مومن يخرج من عينيه دموع وان كان
مثل راس الذباب من خشية الله ثم يصيب شيئا من حر وجهه الا حرمه الله على النار وقال صلى الله عليه وسلم اذا اقشعر قلب المومن من خشية الله
تحاتت عنه خطاياه كما تتحات من الشجر ورقها وقال صلى الله عليه وسلم لا يلج النار احد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع
وقال عقبة بن عامر ما النجاة يا رسول الله قال صلى الله عليه وسلم امسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك وقالت
عايشة رضي الله عنها يا رسول الله يدخل الجنة احد من امتك بغير حساب قال صلى الله عليه وسلم نعم من ذكر ذنوبه فبكى وقال صلى الله عليه وسلم
ما من قطرة احب الى الله من قطرة دمع من خشية الله او قطرة دم اهريقت في سبيل الله وقال صلى الله عليه وسلم اللهم ارزقني عينين
هطالتين تشفيان القلب بذروف الدمع قبل ان تصير الدموع دما والاضراس جمرا وقال صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله
وذكر منهم رجلا ذكر الله في خلوة ففاضت عيناه وقال ابو بكر الصديق من استطاع ان يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتباك
وكان محمد بن المنكدر اذا بكى مسح وجهه ولحيته من دموعه ويقول بلغني ان النار لا تاكل موضعا مسته الدموع وقال عبد الله بن عمرو
بن العاص ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم احدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وقال الداراني

ما تغرغرت عين عبد بمائها من خشية الله الا حرم الله وجه صاحبها قترا ولا ذلة يوم القيمة فان سالت دموعه اطفا باول قطرة منها
بحارا من النيران ولو ان رجلا بكى في امة ما عذبت تلك الامة وقال ابو سليمان البكاء من الخوف والرجاء والطرب من الشوق وقال كعب الاحبار
والذي نفسي بيده لان ابكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجنتي احب الي من ان اتصدق بجبل ذهب وقال عبد الله بن عمر لان ادمع
دمعة من خشية الله احب الي من ان اتصدق بالف دينار وروي عن حنظلة قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة
رقت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا انفسنا فرجعت الى اهلي فدنت مني المراة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت
ما كنت عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم واخذنا في الدنيا ثم تذكرت ما كنت فيه فقلت في نفسي قد نافقت حيث تحول عني ما كنت
فيه من الخوف والرقة فخرجت وجعلت انادي نافق حنظلة فاستقبلني ابو بكر فقال كلا لم ينافق يا حنظلة فدخلت على رسول الله
صلى الله عليه وسلم وانا اقول نافق حنظلة فقال صلى الله عليه وسلم كلا لم ينافق فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا
موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا انفسنا فرجعت الى اهلي فاخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه
فقال يا حنظلة لو انكم كنتم ابدا على تلك الحالة لصافحتكم الملايكة في الطرق وعلى فرشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة فاذا
كلما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الامن فهو دلالة على فضل الخوف لان جملة ذلك
متعلقة اما تعلق السبب بالمسبب

بيان ان الافضل هو غلبة الخوف او غلبة الرجاء او اعتدالهما

اعلم ان الاخبار
في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر اليهما فيعتريه شك في ان الافضل ايهما وقول القايل الخوف افضل
ام الرجاء سوال فاسد يضاهي قول القايل الخبز افضل ام الماء وجوابه الخبز افضل للجايع والماء افضل للعطشان فان اجتمعا
ينظر الى الاغلب فان كان الجوع اغلب فالخبز افضل فان استويا فهما متساويان وهذا لان كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر
بالاضافة الى مقصوده لا الى نفسه والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فان
كان الغالب على القلب داء الامن من مكر الله والاغترار به فالخوف افضل وان كان الاغلب هو الياس والقنوط من رحمة الله
فالرجاء افضل وكذلك ان كان الغالب على العبد المعصية فالخوف افضل ويجوز ان يقال مطلقا الخوف افضل
على التاويل الذي قال الخبز افضل من السكنجبين اذ يعالج بالخبز مرض الجوع وبالسكنجبين مرض الصفرا ومرض الجوع
اكثر واغلب والحاجة الى الخبز اكثر فهو افضل فبهذا الاعتبار غلبة الخوف افضل لان المعاصي والاغترار على الخلق اغلب
وان ينظر الى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء افضل لانه مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب ومن
لاحظ من صفات الله ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة اغلب عليه وليس وراء المحبة مقام واما الخوف فمستنده
الالتفات الى الصفات التي تقتضي العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي ان يستعمل
فيه لفظ الاصلح لا لفظ الافضل فنقول اكثر الخلق الخوف لهم اصلح من الرجاء وذلك لاجل غلبة المعاصي فاما التقي الذي
ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه فالاصلح ان يعتدل خوفه ورجاؤه ولذلك قيل لو وزن
رجاء المومن وخوفه لاعتدلا وروي ان عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده يا بني خف الله خوفا ترى انك
ان اتيته بحسنات اهل الارض لم يتقبلها منك وارج الله رجاء ترى انك لو اتيته بسيئات اهل الارض غفرها لك
ولذلك

ولذلك قال عمر كرم الله وجهه لو نودي ليدخل النار كل الناس الا رجلا لرجوت ان اكون انا ذلك الرجل وهذا عبارة
عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التكافي والتقاوم فمثل عمر كرم الله وجهه ينبغي ان يتساوى خوفه
ورجاؤه واما العاصي اذا ظن انه الرجل الذي استثني من الذين امروا بدخول النار كان ذلك دليلا على الاغترار فان قلت مثل عمر كرم الله وجهه
لا ينبغي ان يتساوى خوفه ورجاؤه بل ينبغي ان يغلب خوفه رجاءه كما سبق في اول كتاب الرجاء فانه ينبغي ان يكون بحسب قوة سببه
كالمثل بالبذر والزرع ومعلوم ان من بث البذر الصحيح في ارض نقية وواظب على تعهده وجمع شروط الزراعة غلب على قلبه رجاء
الادراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه فهكذا ينبغي ان يكون احوال المتقين فاعلم ان من ياخذ المعارف من الامثلة والالفاظ
يكثر زلله وذلك وان اوردناه مثلا فليس يضاهي ما نحن فيه من كل وجه لان سبب غلبة الرجاء بالعلم الحاصل بالتجربة اذ علم
بالتجربة صحة الارض ونقاوتها وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها واما مثال ملتنا هو بذر لم يجرب
جنسه وقد بث في ارض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يخبرها وهي في بلاد ليس يدري اتكثر الصواعق بها ام لا فمثل هذا الزارع وان
ادى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاؤه على خوفه والبذر في مثلنا هو الايمان وشروط صحته دقيقة والارض القلب وخفايا
خبثه وصفايه من الشرك الخفي والنفاق والريا وخفايا الاخلاق فيه غامضة والافات هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب اليها
في مستقبل الزمان وان سلم في الحال وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة اذ قد يعرض من الاسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله
والصواعق هي احوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده وذلك مما لم يجرب ثم الحصاد والادراك عند المنصرف من القيمة
الى الجنة وذلك مما لم يجرب فمن عرف حقايق هذه الامور فان كان ضعيف القلب جبانا في نفسه غلب خوفه على رجائه لا محالة كما
سنحكي في احوال الخايفين من الصحابة والتابعين وان كان قوي القلب ثابت الجاش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فاما ان
يغلب رجاؤه فلا ولقد كان عمر يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسال حذيفة انه هل يعرف به من اثار النفاق شيا اذ كان هو صاحب سر
رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم المنافقين فمن الذي يقدر على ان يطهر قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي وان اعتقد نقاء قلبه عن ذلك
فمن اين يامن مكر الله بتلبيس حاله عليه واختفاء عيبه عنه وان وثق به فمن اين يثق ببقائه على ذلك الى تمام حسن الخاتمة وقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليعمل عمل اهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا شبر وفي رواية الا فواق ناقة فيسبق عليه
الكتاب فيختم له بعمل اهل النار وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملا بالجوارح انما هو قدر خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضي
خاتمة السوء فكيف يومن من ذلك فاذا اقصى غايات المومن ان يعتدل خوفه ورجاؤه واما غلبة الرجاء في غالب الناس يكون مستنده
الاغترار وقلة المعرفة ولذلك جمع الله عز وجل بينهما في وصف من اثنى عليهم فقال يدعون ربهم خوفا وطمعا وقال تعالى
يدعوننا رغبا ورهبا واين مثل عمر رضي الله عنه في الخلق الموجودين في هذا الزمان كلهم الاصلح لهم غلبة الخوف بشرط ان لا يخرجهم
الى الياس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل وداعيا الى الانهماك في المعاصي فان
ذلك قنوط وليس بخوف انما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون الى الدنيا ويدعوه
الى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود دون حديث النفس الذي لا يوثر في الكف والحث ودون الياس الموجب للقنوط فالـ

عن معاذ من عبد الله بمحض الخوف غرق في بحار الافكار ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفاوز الاغترار ومن عبده جامعا بين الخوف والرجاء استقام في محجة ذوي الاستبصار وقال مكحول الشامي من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد فاذا لابد من الجمع بين هذه الامور وغلبة الخوف هو الاصلح ولكن قبل الاشراف على الموت اما عند الموت فالاصلح غلبة الرجاء وحسن الظن لان الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق اسباب الخوف فاذا ذلك تقطع نياط قلبه وتعين على موته واما روح الرجاء فانه يقوي قلبه ويحبب اليه ربه الذي اليه رجاؤه ولا ينبغي ان يفارق احد الدنيا الا محبا لله تعالى ليكون محبا للقاء الله عز وجل فان من احب لقاء الله احب الله لقاءه والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والمقصود من العلوم والاعمال كلها معرفة الله حتى يثمر المعرفة المحبة فان المصير اليه والقدوم بالموت عليه ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه فمهما كان الغالب عند الموت على القلب حب الاهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والاصحاب فهذا رجل محابه كلها في الدنيا فالدنيا جنته اذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه ولا يخفى حال من حيل بينه وبين ما يشتهيه فاما اذا لم يكن له محبوب سوى الله وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فاذا الدنيا سجنه لان السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح الى محابه فموته قدوم على مولاه ومحبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من افلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا تكدر فهذا اول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلا عما اعده الله لعباده الصالحين مما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر فضلا عما اعد للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا اليها من الانكال والسلاسل والاغلال وضروب من الخزي والنكال فنسأل الله ان يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ولا مطمع في اجابة هذا الدعاء الا باكتساب حب الله ولا سبيل اليه الا باخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله من جاه ومال ووطن فالاولى ان يدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم اذ قال اللهم ارزقني حبك وحب من احبك وحب ما يقربني الى حبك واجعل حبك احب الي من الماء البارد **والغرض** ان غلبة الرجاء عند الموت اصلح لانه اجلب للمحبة وغلبة الخوف قبل الموت اصلح لانه احرق لنار الشهوات واقمع لمحبة الدنيا عن القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بالله وقال عز وجل انا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ولما حضر سليمان التيمي الوفاة قال لابنه يا بني حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى القى الله على حسن الظن به وكذلك لما حضر الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه وقال احمد ابن حنبل لابنه عند الموت اذكر لي الاخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن والمقصود من ذلك كله ان يحبب الله تعالى الى نفسه ولذلك اوحى الله الى داود عليه السلام ان حببني الى عبادي فقال بماذا فقال بان تذكرهم آلائي ونعمائي فاذا غاية السعادة ان يموت العبد محبا لله وانما تحصل المحبة بالمعرفة وباخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كالسجن المانع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين ابا سليمان الداراني في المنام وهو يطير فسأله فقال الآن افلت فلما اصبح سأل عن حاله فقالوا انه مات البارحة

بيان الدواء الذي يستجلب به حال الخوف

اعلم ان ما ذكرناه في دواء الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض لان الصبر لا يمكن الا بعد حصول الخوف والرجاء لان مبدأ مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الايمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والخوف والرجاء يقويان على الصبر فان الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على عملها الا بقوة الرجاء والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها الا بقوة الخوف ولذلك قال علي كرم الله وجهه من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن اشفق من النار رجع عن المحرمات ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء الى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله والفكر فيه على الدوام ويؤدي دوام الفكر الى الانس ودوام الذكر الى المعرفة ويؤدي كمال الانس والمعرفة الى المحبة ويتبعه مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين وليس بعد اصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ولا بعدهما مقام سوى الصبر وبه المجاهدة والتجرد لله سبحانه وتعالى باطنا وظاهرا ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق الا الهداية والمعرفة ولا مقام بعد المعرفة الا المحبة والانس ومن ضرورة المحبة الرضا بفعال المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل فاذا فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية ولكنا نفرد الخوف بكلام جملي **فنقول** الخوف يحصل بطريقين مختلفين احدهما اعلى من الآخر ومثاله ان الصبي اذا كان في بيت فدخل عليه سبع او حية ربما كان لا يخاف وربما مد اليد الى الحية ليأخذها ويلعب بها ولكن اذا كان معه ابوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها

فاذا

فاذا نظر الصبي اليه وهو ترتعد فرائصه ويحتال في الهرب قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه في الهرب فخوف الاب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته واما خوف الابن فانما بمجرد التقليد لانه يحسن الظن بابيه ويعلم انه لا يخاف الا من سبب مخوف في نفسه فيعلم ان السبع مخوف ولا يدري وجهه فاذا عرفت هذا المثال فاعلم ان الخوف من الله على مقامين احدهما الخوف من عذابه والثاني الخوف منه فاما الخوف منه فهو خوف العلماء وارباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى ويحذركم الله نفسه وقوله عز وجل واتقوا الله حق تقاته **فاما الاول** فهو خوف عموم الخلق وهو حاصل باصل الايمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وبسبب ضعف الايمان وانما تزول الغفلة بالوعظ والتذكير وملازمة الفكر في اهوال القيامة واصناف العذاب في الآخرة ويزيد ايضا بالنظر الى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة احوالهم فان فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير **واما الثاني** وهو الاعلى ان يكون الله هو المخوف اعني ان يخاف البعد والحجاب عنه ويرجو القرب منه قال ذو النون المصري خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي **وهذه** خشية العلماء حيث قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء ولعموم المؤمنين ايضا حظ من هذه الخشية ولكن هو بمجرد التقليد يضاهي خوف الصبي من الحية تقليدا لابيه وذلك لا يستند الى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب حتى ان الصبي ربما يرى المعزم يتقدم على اخذ الحية فينظر اليه ويغتر به فيتجرأ على اخذها تقليدا له كما اجترأ على احترازها تقليدا لابيه والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب الا اذا قويت بمشاهدة اسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار فاذا من ترقى الى ذروة المعرفة وعرف الله خافه بالضرورة فلا يحتاج الى علاج لجلب الخوف كما ان من عرف السبع ورأى نفسه واقعا في مخاليبه لا يحتاج الى علاج لجلب الخوف الى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء ام ابى ولذلك اوحى الله الى داود عليه السلام خفني كما تخاف السبع الضاري ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري الا معرفة السبع ومعرفة الوقوع في مخاليبه فلا تحتاج الى حيلة سواه فمن عرف الله عز وجل عرف انه يفعل ما يشاء ولا يبالي ويحكم ما يريد ولا يخاف قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة وابعد ابليس من غير جريمة سابقة بل صفته ما ترجمه قوله تعالى هؤلاء في الجنة ولا ابالي وهؤلاء في النار ولا ابالي وان خطر بقلبك انه لا يعاقب الا على معصية ولا يثيب الا على طاعة فتأمل انه لم يهمل المطيع باسباب الطاعة حتى يطيع شاء ام ابى ولم يهمل العاصي بدواعي المعصية حتى يعصي شاء ام ابى واذ هما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بالضرورة فان كان ابعده لانه عصاه فلم حمله على المعصية وهل ذلك لمعصية سابقة حتى تتسلسل الى غير نهاية او تقف لا محالة على اول لا علة له من جهة العبد بل قضي عليه في الازل وعن هذا المعنى عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال حج آدم موسى عليهما السلام عند ربهما فحج آدم موسى قال موسى انت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته واسكنك في جنته ثم اهبطت الناس بخطيئتك الى الارض فقال آدم عليه السلام انت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه واعطاك الالواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا فبكم وجدت الله تعالى كتب التوراة قبل ان اخلق قال موسى باربعين عاما قال آدم عليه السلام فهل وجدت

فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال افتلومني على ان عملت عملا كتبه الله عز وجل علي ان اعمله قبل ان يخلقني باربعين سنة فقال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى فحج آدم موسى فمن عرف السبب في هذا الامر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر **ومن سمع** هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف فان كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخاليب السبع والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق ولذلك الاتفاق اسباب مرتبة بقدر معلوم ولكن اذا اضيف الى من لا يعرفه سمي اتفاقا فاذا اضيف الى علم الله عز وجل لم **يجز** ان يسمى اتفاقا والواقع في مخاليب السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع لان السبع مسخر ان سلط عليه الجوع افترس وان سلط الغفلة خلى وترك وانما يخاف خالق السبع وخالق صفاته ولسنا نقول مثال الخوف من الله الخوف من السبع بل اذا كشف الغطاء علم ان الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى لان المهلك بواسطة السبع هو الله فاعلم ان سباع الآخرة مثل سباع الدنيا وان الله عز وجل خلق اسباب العذاب واسباب النعيم وخلق لكل واحد اهلا يسوقه القدر المتفرع على القضاء الجزم الازلي الى ما خلق له فخلق الجنة وخلق لها اهلا وسخرهم للاسباب شاؤوا ام ابوا وخلق النار وخلق لها اهلا وسخرهم للاسباب شاؤوا ام ابوا فلا يرى احد نفسه في ملتطم امواج القدر الا غلبه الخوف بالضرورة **فهذه** مخاوف العارفين بسر القدر فمن قعد به القصور عن الارتقاء الى يفاع الاستبصار فسبيله ان يعالج نفسه بسماع الاخبار والآثار ويطالع احوال الخائفين واقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم الى مناصب الراجين المغرورين فلا يتمارى في ان الاقتداء بهم اولى لانهم الاولياء والانبياء والعلماء واما الآمنون فهم الفراعنة الجهال الاغبياء اما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الاولين والآخرين وكان اشد الناس خوفا حتى روي انه كان يصلي على طفل وفي رواية انه سمع في دعائه يقول اللهم قه عذاب النار وعذاب القبر وفي رواية ثانية انه سمع قائلا يقول هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال ما يدريك انه كذلك والله اني رسول الله ما ادري ما يصنع بي ان الله تعالى خلق الجنة وخلق لها اهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم وروي انه قال صلى الله عليه وسلم ذلك على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الاولين ولما قالت ام سلمة هنيئا لك الجنة وكانت تقول ام سلمة بعد ذلك والله لا ازكي احدا بعد عثمان وقال محمد بن الحنفية والله لا ازكي احدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ابي الذي ولدني قال فثارت الشيعة عليه فاخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه وروي في حديث آخر ان رجلا من اهل الصفة استشهد فقالت امه هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله عز وجل فقال صلى الله عليه وسلم وما يدريك لعل ابنك كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره وفي خبر آخر دخل على بعض اصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المتألية على الله عز وجل فقال المريض هي امي يا رسول الله فقال وما يدريك لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول شيبتني سورة هود واخواتها وسورة الواقعة واذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما في سورة هود من الابعاد كقوله تعالى الا بعدا لعاد قوم هود الا بعدا لثمود الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود مع علمه صلى الله عليه وسلم فانه لو شاء الله ما اشركوا ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها وفي سورة الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة اي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت

الواقعة

الواقعة اما خافضة فقوما كانوا مرتفعين في الدنيا واما رافعة فقوما كانوا منخفضين في الدنيا وفي سورة التكوير من اهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله عز وجل واذا الجحيم سعرت واذا الجنة ازلفت علمت نفس ما احضرت وفي عم يتساءلون يوم ينظر المرء ما قدمت يداه وقوله تعالى لا يتكلمون الا من اذن له الرحمن وقال صوابا **والقرآن** من اوله الى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه الا قوله تعالى واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى لكان كافيا **اذ علق المغفرة** على اربعة شروط يعجز العبد عن آحادها واشد منه قوله تعالى فاما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى اولئك ان يكونوا من المفلحين وكقوله تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم وكقوله سنفرغ لكم ايها الثقلان وكقوله تعالى افأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون وقوله تعالى وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليم شديد وقوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا وقوله تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا وقوله تعالى اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير وقوله تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب وقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وكذلك قوله تعالى والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر **فهذه** اربعة شروط للخلاص من الخسران وانما كان خوف الانبياء عليهم السلام مع ما فاض عليهم من النعم لانهم لم يأمنوا مكر الله عز وجل ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون حتى روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام بكيا خوفا من الله فاوحى الله اليهما لم تبكيان وقد امنتكما فقالا ومن يأمن مكرك وكانهما اذ علما ان الله هو علام الغيوب وانهما لا وقوف لهما على غاية الامور لم يأمنا ان يكون قوله تعالى قد امنتكما ابتلاء لهما وامتحانا ومكرا بهما حتى ان سكن خوفهما ظهر انهما قد امنا من المكر وما وفيا بقولهما كما ان ابراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق قال حسبي الله وكانت هذه من الدعاوي العظام فامتحن وعورض بجبريل عليه السلام في الهواء حتى قال الك حاجة فقال اما اليك فلا فكان ذلك وفاء بمقتضى حسبي الله وبمثل هذا اخبر عن موسى عليه السلام حيث قالا اننا نخاف ان يفرط علينا او ان يطغى فقال لا تخافا انني معكما اسمع وارى ومع هذا لما القى السحرة سحرهم اوجس في نفسه خيفة اذ لم يأمن مكر الله عز وجل والتبس الامر عليه حتى جدد عليه الامن وقيل لا تخف انك انت الاعلى ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم اللهم ان تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الارض احد يعبدك فقال ابو بكر دع مناشدتك ربك فانه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق مقام الثقة بوعد الله عز وجل وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو اتم لانه لا يصدر الا عن كمال المعرفة باسرار الله تعالى وخفايا افعاله ومعاني صفاته التي لم يعبر عن بعضها ما صدر عنها بالمكر ولا احد من البشر الوقوف على كنه صفات الله عز وجل ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الاحاطة بكنه الامور عظم خوفه لا محالة ولذلك قال عيسى عليه السلام لما قيل له أأنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله قال ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك ثم قال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم فوض الامر كله الى الله عز وجل واخرج نفسه بالكلية لعلمه بانه ليس اليه من الامر شيء وان الامور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس

وحوبي وحنا فضلا عن التصفق والاشتياق وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين اذ الطامة الكبرى هي ربنا طاقة امرائه
بمشيئة من لا يبالي بهم ان يهلكهم فقد اهلك من لا يحصى من امثالك ولم يزل في الدنيا يعذبهم بانواع الالام والامراض
ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ثم يخلد العقاب عليهم ابد الاباد ثم يخبر عنه بقوله تعالى ولو شئنا لآتينا
كل نفس هداها ولكن حق القول مني لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين وقال تعالى وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم الاية فكيف لا تخاف
ما حق القول في الازل فلا مطمع في تداركه ولو كان الامر انفا لكانت الاطماع تمتد الى حيلة فيه ولكن ليس الا التسليم واستقراء اخفى
السابقة من خلال الاسباب الظاهرة على القلب والجوارح فمن تيسرت له اسباب الشر وحيل بينه وبين اسباب الخير واحكمت علاقته مع الدنيا
فكانه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة اذ كل ميسر لما خلق له وان كانت الخيرات كلها متيسرة والقلب
بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله عز وجل مقبلا كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا
به ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيدان نيران الخوف اشتعالا ولا يخليانها ان تطفأ وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين اصبعين
من اصابع الرحمن وان القلب اشد تقلبا من القدر في غليانها وقد قال الله تعالى مقلب القلوب ان عذاب ربهم غير مأمون فاجهل الناس من امنه
وهو ينادي بالتحذير من الامن ولولا ان الله لطف بعباده العارفين اذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار
الخوف فاسباب الرجاء رحمة لخواص الله واسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه اذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب
من خوف مقلب القلوب قال بعض العارفين لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة فمات لم اقطع له
بالتوحيد لاني لا ادري ما ظهر له من التقليب وقال بعضهم لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الاسلام عند باب الحجرة لاخترت
الموت على الاسلام لاني لا ادري ما يعرض لقلبي من باب الحجرة الى باب الدار وكان ابو الدرداء يحلف بالله ما امن احد على ايمانه ان يسلبه عند الموت
الا سلبه وكان سهل يقول خوف الصديقين من الخاتمة عند كل خطرة وكل حركة وهم الذين وصفهم الله تعالى اذ قال وقلوبهم وجلة
ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع فقيل له يا ابا عبد الله عليك بالرجاء فان عفو الله اعظم من ذنوبك فقال اوعلى ذنوبي ابكي لو
علمت اني اموت على التوحيد لم ابال بان القى الله بامثال الجبال من الخطايا **وحكي** ان بعض الخائفين اوصى بعض اخوانه فقال
اذا حضرتني الوفاة فاقعد عند راسي فان رايتني مت على التوحيد فخذ جميع ما املكه واشتر به لوزا وسكرا وانثره على صبيان اهل
البلد وقل هذا عرس المنفلت وان مت على غير التوحيد فاعلم الناس بذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتي ليحضر جنازتي من احب
على بصيرة لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة قال وبم اعلم ذلك فذكر له علامة فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر
واللوز وفرقه وكان سهل يقول المريد يخاف ان يبتلى بالمعاصي والعارف يخاف ان يبتلى بالكفر وكان ابو يزيد يقول اذا توجهت
الى المسجد كان في وسطي زنارا اخاف ان يذهب بي الى البيعة وبيت النار حتى ادخل المسجد فينقطع عني الزنار فهذا لي كل يوم خمس مرات
وروي عن عيسى عليه السلام انه قال يا معشر الحواريين انتم تخافون المعاصي ونحن معاشر الانبياء نخاف الكفر وروي في اخبار الانبياء ان نبيا
شكا الى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين سنة وكان لباسه الصوف فاوحى الله اليه عبدي اما رضيت ان عصمت قلبك ان يكفر
حتى تسألني الدنيا فاخذ التراب فوضعه على راسه وقال بلى يا رب رضيت فاعصمني من الكفر فاذن اذا كان خوف العارفين مع رسوخ
اقدامهم وقوة ايمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا تخافه الضعفاء ولسوء الخاتمة اسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر
وجملة

وجملة من الصفات المذمومة ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن رحمه الله لو اعلم اني بريء من النفاق كان احب الي مما
طلعت عليه الشمس وما عنوا به النفاق الذي هو ضد اصل الايمان بل المراد به ما يجتمع مع اصل الايمان فيكون مسلما منافقا وله علامات كثيرة
قال صلى الله عليه وسلم اربع من كن فيه فهو منافق خالص وان صام وصلى وزعم انه مسلم وان كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى
يدعها من اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا ائتمن خان واذا خاصم فجر وفي لفظ آخر اذا عاهد غدر وقد فسر الصحابة والتابعون
النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منها الا صديق اذ قال الحسن ان من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب والمدخل والمخرج
ومن الذي يخلو عن هذه المعاني بل صارت هذه الامور على قرب عهد من زمان النبوة فكيف الظن بزماننا حتى قال حذيفة ان كان الرجل
ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا واني لاسمعها من احدكم في اليوم عشر مرات وكان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقولون انكم لتعملون اعمالا هي ادق في اعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر وقال بعضهم علامة النفاق
ان تكره من الناس ما تأتي مثله وان تحب على شيء من الجور وان تبغض على شيء من الحق وقيل من النفاق اذا مدح بشيء
ليس فيه اعجبه ذلك وقال رجل لابن عمر انا ندخل على هؤلاء الامراء فنصدقهم بما يقولون فاذا خرجنا تكلمنا فيهم فقال كنا
نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروي انه سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال ارايت لو كان الحجاج حاضرا اكنت
تتكلم بما تكلمت قال لا قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واشد من ذلك ما روي ان نفرا قعدوا على باب
حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه فلما خرج اليهم سكتوا حياء منه فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا فقال كنا
نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم **وهذا** حذيفة كان قد علم المنافقين واسباب النفاق وكان يقول انه يأتي على القلب
ساعة يمتلئ بالايمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز ابرة فقد عرفت بهذا ان خوف العارفين من سوء الخاتمة وان سببه امور
متقدمة منها البدع ومنها المعاصي ومنها النفاق ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك وان ظن انه خلي عنه فهو النفاق اذ قيل
من امن النفاق فهو منافق وقال بعضهم لبعض العارفين اني اخاف على نفسي النفاق فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق
ولا يزال العارف بين الالتفات الى السابقة والخاتمة خائفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم العبد المؤمن بين مخافتين بين اجل
قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين اجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب
ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة او النار **بيان معنى سوء الخاتمة** **فان قلت** ان اكثر هذا الخوف يرجع الى سوء الخاتمة فما معنى
سوء الخاتمة فاعلم ان سوء الخاتمة على رتبتين احداهما اعظم من الاخرى فاما الرتبة العظيمة الهائلة فان يغلب على القلب عند سكرات
الموت وظهور اهواله اما الشك واما الجحود فتقبض الروح في حال غلبة الجحود او الشك فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود
حجابا بينه وبين الله ابدا وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد والثانية وهي دونها ان يغلب على قلبه عند الموت
حب امر من امور الدنيا وشهوة من شهواتها فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره فيتفق
قبض روحه في تلك الحالة فيكون استغراق قلبه به منكسا راسه الى الدنيا وصارفا وجهه اليها ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى
حصل الحجاب ومهما حصل الحجاب نزل العذاب اذ نار الله الموقدة لا تأخذ الا المحجوبين عنه فاما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا المصروف
همه الى الله تعالى فتقول له النار جز يا مؤمن فان نورك قد اطفأ لهبي فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا فالامر مخطر

لان المرء يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة اخرى للقلب عند الموت تضاد الصفة الغالبة عليه اذ لا تصرف في القلوب الا باعمال
الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الاعمال فلا مطمع في عمل ولا مطمع في الرجوع الى الدنيا ليتداركه وعند ذلك يعظم التحسر
الا ان اصل الايمان وحب الله تعالى اذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالاعمال الصالحة فانه يمحو عن القلب هذه الحالة
التي عرضت له عند الموت فان كان ايمانه في القوة مثقال ذرة اخرجه من النار في زمان اقرب وان كان اقل من ذلك طال مكثه في النار ولكن
ولو لم يكن الا مثقال حبة فلا بد ان يخرجه من النار ولو بعد الف سنة **فان قلت** فما ذكرته يقتضي ان تسرع النار اليه عقيب موته فما باله
يؤخر الى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدة فاعلم ان من انكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الايمان ونور القرآن بل الصحيح عند ذوي
الابصار ما صحت به الاخبار وهو ان القبر اما حفرة من حفر النيران او روضة من رياض الجنة وانه قد يفتح الى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم
كما وردت به الاخبار فلا تفارقه روحه الا وقد نزل به البلاء ان كان قد شقي بسوء الخاتمة وانما تختلف اصناف العذاب باختلاف الاوقات فيكون
سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر والتعذيب بعده ثم المناقشة في الحساب والافتضاح على ملأ الاشهاد في القيامة ثم بعد ذلك
خطر الصراط وهول الزبانية الى اخر ما وردت به الاخبار ولا يزال الشقي مترددا في جميع احواله بين اصناف العذاب وهو في جملة الاحوال معذب
الا ان يتغمده الله برحمته ولا تظنن ان محل الايمان ياكله التراب بل التراب ياكل جميع الجوارح ويبددها الى ان يبلغ الكتاب اجله فيجتمع الاجزاء المتفرقة وتعاد
الروح اليها التي هي محل الايمان وقد كانت من وقت الموت الى الاعادة اما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش ان كان مسعودا
واما في حالة تضاد هذه الحالة ان كانت والعياذ بالله شقية **فان قلت** فما السبب الذي يفضي الى سوء الخاتمة فاعلم ان اسباب
هذه الامور لا يمكن احصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الاشارة الى مجامعها اما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين احدهما يتصور
مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الاعمال كالمبتدع الزاهد فان عاقبته مخطرة جدا وان كانت اعماله صالحة
ولست اعني مذهبا واقول انه بدعة فان بيان ذلك يطول القول فيه بل اعني بالبدعة ان يعتقد الرجل في ذات الله تعالى
وصفاته وافعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ما هو عليه اما برأيه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصوم وعليه
يعول وبه يغتر واما اخذا بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب
بما فيه فربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا اذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادي
سكراته منه وقد ينكشف به بعض الامور فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه
لم يظن بنفسه انه اخطأ في الاعتقاد خاصة لاستناده فيه الى رأيه الفاسد وعقله الناقص بل ظن ان كل ما اعتقده
لا اصل له اذ لم يكن عنده فرق بين ايمانه بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده
الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته او لشكه فيها فان اتفق زهوق
روحه في هذه الخطرة قبل ان يتثبت ويعود الى اصل الايمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك
والعياذ بالله منه **فهؤلاء** هم المرادون بقوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبقوله قل هل
ننبئكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا الاية وكما انه قد ينكشف في النوم ما سيكون في
المستقبل وذلك بسبب خفة اشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الامور اذ شواغل
الدنيا

الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من ان ينظر الى الملكوت فيطالع ما في اللوح المحفوظ لينكشف له الامور على
ما هي عليه فيكون مثل هذه الحالة سببا للكشف ويكون الكشف سببا للشك في بقية الاعتقادات وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته
على خلاف ما هو به اما تقليدا واما نظرا بالرأي والمعقول فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجي
منه الا الاعتقاد الحق والبله بمعزل عن هذا الخطر اعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الاخر ايمانا مجملا راسخا كالاعراب
والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالا ولا اصغوا الى اصناف المتكلمين في
تقليد اقاويلهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اكثر اهل الجنة البله ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام
والتفتيش عن هذه الامور وامروا الخلق ان يقتصروا على ان يؤمنوا بما انزل الله جميعا وبكل ما جاء به الظواهر مع اعتقاد
نفي التشبيه ومنعوهم عن الخوض في التأويل لان الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباتها كؤودة ومسالكها وعرة والعقول
عن درك جلال الله قاصرة وهداية الله بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون
ببضاعة عقولهم مضطربة ومتعارضة والقلوب لما القي اليها في مبدأ النشوء آلفة به ومتعلقة والتعصبات الثائرة
بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة او الماخوذة بحسن الظن من المعلمين في اول الامر ثم الطباع بحب الدنيا
مشغوفة وعليها مقبلة وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة فاذا فتح باب الكلام في الله تعالى وصفاته
بالرأي والمعقول مع تفاوت الناس في قرائحهم واختلافهم في طباعهم وحرص كل جاهل منهم على ان يدعي كمال العلم
بكنه الحق انطلقت السنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين اليهم وتأكد ذلك بطول الالف فيهم
وانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم وكانت سلامة الخلق في ان يشتغلوا بالاعمال الصالحة ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد
طاقتهم ولكن الان فقد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد ان ذلك
علم واستيقان وانه صفو الايمان ويظن ان ما وقع له من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين وسيعلمون نبأه بعد
حين وينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء احسنت ظنك بالايام اذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر **واعلم** يقينا ان كل من فارق الايمان السلمي
بالله ورسله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الامواج
يرمي به موج الى موج فربما يتفق ان يلقيه الى الساحل وذلك بعيد والهلاك اغلب عليه وكل نازل على عقيدة تلقفها
من الباحثين ببضاعة عقولهم اما مع الادلة التي حرروها في تعصباتهم او دون الادلة ان كان شاكا فيه فهو في هذا الخطر
وان كان واثقا به فهو امن من مكر الله مغتر بعقله الناقص وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين الا اذا
جاوز حدود المعقول الى نور المكاشفة الذي يشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الاحمر واين يتيسر
وانما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام او الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله عز وجل فلم يخوضوا في هذه الفضول
فهذا احد الاسباب المخطرة في سوء الخاتمة **واما** السبب الثاني فهو ضعف الايمان في الاصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب
ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله وقوي حب الدنيا فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله الا من حيث حديث

تنشو لا يظهر له اثر في مخالفة النفس والهوى وعن طريق الشيطان فيورث ذلك الاهمال في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب وتقسو
ويسود وتتراكم ظلمة الذنوب على القلب ولا يزال يطفئ ما فيه من نور الايمان على ضعفه حتى يصير طبعا ورينا فاذا جاءت سكرات الموت
ازداد ذلك الحب اعني حب الله ضعفا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعار
فراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث انه من الله فيخشى ان يثور في باطنه بغض الله
بدل الحب كما ان الذي يحب ولده حبا ضعيفا اذا اخذ ولده امواله التي هي احب اليه من ولده واحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا
فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا والسبب الذي
يفضي الى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون اليها والفرح باسبابها مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله تعالى فمن وجد
في قلبه حب الله اغلب من حب الدنيا وان كان يحب الدنيا ايضا فهو ابعد عن هذا الخطر وحب الدنيا راس كل خطيئة وهو الداء العضال
وقد عم اصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله اذ لا يحبه الا من عرفه ولهذا قال الله عز وجل قل ان كان اباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم
وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها الاية فاذن من فارقته روحه في حالة خطرة الانكار على الله تعالى بباله وظهور
بغض فعل الله تعالى بقلبه في تفرقته بينه وبين اهله وماله ومحابه فيكون موته قدوما على ما ابغضه وفراقا لما احبه فيقدم على الله قدوم
العبد المبغض الابق اذا قدم على مولاه قهرا فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال واما الذي يتوفى على الحب فانه يقدم على الله قدوم
العبد المحسن المشتاق الى مولاه الذي يحمل مشاق الاعمال ووعثاء الاسفار طمعا في لقائه فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور
بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الاكرام وبدائع الانعام واما الخاتمة الثانية التي هي دون الاولى وليست مقتضية للخلود
في النار فلها ايضا سببان احدهما كثرة المعاصي وان قوي الايمان والاخر ضعف الايمان وان قلت المعاصي وذلك لان مقارفة
المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الالف والعادة وجميع ما الفه الانسان في عمره يعود ذكره الى قلبه عند
موته فان كان ميله الاكثر الى الطاعات كان اكثر ما يحضره ذكر طاعة الله تعالى وان كان ميله الاكثر الى المعاصي غلب ذكرها على قلبه
عند الموت فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله
عز وجل فالذي لا يقارف الذنب الا الفينة بعد الفينة فهو ابعد من هذا الخطر والذي لا يقارف ذنبا اصلا فهو بعيد
جدا عن هذا الخطر والذي غلبت عليه المعاصي وكانت اكثر من طاعاته وقلبه بها افرح منه بالطاعات فهذا الخطر العظيم
في حقه جدا ونعرف هذا بمثال وهو انه لا يخفى عليك ان الانسان يرى في منامه جملة من الاحوال التي عهدها طول
عمره حتى انه لا يرى الا ما يماثل مشاهداته في اليقظة وحتى ان المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع اذا لم يكن
قد واقع في اليقظة ولو بقي كذلك مدة لما راى عند الاحتلام صورة الوقاع ثم لا يخفى ان الذي قضى عمره
في الفقه يرى من الاحوال المتعلقة بالعلم والعلماء اكثر مما يراه الطبيب والتاجر لانه انما يظهر في حال النوم ما حصل
له مناسبة مع القلب بطول الالف او بسبب اخر والموت شبه النوم ولكنه فوقه ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية
قريب من النوم فيقتضي ذلك تذكر المالوف وعوده الى القلب واحد الاسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الالف
فطول الالف بالمعاصي والطاعات ايضا مرجح ولذلك تخالف منامات الصالحين منامات الفساق فيكون غلبة الالف سببا لان تتمثل
صورة فاحشة في قلبه وتميل اليها نفسه فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سوء خاتمته وان كان اصل الايمان
باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها وكما ان ما يخطر في اليقظة انما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى فكذلك احاد المنامات
ولها

ولها اسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها كما انا نعلم ان الخاطر ينتقل من الشيء الى ما يناسبه اما بالمشابهة واما بالمضادة
واما بالمقارنة بان يكون قد ورد على الحس معا اما المشابهة فبان ينظر الى جميل فيتذكر قبيحا ويتامل في عدوه السقاوة بينهما
واما بالمقارنة فبان ينظر الى فرس قد راه قبل مع انسان فيتذكر به ذلك الانسان فقد ينتقل الخاطر من شيء الى شيء ولا يدري وجه
مناسبته وانما يكون ذلك بواسطة وواسطتين مثل ان ينتقل من شيء الى ثان ومنه الى ثالث ثم ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث
والاول مناسبة فكذلك لانتقالات الخواطر في المنامات اسباب من هذا الجنس وكذا عند سكرات الموت فمن اراد ان يكف خاطره عن
الانتقال الى المعاصي والشهوات فلا طريق له الا المجاهدة طول العمر في فطام نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب فهذا هو القدر الذي
يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخلية الفكر عن الشر عدة وذخيرة وافرة لحالة سكرات الموت فانه يموت المرء على
ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه ولذلك نقل عن بقال انه كان يلقن عند الموت كلمتي الشهادة وهو يقول خمسة ستة اربعة وكان
مشغول النفس بالحساب الذي طال الفه له قبل الموت ولقد قال بعض العارفين من السلف ان العرش جوهرة تتلالا نورا فلا
يكون العبد على حالة الا انطبع مثالها في العرش على الصورة التي كان فاذا كان في سكرات الموت كشف له صورته
من العرش فربما يرى نفسه على صورة معصية وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى احوال نفسه فياخذه من الحياء والخوف ما يجل عن الوصف وما ذكره
صحيح وسبب الرؤيا الصالحة قريب من ذلك فان النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهو جزء من
اجزاء النبوة فاذن رجع سوء الخاتمة الى احوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله عز وجل والاتفاقات المقتضية
لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولا كليا وان كان لطول الالف فيه تاثير فلهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة
لانه لو اراد الانسان ان لا يرى في المنام الا احوال الصالحين واحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وان كانت كثرة الصلاح
والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط وان كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما
غلب عليه في اليقظة حتى سمعت الشيخ ابا علي الفارمذي يصف لي وجوب حسن ادب المريد لشيخه وان لا يكون في قلبه انكار لكل ما يقول
ولا في لسانه مجادلة عليه فقال حكيت لشيخي ابي القاسم الكركاني مناما لي وقلت له رايتك قلت لي كذا فقلت لم ذلك قال فهجرني
شهرا ولم يكلمني وقال لولا انه كان في باطنك تجويز المطالبة وانكار ما اقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في المنام وهو كما
قال اذ قلما يرى الانسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الذي نسمح في علم المعاملة بذكره من اسرار الخاتمة وما وراء
ذلك فهو داخل في علم المكاشفة وقد ظهر لك بهذا ان الامن من سوء الخاتمة بان ترى الاشياء كما هي عليه من غير جهل وتقضي
العمر في طاعة الله من غير معصية فان كنت تعلم ان ذلك محال او عسير فلا بد ان يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين
حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم حزنك وقلقك كما سنحكيه من احوال الانبياء والاولياء والسلف الصالحين
ليكون ذلك احد الاسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك فقد عرفت بهذا ان اعمال العمر كلها ضايعة ان لم يسلم في النفس الاخير
الذي عليه خروج الروح وان سلامته مع اضطراب امواج الخواطر مشكل جدا ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول اني لا اعجب
ممن هلك كيف هلك ولكني اعجب ممن نجا كيف نجا ولذلك قال حامد اللفاف اذا صعدت الملائكة بروح المؤمن وقد مات
على الخير والاسلام تعجبت الملائكة وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا وكان الثوري رحمه الله يوما يبكي فقيل له علام تبكي

بكينا على الذنوب زمانا فالان نبكي على الاسلام وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الامواج
كانت النجاة في حقه ابعد من الهلاك وقلب المؤمن اشد اضطرابا من السفينة وامواج الخواطر اعظم التطاما من امواج البحر وانما المخوف
عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا
فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب ولا يتسع فواق الناقة لاعمال توجب الشقاوة بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق
الخاطف وقال سهل رحمه الله رايت كاني ادخلت الجنة فرايت ثلثمائة نبي فسالتهم ما اخوف ما كنتم تخافون في الدنيا فقالوا سوء
الخاتمة ولاجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها وكان موت الفجأة مكروها اما الموت فجأة فلانه ربما يتفق عند
غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن امثاله الا ان يدفع بالكراهة او بنور المعرفة واما الشهادة فلانها
عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله وخرج حب الدنيا والاهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب
اذ لا يهجم على صف القتال موطنا نفسه على الموت الا حبا لله وطلبا لمرضاته وبائعا دنياه باخرته وراضيا بالبيع الذي بايعه الله به اذ قال ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة
والبائع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه من القلب ومجرد حب العوض المطلوب في قلبه ومثل هذه الحالة قد تغلب على القلب
في بعض الاحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح على مثل هذه الحالة هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة
فان من هذا حاله فانه وان قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الاخبار واذا بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو
مخوف منه فيها فاشتغل بالاستعداد لها وواظب على ذكر الله واخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن المعاصي جوارحك
وعن الفكر فيها قلبك واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة اهلها جهدك فان ذلك ايضا يؤثر في قلبك
ويصرف اليه فكرك وخواطرك واياك ان تسوف وتقول ساستعد لها اذا جاءت الخاتمة فان كل نفس من انفاسك خاتمتك
اذ يمكن ان تختطف روحك فيه فراقب قلبك في كل نظرة واياك ان تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك
اذ يمكن ان تختطف فيها روحك هذا ما دمت في يقظتك واما اذا نمت فاياك ان تنام الا على طهارة الظاهر
والباطن وان يغلبك النوم الا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست اقول على لسانك فان حركة اللسان بمجردها ضعيفة
الاثر واعلم قطعا انه لا يغلب عند النوم على قلبك الا ما كان قبل النوم غالبا عليه وانه لا يغلب في النوم الا ما كان
غالبا قبل النوم ولا يبعث من نومك الا ما غلب على قلبك في نومك والموت والبعث شبه النوم واليقظة فكما
لا ينام العبد الا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ الا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت المرء الا على ما عاش عليه ولا
يحشر الا على ما مات عليه وتحقق قطعا ويقينا ان الموت والبعث حالتان من احوالك كما ان النوم واليقظة حالتان من احوالك
وامن بهذا تصديقا واعتقادا بالقلب ان لم تكن من اهل المشاهدة لذلك بعين اليقين ونور البصيرة وراقب انفاسك
ولحظاتك واياك ان تغفل عن الله طرفة عين فانك اذا فعلت ذلك كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف اذا
لم تفعل فالناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون
والمخلصون على خطر عظيم واعلم ان ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وهي مطعم وملبس
ومسكن والباقي كله فضول والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك فينبغي ان يكون تناولك
تناول

تناول مضطر كاره له ولا تكون رغبتك فيه اكثر من رغبتك في قضاء حاجتك اذ لا فرق بين ادخال الطعام الى البطن
وبين اخراجه فهما ضرورتان في الجبلة وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي ان يكون تناول
الطعام من همتك واعلم انه ان كانت همتك ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك واذا لم يكن قصدك
من الطعام الا التقوي على عبادة الله كقصدك من قضاء حاجتك فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة امور من ماكولك في وقته
وقدره وجنسه اما الوقت فاقله ان يكتفي في اليوم والليلة بمرة واحدة فتواظب على الصوم واما قدره فبان
لا يزيد على ثلث البطن واما جنسه فبان لا يطلب اللذائذ من الاطعمة بل يقنع بما يتفق فان قدرت على الاشتغال بهذه الثلاث
وسقط عنك مؤنة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وامكنك ان لا تاكل الا من حله فان الحلال يعز
ولا يفي بجميع الشهوات واما ملبسك فيكون غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن راسك
ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول وتضييع لزمانك ويلزمك به الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب
مرة وبالطمع اخرى من الحرام والشبهة وقس بهذا ما تدفع به البرد والحر عن بدنك فكل ما يحصل مقصود اللباس
ان لم تكتف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف تقف عنده بل كنت ممن لا يملأ بطنه الا التراب وكذلك المسكن
اذا اكتفيت بمقصوده كفاك السماء سقفا والارض مستقرا فان غلبك حر او برد فعليك بالمساجد فان طلبت مسكنا
خاصا طال عليك وانصرف اليه اكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثم ان تيسر لك فقصدك من الحائط سوى كونه حائلا
بينك وبين الابصار ومن السقف سوى كونه دافعا للامطار فاخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت في مهواه
يبعد ترقيك منها وهكذا جميع ضروراتك امورك ان اقتصرت عليها تفرغت لله على التزود لاخرتك والاستعداد لخاتمتك وان
جاوزت حد الضرورة الى اودية الاماني تشعبت همومك ولم يبال الله عز وجل في اي واد اهلكك فاقبل هذه النصيحة ممن هو احوج
الى النصيحة منك واعلم ان متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير فاذا دفعته يوما بيوم في تسويفك واغفالك وغفلتك
اختطفت بغتة في غير وقت ارادتك ولم يفارقك حسرتك وندامتك فان كنت لا تقدر على ملازمة ما ارشدناك اليه لضعف خوفك
اذ لم نكن فيما وصفناه من امر الخاتمة كفاية في تخويفك فانا سنورد عليك من احوال الخائفين ما نرجو ان يزيل بعض القساوة من قلبك
فانك تتحقق ان عقل الانبياء والاولياء والعلماء وعلمهم ومكانهم عند الله لم يكن دون عقلك وعلمك ومكانتك فتامل مع كلالة بصيرتك
وعمش عين قلبك في احوالهم لما اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا
عليه وبعضهم يخر ميتا ولا غرو ان كان ذلك لا يؤثر في قلبك فان قلوب الغافلين مثل الحجارة او اشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار
وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون

بيان احوال الانبياء والملائكة في الخوف

روت عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا تغير الهواء
وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه ويقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله وقرا رسول الله صلى الله عليه وسلم
اية في سورة الحاقة فصعق وقال الله تعالى وخر موسى صعقا وراى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل عليه السلام بالابطح فصعق وروي انه صلى الله
عليه وسلم كان اذا دخل في الصلاة يسمع لصدره ازيز كازيز المرجل وقال صلى الله عليه وسلم ما جاءني جبريل قط الا وهو يرعد فرقا

من الحياء وقيل لما ظهر على ابليس ما ظهر طفق جبريل عليه السلام وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله اليهما ما لكما تبكيان كل هذا البكاء فقالا
يا رب لا نأمن من مكرك فقال الله هكذا فكونا لا تأمنا مكري وعن محمد بن المنكدر قال لما خلقت النار طارت افئدة الملائكة من اماكنها
فلما خلق بنو آدم عادت وعن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام ما لي لا ارى ميكائيل يضحك فقال جبريل عليه السلام ما ضحك
ميكائيل منذ خلقت النار مخافة ان يغضب الله عليهم فيعذبهم وقال ابن عمر خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل على بعض حيطان
الانصار فجعل يلتقط التمر ويأكل فقال يا ابن عمر ما لك لا تأكل فقلت يا رسول الله لا اشتهيه فقال لكني
اشتهيه وهذا صبح رابعة منذ لم اذق طعاما ولم اجده ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني ملك كسرى وقيصر فكيف بك
يا ابن عمر اذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين فقال والله ما برحنا ولا قمنا حتى نزلت قوله تعالى وكأين من دابة
لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل لم يأمركم بكنز المال ولا باتباع
الشهوات من كنز دنانير يريد بها حياة فانية فان الحياة بيد الله الا واني لا اكنز دينارا ولا درهما ولا اخبئ رزقا لغد وقال
ابو الدرداء كان يسمع أزيز قلب ابراهيم صلى الله عليه وسلم اذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه عز وجل وقال مجاهد
بكى داود عليه السلام اربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه فنودي يا داود
أجائع انت فتطعم ام ظمآن فتسقى ام عار فتكسى فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حر خوفه ثم انزل الله عليه التوبة والمغفرة
فقال يا رب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيرهما الا
رآها فأبكته وكان يؤتى بالقدح ثلثاه ماء فاذا تناوله ابصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه
ويروى انه عليه السلام ما رفع رأسه الى السماء حتى مات حياء من الله وكان يقول في مناجاته الهي اذا ذكرت خطيئتي ضاقت
علي الارض برحبها واذا ذكرت رحمتك ارتدت الي روحي سبحانك الهي اتيت اطباء عبادك ليداووا خطيئتي
فكلهم عليك يدلني فبؤسا للقانطين من رحمتك وقال الفضيل بلغني ان داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات
يوم فوثب صارخا واضعا يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت اليه السباع فقال ارجعوا لا اريدكم انما اريد
كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني الا بالبكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء وكان يعاتب في كثرة
البكاء فيقول دعوني ابكي قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام واشتعال الحشا وقبل ان تؤمر بي ملائكة
غلاظ شداد لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون وقيل لما اصاب داود صلى الله عليه وسلم الخطيئة
نخ صوته فقال الهي بح صوتي في صفاء اصوات الصديقين وروي انه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك
ضاق ذرعه وكثر غمه فنادى يا رب اما ترحم بكائي فأوحى الله اليه يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك
فقال الهي وسيدي كيف انسى ذنبي وكنت اذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح واظلني الطير
على رأسي وانست الوحوش الى محرابي الهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك فأوحى الله اليه يا داود ذاك
انس الطاعة وهذه وحشة المعصية يا داود آدم خلق من خلقي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي واسجدت له
ملائكتي والبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري وشكا الي الوحدة فزوجته حواء امتي واسكنته
جنتي عصاني فطردته عن جواري عريانا ذليلا يا داود اسمع مني والحق اقول اطعتنا فأطعناك وسألتنا
فأعطيناك

فأعطيناك وعصيتنا فأمهلناك وان عدت الينا على ما كان منك قبلناك وقال يحيى بن ابي كثير بلغنا ان داود عليه السلام
كان اذا اراد ان ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فاذا كان قبل ذلك بيوم اخرج
له المنبر الى البرية فيأمر سليمان عليه السلام ان ينادي بصوت يستقري البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع
والبيع فينادي فيها الا من اراد ان يسمع نوح داود على نفسه فليأت قال فتأتي الوحوش من البراري والآكام وتأتي السباع من الغياض وتأتي الهوام
والهوام من الجبال والطير من الاوكار وتأتي العذارى من خدورهن ويجتمع الناس لذلك اليوم ويأتي داود عليه السلام حتى يرقى المنبر
ويحيط به بنو اسرائيل وكل صنف على حدته وسليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والنحيب والصراخ
ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ثم يأخذ في اهوال يوم القيامة وفي
النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فاذا رأى سليمان عليه السلام كثرة الموتى قال يا ابتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق
وماتت طوائف من بني اسرائيل ومن الوحوش والهوام فبينما هو كذلك اذ ناداه بعض عباد بني اسرائيل يا داود
عجلت بطلب الجزاء على ربك فيخر داود مغشيا عليه فلما رأى سليمان عليه السلام ما اصابه اتى بسرير فحمله عليه ثم امر مناديا
ينادي الا من كان له مع داود حميم او قريب فليأت بسرير فليحمله فان الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت
المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول يا من قتله ذكر النار يا من قتله خوف الله ثم اذا افاق داود وضع يده على رأسه ودخل
بيت عبادته واغلق بابه ويقول يا اله داود أغضبان انت على داود فلا يزال يناجي ربه فيأتي سليمان عليه السلام ويقعد على الباب
ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول يا ابتاه تقو بهذا على ما تريد فيأكل من ذلك القرص ما شاء ثم يخرج
الى بني اسرائيل فيكون بينهم وقال يزيد الرقاشي خرج داود عليه السلام ذات يوم يعظ بني اسرائيل ويخوفهم فخرج في اربعين الفا
فمات منهم ثلاثون الفا ورجع في عشرة آلاف وكان لداود عليه السلام جاريتان اتخذهما حتى اذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا واحدة على رجليه
والاخرى على صدره مخافة ان تتفرق اعضاؤه ومفاصله فيموت وروى ابن عمر ان يحيى بن زكريا عليهما السلام دخل بيت المقدس وهو
ابن ثمان حجج فنظر الى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر الى مجتهديهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل
وشدوا انفسهم الى اطراف بيت المقدس فهاله ذلك فرجع الى ابويه فمر بصبيان يلعبون فقالوا يا يحيى هلم بنا نلعب فقال اني لم
اخلق للعب قال فأتى ابويه فسألهما ان يدرعاه الشعر ففعلا فرجع الى بيت المقدس فكان يخدمه نهارا ويصبح فيه ليلا حتى
اتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم اطواد الجبال وغيران الشعاب فخرج ابواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الاردن وقد
اوقع رجليه في الماء وقد كاد العطش يذبحه وهو يقول وعزتك وجلالك لا اذوق بارد الشراب حتى اعلم اين مكاني
منك فسأله ابواه ان يفطر على قرص من شعير كان معهما ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه فمدح بالبر فرده
ابواه الى بيت المقدس فكان اذا قام يصلي بكى حتى يبكي معه الشجر والمدر ويبكي زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغشى عليه فلم يزل يبكي حتى
احرقت دموعه لحم خديه وبدت اضراسه للناظرين فقالت له امه يا بني لو اذنت لي ان اتخذ لك شيئا يواري اضراسك عن
الناظرين فأذن لها فعمدت الى قطعتين من لبود فألصقتهما على خديه وكان اذا قام يصلي بكى فاذا استنقعت القطعتان من دموعه
اتت اليه امه فعصرتهما والصقتهما فاذا رأى دموعه تسيل على ذراعي امه قال اللهم هذه دموعي وهذه امي وانا عبدك وانت ارحم الراحمين

فقال له زكريا عليه السلام يوما يا بني انما سألت ربي ان يهبك لي لتقر عيني بك فقال يحيى عليه السلام يا ابت ان جبريل عليه السلام اخبرني ان
بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها الا كل بكاء فقال زكريا عليه السلام فابك يا بني وقيل كان الخليل عليه السلام اذا ذكر خطيئته يغشى عليه
ويسمع اضطراب قلبه ميلا في ميل فيأتيه جبريل عليه السلام فيقول له الجبار يقرئك السلام ويقول هل رأيت خليلا يخاف خليله
فيقول يا جبريل اني اذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي وقال عيسى عليه السلام معاشر الحواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر
على المشقة ويباعدان من الدنيا بحق اقول لكم ان اكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل وقيل كان الخليل عليه السلام يقول
مثل ذلك فهذه احوال الانبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فانهم اعرف خلق الله تعالى بالله عز وجل وصفاته

بيان احوال الصحابة والتابعين والسلف الصالحين في شدة الخوف

روي ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر ليتني
كنت مثلك يا طائر ولم اخلق بشرا وقال ابو ذر وددت لو اني شجرة تعضد وكذا قال طلحة وقال عثمان وددت اني اذا مت
لم ابعث لما ادري الآتي من الجنان وقالت عائشة رضي الله عنها وددت اني كنت نسيا منسيا وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطان اسودان
من الدموع وقال رضي الله عنه من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون ولما قرأ عمر رضي الله عنه
اذا الشمس كورت وانتهى الى قوله تعالى واذا الصحف نشرت خر مغشيا عليه ومر يوما بدار انسان يصلي ويقرأ سورة الطور فوقف يسمع
فلما بلغ قوله تعالى ان عذاب ربك لواقع نزل عن حماره واستند الى حائط ومكث زمانا ورجع الى منزله فمرض شهرا يعوده الناس
ولا يدرون ما مرضه وقال علي كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رأيت اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
فلم ار اليوم احدا يشبههم لقد كانوا يصبحون صفرا شعثا غبرا بين اعينهم امثال ركب المعزى قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون
كتاب الله يراوحون بين جباههم واقدامهم فاذا اصبحوا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت اعينهم الدموع حتى
تبل ثيابهم والله كأني بالقوم باتوا غافلين ثم قام فما رؤي بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم وروي ان عمر رضي الله عنه كان
يسقط من الخوف اذا سمع آية من القرآن مغشيا فكان يعاد اياما واخذ يوما تبنة من الارض فقال يا ليتني كنت هذه التبنة ليتني لم
اك شيئا مذكورا ليتني لم تلدني امي ليتني كنت نسيا منسيا وقال عمران بن الحصين لوددت اني رماد تنسفني الرياح في يوم عاصف
وقال ابو عبيدة بن الجراح وددت اني كبش فيذبحني اهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقي وكان علي بن الحسين رضي الله عنهما اذا توضأ اصفر
لونه فيقول له اهله ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول اتدرون بين يدي من اريد ان اقوم وقال موسى بن مسعود كنا اذا
جلسنا الى الثوري كأن النار قد احاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه وقرأ عنده القارئ يوما هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا
نستنسخ ما كنتم تعملون فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه فلما افاق قال وعزتك لا عصيتك جهدي ابدا فأعني بتوفيقك
على طاعتك وكان المسور بن مخرمة لا يقوى ان يسمع شيئا من القرآن لشدة خوفه ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل اياما
حتى اتى عليه رجل من خثعم فقرأ يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا فقال انا من المجرمين وليس من المتقين
اعد علي القول ايها القارئ فأعاد عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة وقرئ عند يحيى البكاء ولو ترى اذ وقفوا على ربهم فصاح
صيحة مكث منها مريضا اربعة اشهر يعاد من اطراف البصرة وقال مالك بن دينار بينا انا اطوف بالبيت اذا انا بجويرية متعبدة متعلقة
بأستار الكعبة وهي تقول يا رب كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعاتها يا رب اما كان لك ادب وعقوبة الا النار وتبكي فما زالت
ذلك مقامها حتى طلع الفجر قال فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخا اقول ثكلت مالكا امه وروي ان الفضيل
رؤي

بعرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة حتى اذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه الى السماء
وقال واسوأتاه منك وان غفرت ثم انقلب مع الناس وسئل ابن عباس عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف قرحة واعينهم
باكية يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا والقبر امامنا والقيامة موعدنا وعلى جهنم طريقنا وبين يدي ربنا موقفنا ومر الحسن
بشاب وهو مستغرق في ضحكه وهو جالس مع قوم في مجلس فقال له الحسن يا فتى هل مررت بالصراط قال لا قال فهل تدري
الى الجنة تصير ام الى النار قال لا قال فما هذا الضحك قال فما رؤي ذلك الفتى بعدها ضاحكا وكان حماد بن عبد ربه اذا جلس
جلس مستوفزا على قدميه فيقال له لو اطمأننت فيقول تلك جلسة الآمن وانا غير آمن اذ عصيت الله تعالى وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
انما جعل الله هذه الغفلة رحمة في قلوب العباد كيلا يموتوا من خشية الله وقال مالك بن دينار لقد هممت اذا انا مت ان آمرهم ان
يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي الى ربي كما ينطلق بالعبد الآبق الى سيده وقال حاتم الاصم لا تغتر بموضع صالح فلا مكان اصلح
من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها ما لقي ولا تغتر بكثرة العبادة فان ابليس بعد طول العبادة لقي ما لقي ولا تغتر بكثرة العلم فان بلعام كان يحسن
الاسم الاعظم فانظر ماذا لقي ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص اكبر قدرا ومنزلة من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه
اقاربه واعداؤه وقال السري اني لأنظر الى انفي كل يوم مرات مخافة ان يكون قد اسود وجهي وقال ابو حفص منذ اربعين سنة
اعتقادي في نفسي ان الله ينظر الي نظر السخط واعمالي تدل على ذلك وخرج ابن المبارك يوما على اصحابه فقال اني اجترأت على الله
البارحة فسألته الجنة وقالت ام محمد بن كعب القرظي لابنها يا بني اني اعرفك صغيرا طيبا وكبيرا طيبا وكأنك احدثت حدثا موبقا
لما اراك تصنع في ليلك ونهارك فقال يا اماه ما يؤمنني ان يكون الله قد اطلع علي وانا على بعض ذنوبي فمقتني وقال لا وعزتي
لا غفرت لك وقال الفضيل اني لا اغبط نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا ولا عبدا صالحا اليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة انما اغبط
من لم يخلق وروي ان فتى من الانصار دخلته الخشية من النار فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل
عليه فاعتنقه فخر ميتا فقال النبي صلى الله عليه وسلم جهزوا صاحبكم فان الفرق من النار فتت كبده وروي عن ابن ميسرة
انه كان اذا اوى الى فراشه قال يا ليت امي لم تلدني فقالت له امه يا ميسرة ان الله قد احسن اليك هداك الى الاسلام قال اجل ولكن الله
قد بين لنا انا واردو النار ولم يبين لنا انا صادرون عنها وقيل لفرقد السبخي اخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني اسرائيل
فقال بلغني انه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح فتذاكرن ثواب الله وعقابه فمتن جميعا في يوم واحد
وكان عطاء السلمي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة ابدا انما يسأل الله العفو والابعاد من النار وقيل له في مرضه الا تشتهي شيئا فقال
ان خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة وقيل انه ما رفع رأسه الى السماء ولا ضحك اربعين سنة وانه رفع رأسه
يوما ففزع فسقط فانفتق في بطنه فتق وكان يمس جسده في بعض الليل مخافة ان يكون قد مسخ وكان اذا اصابتهم ريح او برق او غلاء
الطعام قال هذا من اجلي يصيبهم لو مات عطاء لاستراح الناس وقال عطاء خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة
الفجر بطهور العشاء قد تورمت اقدامهم من طول القيام وغارت اعينهم في رؤوسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق
كأنها الاوتار يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ كأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف اكرم الله المطيعين وكيف اهان العاصين
فبينما هم يمشون اذ مر احدهم بمكان فخر مغشيا عليه فجلس اصحابه يبكون حوله في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا فجاؤوا بماء

فمسحوا وجهه فافاق فسألوه عن امره فقال لهم اني ذكرت اني كنت عصيت الله في ذلك المكان وقال صالح المري قرأت
على رجل من المتعبدين يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا فصعق ثم افاق
فقال زدني يا صالح فاني اجد غما فقرأت كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها فخر ميتا وروي ان زرارة بن اوفى
صلى بالناس صلاة الغداة فلما قرأ فاذا نقر في الناقور خر مغشيا عليه فحمل فاذا هو ميت ودخل يزيد الرقاشي على
عمر بن عبد العزيز فقال عظني يا يزيد فقال يا امير المؤمنين اعلم انك اول خليفة تموت فبكى وقال زدني يا يزيد فقال
يا امير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل فاعلم فخر مغشيا عليه وخرج يزيد وقال ميمون بن مهران لما
نزلت هذه الآية وان جهنم لموعدهم اجمعين صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه ثم خرج هاربا ثلاثة ايام لا يقدر عليه
ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول يا ابناه ليت شعري باي خديك بدأ الدود اولا فصعق
داود وسقط مكانه وقيل مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمي فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس
نبضه وقال ما علمت ان في الحنيفية مثله وقال احمد بن حنبل سألت الله ان يفتح علي بابا من الخوف ففتح فخفت على عقلي فقلت يا رب
على قدر ما اطيق فسكن قلبي وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم احدكم العلم لصرخ
حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه كأنه اشار الى معنى قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما اعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا
وقال العمري اجتمع اصحاب الحديث على باب الفضيل فاطلع عليهم من الكوة وهو يبكي ولحيته ترجف فقال عليكم بالقرآن
عليكم بالصلاة ويحكم ليس هذا زمان حديث انما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق انما هذا زمان
احفظ لسانك واخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر ورؤي الفضيل يوما وهو يمشي فقيل له الى اين
فقال لا ادري يمشي كالواله من الخوف وقال ذر بن عمر لابيه عمر بن ذر ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي احد
فاذا تكلمت سمعت البكاء من كل جانب فقال يا بني ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة وحكي ان قوما وقفوا بعابد
وهو يبكي فقالوا ما الذي يبكيك يرحمك الله تعالى فقال قرحة يجدها الخائفون في قلوبهم قالوا وما هي قال روعة النداء بالعرض
على الله وكان الخواص يبكي ويقول في مناجاته قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فاعتقني وقال صالح المري
قدم علينا ابن السماك مرة فقال ارني شيئا من بعض عجائب عبادكم فذهبت به الى رجل في بعض الاخصاص
فاستأذنا عليه فاذا رجل يعمل خوصا فقرأت عليه اذ الاغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون
فشهق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا الى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فشهق
ايضا شهقة وخر مغشيا عليه فتركناه فاستأذنا على ثالث فقال ادخلوا ان لم تشغلونا عن ربنا فقرأت ذلك لمن
خاف مقامي وخاف وعيد فشهق شهقة فبدا الدم من منخريه وجعل يتخبط في دمه حتى يبس فتركناه على حاله وخرجنا
فادرنا على ستة انفس كل نخرج من عنده ونتركه مغشيا عليه ثم اتيت به السابع معه فاستأذنا فاذا امرأة من وراء
الخص تقول ادخلوا فدخلنا فاذا شيخ فان جالس في مصلاه فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا فقلت بصوت عال
ان للخلق غدا مقاما فقال الشيخ بين يدي من ويحك ثم بقي مبهوتا فاتحا فاه شاخصا ببصره يصيح بصوت له ضعيف
اوه

اوه اوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت المرأة اخرجوا فانكم لا تنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم
فاذا الستة قد افاقوا وثلثة قد لحقوا بالله واما الشيخ فمكث ثلاثة ايام على حالته مبهوتا متحيرا لا يؤدي فرضا فلما كان
بعد ثلث عقل وكان يزيد بن الاسود يرى انه من الابدال وكان قد حلف ان لا يضحك ابدا ولا ينام مضطجعا ولا ياكل سمينا
ابدا فما رؤي ضاحكا ولا مضطجعا ولا اكل سمينا حتى مات رحمه الله وقال الحجاج لسعيد بن جبير بلغني انك لم تضحك
قط فقال كيف اضحك وجهنم قد سعرت والاغلال قد نصبت والزبانية قد اعدت وقال رجل للحسن يا ابا سعيد كيف اصبحت
فقال بخير قال كيف حالك فتبسم الحسن وقال تسألني عن حالي ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا في البحر فانكسرت
سفينتهم فتعلق كل انسان منهم بخشبة على اي حال هم قال الرجل على حالة شديدة قال الحسن حالي اشد من حالهم ودخلت
مولاة لعمر بن عبد العزيز على عمر رضي الله عنه فسلمت عليه ثم قامت الى مسجد بيته فصلت ركعتين ثم غلبتها عيناها فرقدت فاستبكت
في منامها فقالت يا امير المؤمنين اني والله رأيت عجبا قال وما ذاك قالت رأيت النار وهي تزفر على اهلها ثم جيء بالصراط
فوضع على متنها فقال هيه فقالت ثم جيء بعبد الملك بن مروان فحمل عليه فما مضى عليه الا يسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى
الى جهنم فقال هيه فقالت ثم جيء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فما مضى الا يسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى الى جهنم
فقال هيه فقالت ثم جيء بسليمان اخوه فحمل عليه فما مضى الا يسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى فقال عمر هيه ثم قالت جيء بك
والله يا امير المؤمنين فصاح عمر صيحة فخر مغشيا عليه فقامت اليه فجعلت تنادي في اذنه يا امير المؤمنين اني رأيتك والله
قد نجوت اني رأيتك والله قد نجوت وهي تنادي وهو يفحص برجليه ويصيح زمانا طويلا ويحكى ان اويسا القرني
رضي الله عنه كان يحضر عند القاص فكان يبكي من كلامه فاذا ذكر النار صرخ اويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون
مجنون مجنون وقال معاذ بن جبل ان المؤمن لا تسكن روعته حتى يخلف جسر جهنم وراء ظهره وكان طاوس
يفرش له النطع فيضطجع فيتقلى كما تتقلى الحبة في المقلاة ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول طير نوم الخائفين
ذكر جهنم وقال الحسن رحمه الله يخرج من النار رجل بعد الف عام وياليتني كنت ذلك الرجل وانما قال ذلك لخوفه من
الخلود وسوء الخاتمة وروي انه ما ضحك اربعين سنة وكنت اذا رأيته قاعدا كأنه اسير قدم ليضرب عنقه واذا تكلم
كأنه يعاين الاخرة فيخبر عن مشاهدتها واذا سكت كأن النار تسعر بين عينيه وعوتب في شدة حزنه فقال
ما يؤمنني ان يكون الله قد اطلع علي في بعض ما يكره فمقتني فقال اذهب فلا غفرت لك فانا اعمل في غير معتمل
وعن ابن السماك قال وعظت يوما في مجلسي فقام شاب من القوم فقال يا ابا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي ان
لا نسمع غيرها قلت وما هي رحمك الله قال قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين اما في الجنة واما في النار ثم غاب عني
فتفقدته في المجلس الآخر فلم اره فسألت عنه فاخبرت انه مريض يعاد فاتيته اعوده فقلت له يا اخي ما الذي
ارى بك فقال يا ابا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين اما في الجنة واما في النار ثم مات
رحمه الله فرأيته في المنام فقلت له يا اخي ما صنع الله بك قال غفر لي ورحمني وادخلني الجنة فقلت بماذا قال بالكلمة
فهذه مخاوف الانبياء والاولياء والعلماء ونحن اجدر بالخوف منهم ولكن ليس بكثرة الذنوب بل بصفاء القلب وكمال المعرفة
والا فليس امننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعتنا بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدفنا عن ملاحظة

احوالنا غفلتنا وقسوة قلوبنا فلا قرب الرحيل ينبهنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة احوال الخائفين تخوفنا ولا
خطر الخاتمة يزعجنا فنسأل الله العظيم ان يتدارك بفضله وجوده احوالنا فيصلحها ان كان تحريك اللسان بمجرد السؤال
دون الاستعداد ينفعنا ومن العجائب انا اذا اردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبراري
وخاطرنا وان اردنا رتبة طلب العلم تفقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا واجتهدنا في طلب اقواتنا ولا نثق بضمان الله
لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا ثم اذا طمحت اعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بان نقول بالسنتنا اللهم اغفر
لنا وارحمنا والذي اليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول جل وعز وان ليس للانسان الا ما سعى ولا يغرنكم بالله الغرور
يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم كل ذلك لا ينبهنا ولا يزعجنا ولا يخرجنا عن اودية غرورنا وامانينا فما هذه الا محنة
هائلة ان لم يتفضل علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجبرنا فنسأل الله ان يتوب علينا بل نسأله ان يشوق الى التوبة
سرائرنا وقلوبنا وان لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل اذا سمعنا
الوعظ بكينا واذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخذلان اعظم من هذا فنسأل الله ان يمن بالتوفيق
والرشد علينا بمنه وفضله ولنقتصر من حكايات احوال الخائفين على ما اوردناه فان القليل من هذا يجاد فالقلب القابل
فيكفي والكثير منه وان افيض على القلب الغافل فلا يغني ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني وكان
من خيار العباد انه رأى على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله ما يكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء
قال عيسى فلما رأيته هالني منظره فقلت ايها الراهب اوصني بوصية احفظها عنك فقال يا اخي بماذا اوصيك ان
استطعت ان تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر يخاف ان يغفل فتفترسه السباع
او يسهو فتنهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل فهو في المخافة ليله وان امن المغترون وفي الحزن نهاره
وان فرح البطالون ثم ولى عني فقلت زدني شيئا عسى ان ينفعني فقال الظمآن يجزيه من الماء شربة وقد
صدق فان القلب الصافي يحركه ادنى مخافة والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ وما ذكره من تقديره انه
احتوشته السباع فلا ينبغي ان تظن انه تقدير بل هو تحقيق فانك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته
مشحونا باصناف السباع وانواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب
والرياء وغيرها وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك ان سهوت عنها لحظة الا انك محجوب العين عن مشاهدتها
فاذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وتمثلت لك بصورها واشكالها الموافقة لمعانيها فترى بعينك العقارب
والحيات قد احدقت بك في قبرك وانما هي صفاتك الحاضرة الآن فلا تكشف لك صورها فان اردت ان
تقهرها وتقتلها فانت قبل الموت فافعل والا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم فؤادك
فضلا عن ظاهر جسدك والحمد لله وحده وصلى

كتاب الفقر والزهد وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي يسبح له الرمال ويسجد له
الظلال وتندكدك من هيبته الجبال خلق الانسان من الطين اللازب والصلصال وزين صورته باحسن
تقويم واعتدال وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال واذن له في قرع باب الجنة بالغدو والآصال
ثم كحل

ثم كحل بصيرة المخلصين منهم بنور العبر حتى لحظ بعين حضرة الجلال فلاح له في البهجة والبهاء والجمال ما استحقر دون
مبادي اشراقه كل حسن وجمال فاستثقل ما صرفه عن مشاهدته وملازمة بابه الاستثقال وتمثل له ظاهر الدنيا في
صورة امرأة جميلة تميس وتختال وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء تجنبت من طينة الخزي وضربت في قوالب الاشكال وهي
متلفعة بجلبابها المخفي قبائح اسرارها بلطائف السحر والاحتيال وقد نصبت حبائلها في مدارج الرجال فهي تقتنصهم بصنوف
المكر والاغتيال ثم لا تعرج معهم بالخلف في مواعيد الوصال بل تقيدهم مع قطع الاوصال بالسلاسل والاغلال وتبتليهم
بانواع البلايا والانكال فلما انكشف للعارفين منها قبائح الاسرار والافعال زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوا التفاخر
فيها والتكاثر بلا سوال واقبلوا بكنه همتهم على حضرة الجلال واستعرفوا بوصل ليس له انفصال ومشاهدة ابدية لا يعتريها فنا
ولا زوال والصلاة على محمد سيد الانبياء وعلى الاخيار آله اما بعد فان الدنيا عدوة الله بغرورها ضل من ضل وبمكرها زل من زل
فحبها رأس الخطايا والسيئات وبغضها ام الطاعات واس القربات وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربع
المهلكات ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فانه رأس المنجيات ولا مطمع في النجاة الا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها
ولكن مقاطعتها اما ان تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا واما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما
درجة في نيل السعادة وحظ في الاعانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما واقسامهما
وشروطهما واحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في الشطر الآخر منه ونبدأ بذكر الفقر الآن **الشطر الاول**
من الكتاب في الفقر وفيه **بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان فضيلة خصوص الفقراء وبيان فضل
الفقر على الغنى وبيان ادب الفقير في فقره وبيان ادبه في قبول العطاء وبيان تحريم السؤال من غير ضرورة
وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال وبيان احوال السائلين** بيان حقيقة الفقر واختلاف احوال الفقير واساميه
اعلم ان الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج اليه اما فقد ما لا حاجة اليه فلا يسمى فقرا وان كان المحتاج اليه موجودا مقدورا
عليه لم يكن المحتاج فقيرا واذا فهمت هذا لم تشك في ان كل موجود سوى الله فهو فقير لانه محتاج الى دوام الوجود في ثاني الحال
ودوام وجوده مستفاد من فضل الله وجوده فان كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغني
المطلق ولا يتصور ان يكون مثل هذا الموجود الا واحدا فليس في الوجود الا غني واحد وكل من عداه فانهم محتاجون
اليه ليمد وجودهم بالدوام والى هذا الحصر الاشارة بقوله تعالى والله الغني وانتم الفقراء هذا معنى الفقر مطلقا ولكنا
لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص والا ففقر العبد بالاضافة الى اصناف حاجاته لا ينحصر لان حاجاته لا حصر
لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل اليه بالمال وهو الذي نريد الآن بيانه فقط فنقول كل فاقد للمال فانا نسميه فقيرا بالاضافة
الى المال الذي فقده اذا كان ذلك المفقود محتاجا اليه في حقه ثم يتصور ان يكون له خمسة احوال عند الفقر ونحن نميزها
ونخصص كل حال باسم لنتوصل بالتمييز الى ذكر احكامها **الحالة الاولى** وهي العليا ان يكون بحيث لو اتاه المال لكرهه وتأذى
به وهرب من اخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد **الثانية** ان يكون بحيث لا يرغب
فيه رغبة يفرح بحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو اتاه وصاحب هذه الحالة نسميه راضيا **الثالثة** ان يكون
وجود المال احب اليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته ان ينهض في طلبه بل ان اتاه عفوا صفوا اخذه

وفرح به وان افتقر اليه رغب في طلبه لم يشتغل به وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا اذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب
مع ما فيه من الرغبة الضعيفة الرابعة ان يكون تركه للطلب لعجزه والا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا الى طلبه
ولو بالتعب لطلبه او هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه الحريص الخامسة ان يكون ما فقده من المال
مضطرا اليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيف ما كانت رغبته في
الطلب اما ضعيفة واما قوية وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة فهذه خمسة احوال اعلاها الزهد والاضطرار ان انضم
اليه الزهد وتصور ذلك فهو اقصى درجات الزهد كما سياتي بيانه ووراء هذه الاحوال الخمسة حالة هي اعلى من الزهد وهي
ان يستوي عنده وجود المال وفقده فان وجده لم يفرح به ولم يتاذ وان فقده فكذلك بل حاله كما كان حال
عائشة رضي الله عنها اذ اتاها مائة الف درهم من العطاء فاخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادمتها ما استطعت فيما فرقت
اليوم ان تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه فقالت لو ذكرتيني لفعلت فمن هذا حاله فلو كانت الدنيا بحذافيرها في يده
وخزائنها لم يضره اذ هو يرى الاموال في خزانة الله لا في يد نفسه فلا يفرق بين ان يكون في يده او في يد غيره وينبغي ان يسمى
صاحب هذه الحالة المستغني لانه غني عن فقد المال ووجوده جميعا وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغني المطلق
على الله وعلى من كثر ماله من العباد فان من كثر ماله من العباد وهو فرح به فهو فقير الى امساكه وانما هو غني عن خروج
المال عن يده لا عن بقائه في يده وعن خروجه من يده ايضا فانه ليس يتاذى به فيحتاج الى اخراجه وليس يفرح به فيحتاج الى
بقائه وليس فاقدا له فيحتاج الى دخوله في يده فغناه الى العموم اميل فهو الى الغني الذي هو وصف الله اقرب وانما قرب
العبد من الله بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكنا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنيا بل مستغنيا ليبقى الغني اسما لمن هو الغني المطلق
عن كل شيء واما هذا العبد فان استغنى عن المال وجودا وعدما فلم يستغن عن اشياء اخر سواه ولم يستغن عن مدد
توفيق الله ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه فان القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغني عنه حر والله هو الذي
اعتقه عن هذا الرق فهو محتاج الى دوام هذا العتق والقلوب تتقلب بين الرق والحرية في اوقات متقاربة لانها بين اصبعين
من اصابع الرحمن فلذلك لم يجز اسم الغني مطلقا عليه مع هذا الكمال الا مجازا واعلم ان الزهد درجة هي كمال الابرار
وصاحب هذه الحالة من المقربين فلا جرم صار الزهد في حقه نقصانا اذ حسنات الابرار سيئات المقربين وهذا لان الكاره للدنيا
مشغول بالدنيا كما ان الراغب فيها مشغول بها والشغل بما سوى الله حجاب عن الله اذ لا بعد بينك وبين الله حتى يكون
البعد حجابا فانه اقرب اليك من حبل الوريد وليس هو في مكان حتى تكون السموات والارضون حجابا بينك وبينه فلا حجاب
بينك وبينه الا شغلك بغيره وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وانت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهوات
نفسك فلذلك لا تزال محجوبا عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول والمشغول ببغض نفسه ايضا مشغول عن الله بل كل
ما سوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس جمع العاشق والمعشوق فان التفت قلب العاشق الى الرقيب والى بغضه واستثقاله
وكراهة حضوره فهو في حالة اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغرقه العشق
لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت فكما ان النظر الى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه
فكذلك النظر الى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ولكن احدهما اخف من الاخر بل الكمال في ان لا يلتفت القلب الى غير المحبوب
بغضا

بغضا وحبا فانه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة ولا يجتمع ايضا بغض وحب في حالة واحدة فالمشغول
ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها الا ان المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد والمشغول
ببغضها غافل وهو في غفلته سالك طريق ما كماله من يرتقب لان بغض الدنيا مطية توصل الى الله فالمحب والمبغض
القرب اذ يرجى له ان ينتهي ... الى الشهود
كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها ولكن احدهما مستقبل الكعبة والاخر مستدبر لها فهما سيان
بالاضافة الى الحال في ان كل واحد منهما محجوب عن الكعبة مشغول عنها ولكن حال المستقبل محمود بالاضافة الى المستدبر اذ يرجى له
الوصول اليها وليس محمودا بالاضافة الى المعتكف في الكعبة الملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يتفرغ للاشتغال بالدابة
في الوصول اليها فلا ينبغي ان يظن ان بغض الدنيا مقصود في عينه بل الدنيا عائق عن الله ولا وصول اليه الا بدفع العائق
ولذلك قال ابو سليمان الداراني من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة بل ينبغي ان يشتغل بالاخرة فتبين
ان سلوك طريق الاخرة وراء الزهد كما ان سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج فاذا قد ظهر ان الزهد في
الدنيا اذا اريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وان اريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالاضافة
الى درجة الراضي والقانع والحريص ونقصان بالاضافة الى درجة المستغني بل الكامل في حق المال ان يستوي عنده المال
والماء وكثرة الماء في جواره لا يؤذيه بان يكون على شاطئ البحر ولا قلته تؤذيه الا في قدر الضرورة مع ان الماء محتاج اليه
كما ان المال محتاج اليه فلا يكون قلبه مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا ببغض الماء الكثير بل يقول اشرب منه بقدر
الحاجة واسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ولا ابخل به على احد فهكذا ينبغي ان يكون المال لان الخبز والماء واحد في الحاجة وانما
الفرق بينهما في قلة احدهما وكثرة الاخر واذا عرفت الله وثقت بتدبيره الذي دبر به العالم علمت ان قدر حاجتك
من الخبز ياتيك لا محالة ما دمت حيا كما ياتيك قدر حاجتك من الماء كما سياتي بيانه في كتاب التوكل ان شاء الله قال احمد ابن ابي
الحواري قلت لابي سليمان الداراني ان مالك بن دينار قال للمغيرة اذهب الى البيت فخذ الركوة التي اهديتها لي فان العدو
يوسوس لي ان اللص قد اخذها فقال ابو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قد زهد في الدنيا ما عليه من اخذها
فليس ان كراهيته لكون الركوة في محل التفاته اليها بسبب الضعف والنقصان **فان قلت** فما بال الانبياء والاولياء هربوا
من المال ونفروا منه كل النفار **فاقول** كما هربوا من الماء على معنى انهم ما شربوا اكثر من حاجتهم ونفروا
عما وراء ولم يجمعوه في القرب والروايا يديرونه مع انفسهم بل تركوه في الانهار والابار وفي البراري
للمحتاجين اليه لا انهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه او ببغضه وقد حملت خزائن الارض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
والى ابي بكر وعمر رضي الله عنهما فاخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها اذ كان قد استوى عندهم
الماء والمال والذهب والحجر وما ينقل عنهم من امتناع فاما ان يكون لمن خاف ان لو اخذه ان يخدعه المال
ويتقيد قلبه به فيدعوه الى الشهوات وهذا حال الضعفاء **فلا جرم** البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال وهذا حكم
جميع الخلق لانهم كلهم ضعفاء الا الانبياء والاولياء واما ان يكون من قوي بلغ الكمال ولكن اظهر الفرار والنفار
نزولا الى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك اذ لو اقتدوا به في الاخذ لهلكوا فان الرجل المعزم بين يدي اولاده

من الحية لا لضعفه عن اخذها ولكن لعلمه انه لو اخذها لاخذها اولاده اذا راوها فهلكوا والسير بسير الضعفاء ضرورة الانبياء
والاولياء والعلماء فقد عرفت اذا ان المراتب ستة واعلاها رتبة المستغني ثم الزاهد ثم الراضي ثم القانع ثم الحريص
واما المضطر فيتصور في حقه ايضا الزهد والرضا والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الاحوال واسم الفقير
يطلق على هذه الخمسة اما تسمية المستغني فقيرا فلا وجه له بهذا المعنى بل ان سمي فقيرا فبمعنى اخر وهو معرفته بكونه
محتاجا الى الله في جميع اموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة ويكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية
واقر بها فانه احق باسم العبد من الغافلين وان كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر
الى الله فهو احق باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين واذا عرفت هذا الاشتراك فهمت ان قول
رسول الله صلى الله عليه وسلم اعوذ بك من الفقر وقوله عليه السلام كاد الفقر يكون كفرا لا يناقض قوله احيني مسكينا
وامتني مسكينا اذ فقر المضطر هو الذي استعاذ منه والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار الى الله
هو الذي ساله في دعائه **بيان فضيلة الفقر مطلقا** اما من الايات فقوله تعالى للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا
من ديارهم واموالهم وقوله تعالى للفقراء الذين احصروا في سبيل الله الاية سياق الكلام في معرض المدح ثم قدم
وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والاحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر واما الاخبار في مدح الفقر
فاكثر من ان تحصى روى عبد الله بن عمر الخطاب رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه اي الناس خير فقالوا
موسر من المال يعطي حق الله في نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يا رسول الله فقال
فقير يعطي جهده وقال صلى الله عليه وسلم لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الفقير
المتعفف ابا العيال وفي الخبر المشهور يدخل فقراء امتي الجنة قبل اغنيائها بخمسمائة عام وفي حديث اخر باربعين
خريفا اي اربعين سنة فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغني الحريص والتقدير بخمسمائة به تقدير
الفقير الزاهد على الغني الراغب وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتا بين الفقراء
في درجاتهم وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين من الفقير الزاهد اذ هذه نسبة الاربعين الى خمسمائة درجتين به
ولا تظنن ان تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم على يجري على لسانه جزافا وبالاتفاق بل لا ينطق صلى الله عليه وسلم
الا عن الحق فانه لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء
من ستة واربعين جزءا من النبوة فانه تقدير تحقيق لا محالة ولكن ليس في قوة غيره ان يعرف علة تلك النسبة
الا بتخمين فاما التحقيق فلا اذ يعلم ان النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره وهو يختص بانواع
من الخواص احدها انه يعرف حقائق الامور المتعلقة بالله وصفاته وملائكته والدار الاخرة لا كما يعلمه غيره
بل مخالفا له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف والثاني ان له في نفسه صفة بها تتم له الافعال
الخارقة للعادات كما ان لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بارادتنا واختيارنا وهي القدرة وان كانت القدرة
والمقدور جميعا من فعل الله والثالث ان له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما ان للبصير صفة بها
يفارق

يفارق الاعمى حتى يدرك المبصرات والرابع ان له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب اما في اليقظة واما في المنام
اذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للانبياء ويعلم انقسام كل واحد منها
الى اقسام وربما يمكننا ان نقسمها الى اربعين والى خمسين والى ستين ويمكننا ايضا ان نتكلف تقسيمها الى ستة واربعين بحيث تقع
الرؤيا الصحيحة جزءا واحدا من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن الا بظن وتخمين ولا ندري
تحقيقا انه الذي اراده رسول الله صلى الله عليه وسلم ام لا والمعلوم بجامع الصفات التي تتم بها النبوة واصل انقسامها
وذلك لا يرشدنا الى معرفة علة التقدير فكذلك نعلم ان الفقراء درجات كما سبق فاما ان كان هذا الفقير الحريص مثلا
على نصف سدس من درجة الفقير الزاهد حتى اقتضى التقدم باكثر من اربعين سنة الى الجنة واقتضى ذلك التقدم
بخمسمائة عام فليس في قوة البشر الا الانبياء الوقوف على ذلك الا بنوع من التخمين لا وثوق به والغرض التنبيه على منهاج
التقدير في امثال هذه الامور فان الضعيف الايمان قد يظن ان ذلك يجري من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق
وحاشا منصب النبوة عن ذلك **ولنرجع** الى نقل الاخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم ان خير هذه الامة فقراؤها
واسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها وقال صلى الله عليه وسلم ان لي حرفتين اثنتين فمن احبهما فقد احبني ومن ابغضهما فقد ابغضني
الفقر والجهاد وروي ان جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة فقال يا جبريل ان الدنيا دار من لا دار له ومال
من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له فقال جبريل يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت وروي ان عيسى عليه السلام مر في سياحته برجل
ملتف في عباءة فايقظه وقال له يا نائم قم فاذكر الله فقال ما تريد مني اني قد تركت الدنيا لاهلها فقال له فنم اذا حبيبي ثم
ومر موسى عليه السلام برجل نائم على التراب وتحت راسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو متزر بعباءة فقال يا رب عبدك هذا في الدنيا
ضائع فاوحى الله اليه يا موسى اما علمت اني اذا نظرت الى عبدي بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها وعن ابي رافع رضي الله عنه قال ورد
على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فارسلني الى رجل من يهود خيبر فقال قل له يقول لك محمد اسلفني او بعني
دقيقا الى هلال رجب قال فاتيته فقال لا والله الا برهن فاخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال اما والله اني لامين
في اهل السماء امين في اهل الارض ولو باعني او اسلفني لاديت اليه اذهب بدرعي هذا فادفعه فلما خرجت نزلت هذه الاية ولا
تمدن عينيك الاية تعزية له صلى الله عليه وسلم على الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم الفقر ازين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس وقال صلى الله
عليه وسلم من اصبح منكم معافى في جسمه امنا في سربه عنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا وقال كعب الاحبار قال الله تعالى لموسى
يا موسى اذا رايت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وفي قول عطاء الخراساني مر نبي من الانبياء بساحل فاذا هو برجل يصطاد
حيتانا فقال بسم الله والقى شبكته فلم يخرج فيها شيء ثم مر باخر فقال باسم الشيطان والقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس
من كثرتها فقال النبي عليه السلام يا رب ما هذا وقد علمت ان كل شيء بيدك فقال الله للملائكة اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما فلما راى
ما اعد الله لهذا من الكرامة ولذلك من الهوان قال رضيت يا رب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم تحفة المؤمن في الدنيا الفقر وفي
خبر اخر اخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه واخر اصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لاجل غناه وفي حديث اخر
رايته دخل الجنة زحفا وقال عيسى عليه السلام بشدة يدخل الغني الجنة وفي خبر عن اهل البيت انه صلى الله عليه وسلم قال اذا
احب الله عبدا ابتلاه فاذا احبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له اهلا ولا مالا وفي الخبر اذا رايت الفقر
مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين واذا رايت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته وقال موسى عليه السلام يا رب من احباؤك

من خلقك حتى اجيبهم الا يلهم فقال لكل فقير فقير فيمكن ان يكون ذلك للتاكيد ويمكن المراد به شديد الفقر وقال علي عليه السلام ان الله احب المسكنة
وابغض النعماء وكان احب الاسماء اليه ان يقال يا مسكين ولما قال سادات العرب واغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما
يجيئون اليك ولا نجيء ونجيء اليك ولا يجيئون يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وابي ذر وخباب بن الارت وعمار بن ياسر
وابي هريرة رضي الله عنهم اجمعين من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحاب الصفة من الفقراء فاجابهم النبي صلى الله عليه وسلم الى ذلك وذلك انهم شكوا اليه الذي
يراحمهم من كان لباس القوم الصوف في شدة الحر فاذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم واشتد على الاغنياء ذلك ومنهم الاقرع بن حابس التميمي
وعيينة بن بدر الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم فاجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا يجمعهم واياهم في مجلس فنزل
قوله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم وقوله واصبر نفسك مع الذين الاية ولا تعد عيناك عنهم يعني الفقراء تريد زينة الحياة الدنيا
يعني الاغنياء وقل الحق من ربكم مع الفقراء فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر الاية واستاذن ابن ام مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم فانزل الله
عبس وتولى الى قوله الذكرى يعني ابن ام مكتوم واما من استغنى فانت له تصدى يعني هذا الشريف وعن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله قال
يؤتى بالعبد يوم القيمة فيعتذر الله اليه كما يعتذر الرجل الى الرجل في الدنيا فيقول وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك
علي ولكن لما اعددت لك من الكرامة والفضيلة اخرج يا عبدي الى هذه الصفوف فمن اطعمك في او كساك في يريد بذلك وجهي
فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد الجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة وقال
عليه السلام اكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الايادي فان لهم دولة فقالوا يا رسول الله ما دولتهم قال اذا كان يوم القيمة قيل لهم انظروا
من اطعمكم كسرة وسقاكم شربة وكساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به الى الجنة وقال صلى الله عليه وسلم دخلت الجنة فسمعت حركة امامي فنظرت فاذا
بلال ونظرت في اعلاها فاذا فقراء امتي واولادهم ونظرت في اسفلها فاذا فيهم من الاغنياء والنساء قليل فقلت يا رب ما شانهم فقال اما
النساء فاضر بهن الاحمران الذهب والحرير واما الاغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت اصحابي فلم ار عبد الرحمن بن عوف ثم جاءني
بعد ذلك وهو يبكي فقلت ما خلفك عني فقال والله يا رسول الله ما خلصت اليك حتى لقيت المشيبات وظننت اني لا اراك فقلت
ولم قال كنت احاسب بمالي فانظر الى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن العشرة المخصوصين
من اهل الجنة ومن الاغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من قال بالمال هكذا وهكذا ومع هذا افتقد استضر بالغنى
الى هذا الحد ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال لو قسم نور هذا على اهل الارض لوسعهم وقال صلى الله عليه وسلم
الا اخبركم بملوك اهل الجنة قالوا بلى يا رسول الله قال ضعيف مستضعف اغبر اشعث ذي طمرين لا يؤبه له لو اقسم على الله لابره وقال
عمران بن حصين رضي الله عنه كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال يا عمران ان لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة
فاطمة بنت رسول الله فقلت نعم بابي انت وامي يا رسول الله فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة رضي الله عنها فقرع الباب وقال السلام عليكم
ادخل فقالت ادخل يا رسول الله قال انا ومن معي قالت ومن معك يا رسول الله قال عمران فقالت فاطمة رضي الله عنها والذي بعثك بالحق
نبيا ما علي الا عباءة فقال اصنعي بها هكذا وهكذا واشار بيده فقالت هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي فالقى اليها
ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدي بها على رأسك ثم اذنت له فدخل فقال السلام عليكم يا بنتاه كيف اصبحت قالت اصبحت والله وجعة وزادني
وجعا على ما بي اني لست اقدر على طعام آكله فقد اضر بي الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعي يا بنتاه فوالله ما ذقت
طعاما منذ ثلث واني لاكرم على الله منك ولو سألت ربي لاطعمني ولكن آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال
لها ابشري فوالله انك لسيدة نساء اهل الجنة قالت فاين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران قال لها آسية سيدة

نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وانت سيدة نساء عالمك انكن في بيوت من قصب لا اذى فيها ولا صخب ولا نصب ثم قال
لها اقنعي يا بنية فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة وروي عن علي كرم الله وجهه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال اذا ابغض الناس فقراءهم واظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله باربع خصال بالقحط من الزمان والجور
من السلطان والخيانة من ولاة الاحكام والشوكة من الاعداء واما الآثار فقد قال ابو الدرداء رضي الله عنه ذو الدرهمين اشد
حبسا او قال اشد حسابا من ذي الدرهم وارسل عمر رضي الله عنه الى سعيد بن عامر رضي الله عنه بالف دينار فجاء كئيبا حزينا
فقالت امرأته احدث امر قال اشد من ذلك ثم قال اريني درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه ثم قام يصلي ويبكي الى الغداة
ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام حتى ان الرجل من الاغنياء يدخل في غمارهم
فيؤخذ بيده فيستخرج وقال ابو هريرة رضي الله عنه ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد ان يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل
لم ينصب على مستوقد قدرين ورجل دعا بشراب فلا يقال له ايها تريد وقيل جاء فقير الى مجلس الثوري فقال له تخط الى هنا لو كنت غنيا
ما قربناك وكان الاغنياء من اصحابه يودون انهم فقراء لكثرة تقريبه الفقراء واعراضه عن الاغنياء وقال المؤمل ما رأيت الغني اذل منه في
مجلس الثوري ولا رأيت الفقير اعز منه في مجلس الثوري وقال بعض الفقراء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا
ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعا ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعا وقال ابن عباس
ملعون من اكرم بالغنى واهان بالفقر وقال لقمان لابنه لا تحقرن احدا لخلقان ثيابه فان ربك وربه واحد وقال يحيى بن معاذ حبك الفقراء
من اخلاق المرسلين وايثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين وفي الاخبار عن الكتب السالفة ان الله
تعالى اوحى الى بعض انبيائه احذر ان امقتك فتسقط من عيني فاصب عليك الدنيا صبا ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائة الف درهم
في يوم واحد وجهها اليها معاوية وابن عامر وغيرهما وان درعها لمرقوع وتقول لها الجارية لو اشتريت بدرهم لحما تفطرين
عليه وكانت صائمة فقالت لو ذكرتني لفعلت وكان قد اوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان اردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء
واياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعي درعك حتى ترقعيه وجاء رجل الى ابرهيم بن ادهم بعشرة آلاف درهم فابى ان يقبلها وطلب الرجل
فقال ابراهيم تريد ان تمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف لا افعل **بيان فضيلة خصوص الفقراء الراضين والقانعين والصادقين** **بيان فضيلة السخاء** اعلم ان المال اذا كان مفقودا فينبغي ان يكون حال العبد القناعة
وقلة الحرص وان كان موجودا فينبغي ان يكون حاله الايثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل فان السخاء من اخلاق
الانبياء وهو اصل من اصول النجاة وعنه عبر النبي صلى الله عليه وسلم قال السخاء شجرة من شجر الجنة اغصانها متدلية الى الارض فمن اخذ منها غصنا
قاده ذلك الغصن الى الجنة وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جبريل عليه السلام قال الله عز وجل ان هذا دين ارتضيته لنفسي
ولن يصلحه الا السخاء وحسن الخلق فاكرموه بهما ما استطعتم وفي رواية فاكرموه بهما ما صحبتموه وعن عائشة قالت قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما جبل الله وليا له الا على السخاء وحسن الخلق وعن جابر قال قيل يا رسول الله اي الاعمال افضل قال الصبر والسماحة وقال
عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله فاما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخاء واما
اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل واذا اراد الله بعبد خيرا استعمله على قضاء حوائج الناس وروى المقدام بن شريح عن ابيه عن جده
قال قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة قال موجبات المغفرة بذل الطعام وافشاء السلام وحسن الكلام وقال ابو هريرة قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم السخاء شجرة في الجنة فمن كان سخيا اخذ بغصن منها فلم يتركه الغصن حتى يدخله الجنة والشح شجرة في النار فمن كان

شحيحا اخذ بغصن من اغصانها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله النار وقال ابو سعيد الخدري قال النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى
اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في اكنافهم فاني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فاني جعلت فيهم
سخطي وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجافوا عن ذنب السخي فان الله آخذ بيده كلما عثر وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
الرزق الى مطعم الطعام اسرع من السكين الى ذروة البعير وان الله ليباهي بمطعم الطعام الملائكة وقال عليه السلام ان الله جواد يحب الجود
ويحب معالي الاخلاق ويكره سفسافها وقال انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسئل على الاسلام شيئا الا اعطاه فاتاه رجل فسأله
فامر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة فرجع الى قومه فقال يا قوم اسلموا فان محمدا يعطي عطاء لا يخشى الفاقة وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ان لله عبادا اختصهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل بتلك المنافع عن العباد نقلها الله عنه وحولها الى غيره وعن الهلالي قال اتي النبي
صلى الله عليه وسلم باسارى من بني العنبر فامر بقتلهم وافرد منهم رجلا فقال علي بن ابي طالب يا رسول الله الرب واحد والدين واحد والذنب واحد
فما بال هذا من بينهم فقال صلى الله عليه وسلم نزل علي جبريل فقال اقتل هؤلاء واترك هذا فان الله شكر له سخاء فيه وقال صلى الله عليه وسلم ان لكل شيء ثمرة
وثمرة المعروف تعجيل السراح وعن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء وقال صلى الله
عليه وسلم من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال وقال عيسى عليه السلام استكثروا من شيء لا تأكله
النار قيل وما هو قال المعروف وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة دار الاسخياء وقال صلى الله عليه وسلم ان
السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار وان البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار
ولجاهل سخي احب الى الله من عابد بخيل وادوى الداء البخل وقال صلى الله عليه وسلم اصنع المعروف الى من هو اهله والى من ليس باهله
فان اصبت اهله فقد اصبت اهله وان لم تصب اهله فانت اهله وقال صلى الله عليه وسلم ان بدلاء امتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام
ولكن دخلوها بسخاء الانفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين وقال ابو سعيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله جعل للمعروف
وجوها من خلقه حبب اليهم المعروف وحبب اليهم فعاله ووجه طلاب المعروف اليهم ويسر عليهم اعطاءه كما يسر
الغيث الى البلدة الجدبة فيحييها ويحيي به اهلها وقال صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة وكلما انفق الرجل على اهله ونفسه كتب له
صدقة وما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة وما انفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها وقال صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة والدال
على الخير كفاعله والله يحب اغاثة اللهفان وقال عليه السلام كل معروف فعلته الى غني او فقير صدقة وروي ان الله عز وجل اوحى
الى موسى عليه السلام لا تقتل السامري فانه سخي وقال جابر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا
فنحر لهم قيس تسع ركائب فحدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال صلى الله عليه وسلم ان الجود لمن شيمة اهل ذلك البيت **الآثار**
قال علي كرم الله وجهه اذا اقبلت الدنيا فانفق منها فانها لا تفنى واذا ادبرت فانفق منها فانها لا تبقى وانشد
لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة * فليس ينقصها التبذير والسرف * وان تولت فاحرى ان تجود بها * فالحمد منها اذا ما ادبرت خلف
وسأل معاوية الحسن بن علي صلوات الله عليهما عن المروة والنجدة والكرم فقال اما المروة فحفظ الرجل دينه وحرزه نفسه وحسن قيامه
بضيفه وحسن المنازعة والاقدام في الكراهية واما النجدة فالذب عن الجار والصبر في المواطن واما الكرم فالتبرع
بالمعروف قبل السؤال والاطعام في المحل والرأفة بالسائل مع بذل النائل ودفع رجل الى الحسن بن علي رقعة فقال حاجتك مقضية
فقيل له يا ابن رسول الله لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك فقال يسألني الله عز وجل عن مقامه بين يدي حتى اقرأ رقعته وقال
ابن السماك عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الاحرار بمعروفه وسئل بعض الاعراب من سيدكم فقال من احتمل شتمنا
واعطى سائلنا واغضى عن جاهلنا وقال علي بن الحسين من وصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخيا وانما السخي من يبتدي بحقوق الله

في اهل طاعته ولا تنازعه نفسه الى حب الشكر اذا كان يقينه بثواب الله تاما وقيل للحسن البصري ما السخاء قال ان تجود بمالك
في الله قيل فما الحزم قال ان تمنع مالك فيه قيل فما الاسراف قال الانفاق لحب الرياسة وقال جعفر الصادق صلوات الله عليه لا مال
اعود من العقل ولا مصيبة اعظم من الجهل ولا مظاهرة كالمشاورة الا وان الله يقول اني جواد كريم لا يجاورني لئيم واللؤم
من الكفر واهل الكفر في النار والجود والكرم من الايمان واهل الايمان في الجنة وقال حذيفة رب فاجر في دينه اخرق في
معيشته يدخل الجنة بسماحته ورأى الاحنف بن قيس رجلا في يده درهم فقال لمن هذا الدرهم فقال لي فقال اما انه ليس لك
حتى يخرج من يدك وفي معناه قيل انت للمال اذا امسكته فاذا انفقته فالمال لك وسمي واصل بن عطاء الغزال لانه كان يجلس
الى الغزالين فاذا رأى امرأة ضعيفة اعطاها شيئا وقال الاصمعي كتب الحسن بن علي الى الحسين عليهما في عطاء الشعراء فكتب اليه خير المال ما وقي
العرض به وقيل لسفيان بن عيينة ما السخاء قال السخاء البر بالاخوان والجود بالمال قال وورث ابي خمسين الف درهم فبعث بها
صررا الى اخوانه وقال قد كنت اسأل الله لاخواني الجنة في صلاتي افابخل عليهم بالدنيا وقال الحسن بذل المجهود في بذل الموجود منتهى
الجود وقيل لبعض الحكماء من احب الناس اليك قال من كثرت اياديه عندي قيل فان لم يكن قال من كثرت اياديّ عنده وقال عبد
العزيز بن مروان اذا الرجل امكنني من نفسه حتى اضع معروفي عنده فيده عندي مثل يدي عنده وقال المهدي لشبيب
ابن شيبة كيف رأيت الناس في داري فقال يا امير المؤمنين ان الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا فتمثل متمثل عند عبد
الملك بن جعفر فقال ان الصنيعة لا تكون صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع فاذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها
لله او لذوي القرابة او دع فقال عبد الله بن جعفر ان هذين البيتين ليبخلان الناس ولكن امطر المعروف مطرا فان اصاب الكرام
كانوا له اهلا وان اصاب اللئام كنت انت له اهلا **حكايات الاسخياء** عن محمد بن المنكدر عن ام درة وكانت تخدم عائشة قالت ان
ابن الزبير بعث اليها بمال في غرارتين ثمانين ومائة الف درهم فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس فلما امست قالت يا جارية هلمي
فطوري فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها ام درة ما استطعت فيما قسمت اليوم ان تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه فقالت لو كنت
ذكرتيني لفعلت وعن ابان بن عثمان قال اراد رجل ان يضار عبد الله بن عباس فاتى وجوه قريش فقال يقول لكم عبد الله
ابن عباس تغدوا عندي اليوم فاتوه حتى ملأوا عليه الدار فقال ما هذا فاخبر بالخبر فامر عبد الله بشراء فاكهة وامر قوما
فطبخوا وخبزوا وقدم الفاكهة اليهم فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد واكلوا حتى صدروا وقال عبد الله لوكلائه
اموجود لنا كلما اردنا قالوا نعم قال فليتغد عندي هؤلاء كل يوم وقال مصعب بن الزبير حج معاوية فلما انصرف من المدينة
قال الحسين بن علي لاخيه الحسن لا تلقه ولا تسلم عليه فلما خرج معاوية قال الحسن ان علينا دينا ولا بد من اتيانه فركب في اثره ولحقه
فسلم عليه واخبره بدينه فمروا عليه ببختي عليه ثمانون الف دينار وقد اعيا وتخلف عن الابل وقوم يسوقونه فقال معاوية
ما هذا فذكر له فقال اصرفوه بما عليه الى ابي محمد وعن واقد بن محمد الواقدي قال حدثني ابي انه رفع رقعة الى المأمون يذكر فيها
كثرة الدين وقلة صبره عليه فوقع المأمون على ظهر رقعته انك رجل اجتمع فيك خصلتان السخاء والحياء فاما السخاء فهو الذي
اطلق ما في يديك واما الحياء فهو الذي يمنعك عن تبليغنا ما انت عليه وقد امرت لك بمائة الف درهم فان كنت قد اصبت
فازدد في بسط يدك وان لم اكن اصبت فجنايتك على نفسك وانت حدثتني وكنت على القضاء للرشيد عن محمد بن اسحق
عن الزهري عن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للزبير بن العوام يا زبير اعلم ان مفاتيح ارزاق العباد بازاء العرش يبعث الله
كل عبد بقدر نفقته فمن كثر كثر له ومن قلل قلل له وانت اعلم قال الواقدي فوالله لمذاكرة المأمون اياي الحديث
احب الي من الجائزة وهي مائة الف درهم وسأل رجل الحسن بن علي حاجة فقال له يا هذا حق سؤالك اياي يعظم لدي ومعرفتي

بما يجب لك مكرعلي وبدي يعجز عن ملك ما انت اهله والكرم ذ... قليل ما في ملكي وقد اشرع فاقبل الميسور ادرع غضي
مووة الاحتمال والاهتمام لما تكلفته من واجبك فقال غالب يا ابن رسول الله اقبل واشكر العطيه واعذر على المنع فدعا الحسن بوكيله
وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال هات الفاضل من الثلثمايه الف فاحضر خمسين الفا قال فما فعل الخمسمايه دينار قال هي عندي
قال احضرها فاحضرها فدفع الدراهم والدنانير الى الرجل فقال هات من يحملها فاتاه بحمالين فدفع اليهما الحسن رداه لكرا الحمل فقال مواليه
والله ما عندنا درهم فقال ولكني ارجو ان يكون لي عند الله اجر عظيم واجتمع قرا البصرة الى ابن عباس وهو عامل البصرة فقالوا ان لنا جارا
صواما قواما يتمنى كل واحد منا ان يكون مثله وقد زوج بنته من ابن اخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به فقام عبد الله واخذ بايديهم
وادخلهم داره وفتح صندوقا واخرج منه ست بدر فقال احملوا فحملوا فقال ابن عباس ما انصفناه اعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه
ارجعوا بنا نكن اعوانه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر ما يشغل مومنا عن عبادة ربه وما بنا من التكبر ما لا نخدم اوليا الله ففعل
وفعلوا وحكي انه لما اجدب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد اميرهم قال والله لاعلمن الشيطان اني عدوه فعالهم الى ان رخص الاسعار
عزل عنهم وللتجار عليه الف الف درهم فرهنهم بها حلي نسايه وقيمتها خمسمايه الف الف درهم فلما تعذر عليه ادعاها كتب اليهم ببيعها ودفع
الفاضل منها عن حقوقهم الى من لم تصله صلاته وكان ابو طاهر بن الكرخي شيعيا فقال له رجل بحق علي بن ابي طالب الا وهبت لي خاتمك بموضع كذا وكذا
فقال له فعلت وحقه لاعطينك ما يليها وكان ذلك اضعاف ما طلب الرجل وكان ابو مرثد احد الكرام فمدحه بعض الشعرا فقال للشاعر والله
ما عندي ما اعطيك ولكن قدمني الى القاضي وادع علي بعشرة الاف درهم حتى اقر لك بها ثم احبسني فان اهلي لا يتركوني محبوسا ففعل ذلك
فلم يمس الا وقد دفع اليه عشرة الاف درهم واخرج ابو مرثد من الحبس وكان معن بن زايدة عاملا على العراقين بالبصرة فحضر بابه شاعر
فاقام مدة واراد الدخول على معن فلم يتهيا له فقال يوما لبعض خدم معن اذا دخل الامير البستان فعرفني فلما دخل الامير البستان عرفه فكتب
الشاعر بيتا على خشبة والقاها في الما الذي يدخل بستان معن وكان معن على راس الما فلما بصر بالخشبة اخذها وقراها واذا عليها مكتوب
ايا جود معن ناج معنا بحاجتي فما لي الى معن سواك شفيع قال من صاحب هذه فدعي بالرجل فقال له كيف قلت فقالها
له فامر بعشر بدر فاخذها ووضع الامير الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثاني اخرجها من تحت البساط وقراها فدعا بالرجل
فدفع اليه مائة الف درهم فلما اخذ الرجل تفكر وخاف ان ياخذ منه ما اعطاه فخرج فلما كان في اليوم الثالث قراها ودعا بالرجل
فطلب فلم يوجد فقال حق علي ان اعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار وقال ابو الحسن المدايني خرج الحسن والحسين
وعبد الله بن جعفر حجاجا ففاتتهم اثقالهم فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز في خبا لها فقالوا هل من شراب فقالت نعم فاناخوا اليها
وليس لها الا شويهة في كسر الخيمة فقالت احلبوها وامتذقوا لبنها ففعلوا ذلك ثم قالوا هل من طعام فقالت لا الا هذه الشاة فليذبحها
احدكم حتى اهيي لكم ما تاكلون فقام اليها احدهم فذبحها وكشطها ثم هيات لهم طعاما فاكلوا واقاموا حتى ابردوا فلما ارتحلوا قالوا لها
نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فاذا رجعنا سالمين فالمي بنا فانا صانعون بك خيرا ثم ارتحلوا واقبل زوجها فاخبرته بخبر القوم
والشاة فغضب الرجل وقال ويلك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش قال ثم بعد مدة الجاتهما الحاجة الى دخول المدينة فدخلاها
وجعلا ينقلان البعر ويبيعانه ويعيشان بثمنه فمرت العجوز في بعض سكك المدينة فاذا الحسن جالس على باب داره فعرف العجوز وهي له منكرة فبعث
الحسن عليه السلام غلامه ودعا العجوز فقال لها يا امة الله اتعرفيني قالت لا قال انا ضيفك يوم كذا وكذا فقالت العجوز بابي انت وامي انت هو قال نعم ثم امر الحسن
فاشترى لها من شاء الصدقة الف شاة وامر لها بالف دينار وبعث بها مع غلامه الى الحسين عليه السلام فقال لها بكم وصلك اخي قالت بالف شاة والف دينار
فامر لها الحسين بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه الى عبد الله بن جعفر رضي الله عنه فامر لها بالفي دينار والفي شاة فقال لها لو بدات بي لاتعبتهما فرجعت فامر لها
العجوز الى زوجها باربعة الاف شاة واربعة الاف دينار وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله وهو وحده فقام اليه غلام
من ثقيف

من ثقيف فمشى الى جانبه فقال له عبد الله الك حاجة يا غلام فقال صلاحك وفلاحك رايتك تمشي وحدك فقلت اقيك بنفسي
والعياذ بالله من ان يطير بجانبك مكروه فاخذ عبد الله بيده ومشى معه الى منزله ثم دعا بالف دينار فدفعها الى الغلام فقال استنفق هذه
فنعم ما ادبك اهلك وحكي ان قوما من العرب جاوا الى قبر بعض اسخيائهم للزيارة فنزلوا عند قبره للزيارة فباتوا عنده وقد كانوا
جاوا من سفر بعيد فراى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول هل لك ان تبادل بعيرك بنجيبي وقد كان خلف السخي نجيبا معروفا ولهذا الرجل
بعير سمين فقال في النوم نعم وباع في النوم بعيره بنجيبه فلما وقع العقد بينهما عمد هذا الرجل الى بعيره فنحره في النوم فانتبه الرجل من نومه
والدم يخرج من نحر بعيره فقام الرجل من النوم فنحره وقسم لحمه وطبخوا وقضوا حاجتهم ثم رحلوا وساروا فلما كان في اليوم الثاني وهم في الطريق استقبلهم
ركب فقال رجل منهم من فلان بن فلان منكم باسم ذلك الرجل فقال الرجل انا فقال هل بعت من فلان شيا وذكر الميت صاحب القبر قال نعم بعت منه
بعيري بنجيبه في النوم فقال خذ هذا نجيبه ثم قال هو ابي فرايته في النوم وهو يقول ان كنت ابني فادفع نجيبي الى فلان وسماه وقدم
رجل من قريش من سفر فمر برجل من الاعراب على قارعة الطريق قد اقعده الدهر فقال الرجل لغلامه ما بقي من النفقة فادفعه اليه فصب الغلام في حجر الاعرابي
اربعة الاف درهم فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف فبكى فقال له الرجل ما يبكيك لعلك استقللت ما اعطيناك فقال لا ولكن ذكرت ما
تاكل الارض من كرمك فابكاني واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن ابي معيط داره التي في السوق بتسعين الف درهم فلما كان الليل سمع بكا
اهل خالد فقال لاهله ما لهولا قالوا يبكون للدار قال يا غلام فاعلمهم ان الدار والمال لهم جميعا وقيل انفذ هرون الرشيد الى مالك
ابن انس خمسمايه دينار فبلغ ذلك الليث بن سعد فارسل اليه الف دينار فغضب هرون وقال اعطيته خمسمايه دينار وتعطيه الفا وانت من رعيتي
فقال يا امير المومنين ان لي من غلتي كل يوم الف دينار فاستحييت ان اعطي مثله اقل من دخل يوم وحكي انه لم يجب عليه الزكاة مع ان دخله في كل يوم الف دينار
وروي ان امراة سالت الليث بن سعد شيا من عسل فامر لها بزق من عسل فقيل له انها كانت تقنع بدون هذا فقال انها سالت
على قدرها ونعطيها على قدر النعمة علينا وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلثمايه وستين مسكينا وقال الاعمش اشتكيت شاة عندي
وكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسالني هل استوفت علفها وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها وكان تحتي لبد اجلس عليه
فاذا خرجت قال خذ ما تحت اللبد حتى وصل الي في علة الشاة اكثر من ثلثمايه دينار من بره حتى تمنيت ان الشاة لم تبرا وقال عبد الملك بن مروان
لاسما بنت خارجة بلغني عنك خصال فحدثيني بها فقالت يا امير المومنين ما مددت رجلي بين يدي جليسي قط ولا صنعت طعاما فدعوت
اليه قوما الا كانوا امن علي مني عليهم ولا انضى الي رجل وجهه قط يسالني شيا فاستكثرت شيا اعطيته اياه ودخل نصيب على عبد الملك
وكان نصيب جوادا فاذا لم يجد شيا اكتسب ... على نفسه حتى يخرج عطاوه فلما نظر اليه تمثل له بهذا البيت
اني سمعت مع الصباح مناديا يا من يعين على الفتى المعوان وقال حاجتك قال ديني قال كم هو قال ثلثون الف دينار قال لك دينك
ومثله وقيل ان قيس بن سعد بن عبادة استبطا اخوانه فقيل انهم يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال اخزى الله مالا يمنع الاخوان من الزيارة
ثم امر مناديا فنادى من كان عليه لقيس حق فهو منه في حل قال فكسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده وقال ابو اسحق قال صليت الفجر في
مسجد الاشعث بالكوفة اطلب غريما لي فلما صليت وضع بين يدي حلة ونعلان فقلت لست من اهل هذا المسجد فقيل ان الاشعث بن قيس
الكندي قدم البارحة من مكة فامر لكل من صلى في المسجد بحلة ونعلين وقال الشيخ ابو سعيد النيسابوري سمعت محمد بن محمد الحافظ
يقول سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول كان بمصر رجل عرف بانه يجمع للفقرا شيا فولد لبعضهم مولود قال فجيت اليه فقلت ولد لي مولود
وليس عندي شي فقام معي ودخل على جماعة فلم يفتح بشي فجا الى قبر رجل وجلس عنده وقال رحمك الله كنت تفعل وتصنع واني درت اليوم
على جماعة كلفتهم دفع شي لمولود فلم يتفق لي شي قال ثم قام فاخرج دينارا فكسره بنصفين وناولني نصفه وقال هذا

دين عليك الى ان يفتح الله لك قال فاخذته وانصرفت فاصلحت ما اتفق لي به قال فراى ذلك المحتسب تلك الليلة في منامه ذلك الشخص فقال
سمعت جميع ما قلت وليس لنا اذن في الجواب ولكن احضر منزلي وقل لاولادي يحفروا مكان الكانون ويخرجوا قرابة فيها خمسمايه دينار فاحملها
الى هذا الرجل قال فلما كان من الغد تقدم الى منزل الميت فقص عليهم القصة فقالوا له اجلس وحفروا الموضع واخرجوا الدنانير وجابوها ووضعوها بين
يديه فقال هذا مالكم وليس لرويا حكم فقالوا هو يتسخا ميتا ولا نتسخا نحن احيا فلما الحوا عليه حمل الدنانير الى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة قال
فاخذ منها دينارا فكسره نصفين فاعطاه النصف الذي اقرضه وحمل النصف الاخر وقال هذا يكفيني تصدق به على الفقرا فقال ابو سعيد فلا ادري
اي هولا اسخى وروي ان الشافعي لما مرض مرض موته بمصر قال مروا فلانا يغسلني فلما توفي بلغه خبره فانه بحضره فقال ايتوني بتذكرته قال فاتي
فنظر فيها فاذا على الشافعي سبعون الف درهم دين فكتبها على نفسه وقضاها عنه وقال هذا غسلي اياه اي اراد بهذا قال ابو سعد الخركوشي الواعظ لما قدمت
مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلوني عليه فرايت جماعة من احفاده وزرتهم فرايت فيهم سيما الخير واثار الفضل فقلت بلغ اثره في الخير اليهم فظهرت
بركته فيهم مستدلا بقوله تعالى وكان ابوهما صالحا وقال الشافعي لا ازال احب حماد بن ابي سليمان لشي بلغني عنه انه كان ذات يوم راكبا حماره فحركه فانقطع زره
فمر على خياط واراد ان ينزل اليه ليسوي زره فقال الخياط والله لا نزلت فقام الخياط اليه فسوى زره فاخرج اليه صرة فيها عشرة دنانير فسلمها الى
الخياط واعتذر اليه من قلتها وانشد الشافعي بالمعنى ... على المقلين من اهل المروات ان اعتذاري الى من جا يسالني ما ليس عندي من احدى المصيبات
وعن الربيع بن سليمان قال اخذ رجل بركاب الشافعي فقال يا ربيع اعطه اربعة دنانير واعتذر اليه عني وقال الربيع سمعت الحميدي يقول قدم الشافعي صنعا الى مكة
بعشرة الاف دينار فضرب خباه في موضع خارج من مكة فنثرها على ثوب ثم اقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة يعطيه حتى صلى الظهر ونفض
الثوب وليس عليه شي وعن ابي ثور قال اراد الشافعي الخروج الى مكة ومعه مال وكان قلما يمسك شيا من سماحته فقلت ينبغي ان تشتري بهذا
المال ضيعة تكون لك ولولدك قال فخرج ثم قدم علينا فسالته عن ذلك المال فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني ان اشتريها لمعرفتي باصلها
وقد وقف اكثرها ولكني بنيت بمنى مضربا يكون لاصحابنا اذا حجوا ان ينزلوا فيه وانشد الشافعي ارى نفسي تتوق الى امور يقصر دون مبلغهن مالي
فنفسي لا تطاوعني ببخل ومالي لا يبلغني فعالي وقال محمد بن عباد المهلبي دخل ابي على المامون فوصله بالف الف درهم فلما قام من عنده تصدق
بها فاخبر بذلك المامون فلما عاد اليه عاتبه المامون في ذلك فقال يا امير المومنين منع الموجود سو الظن بالمعبود فوصله بالف الف
اخرى وقام رجل الى سعيد بن العاص فساله فامر له بماية الف درهم فبكى فقال سعيد ما يبكيك فقال ابكي على الارض ان تاكل مثلك فامر له بماية
الف اخرى ودخل ابو تمام على ابرهيم بن شكلة بابيات فامتدحه بها فحجبه ... ليلا فقبل منه المدح وامر حاجبه بنيله ما يصلح وقال
عني انا قوم من مرض فلا حاجة فاقام شهرين فاوحشه طول المقام فكتب اليه ان حراما قبول مدحتنا وترك ما نرتجي من الصفد
كما الدراهم والدنانير في البيع حرام الا يدا بيد فلما وصل الى ابرهيم البيتان قال لحاجبه كم اقام بالباب قال شهرين قال اعطه ثلاثين الفا وجي
بدواة فكتب اليه اعجلتنا فاتاك عاجل برنا قلا ولو امهلتنا لم نقلل فخذ القليل وكن كانك لم تسل ونكون نحن كاننا لم نفعل وكان
لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون الف درهم فخرج عثمان يوما الى المسجد فقال له طلحة قد تهيا مالك فاقبضه فقال هو لك يا ابا محمد معونة على مروتك
وقالت سعدى بنت عوف دخلت على طلحة فرايت منه ثقلا فقلت ما لك فقال اجتمع عندي مال وقد غمني فقلت وما يغمك ادع قومك فقال يا غلام علي
بقومي فقسمه فيهم فسالت الخادم كم كان فقال اربعمايه الف وجا اعرابي الى طلحة فساله وتقرب اليه برحم فقال ان هذه رحم ما سالني بها احد
قبلك ان لي ارضا قد اعطاني بها عثمان ثلثمايه الف فان شيت فاقبضها وان شيت بعتها من عثمان ودفعت اليك الثمن فقال الثمن فباعها من عثمان
ودفع اليه الثمن وقيل بكى علي صلوات الله عليه يوما فقيل له ما يبكيك فقال لم ياتني ضيف منذ سبعة ايام اخاف ان يكون الله قد اهانني واتى
رجل صديقا له فدق عليه الباب فقال ما حاجتك قال علي اربعمايه درهم دين فقال خذوها ... فلما رجع الى ... وهو يبكي فقالت امراته لم اعطيته
اذ

اذ شق عليك قال نعم ابكي لاني لم اتفقد حاله حتى احتاج الى مفاتحتي واما فضيلة خصوص الفقرا من الراضين والقانعين والصادقين
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن هدي للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به وقال صلى الله عليه وسلم يا معشر الفقرا اعطوا الله الرضا من قلوبكم
تظفروا بثواب فقركم والا فلا فالاول للقانع وهذا للراضي ويكاد يشعر بمفهومه ان الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في
فضل الفقر تدل على ان له ثوابا كما بيناه تحقيقه فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه ورب راغب في المال لا يخطر
بقلبه انكار على الله ولا كراهة في فعله فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر وروي عن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان لكل شي مفتاحا
ومفتاح الجنة حب المساكين والفقرا الصبر هم جلسا الله تعالى يوم القيمة وروي عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال احب العباد الى الله الفقير
القانع برزقه الراضي عن الله وقال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل قوت ال محمد كفافا وقال ما من احد غني ولا فقير الا ود يوم القيمة انه كان اوتي
قوتا في الدنيا واوحى الله الى اسماعيل عليه السلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم قال ومن هم قال الفقرا الصادقون وقال عليه السلام لا احد افضل من الفقير
اذا كان راضيا وقال تعالى يقول الله يوم القيمة اين صفوتي من خلقي فيقول الملائكة من هم يا ربنا فيقول فقرا المسلمين القانعين بعطائي الراضين بقدري
ادخلوهم الجنة فيدخلونها وياكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون هذا في القانع والراضي واما الزاهد فسيذكر فضله في الشطر الثاني
من الكتاب ان شا الله تعالى **فاما الاثار في الرضا والقناعة فكثيرة ولا يخفى ان القناعة تضاد الطمع** وقد قال عمر رضي الله عنه
ان الطمع فقر واليأس غنى وانه من ييأس عما في ايدي الناس وقنع استغنى عنهم وقال ابن مسعود ما من يوم الا وملك ينادي من تحت العرش يا ابن ادم
قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال ابو الدرداء ما من احد الا وفي عقله نقص وذلك انه اذا اتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل والنهار
دايبان في هدم عمره لا يحزنه ذلك ويح ابن ادم ما ينفعه مال يزيد وعمر ينقص وقيل لبعض الحكما ما الغنى قال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك
وقد كان ابرهيم بن ادهم من اهل النعم بخراسان فبينما هو يشرف من قصره ذات يوم اذ نظر الى رجل في فنا القصر وبيده رغيف ياكله فلما اكل نام فقال
لبعض غلمانه اذا قام فجيني به فلما قام جا به اليه فقال له ابرهيم ايها الرجل اكلت الرغيف وانت جايع قال نعم قال فشبعت قال نعم قال ثم نمت طيبا
قال نعم فقال ابرهيم في نفسه فما اصنع انا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو ياكل ملحا وبقلا فقال له
يا عبد الله ارضيت من الدنيا بهذا فقال الا ادلك على من رضي بشر من هذا قال بلى قال من رضي بالدنيا عوضا عن الاخرة وكان محمد بن واسع يخرج
خبزا يابسا فيبله بالما وياكله بالملح ويقول من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج الى احد وقال الحسن لعن الله اقواما اقسم الله تعالى لهم ثم لم
يصدقوه ثم قرا وفي السما رزقكم وما توعدون فورب السما والارض وقال ابو داود رضي الله عنه يوما جالسا في الناس فاتته امراته
فقالت له اتجلس بين يدي هولا والله ما في البيت دقيق ولا شي فقال ياهذه ان بين ايدينا عقبة كوودا لا يجوزها الا كل مخف فرجعت
وهي راضية وقال ذو النون اقرب الناس الى الكفر ذو فاقة لا صبر له وقال بعض الحكما ما مالك فقال التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس
مما في ايدي الناس وروي ان الله تعالى قال في بعض الكتب المنزلة يا ابن ادم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها الا القوت فاذا انا
اعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فانا محسن اليك وقد قيل اضرع الى الله لا تضرع الى الناس واقنع بياس فان العز في الياس
واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم ان الغني من استغنى عن الناس وقال ايضا يا جامعا مانعا والدهر يرمقه مقدرا اي باب فيه يغلقه
مفكرا كيف تاتيه منيته اغاديا ام بها يسري فتطرقه جمعت مالا فقل هل جمعت له يا جامع المال اياما تفرقه المال عندك مخزون لوارثه
ما المال مالك الا يوم تنفقه ارفه ببال فتى يغدو على ثقة ان الذي قسم الارزاق يرزقه فالعرض منه مصون لا يدنسه والوجه منه جديد ليس يخلقه
ان القناعة من يحلل بساحتها لم يلق في ظلها هما يورقه **باب فضل الفقر على الغنى** اعلم ان الناس قد اختلفوا في هذا فذهب الجنيد
والخواص والاكثرون الى تفضيل الفقر وقال ابن عطا الغني الشاكر القايم بحقه افضل من الفقير الصابر ويقال ان الجنيد دعا

على من عطا الممتحنة بامر هذا اصابته محنة وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وجه التفاوت بين الغنى والشكر ومهدنا سبيل طلب الفضيلة
في الاعمال والاحوال وان ذلك لا يمكن الا بتفصيل واما الفقر والغنى اذا اخذ مطلقا لم يسترب من قرا الاخبار والآثار في تفضيل الفقر
ولا بد فيه من تفصيل **فنقول** انما يتصور الشك في مقامين احدهما فقير صابر ليس حريصا على الطلب بل هو قانع او راض بالاضافة الى غني
منفق ماله في الخيرات ليس حريصا على امساك المال والثاني فقير حريص مع غني حريص اذ لا يخفى ان الفقير القانع افضل من الغني الحريص الممسك وان
الغني المنفق ماله في الخيرات افضل من الفقير الحريص اما الاول فربما يظن ان الغني افضل من الفقير لانهما تساويا في ضعف الحرص على المال والغني متقرب
بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذي ظنه ابن عطا فيما نحسبه فاما الغني المتمتع بالمال وان كان في مباح فلا يتصور ان يفضل على
الفقير القانع وقد يشهد له ما روي في الخبر ان الفقرا شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الاغنيا بالخيرات والصدقات والحج والجهاد فعلمهم كلمات في التسبيح
وذكر لهم انهم ينالون بها فوق ما ناله الاغنيا فتعلم الاغنيا ذلك فكانوا يقولونه فعادوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام ذلك
فضل الله يوتيه من يشا وقد استشهد ابن عطا لما سئل عن ذلك فقال الغني افضل لانه وصف الحق اما دليله الاول ففيه نظر لان الخبر قد ورد
مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو ان ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغني وان فوزهم بذلك الثواب فضل الله يوتيه من يشا فقد
روى زيد بن اسلم عن انس بن مالك قال بعث الفقرا رسولا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اني رسول الفقرا اليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من
عندهم جئت من عند قوم احبهم قال قالوا يا رسول الله ان الاغنيا ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه ويعتمرون ولا نقدر عليه واذا مرضوا
بعثوا بفضل اموالهم ذخيرة لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلغ عني الفقرا ان لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للاغنيا اما خصلة واحدة
فان في الجنة غرفا ينظر اليها اهل الجنة كما ينظر اهل الارض الى نجوم السما لا يدخلها الا نبي فقير او شهيد فقير او مومن فقير والثانية يدخل
الفقرا الجنة قبل الاغنيا بنصف يوم وهو خمسمائة عام والثالثة اذا قال الغني سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وقال الفقير مثل ذلك
لم يلحق الغني بالفقير وان انفق فيها عشرة الاف درهم وكذلك اعمال البر كلها فرجع اليهم فقالوا رضينا رضينا فهذا يدل على ان قوله ذلك
فضل الله يوتيه من يشا معناه مزيد ثواب الفقرا على ذكرهم واما قوله ان الغنى وصف الحق فقد اجابه بعض الشيوخ فقال الا ترى ان الحق
تعالى غني بالاسباب والاعراض فانقطع ولم ينطق واجاب آخرون وقالوا التكبر من صفات الحق فينبغي ان يكون افضل من التواضع
ثم قالوا بل هذا يدل على ان الفقر افضل لان صفات العبودية افضل للعبد كالخوف والرجا وصفات الربوبية لا ينبغي ان ينازع فيها
ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم الكبريا ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني فيهما قصمته وقال سهل حب العز
والبقا شرك في الربوبية ومنازعة فيها لانهما من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس كلامهم في الغنى والفقير وحاصله للشيخ تعلق بعمومات
تقبل التاويل وكلمات فاسدة لا يبعد مناقضتها اذ كما تناقض قول من فضل العفو فانه صفة الحق بالتكبر فكذلك تناقض قول من
ذم الغنى لانه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فانه وصف الرب والجهل والغفلة وصف العبد وليس لاحد ان يفضل الغفلة على العلم
فكشف الغطا في هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر وهو ان ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي ان يضاف الى مقصوده اذ به يظهر فضله
والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عايقة عن الوصول الى الله ولا الفقر مطلوب لعينه ولكن لان فيه فقد العلايق عن الله
وعدم الشاغل عنه وكم من غني لم يشغله الغنى مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن
القصد وغاية القصد في الدنيا هو حب الله والانس به ولا يكون ذلك الا بعد معرفة وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر
قد يكون من الشواغل كما ان الغنى قد يكون من الشواغل وانما الشاغل على التحقيق هو حب الدنيا اذ لا يجتمع معه حب الله في القلب
والمحب للشي مشغول به سوا كان في فراقه او في وصاله وربما يكون شغله في الفراق اكثر وربما يكون في الوصال اكثر والدنيا
معشوقة

معشوقة الغافلين فالمحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فاذا ان فرض فارغين عن حب المال بحيث صار
المال في حقهما كالما استوى الفاقد والواجد اذ كل واحد غير ممتنع الا بقدر الحاجة ووجود قدر الحاجة افضل من فقده اذ الجايع يسلك
سبيل الموت لا سبيل المعرفة وان اخذت الامر باعتبار الاكثر فالفقير عن الخطر ابعد اذ فتنة السرا ابعد من فتنة الضرا ومن العصمة ان لا تقدر
ولذلك قال الصحابة رضي الله عنهم بلينا بفتنة الضرا فصبرنا وبلينا بفتنة السرا فلم نصبر وهذه خلقة الآدميين كلهم **الا الشاذ الفذ** الذي
لا يوجد في الاعصار الكثيرة الا نادرا **ولما كان خطاب الشرع** مع الكل لا مع ذلك النادر والضرا اصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع
عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال عيسى عليه السلام لا تنظروا الى اموال اهل الدنيا فان بريق اموالهم يذهب بنور ايمانكم وقال بعض العلما
تقليب الاموال يمص حلاوة الايمان وفي الخبر لكل امة عجل وعجل هذه الامة الدينار والدرهم وكان اصل عجل قوم موسى عليه السلام من حلية الذهب والفضة ايضا
فاستوى المال والما والذهب والحجر انما يتصور للانبيا والاوليا ثم لهم ذلك بعد فضل الله بطول المجاهدة اذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للدنيا
اليك عني اذ كانت تتمثل له بزينتها وكان علي كرم الله وجهه يقول يا صفرا غري غيري ويا بيضا غري غيري وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادي
الاغترار بها لولا ان راى برهان ربه وذلك هو الغنى المطلق وقال عيسى عليه السلام ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس واذا كان ذلك بعيدا
فاذا الاصلح لكافة الخلق فقد المال وان تصدقوا به وصرفوه الى الخيرات لانهم لا ينفكون في القدرة على المال عن انس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها
واستشعار راحة في بذلها وكل ذلك يورث الانس بهذا العالم وبقدر ما يانس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة وبقدر ما يانس ببعض صفاته
سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه **ومهما انقطعت** اسباب الانس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب اذا تجافى
عما سوى الله وكان مومنا بالله انصرف بالطبع الى الله اذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود الا الله وغيره **فمن اقبل** على غيره فقد تجافى عنه
ومن اقبل عليه تجافى عن غيره ويكون اقباله على احدهما بقدر تجافيه عن الآخر وقربه من احدهما بقدر بعده من الآخر ومثلهما مثل المغرب
والمشرق فانهما جهتان فالمتردد بينهما بقدر ما يقرب من احدهما يبعد من الآخر بل عين القرب من احدهما هو عين البعد من الآخر فعين
حب الدنيا هو عين بغض الله فينبغي ان يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوفه عن الدنيا وانسه بها فاذا فضل الفقير والغني بحسب تعلق
قلبيهما بالمال فقط فان تساويا فيه تساوت درجتهما **الا ان هذا مزلة قدم وموضع غرور** فان الغني ربما يظن انه منقطع القلب
عن المال ويكون حبه دفينا في باطنه وهو لا يشعر به وانما يشعر به اذا فقده فليجرب نفسه بتفريقه فاذا اسوف منه فاذا وجد لقلبه
اليه التفاتا فليعلم انه كان مغرورا فكم من رجل باع سرية له لظنه انه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه
النار التي كانت مستكنة فيه فتحقق انه كان مغرورا وان العشق كان مستكنا في الفواد استكنان النار تحت الرماد **وهذا حال** كل الاغنيا
الا الانبيا والاوليا **واذا كان ذلك محالا او بعيدا فليطلق القول بان الفقر اصلح لكافة الخلق وافضل** لان علاقة
الفقير وانسه بالدنيا اضعف وبقدر علاقته تتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته فان حركات اللسان ليست مرادة لاعيانها بل ليتاكد
بها الانس بالمذكور ولا يكون تاثيرها في اثارة الانس في قلب فارغ من غير المذكور كتاثيرها في قلب مشغول ولذلك قال بعض السلف من تعبد وهو
في طلب الدنيا فمثله كمثل من يطفي النار بالحلفا ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك وقال ابو سليمان الداراني تنفس فقير عند شهوة لا يقدر عليها افضل من عبادة
الغني الف عام وعن الضحاك قال من دخل السوق فراى شيا يشتهيه فصبر واحتسب كان خيرا له من الف دينار ينفقها كلها في سبيل الله وقال رجل لبشر بن
الحارث ادع الله لي فقد اضر بي العيال فقال اذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع لي في ذلك الوقت فان دعاك افضل من دعائي وكان
يقول مثل الغني المتعبد مثل روضة على مزبلة ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسنا وكانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الاغنيا وقد
قال ابو بكر الصديق اللهم اني اسالك الذل عند النصف من نفسي والزهد فيما جاوز الكفاف واذا كان مثل الصديق في كماله يحذر من الدنيا

وجودها فكيف يشك في ان فقد المال اصلح من وجوده هذا مع ان احسن احوال الغني ان ياخذ حلالا وينفق طيبا ومع ذلك يطول
حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره **ومن نوقش الحساب** فقد عذب ولهذا تاخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة اذ كان مشغولا بالحساب كما راه
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال ابو الدردا ما احب ان لي حانوتا على باب المسجد لا تخطيني فيه صلاة وذكر وادخر فيه كل يوم اربعين دينارا واتصدق
بها في سبيل الله قيل وما تكره قال شدة الحساب ولذلك قال سفيان اختار الفقرا ثلاثة اشيا والاغنيا ثلاثة اشيا اختار الفقرا راحة النفس وفراغ القلب وخفة
الحساب واختار الاغنيا تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب وما ذكره ابن عطا من ان الغنى وصف الحق فهو افضل صحيح ولكن اذا كان العبد غنيا
عن وجود المال وعدمه جميعا **بان يستوي** عنده كلاهما فاما اذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا الى ابقائه فما يضاهي غناه غنى الله لان الله غني
بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور ان يسرق **وما ذكر** في الرد عليه من ان الله ليس غنيا بالاعراض والاسباب صحيح في ذم غنى يريد بقا المال
وما ذكر من ان صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو افضل شي للعبد بل منتهى العبد ان يتخلق باخلاق الله وقد سمعت بعض المشايخ
يقول ان سالك الطريق الى الله قبل ان يقطع الطريق تصير الاسما التسعة والتسعون اوصافا له اي يكون له من كل واحد نصيب **واما التكبر** فلا يليق
بالعبد فان التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله واما التكبر على من يستحق التكبر عليه كتكبر المومن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فيليق به **نعم**
قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والايذا وليس ذلك من وصف الله واما هو انه اكبر من كل شي وانه يعلم انه كذلك والعبد مامور بان يطلب اعلى المراتب ان
قدر عليه ولكن بالاستحقاق وكما هو حقه لا بالباطل والتلبيس فعلى العبد ان يعلم ان المومن اكرم من الكافر والمطيع اكرم من العاصي والعالم اكرم من الجاهل والانسان
اكرم من البهيمة والجماد والنبات واقرب الى الله منها فلو راى نفسه بهذه الصفة روية محققة لا شك فيها لكان صفة الكبر حاصلا له ولايقا به وفضيلة في
الا انه لا سبيل له الى معرفته فان ذلك موقوف على الخاتمة وليس يدري الخاتمة كيف تكون وكيف يتفق فلجهله بذلك وجب ان لا يعتقد لنفسه رتبة فوق
رتبة الكافر اذ ربما يختم للكافر بالايمان وقد يختم له بالكفر ولم يكن ذلك لا يليق به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور ان يعلم الشي على ما هو به كان العلم
كمالا لانه من صفات الله ولما كان معرفة بعض الاشيا قد تضره صار معرفة الامور التي لا ضرر فيها هي التي تتصور في العبد من صفات الله هو منتهى الفضيلة وبه
فضل الانبيا والاوليا والعلما واذا استوى عنده وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله فهو فضيلة
اما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه اصلا فهذا نسبة الفقير القانع الى حال الغني الشاكر **المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص الى حال الغني**
الحريص ولنفرض ذلك في شخص واحد هو طالب المال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حال الفقد وحال الوجود فاي حالتيه افضل **فنقول**
ينظر فان كان مطلوبه ما لا بد منه في المعيشة وكان قصده ان يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود افضل لان الفقر يشغله بالطلب وطالب القوت
لا يقدر على الذكر والفكر الا قدرا مدخولا بشغل ولكن المكفي هو القادر ولذلك قال عليه السلام اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا وقال كاد الفقر ان يكون كفرا اي الفقر
مع الاضطرار فيما لا بد منه وان كان المطلوب فوق الحاجة او كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة على سلوك سبيل الدين فحال
الفقد افضل واصلح لانهما استويا في الحرص وحب المال واستويا في انه ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين واستويا في انه
ليس يتعرض للمعصية بسبب الفقر والغنى ولكن افترقا في ان الواجد يانس بما وجده فيتاكد حبه في قلبه ويطمئن الى الدنيا والفاقد المضطر يتجافى قلبه
عن الدنيا وتكون الدنيا عنده مثل السجن الذي يبغي الخلاص منه **ومهما** استوت الامور كلها وخرج من الدنيا رجلان احدهما اشد ركونا الى الدنيا
فحاله اشد لا محالة اذ يلتفت قلبه الى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تاكد انسه بالدنيا وقد قال صلى الله عليه وسلم ان روح القدس نفث
في روعي احبب ما احببت فانك مفارقه وهذا تنبيه على ان فراق المحبوب شديد فينبغي ان تحب ما لا يفارقك وهو الله ولا تحب ما يفارقك
وهو الدنيا فانك اذا احببت الدنيا كرهت لقا الله فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما تحبه وكل من فارق محبوبا فيكون
اذاه في فراقه بقدر حبه وقدر انسه به وانس الواجد للدنيا بالدنيا اكثر من انس الفاقد لها وان كان حريصا عليها فاذا قد انكشف بهذا التحقيق
ان الفقر

ان الفقر هو الاشرف والافضل والاصلح لكافة الخلق الا في موضعين احدهما غنى مثل غنى عايشة رضي الله عنها يستوي عنده الوجود
والعدم فيكون الوجود مزيدا له اذ يستفيد به ادعية الفقرا والمساكين وجمع هممهم والثاني الفقر عن مقدار الضرورة فان ذلك
يكاد ان يكون كفرا ولا خير فيه بوجه من الوجوه الا اذا كان وجوده يبقي حياته ثم يستعين به بقوته وحياته على الكفر والمعاصي
ولو مات جوعا لكانت معاصيه اقل فالاصلح له ان يموت جوعا ولا يجد ما يضطر اليه ايضا **فهذا** تفصيل القول في الغنى والفقير
وبقي النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه وفي غني دونه في الحرص على حفظ المال ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده
كتفجع الفقير بفقره فهذا في محل النظر والاظهر ان بعدهما من الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده
والعلم عند الله فيه **بيان ادب الفقير في فقره** اعلم ان للفقير آدابا في باطنه وظاهره ومخالطته وافعاله ينبغي ان يراعيها فاما
ادب باطنه فان لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله به من الفقر اعني انه لا يكون كارها فعل الله من حيث انه فعله وان كان كارها للفقر
كالمحجوم بل ربما يكون كارها للحجامة لتالمه بها ولا يكون كارها فعل الحجام بل ربما يتقلد منه منة **فهذا** اقل درجاته وهو واجب ونقيضه
حرام ومحبط ثواب الفقير وهو معنى قوله عليه السلام يا معشر الفقرا اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا **وارفع**
من هذا ان لا يكون كارها للفقر بل يكون راضيا به **وارفع** منه ان يكون طالبا وفرحا به لعلمه بغوايل الغنا ويكون متوكلا بباطنه
على الله واثقا به في قدر ضرورته انه ياتيه لا محالة ويكون كارها للزيادة على الكفاف وقد قال علي رضي الله عنه ان لله تعالى عقوبات بالفقر
ومثوبات بالفقر **فمن علامة الفقر** اذا كان مثوبة ان يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله على فقره **ومن علامته** اذا كان
عقوبة ان يسو عليه خلقه ويعصي ربه ويكثر الشكاية ويتسخط القضا وهذا يدل على ان كل فقير فليس بمحمود بل المحمود الذي لا يتسخط
ويرضى او يفرح بالفقر لعلمه بثمرته اذ قيل ما اعطي عبد شيا من الدنيا الا قيل له خذه على ثلاثة اثلاث شغل وهم وطول حساب **واما**
ادب ظاهره فان يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ويستر انه يستره ففي الحديث ان الله يحب الفقير المتعفف
ابا العيال وقال تعالى يحسبهم الجاهل اغنيا من التعفف وقال سفيان افضل الاعمال التجمل عند المحنة وقال بعضهم ستر الفقر من كنوز
البر **واما** اعماله فادبه ان لا يتواضع لغني لاجل غناه بل يتكبر عليه قال علي كرم الله وجهه ما احسن تواضع الغني للفقير رغبة
في ثواب الله واحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل **فهذه** رتبة واقل منها ان لا يخالط الاغنيا ولا يرغب في مجالستهم
لان ذلك من مبادي الطمع قال الثوري اذا خالط الفقير الاغنيا فاعلم انه مراي واذا خالط السلطان فاعلم انه لص وقال بعض
العارفين اذا مال الفقير الى الاغنيا انحلت عروته فاذا طمع فيهم انقطعت عصمته فاذا سكن اليهم ضل وينبغي ان لا يسكت عن ذكر الحق
مداهنة للاغنيا وطمعا في العطا **واما** ادبه في افعاله فبان لا يفتر بسبب الفقر عن عبادته ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه
فان ذلك جهد المقل وفضله اكثر من اموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى روى عن زيد بن اسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم درهم
من الصدقة افضل عند الله من مائة الف درهم قيل وكيف ذلك يا رسول الله قال اخرج رجل من عرض ماله مائة الف فتصدق بها
واخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم افضل من صاحب المائة الف وينبغي ان لا يدخر
مالا بل ياخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي **وفي الادخار ثلاث درجات** احدها ان لا يدخر الا ليومه وليلته وهي درجة
الصديقين **والثانية** ان يدخر لاربعين يوما فان ما زاد عليه داخل في طول الامل وقد فهم العلما ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى
عليه السلام ففهم منه الرخصة في امل الحياة اربعين يوما وهذه درجة المتقين **والثالثة** ان يدخر لسنته وهي اقصى المراتب
وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية فغنى الصالح

المضعف في طلبه بقلبه في قوته سنة وفي الخصوص اربعين يوما وفي خصوص الخصوص في يوم وليلة **بيان آداب الفقير في قبول العطاء**
اذا جاءه بغير سؤال ينبغي ان يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة امور نفس المال وغرض المعطي وغرضه في الاخذ اما نفس المال فينبغي
ان يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها فان كان فيه شبهة فليحترز من اخذه وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه
وما يستحب واما غرض المعطي فلا يخلو اما ان يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية او الثواب وهو الصدقة والزكاة او الذكر
والرياء والسمعة اما على التجرد واما ممزوجا ببقية الاغراض اما الاول وهو الهدية فلا بأس بقبولها فان قبولها سنة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولكن ينبغي ان لا يكون فيها منة فان كان فيها منة فالاولى تركها فان علم ان بعضها مما يعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض فقد اهدي
الى النبي صلى الله عليه وسلم سمن واقط وكبش فقبل السمن والاقط ورد الكبش وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض وقال
لقد هممت ان لا اتهب الا من قرشي او ثقفي او دوسي وفعل هذا جماعة من التابعين رحمهم وجاء الى فتح الموصلي صرة فيها خمسون درهما فقال حدثنا عطا
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اتاه رزق من غير مسألة فرده فانما يرده على الله عز وجل ثم فتح الصرة فاخذ منها درهما ورد سايرها وكان الحسن
يروي هذا الحديث ايضا ولكن حمل اليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل
هذا لقي الله عز وجل يوم يلقاه وليس له خلاق **وهذا** يدل على ان امر العالم والواعظ اشد في قبول العطا وقد كان الحسن يقبل من اصحابه وكان
ابراهيم التيمي يسأل اصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المايتين فلا ياخذ وكان بعضهم اذا اعطاه صديقه شيا يقول اتركه عندك وانظر
ان كنت بعد قبوله في قلبك افضل مني قبل القبول فاخبرني حتى آخذه والا فلا وامارة هذا ان يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول
ويرى المنة على نفسه في قبول صديقه هديته فان علم انه يمازجه منه فاخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين وقال بشر ما سألت
احدا قط شيا الا سري السقطي لانه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فاكون عونا له على ما يحب
وجاء خراساني الى الجنيد بمال وسأله ان يأكله فقال افرقه على الفقراء فقال ما اريد هذا فقال ومتى اعيش حتى آكل هذا فقال ما اريد ان تنفقه
في الخل والبقل بل في الحلاوي والطيبات فقبل ذلك منه فقال الخراساني ما اجد ببغداد امن علي منك فقال الجنيد ولا ينبغي ان يقبل الا من مثلك **الثاني**
ان يكون للثواب المجرد وذلك صدقة او زكاة فعليه ان ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق الزكاة فان اشتبه عليه فهو محل شبهة وقد ذكرنا
تفصيل ذلك في كتاب اسرار الزكاة وان كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر الى باطنه فان كان مقارفا لمعصية في السر يعلم ان المعطي لو علم ذلك
لنفر طبعه ولما تقرب الى الله بالتصدق عليه فهذا حرام اخذه كما لو اعطاه لظنه انه عالم او علوي ولم يكن فان اخذه حرام محض لا شبهة فيه
الثالث ان يكون غرضه الشهرة والرياء والسمعة فينبغي ان يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله اذ يكون معينا له على غرضه الفاسد وكان سفيان الثوري
يرد ما يعطى ويقول لو علمت انهم لا يذكرون ذلك افتخارا به لاخذت وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة فقال انما ارد صلتهم اشفاقا
ونصحا لهم لانهم يذكرون ذلك ويحبون ان يعلم به فتذهب اموالهم وتحبط اجورهم واما غرضه فينبغي ان ينظر اهو محتاج اليه
فيما لا بد له منه او هو مستغن عنه فان كان محتاجا اليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالافضل له الاخذ قال النبي صلى الله
عليه وسلم ما المعطي من سعة باعظم اجرا من الآخذ اذا كان محتاجا وقال صلى الله عليه وسلم من اتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف
فانما هو رزق ساقه الله تعالى اليه وفي لفظ آخر فلا يرده وقال بعض العلماء من اعطي ولم يأخذ سأل ولم يعط وقد كان سري السقطي يوصل
الى احمد بن حنبل رحمهما الله شيا فرده مرة فقال السري يا احمد احذر آفة الرد فانها اشد من آفة الاخذ فقال له احمد اعد علي ما قلت فاعاده فقال احمد ما رددت
عليك الا لان عندي قوت شهر فاحبسه لي عندك فاذا كان بعد شهر فانفذه الي وقد قال بعض العلماء يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة
من ابتلاء بطمع او دخول في شبهة او غيره فاما اذا كان ما اتاه زايدا على حاجته فلا يخلو اما ان يكون حاله الاشتغال بنفسه والتكفل
بامور

بامور الفقراء والانفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء فان كان مشغولا بنفسه فلا وجه لاخذه وامساكه وان كان طالبا الطريق فهو محض
اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو في سبيل الشيطان او داع اليه ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه ثم له مقامان احدهما ان يأخذ في العلانية ويرد
في السر او يفرق في السر وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه الا من اطمأنت نفسه بالرياضة والثاني ان يترك ولا يأخذ ليصرفه
صاحبه الى من هو احوج منه فيجمع له اجر التراضع كلاهما في العلانية وقد ذكرنا ان الافضل اظهار الاخذ واخفاؤه في كتاب اسرار الزكاة مع جملة
من احكام الفقر فليطلب من موضعه واما امتناع احمد رحمه الله من قبول عطا سري السقطي رحمه الله فانما كان لاستغنائه عنه اذ كان عنده قوت شهر
ولم يرض لنفسه ان يشتغل باخذه وصرفه الى غيره فان في ذلك آفات واخطارا والورع يكون حذرا من مظان الآفات اذ لا يأمن مكايد الشيطان على نفسه
وقال بعض المجاورين بمكة كان عندي دراهم اعددتها للانفاق في سبيل الله فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي جايع كما ترى عريان
كما ترى فما ترى يا من يرى ولا يرى فنظرت فاذا عليه خلقان لا تكاد تواريه فقلت في نفسي لا اجد لدراهمي موضعا احسن من هذا فحملتها اليه فنظر اليها ثم اخذ
منها خمسة دراهم فقال اربعة ثمن مئزرين ودرهم انفقه ثلاثا فلا حاجة لي الى الباقي فرده قال فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس في نفسي منه شيء فالتفت الي فاخذ بيدي
فاطافني معه اسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الارض يتخشخش تحت اقدامنا الى الكعبين منها ذهب وفضة وياقوت وجوهر ولم يظهر ذلك للناس
فقال هذا كله قد اعطانيه فزهدت فيه واخذ من ايدي الخلق لان هذه اثقال وفتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة والمقصود ان الزيادة على قدر الحاجة
انما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه **وقدر الحاجة** يأتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله تعالى انا
جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا وقد قال صلى الله عليه وسلم لاحق لابن آدم الا في ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يواري عورته وبيت يكنه
فما زاد فهو حساب فاذا انت في اخذك لحاجة من هذه الثلاث مثاب وفيما زاد عليه ان لم تعص الله متعرض للحساب وان انت عصيت فانت متعرض للعذاب
ومن الاختبار ايضا ان تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا الى الله وكسرا لصفة النفس فتأتيك عفوا من غير تعب لامتحان عقدك فالاولى الامساك
عنها فان النفس اذا رخص لها في نقض العزم الف نقض العهد وصارت لعادتها فلا يمكن فطامها فرد ذلك مهم وهو الزهد فان اخذته وصرفته
الى المحتاج فهو غاية الزهد ولا يقدر عليه الا الصديقون فاما اذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وبادر بالتفرقة
اليهم ولا تدخر فان امساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار فربما يحلو في قلبك فتمسكه ويكون فتنة عليك فقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة
اتخذوها وسيلة الى التوسع في المال والتنعم في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك فمن كان غرضه الرفق وطلب الثواب فله ان يستقرض على حسن الظن بالله
لا على اعتماد السلاطين الظلمة فان رزقه الله من حلال قضاه وان مات قبل القضا قضى الله عنه وارضى غرماءه وذلك بشرط ان يكون مكشوف الحال عند من يقرضه
فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على اقراضه على بصيرة ودين مثل هذا الرجل واجب ان يقضى من مال بيت المال ومن
الزكوات وقد قال تعالى ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله قيل معناه فليبع احد ثوبيه وقيل معناه فليستقرض بجاهه فذلك مما آتاه الله وقال بعضهم ان لله
عبادا ينفقون على قدر حسن الظن بالله ومات بعضهم فاوصى بثلث ماله لثلاث طوايف الاقوياء والاسخياء والاغنياء فقيل من هؤلاء فقال اما الاقوياء فهم اهل
التوكل على الله واما الاسخياء فهم اهل حسن الظن بالله واما الاغنياء فهم اهل الانقطاع الى الله فاذا اتيتهما وجدت هذه الشروط فيه في المال وفي
المعطي فليأخذه وينبغي ان يرى ما يأخذه من الله لا من المعطي لان المعطي واسطة قد سخر للعطاء وهو مضطر اليه بما سلط عليه من الدواعي والارادات والاعتقادات
وقد حكي ان بعض الناس دعا شقيقا رحمه الله في خمسين من اصحابه فوضع الرجل مايدة حسنة فلما قعدوا قال شقيق لاصحابه ان هذا الرجل يقول من لم ير اني
صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامي عليه حرام فقاموا كلهم وخرجوا الا شابا كان دونهم في الدرجة فقال صاحب المنزل لشقيق ما قصدت بهذا
فقال اردت ان اختبر توحيد اصحابي كلهم وقال موسى عليه السلام يا رب جعلت رزقي هكذا على ايدي بني اسرائيل يغديني هذا يوما ويعشيني
هذا ليلة فاوحى الله اليه هكذا افعل باوليايي اجري ارزاقهم على ايدي البطالين من عبادي ليوجروا فيهم فلا ينبغي ان يرى المعطي
الا من حيث انه مسخر ماجور **بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر اليه** اعلم انه قد وردت

مناهي في السؤال وتشديدات وورد فيه ايضا ما يدل على الرخصة اذ قال صلى الله عليه وسلم للسائل حق وان جاء على فرس وفي الحديث ردوا السائل
ولو بظلف محرق ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز اعانة المتعدي على عدوانه والاعطاء اعانة فالكاشف للغطاء فيه ان السؤال حرام في الاصل
وانما يباح بضرورة او حاجة مهمة قريبة من الضرورة فان كان عنها بد فهو حرام وانما قلنا ان الاصل فيه التحريم لانه لا ينفك عن ثلاثة امور محرمة **الاول**
اظهار الشكوى من الله اذ السؤال اظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى وكما ان العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله
تشنيعا على سيده فكذا سؤال العبد تشنيع على الله وهذا ينبغي ان يحرم ولا يحل الا لضرورة كما تحل الميتة **والثاني** ان فيه اذلال
السائل نفسه لغير الله وليس للمؤمن ان يذل نفسه لغير الله بل عليه ان يذل نفسه لمولاه فان فيه عزه فاما سائر الخلق فانهم عباد امثاله
فلا ينبغي ان يذل لهم الا لضرورة وفي السؤال ذل للسائل بالاضافة الى المسؤول **والثالث** انه لا ينفك عن ايذاء المسؤول غالبا لانه ربما
لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه فان بذل حياء من السائل او رياء فهو حرام على الآخذ وان منع ربما استحيى وتأذى في نفسه بالمنع اذ
يرى نفسه في صورة البخلاء ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل هو السبب في الايذاء والايذاء حرام الا
بضرورة **ومهما فهمت** هذه المحذورات الثلاث فهمت قوله صلى الله عليه وسلم حيث قال صلى الله عليه وسلم مسألة الناس من الفواحش ما احل من الفواحش غيرها
فانظر كيف سماها فاحشة ولا يخفى ان الفاحشة انما تباح لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره وقال صلى الله عليه وسلم
من سأل عن غنى فانما يستكثر من جمر جهنم ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع ليس عليه لحم وفي لفظ آخر كانت
مسألته خدوشا وكدوحا في وجهه وهذه الالفاظ صريحة في التحريم والتشديد وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الاسلام
واشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفية ولا تسألوا الناس شيا وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال ويقول من سألنا اعطيناه
ومن استغنى اغناه الله ومن لم يسألنا فهو احب الينا وقال عليه السلام استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير قالوا ومنك يا رسول الله
قال ومني وسمع عمر رضي الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال الم
اقل لك عش الرجل فقال قد عشيته فنظر عمر فاذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزا فقال لست سائلا ولكنك تاجر ثم اخذ المخلاة ونثرها
بين يدي ابل الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تعد ولولا ان سؤاله كان حراما لما ضربه ولا اخذ مخلاته **ولعل الفقيه** الضعيف المنة الضيق
الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر رضي الله عنه ويقول اما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير واما اخذه ماله فهو
مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بالمال فكيف استجازه وهذا استبعاد مصدره القصور في الفقه فاين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه واطلاعه على اسرار دين الله ومصالح عباده افترى انه لم يعلم ان المصادرة بالمال غير جايزة او علم ذلك ولكن اقدم
عليه غضبا في معصية الله وحاشاه او اراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعه الله حاشاه فان ذلك ايضا معصية **بل الفقه** الذي لاح
له فيه انه رآه مستغنيا عن السؤال وعلم ان من اعطاه شيا فانما اعطاه على اعتقاد انه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل في ملكه باخذه
مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده الى اصحابه اذ لا يعرف اصحابه باعيانهم فبقي مالا لا مالك له فوجب صرفه الى المصالح وابل الصدقة
وعلفها من المصالح وتنزل اخذ السائل مع اظهار الحاجة كاذبا كأخذ العلوي بقوله اني علوي وهو كاذب فانه لا يملك ما ياخذه وكأخذ
الصوفي الصالح الذي يعطى لصلاحه وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطي لما اعطاه وقد ذكرنا في مواضع ان ما اخذوه
على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد الى مالكه فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي تغفل عنه
كثير من الفقهاء وقد قررناه في مواضع ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر فاذا عرفت ان السؤال يباح
لضرورة فبيانه ان الشيء اما ان يكون مضطرا اليه او محتاجا اليه حاجة مهمة او حاجة خفيفة او مستغنى عنه **فهذه** اربعة احوال اما
المضطر اليه فهو سؤال الجايع عند خوفه على نفسه موتا او مرضا وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح
مهما

فمهما وجد بقية الشروط في المسؤول بكونه مباحا والمسؤول منه بكونه راضيا في الباطن وفي السائل بكونه عاجزا عن الكسب فان القادر على الكسب
وهو بطال ليس له السؤال الا اذا استغرق طلب العلم اوقاته وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة واما المستغني فهو الذي يطلب شيا وعنده
مثله وامثاله فسؤاله حرام قطعا وهذان طرفان واضحان واما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذي يحتاج الى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف
وكمن له جبة ولا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهي الى حد الضرورة وكذلك من يسأل لاجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة
فهذا ايضا ينبغي ان تسترسل عليه الرخصة لانها ايضا حاجة محققة ولكن الصبر عنه اولى وهو بالسؤال تارك للاولى ولا يسمى سؤاله مكروها
مهما صدق في السؤال وقال ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذيني اذية اطيقها ولكن يشق علي فاذا صدق فيكون صدقه كفارة لسؤاله ان شاء الله واما
الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن اعين الناس وكمن يسأل لاجل الادم وهو واجد للخبز وكمن يسأل الكراء
للفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار او يسأل الكراء للمحمل وهو قادر على الراحلة **فهذا** ان كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام وان لم يكن وكان
فيه شيء من المحذورات الثلاث من الشكوى والذل وايذاء المسؤول فهو حرام لان مثل هذه الحاجة لا تصلح لان تباح بها هذه المحذورات وان لم يكن فيه شيء من ذلك
فهو مباح مع الكراهة **فان قلت** فكيف يمكن اخلاء السؤال عن هذه المحذورات فاعلم ان الشكوى تندفع بان يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا
يسأل سؤال المحتاج ولكن يقول انا مستغن بما املكه ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن
حد الشكوى واما الذل فبان يسأل اباه او قريبه او صديقه الذي يعلم انه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله او الرجل السخي الذي قد اعد ماله لمثل هذه
المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك فان الذل لازم للمنة لا محالة واما الايذاء فسبيل الخلاص منه ان لا يعين شخصا
بالسؤال بعينه بل يلقي الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل الا متبرع بصدق الرغبة وان كان في القوم شخص موقر لو لم يبذل لكان يلام **فهذا** ايذاء فانه
ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ويكون الاحب اليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير ملامة واما اذا كان يسأل معينا فينبغي ان لا يصرح بل يعرض تعريضا
يبقى له سبيلا الى التغافل ان اراد فاذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وانه غير متأذ به وينبغي ان يسأل من لا يستحيي منه لو رده او تغافل فان الحياء
من السائل يؤذي كما ان الرياء مع غير السائل يؤذي **فان قلت** فاذا اخذ مع العلم بان باعث المعطي هو الحياء منه او من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به فهو حلال
او شبهة فاقول ذلك حرام محض لا شبهة فيه ولا خلاف فيه بين الامة وحكمه حكم اخذ مال الغير بالضرب والمصادرة اذ لا فرق بين ان يضرب ظاهر
جلده بسياط الخشب او يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام وضرب الباطن اشد نكاية في قلوب العقلاء ولا يجوز ان يقال هو في الظاهر قد رضي
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم انما احكم بالظاهر والله يتولى السرائر فان هذه ضرورة القضاة في فصل الخصومات اذ لا يمكن ردهم الى البواطن وقرائن الاحوال
فاضطروا الى الحكم بظاهر القول باللسان مع انه ترجمان كثير الكذب ولكن الضرورة دعت اليه وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله والحاكم فيه احكم الحاكمين والقلوب
عنده كالالسنة عند سائر الحكام فلا تنظر في مثل هذا الا الى قلبك وان افتوك وافتوك فان المفتي معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ومفتي
القلوب هم علماء الآخرة وبفتواهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما ان بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا فاذا ما ياخذه مع الكراهة لا يملكه
بينه وبين الله ويجب عليه رده على صاحبه فان كان يستحيي من ان يرده فعليه ان يتبرع عليه بما يساوي قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتفصى عن عهدته فان
لم يقبل هديته فعليه ان يرد ذلك الى ورثته فان تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله **فان قلت** فهذا امر باطن يعسر الاطلاع عليه فكيف السبيل اليه فربما يظن السائل
انه راض ولا يكون في الباطن راضيا فاقول لهذا ترك المتقون السؤال رأسا فما كانوا ياخذون من احد شيا اصلا فكان بشر رحمه الله لا ياخذ
من احد شيا اصلا الا من السري وكان يقول لاني علمت انه يفرح بخروج المال من يده فانا اعينه على ما يحب وانما عظم الانكار في السؤال والامر بالتعفف لهذا لان
الاذى انما يحل بضرورة وهو ان يكون مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل الى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة واذى فيباح له ذلك كما يباح
لحم الخنزير واكل الميتة فكان الامتناع طريق الورعين ومن ارباب القلوب من كان واثقا ببصيرته في الاطلاع على قرائن الاحوال فكانوا ياخذون من بعض
الناس دون بعض ومنهم من كان لا ياخذ الا من اصدقائه ومنهم من كان ياخذ بعض ما يعطى ويرد بعضا كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكبش والاقط والسمن وكان هذا فيما ياتيهم
من غير سؤال فان ذلك لا يكون الا عن رغبة ولكن قد يكون طمعا في جاه او طلبا للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك فاما السؤال فقد امتنعوا عنه راسا الا في موضع
الضرورة فقد سأل ثلاثة من الانبياء في موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام ولا شك انهم ما سألوا الا من علموا انه يرغب فيهم وامثالهم اذا سألوا من الاصدقاء والاخوان
ومن حق الاخوان وقد كانوا ياخذون من اموالهم بغير سؤال لانهم علموا ان المطلوب رضى القلب لا نطق اللسان وقد كانوا يثقون باخوانهم انهم كانوا يفرحون
بتسلطهم فاذا كانوا يسألون الاخوان فيما يشكون في اقتدار اخوانهم على ما يريدونه والا فكانوا يستغنون عن السؤال وحد اباحة السؤال ان يعلم ان المسؤول
بصفة لو علم ما به من الحاجة لابتدأ دون السؤال فلا يكون لسؤاله تأثير الا في تعريف حاجته فاما في تحريكه بالحياء واثارة داعيته بالحيل فلا ويتصدى
للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن وحالة لا يشك في الكراهة ويعلم ذلك بقرينة الاحوال فالاخذ في الحالة الاولى حلال طلق وفي الثانية سحت ويتردد بين
الحالتين احوال يشك فيها فليستفت فيها قلبه وليترك حزاز القلب فانه الاثم وليدع ما يريبه الى ما لا يريبه وادراك ذلك بقرائن الاحوال سهل على من قويت
فطنته وضعف حرصه وشهوته فان قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة وبهذه الدقائق يطلع على سر قول
رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال ان اطيب ما اكل الرجل من كسبه وقد اوتي رسول الله جوامع الكلم لانه من كسب ابيه او اخوه وقريبه

فيامل من يد الناس فان اعطي بغير سوال فانما يعطى بدينه ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بعينه فيكون ما ياخذه حراما ولو اعطى
بسوال فاين من يطيب قلبه بالعطا اذا سيل واين من يقتصر في السوال على حد الضرورة فاذا افتشت احوال من ياخذ من ايدي الناس علمت ان جميع ما ياكله
او اكثره سحت وان الطيب هو الكسب الذي اكتسبته او ورثته فاذا بعيد ان يجتمع الورع مع الاكل من ايدي الناس فنسال الله ان يقطع طمعنا عن غيره
وان يغنينا بحلاله عن حرامه بمنه وسعة جوده. **باب مقدار الغنى المحرم للسوال** اعلم ان قوله صلى الله عليه وسلم من سال عن ظهر غنى فانما يسال جمرا فليستقلل
منه او ليستكثر صريح في التحريم ولكن حد الغنى مشكل وتقديره عسير وليس الينا وضع المقادير بل يستدرك ذلك بالتوقيف وقد ورد في الحديث استغنوا بغنى
الله قالوا وما هو قال غدا يوم وعشا ليلة وفي حديث اخر من سال وله خمسون درهما او عدلها من الذهب فقد سال الحافا وورد في لفظ اخر اربعون درهما ومهما
اختلف التقديرات وصحت الاخبار فينبغي ان يقطع بورودها على احوال مختلفة فالحق فيه انه لا يكون الا باحوال التقدير مع دعائه لكن فيه تقريب ولا يتم ذلك
الا بتقسيم محيط باحوال المحتاجين **فنقول** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحق لابن ادم الا في ثلث طعام يقيم صلبه وثوب يواري عورته وبيت يكنه
فما زاد فهو حساب فلنجعل هذه الثلث اصلا في الحاجات لبيان اجناسها والنظر في الاجناس والمقادير والاوقات اما الاجناس فهي هذه الثلث ويلحق بها ما في معناها
حتى يلحق بها الكرى للسافر اذا كان لا يقدر على المشي وكذلك ما يجري مجراه من المهمات ويلحق نفقة عياله وولده وكل من تحت كفالته واما المقادير فالثوب يعتبر
فيه ما يليق بذوي الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس واما البيت فيعتبر منه ما يكنه والمراد بالبيت ما يحتاج اليه من
شيء من اثاث البيت ولكن الاواني من الخزف ولا ينبغي ان يطلب رفعة البنا ولكن يقنع بما يكفيه وليقتصر من العدد على واحد من النوع على اخس اجناسه ما لم يكن
في غاية البعد من العادة واما الطعام فمقداره في اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان الشعير والادم على الدوام فضلة وقطعه بالكلية
اضرار ففي طلبه في بعض الاحوال رخصة واما المكان فاقله ما يجزي من حيث مقداره وذلك من غير زينة فاما السوال للزينة والتوسع فهو سوال عن ظهر غنى
واما بالاضافة الى الاوقات فما يحتاج اليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكنه فلا بد فيه فاما السوال للمستقبل فهذا له درجات احداها
ما يحتاج اليه في غد والثانية ما يحتاج اليه الى اربعين يوما او خمسين والثالثة ما يحتاج اليه السنة **وليقطع** بان من معه ما يكفيه ولعياله ان كان له عيال
لسنة فسواله حرام فان ذلك غاية الغنى وعليه تنزل التقدير بخمسين درهما في الحديث فان خمسين دينارا تكفي المنفرد في السنة اذا اقتصد اما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وان
كان لا يحتاج اليه قبل السنة فان كان قادرا على السوال عند الحاجة فلا يحل له السوال لانه مستغن في الحال وربما لا يعيش الى الغد فيكون قد سال ما لا يحتاج اليه
ويكفيه غدا يوم وعشا ليلة وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بغدا وعشا وان كان يعلم فرصة السوال لا تجد من يعطيه لو اخر فيباح له السوال لان التفاته
غير بعيد فهو يتاخر السوال خائفا ان يبقى مضطرا عاجزا عما يغنيه فان كان خوف العجز عن السوال في المستقبل ضعيفا وكان ما اجل السوال خارجا عن الضرورة
لم يخل سواله عن كراهية ويكون بحسب ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخي المدة التي فيها يحتاج الى السوال وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد
ونظره لنفسه بينه وبين الله فيستفتي فيه قلبه ويعمل به ان كان سالكا طريق الاخرة وكلما كان يقينه اقوى وثقته بمجي الرزق في المستقبل اتم وقناعته بقوت الوقت اظهر فدرجته
عند الله اعلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد اتاك قوت يومك لك ولعيالك الا من ضعف اليقين والاصغا الى تخويف الشيطان وقد قال الله تعالى فلا
تخافوهم وخافون ان كنتم مومنين وقال تعالى الشيطان يعدكم الفقر ويامركم بالفحشا والله يعدكم مغفرة منه وفضلا **والسوال** من الفحشا الذي ابيح بالضرورة
من بالحاجة متوانيا عنه وان كان ما يحتاج اليه الا بعد شهر او شهرين او سنة **فلا** يباح الا في القوى الطاهر ولكنها ربما ناحت
عن حب الدنيا وطول الامل وعدم الثقة بفضل الله **وهذه** الخصلة من امهات المهلكات **باب احوال السايلين** كان بشر رحمه الله يقول الفقرا ثلثة فقير
لا يسال وان اعطي لا ياخذ **فهذا** مع الروحانيين في عليين وفقير لا يسال وان اعطي اخذ **فهذا** مع المقربين في جنات الفردوس وفقير يسال عند الحاجة **فهذا** مع الصادقين
من اصحاب اليمين فاذا قد اتفق كلهم على ذم السوال وعلى انه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة وقال ابراهيم بن ادهم لشقيق البلخي رحمهما الله حين قدم عليه من خراسان
كيف تركت الفقرا من اصحابك قال تركتهم ان اعطوا شكروا وان منعوا صبروا وظن انه لما وصفهم بترك السوال فقد اثنى عليهم غاية الثنا فقال ابراهيم هكذا تركت
كلاب بلخ عندنا فقال له شقيق فكيف الفقرا عندك يا ابا اسحق فقال الفقرا عندنا ان منعوا شكروا وان اعطوا اثروا فقبلوا راسه وقال صدقت يا استاذ فاذا
درجات ارباب الاحوال في الرضا والصبر والشكر والسوال كثيرة فلا بد لسالك طريق الاخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها فانه اذا لم يعلم لم يقدر
على الترقي من حضيضها الى يفاعها ومن اسفل السافلين الى اعلى عليين وقد خلق الانسان في احسن تقويم ثم رد الى اسفل سافلين ثم امر ان يترقى فمن عرف ذلك فاز بها
بعد علم وارباب الاحوال قد تخلو حالهم نقصان بكون السوال مونيا لهم من درجاتهم ولكن بالاضافة الى حالهم فان مثل هذه الاعمال بالنيات وقد روي ان بعضهم
راى ابا الحسن النوري هو يمد يده ويسال الناس في بعض المواطن قال فاستعظمت ذلك واستقبحته له فاتيت الجنيد رحمه الله فاخبرته فقال لا يعظم هذا
عليك فان النوري لم يسال الناس الا ليعطيهم ليثيبهم في الاخرة فيوجرون من حيث لا يضرهم وكانه اشار به الى قوله صلى الله عليه وسلم يد المعطي هي العليا فقال بعضهم يد المعطي
هي يد الاخذ للمال لانه يعطي الثواب والقدر له لا لما ياخذه ثم قال الجنيد هاتوا الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة والقاها على المائة ثم قال احملوها اليه
فقلت في نفسي انما يوزن الشي ليعرف مقداره فكيف خلطه مجهولا وهو رجل حكيم واستحييت ان اساله فذهبت بالصرة الى النوري فقال هات الميزان فوزن مائة
درهم وقال ردها عليه وقل له انا لا اقبل منك انت شيا واخذ ما زاد على المائة قال فزاد تعجبي فسالته فقال الجنيد رجل حكيم يريد ان ياخذ الحبل بطرفيه وزن المائة
لنفسه طلبا للثواب الاخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل فاخذت ما كان لله ورددت ما جعله لنفسه قال فرددتها الى الجنيد فبكى وقال اخذ ماله ورد مالنا الله
المستعان **فانظر الان** كيف صفت قلوبهم واحوالهم وكيف خلصت لله اعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب
وتناجي الاسرار وذلك ثمرة اكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والاقبال على الله بكنه الهمة فمن انكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل كمن ينكر مثلا الادراك
كونه مسهلا قبل شربه ومن انكره بعد ان طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فانكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يوثر في حقه خاصة لعلة في مزاجه
فاخذ ينكر كون الدوا مسهلا **وهذا** وان كان في الجهل دون الاول ولكنه ليس خاليا عن حظ وافر من الجهل بل البصير احد رجلين اما رجل سلك الطريق فظهر
له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل الى عين اليقين **واما** رجل لم يسلك الطريق او سلك ولم يصل ولكنه امن بذلك وصدق به **فهذا**
صاحب

صاحب علم اليقين وان لم يكن واصلا الى عين اليقين ولعلم اليقين ايضا رتبة وان كان دون عين اليقين ومن خلا عن عين اليقين
وعلم اليقين **فهو** خارج عن زمرة المومنين ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المتكبرين الذين هم قتلى القلوب الضعيفة واتباع
الشياطين فنسال الله تعالى ان يجعلنا من الراسخين في العلم القائلين امنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولوا الالباب **الشطر الثاني من الكتاب**
في الزهد وفيه **بيان حقيقة الزهد** وبيان **فضيلة الزهد** وبيان **درجات الزهد واقسامه** وبيان **تفصيل الزهد في المطعم**
والملبس والمسكن والاثاث وضروب المعيشة وبيان **علامات الزهد** **بيان حقيقة الزهد** اعلم ان الزهد في الدنيا مقام
شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كساير المقامات لان ابواب الايمان كلها كما قال السلف ترجع الى
عقد وقول وعمل وكان القول لظهوره اقيم مقام الحال اذ به يظهر الحال الباطن والا فليس القول مرادا لعينه وان لم يكن صادرا عن حال سمي اسلاما
ولم يسم ايمانا والعلم هو السبب في الحال يجري مجرى المثمر والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل **اما الحال**
فنعني به ما يسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشي الى ما هو خير منه فكل من عدل عن شي الى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فانما عدل عنه
لرغبته عنه وانما عدل الى غيره لرغبته في غيره فحاله بالاضافة الى المعدول عنه يسمى زهدا وبالاضافة الى المعدول اليه يسمى رغبة وحبا فاذا يستدعي حال
الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه ان يكون ايضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوبا
في نفسه لا يسمى زاهدا اذ تارك الحجر والتراب وما يشبهه لا يسمى زاهدا وانما يسمى زاهدا من ترك الدراهم والدنانير لان الحجر والتراب ليسا في مظنة
الرغبة وشرط المرغوب فيه ان يكون عنده خيرا من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة فالبايع لا يقدم على البيع الا والمشتري عنده خير من
المبيع فيكون حاله بالاضافة الى المبيع زهدا فيه وبالاضافة الى العوض رغبة وحبا ولذلك قال الله تعالى وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا
فيه من الزاهدين معناه باعوه ووصف اخوة يوسف بالزهد فيه اذ طمعوا ان يخلو لهم وجه ابيهم وكان ذلك عندهم احب من يوسف فباعوه
طمعا بالعوض **فاذا** كل من باع الدنيا بالاخرة فهو زاهد في الدنيا وكل من باع الاخرة بالدنيا فهو ايضا زاهد ولكن في الاخرة ولكن العادة جارية بتخصيص
اسم الزاهد بمن يزهد في الدنيا كما خصص اسم الالحاد بمن يميل الى الباطل خاصة وان كان في الوضع اللسان لمن يميل ولما كان الزهد رغبة عن محبوب
بالجملة لم يتصور الا بالعدول الى شي هو احب منه والا فترك المحبوب لغير الاحب محال والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في
تلك الحظوظ في الاخرة بل طمع لحور العين والقصور والانهار والفواكه فهو ايضا زاهد ولكنه دون الاولين **والذي** يترك من حظوظ الدنيا البعض
دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه او يترك التوسع في الاكل ولا يترك التجمل في الزينة فلا يستحق اسم الزهد مطلقا ودرجته في الزهاد
درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التايبين وهو زهد صحيح كما ان التوبة عن بعض المعاصي صحيحة فان التوبة عبارة عن ترك المحظورات والزهد عبارة
عن ترك المباحات التي هي حظ النفس ولا يبعد ان يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا
وان كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات فاذا الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا الى الاخرة
او عن غير الله تعالى الى الله **وهي الدرجة** العليا وكما يشترط في المرغوب فيه ان يكون خيرا عنده فيشترط في المرغوب عنه ان يكون مقدورا عليه
فان ترك ما لا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز اذ جاءته الدنيا راغمة
فتركها اما انا ففيماذا زهدت **واما** العلم الذي هو المثمر لهذا الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالاضافة الى الماخوذ كعلم التاجر بان العوض
خير من المبيع فرغب فيه وما لم يتحقق هذا العلم لا يتصور ان تزول الرغبة عن المبيع فكذلك من عرف ان ما عند الله باق وان الاخرة خير وابقى اي لذاتها
خير في انفسها وابقى كما يكون الجوهر خيرا من الثلج مثلا ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجوهر واللالي فكذا مثال
الدنيا والاخرة فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان الى الانقراض والاخرة كالجوهر الذي لا فنا له فبقدر قوة اليقين والمعرفة
بالتفاوت بين الدنيا والاخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة حتى ان من قوي يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى ان الله اشترى من المومنين انفسهم واموالهم
بان لهم الجنة ثم بين ان صفقتهم رابحة فقال فاستبشروا ببيعكم الاية فليس يحتاج من العلم في الزهد الا الى هذا القدر وهو ان الاخرة خير وابقى وقد يعلم ذلك
من لا يقدر على ترك الدنيا اما لضعف علمه ويقينه واما لاستيلا الشهوة في الحال عليه وكونه مقهورا في يد الشيطان واما الاغترار بمواعيد
الشيطان في التسويف يوما بعد يوم الى ان يختطفه الموت ولا يبقى معه الا الحسرة بعد الفوت والى تعريف خساسة الدنيا الاشارة بقوله قل متاع الدنيا
قليل والى تعريف نفاسة الاخرة الاشارة بقوله تعالى وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير فنبه على ان العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب
عن عوضه ولما لم يتصور الزهد الا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في احب منه قال رجل في دعائه اللهم ارني الدنيا كما تراها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تقل
هكذا ولكن قل ارني الدنيا كما اريتها الصالحين من عبادك **وهذا** لان الله تعالى يراها حقيرة كما هي وكل مخلوق بالاضافة الى جلاله حقير والعبد يراها حقيرة
في حق نفسه بالاضافة الى ما هو خير له ولا يتصور ان يرى بايع الفرس وان رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الارض مثلا لانه مستغن عن الحشرات وليس مستغنيا عن الفرس والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه
فيرى الكل في درجة واحدة بالاضافة الى جلاله ويراه متفاوتا بالاضافة الى غيره والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالاضافة الى نفسه لا الى غيره **واما العمل**
الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لانه بيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو ادنى فكما ان العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع
واخراجه من اليد واخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بارضها مع اسبابها ومقدماتها وعلائقها فيخرج من
القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من اليد والعين ما اخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وساير الجوارح وظايف الطاعات والا كان
كمن سلم المبيع ولم ياخذ الثمن فاذا وفى بشرط الجانبين في الاخذ والترك فليستبشر ببيعه الذي بايع به فان الذي بايعه بهذا البيع وفى بالعهد فمن كان
حاضرا في غايب ثم الحاضر واخذ يسعى في طلب الغايب حين فراغه من تعبه ان كان العاقد ممن يثق بصدقه وقدرته ووفايه بالعهد وما دام متمسكا
للدنيا لا يصح زهده اصلا ولذلك لم يصف الله اخوة يوسف بالزهد في بنيامين وان كانوا قد قالوا ليوسف واخوه احب الى ابينا

اليه منا واخرجوا ليعامله كما عزموا على يوسف حتى سعى في مخرجه فلما وصفهم بالزهد في يوسف عند العزم على اخراجه
بل عند التسليم والبيع فعلامة الرغبة الامساك وعلامة الزهد الاخراج فان اخرجت عن اليد بعض الدنيا دون بعض فانت زاهد فيما
اخرجته فقط ولست زاهدا مطلقا وان لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد لان ما لا تقدر عليه لا تقدر على
تركه وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل اليك انه وان لم تاتك الدنيا فانت زاهد فيها فلا ينبغي ان تتدلى بحبل غروره دون ان تستظهر
وتوثق بموثق من الله فانك اذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عند القدرة فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها فلما تيسرت له
اسبابها من غير كدورة ولا خوف من الخلق وقع فيها واذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فاياك ان تثق بوعدها في المباحات والموثق الغليظ
ان تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة فاذا وفت بما وعدت على الدوام مع انتفا الصوارف والاعذار ظاهرا وباطنا فلا باس ان تثق
بها ثقة ما ولكن تكون من تغيرها ايضا على حذر فانها سريعة النقض بالعهد قريبة الرجوع الى مقتضا طبعها وبالجملة فلا امان منها الا عند
الترك بالاضافة الى ما ترك فقط وذلك عند القدرة قال ابن ابي ليلى لابن شبرمة رحمهما الله الا ترى الى هذا ابن الحايك لا نفتي في مسالة
الا رد علينا يعني ابا حنيفة فقال ابن شبرمة لا ادري اهو ابن الحايك ام لا ولكن اعلم ان الدنيا عدت اليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها
وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انا نحب ربنا ولو علمنا في اي شي محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ولو انا كتبنا
عليهم ان اقتلوا انفسكم الاية قال ابن مسعود فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم انت منهم يعني من القليل قال ما عرفت ان فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله
تعالى منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الاخرة **واعلم** انه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخا والفتوة وعلى سبيل استمالة
القلوب ولا سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشي منه في العبادات وانما الزهد ان تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالاضافة الى
نفاسة الاخرة **فاما** كل نوع من الترك فانه يتصور ممن لا يومن بالاخرة فذلك قد يكون مروة وفتوة وسخا وحسن خلق ولكن لا يكون زهدا اذ
حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي الذ واهنى من المال وكما ان بذل المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد فكذلك
تركه طمعا في الذكر والثنا والاشتهار بالفتوة والسخا واستثقالا له لما في حفظ المال من المشقة والعنا والحاجة الى التذلل للسلاطين والاغنيا
ليس من الزهد اصلا بل هو استعجال حظ اخر للنفس بل الزاهد من اتته الدنيا راغمة عفوا صفوا وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم
ولا فوات حظ فتركها خوفا من ان ياتنس بها فيكون انسا بغير الله ومحبا لما سوى الله ويكون مشركا في حب الله غيره او تركها طمعا في ثواب الله في الاخرة فترك
التمتع باشربة الدنيا طمعا في اشربة الجنة وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعا في الحور العين وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة واشجارها
وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة وترك المطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة وخوفا من ان يقال له اذهبتم طيباتكم في حياتكم
الدنيا فاثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا صفوا لعلمه ان ما في الاخرة خير وابقى وما سوى هذا فمعاملات دنيوية
لا جدوى لها في الاخرة اصلا **بيان فضيلة الزهد** قال الله تعالى فخرج على قومه في زينته الاية الى قوله قال الذين اوتوا العلم فنسب الزهد الى العلما ووصف
اهله بالعلم وهو غاية الثنا وقال تعالى اولئك يوتون اجرهم مرتين بما صبروا جا في التفسير على الزهد في الدنيا وقال تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة
لها لنبلوهم ايهم احسن عملا قيل معناه ايهم ازهد فيها فوصف الزهد بانه من احسن الاعمال وقال تعالى من كان يريد حرث الاخرة نزد له في حرثه الاية وقال تعالى ولا تمدن
عينيك الاية وقال تعالى الذين يستحبون الحياة الدنيا على الاخرة فوصف الكفار بذلك فمفهومه ان المومن هو الذي يتصف بنقيضه وهو ان يستحب الاخرة
على الحياة الدنيا **واما الاخبار** فما ورد منها في ذم الدنيا كثيرة وقد اوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ونحن الان نقتصر على فضيلة بغض
الدنيا فانه من المنجيات وهو المعني بالزهد وقد قال صلى الله عليه وسلم من اصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه امره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم ياته
من الدنيا الا ما كتب له ومن اصبح وهمه الاخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه واتته الدنيا وهي راغمة وقال صلى الله عليه وسلم اذا رايتم
العبد قد اعطي صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقن الحكمة وقد قال تعالى ومن يوت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا ولذلك قيل من زهد في الدنيا
اربعين يوما اجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وانطق بها لسانه وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم انه قال قلنا يا رسول الله اي الناس خير قال كل مخموم القلب
صدوق اللسان قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب قال التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد قيل يا رسول الله فمن على اثره قال الذي يشنا الدنيا
ويحب الاخرة ومفهوم هذا ان شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم ان اردت ان يحبك الله فازهد في الدنيا فجعل الزهد سببا للمحبة فمن
احبه الله فهو في اعلا عليين فينبغي ان يكون الزهد من افضل المقامات ومفهومه ايضا ان محب الدنيا متعرض لبغض الله وفي خبر من طريق اهل
البيت

البيت الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحيا اقاما فيه والا ارتحلا ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله
عليه وسلم انا مومن حقا فقال وما حقيقة ايمانك قال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكاني بالجنة والنار وكاني
بعرش ربي بارزا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت فالزم عبد نور الله الايمان قلبه فانظر كيف بدا في اظهار حقيقة الايمان بعزوف النفس عن الدنيا
وقرنه باليقين وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال عبد نور الله الايمان قلبه ولما سيل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح في قوله
تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام فقيل له ما هذا الشرح فقال ان النور اذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يا رسول
الله وهل لذلك من علامة قال نعم التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله فانظر كيف جعل الزهد
شرطا للاسلام وهو التجافي عن دار الغرور وقال صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحيا قالوا انا نستحي قال تبنون ما لا تسكنون وتجمعون
ما لا تاكلون فبين ان ذلك يناقض الحيا من الله ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا انا مومنون قال وما علامة ايمانكم فذكروا الصبر عند البلا
والشكر عند الرخا والرضا بمواقع القضا وترك الشماتة بالمصيبة اذا نزلت بالاعدا فقال عليه السلام ان كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تاكلون
ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون فجعل الزهد تكملة لايمانهم وقال جابر خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من جا
بلا اله الا الله لا يخلط معها غيرها وجبت له الجنة فقام اليه علي فقال بابي انت وامي ما لا يخلط بها غيرها **صفه لنا فسره لنا** فقال حب الدنيا
وطلبا لها واتباعا لها وقوم يقولون قول الانبيا ويعملون عمل الجبابرة فمن جا بلا اله الا الله ليس فيها شي من هذا وجبت له الجنة وفي الخبر السخا من اليقين ولا يدخل النار
موقن والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك وقال ايضا السخي قريب من الله قريب من الناس والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار والبخل
ثمرة الرغبة في الدنيا والسخا ثمرة الزهد والثنا على الثمرة ثنا على المثمر لا محالة وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من زهد في الدنيا
ادخل الله الحكمة قلبه وانطق بها لسانه وعرفه دا الدنيا ودواها واخرجه منها سالما الى دار السلام وروي انه صلى الله عليه وسلم مر في اصحابه بعشار من النوق حفل وهي
الحوامل وكانت من احب اموالهم اليهم وانفسها عندهم لانها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى واذا العشار عطلت قال فاعرض عنها رسول الله
صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يا رسول الله هذه انفس اموالنا لم لا تنظر اليها فقال قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا قوله تعالى ولا تمدن عينيك الاية
وروي مسروق عن عايشة قالت قلت يا رسول الله الا تستطعم الله فيطعمك قالت وبكيت لما رايت به من الجوع فقال يا عايشة والذي نفسي بيده لو سالت
ربي ان يجري معي جبال الدنيا ذهبا لاجراها حيث شيت من الارض ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها
يا عايشة ان الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لال محمد يا عايشة ان الله لم يرض من اولي العزم من الرسل الا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ثم لم يرض لي الا ان
يكلفني ما كلفهم فقال فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل وانى والله ما لي بد من طاعته واني والله لاصبرن كما صبروا ولا جهدي ولا قوة الا بالله وروي
عن عمر رضي الله عنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها البس الين الثياب اذا قدمت عليك الوفود من الافاق ومر بصنعة طعام تطعمه
وتطعم من حضر فقال عمر يا حفصة الست تعلمين ان اعلم الناس بحال الرجل اهل بيته فقالت بلى قال ناشدتك الله هل تعلمين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث
في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا اهل بيته غدوة الا جاعوا عشية ولم يشبعوا عشية الا جاعوا غدوة وناشدتك الله هل تعلمين ان النبي
لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو واهل بيته حتى فتح الله عليه خيبر وناشدتك الله هل تعلمين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قربتم اليه طعاما
على مايدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم امر بالمايدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك ووضع على الارض وناشدتك الله هل تعلمين ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباة مثنية فثنيت له ليلة اربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال منعتموني قيام الليلة بهذه العباة اثنوها باثنتين كما
كنتم تثنونها وناشدتك الله هل تعلمين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه ليغسل فياتيه بلال فيوذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به الى
الصلوة وناشدتك الله هل تعلمين ان امراة من بني ظفر نسجت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كسايين ازارا وردا وبعثت اليه باحدهما قبل ان يبلغ الاخر
فخرج الى الصلوة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفيه الى عنقه فصلى كذلك فما زال يقول حتى ابكاها وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب حتى ظننا ان نفسه ستخرج
وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو انه قال كان لي صاحبان سلكا طريقا فان سلكت غير طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما واني والله ساصبر على عيشهما
الشديد لعلي ادرك معهما العيش الرغيد وعن ابي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لقد كان الانبيا قبلي يبتلى احدهم بالفقر فلا يجد الا العبا
وان كان احدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك احب اليهم من العطا اليكم وعن ابن عباس قال لما ورد موسى عليه السلام ما مدين كانت خضرة
البقل ترى من بطنه من الهزال فهذا ما اختاره انبيا الله ورسله وهم اعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الاخرة وفي حديث عمر رضي الله عنه
انه لما نزل قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة الاية قال صلى الله عليه وسلم تبا للدنيا تبا للدينار والدرهم فقلنا يا رسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة
فاي شي ندخر فقال صلى الله عليه وسلم ليتخذ احدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة صالحة تعينه على امر اخرته وفي حديث حذيفة عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم من اثر الدنيا على الاخرة ابتلاه الله بثلث هما لا يفارق قلبه ابدا وفقرا لا يستغني ابدا وحرصا لا يشبع ابدا وقال صلى الله عليه وسلم لا يستكمل
العبد الايمان حتى يكون ان لا يعرف احب اليه من ان يعرف وحتى يكون قلة الشي احب اليه من كثرته وقال عيسى عليه السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها
وقيل له يا نبي الله لو امرتنا ان نبني بيتا نعبد الله فيه فقال اذهبوا فابنوا بيتا على الما فقالوا فكيف يستقيم بنا على الما فقال وكيف

تشبعهم عاما فرح مع حب الدنيا وقال نبينا صلوات الله عليه وسلامه ان ربي عرض علي ان يجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يا رب ولكن اجوع يوما
واشبع يوما فاليوم الذي اجوع فيه فاتضرع اليك وادعوك واما الذي اشبع فيه فاحمدك واثني عليك وعن ابن عباس قال خرج رسول الله
صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم والذي بعثك بالحق ما امسى لال محمد كف سويق ولا سفة دقيق
فلم يكن كلامه باسرع من ان سمع هدة من السماء افزعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم امر الله القيامة ان تقوم فقال لا ولكن هذا اسرافيل قد نزل اليك
حين سمع كلامك فاتاه اسرافيل فقال ان الله سمع ما ذكرت فبعثني بمفاتيح الارض وامرني ان اعرض عليك ان احببت ان اسير معك جبال تهامة
زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فعلت وان شئت نبيا ملكا وان شئت نبيا عبدا فاومأ اليه جبريل ان تواضع لله فقال بل نبيا عبدا ثلاثا وقال
صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الاخرة وبصره بعيوب نفسه وقال صلى الله عليه وسلم ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد
فيما في ايدي الناس يحبك الناس وقال صلى الله عليه وسلم من اراد ان يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم من اشتاق
الى الجنة سارع الى الخيرات ومن خاف من النار لهى عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب ويروى عن نبينا
صلوات الله عليه وسلامه وعن عيسى عليه السلام اربع لا يدركن الا بعجب الصمت وهو اول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء وجميع الاخبار الواردة في مدح
بغض الدنيا وذمها لا يمكن فان الانبياء ما بعثوا الا لصرف الناس عن الدنيا الى الاخرة واليه يرجع اكثر كلامهم مع الخلق وفيما اوردناه كفاية **واما الاثار**
فقد جاء في الاثر لا تزال لا اله الا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم وفي لفظ اخر ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم
فاذا فعلوا ذلك وقالوا لا اله الا الله قال الله كذبتم لستم بها صادقين وعن بعض الصحابة قال تابعنا الاعمال كلها فلم نر في امر الاخرة ابلغ من زهد في الدنيا
وقال بعض الصحابة لصدور التابعين انتم اكثر اعمالا واجتهادا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك قال كانوا ازهد
في الدنيا منكم وقال عمر رضي الله عنه الزهادة في الدنيا راحة للقلب والجسد وقال بلال بن سعد كفى به ذنبا ان الله يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها وقال
رجل لسفيان اشتهي ان ارى عالما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لا توجد وقال وهب بن منبه ان للجنة ثمانية ابواب فاذا صار اهل الجنة اليها جعل البوابون
يقولون وعزة ربنا لا يدخل احد قبل الزاهدين في الدنيا والعاشقين للجنة وقال يوسف بن اسباط اني لاشتهي من الله ثلاث خصال ان اموت حين
اموت وليس في ملكي درهم ولا يكون علي دين ولا على عظمي لحم فاعطي ذلك كله وروي ان بعض الخلفاء ارسل الى الفقهاء بجوائز فقبلوها وارسل الى الفضيل بعشرة
الاف فلم يقبلها فقال له بنوه قد قبل الفقهاء وانت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال اتدرون ما مثلي ومثلكم كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها فلما
هرمت ذبحوها لاجل ان ينتفعوا بجلدها وكذلك انتم اردتم ذبحي على كبر سني موتوا يا اهلي جوعا خير لكم من ان تذبحوا فضيلا وقال عبيد بن عمير كان عيسى عليه السلام
يلبس الشعر ويأكل الشجر ولم يكن له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر لغد اينما ادركه المساء نام وقالت امرأة لابي حازم يا ابا حازم هذا الشتاء قد هجم علينا
ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب فقال ابو حازم من هذا كله بد ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله عز وجل ثم الجنة او النار وقيل
للحسن لم لا تغسل قميصك فقال الامر اعجل من ذلك وقال ابراهيم بن ادهم قد حجبت قلوبنا بثلاثة اغطية فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرح بالموجود
والحزن على المفقود والسرور بالمدح فاذا فرحت بالموجود فانت حريص واذا حزنت على المفقود فانت ساخط والساخط معذب واذا سررت
بالمدح فانت معجب والعجب يحبط العمل وقال ابن مسعود ركعتان من زاهد قلبه خير له واحب الى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين الى اخر الدهر ابدا
سرمدا وقال بعض السلف نعم الله علينا فيما صرف عنا اكثر من نعمه فيما صرف الينا وكانه التفت الى معنى قوله صلى الله عليه وسلم ان الله يحمي عبده المؤمن
الدنيا وهو يحبه كما يحمي احدكم مريضه الطعام والشراب وخوفا عليه فاذا فهم هذا علم ان النعمة في المنع المؤدي الى الصحة اكثر منها في الاعطاء المؤدي
الى السقم وكان الثوري يقول الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا دار فرح من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء وقال سهل
رحمه الله لا يخلص العمل للمتعبد حتى لا يفزع من اربعة اشياء الجوع والعري والفقر والذل وقال الحسن ادركت اقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون
بشيء من الدنيا اقبل ولا يأسفون على شيء منها ادبر ولهي كانت في اعينهم اهون من التراب كان احدهم يعيش خمسين سنة وستين سنة لم يطو له ثوب
ولم ينصب له قدر ولم يجعل بينه وبين الارض شيئا ولا امر في بيته بصنعة طعام قط فاذا كان الليل فقيام على اطرافهم يفترشون وجوههم تجري
دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم كانوا اذا عملوا الحسنة داموا في شكرها وسالوا الله ان يتقبلها واذا عملوا السيئة احزنتهم وسالوا الله
ان يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا الا بالعفو **بيان درجات الزهد واقسامه بالاضافة الى نفسه والى**
المرغوب عنه والى المرغوب فيه اعلم ان الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث **الدرجة الاولى** وهي السفلى منها
ان يزهد في الدنيا وهي له مشتهاة وقلبه اليها مائل ونفسه اليها ملتفتة ولكن يجاهدها ويكفها **وهذا** يسمى المتزهد وهو مبدا الزهد في حق من يصل الى
درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والمتزهد يذيب اولا نفسه ثم كيسه والزاهد اولا يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه والمتزهد
على خطر فانه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود الى الدنيا والى الاستراحة بها في قليل او كثير **الدرجة الثانية** الذي يترك الدنيا طوعا لاستحقاره
اياها بالاضافة الى ما طمع فيه كالذي يترك درهما لاجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وان كان يحتاج الى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة
زهده ويلتفت اليه كما يرى البايع المبيع ويلتفت اليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ويظن في نفسه انه ترك شيئا له قدر لما هو اعظم قدرا منه وهذا ايضا نقصان
الدرجة الثالثة وهي العليا ان يزهد طوعا ويزهد في زهده فلا يرى زهده اذ لا يرى انه ترك شيئا اذ عرف ان الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خزفة
واخذ

واخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئا والدنيا بالاضافة الى الله تبارك وتعالى ونعيم الاخرة اخس من خزفة بالاضافة
الى جوهرة **فهذا** هو الكمال في الزهد وسببه كمال المعرفة ومثل هذا الزاهد امن من خطر الالتفات الى الدنيا كما ان تارك الخزفة بالجوهرة امن من طلب
الاقالة في البيع قال ابو يزيد لابي موسى عبد الرحيم في اي شيء تتكلم فقال في الزهد قال في اي شيء قال في الدنيا فنفض يده وقال ظننت انك تتكلم في شيء
الدنيا لا شيء ايش يزهد فيها ومثل من ترك الدنيا للاخرة عند اهل المعرفة وارباب القلوب المعمورة بالمشاهدة والمكاشفة مثل من منعه كلب على باب
الملك فالقى اليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك بلقمة خبز القاها الى كلبه في مقابلة ما قد ناله فالشيطان كلب على
باب الله يمنع الناس من الدخول مع ان الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز ان اكلت فلذتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع ثم
يبقى ثقلها في المعدة ثم تنتهي الى النتن والقذر ثم يحتاج بعد ذلك الى اخراج ذلك الثقل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت اليها ونسبة الدنيا الى ما اعطي
منها لكل شخص منها وان عمر مائة سنة الى نعيم الاخرة اقل من لقمة بالاضافة الى ملك الدنيا اذ لا نسبة للمتناهي الى ما لا نهاية له والدنيا متناهية على القرب
ولو كانت تتمادى الف الف سنة صافية عن كل كدر لما كان لها نسبة الى الابد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة غير صافية فاي نسبة لها الى نعيم
الاخرة فاذا لا يلتفت الزاهد الى زهده الا اذا التفت الى ما زهد فيه ولا يلتفت الى ما زهد فيه الا اذا رآه شيئا معتدا به ولا يراه شيئا معتدا به الا
لقصور معرفته فسبب نقص الزهد نقصان المعرفة فهذا تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه ايضا لها درجات اذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت
ايضا بقدر اختلاف قدر المشقة في الصبر وكذا درجة المعجب بزهده بقدر التفاته الى زهده **واما انقسام الزهد** بالاضافة الى المرغوب فيه فهو
ايضا على ثلاث درجات **الدرجة** السفلى ان يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الالام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي
العبد من الاهوال كما وردت به الاخبار وفي الخبر ان الرجل يوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء **فهذا** زهد
الخائفين وكانهم رضوا بالعدم لو اعدموا فان الخلاص من الالم يحصل بمجرد العدم **الدرجة** الثانية ان يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة
في جنته من الحور العين والقصور وغيرها **فهذا** زهد الراجين فان هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الالم ليقصد الخلاص منها ولا الى اللذات
ليقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق الهم بالله وهو الذي اصبح وهمومه هم واحد وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله لان من طلب غير الله فقد
عبده وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالاضافة الى مطلبه فطلب غير الله من الشرك الخفي **وهذا** زهد المحبين وهم العارفون لانه لا يحب الله
الا من عرفه وكما ان من عرف الدينار والدرهم وعلم انه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب الا الدينار فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر الى وجهه الكريم
وعرف ان الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر الى نقش القصور وخضرة الاشجار غير ممكن فلا يحب الا لذة النظر ولا يؤثر غيره
ولا تظنن ان اهل الجنة عند النظر الى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم بل تلك اللذة بالاضافة الى لذة الاستيلاء على عصفور
واللعب به والطالبون لنعيم الجنة عند اهل المعرفة وارباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك وذلك لقصوره عن ادراك لذة الملك
لا لان اللعب بالعصفور في نفسه اعلى واولى من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق **واما انقسامه** بالاضافة الى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الاقاويل
ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الاقاويل ولكن نشير الى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح ان اكثر ما ذكر فيه ناقص عن الاحاطة بالكل
فنقول المرغوب عنه بالزهد له اجمال وتفصيل وللتفصيل مراتب بعضها اشرح لاحاد الاقسام وبعضها اجمع للجمل **اما الاجمال** في الدرجة
الاولى فهو كل ما سوى الله تعالى فينبغي ان يزهد فيه حتى يزهد في نفسه ايضا **والاجمال** في الدرجة الثانية ان يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة وهذا
يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها **وفي الدرجة** الثالثة ان يزهد في المال والجاه واسبابهما
اذ اليهما يرجع جميع حظوظ النفس **وفي الدرجة** الرابعة ان يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه اذ الاموال وان كثرت اصنافها فيجمعها الدينار
والدرهم والجاه وان كثرت اسبابه فيرجع الى العلم والقدرة واعني به كل علم وقدرة مقصوده ملك القلوب اذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها كما
كان معنى المال ملك الاعيان والقدرة عليها فان جاوزت هذا التفصيل الى شرح وتفصيل ابلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر وقد ذكر
الله في اية واحدة سبعة منها فقال تعالى زين للناس حب الشهوات الاية ثم ردها في اية اخرى الى خمسة فقال اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو
الاية ثم ردها في موضع اخر الى اثنين فقال انما الحياة الدنيا لعب ولهو ثم رد الكل الى واحد في موضع اخر فقال ونهى النفس عن الهوى فلفظ الهوى يجمع جميع
حظوظ النفس في الدنيا فينبغي ان يكون الزهد فيه واذا فهمت طريق الاجمال والتفصيل عرفت ان البعض من هذه لا يخالف البعض وانما يفارقه في
الشرح مرة والاجمال اخرى والحاصل ان الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر امله
لا محالة لانه يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بارادة البقاء فان من اراد شيئا اراد دوامه ولا معنى لحب الحياة الا حب دوام ما هو موجود او ممكن
في هذه الحياة فاذا رغب عنها لم يردها ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا اخرتنا الى اجل قريب فقال تعالى قل
متاع الدنيا قليل اي لستم تريدون البقاء الا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين **اما الزاهدون** المحبون لله
فقاتلوا في سبيل الله كانهم بنيان مرصوص وانتظروا احدى الحسنيين وكانوا اذا دعوا الى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون اليه مبادرة
الظمان الى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله او نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يقول لم غزوت بروحي وهجمت على الصفوف طمعا في
الشهادة وانا الان اموت موت العجائز فلما مات [illegible] من اثار الجراحات رضي الله عنهم اجمعين **واما** المنافقون ففروا من الحرب
خوفا من الموت فقيل لهم ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم فايثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو ادنى بالذي هو خير واولئك الذين اشتروا
الحياة الدنيا بالاخرة فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين **واما** المخلصون فان الله اشترى منهم انفسهم واموالهم بان لهم الجنة فلما راوا انهم تركوا
تمتع عشرين سنة او ثلاثين سنة مثلا بتمتع الابد استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به **فهذا** بيان المزهود فيه واذا فهمت هذا علمت ان ما ذكره المتكلمون
في حد الزهد لم يشيروا به الا الى بعض اقسامه فذكر كل واحد منهم ما راه غالبا على نفسه او على من كان يخاطبه **وقال** بشر رحمه الله الزهد في الدنيا هو
الزهد في الناس وهذه اشارة الى الزهد في الجاه خاصة **وقال** قاسم الجوعي رحمه الله الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف فبقدر ما تملك

من بطنك كذلك تملك من الزهد وهذه اشارة الى الزهد في شهوة واحدة ولعمري هي اغلب الشهوات على الاكثر وهي المهيجة لاكثر
الشهوات وقال الفضيل رحمه الله الزهد هو القناعة وهذه اشارة الى المال خاصة وقال الثوري الزهد هو قصر الامل وهذا جامع لجميع
الشهوات فان من يميل الى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول امله ومن قصر امله فكانه رغب عن الشهوات كلها وقال اويس رحمه الله اذا خرج
بطلب ذهب الزهد وما قصد بهذا حد الزهد ولكن جعل التوكل شرطا في الزهد وقال اويس ايضا الزهد هو ترك الطلب للمضمون
وهو اشارة الى الرزق وقال اهل الحديث الدنيا هو العمل بالراي والمعقول والزهد انما هو اتباع العلم ولزوم السنة وهذا
ان اريد به الراي الفاسد والمعقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح ولكنه اشارة الى بعض اسباب الجاه خاصة والى بعض ما هو
من فضول الشهوات فان من العلوم ما لا فائدة فيه في الاخرة وقد طولوها حتى يقضي عمر الانسان في الاشتغال بواحدة منها فشرط
الزاهد ان يكون الفضول اول مرغوب فيه عنده وقال الحسن الزاهد الذي اذا راى احدا قال هذا افضل مني فذهب الى ان الزهد
هو التواضع وهذه اشارة الى نفي الجاه والعجب وهو بعض اقسام الزهد وقال بعضهم الزهد هو طلب الحلال وكان يوسف بن اسباط
يقول من صبر على الاذى وترك الشهوات واكل الخبز من الحلال فقد اخذ باصل الزهد وفي الزهد اقاويل وراء ما نقلناه فلم نر في نقلها
فائدة **فان من طلب** كشف حقائق الامور من اقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد الا الحيرة **واما من انكشف** له الحق في نفسه
وادركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال معرفته
لاقتصار حاجته وهؤلاء كلهم ما اقتصروا الا لقصور في البصيرة ولكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة
والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه والاحوال
تختلف فلا جرم الاقوال المخبرة عنها تختلف وانما الحق في نفسه فلا يكون الا واحدا ولا يتصور ان يختلف **وانما الجامع** من هذه الاقاويل
الكامل في نفسه وان لم يكن فيه تفصيل ما قال ابو سليمان الداراني اذ قال سمعنا في الزهد كلاما كثيرا والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك
عن الله وقد فصله مرة وقال من تزوج او سافر في طلب المعيشة او كتب الحديث فقد ركن الى الدنيا فجعل جميع ذلك ضد الزهد
وقرا ابو سليمان قوله تعالى الا من اتى الله بقلب سليم قال هو القلب الذي ليس فيه غير الله وقال انما زهدوا في الدنيا لتفرغ
قلوبهم من همومها للاخرة **فهذا** بيان انقسام الزهد بالاضافة الى اصناف المزهود فيه فاما بالاضافة الى احكامه فينقسم الى
فرض ونفل وسلامة كما قال ابراهيم بن ادهم فالفرض هو الزهد في الحرام والفضل هو الزهد في الحلال والسلامة هو الزهد في الشبهات
وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد اذ قيل لمالك بن انس ما الزهد فقال التقوى واما
بالاضافة الى خفايا ما يتركه فلا نهاية للزهد فيه اذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات لا سيما خفايا
الرياء فان ذلك لا يطلع عليه الا سماسرة العلماء بل الاموال الظاهرة ايضا درجات الزهد فيها لا تتناهى **فمن اقصى درجاته** زهد عيسى
عليه السلام اذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان اما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك فقال وما الذي تجدد فقال
توسدك الحجر تنعما برفع راسك عن الارض في النوم فقال خذه فيما تركته لك وروي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام انه لبس المسوح
حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس فسالته امه ان يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل فاوحى الله اليه
يا يحيى اثرت علي الدنيا فبكى ونزع الصوف وعاد الى ما كان وقال احمد رحمه الله الزهد زهد اويس رحمه الله بلغ من العري الى ان
جلس في قوصرة وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط انسان فاقامه صاحب الحائط فقال ما اقمتني انت انما اقامني الذي لم يرض
لي بالتنعم بظل الحائط فاذا درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها واقل درجاته الزهد في كل شبهة ومحظور وقال قوم الزهد
هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحظور فليس ذلك من درجاته في شيء ثم راوا انه لم يبق حلال في اموال الدنيا فلا يتصور الزهد الان **فان قيل**
بهما

بهما قلنا الصحيح هو ان الزهد ترك ما سوى الله فكيف يتصور الزهد مع الاكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم
فكل ذلك اشتغال بما سوى الله فاعلم ان معنى الانصراف عن الدنيا الى الله هو الاقبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا ولا يتصور
ذلك الا مع البقاء ولا بقاء الا بالضروري من الدنيا فمهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن
على العبادة لم يكن شغلا بغير الله فان ما لا يتوصل الى الشيء الا به فهو منه فالمشتغل بعلف الناقة وسقيها في طريق الحج والاغراض ليس
معرضا عن الحج بل غرضك مقصور على دفع الالم عنها حتى تسير بك الى مقصودك فكذلك ينبغي ان تكون في صيانة بدنك
عن الجوع والعطش المهلك بالاكل والشرب وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوي
على طاعة الله فذلك لا يناقض الزهد بل هو شرط الزهد **وان قلت لا بد وان اتلذذ بالاكل عند الجوع** فاعلم ان
ذلك لا يضرك اذا لم يكن قصدك التلذذ فان شارب الماء البارد قد يتلذذ بالشرب ويرجع حاصله الى زوال الم العطش ومن قضى
حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا اليه فالانسان قد يستريح
في قيام الليل بنسيم الاسحار وصوت الطيور ولكن اذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره
ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه نسيم الاسحار خيفة من الاستراحة وانس القلب معه فيكون فيه انس من الدنيا ونقصان
من الانس بالله بقدر وقوع الانس بغير الله ولذلك كان داود الطائي رحمه الله له حب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس
ويشرب الماء الحار ويقول من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا **فهذه** مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط
فانه وان كان شاقا فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد لا يثقل على اهل المعرفة القاهرين انفسهم بسياسة الشرع
المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين **بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة** اعلم
ان ما الناس منهمكون فيه ينقسم الى فضول والى مهم فالفضول كالخيل المسومة مثلا اذ غالب الناس انما يقتنيها للترفه بركوبها
وهو قادر على المشي والمهم كالاكل والشرب ولسنا نقدر على تفصيل اصناف الفضول فان ذلك لا ينحصر وانما ينحصر المهم الضروري والمهم
ايضا يتطرق اليه فضول في مقداره وجنسه واوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه **والمهمات** ستة امور المطعم والملبس والمسكن
واثاثه والمنكح والمال والجاه يطلب لاغراض وهذه الستة من جملتها وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه
في كتاب الرياء من ربع المهلكات ونحن الان نقتصر على بيان هذه المهمات الستة **الاول** المطعم فلا بد للانسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول
وعرض فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد فاما طوله فبالاضافة الى جملة العمر فان من يملك طعام يومه فلا يقنع به **واما** عرضه
ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله **فاما** طوله فلا يقصر الا بقصر الامل واقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع
عند شدة الجوع وخوف المرض ومن هذا حاله فاذا استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه **وهذه** هي الدرجة العليا **الثانية** ان
يدخر لشهر او اربعين يوما **والثالثة** ان يدخر لسنة فقط **وهو** رتبة ضعفاء الزهاد ومن ادخر لاكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال
لان من امل بقاء اكثر من سنة فهو طويل الامل جدا فلا يتم منه الزهد الا اذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الاخذ من ايدي الناس كداود الطائي
فانه ورث عشرين دينارا فامسكها وانفقها في عشرين سنة **فهذا** اصل الزهد الا عند من جعل التوكل شرط الزهد **واما** عرضه فبالاضافة
الى المقدار فاقل درجاته في اليوم والليلة **نصف رطل** واوسطه **رطل** واعلاه **مد واحد** وهو ما قدره الله في اطعام المساكين في الكفارة
وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب **واما** بالاضافة
الى الجنس فاقله كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة واوسطه خبز الشعير والذرة واعلاه خبز البر غير منخول فاذا ميز النخالة وصار
حواريا فقد دخل في التنعم وخرج عن اخر ابواب الزهد فضلا عن اوائله **واما** الادم فاقله الملح والبقل والخل **واوسطه** الزيت
من الادهان اي دهن كان **واعلاه** اللحم اي لحم كان وذلك في الاسبوع مرة او مرتين فان صار دائما او اكثر من مرتين في الاسبوع

خروج من ابواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن اصلا واما بالاضافة الى الوقت فاقله في اليوم والليلة مرة وهو
ان يكون صايما **واوسطه** ان يصوم ويشرب ليلة واحدة ولا ياكل ولا يشرب **واعلاه** ينتهي الى ان يطوي ثلثة ايام
واسبوعا وما زاد عليه وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شهوته في ربع المهلكات ولينظر الى احوال رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه
في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الادم وقالت عائشة رضي الله عنها كانت تاتي اربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح
ولا نار فقيل لها فبم كنتم تعيشون قالت بالاسودين التمر والماء وهذا ترك اللحم والمرقة والادم وقال الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار
ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ويلعق اصابعه وياكل على الارض ويقول انما انا عبد آكل كما ياكل العبيد وقال عيسى عليه السلام بحق اقول لكم انه من طلب
الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير وقال الفضيل ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلثة ايام من خبز البر
وكان يقول عيسى عليه السلام يا بني اسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير واياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره وقد ذكرنا سيرة
الانبياء والسلف في المطعم في ربع المهلكات ولا نعيده ولما اتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بشربة من سويق بعسل فوضع القدح من يده وقال
اما اني لست احرمه ولكني اتركه تواضعا له واتي عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال اعزلوا عني حسابها وقال
يحيى بن معاذ الرازي الزاهد الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه حيث ادرك الدنيا سجنه والقبر مضجعه والخلوة مجلسه والاعتبار
فكره والقرآن حديثه والرب انيسه والذكر رفيقه والزهد قرينه والحزن شانه والحياء شعاره والجوع ادامه والحكمة كلامه والتراب فراشه
والتقوى زاده والصمت غنيمته والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل دليله والعبادة حرفته والجنة مبلغه ان شاء الله تعالى **المهم الثاني**
الملبس واقل درجته ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة وهو كساء يتغطى به **واوسطه** قميص وقلنسوة ونعلان **واعلاه** ان يكون معه منديل
وسراويل وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد وشرط الزاهد ان لا يكون له ثوب يلبسه اذا غسل ثوبه بل يلزمه
القعود في البيت فاذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من ابواب الزهد جميعا هذا من حيث المقدار اما الجنس فاقله
المسوح الخشنة **واوسطه** الصوف الخشن **واعلاه** القطن الغليظ واما من حيث الوقت **فاقصاه** ما يستر سنة **واقله** ما يبقى
يوما حتى رقع احدهم ثوبه بورق الشجر وان كان يتسارع الجفاف اليه **واوسطه** ما يتماسك عليه شهرا وما يقاربه فطلب ما يبقى اكثر
من سنة خروج الى طول الامل وهو مضاد للزهد الا اذا كان المطلوب خشونته ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه فمن وجد زيادة فلا
فينبغي ان يتصدق به فان امسكه لم يكن زاهدا بل كان محبا للدنيا ولينظر فيه الى احوال الانبياء والصحابة كيف تركوا الملابس قال ابو بردة رضي الله عنه
اخرجت لنا عائشة رضي الله عنها كساء ملبدا وازارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين وقال صلى الله عليه وسلم انما انا عبد
المتبذل الذي لا يبالي ما لبس وقال عمرو بن الاسود العنسي لا البس مشهورا ابدا ولا انام بليل على دثار ابدا ولا اركب على مأثور ابدا
ولا املأ جوفي من طعام ابدا فقال عمر رضي الله عنه من سره ان ينظر الى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر الى عمرو بن الاسود وفي الخبر
ما من عبد لبس ثوب شهرة الا اعرض الله عنه حتى ينزعه وان كان عنده حبيبا واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا باربعة دراهم وكانت قيمة
ثوبيه عشرة وكان ازاره اربعة اذرع ونصفا واشترى سراويل بثلثة دراهم وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى
حلة لانهما ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين او سحوليين من هذه الغلاظ وفي الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم
كانه قميص زيات ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا من سيراء سندس قيمته مائتا درهم فكان اصحابه يلمسونه ويقولون
يا رسول الله انزل هذا عليك من الجنة تعجبا وكان قد اهداه اليه المقوقس ملك الاسكندرية فاراد ان يكرمه بلبسه ثم نزعه وارسل
به الى رجل من المشركين ثم وصله ثم حرم لبس الحرير والديباج وكانه انما لبسه اولا تاكيدا للتحريم كما لبس خاتما من ذهب يوما
ثم نزعه فحرم لبسه على الرجال وكما قال لعائشة في شان بريرة اشترطي لاهلها الولاء فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرمه
وكما اباح المتعة ثلثا ثم حرمها لتاكيد امر النكاح وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميصة لها علم فلما سلم قال
شغلني

انظروا الى هذه اذهبوا بها الى ابي جهم واتوني بانبجانيته يعني كساءه فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم وكان شراك نعله قد
اخلق فابدل بسير جديد فصلى فيه فلما سلم قال اعيدوا الشراك الخلق وانزعوا هذا الجديد فاني نظرت اليه في الصلاة ولبس
خاتما فنظر اليه على المنبر فرماه وقال شغلني هذا عنكم نظرة اليه ونظرة اليكم وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى نعلين جديدين
فاعجبه حسنهما فخر ساجدا وقال اعجبني حسنهما فتواضعت لربي خشية ان يمقتني ثم خرج بهما فدفعهما الى اول مسكين راه وعن
سنان بن سعد رضي الله عنه قال حكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة صوف من صوف انمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها
قال انظروا ما احسنها ما الينها فقام اليه اعرابي فقال يا رسول الله هبها لي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سئل شيئا لم يبخل به
قال فدفعها اليه وامر ان تحاك له واحدة اخرى فمات صلى الله عليه وسلم وهي في الحاكة وعن جابر رضي الله عنه قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم
على فاطمة رضي الله عنها وهي تطحن بالرحا وعليها كساء من اجلة الابل فلما نظر اليها بكى وقال يا فاطمة تجرعي مرارة الدنيا لنعيم الابد فانزل الله عليه
ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال صلى الله عليه وسلم ان من خيار امتي فيما انباني الملأ الاعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويبكون
سرا من خوف عذابه مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى انفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان اجسامهم في الارض وافئدتهم عند
العرش **فهذه** كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس وقد اوصى امته عامة باتباعه اذ قال من احبني فليستن بسنتي وقال
عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وقال قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله واوصى رسول الله
صلى الله عليه وسلم عائشة خاصة وقال ان اردت اللحوق بي فاياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعي ثوبا حتى ترقعيه وعد على قميص عمر رضي الله عنه
اثنتا عشرة رقعة بعضها من ادم واشترى علي كرم الله وجهه ثوبا بثلثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة وقطع كميه من الرسغين وقال الحمد لله هذا
من رياشه وقال الثوري وغيره البس من الثياب ما لا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال وكان يقول ان الفقير ليمر بي وانا اصلي فادعه
يجوز ويمر بي واحد من ابناء الدنيا وعليه هذه البزة فامقته ولا ادعه يجوز وقال بعضهم قومت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم واربعة
دوانيق وقال ابن شبرمة خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته وقال بعض السلف البس من الثياب ما خالطك بالسوقة ولا تلبس
ما يشهرك فينظر اليك وقال ابو سليمان الثياب ثلثة ثوب لله وهو ما يستر العورة وثوب للنفس وهو ما يطلب لينه وثوب للناس وهو ما
يطلب جوهره وحسنه وقال بعضهم من رق ثوبه رق دينه وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين الى الثلثين وكان
الخواص لا يلبس اكثر من قطعتين قميص ومئزر ويعطف ذيل قميصه على راسه وقال بعض السلف اول النسك الزي وفي الخبر البذاذة
من الايمان وفي الخبر من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله وابتغاء لوجهه كان حقا على الله ان يدخر له من عبقري الجنة في
عياب الياقوت واوحى الله الى بعض انبيائه قل لاوليائي لا يلبسوا ملابس اعدائي ولا يدخلوا مداخل اعدائي فيكونوا اعدائي كما هم
اعدائي ونظر رافع بن خديج رضي الله عنه الى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال انظروا الى اميركم يعظ الناس وعليه ثياب
الفساق وكان عليه ثياب رقاق وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة الى ابي ذر رضي الله عنه في بزته فجعل يتكلم في الزهد فوضع ابو ذر
راحته على فيه وجعل يضرط به فغضب ابن عامر فشكاه الى عمر رضي الله عنه فقال انت صنعت به تتكلم في الزهد في
هذه البزة وقال علي كرم الله وجهه ان الله تعالى اخذ على ائمة الهدى ان يكونوا مثل ادنى احوال الناس ليقتدي بهم الغني
ولا يزري بالفقير فقره ولما عوتب في خشونة لباسه قال هو ادنى الى التواضع واجدر ان يقتدي بي المسلم ونهى صلى الله عليه وسلم
عن التنعم وقال ان عباد الله ليسوا بالمتنعمين وروي فضالة بن عبيد وهو والي مصر اشعث حافيا فقيل له انت الامير وتفعل
هذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الارفاه وامرنا ان نحتفي احيانا وقال علي لعمر رضي الله عنهما اذا اردت ان
تلحق بصاحبيك فارقع القميص ونكس الازار واخصف النعل وكل دون الشبع وقال عمر رضي الله عنه اخلولقوا

واخشوشنوا واياكم وزي العجم كسرى وقيصر وقال علي كرم الله وجهه من تزيا بزي قوم فهو منهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان من شرار امتي الذين غذوا بالنعيم يطلبون الوان الطعام والوان الثياب ويتشدقون في الكلام وقال صلى الله عليه وسلم ازرة المؤمن
الى انصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما اسفل من ذلك ففي النار ولا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ازاره بطرا وقال ابو سليمان
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلبس الشعر من امتي الا مراء او احمق وقال الاوزاعي رحمه الله لباس الصوف في السفر سنة وفي الحضر بدعة ودخل
محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف فقال له قتيبة ما دعاك الى مدرعة الصوف فسكت فقال اكلمك ولا تجيبني فقال اكره ان اقول زهدا
فازكي نفسي او فقرا فاشكو ربي وقال الاعمش لما اتخذ الله ابراهيم خليلا اوحى اليه ان وار عورتك من الارض وكان صلى الله عليه وعلى نبينا السلام لا يتخذ من كل
شيء الا واحدا سوى السراويل فانه كان يتخذ سراويلين فاذا غسل احدهما لبس الاخر حتى لا ياتي عليه حال الا وعورته مستورة وقيل لسلمان الفارسي مالك
لا تلبس الجيد من الثياب فقال وما للعبد والثوب الحسن فاذا عتق فله والله ثياب لا تبلى ويروى عن عمر بن عبد العزيز انه كان له جبة شعر يلبسها من الليل اذا
قام يصلي وقال الحسن لفرقد السبخي تحسب ان لك فضلا على الناس بكسائك بلغني ان اكثر اهل النار اصحاب الاكسية وقال يحيى بن معين رايت ابا معوية الاسود
وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها فقلت انك تكسى خيرا من هذا فقال ما ضرهم ما اصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة فجعل
يحيى بن معين يحدث بهذا ويبكي **المهم الثالث** المسكن وللزهد فيه ايضا ثلث درجات **اعلاها** ان لا يطلب موضعا خاصا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد
كاصحاب الصفة **واوسطها** ان يطلب موضعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبني من سعف وخص وما يشبهه **وادناها** ان يطلب حجرة
مبنية اما شراء او اجارة فان كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن اخر درجات الزهد وان
طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف اكثر من ستة اذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد في المسكن واختلاف جنس البناء بان يكون
من الجص او القصب او بالطين او بالاجر واختلاف قدره بالسعة والضيق واختلاف طوله بالاضافة الى الاوقات بان يكون مملوكا او مستاجرا او مستعارا
وللزهد مدخل في جميع ذلك وبالجملة كلما يراد للضرورة فلا ينبغي ان يجاوز حد الضرورة **وقدر** الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته
وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع المطر والبرد وعن الاعين والايدي واقل الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فهو من
الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جدا وقد قيل اول شيء ظهر من طول الامل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم
التدريز والتشييد يعني بالتدريز كف دروز الثوب فانها كانت تشل شلا والتشييد هو البنيان بالاجر والجص انما كانوا يبنون بالسعف
والجريد وقد جاء في الاثر ياتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس ان يهدم
عليه كان قد علاها ومر عليه السلام بقبة معلاة فقال لمن هذه فقالوا لفلان فلما جاء الرجل اعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسال الرجل
اصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم فاخبر فذهب فهدمها فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فاخبر بانه هدمها فدعا له بخير
وقال الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وقال النبي صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بعبد
شرا اهلك ماله في الماء والطين وقال عبد الله بن عمر مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا فقال ما هذا قلنا خص
قد وهى فقال الامر اعجل من ذلك واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب فقيل له لو بنيت فقال هذا كثير لمن يموت وقال الحسن
دخلنا على صفوان بن محرز وهو في بيت من قصب قد مال عليه فقيل له لو اصلحته فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله وقال
النبي صلى الله عليه وسلم من بنى فوق ما يكفيه كلف ان يحمله يوم القيامة وفي الخبر كل نفقة العبد يؤجر عليها الا ما انفقه في الماء والطين
وفي قوله تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا انه الرياسة والتطاول في البنيان
وقال صلى الله عليه وسلم كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة الا ما اكن من حر وبرد وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكا اليه
ضيق منزله اتسع في السماء اي في الجنة ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام الى صرح قد بني بجص واجر فكبر وقال ما كنت
اظن

اظن ان هذه الامة تبني بنيان هامان لفرعون يعني قوله فاوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا يعني به الاجر ويقال
ان فرعون هو اول من بني له بالجص والاجر واول من عمله هامان ثم تبعهما الجبابرة وهذا هو الزخرف وذكر بعض السلف جامعا
في بعض الامصار فقال ادركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رايته مبنيا من رهص ثم رايته الان مبنيا باللبن فكان
اصحاب السعف خيرا من اصحاب الرهص وكان اصحاب الرهص خيرا من اصحاب اللبن وكان في السلف من يبني داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصر
امله وزهده في احكام البنيان وكان منهم من اذا حج او غزا نزع بيته او وهبه لجيرانه فاذا رجع اعاده وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود
وهي عادة العرب الان ببلاد اليمن وكان ارتفاع بناء السلف قامة وبسطة قال الحسن رحمه الله كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت
بيدي الى السقف وقال عمرو بن دينار اذا اعلى العبد البناء فوق ستة اذرع ناداه ملك الى اين يا افسق الفاسقين وقد نهى
عن النظر الى بناء التشييد وقال لولا نظر الناس لما شيدوه فالنظر معين عليه وقال الفضيل اني لا اعجب ممن بنى وترك ولكني اعجب ممن
نظر اليه ولم يعتبر وقال ابن مسعود ياتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البراذين يصلون الى قبلتكم ويموتون
على غير دينكم **المهم الرابع** اثاث البيت وللزهد ايضا فيه درجات **واعلاه** حال عيسى عليه السلام اذ كان لا يصحبه الا مشط وكوز فراى
انسانا يمشط لحيته باصابعه فرمى المشط وراى اخر يشرب من النهر بكفيه فرمى الكوز وهذا حكم كل اثاث فانه انما يراد لمقصود
فاذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والاخرة وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على اقل الدرجات وهو الخزف في كل ما يكفي فيه الخزف ولا يبالي
بان يكون مكسور الطرف اذا كان المقصود يحصل به **واوسطه** ان يكون له اثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه لكن يستعمل الالة الواحدة في مقاصد
كالذي معه قصعة يشرب فيها وياكل فيها ويحفظ المتاع فيها وكان السلف يستحبون استعمال الة واحدة في اشياء للتخفيف **واعلاه**
ان يكون له بعدد كل حاجة الة من الجنس النازل الخسيس فان زاد في العدد او في نفاسة الجنس خرج عن جميع ابواب الزهد وركن الى
طلب الفضول ولينظر الى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضي الله عنهم فقد قالت عائشة رضي الله عنها كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم
الذي ينام عليه وسادة من ادم حشوها ليف قال الفضيل ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عباءة مثنية ووسادة من ادم
حشوها ليف وروي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط فجلس فراى اثر الشريط
في جنبه صلى الله عليه وسلم فدمعت عينا عمر رضي الله عنه فقال له النبي عليه السلام ما الذي ابكاك يا ابن الخطاب فقال ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك
وذكرتك وانت رسول الله وحبيبه وصفيه نائم على سرير مرمول بشريط فقال عليه السلام اما ترضى يا عمر ان تكون لهما الدنيا ولنا الاخرة
قال بلى يا رسول الله قال وانا لذلك ودخل رجل على ابي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال يا ابا ذر ما ارى في بيتك متاعا ولا غير ذلك
من الاثاث فقال ان لنا بيتا نوجه اليه صالح متاعنا ولما قدم عمير بن سعد امير حمص على عمر رضي الله عنه قال له ما معك من الدنيا قال معي عصاي
اتوكا عليها واقتل بها حية ان لقيتها ومعي جرابي احمل فيه طعامي ومعي قصعتي اكل فيها واغسل فيها راسي وثوبي ومعي مطهرتي احمل
فيها شرابي ووضوئي للصلاة فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي فقال عمر صدقت رحمك الله وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل
على فاطمة فراى على باب منزلها سترا وفي يديها قلبين من فضة فرجع فدخل عليها ابو رافع وهي تبكي فاخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم
فسال ابو رافع فقال من اجل الستر والسوارين فارسلت بهما بلالا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى
فقال اذهب فبعه وادفعه الى اهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال بابي انت قد احسنت وراى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة رضي الله عنها سترا فهتكه وقال كلما رايته ذكرت الدنيا
ارسلي به الى فلان وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية فما زال يتقلب ليلته فلما

اصبح قال لها اعيدي العشاء للحلقة ويحيى هو العراقي عين بعد انه في الليل وامة دنا ابن خمر او سنة عشا فيتي فيهم ليلة حتى اخرجها
من آخر الليل وقالت عائشة رضي الله عنها فنام جنيد حتى سمعت غطيطه ثم قال ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده وقال الحسن ادركت سبعين من
الاخيار ما لاحدهم الا ثوبه وما وضع احد بينه وبين الارض ثوبا قط كان اذا اراد النوم باشر الارض بجسمه وجعل ثوبه فوقه **المهم الخامس**
المنكح وقد قال قائلون لا معنى للزهد في اصل النكاح ولا في كثرته واليه ذهب سهل بن عبد الله وقال قد حبب الى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد
فيهن ووافقه ابن عيينة رحمهما الله وقال كان ازهد الصحابة علي رضي الله عنه وكان له اربع نسوة وبضع عشرة سرية والصحيح ما قاله ابو سليمان الداراني اذ قال
كل ما شغلك عن الله من اهل ومال وولد فهو عليك مشوم والمرأة قد تكون شاغلا عن الله وكشف الحق فيه انه قد تكون العزوبة افضل في بعض الاحوال
كما بيننا في كتاب النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح افضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وان لم يكن عليه
آفة في تركه او فعله ولكن ترك النكاح احترازا من ميل القلب اليهن والانس بهن بحيث يشغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد وان علم ان المرأة لا تشغله
عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد اصلا فان الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير امة رسول الله صلى الله
عليه وسلم من القربات واللذة التي تلحق الانسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره اذا لم يكن هو المطلب والمقصد **وهذا** كمن ترك اكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة
الاكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء لان في ترك ذلك فوات بدنه ولذلك في ترك النكاح انقطاع نسله فلا يجوز ان يترك النكاح زهدا في لذة
من غير خوف آفة اخرى **وهذا** ما عناه سهل لا محالة ولاجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا ثبت هذا فهذا حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم
في انه لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن والانفاق عليهن ولا معنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر ولكن
انى يتصور ذلك لغير الانبياء فاكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان فينبغي ان يترك الاصل ان كان يشغله وان لم يشغله وكان يخاف ان يشغله الكثرة
منهن او جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك قال ابو سليمان الزهد في النساء ان يختار المرأة الدون او اليتيمة على المرأة الجميلة
والشريفة وقال الجنيد رحمه الله احب للمريد المبتدي ان لا يشغل قلبه بثلاث والا تغير حاله التكسب وطلب الحديث والتزويج وقال احب للصوفي ان لا يكتب
ولا يقرأ لانه اجمع لهمه فاذا ظهر ان لذة النكاح كلذة الاكل فما يشغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا **المهم السادس** ما يكون وسيلة
الى هذه الخمسة وهو المال والجاه اما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به الى الاستعانة في الاغراض والاعمال وكل من لا يقدر على القيام بنفسه
في جميع حاجاته وافتقر الى من يخدمه افتقر الى جاه لا محالة في قلب خادمه لانه ان لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته وقيام القدر والمحل في القلوب
هو الجاه وهذا له اول قريب ولكن يتمادى به الى هاوية لا عمق لها ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه وانما يحتاج الى المحل في القلوب اما لجلب نفع او لدفع
ضرر او لخلاص من ظلم فاما النفع فيغني عنه المال فان من يخدم بأجرة يخدم وان لم يكن للمستأجر عنده قدر وانما يحتاج الى الجاه في قلب من يخدم بغير اجرة
واما دفع الضرر فيحتاج لاجله الى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل او يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم الا بمحل له في قلوبهم او محل له عند السلطان
وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما اذا انضم اليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والخائض في طلب الحاجة سالك طريق الهلاك بل حق الزاهد ان لا يسعى لطلب المحل
في القلوب ما يدفع عنه الاذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين فاما التوهمات والتقديرات التي تحوج الى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب اوهام كاذبة
اذ من طلب الجاه ايضا لم يخل عن اذى في بعض الاحوال **فعلاج** ذلك بالاحتمال والصبر اولى من علاجه بطلب الجاه فاذا طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه اصلا
واليسير منه داع الى الكثير وضراوته اشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره واما المال فهو ضروري في المعيشة اعني القليل منه فان كان كسوبا
فاذا اكتسب حاجة يومه فينبغي ان يترك الكسب كان بعضهم اذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام هذا شرط الزهد فان جاوز ذلك الى ما يكفيه اكثر
من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد واقويائهم جميعا وان كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين في التوكل فامسك منها مقدار ما يكفيه
ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط ان يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته ولكن يكون من ضعفاء الزهاد فان شرط
التوكل في الزهد كما شرطه اويس القرني فلا يكون هذا من الزهاد وقولنا انه خرج من حد الزهاد نعني به انه وعد الزاهدين في الآخرة من المقام
المحمود

المحمود لا باسم والا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالاضافة الى ما زهد فيه من الفضول والكثرة وامر المنفرد في جميع ذلك اخف من امر
المعيل وقد قال ابو سليمان لا ينبغي ان يرهق الرجل اهله الى الزهد بل يدعوهم اليه فان اجابوا والا تركهم وفعل بنفسه ما شاء معناه
ان التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل ذلك في عياله نعم لا ينبغي ان يجيبهم ايضا فيما يخرج عن حد الاعتدال وليتعلم
من رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ انصرف من بيت فاطمة رضي الله عنها بسبب ستر وقلبين لان ذلك من الزينة لا من الحاجة فاذا ما يضطر الانسان اليه من
جاه ليس بمحمود بل الزايد على الحاجة سم قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع وما بينهما درجات متشابهة فما يقرب من الزيادة وان لم يكن
سما قاتلا فهو مضر وما يقرب من الضرورة فهو وان لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه والدواء فرض تناوله وما بينهما
متشابه امره فمن احتاط فانما يحتاط لنفسه ومن تساهل فانما يتساهل على نفسه ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه الى
ما لا يريبه ورد نفسه الى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم **وهو** من الفرقة الناجية لا محالة والمقتصر على قدر الضرورة والمهم
لا يجوز ان ينسب الى الدنيا بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لانه شرط الدين والشرط من جملة المشروط **ويدل** عليه ما روي
ان ابراهيم الخليل عليه السلام اصابته حاجة فذهب الى صديق له يستقرضه شيئا فلم يقرضه فرجع مهموما فاوحى الله اليه لو سألت خليلك
لاعطاك فقال يا رب عرفت مقتك للدنيا فخفت ان اسألك منها شيئا فاوحى الله اليه ليس الحاجة من الدنيا فاذا قدر الحاجة
من الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا ايضا كذلك يعرفه من يخبر احوال الاغنياء وما عليهم من المحنة في كسب
المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه وغاية سعادته ان يسلم لورثته فياكلوه وربما يكونون اعداء له وقد يستعينون
به على المعصية فيكون هو معينا لهم عليها ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حتى يقتلها
ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمل بنفسه **فكذلك** كل من اتبع هواه شهوات الدنيا فانما يحكم
على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والاهل والولد وشماتة الاعداء ومراءاة الاصدقاء
وسائر حظوظ الدنيا فلو خطر له انه قد اخطأ فيه فقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل واغلال لا يقدر على
قطعها ولو ترك محبوبا من محابه باختياره كاد ان يكون قاتلا لنفسه وساعيا في هلاكها الى ان يفرق ملك الموت بينه وبين
جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل من قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه الى الدنيا ومخالب ملك الموت قد علقت
بعروق قلبه تجذبه الى الآخرة فيكون اهون احواله عند الموت ان يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل احد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة
من الجانبين فالذي ينشر بالمنشار انما ينزل المؤلم ببدنه ويتألم قلبه بذلك بطريق السراية اليه من غيره **فهذا** اول عذاب يلقاه قبل
ما يراه من حسرة فوت النزول الى اعلى عليين وجوار رب العالمين فبالنزوع الى الدنيا يحجب عن لقاء الله وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم
اذ النار غير مسلطة الا على محجوب قال الله كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم **فرتب عذاب** النار على الم الحجاب
والم الحجاب كاف من غير علاوة النار فكيف اذا اضيفت العلاوة اليه فنسأل الله ان يقرع اسماعنا ما نفث في روع رسول الله صلى الله
عليه وسلم احبب ما احببت فانك مفارقه وفي معنى ما ذكرنا من المثال الشاعر كذلك دود القز ينسج دائما •
ويهلك غما وسط ما هو ناسجه •• ولما انكشف لاولياء الله ان العبد مهلك نفسه باعماله واتباعه هوى نفسه اهلاك دود القز
نفسه رفضوا الدنيا بالكلية حتى قال الحسن رأيت سبعين بدريا كانوا فيما احل الله لهم ازهد منكم فيما حرم الله عليكم وفي لفظ آخر كانوا
بالبلاء اشد فرحا منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم مجانين ولو رأوا خياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق ولو رأوا شراركم
قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب وكان بعضهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول اخاف ان يفسد علي قلبي فمن كان له قلب
فهو لا محالة من فساده والذين اماتت الدنيا قلوبهم فقد اخبر الله عنهم اذ قال تعالى ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين

منهم
فقال يا رسول الله ادع الله ان يجعلني منهم فقال اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال ادع الله ان يجعلني منهم فقال صلى الله عليه وسلم سبقك بها
عكاشة وقال صلى الله عليه وسلم لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا وقال صلى الله عليه وسلم
من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها وقال صلى الله عليه وسلم من سره ان يكون اغنى الناس فليكن
بما عند الله اوثق منه بما في يديه ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا اصاب اهله خصاصة قال قوموا الى الصلاة ويقول بهذا امرني
ربي قال الله تعالى وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها الآية وقال صلى الله عليه وسلم لم يتوكل من استرقى واكتوى ويروى انه لما قال جبريل لابراهيم
عليهما السلام وقد رمي الى النار بالمنجنيق الك حاجة فقال اما اليك فلا وفاء بقوله حسبنا الله ونعم الوكيل اذ قال ذلك حين اخذ ليرمى واوحى الله
تعالى الى داود يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السموات والارض الا جعلت له مخرجا **واما الآثار** فقد قال سعيد بن جبير لدغتني
عقرب فاقسمت علي امي لتسترقين فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى وتوكل على الحي الذي لا يموت الى آخرها فقال ما ينبغي للعبد
بعد هذه الآية ان يلجأ الى احد غير الله تعالى وقيل لبعض العلماء في منامه من وثق بالله فقد احرز قوته وقال بعض العلماء لا يشغلنك المضمون
لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع امر آخرتك ولا تنال من الدنيا الا ما كتبه الله لك وقال يحيى بن معاذ في وجود العبد الرزق
من غير طلب دلالة على ان الرزق مأمور بطلب العبد وقال ابراهيم بن ادهم سألت بعض الرهبان من اين تأكل فقال ليس هذا العلم عندي ولكن سل
ربي من اين يطعمني وقال هرم بن حيان لاويس القرني اين تأمرني ان اكون فاومأ الى الشام فقال هرم كيف المعيشة بها فقال اويس
اف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة وقال بعضهم متى رضيت بالله وكيلا وجدت الى كل خير سبيلا **بيان حقيقة التوحيد**
الذي هو اصل التوكل اعلم ان التوكل من ابواب الايمان وجميع ابواب الايمان لا تنتظم الا بعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينتظم من علم
هو الاصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الاصل وهو المسمى ايمانا في اصل اللسان اذ الايمان هو التصديق
وكل تصديق بالقلب فهو علم واذا قوي سمي يقينا ولكن ابواب اليقين كثيرة وانما نحتاج منها الى ما ينبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي
يترجم عنه قولك لا اله الا الله وحده لا شريك له والايمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك له الملك والايمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه
قولك وله الحمد فمن قال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير تم له الايمان الذي هو اصل التوكل اعني ان
يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه فاما التوحيد فهو الاصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة ولكن
بعض علوم المكاشفة متعلق بالاعمال بواسطة الاحوال ولا يتم علم المعاملة الا به فاذا لا نتعرض الا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة
والا فالتوحيد هو البحر الخضم الذي لا ساحل له **فنقول** للتوحيد اربع مراتب وهو ينقسم الى لب والى لب اللب والى قشر والى قشر
القشر ولنمثل ذلك تقريبا الى الافهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فان له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب
اللب فالمرتبة الاولى من التوحيد ان يقول الانسان بلسانه لا اله الا الله وقلبه غافل عنه او منكر له كتوحيد المنافق والثانية ان
يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام والثالثة ان يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو
مقام المقربين وذلك بان يرى اشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة من الواحد القهار والرابعة ان لا يرى في الوجود الا واحدا وهي
مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد لانه من حيث لا يرى الا واحدا فلا يرى نفسه ايضا واذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا
بالتوحيد كان فانيا عن نفسه في توحيده بمعنى انه فني عن رؤية نفسه **والاول** موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف
والسنان **والثاني** موحد بمعنى انه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح
وانفتاح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة ان توفي عليها ولم تضعف بالمعاصي عقدته ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى
بدعة وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها ايضا احكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما والعارف
به يسمى

يسمى متكلما وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث انه يحمي
بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقدته **والثالث** موحد بمعنى انه لم يشاهد الا فاعلا واحدا اذ انكشف
له الحق كما هو عليه ولا فاعل بالحقيقة الا واحد وقد انكشف له الحقيقة كما هي عليه لانه كلف قلبه ان يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فان ذلك
رتبة العوام والمتكلمين اذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به يدفع حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة
والرابع موحد بمعنى انه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث انه كثير بل من حيث انه واحد **فهذه** هي الغاية القصوى
في التوحيد فالاول كالقشرة العليا من الجوز والثاني كالقشرة السفلى والثالث كاللب والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما ان القشرة العليا
لا خير فيها بل ان اكل فهو مر المذاق وان نظر الى باطنه فهو كريه المنظر وان اتخذ حطبا اطفأ النار واكثر الدخان وان ترك في البيت ضيق المكان
فلا يصلح الا ان يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر
مذموم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى الى وقت الموت والقشرة السفلى هي القلب والبدن وتوحيد المنافق
يصون بدنه عن سيف الغزاة فانهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف انما يصيب جسم البدن وهو القشرة وانما يتجرد عنها بالموت فلا يبقى
لتوحيده فائدة بعده وكما ان القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة الى القشرة العليا فانها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار
واذا فصلت امكن ان ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالاضافة الى اللب فكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالاضافة الى مجرد نطق
اللسان ناقص القدر بالاضافة الى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانشراح الصدر وانفتاحه واشراق نور الحق فيه اذ ذلك الشرح هو المراد بقوله تعالى
افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وكما ان اللب نفيس في نفسه نفيس بالاضافة الى القشر فكانه المقصود ولكنه لا يخلو عن شوب
ملاحظة الغير والالتفات الى الكثرة بالاضافة الى من لا يشاهد سوى الواحد الحق **فان قلت** كيف يتصور ان لا يشاهد الا واحدا وهو يشاهد
السماء والارض وسائر الاجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا **فاعلم** ان هذه غاية علوم المكاشفات واسرار هذا العلم لا يجوز
ان تسطر في كتاب فقد قال العارفون افشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر ما يكسر استبعادك ممكن وهو ان
الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار وهذا كما ان الانسان كثير اذا التفت الى روحه
وجسده واطرافه وعروقه وعظامه واحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة اخرى واحد اذ نقول انه انسان واحد فهو بالاضافة الى الانسانية
واحد وكم من شخص يشاهد انسانا ولا يخطر بباله كثرة امعائه وعروقه واطرافه وتفصيل روحه وجسده والفرق بينهما فهو في حالة الاستغراق
والاستهتار به مستغرق واحد ليس فيه تفرق وكأنه في عين الجمع والملتفت الى الكثرة في تفرقة فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق
له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة وهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات اخر سواه كثير وبعضها اشد كثرة من بعض ومثال
الانسان وان كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه بالجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا ويستفيد بهذا الكلام ترك الانكار
والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به ايمان تصديق فيكون لك من حيث انك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وان لم يكن ما آمنت به صفتك
كما انك اذا آمنت بالنبوة وان لم تكن نبيا كان لك نصيب منها بقدر قوة ايمانك **وهذه** المشاهدة التي لا يظهر فيها الا الواحد الحق
تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الاكثر والدوام نادر عزيز جدا والى هذا اشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص
يدور في الاسفار فقال فيم انت فقال ادور في الاسفار لاصحح حالي في التوكل وقد كان من المتوكلين فقال الحسين قد افنيت عمرك في عمران
باطنك فاين الفناء في التوحيد فكأن الخواص كان في تصحيح **المقام الثالث** من التوحيد فطالبه بالمقام الرابع **فهذه** مقامات الموحدين في التوحيد
على سبيل الاجمال **فان قلت** فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه **فاقول** اما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه
وليس التوكل ايضا مبنيا عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد **الثالث** واما الاول فهو نفاق واما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم
المسلمين وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدع فيه مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه واما الثالث

بل ينبني التوكل عليه اذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلنحك منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله
الذي لا يحتمل امثال هذا الكتاب وحاصله ان ينكشف لك ان لا فاعل الا الله تعالى وان كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع
وحياة وموت وغنى وفقر الى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الله تعالى لا شريك له فيه واذا انكشف
لك هذا لم تنظر الى غيره بل كان منه خوفك واليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك فانه الفاعل بالانفراد دون غيره وما سواه مسخرون
لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات واذا انفتحت لك ابواب المكاشفة اتضح لك هذا ايضاحا اتم من المشاهدة بالبصر وانما
يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقامين يبتغي ان يطرق الى قلبك شائبة الشرك احدهما الالتفات الى الجمادات كاعتمادك على المطر
في خروج الزرع ونباته ونمائه وعلى الغيم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع الغيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك في التوحيد
وجهل بحقائق الامور ولذلك قال تعالى فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله الاية قيل معناه انهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا
ومن انكشف له امر العالم كما هو عليه علم ان الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك وهكذا الى ان ينتهي الى المحرك الاول الذي لا محرك له
ولا متحرك هو في نفسه فالتفات العبد في النجاة الى الريح يضاهي من اخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته فاخذ يشتغل بذكر
الحبر والكاغد والقلم الذي كتب به التوقيع ويقول لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم ان القلم
لا حكم له في نفسه وانما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت اليه ولم يشكر الا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والموقع عن ان يخطر بباله القلم والحبر
والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والارض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم بيد الكاتب بل هذا تمثيل
في حقك لاعتقادك ان الملك الموقع هو كاتب التوقيع والحق ان الله تعالى هو الكاتب كما قال تعالى وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى فاذا انكشف
لك ان جميع ما في السموات والارض مسخر على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وايس من مزج توحيدك بهذا الشرك فياتيك في المهلكة
الثانية وهي الالتفات الى اختيار الحيوانات في الافعال الاختيارية ويقول كيف ترى الكل من الله وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره فان
شاء اعطاك وان شاء قطع عنك وهذا الشخص الذي هو يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك ان شاء حز رقبتك وان شاء عفا عنك فكيف
لا تخافه وكيف لا ترجوه وامرك بيده وانت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ويقول له ايضا نعم ان كنت لا ترى القلم لانه مسخر فكيف لا ترى الكاتب
بالقلم وهو المسخر له وعند هذا زل اقدام الاكثرين الا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر
كون الكاتب مسخرا مضطرا كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا وعرفوا ان غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت
تدب على الكاغد فترى راس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها الى الاصابع والكاتب فضلا عن صاحب اليد لغلطت وظنت ان القلم
هو المسود للبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة راس القلم لضيق حدقتها فكذلك من لم يشرح بنور الله صدره قصرت بصيرته عن
ملاحظة جبار السموات والارض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض بل ارباب القلوب والمشاهدات
قد انطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والارض بقدرته التي بها انطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها وشهادتها على انفسها بالعجز بلسان
ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت الذي لا يجاوز الاصوات فالحمار شريك فيه ولا قدر لما تشارك فيه البهائم وانما اريد به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف
ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي فان قلت فهذا اعجوبة لا يقبلها العقل فصف لي كيفية نطقها وانها كيف نطقت وماذا نطقت وكيف سبحت
وقدست وكيف شهدت على نفسها بالعجز فاعلم ان لكل ذرة في السموات والارض مع ارباب القلوب مناجاة في السر وذلك مما لا ينحصر ولا
يتناهى فانها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي الاية ثم انها تناجي باسرار الملك والملكوت وافشاء السر لؤم بل
صدور الاحرار قبور الاسرار وهل رايت قط امينا على اسرار الملك قد نوجي بخفاياه فنادى بها على ملا من الخلق ولو جاز افشاء كل سر
لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا بل كان يذكر ذلك لهم حتى لا يبكون ولا يضحكون ولما نهى عن افشاء
سر القدر ولما قال اذا ذكر النجوم فامسكوا ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الاسرار واذن عن شيء من حكاية مناجاة ذرات
واذا ذكر القدر فامسكوا واذا ذكر اصحابي فامسكوا
الملك

الملك والملكوت لقلوب ارباب المشاهدات مانعان احدهما استحالة افشاء السر والثاني خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ولكنا في المثال الذي
ذكرناه وهو حركة القلم نحكي في مناجاتها القدر الذي يفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونرد كلماتها الى الحروف والاصوات وان
لم تكن هي حروفا واصواتا ولكن هذه ضرورة التفهيم فنقول قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد راه اسود وجهه بالحبر
ما بال وجهك كان ابيض مشرقا والان قد ظهر عليه السواد فلم سودت وجهك وما السبب فيه فقال الكاغد ما انصفتني في هذه المطالبة
فاني ما سودت وجهي بنفسي لكن سل الحبر فانه كان مجموعا في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن وطنه ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا
فقال صدقت فسال الحبر عن ذلك فقال ما انصفتني فاني كنت في المحبرة وادعا ساكنا عازما على ان لا ابرح منها فاعتدى علي القلم بطمعه الفاسد
واختطفني من وطني واجلاني عن بلادي وفرق جمعي وبددني كما ترى على ساحة بيضاء فالسؤال عليه لا علي فقال صدقت ثم سال القلم عن السبب في ظلمه
وعدوانه واخراج الحبر عن وطنه فقال سل اليد والاصابع فاني كنت قصبا نابتا على شط الانهار متنزها بين خضرة الاشجار فجاءتني اليد بسكين فنحتت
عني قشري ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من اصلي ثم فصلت بين انابيبي ثم برتني وشقت راسي ثم غمستني في سواد الحبر ومرارته وهي تستخدمني
وتمشيني على قمة راسي فقال صدقت ثم سال اليد عن ظلمها القلم وتعديها عليه واستخدامها له فقالت اليد ما انا الا لحم وعظم ودم وهل رايت لحما يظلم او جسما
يتحرك بنفسه وانما انا مركب مسخر ركبني فارس يقال له القدرة والقوة فهي التي ترددني وتجول بي في نواحي الارض اما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى
شيء منه مكانه ولا يتحرك بنفسه اذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر اما ترى ايدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم ثم لا معاملة
بينها وبين القلم فانا ايضا من حيث انا لا معاملة بيني وبين القلم فسل القدرة عن شاني فاني مركب مستعمل لمن ركبني فقال صدقت ثم سال القدرة عن شانها في استعمال اليد واستخدامها وكثرة ترددها
فقالت دع عنك لومي ومعاتبتي فكم من لائم ملوم وكم من ملوم لا ذنب له وكيف خفي عليك امري وكيف ظننت اني ظلمت اليد بركوبها وقد كنت لها
راكبة قبل التحريك وما كنت احركها ولا استسخرها بل كنت نائمة ساكنة حتى ظن الظانون بي اني ميتة او معدومة لاني ما كنت اتحرك ولا احرك
حتى جاءني موكل ازعجني وارهقني الى ما تراه مني فكانت لي قوة على مساعدته ولم يكن لي قوة على مخالفته وهذا الموكل يسمى الارادة ولا اعرفه الا
باسمه وهجومه وصياله اذ ازعجني عن غمرة النوم وارهقني الى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورايي فقال صدقت ثم سال الارادة فقال
ما الذي جراك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها الى التحريك وارهقتها ارهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا فقالت الارادة
لا تعجل علي فلعل لي عذرا وانت تلوم ملوما فاني ما انتهضت بنفسي ولكني انهضت وما انبعثت ولكني بعثت بحكم قاهر وامر جازم وقد كنت ساكنة قبل مجيئه
ولكن ورد علي من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالاشخاص للقدرة فاشخصتها باضطرار فاني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا
ادري باي جرم وقفت عليه وسخرت له والزمت طاعته لكني ادري اني في دعة وسكون ما لم يرد علي هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم
العادل او الظالم وقد وقفت عليه وقفا والزمت طاعته الزاما بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمري ما دام هو في
التردد مع نفسه والتحير في حكمه فانا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه فاذا انجزم حكمه ازعجت بطبع وقهر تحت طاعته وانبعثت القدرة
لتقوم بموجب حكمه فسل العلم عن شاني ودع عنك عتابي فاني كما قال القائل متى ترحلت عن قوم وقد قدروا ان لا تفارقهم فالراحلون هم فقال
صدقت واقبل على العقل والعلم والقلب مطالبا لهم ومعاتبا اياهم على استنهاض الارادة وتسخيرها لاشخاص القدرة فقال العقل اما
انا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكني اشعلت وقال القلب اما انا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكني بسطت وقال العلم اما انا فنقش نقشت في بياض
لوح القلب لما اشرق سراج العقل وما انخططت بنفسي فكم كان هذا اللوح قبلي خاليا عني فسل القلم عني لان الخط لا يكون الا بالقلم فعند هذا تتعتع
السائل ولم يقنعه جوابه وقال قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازلي ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الامر منه
على غيره ولكني قد كنت اطيب نفسا بكثرة الترداد لما كنت اسمع كلاما مقبولا في الفؤاد وعذرا ظاهرا في دفع السؤال فاما قولك
اني خط فانما خطني القلم فلست افهمه لاني لا اعلم قلما الا من القصب ولا لوحا الا من الحديد او الخشب ولا خطا الا بالحبر ولا سراجا الا من النار
واني لا اسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا اشاهد من ذلك شيئا اسمع جعجعة ولا ارى طحنا فقال له القلم

ان صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف واعلم ان المهالك في الطريق الذي توجهت اليه كثيرة فالصواب
لك ان تنصرف وتدع ما انت فيه فما هذا بعشك فادرج منه فكل ميسر لما خلق له وان كنت راغبا في استتمام الطريق الى المقصد
فالق سمعك وانت شهيد واعلم ان العوالم في طريقك هذا ثلاثة عالم الملك والشهادة اولها ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد
من هذا العالم وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة والثاني عالم الملكوت وهو وراءي فاذا جاوزتني انتهيت الى منازله وفيها المهامه
الفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ولا ادري كيف تسلم فيها والثالث عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت
منه ثلاث منازل اولها منزل القدرة والارادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والملكوت لان عالم الملك اسهل منه طريقا وعالم الملكوت يشبه
السفينة التي هي في الحركة بين الارض والماء فلا هي في حد اضطراب الماء ولا هي في حد سكون الارض وثباتها وكل من يمشي على الارض يمشي في عالم الملك والشهادة
فان جاوزت قوته الى حد يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت فان انتهى الى ان يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت مشاهدا للعلم
الذي كتب العلم وحصول اليقين الذي يمشي على الماء اما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام لو ازداد يقينا لمشى على الهواء لما قيل له
انه كان يمشي على الماء فقال السالك السائل قد تحيرت في امري واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست ادري اطيق قطع هذه المهامه
التي وصفتها ام لا فهل لذلك من علامة فقال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوي فان ظهر لك القلم الذي اكتب به في لوح القلب فيشبه ان تكون
اهلا لهذا الطريق فان كل من جاوز عالم الجبروت وقرع اول باب الملكوت كوشف بالقلم اما ترى ان النبي صلى الله عليه وسلم في اول امره كوشف بالقلم
اذ نزل قوله تعالى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم فقال السالك قد فتحت بصري وحدقته فوالله ما ارى قصبا ولا خشبا ولا اعلم قلما الا كذلك
فقال العلم لقد ابعدت النجعة اما سمعت ان متاع البيت يشبه رب البيت اما علمت ان الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات فكذلك لا تشبه يده الايدي
ولا قلمه الاقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه امور الهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره
ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الايدي ولا قلمه من قصب ولا لوحه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولا خطه رقم ورسم ولا زاج وعفص فان كنت لا تشاهد
هكذا فما اراك الا مخنثا بين فحولة التنزيه وانوثة التشبيه مذبذبا بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فكيف نزهت ذاته تعالى وصفاته عن
الاجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن معاني الحروف والاصوات واخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه فان كنت قد فهمت من قوله ان الله خلق
ادم على صورته الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبها مطلقا كما يقال كن يهوديا صرفا والا فلا تلعب بالتوراة وان فهمت منه الصورة
الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالابصار فكن منزها صرفا ومقدسا فحلا واطو الطريق فانك بالواد المقدس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحى
اليك فلعلك تجد على النار هدى ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودي به موسى اني انا ربك فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور
نفسه وانه مخنث بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما راها بعين النقص ولقد كاد زيتها الذي في مشكاته يضيء
ولو لم تمسسه نار فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته فاصبح نورا على نور فقال له العلم اغتنم هذه الفرصة وافتح بصرك فلعلك تجد على النار
هدى ففتح بصره فانكشف له القلم الالهي فاذا هو كما وصفه العلم في التنزيه ما هو من خشب ولا قصب ولا له راس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام في قلوب
البشر كلهم اصناف العلوم وكان له في كل قلب راسا ولا راس له فقضى منه العجب وقال نعم الرفيق العلم جزاه الله عني خيرا اذ الان ظهر لي صدق انبائه
عن اوصاف القلم فاني اراه قلما لا كالاقلام فعند هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال مقامي عندك ومراودتي لك وانا عازم على ان اسافر الى حضرة
القلم واساله عن شانه فسافر اليه وقال له ما بالك يا قلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات الى اشخاص القدرة وصرفها الى المقدورات
فقال او قد نسيت ما رايت في عالم الملك والشهادة وسمعته من جواب القلم اذ سالته فاحالك على اليد فقال لم انس ذلك فقال فجوابي مثل جوابه
فقال كيف وانت لا تشبهه فقال القلم اما سمعت ان الله تعالى خلق ادم على صورته فقال بلى قال فسل عن شاني الملقب بيمين الملك فاني في قبضته وهو الذي
يرددني وانا مقهور مسخر فلا فرق بين القلم الالهي وقلم الادمي في معنى التسخير وانما الفرق في ظاهر الصورة فقال فمن يمين الملك فقال القلم
اما سمعت قوله تعالى والسموات مطويات بيمينه قال بلى قال والاقلام ايضا في قبضة يمينه وهو الذي يرددها فسار السالك من عنده الى اليمين حتى شاهده
ورأى

ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء منه ولا شرحه بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه والجملة فيه انه يمين
لا كالايمان ويد لا كالايدي واصبع لا كالاصابع فراى القلم محركا في قبضته فظهر له عذر القلم فسال اليمين عن شانه وتحريكه القلم فقال جوابي
مثل ما سمعته من اليمين التي رايتها في عالم الشهادة وهو الحوالة على القدرة اذ اليد لا حكم لها في نفسها وانما محركها القدرة لا محالة فسار السالك الى عالم
القدرة وراى فيها من العجائب ما استحقر عندها ما قبلها فسالها عن تحريك اليمين فقالت انما انا صفة فسل القادر اذ العمدة على الموصوف لا على
الصفات وعند هذا كاد ان يزيغ او يطلق بالجراة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء سرادقات الحضرة لا يسال عما يفعل وهم يسالون
فغشيته هيبة الحضرة فخر صعقا يضطرب في غشيته فلما افاق قال سبحانك ما اعظم شانك تبت اليك وتوكلت عليك وامنت بانك الملك الجبار الواحد
القهار فلا اخاف غيرك ولا ارجو سواك ولا اعوذ الا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك وما لي الا ان اسالك واتضرع اليك وابتهل بين
يديك فاقول اشرح لي صدري لاعرفك واحلل عقدة من لساني لاثني عليك فنودي من وراء الحجاب اياك ان تطمع في الثناء وتزيد على سيد الانبياء
بل ارجع اليه فما اتاك فخذه وما نهاك عنه فانته وما قاله لك فقله فانه ما زاد في هذه الحضرة على ان قال سبحانك لا احصي ثناء عليك
انت كما اثنيت على نفسك فقال الهي ان لم يكن للسان جراة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك فنودي اياك ان تتخطى رقاب
الصديقين فارجع الى الصديق الاكبر فاقتد به فان اصحاب سيد الانبياء صلوات الله عليه وسلامه كالنجوم بايهم اقتديت اهتديت اما سمعته رضي الله عنه
يقول العجز عن درك الادراك ادراك فيكفيك نصيبا من حضرتنا ان تعرف انك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا
فعند هذا رجع السالك واعتذر عن سؤالاته ومعاتباته وقال لليمين والقلم والعلم والارادة والقدرة وما بعدها اقبلوا عذري
فاني كنت غريبا حديث العهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة فما كان انكاري عليكم الا عن قصور وجهل والان قد صح عندي
عذركم وانكشف لي ان المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار فما انتم الا مسخرون تحت قهره وقدرته مرددون
في قبضته وهو الاول والاخر والظاهر والباطن فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد ذلك منه وقيل له كيف يكون هو الاول والاخر
وهما وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن والاول ليس باخر والظاهر ليس بباطن فقال هو الاول بالاضافة الى الوجود
اذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد وهو الاخر بالاضافة الى سير المسافرين اليه فانهم لا يزالون مترقين من منزل الى منزل
الى ان يقع الانتهاء الى تلك الحضرة فيكون ذلك اخر السفر فهو اخر في المشاهدة اول في الوجود وهو باطن بالاضافة الى العاكفين في عالم
الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس الخمس ظاهر بالاضافة الى من يطلبه بالسراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة
في عالم الملكوت فهذا كان توحيد السالك لطريق التوحيد في الفعل اعني من انكشف له ان الفاعل واحد فان قلت فقد انتهى هذا التوحيد
الى انه ينبني على الايمان بعالم الملكوت فمن لا يفهم ذلك او يجحده فما طريقه فاقول اما الجاحد فلا علاج له الا ان يقال له انكارك لعالم الملكوت
كانكار السمنية لعالم الجبروت والارادة والعلم اذ انحصروا في الحواس الخمس وانكروا حصول علم الشهادة الا بالحواس الخمس ولا اعلم شيئا
سواها فقيل لهم انكاركم لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كانكار السوفسطائية للحواس الخمس فانهم قالوا ما نراه لا نثق به فلعلنا نراه
في المنام فان قال الانسان جملتهم فاني شاك ايضا في المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فيترك ولا يكلم وليس كل مرض يقدر
على علاجه الاطباء فهذا حكم الجاحد واما الذي لا يجحد ولكن لا يفهم فطريق السالكين معه ان ينظروا الى عينه التي يشاهد بها عالم الملكوت فان
وجدوها صحيحة في الاصل وقد نزل فيها ماء اسود يقبل الازالة اشتغلوا بازالته وتنقيته اشتغال الكحال بالابصار الظاهرة فاذا استوى
بصره ارشدوه الى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بخواص اصحابه رضي الله عنهم وان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه ان يسلك
السبيل الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه ان يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلموه بصوت وحرف وردوا
ذروة التوحيد الى حضيض فهمه فان في عالم الشهادة ايضا توحيدا اذ يعلم كل احد ان المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد باميرين
فيقال له على حد عقله العالم واحد والمدبر واحد اذ لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا فيكون ذلك على حد ما راه في عالم الشهادة

فينبغي ان يغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلف الانبياء ان يكلموا الناس على قدر عقولهم ولذلك نزل القران
بلسان العرب وعلى حسب عاداتهم في المحاورة **فان قلت** فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح ان يكون عمادا للتوكل واصلا فيه
فاقول نعم فان الاعتقاد اذا قوي عمل عمل الكشف في اثارة الاحوال الا انه في الغالب يضعف ويتسارع اليه الاضطراب والتزلزل
غالبا ولذلك يحتاج صاحبه الى متكلم يحرسه بكلامه او الى ان يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقفها من استاذه او من ابيه
او من اهل بلده واما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا وان كان يزداد
وضوحا كما ان الذي يرى انسانا في وقت الاسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بانه انسان ولكن يزداد وضوحا في تفصيل خلقته وما
مثال المكاشفين والمعتقدين الا كسحرة فرعون لما ان كانوا مطلعين على منتهى تاثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم فراوا من موسى
ما جاوز حدود السحر انكشف لهم حقيقة الامر فلم يكترثوا بقول فرعون لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف بل قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا
من البينات الى قوله الدنيا فان البيان والكشف يمنع التغير واما اصحاب السامري لما كان ايمانهم عن النظر الى ظاهر الثعبان فلما نظروا الى
عجل السامري وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا قوله هذا الهكم واله موسى ونسوا ان لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فكل
من امن بالنظر الى ثعبان فيكفر لا محالة اذا نظر الى عجل لان كليهما من عالم التشابه والاختلاف والتضاد عالم الشهادة كثير عجل كثير واما
عالم الملكوت من عند الله فلذلك لا تجد فيه اختلافا وتناقضا اصلا **فان قلت** ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت ان الوسائط
والاسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر الا في حركات الانسان فانه يتحرك ان شاء ويسكن ان شاء فكيف يكون مسخرا فاعلم انه لو كان مع هذا يشاء ان شاء
ولا يشاء ان لم يرد ان يشاء لكان هذا مزلة القدم وموضع الغلط ولكن علم انه يفعل ما يشاء اذا شاء ام لم يشأ فليست المشيئة اليه
اذ لو كانت اليه لافتقرت الى مشيئة اخرى وتسلسل الى غير نهاية واذا لم تكن المشيئة اليه فمهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة الى مقدورها
انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل الى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة والمشيئة تحدث
ضرورة في القلب **فهذه** ضرورات يترتب بعضها على بعض وليس للعبد ان يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة الى المقدور بعدها
ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة فهو مضطر في الجميع **فان قلت** فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وانت لا تنكر الاختيار
فكيف يكون مجبورا مختارا **فاقول** لو انكشف الغطاء لعرفت انه في عين الاختيار **فهو** اذا مجبور على الاختيار فكيف يفهم هذا
من لا يفهم الاختيار **فلنشرح** الاختيار بلسان المتكلمين شرحا وجيزا يليق بما نذكره تطفلا وتابعا فان هذا الكتاب نقصد به علم
المعاملة ولكني اقول لفظ الفعل في الانسان يطلق على ثلثة اوجه اذ يقال الانسان يكتب بالاصابع ويتنفس بالحنجرة والرية ويخرق الماء اذا وقف
عليه بجسمه فينسب اليه الخرق للماء والتنفس والكتابة **وهذه** الثلثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحدة ولكنها تختلف وراء ذلك في امور فاخرجت
لذلك عنها بثلث عبارات **فسمي** خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا **وسمي** تنفسه فعلا اراديا **وسمي** كتابته فعلا اختياريا
والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لانه مهما وقف على وجه الماء او تخطى من السطح الى الهواء انخرق الهواء لا محالة فيكون الخرق بعد التخطي ضروريا والتنفس
في معناه فان نسبة حركة الحنجرة الى ارادة التنفس كنسبة انخراق الماء الى ثقل البدن فمهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده وليس الثقل اليه فكذلك
الارادة ليست اليه ولذلك لو قصد عين الانسان بابرة طبق الاجفان اضطرارا ولو اراد ان يتركها مفتوحة لم يقدر مع ان تطبيق الاجفان فعل ارادي
ولكنه اذا تمثلت صورة الابرة في مشاهدته بالادراك حدثت الارادة للتغميض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو اراد ان يتركها لم يقدر
عليه مع انه فعل بالقدرة والارادة فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضروريا فاما الثالث وهو الاختياري فهو مظنة الالتباس كالكتابة
والنطق وهو الذي يقال فيه ان شاء فعل وان شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لا يشاء فيظن من هذا ان الامر اليه وهذا الجهل بمعنى
الاختيار فلنكشف عنه وبيانه ان الارادة تبع العلم الذي يحكم بان الشيء موافق لك والاشياء تنقسم الى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة والباطنة
بانه يوافقك من غير تحير وتردد والى ما قد يتردد العقل فيه فالذي تقطع به من غير تردد ان يقصد عينك مثلا بابرة او بدنك بسيف
فلا

١١ فلا يكون في علمك تردد ان دفع ذلك خير لك وموافق فلا جرم تنبعث الارادة بالعلم والقدرة بالارادة وتحصل حركة الاجفان
بالدفع وحركة اليد برفع السيف ولكن من غير روية وفكرة ويكون ذلك بالارادة ومن الاشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدري
انه موافق ام لا فيحتاج الى روية وفكر حتى يتبين ان الخير في الفعل او الترك فاذا حصل بالفكر والروية العلم بان احدهما خير التحق ذلك بالذي
يقطع به من غير روية وفكر وانبعثت الارادة هنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان فاذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل انه خير سميت
هذه الارادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه الا ان الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر الى الروية
فالاختيار عبارة عن ارادة خاصة وهي التي انبعثت باشارة العقل فيما له في ادراكه توقف وعن هذا قيل ان العقل يحتاج اليه للتمييز
بين خير الخيرين وشر الشرين ولا يتصور ان تنبعث الارادة الا بحكم الحس والتخيل او بحكم جزم من العقل ولذلك لو اراد الانسان ان يحز رقبة نفسه
مثلا لم يمكنه لا لعدم القدرة في يده ولا لعدم السكين ولكن لفقد الارادة الداعية المشخصة للقدرة وانما فقدت الارادة لانها تنبعث بحكم العقل والحس
بكون الفعل موافقا وقتله نفسه ليس موافقا له فلا يمكنه مع قوة الاعضاء ان يقتل نفسه الا اذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق فان العقل ها هنا يتوقف
في الحكم ويتردد لانه تردد بين شر الشرين فان ترجح له بعد الروية ان ترك القتل اقل شرا لم يمكنه قتل نفسه وان حكم بان القتل اقل شرا وكان حكمه جزما
لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الارادة والقدرة واهلك نفسه كالذي يتبع بالسيف للقتل فانه يرمي نفسه من السطح مثلا وان كان مهلكا
ولا يبالي ولا يمكنه ان لا يرمي نفسه ولو كان يتبع بضرب خفيف فاذا انتهى الى طرف السطح حكم العقل بان الضرب اهون من الرمي فوقفت اعضاؤه
فلا يمكنه ان يرمي نفسه ولا ينبعث له داعية البتة لان داعية الارادة مسخرة لحكم العقل والحس والقدرة مسخرة للداعية والحركة مسخرة للقدرة
والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري فانما هو محل ومجرى لهذه الامور فاما ان يكون منه فكلا ولما فاذا معنى كونه مجبورا
ان جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه ومعنى كونه مختارا انه محل لارادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا وحدث الحكم ايضا
جبرا فاذن هو مجبور على الاختيار ففعل النار في الاحتراق مثلا جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الانسان على منزلة بين المنزلتين فانه
جبر على الاختيار فطلب اهل الحق لهذا عبارة ثالثة لما كان فنا ثالثا وسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار بل هو
جامع بينهما عند من فهمه وفعل الله يسمى اختيارا بشرط ان لا يفهم من الاختيار ارادة بعد تحير وتردد فان ذلك في حقه تعالى محال وجميع
الالفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن ان تستعمل في حق الله تعالى الا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول
فيه **فان قلت** فهل تقول ان العلم ولد الارادة والارادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وان كل متاخر حدث من المتقدم **فان قلت**
ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله وان ابيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض فاعلم ان القول بان بعض ذلك حدث عن بعض
جهل محض سواء عبر عنه بالتولد او غيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة الازلية وهو الاصل الذي لم يقف عليه كافة الخلق الا
الراسخون في العلم فانهم وقفوا على كنه معناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد من الحق وبيان ذلك يطول
ولكن بعض المقدورات مرتبة على البعض في الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا يصدر من القدرة الازلية ارادة الا بعد علم ولا علم الا بعد حياة ولا حياة
الا بعد محل للحياة وكما لا يجوز ان يقال الحياة حصلت من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط مما ظهر للعامة
وبعضها لم يظهر الا للخواص المكاشفين بنور الحق والا فلا يتقدم متقدم ولا يتاخر متاخر الا بالحق واللزوم وكذلك جميع افعال الله تعالى ولولا ذلك
لكان التقديم والتاخير عبثا يضاهي فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا والى هذا اشار قوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما
لاعبين ما خلقناهما الا بالحق فكل ما بين السماء والارض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور ان يكون الا كما حدث وعلى الترتيب الذي وجد
فما تاخر متاخر الا لانتظار شرطه والمشروط قبل الشرط محال والمحال لا يوصف بكونه مقدورا فلا يتاخر العلم عن النطفة الا لفقد شرط الحياة ولا
تتاخر الارادة بعد العلم الا لفقد شرط العلم وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتدبير
وتفهيم ذلك عسر ولكنا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالا يقرب مبادي الحق من الافهام الضعيفة وذلك
انا نقدر انسانا محدثا قد انغمس في الماء الى رقبته فالحدث لا يرتفع عن اعضائه وان كان الماء هو الذي يرفع الحدث وهو ملاق له فقدر القدرة

الازلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للاعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظارا للشرط
وهو غسل الوجه فاذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر الاعضاء وارتفع الحدث فربما يظن الجاهل ان الحدث
ارتفع عن اليد برفعه عن الوجه لانه حدث عقيبه اذ يقول كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه
ما لم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث من اليد عند غسل الوجه فاذا غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليد **وهذا** جهل يضاهي
ظن من ظن ان الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالارادة والارادة بالعلم وكل ذلك خطا بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد
بالماء الملاقي لها لا بغسل الوجه والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شيء وانما حدث وجود الشرط فظهر اثر العلة **فهكذا** ينبغي
ان تفهم صدور المقدورات من القدرة الازلية مع ان القدرة قديمة والمقدورات حادثة وهذا قرع باب اخر لعالم اخر من عوالم المكاشفات فلنترك
جميع ذلك فان مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فان الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم نقدر
ان نذكر من بحار التوحيد الا قطرة من بحر **المقام الثالث** من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح عليه السلام كاستيفاء ماء البحر باخذ
قطرات منه وكل ذلك مندرج تحت قول لا اله الا الله وما اخف مؤنته على اللسان وما اسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب وما اعز حقيقته
ولبه عند العلماء الراسخين فكيف عند غيرهم **فان قلت** فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد ان لا فاعل الا الله ومعنى الشرع اثبات الافعال
للعباد فان كان العبد فاعلا فكيف يكون الله فاعلا وان كان الله فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ومفعول بين فاعلين غير مفهوم **فاقول**
نعم ذلك غير مفهوم اذا كان للفاعل معنى واحد وان كان له معنيان ويكون الاسم مجملا مرددا بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الامير فلانا ويقال قتله
الجلاد ولكن الامير قاتل بمعنى والجلاد بمعنى اخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله فاعل بمعنى اخر فمعنى كون الله فاعلا انه المخترع
الموجد ومعنى كون العبد فاعلا بمعنى انه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد ان خلق فيه الارادة بعد ان خلق فيه العلم فارتبطت
القدرة بالارادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع
وكل ما له ارتباط بقدرة فان محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلا والامير قاتلا لان القتل ارتبط
بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين فلذلك سمي فعلا لهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ولاجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى
الافعال في القران مرة الى الملائكة ومرة الى العباد ونسبها بعينها مرة اخرى الى نفسه فقال تعالى في الموت قل يتوفاكم ملك الموت الذي
وكل بكم ثم قال الله يتوفى الانفس حين موتها وقال تعالى افرايتم ما تحرثون اانتم تزرعونه اضاف ذلك الينا ثم قال انا صببنا الماء صبا ثم شققنا
الارض شقا الاية وقال تعالى فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ثم قال فنفخنا فيها من روحنا وكان النافخ جبريل عليه السلام وكما قال تعالى
فاذا قراناه فاتبع قرانه قيل في التفسير اذا قراه عليك جبريل وقال تعالى قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم فاضاف القتل اليهم والتعذيب
الى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرح فقال فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى **وهو** جمع بين النفي
والاثبات ظاهرا ولكن معناه اذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا فما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا اذ هما
معنيان مختلفان وقال تعالى الذي علم بالقلم ثم قال الرحمن علم القران وقال علمه البيان وقال تعالى ان علينا بيانه وقال تعالى افرايتم ما تمنون
ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الارحام انه يدخل الرحم فياخذ النطفة في يده ثم يصورها جسدا فيقول يا رب اذكر ام انثى
اسوي ام معوج فيقول الله ما شاء ويخلق الملك وفي لفظ اخر ويصور الملك وينفخ فيه الروح بالسعادة او بالشقاوة وقد قال بعض السلف
ان الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الارواح في الاجسام وانه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من انفاسه روحا
يلج في جسم ولذلك سمي روحا وما ذكره من مثل هذا الملك وصفته فهو حق يشاهده ارباب القلوب ببصائرهم **فاما** كون
الروح عبارة عنه فلا يمكن ان يعلم الا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرد وكذلك ذكر الله في القران الادلة والايات في الارض
والسموات ثم قال اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد وقال شهد الله انه لا اله الا هو فبين تعالى انه الدليل على نفسه وذلك ليس
متناقضا

١١١ بمتناقض بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله بالنظر الى الموجودات وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله كما قال بعضهم
عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي وهذا معنى قوله تعالى اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد وقد وصف الله نفسه بانه المحيي
والمميت ثم فوض الموت والحياة الى ملكين ففي الخبر ان ملكي الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت انا اميت الاحياء وقال ملك
الحياة انا احيي الاموات فاوحى الله تعالى اليهما كونا على عملكما وما سخرتما له من الصنع وانا المحيي والمميت لا محيي ولا مميت سواي فاذا الفعل يستعمل
على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعاني اذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله التمرة خذها لو لم تاتها لاتتك اضاف
الاتيان اليه والى التمرة ومعلوم ان التمرة لا تاتي على الوجه الذي ياتي الانسان اليها ولذلك لما قال التائب اتوب الى الله ولا اتوب الى محمد قال صلى الله عليه وسلم
عرف الحق لاهله فكل من اضاف الكل الى الله فهو المحقق ومن اضافه الى غيره فهو المتجوز والمستعير في كلامه وللتجوز وجه كما ان للحقيقة وجها
واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ولكن ظن ان الانسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن انه تحقيق وتوهم ان نسبته الى الله
على سبيل المجاز مثل نسبة القتل الى الامير فانه مجاز بالاضافة الى نسبته الى الجلاد فلما انكشف الحق لاهله عرفوا ان الامر بالعكس وقالوا ان
كان الفاعل قد وضعته ايها اللغوي للمخترع فلا فاعل الا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز اي تجوز به عما وضعه اللغوي له
ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الاعراب قصدا او اتفاقا صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام اصدق بيت قالته العرب قول لبيد
الا كل شيء ما خلا الله باطل اي كل ما لا قوام له بنفسه وانما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وانما حقيقته وحقيته بغيره
لا بنفسه فاذا لا حق بالحقيقة الا القيوم الحي الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فانه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو
الحق وما سواه باطل ولذلك قال سهل يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت اليوم صرت تقول انا وانا
كن الان كما لم تكن فانه اليوم كما كان **فان قلت** فقد ظهر ان الكل جبر فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا وكيف غضبه على فعل نفسه فاعلم
ان معنى ذلك قد اشرنا اليه في كتاب الشكر فلا نطول في اعادته **فهذا** هو القدر الذي رايناه من التوحيد الذي يورث حال
التوكل ولا يتم هذا الا بالايمان بالرحمة والحكمة فان التوحيد يورث النظر الى مسبب الاسباب والايمان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة
بمسبب الاسباب ولا يتم حال التوكل كما سياتي الا بالثقة بالوكيل وطمانينة القلب الى حسن نظر الكفيل **فهذا** الايمان ايضا باب عظيم من ابواب الايمان
وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه وهو ان يصدق تصديقا
يقينا لا ريب فيه ولا ضعف ان الله عز وجل لو خلق الخلائق كلهم على عقل اعقلهم وعلم اعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وافاض
عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفه ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الامور واطلعهم على اسرار الملكوت
وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر ثم امرهم ان يدبروا الملك والملكوت بما اعطوا من
العلوم والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه ان يزاد فيما دبر الله سبحانه به الخلق في الدنيا والاخرة جناح بعوضة
ولا ان ينقص منها جناح بعوضة ولا ان يرفع منها ذرة او يخفض ذرة ولا ان يدفع مرضا او عيبا او نقصا او فقرا او ضرا عمن بلي به ولا
ان يزال صحة او كمال او غنى او نفع عمن انعم الله به عليه بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والارض ان رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر
لم يروا فيها تفاوتا ولا فطورا وكل ما قسم الله بين عباده من رزق واجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وايمان وكفر وطاعة ومعصية
فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي وليس في الامكان
اصلا احسن منه ولا اتم ولا اكمل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ولو لم يكن قادرا
لكان عجزا يناقض الالهية بل كل فقر وضر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الاخرة وكل نقص في الاخرة بالاضافة الى شخص فهو نعيم
بالاضافة الى غيره اذ لولا الليل لما عرفت قدر النهار ولولا المرض لم يتنعم الاصحاء بالصحة ولولا النار لم يعرف اهل الجنة قدر النعمة
وكان فداء ارواح الانس بارواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل وكذلك

تهجم على شكا ما جنا بتعظيم العقوبة على اهل النيران فزاد اهل الايمان باهل الكفران عين العدل وما لم يخلق الناقص لم يعرف الكامل ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الانس فان الكمال والنقص يظهر بالاضافة فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص وكما ان قطع اليد اذا تآكلت ابقاء على الروح عدل لانه فدا كاملا بناقص فكذلك الامر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والاخرة فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه وهذا الآن بحر عظيم واسع الاطراف مضطرب الامواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا ان ذلك غامض لا يعقله الا العالمون ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الاكثرون ومنع من افشاء سره المكاشفون والحاصل ان الخير والشر مقضي به وقد صار ما قضي به واجب الحصول بعد سبق المشية فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وامره بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما اصابك لم يكن ليخطئك وما اخطاك لم يكن ليصيبك ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التي هي اصول مقام التوكل ولنرجع الى علم المعاملة

الشطر الثاني من الكتاب في احوال التوكل واعماله وفيه بيان حال التوكل وبيان ما قاله الشيوخ في حد التوكل وبيان التوكل في الكسب للمنفرد وللمعيل وبيان التوكل بترك الادخار وبيان التوكل في دفع المضار وبيان التوكل بالتداوي وغيره

بيان حال التوكل وقد ذكرنا ان مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل وذكرنا العلم فاما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه وانما العلم اصله والعمل ثمرته وقد اكثر الخائضون في بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه واخبر عن حده كما جرت عادة اهل التصوف به ولا فائدة في النقل والاكثار فلنكشف الغطاء عنه **فنقول** التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل امره الى فلان اي فوضه اليه واعتمد عليه فيه ويسمى الموكول اليه فيه وكيلا ويسمى المفوض اليه متكلا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمانت اليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده **ولنضرب** للوكيل في الخصومة مثلا **فنقول** من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلا عليه ولا واثق القلب مطمئن النفس بوكيله الا اذا اعتقد فيه اربعة امور منتهى الهداية ومنتهى القوة ومنتهى الفصاحة ومنتهى الشفقة اما الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء اصلا واما القدرة والقوة فليتجرأ على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحيي ولا يجبن فانه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف او الجبن او الحياء او صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به واما الفصاحة فهي ايضا من القدرة الا انها قدرة في اللسان على الافصاح عن كل ما تجرأ القلب عليه فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس واما منتهى الشفقة فليكون باعثا له على بذل كل ما يقدر عليه من المجهود في حقه فان قدرته لا تغني دون العناية به اذا كان لا يهمه امره ولا يبالي به ظفر خصمه ام لم يظفر هلك حقه ام لم يهلك فان كان شاكا في هذه الاربعة او في واحد منها او جوز ان يكون خصمه في هذه الاربعة اكمل منه لم تطمئن نفسه الى وكيله بل بقي منزعج القلب مستغرق القلب بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت احواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تتفاوت تفاوتا لا ينحصر الى ان ينتهي الى اليقين الذي لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل ابا الموكل وهو الذي يسعى بجمع الحلال والحرام لاجله فانه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الخصال الاربع قطعية وكذا سائر الخصال يتصور ان يحصل القطع بها وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الاخبار بانه افصح الناس لسانا واقواهم بيانا واقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فاذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس عليه التوكل على الله فان ثبت في نفسك بكشف الغطاء او باعتقاد جازم انه لا فاعل الا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والاحاد وانه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت الى غيره بوجه ولا الى نفسه وحوله وقوته فانه لا حول ولا قوة الا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فالحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة

116

فان كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه احد امرين اما ضعف اليقين باحد هذه الخصال الاربع واما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الاوهام الغالبة عليه فان القلب قد ينزعج تبعا للوهم وطاعة له من غير نقصان في اليقين فان من يتناول عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله وان كلف العاقل ان يبيت مع الميت في قبر او فراش او بيت نفر طبعه عن ذلك وان كان متيقنا بكونه ميتا وانه جماد في الحال وان سنة الله مطردة بانه لا يحشره الآن ولا يحييه وان كان قادرا على احيائه كما انها مطردة في القلم بانه لا يقلبه حية ولا يقلب السنور اسدا وان كان قادرا عليه ومع انه لا يشك في هذا اليقين فينفر طبعه عن مضاجعة الميت في فراشه او المبيت معه في بيت ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن في الطبع وهو نوع ضعف قلما يخلو الانسان عن شيء منه وان قل وقد يقوى فيصير مرضا حتى يخاف ان يبيت في البيت وحده مع اغلاق الباب واحكامه **فاذا** لا يتم التوكل الا بقوة القلب وقوة اليقين جميعا اذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي فالتمس ان يكون مشاهدا احياء الميت ليثبت في خياله فان النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء امرها الى ان تبلغ بالآخرة الى درجة النفس المطمئنة وذلك لا يكون في البداية اصلا وكم من مطمئن لا يقين له كسائر ارباب الملل والمذاهب فان اليهودي مطمئن القلب الى تهوده وكذا النصراني ولا يقين لهم اصلا وانما يتبعون الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين الا انهم معرضون عنه **فاذا** الجبن والجرأة غرائز ولا ينفع اليقين معها فهذا احد الاسباب التي تضاد حال التوكل كما ان ضعف اليقين بالخصال الاربع احد الاسباب **واذا** اجتمعت هذه الاسباب حصلت الثقة بالله وقد قيل مكتوب في التوراة ملعون من ثقته انسان مثله وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم من اعتز بالعبيد اذله الله **واذا** انكشف معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلا فاعلم ان تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات **الاولى** ما ذكرناه وهو ان يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل **الثانية** وهي اقوى ان يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع امه فانه لا يعرف غيرها ولا يفزع الى سواها ولا يعتمد الا اياها فاذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها وان نابه امر في غيبتها كان اول سابق الى لسانه يا اماه واول خاطر يخطر على قلبه امه فانها مفزعه وقد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليس خاليا عن نوع ادراك بالتمييز الذي له ويظن انه طبع من حيث ان الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخالة لم يقدر على تلفيق لفظه ولا على احضاره مفصلا في ذهنه ولكن كل ذلك وراء الادراك فمن كان باله الى الله تعالى ونظره اليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبي بامه فيكون متوكلا حقا فان الطفل متوكل على امه والفرق بين هذا وبين الاول ان هذا متوكل قد فني في توكله عن توكله اذ ليس يلتفت قلبه الى التوكل وحقيقته بل الى المتوكل عليه فقط ولا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه واما الاول فمتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيا عن توكله لان له التفاتا الى توكله وشعورا وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده والى هذه الدرجة الثانية اشار سهل حيث سئل عن التوكل ما ادناه فقال ترك الاماني قيل فاوسطه قال ترك الاختيار وهذا اشارة الى الدرجة الثانية وسئل عن اعلاه فلم يذكره وقال لا يعرفه الا من بلغ اوسطه **الثالثة** وهي اعلاها ان يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه الا في انه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الازلية كما تحرك يد الغاسل الميت وهو الذي قوي يقينه بانه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وان كلا يحدث جبرا فيكون بائنا عن الانتظار لما يجري عليه ويفارق الصبي فان الصبي يفزع الى امه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها بل مثاله مثال صبي علم انه وان لم يزعق بامه فالام تطلبه وانه ان لم يتعلق بذيل امه فالام تحمله وانه ان لم يطلب منها اللبن فالام تبتدئه وترضعه وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وانه يعطي ابتداء افضل مما يسأل وكم من نعمة ابتدأها قبل الدعاء وبغير الاستحقاق **والمقام الثاني** لا يقتضي ترك الدعاء والسؤال منه فقط **فان قلت** فهذه الاحوال هل يتصور وجودها فاعلم ان ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر **والمقام الثاني والثالث** اعزها والاول اقرب الى الامكان ثم اذا وجد الثالث والثاني فدوامه ابعد منه بل يكاد لا يكون المقام الثالث في دوامه الا كصفرة الوجل فان انبساط القلب الى ملاحظة الحول والقوة والاسباب طبع

وانقباضه عارض كما ان انبساط الدم الى جميع الاطراف طبع وانقباضه عارض فالوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة الى الباطن حتى تخلو عن ظاهر البشرة الحمرة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة فان البشرة ستر رقيق ترى من ورائه حمرة الدم فانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم فكذلك انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الاسباب الظاهرة لا يدوم واما المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فانه قد يدوم يوما ويومين والثالث يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد ان يدوم ولا يبعد ان يزول **فان قلت** فهل يبقى مع العبد تدبير واثر ما دامت هذه الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمبهوت والمقام الثاني ينفي كل تدبير الا من حيث الفزع الى الله تعالى بالدعاء والابتهال كتدبير الطفل في التعلق بامه فقط والمقام الثالث لا يبقى اصل التدبير والاختيار ولكن يبقى بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله في الخصومة فانه يترك تدبيره من جهة غير الموكل لكن لا يترك التدبير الذي اشار وكيله به او التدبير الذي عرفه من عادته وسنته دون صريح اشارته فاما الذي يعرفه باشارته فان يقول له لست اتكلم الا في حضورك فيشتغل لا محالة بتدبير الحضور ولا يكون هذا مناقضا توكله عليه اذ ليس هو فزعا منه الى حول نفسه وقوته في اظهار الحجة ولا الى حول غيره بل من تمام توكله عليه ان يفعل ما رسمه له اذ لو لم يكن متوكلا عليه ولا معتمدا له في قوله لما حضر لتحقق واما المعلوم بعادته واطراد سنته فهو ان يعلم ان من عادته انه لا يحاج الخصم الا من السجل فتمام توكله ان كان متوكلا عليه ان يكون معولا على سنته وعادته ووافيا بمقتضاها وهو ان يحمل السجل مع نفسه اليه عند مخاصمته فاذا لا يستغني عن التدبير في الحضور وعن التدبير في احضار السجل ولو ترك شيئا من ذلك كان نقصانا في توكله فكيف يكون فعله نقصانا فيه بعد ان حضر فانما باشارته واحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقعد ناظرا الى محاجته فقد انتهى الى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى بقي كالمبهوت المنتظر لا يفزع الى حوله وقوته اذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعه الى حوله وقوته في الحضور واحضار السجل باشارة الوكيل وسنته وقد انتهى نهايته فلم يبق الا الطمأنينة والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري واذا تأملت هذا اندفع عنك كل اشكال في التوكل وعلمت انه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وان كل تدبير وعمل لا يجوز ان يصاحب التوكل بل هو على اقسام وسيأتي تفصيله في الاعمال فاذا فزع المتوكل الى حوله وقوته في الحضور والاحضار لا يناقض التوكل لانه يعلم انه لولا الوكيل لكان حضوره واحضاره باطلا وتعبا محضا فاذا لم يصر معتمدا من حيث حوله وقوته بل من حيث ان الوكيل يحقق المحاجة وعرف ذلك باشارته وسنته فاذا لا حول ولا قوة الا بالوكيل الا ان هذه الكلمة لا يحتمل معناها في حق الوكيل لانه ليس خالق حوله وقوته بل جاعل لهما مفيدين في انفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله وانما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى اذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهما شرطا لما خلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد فاذا لا حول ولا قوة الا بالله صرفا على الاختصاص فان شاهدت هذا كله كذلك كان لك الثواب العظيم الذي وردت به الاخبار فيمن يقول لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وذلك عندي يستبعد فيقال كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب لمفهوم لفظها وهيهات فانما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد وشبه هذه الكلمة وثوابها الى كلمة لا اله الا الله مع نسبة الكل اليه فانظر الى التفاوت بين الكلام بين شيئين ليعرف به قول لا اله الا الله بالاضافة الى هذا وكما ذكرنا من قبل قشر ولب فكذلك الكلمة وسائر الكلمات واكثر الخلق قيدوا بالقشر ولم يطرقوا الى اللب والى اللب الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من قال لا اله الا الله صادقا من قلبه مخلصا وجبت له الجنة وحيث اطلق من غير ذكر الصدق والاخلاص **اراد** بالمطلق **هذا** المقيد كما اضاف المغفرة الى الايمان والعمل الصالح في بعض المواضع والمراد به المقيد بالعمل الصالح فالملك لا ينال بحدث وحركة اللسان حدث وعقد القلب ايضا حدث نعم انما الصدق والاخلاص وراءهما ولا ينصب سرير الملك الا للمقربين وهم المخلصون نعم لمن تقرب منهم في الرتبة من اصحاب اليمين ايضا درجة عند الله وان كان لا ينتهي الى الملك الا ترى انه تعالى لما ذكر في سورة الواقعة المقربين السابقين نعت سرر الملك فقال على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ولما انتهى الى اصحاب اليمين ما زاد على ذكر الماء والظل والفواكه والاشجار والحور العين وكل ذلك من لذة المنظور والماكول والمشروب والمنكوح ويتصور ذلك للبهائم على الدوام وان لذة البهائم من لذة الملك والنزول في اعلى عليين بجوار رب العالمين

117

ولو كان لنوع اللذات قدر لما وسع على البهائم ولما رفع عنها درجة الملائكة افترى ان احوال البهائم وهي مسيبة في الرياض متنعمة بالمياه والاشجار واصناف المأكولات متنعمة بالنزوان والسفاد اعلى وازيد واجدر بان يكون عند ذوي الكمال مغبوطة من احوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار الله في اعلى عليين هيهات هيهات ما ابعد عن التحصيل من اذا خير بين ان يكون حمارا او يكون في درجة جبريل عليه السلام فيحب ان يكون في درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام وليس يخفى ان شبه كل شيء منجذب اليه والنفس التي تنزع الى متعة الاكل والوقاع اكثر من نزوعها الى صنعة الكتابة فهو بالكناس والدباغ اشبه في جوهره منه بالكاتب فكذلك من نزعت نفسه الى نيل لذة البهائم اكثر من نزوعها الى نيل لذة الملائكة فهو بالبهائم اشبه منه بالملائكة لا محالة ولهذا ذمهم الله تعالى بانهم كالانعام بل هم اضل سبيلا وانما كانوا اضل لان الانعام ليس في قوتها طلب درجة الملائكة فتركها ذلك لعجزها واما الانسان ففي قوته ذلك فالقادر على نيل الكمال احرى بالذم والحمل بالتسمية بالضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال واذ كان هذا كلاما معترضا فلنرجع الى المقصود فقد بينا معنى قول لا اله الا الله ومعنى لا حول ولا قوة الا بالله ونسبتهما الى الله تعالى فلو قال قائل السماء والارض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه **فاقول** لا لان الثواب على قدر درجة المقام عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر الى عظم السماء والارض وصغر الحول فتجاوز وصفهما بالصغر عن الامور بعظم الاشخاص بل كل عامي يفهم ان الارض والسماء ليستا من جهة الادميين بل هو من خلق الله وانما الحول والقوة فقد اشكل امرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعي انه يدقق الفكر في الرأي والعقول حتى تشوش عليه نظره فهي مهلكة مخطورة ومزلة عظيمة هلك فيها العالمون اذ اثبتوا لانفسهم امرا وهو شرك في التوحيد **واثبات** خلق سوى الله تعالى فمن جاوز هذه العقبة فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذي يصدق قوله لا حول ولا قوة الا بالله وقد ذكرنا انه ليس في التوحيد الا عقبتان احداهما النظر الى اختيار الحيوانات وهي اعظم العقبتين واخطرهما وكانه حامل سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة اعني ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها فاذا رجع حال المتوكل الى التبري من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق ويتضح ذلك عند ذكرنا تفصيل اعمال التوكل ان شاء الله تعالى

بيان ما قاله الشيوخ في احوال التوكل ليتبين ان شيئا من احواله لا يخرج عما ذكرناه ولكن كل واحد اشار الى بعض الاحوال فقد قال ابو موسى الديبلي قلت لابي يزيد ما التوكل فقال ما تقول انت فقلت ان اصحابنا يقولون لو ان السباع والافاعي عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك سرك فقال ابو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو ان اهل الجنة في الجنة يتنعمون واهل النار في النار يعذبون ثم وقع لك تمييز بينهما لخرجت من جملة التوكل فما ذكره ابو موسى من حال التوكل **هو** المقام الثالث وما ذكره ابو يزيد عبارة عن اعز انواع العلم الذي هو من اصول التوكل وهو العلم بالحكمة وان ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا يميز بين اهل الجنة واهل النار بالاضافة الى اصل العدل والحكمة **وهذا** اغمض انواع العلم ووراءه سر القدر وابو يزيد قلما يتكلم الا عن اعلى المقامات واقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحية شرطا في المقام الاول من التوكل فقد احترز ابو بكر الصديق رضي الله عنه في الغار اذ سد منافذ الحيات الا ان يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره او يقال انما فعل ذلك شفقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لا على نفسه وانما يزول التوكل بحركة سره وتغيره لا برجوعه الى نفسه والنظر في هذا مجال ولكن سيأتي امثال ذلك واكثر منه في اعمال التوكل فان حركة السر من الحيات هو الخوف وحق المتوكل ان لا يخاف سلطان الحيات اذ لا حول للحيات ولا قوة لها الا بالله تعالى وان احترز لم يتكل على تدبيره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير وسئل ذو النون المصري عن التوكل فقال خلع الارباب وقطع الاسباب فخلع الارباب اشارة الى علم التوحيد وقطع الاسباب اشارة الى الاعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وان كان اللفظ يتضمنه فقيل له زدنا فقال القاء النفس في العبودية واخراجها من الربوبية **وهذه** اشارة الى التبري من الحول والقوة فقط وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال ان كان لك عشرة الاف درهم وعليك دانق دين لم تأمن ان تموت ويبقى ذلك في عنقك وان كان عليك عشرة الاف درهم دين من غير ان تترك لها وفاء لا تيأس من الله ان يقضيها عنك **وهذا** اشارة الى مجرد الايمان بسعة القدرة وان في المقدورات اسبابا خفية سوى هذه الاسباب الظاهرة وسئل ابو عبد الله القرشي عن التوكل فقال التعلق بالله في كل حال فقال السائل زدني فقال ترك كل سبب يوصل الى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك فالاول عام للمقامات الثلاثة والثاني اشارة الى المقام الثالث خاصة هو مثل توكل ابراهيم الخليل عليه السلام اذ قال له جبريل الك حاجة فقال اما اليك فلا اذ كان

شوالشبا تفضيله شيب وهو حفظ جبريل له فترك نعته بل اراد ان اراد نخر جبريل الى ذلك فيكون نعو المتولى لذلك **وهذا** حال مبهوت غايب عن نفسه
بالله تعالى فلم ير معه غيره وهو حال عزيز في نفسه ودوامه ان وجد ابعد منه واعز فقال ابو سعيد الخراز التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا
اضطراب ولعله يشير الى المقام الثالث فسكونه بلا اضطراب اشارة الى سكون القلب الى الوكيل وثقته به واضطرابه بلا سكون اشارة الى فزعه اليه وابتهاله
وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه الى امه وسكون قلبه الى تمام شفقتها وقال ابو علي الدقاق رحمه الله التوكل ثلث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض
فالمتوكل يسكن الى وعده والمسلم يكتفي بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه **وهذه** اشارة الى تفاوت درجات نظره بالاضافة الى المنظور اليه فان العلم
مبدا الاصلاح والوعد يتبعه والحكم يتبع الوعد ولا يبعد ان يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك في الشيوخ رحمهم الله في التوكل فاويل تروى
ما ذكرناه فلا نطول بايرادها فان الكشف انفع من الرواية والنقل فهذا ما يتعلق بحال التوكل **بيان اعمال المتوكلين** اعلم ان العلم يورث
الحال والحال يورث الاعمال وقد يظن ان معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة او كلحم
على وضم وهذا ظن الجهال فان ذلك حرام في الشرع والشرع قد اثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل نكشف عن الحق فيه
فنقول انما يظهر تاثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه الى مقاصده وسعي العبد باختياره اما ان يكون لاجل جلب نافع هو مفقود عنده
كالكسب او لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار او لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصايل والسارق والسباع او لازالة ضار قد نزل به كالتداوي
من المرض فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الاربعة وهو جلب النافع او حفظه او دفع الضار او قطعه فلنذكر شروط التوكل ودرجاته
منها مقرونا بشواهد الشرع **الفن الاول** جلب النافع **فنقول** فيه الاسباب التي بها تجلب المنافع على ثلث درجات مقطوع به ومظنون ظنا يوثق
به وهو موهوم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن اليه **الاولى** المقطوع به وذلك مثل الاسباب التي ارتبط المسببات بها بتقدير الله ومشيته
ارتباطا مطردا لا يختلف كما اذا كان الطعام موضوعا بين يديك وانت جايع محتاج ولكنك لست تمد اليد اليه وتقول انا متوكل وشرط التوكل
ترك السعي ومد اليد الى الطعام سعي وحركة وكذلك مضغه بالاسنان وابتلاعه باطباق اعالي الحنك على اسافله فهذا جنون محض وليس من التوكل
في شيء فانك ان انتظرت ان يخلق الله فيك شبعا دون الخبز او يخلق في الخبز حركة اليك او يسخر ملكا ليمضغه ويوصله الى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى
وكذلك لو لم تزرع الارض وطمعت في ان يخلق الله نباتا من غير بذر او تلد الزوجة من غير وقاع كما ولدت مريم فكل ذلك جنون
وامثال هذا مما يكثر فلا يمكن احصاوه فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم اما العلم فهو ان يعلم ان الله تعالى خلق الطعام واليد
والاسنان وقوة الحركة وانه الذي يطعمك ويسقيك واما الحال فهو ان يكون سكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام وكيف تعتمد
على صحة يدك وربما تجف في الحال وتفلج وكيف تعول على قدرتك وربما يطرا عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك وكيف تعول على حضور الطعام
وربما يسلط الله من يغلبك عليه او يبعث حية تزعجك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك واذا احتمل ذلك ولم يكن لعلاجه الا بفضل الله تعالى
فبذلك فليفرح وعليه فليعول فاذا كان هذا حاله وعلمه فليمد اليد فانه متوكل **الدرجة الثانية** الاسباب التي ليست متيقنة لكن الغالب ان المسببات لا تحصل
دونها وكان احتمال الحصول دونها بعيدا كالذي يفارق الامصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس الا نادرا ويكون سفره
من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطا في التوكل بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الاولين ولا يزول التوكل به بعد ان يكون الاعتماد على فضل الله تعالى
لا على الزاد كما سبق لكن فعل ذلك جايز وهو من اعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص **فان قلت** فهذا سعي في الهلاك والقاء النفس في
التهلكة فاعلم ان ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين احدهما ان يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام اسبوعا
او ما يقاربه بحيث يصبر عنه من غير ضيق قلب وتشوش قلب وتعذر في ذكر الله تعالى والثاني ان يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش ومهما يتفق
من الاشيا الخسيسة فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الامر في البوادي في كل اسبوع عن ان يلقاه ادمي او ينتهي الى حلة او قرية او الى حشيش
يزجي به وقته فيحيى به مجاهدا نفسه والمجاهدة عماد التوكل وعلى هذا كان يعول الخواص ونظراوه رحمهم الله والدليل على ان الخواص كان لا يفارقه
الابرة والمقراض والحبل والركوة ويقول هذه لا يقدح في التوكل وسببه انه علم ان البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الارض وما جرت سنة الله تعالى بصعود
الما

الماء من البير بغير دلو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البراري كما يغلب وجود الحشيش والماء محتاج اليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل
يوم او يومين مرة فان المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وان صبر عن الطعام وكذلك يكون له ثوب واحد ربما تخرق فتنكشف عورته ولا يوجد
المقراض والابرة في البوادي غالبا عند كل صلاة ولا تقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي فكلما في معنى هذه الاربعة يلتحق بالدرجة
الاولى لانه مظنون ظنا ليس مقطوعا به لاحتمال ان لا يتخرق الثوب او يعطيه انسان ثوبا او يجد على راس البير من يسقيه ولا يحتمل ان يتحرك الطعام ممضوغا
الى فيه فبين الموضعين فرق ولكن الثاني في معنى الاول **ولهذا** نقول لو انحاز الى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلا
فهو اثم به ساع في هلاك نفسه كما روي ان زاهدا من الزهاد فارق الامصار واقام في سفح جبل سبعا وقال لا اسال احدا شيا حتى ياتيني ربي برزقي فقعد سبعا
فكاد يموت ولم ياته شيء فقال يا رب ان احييتني فاتني برزقي الذي قسمت لي والا فاقبضني اليك فاوحى الله اليه وعزتي لا ارزقنك حتى تدخل الامصار وتقعد بين الناس
فدخل المصر واقام فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب فاكل وشرب فاوجس في نفسه من ذلك فاوحى الله اليه اردت ان تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا اما علمت اني ارزق
عبدي بايدي عبادي احب الي من ان ارزقه بيد قدرتي فاذا التباعد عن الاسباب مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله
اسوة دون الاسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلا وكيل الخصومة من قبل ولكن الاسباب تنقسم الى ظاهرة والى خفية فمعنى التوكل الاكتفاء بالاسباب الخفية
عن الاسباب الظاهرة مع سكون النفس الى مسبب الاسباب الخفية الى السبب **فان قلت** فما قولك في القعود في البلد بغير كسب اهو حرام ام مباح ام مندوب
فاعلم ان ذلك ليس بحرام لان صاحب السياحة في البوادي اذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما
بل لا يبعد ان ياتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتاخر عنه والصبر ممكن الى ان يتفق ولكن لو اغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لاحد اليه ففعله ذلك حرام
وان فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج له اولى ولكن ليس فعله حراما الا ان يشرف على الموت فعند ذلك يلزمه السوال والخروج
والكسب وان كان مشغول القلب بالله غير متشوف الى الناس ولا متطلع الى من يدخل من الباب فياتيه برزقه بل تطلعه الى فضل الله واشتغاله بالله فهو افضل
وهو من مقامات التوكل وهو ان يشتغل بالله ولا يهتم برزقه فان الرزق ياتيه لا محالة وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء وهو ان العبد لو هرب من رزقه كما يهرب
من الموت لادركه وانه لو سال الله ان لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصيا ولقال له يا جاهل كيف اخلقك ولا ارزقك ولذلك قال ابن عباس اختلف الناس في كل شيء الا في الرزق
والاجل فاجمعوا ان لا رازق ولا مميت الا الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ولزالت
بدعايكم الجبال وقال عيسى عليه السلام انظروا الى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم **فان قلتم** نحن اكبر بطونا فانظروا الى
الانعام كيف قيض الله لها هذا الخلق وقال ابو يعقوب السوسي رحمه الله المتوكلون تجري ارزاقهم على ايدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون
مكدودون وقال بعضهم العبيد كلهم في رزق الله لكن بعضهم ياكل بذل كالسوال وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار وبعضهم بامتهان كالصناع وبعضهم
بعز كالصوفية يشهدون العزيز فياخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة **الدرجة الثانية** ملابسة الاسباب التي يتوهم افضاوها
الى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها وهو
الذي فيه الناس كلهم اعني من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح واما الحذر الشبهة فذلك افراط في الحرص فيشبه ان يكون من الحرص
على الدنيا والاتكال على الاسباب فلا يخفى ان ذلك يبطل التوكل وهي مثل الاسباب التي نسبها الى جلب النافع مثل الرقية والطيرة والكي بالاضافة
الى ازالة الضار فان النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك لم يصفهم بانهم لا يكتسبون ولا يسكنون الامصار ولا ياخذون من احد شيا
بل وصفهم بانهم يتعاطون هذه الاسباب وامثال هذه الاسباب التي يوثق بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن احصاوه وقال سهل رحمه الله التوكل

ترك التدبير وقال ان الله تعالى خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وانما حجبهم بتدبيرهم ولعله اراد به الاستنباط للاسباب البعيدة بالفكر فهي التي
يحتاج الى التدبير دون الاسباب الجلية فاذن قد ظهر ان الاسباب منقسمة الى ما يخرج التعلق بها عن التوكل والى ما لا يخرج وان الذي لا يخرج
ينقسم الى مقطوع به والى مظنون وان المقطوع لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الاسباب على ثلث مقامات
الاول مقام الخواص ونظرايه رحمهم الله وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى في تقويته على الصبر اسبوعا وما فوقه
فيتيسر له حشيش او قوت او تثبيته على الرضا بالموت ان لم يتيسر شيء من ذلك فان الذي يحمل الزاد قد ياخذ زاده او يضل بعيره ويموت جوعا
فذلك ممكن مع الزاد كما انه ممكن مع فقده **المقام الثاني** ان يقعد في بيته او في مسجد ولكنه في القرى والامصار فهذا اضعف من الاول ولكنه ايضا
متوكل لانه تارك للكسب والاسباب الظاهرة معول على فضل الله في تدبيره امره من جهة الاسباب الخفية للرزق فان ذلك من الاسباب الجلية الا ان ذلك لا يبطل
توكله اذا كان نظره الى الذي يسخر سكان البلد لايصال رزقه اليه لا الى سكان البلد اذ يتصور ان يغفلوا جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل
الله تعالى بتعريفهم وتحريكهم واعيهم **المقام الثالث** ان يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذي ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب
اداب الكسب وهذا السعي لا يخرجه ايضا عن مقامات التوكل اذا لم يكن طمانينة نفسه الى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته فان ذلك ربما
اهلكه الله جميعه في لحظة بل يكون نظره الى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير جميع اسبابه بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالاضافة
الى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الملك الموقع فلا يكون نظره الى القلم بل الى قلب الملك بماذا يتحرك والى ماذا يميل وبماذا يحكم ثم ان كان هذا
منقطع في البعد الاشرف من حال القاعد المكتسب مكتسبا احالة او لتفرق على السالك يجوبونه مكتسب وتقليه عنه منقطع فحال هذا اشرف
من حال القاعد بينه والدليل على ان الكسب لا ينافي حال التوكل اذا روعيت فيه الشروط وانضاف اليه الحال والمعرفة كما سبق ان الصديق رضي الله عنه لما بويع
بالخلافة اصبح فاخذ ازرعه تحت حضنه ودخل السوق وقد كره المسلمون ذلك فقالوا كيف تفعل هذا وقد قمت بخلافة النبوة فقال لا تشغلوني عن
عيالي فاني ان اضعتهم كنت لما سواهم اضيع حتى فرضوا له قوت بيت من المسلمين فلما رضوا بذلك راى مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح
المسلمين اولى ويستحيل ان يقال لم يكن الصديق رضي الله عنه في مقام التوكل فمن اولى بهذا المقام منه فدل انه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعي بل
باعتبار قطع الالتفات الى قوته وكفايته والعلم بان الله تعالى هو ميسر الاكتساب ومسبب الاسباب وشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفا بقدر الحاجة من غير
استكثار وتفاخر وادخار من غير ان يكون درهمه احب اليه من درهم غيره فمن حرص على الدنيا ومحبها لا يصح له التوكل الا مع الزهد في الدنيا نعم يصح
الزهد دون التوكل فان التوكل مقام وراء الزهد وقال ابو جعفر الحداد رحمه الله وهو شيخ الجنيد رحمه الله وكان من المتوكلين اخفيت التوكل عشرين سنة
وما فارقت السوق كنت اكتسب في كل يوم دينارا ولا ابيت منه دانقا ولا استريح منه الى قيراط ادخل به الحمام بل اخرجه كله قبل الليل
وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرته وكان يقول استحي ان اتكلم في مقامه وهو حاضر عندي واعلم ان الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد
من التوكل فان لم يكن معلوم ووقف امرهم الى الخادم بالخروج للطلب فيصح معه التوكل الا على ضعف ولكن يقوى بالحال والعلم
كتوكل المكتسب فان لم يسالوا بل قنعوا بما يحمل اليهم فهو اقوى لكنه بعد اشتهار القوم بذلك فقد صار ذلك لهم سوقا فانهم لدخول السوق ولا يكون
داخل السوق متوكلا الا بشروط كثيرة كما سبق **فان قلت** فالافضل ان يقعد في بيته او يخرج ويكتسب فاعلم انه ان كان يتفرغ بترك
الكسب لفكر وذكر واخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع ذلك لا تستشرف نفسه الى الناس في انتظار
من يدخل عليه فيحمل اليه شيا بل يكون قوي القلب في الصبر والاتكال على الله فالقعود له اولى وان كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف
الى الناس

الى الناس فالكسب اولى لان استشراف القلب الى الناس سوال بالقلب وتركه اهم من ترك الكسب وما كان المتوكلون ياخذون ما يستشرف اليه
نفوسهم فان احمد بن حنبل رحمه الله قد امر ابا بكر المروزي رحمه الله ان يعطي بعض الفقراء شيا فضلا عما كان استاجره عليه فرده فلما ولى قال له احمد
الحقه فاعطه فانه يقبل فلحقه واعطاه فقبله فسال احمد عن ذلك فقال كان قد استشرفت نفسه فرده فلما خرج انقطع طمعه وايس فاخذ وروي ان
الخواص رحمه الله اذا نظر الى عبد في العطا او حدث نفسه الى الخلق لم يقبل منه شيا وقال الخواص رحمه الله اذا نظر الى عبد في العطا او حدث نفسه
النفس لم يقبل منه شيا وقد سيل عن حجاب ما اعتاده فقال رايت الخضر عليه السلام في صحبته ولكن فارقته خشية ان تكون نفسي اليه فيكون نقصانا في توكلي
فاذا المكتسب ان راعى اداب الكسب وشروطه نيته كما سبق في كتاب اداب الكسب لم يقصد الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا **فان قلت**
ما علامة عدم الاتكال على البضاعة والكفاية فاقول علامته انه ان سرقت بضاعته او خسرت تجارته او تعوق امر من اموره كان راضيا به ولم تبطل
طمانينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا فان من لم يسكن الى شيء لم يضطرب بفقده ومن اضطرب لفقد شيء
فقد سكن اليه وقد كان بشر رحمه الله يعمل المغازل فترك ذلك لان البلعوي كاتبه بلغني انك استغنيت عن رزقك بالمغازل ارايت ان اخذ الله سمعك
وبصرك الرزق على من فوقع ذلك في قلبه فاخرج آلة المغازل من يده وقيل تركه لما وهبت باشرته قصد الاجل وقيل فعل ذلك لما ماتت عياله
كما كان سفيان رحمه الله خمسون دينارا يتجر فيها فلما ماتت عياله فرقها **فان قلت** فكيف يتصور ان يكون له بضاعة ولا يسكن اليها وهو يعلم ان الكسب
بغير بضاعة لا يمكن فاقول بان يعلم ان الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة او سرقت وهلكت فهم كثير وان يوطن نفسه على ان الله لا يفعل
به الا ما فيه صلاحه فان اهلك بضاعته فهو خير له فلعله لو تركها لكانت سببا في فساد دينه فقد لطف الله تعالى به وغايته ان يموت جوعا
فينبغي ان يعتقد ان الموت جوعا خير له في الاخرة فيما قضى الله عليه بذلك من غير تقصير من جهته فاذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده
وجود البضاعة وعدمها ففي الخبر ان العبد ليهم من الليل بامر من امور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله اليه من فوق عرشه فيصرفه
عنه فيصبح كييبا حزينا يتطير بجاره وابن عمه من سبقني من دهاني وما هو الا رحمة رحمه الله بها ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا ابالي اصبحت غنيا او فقيرا
فاني لا ادري ايهما خير لي ومن لم يتكامل يقينه بهذه الامور لم يتصور منه التوكل ولذلك قال ابو سليمان الداراني رحمه الله لاحمد بن ابي الحواري رحمه الله
لي من كل مقام نصيب الا من هذا التوكل المبارك فاني ما شممت منه رايحة هذا كلامه مع علو قدره ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال ما ادركته
ولعله اراد ادراك اقصاه وما لم يكمل الايمان بان لا فاعل الا الله ولا رازق سواه وان كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة
فهو خير مما يتمناه العبد لنفسه لم يكمل حال التوكل فبنى التوكل على قوة الايمان بهذه الامور كما سبق وكذا ساير مقامات الدين من الاحوال
والاعمال تنبني على اصولها من الايمان وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين ولذلك قال سهل رحمه الله من طعن على
التكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد **فان قلت** فهل من دوا ينتفع به في صرف القلب عن الركون
الى الاسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى في تيسير الاسباب الخفية **فاقول** نعم ان تعرف ان سوء الظن تلقين الشيطان وحسن الظن بالله تلقين من الله
قال الله الشيطان يعدكم الفقر الاية فالانسان بطبعه مستغرق بسماع تخويف الشيطان ولذلك قيل الشفيق بسوء الظن مولع واذا انضم اليه الجبن
وضعف القلب ومشاهدة المتوكلين على الاسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية بل روية الرزق من الاسباب الخفية
ايضا تبطل التوكل فقد حكي عن عابد انه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم فقال له الامام لو اكتسبت كان افضل لك فلم يجبه حتى اعاد عليه ثلاثا
فقال في الرابعة يهودي في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين فقال ان كان صادقا في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك فقال يا هذا لو لم تكن
اماما تقف بين يدي الله تعالى وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيرا لك اذ فضلت وعد يهودي على ضمان الله تعالى بالرزق
وقال امام المسجد لبعض المصلين من اين تاكل فقال يا شيخ اصبر حتى اعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم اجيبك وسيع حسن الظن

يجيء الطعام إليه من لطف الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية أن يسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله في وصول الرزق إلى صاحبه وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا كما روي عن حذيفة المرعشي رحمه الله وكان قد خدم إبراهيم بن أدهم فقيل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا في طريق مكة أياما لم نجد طعاما ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب فنظر إلي إبراهيم وقال يا حذيفة أرى بك الجوع فقلت هو ما رأى الشيخ فقال علي بدواة وقرطاس فجئت به فكتب بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى:

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر * أنا جائع أنا ضائع أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها * فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها * فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلي الرقعة فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك فخرجت فأول من لقيني كان رجلا على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال ما فعل صاحب هذه الرقعة فقلت هو في المسجد الفلاني فدفع إلي صرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة فقال هذا رجل نصراني فجئت إلى إبراهيم فأخبرته بالقصة فقال لا تمسها فإنه يجيء الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصراني فأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم. وقال أبو يعقوب الأقطع البصري جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا فحدثتني نفسي بالخروج فخرجت إلى الوادي لعلي أجد شيئا يسكن ضعفي فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها فوجدت في قلبي منها وحشة وكأن قائلا يقول لي جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخلت المسجد فقعدت فإذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضع قمطرة وقال هذه لك فقلت كيف خصصتني بها قال اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق فنذرت إن خلصني الله أن أتصدق بهذه على أول من تقع عليه عيني من المجاورين وأنت أول من لقيته فقلت افتحها ففتحها فإذا فيها سميذ مصري ولوز مقشر وسكر كعاب فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقي إلى صبيانك هدية مني إليكم وقد قبلتها ثم قلت في نفسي رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي. وقال ممشاد الدينوري رحمه الله كان علي دين فاشتغل قلبي بسببه فرأيت في النوم كأن قائلا يقول يا بخيل أخذت علينا هذا المقدار من الدين خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهم. وحكي عن بنان الحمال قال كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعي زاد فجاءتني امرأة وقالت يا بنان أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم أنه لا يرزقك قال فرميت بزادي ثم أتى علي ثلاث لم آكل فوجدت خلخالا في الطريق فقلت في نفسي أحمله حتى يجيء صاحبه فربما يعطيني شيئا فأرده عليه فإذا أنا بتلك المرأة فقالت لي أنت تاجر تقول حتى يجيء صاحبه فآخذ منه شيئا ثم رمت إلي شيئا من الدراهم قالت أنفقها فاكتفيت بها إلى قريب من مصر. وحكي أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا هو ذا يجيء النفر فنشتري ما يوافق فلما ورد النفر أجمع رأيهم على واحدة وقالوا إنها تصلح له فقالوا لصاحبها بكم هذه فقال إنها ليست للبيع فألحوا عليه فقال إنها لبنان الحمال أهدتها إليه امرأة من سمرقند فحملت إليه وذكرت له القصة. وقيل كان في الزمن الأول رجل في سفره ومعه قرص فقال إن أكلته مت فوكل الله به ملكا فقال إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده. وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله دخلت البادية بغير زاد فأصابتني فاقة فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت في نفسي أني سكنت واتكلت على غيره فآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها فحفرت لنفسي حفيرة وواريت جسدي فيها إلى صدري فسمعوا صوتا في نصف الليل عاليا يا أهل المرحلة إن لله وليا حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية. وروي أن رجلا لازم باب عمر رضي الله عنه فقال عمر يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله اذهب فتعلم القرآن فإنه سيغنيك عن باب عمر فذهب الرجل ساعة حتى افتقده عمر رضي الله عنه فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة فقال عمر إني اشتقت إليك فما الذي شغلك عنا فقال إني قرأت القرآن فأغناني عن عمر وآل عمر فقال عمر رحمك الله فما وجدت فيه قال وجدت فيه وفي السماء رزقكم وما توعدون فقلت رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض فبكى عمر رضي الله عنه وقال صدقت فكان عمر بعد ذلك ينتابه ويجلس إليه. وقال أبو حمزة الخراساني رحمه الله حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشي في الطريق

إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث فقلت لا والله لا أستغيث فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر تعال حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد فأتوا بقصب وبارية وطموا رأس البئر فهممت أن أصيح ثم قلت في نفسي إلى من هو أقرب منهما وسكنت فبينا أنا بعد ساعة إذا أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجني فإذا هو سبع فمر وهتف بي هاتف يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجيناك من التلف بالتلف فمشيت وأنا أقول:

نهاني حيائي منك أن أكتم الهوى * وأغنيتني بالفهم منك عن الكشف
تلطفت في أمري فأبديت شاهدي * إلى غائبي واللطف يدرك باللطف
أراك وبي من هيبتي لك وحشة * فتؤنسني باللطف منك وبالعطف
وتحيي محبا أنت في الحب حتفه * وذا عجب كون الحياة مع الحتف
تراءيت لي بالغيب حتى كأنما * تبشرني بالغيب أنك في الكف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر وإذا قوي الإيمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر وقوي الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع فالموت خير له عند الله ولذلك حبسه عنه تم التوكل بهذه الأحوال والمشاهد وإلا فلا يتم أصلا.

بيان توكل المعيل اعلم أن المعيل حكمه يفارق المنفرد لأن المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين أحدهما قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس والآخر أبواب من الإيمان ذكرناها من جملتها أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأته رزقه علما بأن رزقه الموت والجوع وهو وإن كان نقصانا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة ... فلا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ولا يمكن أن يقرر عندهم الإيمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مغبوط عليه إن اتفق نادرا وكذلك سائر أبواب الإيمان فإذا لا يمكن في حقهم إلا توكل المكتسب وهو المقام الثالث كتوكل أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب فأما دخول البوادي وترك العيال توكلا في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا في حقهم فهذا حرام وقد يفضي إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتقاد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة فله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضا عيال عنده لا يجوز تضييعها إلا إن ساعدته على الصبر على الجوع مدة فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه ويتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل ولذلك روي أن أبا تراب النخشبي رحمه الله نظر إلى صوفي قد مد يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام فقال له لا يصلح لك التصوف الزم السوق أي لا تصوف إلا مع التوكل ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام وقال أبو علي الروذباري رحمه الله إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب فإذا بدنه عياله وتوكله فيما يضر بدنه كتوكله في عياله وإنما يفارقهم في شيء وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع وليس له ذلك في عياله وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادرا وملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدوا ذلك أسبابا وذلك لضعف إيمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل ومن نظر في ملكوت السماوات والأرض انكشف له تحقيقا أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه ألا ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطرارا من الله إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبتت له أسنان قواطع وطواحن لأجل المضغ فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة فجبنه بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب والآن قد قدر نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهو الأم أو الأب وكانت شفقته مفرطة جدا وكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرة أو مرتين وكان إطعامه بتسليط الله الشفقة والمودة والرقة والرحمة على قلب الأم وأهل البلد كلهم حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعث داعية إلى إزالة حاجته فقد كان المشفق عليه واحدا والآن المشفق عليه ألف وزيادة وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهي مشفق خاص فلم يروه محتاجا ولو رأوه يتيما لسلط الله تعالى داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذوه أو يكفلوه فما رئي إلى الآن في سني الخصب يتيم قد مات جوعا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل به وهو صبي وقد كان المشفق عليه واحدا والمشفق الآن ألف نعم كانت شفقة الأم أقوى وأخص ولكنها واحدة وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيحصل من مجموعها ما يفيد الغرض فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فيجبر شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبترك

الشبع والاقتصار على قدر الضرورة ولقد أحسن الشاعر حيث قال:

جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق * ويرزق في غشاوته الجنين

فإن قلت الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون هو مثلنا فليجتهد لنفسه **فأقول** إن كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فإن التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فما للبطال والتوكل وإن كان مشتغلا بالله ملازما للمسجد أو بيته وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يطالبونه بذلك بل اشتغاله بالله يقرر حبه في قلوب الناس حتى يحملوا إليه فوق كفايته وإنما عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب إلى الجبل من الناس وما رئي إلى الآن عالم أو عابد استغرق أوقاته بالله وهو في الأمصار فمات جوعا لا يرى قط بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه فإن من كان لله كان الله له ومن اشتغل بالله ألقى الله محبته في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيرا كافيا لأهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب نعم ما دبره تدبيرا يوصل إلى المشتغل به الحلوى والطير المشوي والثياب الرفيعة والخيول النفيسة على الدوام لا محالة وقد يتفق ذلك في بعض الأحوال ولكن دبره تدبيرا يوصل إلى كل مشتغل بعبادته أداء كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على الحاجة والكفاية فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة في الشبع على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأطعمة اللطيفة وليس ذلك من طريق الآخرة وذلك قد لا يحصل من غير اضطراب وهو في الغالب أيضا يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادرا وفي النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب فإن الاضطراب ضعيف عند من انفتحت بصيرته فلذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدبر الملك تدبيرا لا يجاوز عبدا من عبيده رزقه وإن كان لا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله حتى المضطرب فإذا انكشف هذه الأمور كان معه قوة في القلب وشجاعة ثم ذلك ما قاله الحسن البصري رحمه الله وددت أن أهل البصرة في عيالي وأن حبة بدينار وقال وهب الورد رحمه الله لو كانت السماء نحاسا والأرض رصاصا واهتممت برزقي لظننت أني مشرك فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم نفعه ويحتاج التوصل إليه إلى قوة نفس وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل فإياك أن تجمع بين الإفلاس من عين جود المقام ذوقا وحالا والإفلاس عن الإيمان به علما فأدخل عليك القناعة بالرزق القليل والرضا بالقوت فإنه يأتيك لا محالة وإن فررت منه وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك ... فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الأطعمة فما ضمن له إلا الرزق الذي تدوم به حياته وهذا الرزق مبذول للعامل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه فإن الذي أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى إليها وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء قال الله تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون وأسرار السماء لا يطلع عليها ولهذا دخل جماعة على الجنيد رحمه الله فقالوا نطلب الرزق فقال إن علمتم أي موضع هو فاطلبوه قالوا فنسأل الله قال إن علمتم أنه ينساكم فذكروه فقالوا فندخل البيت ونتوكل وننظر ما يكون فقال التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة قال ترك الحيلة. وقال أحمد بن عيسى الخراز كنت في البادية فنالني جوع شديد فغلبتني نفسي أن أسأل الله طعاما فقلت ليس هذا من فعل المتوكلين فطالبتني أن أسأل الله تعالى صبرا فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يقول:

ويزعم أنه منا قريب * وأنا لا نضيع من أتانا
ويسألنا القرى جهدا وصبرا * كأنا لا نراه ولا يرانا

فقد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوي قلبه ولم يضعف بالجبن قوي إيمانه بتدبير الله تعالى كان مطمئن النفس أبدا واثقا بالله فإن أسوأ حاله أن يموت ولا بد من الموت كما لا بد منه لمن لم يتوكل فإذا تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب والوفي ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التي دبرها فاقنع ساعة تقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك ولا تكن في توكلك منتظرا للأسباب بل لمسبب الأسباب كما لا يكون منتظر القلم الكاتب بل الكاتب فإن أصل حركة القلم والقلم إلا أول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه **وهذا شرط** توكل من يدخل البوادي بلا زاد أو يقعد في الأمصار وهو خامل فأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم فإذا قنع في اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ وبثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث لا يحتسب ولا يعتبر على الدوام بل يأتيه أضعافه فترك التوكل والاهتمام بالرزق غاية الضعف والقصور فإن اشتهاره سبب ظاهر جالب للرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الخامل مع الاكتساب فالاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدين وهو بالعلماء أقبح لأن شرطهم القناعة والقانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه إلا إذا أرادوا أن لا يأخذوا من أيدي الناس شيئا ويأكلوا من كسبهم فذلك له وجه لا يليق بالعالم العامل الذي بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فإن الكسب يمنع من السير بالفكر الباطن واشتغاله بالسلوك مع الأخذ ممن يتقرب إلى الله بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله وإعانة للمعطي على نيل الثواب ومن نظر إلى مجاري سنة الله علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيما عن الأحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال أراد الصانع أن يدل على نفسه إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أن العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم.

بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثال طائفة من السؤال وقفوا على ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين ويعطوا بعضهم رغيفا رغيفا واحدا ويجتهدوا في أن لا يغفلوا عن واحد منهم وأمر مناديا حتى ينادي فيهم أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلماني إذا خرجوا إليكم بل ينبغي أن يطمئن كل واحد في موضعه فإن الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين فإذا فتح باب الميدان وخرج أتبعته بغلام يكون موكلا به إلى أن أقدم بعقوبته في ميعاد معلوم عندي ولكني أخفيه

ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فإني أخصه بخلعة سنية في الميعاد المذكور لعقوبة الآخر ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له ومن أخطأه غلماني فلم يوصلوا إليه شيئا فبات الليلة جائعا غير متسخط على الغلمان ولا قائل ليته وصل إلي رغيف فإني غدا أستوزره وأفوض ملكي إليه **فانقسم السؤال** أربعة أقسام **قسم** غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة وقالوا من اليوم إلى غد فرج ونحن الآن جياع فبادروا إلى الغلمان وآذوهم وأخذوا الرغيفين فسبقت العقوبة إليهم في الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم **وقسم** تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع فسلموا عن العقوبة ولم يفوزوا بالخلعة **وقسم** قالوا إنا بمرأى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكنا لا نأخذ إذا أعطونا إلا رغيفا واحدا ونقنع به فلعلنا نفوز بالخلعة ففازوا **وقسم** رابع اختفوا في زاوية الميدان وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا إن تبعونا وأعطونا قنعنا برغيف واحد وإن أخطأونا قاسينا شدة الجوع الليلة فلعلنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القربة عند الملك فما نفعهم ذلك إذ تبعهم الغلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفا واحدا وجرى مثل ذلك أياما حتى اتفق على الندور أن اختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش فباتوا في جوع شديد فقال اثنان منهم ليتنا تعرضنا للغلمان وأخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة. **فهذا** مثال الخلق فالميدان هو الحياة الدنيا وباب الميدان الموت والميعاد المجهول القيامة والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعا راضيا من غير تأخر ذلك إلى ميعاد القيامة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون والمتعلق بالغلمان هو المتعدي بالأسباب والغلمان المسخرون هي الأسباب ولكن التوقع ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون في الرباطات والمساجد على هيئة السكون والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تتبعهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور وإن مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة فلعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام تسعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرضين للأسباب بمجرد حضورهم واشتهارهم وساح في البوادي ثلاثة فسقط منهم اثنان وفاز بالقرب واحد ولعله كان ذلك في الأعصار السالفة وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف.

الفن الثاني التعرض لأسباب الادخار فمن حصل له مال بإرث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في ادخاره ثلاثة أحوال **الأولى** أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل إن كان جائعا ويلبس إن كان عاريا ويشتري مسكنا مختصرا إن كان محتاجا ويفرق الباقي في الحال ولا يأخذه ولا يدخره إلا القدر الذي يتبرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدخر على هذه النية **فهذا** هو الوفاء بموجب التوكل تحقيقا وهي الدرجة العليا **الحالة الثانية** المقابلة لها المخرجة له عن حدود التوكل أن يدخر لسنة فما فوقها **فهذا** ليس من المتوكلين أصلا وقد قيل لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة الفأرة والنملة وابن آدم **والثالثة** أن يدخر لأربعين يوما فما دونه **فهذا** هل يوجب حرمانه عن المقام المحمود في الآخرة للمتوكلين اختلفوا فيه فذهب سهل رحمه الله إلى أنه يخرج عن التوكل وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الأربعين وقال أبو طالب المكي لا يخرج عن حدود التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا الخلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له وكل ثواب موعود على درجة فإنه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية ويسمى أصحاب النهاية السابقين وأصحاب البداية أصحاب اليمين ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات وكذا السابقون وأعلى درجات أصحاب اليمين يلاصق أسفل درجات السابقين فلا معنى للتقدير في مثل هذا بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل وأما عدم أمل البقاء فبعيد اشتراطه ولو في نفس فإن ذلك كالممتنع وجوده أما الناس فمتفاوتون في طول الأمل وقصره وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الإنسان وبينهما درجات لا حصر لها فمن لم يأمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود ممن يأمل سنة وفي تقديره بأربعين أجل ميقات موسى عليه السلام ... ما قصد به تقليل ما يرخص الأمل فيه ولكن استحقاق موسى عليه السلام لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين بسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور كما قال عليه السلام خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا لأن استحقاق تلك الطينة التخمير كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر فإذا ما وراء السنة لا يرخص الأمل فيه إلا لضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب فهو خارج عن مقام التوكل واثق بإحاطة التدبير ... فإن أسباب الرجل في الأرض والزكوات تتكرر في السنين فأما من ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته درجة من أمل شهرا ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر بل هو بينهما في الرتبة ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل فالأفضل أن لا يدخر أصلا فإن ضعف قلبه فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر وقد روي في الفقير الذي من أهل الصفة مات على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر عليا وأسامة رضي الله عنهما فغسلاه وكفنوه ببردته فلما دفنه قال لأصحابه إنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية فقلنا وما هي يا رسول الله قال إنه كان صواما قواما كثير الذكر لله تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه الآخر وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه الآخر ثم قال إن أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ... وملخص الدنيا على الدوام في معنى ذلك فادخاره ...

[illegible]

وكان بعضهم اذا مرض اغلق بابه فلم يدخل عليه احد حتى يبرى فيخرج اليهم منهم الفضيل بن عياض
ووهب بن الورد وبشر الحافي رحمة الله عليهم اجمعين وكان الفضيل يقول اشتهي مرضا بلا عواد
وقال لا اكره العلة الا لاجل العواد ❊❊ تم كتاب التوكل بحمد الله ومنه وحسن لطفه وكرمه ويتلوه كتاب الشوق والمحبة والانس والرضا وهو الثاني من المنجيات على يد العبد الفقير الحاج عال على الكردي

بسم الله الرحمن الرحيم عونك اللهم ❊❊❊❊❊❊❊❊❊❊

كتاب المحبة والشوق والانس والرضا وهو السادس من ربع المنجيات للشيخ الامام الزاهد العابد زين شرف الائمة حجة الاسلام ابي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رحمه الله تعالى الحمد لله الذي نزه قلوب اوليائه عن الالتفات الى زخارف الدنيا ونضرتها وصفى اسرارهم عن ملاحظة غير حضرته ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ثم تجلى لها باسمائه وصفاته حتى اشرقت بانوار معرفته ثم كشف لها عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما غبر وجه العقل وبصيرته وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا ايها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى في بحر معرفته ومحترقة بنار محبته والصلاة على محمد خاتم الانبياء بكمال نبوته وعلى آله واصحابه سادة الخلق وائمته وقادة الحق وازمته وسلم كثيرا

اما بعد فان المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات فما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والانس والرضا واخواتها ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها وساير المقامات ان عز وجودها فلم تخل القلوب عن الايمان بامكانها واما محبة الله تعالى فقد عز الايمان بها حتى انكر بعض العلماء امكانها وقال لا معنى لها الا المواظبة على طاعة الله تعالى واما حقيقة المحبة فمحال الا مع الجنس والمثل ولما انكروا المحبة انكروا الانس والشوق ولذة المناجاة وساير لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الامر ونحن نذكر في هذا الكتاب ان شاء الله تعالى بيان شواهد الشرع في المحبة ثم بيان حقيقتها واسبابها ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الاخرة على المعرفة في الدنيا ثم بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ثم بيان السبب في قصور الافهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق ثم بيان محبة الله للعبد ثم القول في علامات محبة العبد لله ثم بيان معنى الانس بالله ثم بيان معنى الانبساط في الانس ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ثم بيان حقيقته ثم بيان ان الدعاء وكراهة المعاصي لا ينافيه وكذا الفرار من المعاصي ثم بيان جملة من حكايات وكلمات للمحبين متفرقة ❊

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى اعلم ان الامة مجمعة على ان الحب لله تعالى ولرسوله فرض وكيف يفترض ما لا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد وان يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من احب ويدل على اثبات الحب لله تعالى قوله تعالى يحبهم ويحبونه وقوله والذين آمنوا اشد حبا لله فهو دليل على اثبات الحب واثبات التفاوت فيه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شروط الايمان في اخبار كثيرة اذ قال ابو رزين العقيلي يا رسول الله ما الايمان قال ان يكون الله ورسوله

احب

١٤١

احب اليك مما سواهما وفي حديث اخر لا يؤمن العبد حتى اكون احب اليه من اهله وماله والناس اجمعين وفي رواية ومن نفسه كيف وقد قال تعالى قل ان كان اباؤكم وابناؤكم واخوانكم الى قوله احب اليكم من الله ورسوله الاية وانما اجرى ذلك في معرض التهديد والانكار وقد امر صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه واحبوني لحب الله ويروى ان رجلا قال يا رسول الله اني احبك فقال استعد للفقر فقال اني احب الله فقال استعد للبلاء وعن عمر رضي الله عنه قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تمنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه لقد رايته بين ابويه يغذوانه باطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله الى ما ترون وفي الخبر المشهور ان ابرهيم عليه السلام قال لملك الموت اذ جاءه ليقبض روحه هل رايت خليلا يميت خليله فاوحى الله اليه وهل رايت محبا يكره لقاء حبيبه فقال يا ملك الموت الان فاقبض وهذا لا يجده الا عبد يحب الله عز وجل بجميع قلبه فاذا علم ان الموت سبب اللقاء انزعج قلبه اليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت اليه وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه اللهم ارزقني حبك وحب من احبك وحب ما يقربني الى حبك واجعل حبك احب الي من الماء البارد وجاء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله متى الساعة فقال ما اعددت لها فقال ما اعددت لها كثير صلاة ولا صيام الا اني احب الله ورسوله فقال صلى الله عليه وسلم المرء مع من احب قال انس فما رايت المسلمين فرحوا بشيء بعد الاسلام فرحهم بذلك وقال ابو بكر الصديق رضي الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا واوحشه عن جميع البشر وقال الحسن من عرف ربه احبه ومن عرف الدنيا زهد فيها والمومن لا يلهو حتى يغفل فاذا تفكر حزن وقال ابو سليمن الداراني ان من خلق الله خلقا لا يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ويروى ان عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر وقد نحلت ابدانهم وتغيرت الوانهم فقال لهم ما الذي بلغ منكم ما ارى فقال

فقالوا الخوف من النار فقال حق على الله ان يؤمن الخائف ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرى
فاذا هم اشد نحولا وتغيرا فقال ما الذي بلغ منكم ما ارى فقالوا الشوق الى الجنة
فقال حق على الله ان يعطيكم ما ترجون ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرى فاذا هم اشد نحولا
وتغيرا كان على وجوههم المرايا من النور فقال ما الذي بلغ منكم ما ارى قالوا الحب لله تعالى
فقال انتم المقربون انتم المقربون وقال عبد الواحد ابن زيد مررت برجل نائم
في الثلج فقلت اما تجد البرد فقال من شغله حب الله لم يجد البرد وعن سرى
السقطي رحمه الله عليه قال تدعى الامم يوم القيمة بانبيائهم فيقال يا امة موسى
يا امة عيسى يا امة محمد غير المحبين لله فانهم ينادون يا اولياء الله هلموا
الى الله تعالى فيكاد قلوبهم تنخلع فرحا وقال هرم ابن حيان المومن اذا عرف
ربه احبه واذا احبه اقبل عليه واذا وجد حلاوة الاقبال اليه لم ينظر الى الدنيا
بعين الشهوة ولم ينظر الى الاخرة بعين الفترة وهو بجسده في الدنيا وبروحه في الاخرة
وقال يحيى ابن معاذ عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الامال
فكيف حبه وحبه يدهش العقول فكيف وده ووده ينسى ما دونه فكيف لطفه
وفي بعض الكتب عبدي انا وحقك لك محب فبحقي عليك كن لي محبا وقال يحيى بن معاذ
مثقال خردلة من الحب احب الي من عبادة سبعين سنة بلا حب وقال يحيى بن معاذ
الهي اني مقيم بفنائك مشغول بثنائك صغيرا اخذتني اليك وسربلتني بمعرفتك وامكنتني
من لطفك ونقلتني في الاحوال وقلبتني في الاعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا
ورضا وحبا تسقيني من حياضك وتهملني في رياضك ملازما لامرك ومشغوفا بقولك
ولما طر شاربي ولاح طائري فكيف انصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك
صغيرا فلي ما بقيت حولك دمدمة وبالضراعة اليك همهمة لاني محب وكل
محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف وقد ورد في حب الله عز وجل
من الاخبار والاثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك امر ظاهر وانما الغموض في
تحقيق معناه فلنشتغل به ○ بيان حقيقة المحبة واسبابها وتحقيق
محبة العبد لله تعالى ○ اعلم ان هذا المطلب من هذا الفصل لا ينكشف

الا

الا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها ثم معرفة شروطها واسبابها ثم النظر بعد ذلك
في تحقيق معناها في حق الله تعالى فاول ما ينبغي ان تتحقق انه لا يتصور محبة الا بعد معرفة
وادراك اذ لا يحب الانسان الا ما يعرفه ولذلك لم يتصور ان يتصف بالحب جماد بل هو من
خاصية الحي المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم الى ما يوافق طبع المدرك ويلايمه
ويلذه والى ما ينافيه وينافره ويولمه والى ما لا يوثر فيه بايلام والذاذ فكل ما في
ادراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك وما في ادراكه الم فهو مبغوض عند المدرك
وما يخلوا عن استعقاب الم ولذة فلا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها فاذن كل لذيذ
محبوب عند الملتذ به ومعنى كونه محبوبا ان في الطبع ميلا اليه ومعنى كونه مبغوضا ان
في الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع الى الشي الملتذ فان تاكد ذلك الميل وقوي
سمي عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المولم المتعب فاذا قوي سمي مقتا فهذا
اصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته ○ الاصل الثاني ان الحب لما كان تابعا
للادراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة ادراك
لنوع من المدركات ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذة
ميل اليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم فلذة العين في الابصار وادراك المبصرات
الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ولذة الاذن في النغمات الطيبة الموزونة
ولذة الشم في الروايح الطيبة ولذة الذوق في الطعوم ولذة اللمس في اللين والنعومة
ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة اي كان للطبع السليم ميل اليها
حتى قال صلى الله عليه وسلم حبب الي من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في
الصلاة فسمى الطيب محبوبا ومعلوم ان لا حظ للعين والسمع فيه بل للشم فقط وسمى
النساء محبوبات ولا حظ فيهن الا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع وسمى الصلاة
قرة عين وجعلها ابلغ المحبوبات ومعلوم انه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حس
سادس مظنته القلب لا يدركه الا من كان له قلب ولذات الحواس الخمس يشاركه فيها
البهايم للانسان فان كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال ان الله تعالى
لا يدرك بالحواس الخمس ولا يتمثل في الخيال فلا يحب فاذن قد بطلت خاصية الانسان
وما تميز به من الحس السادس الذي يعبر عنه اما بالعقل او بالنور او بالقلب او بما
شئت من العبارات فلا مشاحة فيها وهيهات فالبصيرة الباطنة اقوى من البصر
الظاهر والقلب اشد ادراكا من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل اعظم
من جمال الصور الظاهرة للابصار فيكون لا محالة لذة القلوب بما تدركه من
الامور الشريفة الالهية التي تجل عن ان يدركها الحواس اتم وابلغ فيكون ميل الطبع

السليم والعقل الصحيح اليه اقوى ولا معنى للحب الا الميل الى ما في ادراكه لذة كما سيأتي
تفصيله فلا ينكر اذا حب الله تعالى الا من قعد به القصور في درجة البهايم فلم يجاوز
ادراك الحواس اصلا ○ الاصل الثالث ان الانسان لا يخفى انه يحب نفسه ولا يخفى انه قد
يحب غيره لاجل نفسه وهل يتصور ان يحب الانسان غيره لذاته لا لاجل نفسه هذا مما
قد يستشكل على الضعفاء حتى يظنون انه لا يتصور ان يحب الانسان غيره لذاته ما لم
يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته والحق ان ذلك متصور وموجود فلنبين اقسام
المحبة واسبابها وبيان ان المحبوب الاول عند كل حي نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه
ان في طبعه ميلا الى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه لان المحبوب بالطبع هو
الملايم للمحب واي شي اتم ملايمة من نفسه ودوام وجوده واي شي اعظم مضادة
ومنافرة له من عدمه وهلاكه ولذلك يحب الانسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل
لا لمجرد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت بل لو اختطف من غير الم
واميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ولا يحب الموت والعدم
المحض الا لمقاساة الم في الحيوة ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء فان
احب العدم لم يحبه لانه عدم بل لان فيه زوال البلاء فالهلاك والعدم ممقوت
ودوام الوجود محبوب وكما ان دوام الوجود محبوب فكمال الوجود ايضا محبوب لان
الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالاضافة الى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة
اليه والهلاك والعدم ممقوت في الصفات وكمال الوجود كما انه ممقوت في اصل الذات
فوجود صفات الكمال محبوب كما ان دوام اصل الوجود محبوب وهذه غريزة في
الطباع بحكم سنة الله تعالى ولن تجد لسنة الله تبديلا فاذا المحبوب الاول للانسان
ذاته ثم سلامة اعضايه ثم ماله وولده وعشيرته واصدقاه فالاعضاء محبوبة
وسلامتها مطلوبة لان كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها والمال محبوب لانه
ايضا آلة في دوام الوجود وكماله وكذا ساير الاسباب فالانسان يحب هذه الاشيا
لا لاعيانها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكماله بها حتى انه ليحب ولده
وان كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاق لاجله لانه يخلفه في الوجود بعد عدمه
فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له لفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو
قايم مقامه وكانه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه ابدا نعم لو خير بين قتله
وقتل ولده وكان طبعه باقيا على اعتداله اثر بقاء نفسه على بقاء ولده لان بقاء ولده يشبه
بقاءه من وجه وليس هو بقاءه في التحقيق وكذلك حبه لاقاربه وعشيرته يرجع
الى حبه لكمال نفسه فانه يرى كبيرا قويا بسببهم متجملا بكمالهم فان العشيرة

والمال

والمال والاسباب الخارجة كالجناح المكمل للانسان وكمال الوجود ودوامه محبوب
بالطبع لا محالة فاذن المحبوب الاول عند كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك
كله والمكروه عنده ضد ذلك فهذا هو اول الاسباب ○ السبب الثاني الاحسان
فان الانسان عبد الاحسان وقد جبلت القلوب على حب من احسن اليها وبغض
من اساء اليها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم لا تجعل لفاجر علي يدا فيحبه قلبي
اشار الى ان حب القلب للمحسن اضطرار لا يستطاع دفعه وهو جبلة وفطرة
لا سبيل الى تغييرها وبهذا السبب يحب الانسان الاجنبي الذي لا قرابة
بينه وبينه ولا علاقة وهذا اذا حقق رجع الى السبب الاول فان المحسن
من امده بالمال والمعونة وساير الاسباب الموصلة الى دوام الوجود وكمال الوجود
وحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود الا ان الفرق ان اعضاء الانسان محبوبة
لان بها كمال وجوده وهو عين الكمال المطلوب فاما المحسن فليس هو عين الكمال
المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب الذي قد يكون سببا في دوام صحة الاعضا
ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة اذ الصحة
مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته بل لانه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب
والاستاد محبوب ولكن العلم محبوب لذاته والاستاذ محبوب لكونه سبب العلم
المحبوب وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة لكن الطعام محبوب
لذاته والدنانير محبوبة لانها وسيلة الى الطعام فاذن يرجع الفرق الى تفاوت
الرتبة والا فكل واحد يرجع الى محبة الانسان نفسه فكان من احب المحسن
لاحسانه فما احب ذاته تحقيقا بل احب احسانه وهو فعل من افعاله لو زال زال
الحب مع بقاء ذاته ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد ويتطرق اليه الزيادة
والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه ○ السبب الثالث
ان يحب الشي لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل يكون ذاته عين حظه وهذا
هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن فان كل
جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال لان ادراك الجمال فيه
عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ولا تظن ان حب الصور الجميلة
لا يتصور الا لاجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة اخرى قد تحب الصور
الجميلة لاجلها وادراك نفس الجمال ايضا لذيذ فيجوز ان يكون محبوبا لذاته
وكيف ينكر ذلك والماء الجاري والخضرة محبوبة لا لتشرب الماء او تؤكل الخضرة
او ينال منها حظ سوى نفس الرؤية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة

والماء الجاري والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر الى الانوار والازهار
والاطيار المليحة الالوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل حتى ان الانسان
ليتفرج عند الغموم بالنظر اليها لا لطلب حظ وراء النظر فهذه الاسباب
ملذة وكل لذيذ محبوب وكل حسن وجمال فلا يخلو ادراكه عن لذة ولا احد
ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع فان ثبت ان الله تعالى جميل كان لا محالة محبوبا
عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله جميل يحب الجمال

الاصل الرابع في بيان معنى الحسن والجمال اعلم ان المحبوس في مضيق الخيالات
والمحسوسات ربما يظن انه لا معنى للحسن والجمال الا تناسب الخلقة والشكل
وحسن اللون وكون البياض مشوبا بالحمرة وامتداد القامة الى غير ذلك مما
يوصف من جمال شخص الانسان فان الحسن الاغلب على الانسان حسن الابصار
واكثر التفاتهم الى صور الاشخاص فيظن ان ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا
متشكلا ولا متلونا متقدرا فلا يتصور حسنه واذا لم يتصور حسنه لم يكن في
ادراكه لذة فلم يكن محبوبا وهذا خطأ ظاهر فان الحسن ليس مقصورا على
مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة فانا نقول هذا
خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل نقول هذا ثوب حسن
وهذا كوز حسن فاي معنى لحسن الصوت والخط وساير الاشيا ان لم يكن الحسن
الا في الصور ومعلوم ان العين تستلذ بالنظر الى الخط الحسن والاذن تستلذ
بالاستماع للنغمات الحسنة الطيبة وما من شي من المدركات الا وهي منقسمة
الى حسن وقبيح فما معنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الاشيا فلا بد من البحث
عنه وهذا بحث يطول ولا يليق بعلم المعاملة الاطناب فيه فنصرح بالحق
ونقول كل شي فجماله وحسنه في ان يحضر كماله الممكن له اللايق به فاذا كانت
جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وان كان الحاضر بعضها فله من
الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من
هية وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كر وفر عليه والخط الحسن كل
ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن
انتظامها ولكل شي كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شي في كماله
الذي يليق به فلا يحسن الانسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما
يحسن به الصوت ولا يحسن الاواني بما يحسن به الثياب وكذلك ساير الاشيا
فان قيل فهذه الاشيا وان لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الاصوات

والطعوم

والطعوم فانها لا تنفك عن ادراك الحواس لها فهي محسوسات وليس ينكر الحسن
والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بادراك حسنها وانما ينكر ذلك في غير المدرك
بالحواس فاعلم ان الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات اذ يقال هذا خلق
حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه اخلاق جميلة وانما الاخلاق
الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروة
وساير خلال الخير وشي من هذه الصفات لا تدرك بالحواس الخمس بل تدرك بنور
البصيرة الباطنة وكل هذه الخصال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع
عند من عرف صفاته وآية ان الامر كذلك ان الطباع مجبولة على حب الانبيا
صلوات الله وسلامه عليهم وعلى حب الصحابة رضي الله عنهم مع انهم لم يشاهدوهم
بل على حب ارباب المذاهب مثل الشافعي وابي حنيفة ومالك وغيرهم حتى
ان الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على عشق
جميع احواله في نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه في قتال من يطعن
في امامه ومتبوعه فكم من دم اريق في نصرة ارباب المذاهب فليت
شعري من يحب الشافعي مثلا فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ولو
شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسانه الذي حمله على افراط الحب
هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة فان صورته الظاهرة قد انقلبت
ترابا مع التراب وانما يحبه لصفاته ولمعانيه الباطنة من الدين والتقوى
وغزارة العلم والاحاطة بمدارك الدين وانتهاضه لافاضة علم الشرع ونشره
هذه الخيرات في العالم وهذه امور جميلة لا يدرك جمالها الا بنور البصيرة اما
الحواس فقاصرة عنها وكذلك من يحب ابا بكر الصديق رضي الله عنه ويفضله على
غيره او يحب عليا رضي الله عنه ويفضله ويتعصب له فلا يحبهم الا لاستحسان صورهم
الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره فمعلوم ان من يحب
الصديق مثلا ليس يحب لحمه وعظمه وجلده واطرافه وشكله اذ كل ذلك
قد زال وتبدل وانعدم ولكن بقي ما كان الصديق به صديقا وهي الصفات المحمودة
التي هي مصادر السير الجميلة فكان الحب باقيا ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع
الصور وتلك الصفات ترجع جملتها الى العلم والقدرة اذ علم حقايق الامور
وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته فجميع خلال الخير تتشعب عن هذين
الوصفين وهما غير مدركين بالحس ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزى
فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزى صورة وشكل ولون

يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لاجله فاذن الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة
من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحبوب مصدر السيرة الجميلة وهي
الاخلاق الحميدة والفضايل الشريفة ويرجع جملتها الى كمال العلم والقدرة
وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس حتى ان الصبي المخلي بطبعه اذا اردنا
ان نحبب اليه غايبا او حاضرا حيا او ميتا لم يكن لنا سبيل الا بالاطناب في وصفه
بالشجاعة والكرم والعلم وساير الخصال الحميدة فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه
ولم يقدر ان لا يحبه فهل غلب حب الصحابة وبغض ابي جهل وبغض ابليس
الا بالاطناب في وصف المحاسن والمقابح التي لا تدرك بالحواس بل لما وصف الناس
حاتما بالسخاوة ووصفوا خالدا بالشجاعة احبتهم القلوب حبا ضروريا وليس
ذلك عن نظر الى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم بل اذا حكي من
سيرة بعض الملوك في بعض اقطار الارض العدل والاحسان وافاضة الخير
غلب حبه على القلوب اذ سمع الناس من انتشار احسانه الى المحبين مع بعد المزار
وتنائي الديار فاذن ليس حب الانسان مقصورا على من احسن اليه بل
المحسن في نفسه محبوب وان كان لا ينتهي قط احسانه الى المحب لان كل جمال
وحسن فهو محبوب والصور ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما
وتدرك الصورة الظاهرة بالبصر الظاهر والصورة الباطنة بالبصيرة الباطنة
فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها فلا يحبها ولا يميل اليها
ومن كانت البصيرة الباطنة اغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه
للمعاني الباطنة اكثر من حبه للمعاني الظاهرة فشتان بين من يحب نقشا
مصورا على الحايط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الانبيا
لجمال صورته الباطنة

السبب الخامس المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب
اذ رب شخصين تتاكد المحبة بينهما لا بسبب جمال ولا حظ ولكن بمجرد تناسب
الارواح كما قال صلى الله عليه وسلم فما تعارف منها ائتلف وقد حققنا ذلك في
كتاب اداب الصحبة عند ذكر الحب لله تعالى فليطلب منه لانه ايضا من عجايب
الاسباب للحب فاذن ترجع اقسام الحب الى خمسة اسباب وهو حب الانسان
وجود نفسه وكماله وبقايه وحبه من احسن اليه فيما يرجع الى دوام
وجوده ويعين على بقايه ودفع المهلكات عنه وحبه من كان محسنا في
نفسه الى الناس وان لم يكن محسنا اليه وحبه لكل ما هو جميل في ذاته
سواء كانت من الصور الظاهرة او الباطنة وحبه لمن بينه وبينه

مناسبة

مناسبة خفية في الباطن فلو اجتمعت هذه الاسباب في شخص واحد تضاعف الحب
لا محالة كما لو كان للانسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير
محسن الى الخلق ومحسن الى الوالد كان محبوبا لا محالة غاية الحب ويكون قوة
الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها فان كانت هذه
الصفات في اقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة في اعلى الدرجات فلنبين
الآن ان هذه الاسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها الا في حق الله سبحانه وتعالى
فلا يستحق المحبة بالحقيقة الا الله عز وجل

بيان ان المستحق للمحبة هو الله تعالى وحده
وان من احب غير الله لا من حيث نسبته الى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة
الله تعالى وان حب الرسول محمودة لانه من حب الله وكذا حب العلما والاتقيا
لان محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب
وكل ذلك يرجع الى حب الاصل فلا يجاوزه الى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي
البصاير الا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه وايضاحه بان نرجع الى الاسباب
الخمسة التي ذكرناها فنبين ايضا انها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ولا يوجد
في غيره الا احادها وانها حقيقة في حق الله تعالى ووجودها في حق غيره وهم
وتخيل وهو مجاز محض لا حقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذي بصيرة
ضد ما تخيله ضعفا العقول من استحالة حب الله تعالى تحقيقا وبان ان التحقيق
يقتضي ان لا يحب احد غير الله تعالى فاما السبب الاول وهو حب الانسان
نفسه وبقاوه وكماله ودوام وجوده وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه
وقواطع كماله فهذه جبلة كل حي ولا يتصور ان ينفك عنها وهذا يقتضي
غاية المحبة لله تعالى فان من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا انه لا وجود
له من ذاته وانما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وبالله
والى الله فهو المخترع الموجد له وهو المبقي له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات
الكمال وخلق الاسباب الموصلة اليه وخلق الهداية الى استعمال الاسباب والا
فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محو محض وعدم صرف لولا
فضل الله تعالى عليه بالايجاد وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالابقا
وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته وبالجملة فليس في
الوجود شي له بنفسه قوام الا القيوم الحي الذي هو قايم بذاته وكل ما سواه
قايم به فان احب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره فبالضرورة

يحب المنعم او جوده والملايم له ان عرفه خالقا موجدا او مخترعا او مبقيا وقيوما
بنفسه ومعوقا لغيره فان كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه والمحبة
ثمرة المعرفة تنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ولذلك قال
الحسن البصري من عرف ربه احبه ومن عرف الدار بعد منها ومن عرف الدنيا
وكيف يتصور ان يحب الانسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه ومعلوم
ان المبتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الاشجار التي بها قوام
الظل وكل ما في الوجود بالاضافة الى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالاضافة الى
الشجر والنور بالاضافة الى الشمس فان الكل من آثار قدرته ووجود الظل تابع
لوجوده كما ان وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشخص بل هذا المثال صحيح
بالاضافة الى اوهام العوام ان تخيلوا ان النور اثر الشمس وفايض منها وموجود بها
وهو خطأ محض اذ انكشف لارباب القلوب انكشافا اظهر من مشاهدة الابصار
ان النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس
وبين الاجسام الكثيفة كما ان نور الشمس وحسنها وشكلها وصورتها
ايضا حاصل من قدرة الله تعالى ولكن الغرض من الامثلة التفهيم فلا يطلب
فيها الحقايق فاذن ان كان يحب الانسان نفسه ضروريا فيحب من به
قوامه اولا ودوامه ثانيا في اصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره
واعراضه ايضا ضروري ان عرف ذلك كذلك ومن خلى عن هذا الحب
فلانه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق
معرفته واقتصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم الشهادة
الذي يشارك البهايم في التنعم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت
الذي لا يطا ارضه الا من يقرب الى شبه من الملايكة فينظر فيه بقدر
قربه في الصفات من الملايكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه الى حضيض
عالم البهايم ۞ واما السبب الثاني وهو حبه من احسن اليه
فواساه بماله ولاطفه بكلامه وامده بمعونته وانتدب لنصرته
وقمع اعداءه وقام بدفع الاشرار عنه وانتهض وسيلة الى جميع
حظوظه واغراضه في نفسه واولاده واقاربه فانه محبوب لا محالة
عنده فهذا بعينه يقتضي ان لا يحب الا الله فانه لو عرف حق المعرفة
لعلم ان المحسن اليه هو الله تعالى فقط فاما انواع احسانه الى كل عبيده فلست

اعده اذ لا يحيط به حصر حاصر كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وقد
اشرنا الى طرف منه في كتاب الشكر ولكنا نقتصر الآن على بيان ان الاحسان من الناس
غير متصور الا بالمجاز وانما المحسن هو الله ولنفرض ذلك فيمن انعم عليك بجميع خزاينه
ومكنك منها لتتصرف كيف تشاء فانك تظن ان هذا الاحسان منه وهو غلط فانه انما
تم احسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال اليك
فمن الذي انعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق ارادته وداعيته ومن الذي
حببك اليه وصرف وجهه اليك والقى في نفسه ان صلاح دينه ودنياه في الاحسان
اليك ولولا كل ذلك لما اعطاك حبة من ماله ومهما سلط الله عليه الدواعي ووقر في نفسه
ان صلاح دينه ودنياه في ان يسلم اليك ماله كان مقهورا مضطرا في التسليم لا يستطيع
مخالفته فالمحسن هو الذي اضطره وسخره لك وسلط عليه الدواعي الباعثة
المرهقة الى الفعل واما يده فواسطة يصل بها احسان الله اليك وصاحب اليد
مضطر فيها اضطرار مجرى الماء في جريان الماء فيه فان اعتقدته محسنا او شكرته
من حيث هو بنفسه محسن لا من حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الامر
فانه لا يتصور الاحسان من الانسان الا الى نفسه اما الاحسان الى غيره فمحال
من المخلوقين لانه لا يبذل ماله الا لغرض له في البذل اما آجل وهو الثواب واما
عاجل وهو المنة والاستسخار او الثناء والاشتهار بالصيت والاشتهار بالسخاء
والكرم او جذب قلوب الخلق الى الطاعة والمحبة وكما ان الانسان لا يلقي ماله في البحر
اذ لا غرض له فيه فلا يلقيه في يد انسان الا لغرض له عنده وذلك الغرض هو مطلوبه
ومقصده واما انت فلست مقصودا عنده بل يدك آلة له في القبض حتى يحصل
غرضه من الذكر والثناء او الشكر او الثواب بسببه فيصل المال فقد استسخرك
في القبض للتوصل الى غرض نفسه فهو اذن محسن الى نفسه ومعتاض عما
بذله من ماله عوضا هو ارجح عنده من ماله ولولا رجحان ذلك الحظ عنده
لما نزل عن ماله لاجلك اصلا البتة فاذن هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين
احدهما انه مضطر بتسليط الله الدواعي عليه فلا قدرة له على المخالفة فهو
جار مجرى خازن الامير فانه لا يرى محسنا بتسليم خلعة الامير الى من خلع عليه
لانه من جهة الامير مضطر الى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته
ولو خلاه الامير ونفسه لما سلمه فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه
لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعي عليه والقى في نفسه ان حظه
دينا ودنيا في بذله فبذله لذلك والثاني انه معتاض عما بذله

حظا هو اوفى عنده واحب اليه مما بذله فكما لا يعد البايع محسنا لانه بذل بعوض
هو احب عنده مما بذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب او الحمد او الثناء او
غرضا آخر وليس من شرط العوض ان يكون عينا متمولا بل الحظوظ كلها اعواض
تستحقر الاموال والاعيان بالاضافة اليها فالاحسان في الجود والجود هو
بذل المال من غير عوض وحظ يرجع الى الباذل وذلك محال من غير الله تعالى فهو
الذي انعم على العالمين احسانا اليهم ولاجلهم لا لحظ وغرض يرجع اليه فانه يتعالى عن
الاغراض فلفظ الجود والاحسان في حق غيره كذب او مجاز ومعناه في حق غيره
محال ممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد
بالجود والاحسان والطول والامتنان فان كان في الطبع حب المحسن فينبغي ان
لا يحب العارف الا الله تعالى اذ الاحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة
وحده واما غيره فيستحق المحبة على الاحسان بشرط الجهل بمعنى الاحسان
وحقيقته ۞ واما السبب الثالث وهو حب المحسن في نفسه وان لم
يصل اليك احسانه وهذا ايضا موجود في الطباع فاذا بلغك خبر ملك عالم عابد
عادل رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من اقطار الارض
بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو ايضا
بعيد عنك فانك تجد في قلبك تفرقة بينهما اذ تجد في القلب ميلا الى الاول وهو الحب
ونفرة عن الثاني وهو البغض مع انك آيس من خير الاول وآمن من شر الثاني لانقطاع
طمعك عن التوصل الى بلادهما فهذا حب المحسن من حيث انه محسن فقط لا من حيث
انه محسن اليك وهذا ايضا يقتضي حب الله تعالى بل يقتضي انه لا يحب غيره اصلا
الا من حيث يتعلق منه بسبب فان الله هو المحسن الى الكافة المتفضل على جميع
اصناف الخلايق اولا بايجادهم وثانيا بتكميلهم بالاعضاء والاسباب التي هي من ضروراتهم
وثالثا بترفيههم وتنعيمهم بخلق الاسباب التي هي في مظان حاجاتهم وان لم تكن في
مظان الضرورة ورابعا بتجميلهم بالمزايا والزوايد التي هي في مظنة زينتهم وهي
خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم ومثال الضروري من الاعضاء الراس والقلب
والكبد ومثال المحتاج اليه العين واليد والرجل ومثال الزينة استقواس الحاجبين
وحمرة الشفتين وتلون العينين الى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة
ولا ضرورة ومثال الضرورة من النعم الخارجة عن بدن الانسان الماء والغذاء
ومثال الحاجة الدواء واللحم والفواكه ومثال المزايا والزوايد خضرة الاشجار
وحسن اشكال الانوار والازهار ولذايذ الفواكه والاطعمة التي لا ينخرم

بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الاقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات
بل لكل صنف من اصناف الخلق من ذروة العرش الى منتهى الثرى فاذن هو المحسن
وكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فانه خالق
الحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان وخالق اسباب الاحسان فالحب لهذه العلة
ايضا لغيره جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة الا الله تعالى ۞
واما السبب الرابع وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ ينال منه وراء ادراك
الجمال فقد بينا ان ذلك مجبول في الطباع وان الجمال ينقسم الى جمال الصور الظاهرة المدركة
بعين الراس والى جمال الصور الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة فالاول
يدركه الصبيان والبهايم والثاني يختص بدركه ارباب القلوب لا يشاركهم فيه من لا
يعلم الا ظاهرا من الحياة الدنيا فكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال فان كان
مدركا بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا في المشاهدة حب الانبياء والعلماء
وذوي المكارم السنية والاخلاق المرضية فان ذلك متصور مع تشوش صورة
الوجه وساير الاعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه
نعم يدرك الحس آثاره الصادرة منه الدالة عليه حتى اذا دل القلب عليه مال
القلب اليه فاحبه فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم او الصديق رضي الله عنه
او الشافعي رحمه الله فلا يحبهم الا لحسن ما ظهر له منهم وليس ذلك لحسن صورهم
ولكن لحسن افعالهم بل دل حسن افعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر
الافعال اذ الافعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن راى حسن تصنيف
المصنف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف
له من هذه الافعال صفاتهم الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث
الى العلم والقدرة ثم كلما كان المعلوم اشرف واتم جمالا وعظمة كان العلم اشرف
واجل وكذا المقدور كلما كان اعظم رتبة واجل منزلة كانت القدرة عليه
اجل رتبة واشرف قدرا واجل المعلومات هو الله تعالى فلا جرم احسن
العلوم واشرفها معرفة الله عز وجل وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه
على قدر تعلقه به فاذن جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعا
يرجع الى ثلاثة امور احدها علمهم بالله وملايكته وكتبه ورسله
وشرايع انبيايه والثاني قدرتهم على اصلاح انفسهم واصلاح
عباد الله تعالى بالارشاد والسياسة والثالث تنزههم من الرذايل والخبايث
والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة الى طريق الشر ومثل هذا

تحب العلماء والملوك الذين هم اهل العدل والكرم فانسب هذه الصفات الى صفات الله تعالى
اما العلم فاين علم الاولين والاخرين من علم الله عز وجل الذي يحيط بالكل احاطة خارجة
عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وقد خاطب
الخلق كلهم فقال وما اوتيتم من العلم الا قليلا بل لو اجتمع اهل الارض والسماء على
ان يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة او بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير
ذلك ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء والقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فبتعليمه
علموه كما قال الله تعالى خلق الانسان علمه البيان فان كان جمال العلم وشرفه امرا
محبوبا وكان هو في نفسه زينة وكمالا للموصوف به فلا ينبغي ان يحب بهذا
السبب الا الله تعالى فعلوم العلماء جهل بالاضافة الى علمه بل من عرف اعلم
اهل زمانه واجهل اهل زمانه استحال ان يحب بسبب العلم الاجهل ويترك
الاعلم وان كان الاجهل لا يخلو عن علم ما تتقاضاه معيشته والتفاوت بين
علم الله تعالى وبين علم الخلائق اكثر من التفاوت بين علم اعلم الخلق واجهلهم
لان الاعلم لا يفضل الاجهل الا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الامكان
ان ينالها الاجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله سبحانه على علوم الخلائق
كلها خارج عن النهاية لان معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية
واما صفة القدرة فهي ايضا كمال والعجز نقص فكل كمال وبهاء وعظمة
ومجد واستيلاء فانه محبوب وادراكه لذيذ حتى ان الانسان ليسمع الحكاية
شجاعة علي وخالد رضي الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلائهما
على الاقران فيصادف في قلبه اهتزازا وفرحا وارتياحا ضروريا بمجرد
السماع فضلا عن المشاهدة ويورث ذلك حبا ضروريا بمجرد السماع للمتصف به
فانه نوع كمال فانسب الان قدرة الخلق كلهم الى قدرة الله تعالى فاعظم الاشخاص
قوة واوسعهم ملكا واقواهم بطشا واقهرهم للشهوات واقمعهم لخبائث
النفس واجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ما منتهى
قدرته وانما غايته ان يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض اشخاص
الانس في بعض الامور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتا ولا حياة ولا نشورا
ولا نفعا ولا ضرا بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس واذنه
من الصمم وبدنه من المرض ولا يحتاج الى عد ما يعجز عنه في نفسه وغيره
مما هو على الجملة متعلق قدرته فضلا عما لا يتعلق به قدرته من ملكوت
السموات وافلاكها وكواكبها والارض وجبالها وبحارها ورياحها

وصواعقها ومعادنها ونباتاتها وحيواناتها وجميع اجزائها فلا قدرة له على
ذرة منها وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه
بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق اسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط
بعوضة على اعظم ملك واقوى شخص من الحيوانات لاهلكته فليس للعبد
قدرة الا بتمكين مولاه كما قال في اعظم ملوك الارض ذي القرنين عليه السلام
اذ قال انا مكنا له في الارض فلم يكن جميع ملكه وسلطنته الا بتمكين الله عز وجل
اياه في جزء من الارض والارض كلها مدرة بالاضافة الى اجسام العالم
وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الارض غبرة من تلك المدرة
ثم تلك الغبرة ايضا من فضل الله وتمكينه فيستحيل ان يحب عبدا من
عباد الله لقدرته وسياسته وتمكنه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب
الله تعالى لذلك ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فهو الجبار القاهر
والعليم القادر السموات مطويات بيمينه والارض وملكها في قبضته
وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته ان اهلكهم من عند اخرهم
لم ينقص سلطانه وملكه ذرة وان خلق امثالهم الف مرة فلم يعي بخلقه
فلا يمسه لغوب ولا فتور في اختراعه فلا قدرة ولا قادر الا وهو اثر من
اثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء فان
كان يتصور ان يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه
اصلا ⊙ واما صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقديس عن
الرذائل والخبائث فهو احد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال
في الصورة الباطنة والانبياء والصديقون وان كانوا منزهين عن العيوب
والخبائث فلا يتصور كمال التقديس والتنزيه الا لله الواحد الحق الملك
القدوس ذي الجلال والاكرام واما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص ونقائص
بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا عين العيب والنقص فالكمال لله وحده
وليس لغيره كمال الا بقدر ما اعطاه وليس في المقدور ان ينعم بمنتهى الكمال على
غيره فان منتهى الكمال اقل درجاته ان لا يكون عبدا مسخرا لغيره وقائما بغيره
وذلك محال في حق غيره فانه المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس
عن العيوب وشرح وجوه التقديس والتنزيه في حقه عن النقائص
يطول وهو من اسرار علوم المكاشفات فلا نطول به فهذا الوصف ايضا
ان كان كمالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقته الا له وكمال غيره وتنزهه

لا يكون مطلقا بل بالاضافة الى ما هو اشد نقصانا كما ان للفرس كمالا بالاضافة
الى الحمار وللانسان كمال بالاضافة الى الفرس واصل النقص شامل للكل
وانما يتفاوتون في درجات النقصان فاذن الجميل محبوب والجميل المطلق
هو الواحد الذي لا ند له الفرد الذي لا ضد له الصمد الذي لا منازع له الغني
الذي لا حاجة له القاهر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب
لقضائه العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والارض القاهر
الذي لا يخرج عن قبضة قدرته اعناق الجبابرة ولا ينفلت عن سطوته
وبطشه رقاب القياصرة الازلي الذي لا اول لوجوده الابدي الذي لا اخر
لبقائه الضروري الوجود الذي لا يحوم امكان العدم حول حضرته القيوم
الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به جبار الارض والسموات خالق الجماد
والحيوان والنبات المنفرد بالعزة والجبروت المتوحد بالملك والملكوت
ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الذي تتحير في معرفة
جلاله العقول وتخرس في وصفه الالسنة الذي كمال معرفة العارفين
بالاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الانبياء الاقرار بالقصور عن وصفه
كما قال سيد الانبياء صلى الله عليه وسلم لا احصي ثناء عليك انت كما اثنيت
على نفسك وقال سيد الصديقين العجز عن درك الادراك ادراك وقال
سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته فليت شعري
من ينكر امكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله مجازا اينكر ان هذه الاوصاف
من اوصاف الجمال والجلال والكمال والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من ادركه
فسبحان من احتجب عن ابصار العميان غيرة على جماله وجلاله ان يطلع عليه
الا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك
الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم
يترددون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الاخرة هم غافلون
والحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون والحب بهذا السبب اقوى من الحب بالاحسان
لان الاحسان يزيد وينقص ولذلك اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام
ان اود الاوداء الي من عبدني بغير نوال لكن ليعطي الربوبية حقها وفي الزبور
ومن اظلم ممن عبدني لجنة او نار لو لم اخلق جنة ولا نارا الم اكن اهلا
ان اطاع ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا وقالوا
نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم ومر بقوم

اخرين اشد نحولا منهم على وجوههم مثل المرايا من النور فقال ما بلغ منكم ما ارى
فقالوا نعبده حبا له وتعظيما لجلاله فقال انتم اولياء الله حقا معكم امرت
ان اقيم وقال ابو حازم اني لاستحيي ان اعبده للعقاب والثواب فاكون كالعبد
السوء ان لم يخف لم يعمل وكالاجير السوء ان لم يعط لم يعمل وفي الخبر لا
يكونن احدكم كالاجير السوء ان لم يعط لم يعمل ولا كالعبد السوء ان لم يخف
لم يعمل ⊙ واما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة
اذ شبيه الشيء منجذب اليه والشكل الى الشكل اميل ولذلك ترى الصبي يألف الصبي
والكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه وينفر من خلاف نوعه وانس العالم بالعالم
اكثر منه بالمحترف وانس النجار بالنجار اكثر من انسه بالفلاح وهذا امر تشهد به التجربة
وتشهد له الاخبار والاثار كما استقصيناه في باب الاخوة في الله من كتاب اداب
الصحبة فليطلب منه واذا كانت المناسبة سبب التحابب فالمناسبة قد
تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي للصبي في معنى الصبا وقد يكون خفيا حتى
لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة
جمال وطمع في مال او غيره كما اشار عليه السلام اذ قال الارواح جنود مجندة
فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف والتعارف هو التناسب
والتناكر هو التباين وهذا السبب ايضا يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة
يجوز ان يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز ان يسطر بل يترك تحت غطاء الغيرة
حتى يعثر عليها السالكون في الطريق اذا استكملوا شرط السلوك فالذي يذكر هو
قرب العبد من ربه في الصفات التي امر فيها بالاقتداء والتخلق باخلاق الربوبية
حتى قيل تخلقوا باخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الالهية
من العلم والبر والاحسان واللطف وافاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة
لهم وارشادهم الى الحق ومنعهم من الباطل الى غير ذلك من مكارم الشريعة وكل
ذلك يقرب الى الله سبحانه لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات واما ما لا يجوز ان
يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الادمي فهي التي يومي
اليها قوله تعالى ويسالونك عن الروح قل الروح من امر ربي اذ بين انه امر رباني
خارج عن حد عقول الخلق ويشير اليه قوله تعالى اني جاعل في الارض خليفة
اذ لم يستحق ادم خلافة الله تعالى الا بتلك المناسبة واليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم
ان الله تعالى خلق ادم على صورته حتى ظن القاصرون ان لا صورة الا الصورة الظاهرة
المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون

علوا كبيرا واليه الاشارة بقوله تعالى لبعض الانبيآ وهو موسى عليه السلام مرضت فلم تعدني فقال وكيف ذلك فقال مرض فلان ولو عدته لعدتني وهذه المناسبة لا تظهر الا بالمواظبة على النوافل بعد احكام الفرايض كما قال الله تعالى ولا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزب الناس فيه الى قاصرين مالوا الى التشبيه الظاهر والى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة الى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم انا الحق وضل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو الاله وقال اخرون تدرع الناسوت باللاهوت وقال اخرون اتحد به واما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الحلول والاتحاد واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الاقلون ولعل ابا الحسن النوري عن هذا المقام كان ينظر اذ غلبه الوجد في قول القايل ◦ لازلت انزل من ودادك منزلا تتحير الالباب عند نزوله فلم يزل يعدو في وجده على اجمة قد قطعت روسها حتى تقطعت قدماه وتورمت ومات فيه وهذا هو اعظم اسباب الحب واقواها وهو اعزها وابعدها واقلها وجودا فهذا هو المعلوم من اسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وفي اعلى الدرجات لا في ادناها فكان المعقول المقبول عند ذوي البصاير حب الله تعالى فقط كما ان المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الاسباب يتصور ان يحب غيره لمشاركته اياه في السبب والشركة نقصان في الحب وتنقص من كماله ولا ينفرد احد بوصف محبوب الا وقد يوجد له شريك فيه فان لم يوجد فيمكن ان يوجد الا الله تعالى فانه موصوف بهذه الاوصاف التي هي نهاية الجمال والجلال والكمال ولا شريك له في ذلك وجودا ولا يتصور ان يكون ذلك امكانا فلا جرم لا يكون في حبه شركة فلا يتطرق النقصان الى حبه كما لا يتطرق الشركة الى صفاته فهو المستحق اذن لاصل المحبة ولكمال المحبة استحقاقا لا يشاهم فيه احد اصلا ❊ بيان ان اجل اللذات واعلاها معرفة الله والنظر الى وجهه الكريم وانه لا يتصور ان يوثر عليها لذة احد الا من اعلم ان اللذات تابعة للادراكات والانسان جامع لجملة من القوى والغرايز ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها في نيلها لمقتضى طبعها الذي خلقت له فان هذه الغرايز ما ركبت في الانسان عبثا بل ركبت

كل قوة وغريزة لامر من الامور هو مقتضاها بالطبع فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبعها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذا الذي به القوام فلا جرم لذتها في نيل الغذا الذي هو مقتضى طبعها وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الابصار والاستماع وشم الروايح فلا تخلو غريزة من هذه الغرايز عن الم ولذة بالاضافة الى مدركاتها فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الالهي لقوله تعالى افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ولا معنى للاشتغال بالاسامي فان الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن ان الاختلاف واقع في المعاني لان الضعيف يطلب المعاني من الالفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لساير اجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة كادراكه خلق العالم وافتقاره الى خالق قدير مدبر حكيم موصوف بصفات الالهية ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط ان لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية والا فالصفة التي فارق الانسان بها البهايم وبها يدرك معرفة الله تعالى اعني الصفات فلا ينبغي ان تذم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقايق الامور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم والبراك وهي لذتها كما ان مقتضى طبع ساير الغرايز هي لذتها وليس يخفى ان في العلم والمعرفة لذة حتى ان الذي ينتسب الى العلم ولو في شي خسيس يفرح به والذي ينسب الى الجهل ولو في شي حقير يغتم به وحتى ان الانسان لا يكاد يصبر عن التحدي بالعلم والتمدح به في الاشيا الحقيرة فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت عن التعليم وينطق لسانه بذكر ما يعلمه وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعر من كمال ذاته به فان العلم من اخص صفات الربوبية وهو منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع اذا اثني عليه بالذكاء وغزارة العلم لانه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به ثم ليس لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير امر الخلق ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملايكته وملكوت السموات والارض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم حتى ان الذي يعرف بواطن احوال الناس

ويخبر به تجد له لذة وان جهله يتقاضاه طبعه ان يتفحص عنه فان علم بواطن احوال امير البلد واسرار تدبيره في رياسته كان ذلك الذ عنده واطيب من علم باطن حال فلاح او حايك فان اطلع على اسرار الوزير وتدبيره وما هو عازم عليه في امر الوزارة فهو اشهى عنده والذ من علمه باسرار الرييس فان كان خبيرا ببواطن احوال الملك والسلطان الذي هو المستولي على الوزير كان ذلك اطيب عنده والذ من علمه ببواطن امور الوزير وكان تمدحه بذلك وحرصه على البحث عنه اشد وحبه له اكثر لان لذته فيه اعظم فبهذا استبان ان الذ المعارف اشرفها وشرفها بحسب شرف المعلوم فان كان في المعلومات ما هو الاجل والاكمل والاشرف والاعظم فالعلم به الذ العلوم لا محالة واشرفها واطيبها وليت شعري هل في الوجود شي اجل واعلى واشرف واكمل واعظم من خالق الاشياء كلها ومكملها ومزينها ومبديها ومعيدها ومدبرها ومرتبها وهل يتصور ان يكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال اعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادي جلالها وعجايب احوالها وصف الواصفين فان كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي ان تشك في ان الاطلاع على اسرار الربوبية والعلم بترتيب الامور الالهية المحيطة بكل الموجودات هو اعلى انواع المعارف والاطلاعات والذها واطيبها واشهاها واحرى ما تستشعر النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها واجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وبهذا تبين ان العلم لذيذ وان الذ العلوم العلم بالله تعالى وصفاته وافعاله وتدبيره في مملكته من منتهى عرشه الى تخوم الارضين فينبغي ان تعلم ان لذة المعرفة اقوى من ساير اللذات اعني لذة الشهوة والغضب ولذة ساير الحواس الخمسة فان اللذات مختلفة بالنوع اولا كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ولذة المعرفة للذة الرياسة وهي مختلفة بالضعف والقوة كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع بالاضافة الى لذة الفاتر الشهوة وكمخالفة لذة النظر الى الوجه الجميل الفايق الجمال بالاضافة الى ما دونه في الجمال وانما يعرف اقوى اللذات بان تكون موثرة على غيرها فان المخير بين النظر الى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روايح طيبة اذا اختار النظر الى الملاح علم به ان الصورة الجميلة عنده الذ من الروايح الطيبة وكذلك اذا حضر الطعام وقت الاكل واستمر اللاعب بالشطرنج على

على اللعب وترك الاكل فيعلم به ان لذة الغلبة في الشطرنج اقوى عنده من لذة الاكل فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول اللذات تنقسم الى ظاهرة كلذات الحواس الخمسة والى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيره اذ ليست هذه اللذة للعين ولا للانف ولا للاذن ولا للمس ولا للذوق ولا للمس والمعاني الباطنة اغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذة الهريسة والدجاج السمان واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الاعداء ونيل درجة الاستيلاء فان كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد البهيمية اختار الهريسة والحلاوة وان كان عالي الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر على ضرورة القوت ايا ما كثيرة فاختياره للرياسة يدل على انها الذ عنده من الهريسة والمطعومات الطيبة نعم الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي او كالذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد ان يوثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما ان لذة الرياسة والكرامة اغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبى والعته فلذة معرفة الله سبحانه ومطالعة جمال الحضرة الربوبية والنظر الى اسرار الامور الالهية الذ من الرياسة التي هي اعلى اللذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه ان يقال فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين الاية وانه اعد لهم ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا لا يعرفه الا من ذاق اللذتين جميعا فانه لا محالة يوثر التبتل والتفكر والذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين رأسهم لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته وكونه مشوبا بالكدورات التي لا يتصور الخلو عنها وكونه مقطوعا بالموت الذي لا بد من اتيانه مهما اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتيها امرنا الاية فيستعظم بالاضافة اليها لذة معرفة الله تعالى ومطالعة صفاته وافعاله ونظام مملكته من اعلى العليين الى اسفل السافلين فانها خالية عن المزاحمات والمكدرات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم لكثرتهم وانما عرضها من حيث التقدير السموات والارض واذا خرج النظر عن المقدورات فلا نهاية لعرضها فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والارض يرتع في رياضها ويقتطف من ثمارها ويكرع من حياضها

وهو آمن من انقطاعها اذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ثم هي ابدية سرمدية لا يقطعها الموت اذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى اذ محلها الروح الذي هو امر رباني سماوي وانما الموت يغير احوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فاما ان يعدمها فلا ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم الآية ولا تظنن ان هذا مخصوص بالمقتول في المعركة فان للعارف بكل نفس درجة الف شهيد وفي الخبر ان الشهيد يتمنى في الآخرة ان يرد الى الدنيا ليقتل مرة اخرى لعظيم ما يراه من ثواب الشهادة وان الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء فاذن جميع اقطار ملكوت السموات والارض ميدان العارف يتبوأ منها حيث يشاء من غير حاجة الى ان يتحرك اليها بجسمه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والارض وكل عارف فله مثلها من غير ان يضيق بعضهم على بعض اصلا الا انهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم وقد ظهر ان لذة الرياسة وهي باطنة اقوى في ذوي الكمال من لذات الحواس كلها وان هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبي ولا لمعتوه وان لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوي الكمال مع لذة الرياسة لكن يؤثرون الرياسة فاما كون معرفة الله وصفاته وافعاله وملكوت سماواته واسرار ملكه اعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ولا يمكن اثبات ذلك عند من لا قلب له لان القلب معدن هذه القوة كما انه لا يمكن اثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين لانه فقد الصفة التي تدرك هذه اللذات ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه ادرك التفاوت بين اللذتين وعند هذا لا يبقى الا ان يقال من ذاق عرف ولعمري طلاب العلوم وان لم يشتغلوا بطلب معرفة الامور الالهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوي حرصهم على طلبها فانها ايضا معارف وعلوم وان كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الالهية فاما من طال فكره في معرفة الله

سبحانه

في قلبه

سبحانه وقد انكشف له من اسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فانه يصادف عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا مما لا يدرك الا بالذوق والحكاية فيه قليلة الجدوى فهذا القدر ينبهك على ان معرفة الله سبحانه الذ الاشياء وانه لا لذة فوقها ولهذا قال ابو سليمان الداراني ان لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ولذلك قال بعض اخوان معروف الكرخي يا ابا محفوظ اي شيء هاجك الى العبادة والانقطاع عن الخلق فسكت ثم قال ذكر الموت فقال واي شيء الموت فقال ذكر القبر والبرزخ فقال واي شيء القبر فقال خوف النار ورجاء الجنة فقال واي شيء هذا ان ملكا بيده هذا كله ان احببته انساك جميع ذلك وان كان بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا وفي اخبار عيسى عليه السلام اذا رايت الفتى مشغوفا في طلب الرب تعالى فقد الهاه ذلك عما سواه وراى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال ما فعل ابو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق فقال تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى ياكلان ويشربان قلت فانت قال علم الله قلة رغبتي في الاكل والشرب فاعطاني النظر اليه وعن علي بن موفق انه قال رايت في النوم كاني ادخلت الجنة فرايت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو ياكل ورايت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا قال ثم جاوزتهما الى حظيرة القدس فرايت في سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر الى الله تعالى لا يطرف فقلت لرضوان من هذا فقال هذا معروف الكرخي عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا الى جنته بل حبا له فاباحه الله النظر اليه الى يوم القيامة وذكر ان الآخرين بشر بن الحارث واحمد بن حنبل ولذلك قال ابو سليمان من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه وقال الثوري لرابعة ما حقيقة ايمانك قالت ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فاكون كالاجير السوء بل عبدته حبا له وشوقا اليه وقالت نظما في معنى المحبة

أحبك حبين حب الهوى … وحبا لانك اهل لذاكا

فاما الذي هو حب الهوى … فشغلي بذكرك عمن سواكا

واما الذي انت اهل له … فكشفك للحجب حتى اراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي … ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

فلعلها ارادت بحب الهوى حب الله تعالى لاحسانه اليها وانعامه عليها بحظوظ العاجلة

وحبها لما هو له اهل الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها وهو اعلى الحبين واقواهما ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حكاية عن رب العزة تبارك وتعالى انه قال اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقد تتعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه الى الغاية ولذلك قال بعضهم اني اقول يا رب يا الله فاجد ذلك اثقل على قلبي من الجبال لان النداء يكون من وراء حجاب وهل رايت جليسا ينادي جليسه وقال اذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة اي يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون ما يقوله جنونا او كفرا فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط فهي قرة العين التي لا تعلم نفس ما اخفي لها منها واذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو القي في النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت اليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية وليت شعري من لا يفهم الا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر الى وجه الله تعالى وما له صورة وشكل واي معنى لوعد الله تعالى عباده به وذكره انه اعظم النعم بل من عرف الله عرف ان اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قال بعضهم

كانت لقلبي اهواء مفرقة … فاستجمعت اذ راتك العين اهوائي

فصار يحسدني من كنت احسده … وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

تركت للناس دنياهم ودينهم … شغلا بذكرك يا ديني ودنيائي

ولبعضهم

وهجره اعظم من ناره … ووصله اطيب من جنته

وما ارادوا بهذا الا ايثار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الاكل والشرب والنكاح فان الجنة معدن تمتع الحواس فاما القلب فلذته في لقاء الله فقط ومثال اطوار الخلق في لذاتهم ما نذكره وهو ان الصبي في اول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده الذ من سائر الاشياء ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول اليها ثم يظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر وهو اخر لذات الدنيا واغلبها واقواها كما قال تعالى اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم الآية ثم بعد هذا يظهر غريزة

اخرى

اخرى تدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة افعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها فكل متاخر فهو اقوى وهذا هو الاخير اذ يظهر حب اللعب في سن التمييز وحب النساء والزينة في سن البلوغ وحب الرياسة بعد العشرين وحب العلوم بقرب الاربعين وهي الغاية العليا وكما ان الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلبهن وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى والعارفون يقولون ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون

بيان السبب في زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا

اعلم ان المدركات تنقسم الى ما يدخل في الخيال كالصور المتخيلة والاجسام المتلونة المتشكلة من اشخاص الحيوان والنبات والى ما لا يدخل في الخيال كذات الله تعالى وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ومن راى انسانا ثم غض بصره وجد صورته حاضرة في خياله كانه ينظر اليها ولكن اذا فتح العين وابصر ادرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة الى اختلاف بين الصورتين لان الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة وانما الافتراق في مزيد الوضوح والكشف فان صورة المرئي صارت بالرؤية اتم انكشافا ووضوحا وهو كشخص يرى في وقت الاسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم يرى بعد تمام الضوء فانه لا يفارق احدى الحالتين الاخرى الا في مزيد الانكشاف فاذن الخيال اول الادراك والرؤية هو استكمال لادراك الخيال وهو غاية الكشف لا لانه في العين بل لو خلق هذا الادراك الكامل المكشوف في الجبهة او الصدر مثلا استحق ان يسمى رؤية واذا فهمت هذا في المتخيلات فاعلم ان المعلومات التي لا تتشكل في الخيال ايضا لمعرفتها وادراكها درجتان احداهما اولى والثانية استكمال لها وبين الثانية والاولى من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئي فيسمى الاول مشاهدة ولقاء ورؤية وهذه التسمية حق لان الرؤية سميت رؤية لانها غاية الكشف وكما ان سنة الله تعالى جارية بان تطبيق الاجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية فيكون حجابا بين البصر والمرئي ولا بد من ارتفاع الحجاب لحصول الرؤية وما لم يرتفع كان الادراك الحاصل مجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى ان النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية فانها لا تنتهي الى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الاجفان عن رؤية الابصار

الثاني ايضا بالاضافة الى الاول

و الغول في سبب كونه حجابا بطول ولايليق بهذا العلم ولذلك قال الله تعالى لموسى عليه السلام
لن تراني وقال تعالى لا تدركه الابصار اي في الدنيا و الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه و سلم ما
راي الله ليلة المعراج فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات
الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وان كانت متفاوتة فمنها ما تراكم عليها الخبث
و الصدي فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا يقبل الاصلاح
و التصقيل وهولاء هم المحجوبون عن ربهم ابد الآباد نعوذ بالله سبحانه
من ذلك ومنها ما لم ينته الى حد الرين و الطبع ولم يخرج عن قبول التزكية و التصقيل
فيعرض على النار عرضا يقمع منه الخبث الذي هو متدنس به فيكون بالعرض على
النار بقدر الحاجة الى التزكية و اقلها لحظة خفيفة و اقصاها في حق المومنين
كما ورد به الاخبار سبعة الاف سنة ولن ترتحل نفس عن هذا العالم الا
و يصحبها غبرة و كدورة ما فان قلت وكذلك قال تعالى وان منكم
الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا
فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدر عنها فاذا اكمل الله
تطهيرها و تزكيتها وبلغ الكتاب اجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع
من العرض و الحساب وغيره و وافى استحقاق الجنة وذلك وقت مبهم لم يطلع
عليه احد من خلقه فانه واقع بعد القيمة و وقت القيمة مجهول فعند ذلك يشتغل
بصفائه ونقائه عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه كدر ولا غبرة ولا قترة
لان يتجلى فيه الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالاضافة
الى ما علم كانكشاف تجلي المرئيات بالاضافة الى ما تخيله وهذه المشاهدة والتجلي
هي التي تسمى روية فاذن الروية حق بشرط ان لا يفهم من الروية استكمال الخيال
في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان فان ذلك مما يتعالى عنه رب الارباب
علوا كبيرا كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقة ثابتة من غير تخيل وتصور وتقدير
شكل وصورة فتراه في الاخرة كذلك بل اقول المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها
هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف و الوضوح وتنقلب مشاهدة ولا يكون بين
المشاهدة في الاخرة و العلوم في الدنيا اختلاف الا من حيث زيادة الكشف
و الوضوح كما ضربنا المثال في استكمال الخيال بالروية فاذا لم يكن في معرفة
الله تعالى اثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها
في الوضوح الى غاية الكشف ايضا جهة وصورة لانها هي بعينها لا الا في
زيادة الكشف كما ان الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها الا في زيادة

الكشف واليه الاشارة بقوله تعالى يسعى نورهم بين ايديهم و بايمانهم يقولون
ربنا اتمم لنا نورنا اذ تمام النور لا يوثر الا في زيادة الكشف و لهذا لا يفوز بدرجة
النظر الا العارفون في الدنيا لان المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الاخرة مشاهدة
كما ينقلب النوى شجرا او نخلا و البذر زرعا ومن لا نواة له فكيف يحصل له نخل
او شجر ومن لم يبذر زرع فكيف يحصد الزرع فمن لم يعرف الله في الدنيا فكيف
يراه ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي ايضا على درجات
متفاوتة فاختلاف التجلي بالاضافة الى اختلاف المعارف كاختلاف النبات
بالاضافة الى اختلاف البذر اذ تختلف لا محالة بكثرتها و قلتها و حسنها وقوتها
و ضعفها فلذلك قال النبي صلى الله عليه و سلم ان الله يتجلى للناس عامة و لابي بكر خاصة
فلا ينبغي ان تظن ان غير ابي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر و المشاهدة
ما يجده ابو بكر بل لا يجد عشر عشيره ان كانت معرفته في الدنيا عشر عشيره
و لما فضل الناس بشي وقر في صدره فضل لا محالة بتجلي انفرد به وكما انك ترى في
الدنيا من يوثر لذة الرياسة على المنكوح و المطعوم و ~~المشروب~~ جميعا فترى من
يوثر لذة العلم و انكشاف مشكلات ملكوت السموات و الارض و سائر الامور
الالهية على الرياسة و على المنكوح و المشروب جميعا فكذلك يكون في الاخرة
قوم يوثرون لذة النظر الى وجه الله تعالى على نعيم الجنة اذ يرجع نعيمها الى
المنكوح و المطعوم وهولاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا
من ايثار لذة العلم و المعرفة و الاطلاع على اسرار الربوبية على لذة المنكوح
و المشروب و سائر ما الخلق مشغولون به و لذلك لما قيل لرابعة ما تقولين في
الجنة قالت الجار ثم الدار فبينت انه ليس في قلبها التفات الى الجنة بل الى رب الجنة
و كل من يعرف الله في الدنيا لا يراه في الاخرة وكل من لم يجد لذة معرفته في الدنيا
فلا يجد لذة النظر في الاخرة اذ ليس احد في الاخرة ما لم يصحبه في الدنيا فلا
يحصد احد الا ما زرع و لا يحشر المرء الا على ما مات عليه و لا يموت الا على ما
عاش عليه فما صحبه من المعرفة هي التي يتنعم بها بعينها فقط الا انها تنقلب
مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق
اذا استبدل بخيال صورة المعشوق روية صورته فان ذلك هو منتهى لذته و انما
طيبة الجنة ان لكل احد منها ما يشتهي فمن لا يشتهي الا لقاء الله تعالى فلا لذة له
في غيره بل ربما يتاذى به فاذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى و حب الله بقدر معرفته
و اصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالايمان فان قلت

نلذة الروية ان كانت لها نسبة الى لذة المعرفة فهي قليلة وان كانت اضعافها
لان لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة و تضاعفها الى حد محدود لا ينتهي في القوة
الى ان يستحقر سائر لذات الجنة فيها فاعلم ان هذا الاستحقار للذة
المعرفة صدره الخلو عن المعرفة فمن خلى عن المعرفة كيف يدرك لذتها فالعارف
في معرفتهم وفكرهم و مناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا
بدلا عنها لم يستبدلوا بها ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها اصلا الى نسبة
اللقاء و المشاهدة كما لا نسبة للذة خيال المعشوق الى رويته ولا للذة استنشاق
روايح الاطعمة الشهية الى ذوقها ولا للذة اللمس باليد الى لذة الوقاع و اظهار
عظيم التفاوت بينهما لا يمكن الا بضرب مثال فنقول لذة النظر الى وجه المعشوق
في الدنيا يتفاوت باسباب احدها كمال جمال المعشوق و نقصانه فان
اللذة في النظر الى الاجمل اكمل لا محالة و الثاني كمال قوة الحب و الشهوة
و العشق فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه
و الثالث كمال الادراك فليس التذاذه بروية المعشوق في ظلمة او من
وراء ستر وعند كمال الضوء و لا ادراك لذة المضاجعة مع ثوب حايل كادراكها
مع التجرد و الرابع اندفاع العوايق المشوشة و الالام الشاغلة للقلب
فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر الى المعشوق كالتذاذ الخايف
المذعور او المريض المتالم او المشغول قلبه عنه بمهم من المهمات و قدر
عاشقا ضعيف العشق ينظر الى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق
على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتمع عليه عقارب وحيات
و زنابير توذيه و تلدغه وتشغل قلبه فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما
من مشاهدة معشوقه فلو طرئت على الفجاة حالة انهتك به الستر و اشرق
به الضوء و اندفع عنه الموذيات و بقي سليما فارغا و هجمت عليه الشهوة
القوية و العشق المفرط حتى بلغ اقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف اللذة
حتى لا يبقي للاول اليه نسبة يعتد به و كذلك فافهم نسبة لذة النظر الى لذة
المعرفة فالستر الرقيق مثال للبدن و الاشتغال به و العقارب و الزنابير
مثال للشهوات المتسلطة على الانسان من الجوع و العطش و الغضب و الغم
و الحزن وضعف الشهوة و الحب مثال لقصور النفس في الدنيا و نقصانها
عن الشوق الى الملاء الاعلى و التفاتها الى اسفل السافلين و هو مثل قصور
الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة و التفاته الى اللعب بالعصفور فالعارف

وان قوبت في الدنيا معرفته فلا يخلوا عن هذه المشوشات ولا يتصور ان يخلوا
عنها البتة بعم قد تضعف هذه العوايق في بعض الاحوال ولا تدوم فلا جرم
يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل ويعظم لذته بحيث يكاد القلب
ينفطر لعظمته و لكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقل ما يدوم بل يعرض من الشواغل
و الافكار و الخواطر ما يشوشه و ينغصه وهذه ضرورة قايمة في هذه الحيوة
الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة الى الموت و انما الحيوة الطيبة بعد الموت
و انما العيش عيش الاخرة و ان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون
وكل من انتهى الى هذه الرتبة فانه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت ولا يكرهه
الا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فان المعرفة كالبذر و بحر المعرفة
لا ساحل له و الاحاطة بكنه جلال الله محال و كلما كثرت المعرفة بالله تعالى
و بصفاته و افعاله و باسرار مملكته و قويت كثر النعيم في الاخرة و عظم
كما انه كلما كثر البذر و حسن كثر الزرع و حسن فلا يمكن تحصيل هذا البذر الا
في الدنيا و لا زرع الا في صعيد القلب و لا حصاد الا في الآخرة ولهذا قال رسول الله
صلى الله عليه و سلم افضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى لان المعرفة
انما تكمل و تكثر و تتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر و المواظبة على المجاهدة
و الانقطاع عن علايق الدنيا و التجرد للطلب و يستدعي ذلك زمانا لا محالة
فمن احب الموت احبه لانه راي نفسه واقفا في المعرفة بالغا الى منتهى ما
تيسر له ومن كرهه الموت كرهه لانه كان يومل مزيد معرفة تحصل له بطول
حيوته و راى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لو عمر فهذا سبب كراهية الموت
وحبه عند اهل المعرفة و اما ساير الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا
ان اتسعت احبوا البقاء و ان ضاقت تمنوا الموت وكل ذلك حرمان و خسران
مصدره الجهل و الغفلة فالجهل و الغفلة مغرس كل شقاوة و العلم
و المعرفة اساس كل سعادة و قد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة و معنى العشق
فانه المحبة المعرفة القوية و معنى لذة المعرفة و معنى لذة الروية و معنى
كونها الذ من ساير اللذات عند ذوي الكمال و ان لم تكن كذلك عند ذوي النقصان
كما لم تكن الرياسة الذ من المطعومات عند الصبيان فان قلت فهذه
الروية محلها القلب او العين في الاخرة فاعلم ان الناس اختلفوا فيه
و ارباب البصاير لا يلتفتون الى ذلك و لا ينظرون فيه بل العاقل ياكل
البقل و لا يسال عن المبقلة و من يشتهي روية معشوقه يشغله عشقه

عن ان يلتفت الى ان رويته الى ان رويته هل تخلق في عينه او في جبهته بل بعصد الروية و لذتها سوا كان ذلك بالعين او غيرها فان العين محل وطريق لا نظر اليه و لا حكم له والحق فيه ان القدرة الازلية واسعة فلا نحكم عليها بالقصور عن احد الامرين هذا في حكم الجواز فاما الواقع في الآخرة فلا يدرك الا بالسمع والحق ما ظهر لاهل السنة والجماعة من شواهد الشرع ان ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الروية والنظر وساير الالفاظ الواردة في الشرع تجري على ظاهرها اذ لا يجوز ازالة الظواهر الا بضرورة والله اعلم

بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى

اعلم ان اسعد الخلق حالا في الاخرة اقواهم حبا لله تعالى فان الآخرة معناها القدوم على الله وسعادة لقايه وما اعظم نعيم المحب اذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته ابد الاباد من غير تنغيص وتكدير ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع الا ان هذا النعيم على قدر قوة الحب فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة وانما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا واصل الحب لا ينفك عنه مومن لانه لا ينفك عن اصل المعرفة واما قوة الحب واستيلاوه حتى ينتهي الى الاستهتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الاكثرون وانما يحصل ذلك بسببين احدهما قطع الدنيا واخراج حب غير الله من القلب فان القلب مثل الاناء الذي لا يتسع للخل مثلا ما لم يخرج منه الما وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وكمال الحب في ان يحب الله بكل قلبه وما دام يلتفت الى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله تعالى وبقدر ما يبقى من الما في الاناء ينقص من الخل المصبوب فيه والى هذا التفريد والتجريد الاشارة بقوله تعالى قل الله ثم ذرهم وبقوله تعالى الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا بل هو معنى قولك لا اله الا الله اي لا معبود و لا محبوب سواه وكل محبوب فهو معبود فان العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به وكل محب فهو مقيد بما يحبه ولذلك قال تعالى ارايت من اتخذ الهه هواه وقال صلى الله عليه وسلم ابغض اله عبد في الارض الهوى وقال صلى الله عليه وسلم من قال لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة ومعنى الاخلاص ان يخلص قلبه لله تعالى فلا يبقى فيه شركة لغير الله فيكون الله تعالى محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ومن هذا حاله في الدنيا سجنه لانها مانعة له عن مشاهدة محبوبه وموته

خلاصه من السجن وقدوم على المحبوب فما حال من ليس له الا محبوب واحد وقد طال اليه تشوقه وتمادي عنه حبسه فخلي من السجن ومكن من المحبوب وروح بالامن ابد الاباد فاحد اسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا ومنه حب الاهل والمال والولد والاقارب والعقار والدواب والبساتين والمنتزهات حتى ان المتفرج بطيب اصوات الطيور وروح نسيم الاسحار ملتفت الى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله بسببه فبقدر ما انس بالدنيا فينقص انسه بالله ولا يوتى احد من الدنيا شيا الا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة كما انه لا يقرب الانسان من المشرق الا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ولا يطيب قلب امراته الا ويضيق قلب ضرتها فالدنيا والاخرة ضرتان وهما كالمشرق والمغرب وقد انكشف ذلك لذوي القلوب انكشافا اوضح من الابصار بالعين وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد اليهما بزمام الخوف والرجا وما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجا هي مقدمات ليكتسب بها احد ركني المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله واوله الايمان بالله واليوم الاخر والجنة والنار ثم يتشعب منه الخوف والرجا ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ثم ينجر ذلك الى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله تعالى فقط حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله تعالى وحبه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو احد ركني المحبة والى الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم الطهور شطر الايمان كما ذكرناه في اول كتاب الطهارة السبب الثاني لقوة المحبة قوة المعرفة بالله تعالى واتساعها واستيلاوها على القلب وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلايقها يجري مجرى وضع البذر في الارض بعد تطهيرها من الحشيش وهو الشطر الثاني ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله لها مثلا حيث قال ومثل كلمة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السما واليها الاشارة بقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فهي المعرفة والعمل الصالح كالحمال لهذه المعرفة وكالخادم وانما العمل الصالح كله في تطهير القلب اولا من الدنيا ومن الميل اليها ثم في ادامة طهارته فلا يراد العمل الا لهذه المعرفة واما العلم بكيفية العمل يراد للعمل فالعلم هو الاول وهو الاخر وانما الاول علم المعاملة وغرضها

العمل وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة كما ان من كان معتدل المزاج اذا ابصر الجميل وادركه بالعين الظاهرة احبه ومال اليه ومهما احبه حصلت اللذة فاللذة تتبع المحبة بالضرورة والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ولا يوصل الى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب الا بالفكر الصافي والذكر الدايم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله تعالى وصفاته وملكوت سمواته وساير مخلوقاته والواصلون الى هذه الرتبة ينقسمون الى الاقويا ويكون اول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره والى الضعفا فيكون اول معرفتهم بالافعال ثم يترقون به الى الفاعل والى الاول الاشارة بقوله تعالى او لم يكف بربك انه على كل شي شهيد وبقوله تعالى شهد الله انه لا اله الا هو ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك فقال عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي والى الثاني الاشارة بقوله تعالى سنريهم اياتنا في الافاق وفي انفسهم وبقوله تعالى او لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وبقوله تعالى قل انظروا ماذا في السموات والارض وبقوله تعالى الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسيا وهو حسير وهذا الطريق هو الاسهل على الاكثرين وهو الاوسع على السالكين واليه اكثر دعوة القران عند الامر بالتدبر والتفكر والاعتبار والنظر في ايات خارجة عن الحصر **فان قلت** كلا الطريقين مشكل فاوضح منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل بها الى المحبة **فاعلم** ان الطريق الاعلى وهو الاستشهاد بالحق على ساير الخلق فهو غامض والكلام فيه خارج عن حد فهم اكثر الخلق فلا فايدة في ايراده في الكتب واما الطريق الاسهل الادنى فاكثره غير خارج عن حد الافهام وانما قصرت الافهام عنها لاعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشعاب ابوابه الخارجة عن الحصر والنهاية اذ ما من ذرة من اعلى السموات الى تخوم الارض الا وفيها عجايب وايات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته وذلك مما لا يتناهى بل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي فالخوض فيه

انغماس في بحار علوم المكاشفة فلا يمكن ان يتطفل به على علوم المعاملة ولكن يمكن الرمز الى مثال واحد على الايجاز ليقع التنبيه بجنسه فنقول اسهل الطرق النظر الى الافعال فلنتكلم فيها ولنترك الاعلى ثم الافعال الالهية كثيرة فلنطلب اولاها واصغرها ولننظر في عجايبها فان اقل المخلوقات هي الارض وما عليها اعني بالاضافة الى الملايكة وملكوت السموات فانك ان نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر الحجم هي مثل الارض ماية ونيف وستين مرة فانظر الى صغر الارض بالاضافة اليها ثم انظر الى صغر الشمس بالاضافة الى فلكها التي هي مركوزة فيه فانه لا نسبة لها اليه وهي في السما الرابعة وهي صغيرة بالاضافة الى ما فوقها من السموات السبع ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة والكرسي في العرش كذلك فهذا نظر الى ظاهر الاشخاص من حيث المقادير وما اصغر الارض كلها بالاضافة اليها بل ما اصغر الارض بالاضافة الى البحار فقد قال صلى الله عليه وسلم الارض في البحر كالاصطبل في الارض ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة وعلم ان المكشوف من الارض عن الما كجزيرة صغيرة بالاضافة الى كل الارض ثم انظر الى الآدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الارض والى ساير الحيوانات والى صغره بالاضافة الى الارض ودع عنك جميع ذلك فاصغر ما تعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه فانظر في البعوض على صغر قدره وتاملة بعقل حاضر وفكر صافي وانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذي هو اعظم الحيوانات اذ خلق له خرطوما مثل خرطومه وخلق له على شكله الصغير ساير الاعضا كما خلقه للفيل وزيادة جناحين وانظر كيف قسم اعضاه الظاهرة فانبت جناحه واخرج يده ورجله وشق سمعه وبصره ودبر في باطنه من اعضا الغذا والاته ما دبره في ساير الحيوانات وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب في ساير الحيوانات كلها هذا في شكله وصفاته ثم انظر الى هدايته كيف هداه الله تعالى الى غذايه وعرفه ان غذاه دم الانسان ثم كيف انبت له الة الطيران الى الانسان وكيف خلق له الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجري فيه الدم الرقيق وينتهي الى باطنه وينتشر الى ساير اجزايه ويغذيه ثم كيف عرفه ان الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب

الخرطوم ... الى الوصول حتى ... كيف هداه الى مص الدم ... جوع ... وكيف خلق له الخرطوم ... علم البعوض ... الدم

واستعمال آلته وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد
بعيدة منه فيترك المص ويهرب ثم اذا سكنت اليد يعود ثم انظر كيف خلق
له حدقتين يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه وانظر الى
حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الاجفان لصغرها وكانت الاجفان
مصقلة لمراة الحدقة عن القذى والغبار خلق للبعوض والذباب يدين
فتنظر الى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه واما الانسان
والحيوان الكبير خلق لحدقتيه الاجفان حتى ينطبق احدهما على الآخر
واطرافها حادة فتجمع الغبار الذي يلحق الحدقة وترميه الى الاطراف
الاهداب وخلق الاهداب سوداً لتجمع ضوء العين وتعين على الابصار
وتحسن صورة العين ولتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء اشباك
الاهداب واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الابصار واما البعوض
فخلق له حدقتين مصقلتين من غير اجفان وعلمها كيفية التصقيل
باليدين ولاجل ضعف ابصارها تراها تتهافت على السراج لان بصرها
ضعيف فهي تطلب ضوء النهار فاذا رأى المسكين السراج بالليل ظنت
انها في بيت مظلم وان السراج كوة من البيت المظلم الى الموضع المضيء
فلا تزال تطلب الضوء فترمي نفسها الى الكوة فاذا جاوزتها ورأت الظلام
ظنت انها لم تصب الكوة ولم تقصدها على السداد فتعود اليه مرة اخرى
الى ان تحترق ولعلك تظن ان هذا لنقصانها وجهلها فاعلم ان جهل
الانسان اعظم من جهلها بل صورة الادمي في الاكباب على شهوات الدنيا
صورة الفراش في التهافت على النار اذ يلوح للآدمي انوار الشهوات
من الدنيا من حيث ظاهر صورتها ولا يدري ان تحتها السم الناقع القا
فلا يزال يرمي نفسه عليها الى ان ينغمس فيها ويتقيد بها فيهلك
هلاكا مؤبدا فليت كان جهل الادمي كجهل الفراش فانها باغترا رها
بظاهر الضوء ان احترقت تخلصت في الحال والادمي يبقى في النار ابدا الا باد
ولذلك كان ينادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول انكم تتهافتون
على النار تهافت الفراش وانا آخذ بحجزكم فهذه لمعة من عجايب
صنع الله تعالى في اصغر الحيوانات وفيها من العجايب مالو اجتمع الاو لون
والآخرون على الاحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقتها ولم يطلعوا

الا

الا على امور جلية من ظاهر صورته واما خفايا معانيها فلا يطلع عليه
الا الله ثم في كل حيوان ونبات اعجوبة واعاجيب تخصه لا يشاركه
فيه غيره فانظر الى النحل وعجايبه وكيف اوحى الله اليه حتى اتخذت من
الجبال بيوتا وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل احدهما
ضياء والآخر شفاء ثم لو تأملت عجايب امرها في تناولها الازهار والانوار
واحترازها عن النجاسات والاقذار وطاعتها لواحد من جملتها هو
اكبرها شخصا وهو اميرها ثم ما سخر الله له اميرهم من العدل والانصاف
بينهم حتى انه ليقتل على باب المنفذ ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها
اخر العجب ان كنت بصيرا في نفسك فارغا من هم بطنك وفرجك في معاداة
اقرانك وموالاة اخوانك ثم دع عنك جميع ذلك وانظر الى بنائها بيوتها
من الشمع واختيارها من جملة الاشكال الشكل المسدس فلا تبني
بيتها مستديرا ولا مربعا ولا مخمسا بل مسدسا لخاصية في شكل المسدس
يقصر فهم المهندس عن دركها وهو ان اوسع الاشكال واحواها المستديرة
وما يقرب منها فان المربع تخرج منها زوايا ضايعة وشكل النحل مستدير
مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ثم لو بناها
مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضايعة فان الاشكال المستديرة
اذا اجتمعت لا تجتمع متراصة ولا شكل من الاشكال ذوات الزوايا
يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى
بعد اجتماعها فرجة الا المسدس وهذه خاصية هذا الشكل
فانظر كيف الهم الله تعالى النحل على صغر جرمه لطفا به وعناية بوجوده
وما هو محتاج اليه ليهنى عيشه فسبحانه ما اعظم شانه واوسع لطفه
وامتنانه فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ودع عنك
عجايب ملكوت الارض والسموات فان القدر الذي بلغه فهمنا القاصر
منه تنقضي الاعمار دون ايضاحه ولا نسبة لما احاط به علمنا الى ما احاط
به العلما والانبيا ولا نسبة لما احاط به علم الخلايق كلهم الى ما استاثر
الله تعالى بعلمه بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق ان يسمى علما في جنب علم الله
تعالى فبالنظر في هذا وامثاله تزداد المعرفة الحاصلة باسهل
الطريقين وبزيادة المعرفة تزداد المحبة فان كنت طالبا سعادة
لقا الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر في الذكر الدايم

والفكر اللازم فعساك تحظى منها بقدر يسير ولكن تنال بذلك اليسير ملكا
عظيما لا آخر له **بيان السبب في تفاوت الناس في الحب اعلم**
اعلم ان المومنين مشتركون في اصل الحب لاشتراكهم في اصل المحبة ولكنهم
متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا اذ الاشيا انما تتفاوت
بتفاوت اسبابها واكثر الناس ليس لهم من الله تعالى الا الصفات
والاسما التي قرع سمعهم فتلقفوها وحفظوها وربما تخيلوا معاني يتعالى
عنها رب الارباب وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا
بل امنوا بها ايمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء
هم اهل السلامة من اصحاب اليمين والمتخيلون هم الضالون والعارفون
بالحقايق هم المقربون وقد ذكر الله تعالى حال الاصناف الثلثة في قوله
تعالى فاما ان كان من المقربين فروح وريحان الاية واذا كنت لا تفهم
الامور الا بالامثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول اصحاب
الشافعي مثلا يشتركون في حب الشافعي العوام والفقها لانهم يشتركون
في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكن
العامي يعرف علمه مجملا والفقيه يعرفه مفصلا فيكون معرفة
الفقيه به اتم واعجابه به وحبه له اشد فان من راى تصنيف
مصنف فاستحسنه وعرف به فضله احبه لا محالة ومال اليه قلبه
فان راى تصنيفا اخر احسن منه واعجب تضاعف لا محالة حبه لانه
تضاعفت معرفته وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر انه حسن الشعر
فيحبه فاذا سمع من غرايب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعته
ازداد به معرفة وازداد له حبا وكذا ساير الصناعات والفضايل
والعامي قد يسمع ان فلانا مصنف وانه حسن التصنيف ولكن لا يدري
ما في التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل
والبصير اذا فتش عن التصانيف واطلع على ما فيها من العجايب
تضاعف حبه لا محالة لان عجايب الصنعة والشعر والتصنيف
تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بجملته صنع الله تعالى
وتصنيفه والعامي يعلم ذلك ويعتقده واما البصير فانه يطالع
تفصيل صنع الله تعالى فيه حتى يرى في البعوض مثلا من عجايب صنعة
الله تعالى ما ينبهر عقله ويتحير فيه لبه ويزداد بسببه لا محالة عظمة

الله

الله وجلاله وكمال صفاته في قلبه فيزداد له حبا وكلما ازداد على عجايب
صنع الله تعالى اطلاعا استدل به على عظم الصانع وجلاله وازداد به
معرفة وله حبا وبحر هذه المعرفة اعني معرفة عجايب صنع الله تعالى
بحر لا ساحل له فلا جرم ان تفاوت اهل المعرفة في الحب لا حصر له
ومما يتفاوت بسببه الحب ايضا اختلاف الاسباب الخمسة التي
ذكرناها للحب فان من يحب الله تعالى مثلا لكونه محسنا اليه منعما
عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته اذ يتغير بتغير الاحسان
فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعما واما من يحبه
لذاته ولانه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته
فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الاحسان اليه فهذا وامثاله هو سبب
تفاوت الناس في المحبة والتفاوت في المحبة هو سبب التفاوت
في سعادة الآخرة ولذلك قال الله تعالى وللآخرة اكبر درجات واكبر
تفضيلا ◦ **بيان السبب في قصور افهام الخلق عن معرفة الله تعالى اعلم**
ان اظهر الموجودات واجلاها هو الله تعالى وكان هذا يقتضي ان
يكون معرفته اول المعارف واسبقها الى الافهام واسهلها على العقول
ونرى الامر بالضد من ذلك فلا بد من بيان السبب في ذلك وانما قلنا
انه اظهر الموجودات واجلاها لمعنى لا تفهمه الا بمثال وهو انا اذا
راينا انسانا يكتب او يخيط مثلا كان كونه حيا عندنا من اظهر الموجودات
فحياته وعلمه وقدرته وارادته للخياطة اجلى عندنا من ساير صفاته
الظاهرة والباطنة اذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه
وصحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه وصفاته الظاهرة لا
نعرف بعضها وبعضها لا نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته
وغير ذلك من صفاته اما حيوته وقدرته وارادته وعلمه وكونه
حيوانا فانه جلي عندنا من غير ان يتعلق حس البصر بحيوته وقدرته
وارادته فان هذه الصفات لا تحس بشي من الحواس الخمس ثم لا
يمكن ان تعرف قدرته وارادته الا بخياطته وحركته فلو نظرنا حيوته
الى كل ما في العالم سواه لم نعرف به صفته فما عليه الا دليل
واحد وهو مع ذلك جلي واضح ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه
وساير صفاته يشهد له بالضرورة وكل ما نشاهده وندركه

بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وارض
وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل اول شاهد عليه
انفسنا واجسامنا واوصافنا وتقلب احوالنا وتغير قلوبنا وجميع
اطوارنا في حركاتنا وسكناتنا واظهر الاشيا في علمنا انفسنا ثم محسوساتنا
بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة وكل واحد من هذه
المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع ما في
العالم شواهد ناطقة وادلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها
ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والموجودات
المدركة لا حصر لها فان كانت حيوة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد له الا
شاهد واحد وهو ما احسسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا ما لا
يتصور في الوجود شي داخل نفوسنا وخارجها الا وهو شاهد عليه وعلى عظمته
وجلاله اذ كل ذرة فانها تنادي بلسان حالها انه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها
بذاتها وانها تحتاج الى موجد ومحرك لها يشهد بذلك اولا تركيب اعضائنا وائتلاف
عظامنا ولحومنا واعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل اطرافنا وسائر اجزائنا
الظاهرة والباطنة فانا نعلم انها لم تأتلف بنفسها كما نعلم ان يد الكاتب
لا تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق في الوجود شي من مدرك ومحسوس ومعقول
وحاضر وغائب الا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول
ودهشت عن ادراكه فانما يقصر عن فهمه عقولنا له سببان احدهما
خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله والآخر ما يتناهى وضوحه
وهذا كما ان الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لا لخفاء النهار واستتاره
ولكن لشدة ظهوره فان بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس اذا اشرق
فيكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع ابصاره فلا يرى شيا
الا اذا امتزج الضو بالظلام وضعف ظهوره وكذلك عقولنا ضعيفة وجمال
الحضرة الالهية في نهاية الاشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول
حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والارض فصار ظهوره
سبب خفائه فسبحان من احتجب باشراق نوره واختفى عن البصائر والابصار
بظهوره فلا تعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فان الاشيا تستبان
باضدادها وما عم وجوده حتى انه لا ضد له عسر ادراكه فلو اختلفت
الاشيا فدل بعضها دون البعض ادركت التفرقة على قرب ولما اشتركت

في

في الدلالة على نسق واحد اشكل الامر ومثاله نور الشمس المشرق على الارض
فانا نعلم انه عرض من الاعراض يحدث في الارض ويزول عند غيبة الشمس
فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غروب لها لكنا نظن ان لا هيئة في الاجسام
الا الوانها وهي السواد والبياض وغيرهما فانا لا نشاهد في الاسود الا السواد
وفي الابيض الا البياض فاما الضو فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس
واظلمت المواضع ادركنا تفرقة بين الحالين فعلمنا ان الاجسام كانت قد
استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا
وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه الا بعسر شديد وذلك
لمشاهدتنا الاجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور هذا مع ان
النور اظهر المحسوسات اذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه
وهو مظهر لغيره انظر كيف تصور استبهام امره بسبب ظهوره لولا
طريان ضده فالله تعالى هو اظهر الامور وبه ظهرت الاشيا ولو كان له عدم
او غيبة او تغير لانهدمت السموات والارض وبطل الملك والملكوت ولادرك
به التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الاشيا موجودا به وبعضها موجودا
بغيره لادركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة ولكن دلالته عامة في الاشياء
على نسق واحد ووجوده دائم في الاحوال يستحيل خلافه فلا جرم اورث شدة
الظهور خفاء فهذا هو السبب في قصور الافهام واما من قويت بصيرته
ولم تضعف منته فانه في حال اعتدال امره لا يرى الا الله ولا يعرف غيره ويعلم انه
ليس في الوجود الا الله تعالى وافعاله اثر من اثار قدرته فهي تابعة له فلا
وجود لها بالحقيقة وانما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الافعال كلها ومن
هذا حاله فلا ينظر في شي من الافعال الا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل
من حيث انه سماء وارض وحيوان وحجر وشجر بل ينظر فيه من حيث
انه صنع الله فلا يكون نظره مجاوزا له الى غيره كمن نظر في شعر انسان او خطه
او تصنيفه ورأى فيه الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث انه آثاره
لا من حيث انه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض فلا يكون قد نظر
الى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله فمن نظر الى العالم والدنيا نظر اليها
من حيث انها فعل الله عز وجل لم يكن ناظرا الا في الله ولا عارفا الا بالله
ولا محبا الا لله تعالى وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى الا الله بل لا ينظر
الى نفسه من حيث نفسه بل من حيث انه عبد الله فهذا هو الذي يقال

غيره

فيه انه فني في التوحيد وانه فني عن نفسه واليه الاشارة بقول من قال كنا بنا
ففنينا عنا فبقينا بلا نحن فهذه امور معلومة عند ذوي الابصار اشكلت
لضعف الافهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن ايضاحها وبيانها
بعبارة مفهومة موصلة للغرض الى الافهام او باشتغالهم بانفسهم واعتقادهم
ان بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم فهذا هو السبب في قصور الافهام عن
معرفة الله تعالى وانضم اليه ان المدركات كلها التي هي شاهدة على الله انما
يدركها الانسان في الصبي عند فقد العقل ثم تبدو فيه غريزة العقل
قليلا قليلا وهو مستغرق الهمة بشهواته وقد انس بمدركاته ومحسوساته
والفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الانس ولذلك اذا رأى الانسان على
سبيل الفجأة حيوانا غريبا او نباتا غريبا او فعلا من افعال الله خارقا للعادة
عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعا فقال سبحان الله وهو يرى طول النهار نفسه
واعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة كلها شواهد ناطقة ولا يحس بشهادتها
لطول الانس بها فلو فرض اكمه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينيه فامتد
بصره الى السما والارض والاشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة
لخيف على عقله ان ينبهر لعظم تعجبه من مشاهدة هذه العجائب لخالقها
فهذا وامثاله من الاسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سد على الخلق
سبيل الاستضاءة بانوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة فالناس
في طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذي يضرب به المثل اذ كان راكبا لحماره
وهو يطلب حماره والجليات اذا صارت مطلوبة صارت معتاصة فهذا
سر هذا الامر فليتحقق ولذلك قيل

لقد ظهرت فلا تخفى على احد ... الا على اكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما اظهرت محتجبا ... فكيف يعرف من بالعرف استترا

بيان معنى الشوق الى الله تعالى

اعلم ان من انكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وان ينكر حقيقة الشوق اذ لا يتصور الشوق الا الى محبوب ونحن نثبت وجود
الشوق الى الله تعالى وكون العارف مضطرا اليه بطريق الاعتبار والنظر بانوار
البصائر وبطريق الاخبار والآثار اما الاعتبار فيكفي في اثباته ما سبق في اثبات
الحب فكل محبوب فهو يشتاق اليه في غيبته لا محالة واما الحاصل الحاضر فلا يشتاق
اليه فان الشوق طلب وتشوق الى نيل امر والموجود لا يطلب ولكن بيانه
ان الشوق لا يتصور الا الى شي ادرك من وجه ولم يدرك من وجه فانا ما

لا

لا يدرك اصلا فلا يشتاق اليه فان من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه
لا يتصور ان يشتاق اليه وما ادرك بكماله لا يشتاق اليه وكمال الادراك بالرؤية فمن كان
في مشاهدة محبوبه مداوما للنظر اليه لا يتصور ان يكون له شوق ولكن الشوق انما يتعلق
بما ادرك من وجه ولم يدرك من وجه وهو من وجهين لا ينكشف الا بمثال من المشاهدات
فنقول مثلا من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق الى استكمال خياله
بالرؤية فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور ان يشتاق
اليه ولو رآه لم يتصور ان يشتاق في وقت الرؤية فمعنى شوقه تشوق نفسه
الى استكمال خياله بالرؤية فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه
لم يتصور ان يشتاق في وقت الرؤية فمعنى شوقه تشوق نفسه الى استكمال
خياله ~~بالرؤية~~ وكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق
الى استكمال رؤيته وتمام الانكشاف في صورته باشراق الضوء عليه والثاني ان يرى
وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه واعضائه فيشتاق الى
رؤيته وان لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه
يعلم ان له عضوا واعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق
الى ان ينكشف له ما لم يره قط والوجهان جميعا متصوران في حق الله تعالى
بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين فان ما اتضح للعارفين من الامور الالهية
وان كانت في غاية الوضوح فكانه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحا
غاية الاتضاح بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات فان الخيالات لا تفتر في
هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات وهي مكدرات للمعارف ومنغصات
وكذلك ينضاف اليها شواغل الدنيا فانما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام اشراق
التجلي ولا يكون الا في الآخرة وذلك بالضرورة يوجب التشوق فانه منتهى محبوب العارفين
فهذا احد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح ايضاحا ما
الثاني ان الامور الالهية لا نهاية لها وانما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها
ويبقى امور لا نهاية لها غامضة والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله
ويعلم ان ما غاب عن علمه من المعلومات اكثر مما حضر فلا يزال متشوقا الى ان
يحصل له اصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها اصلا لا
معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الاول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى
الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ولا يتصور ان يسكن في الدنيا وقد
كان ابراهيم بن ادهم من المشتاقين فقال قلت ذات يوم يا رب ان اعطيت

احدا من المحبين لك ما يسكن به غليله قبل لقائك فاعطني ذلك فقد اضر بي القلق
قال فرايته في المنام انه اوقفني بين يديه وقال يا ابرهيم اما استحييت
مني ان تسالني ان اعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي وهل يسكن المشتاق
قبل لقاء حبيبه فقلت يا رب تهت في حبك فلم ادر ما اقول فاغفر لي
وعلمني ما اقول فقال قل اللهم رضني بقضائك وصبرني على بلائك
واوزعني شكر نعمائك فاذن هذا الشوق يسكن في الاخرة واما الشوق
الثاني فيشبه ان لا يكون له نهاية لا في الدنيا ولا في الاخرة اذ نهايته ان
ينكشف للعبد في الاخرة من جلال الله وصفاته وحكمته وافعاله ما هو معلوم
لله تعالى وهو محال لان ذلك لا نهاية له ولا يزال العبد عالما بانه بقي من الجلال
والجمال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه لا سيما من يرى فوق درجته درجات
كثيرة الا انه تشوق الى استكمال الوصال مع حصول اصل الوصال فهو يجد لذلك
شوقا لذيذا لا يظهر فيه الم ولا يبعد ان يكون الطاف الكشف والنظر
متوالية الى غير نهاية فلا يزال النعيم واللذة متزايدا ابد الاباد ويكون
لذة ما يتجدد من لطائف النعم شاغلا عن الاحساس بالشوق الى ما لم يحصل
وهذا بشرط ان يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا اصلا
فان كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ولكن
يكون مستمرا على الدوام وقوله سبحانه نورهم يسعى بين ايديهم وبايمانهم
يقولون ربنا اتمم لنا نورنا محتمل لهذا المعنى وهو ان ينعم عليه باتمام النور
مهما تزود من الدنيا اصل النور ويحتمل ان يكون المراد به اتمام النور في غير
ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة الى مزيد الاستكمال والاشراق
فيكون هذا المراد بتمامه وقوله تعالى انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا
وراءكم فالتمسوا نورا يدل على ان الانوار لا بد وان يتزود اصلها في الدنيا
ثم يزداد في الاخرة اشراقا فاما ان يتجدد نور ابتداء فلا والحكم في هذا برجم
الظنون مخطر ولم ينكشف لنا بعد فيه ما يوثق به فنسال الله تعالى
ان يزيدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا فهذا القدر كاف من انوار البصائر
فهي كاشفة لحقائق الشوق واما شواهد الاخبار والاثار فاكثر من
ان تحصى فمما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول
اللهم اني اسالك الرضى بعد القضا وبرد العيش بعد الموت ولذة
النظر الى وجهك الكريم وشوقا الى لقائك وقال ابو الدردا لكعب اخبرني

عن

عن اخص اية في التورية فقال يقول الله طال شوق الابرار الى لقائي واني
الى لقائهم لاشد شوقا قال ومكتوب الى جانبها من طلبني وجدني ومن طلب غيري
لم يجدني فقال ابو الدردا اشهد اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا
وفي اخبار داود ان الله تعالى قال يا داود ابلغ اهل ارضي اني حبيب لمن احبني
وجليس لمن جالسني ومونس لمن انس بذكري وصاحب لمن صاحبني ومختار
لمن اختارني ومطيع لمن اطاعني ما احبني عبد اعلم ذلك يقينا من قلبه الا قبلته
لنفسي واحببته حبا لا يتقدمه احد من خلقي من طلبني بالحق وجدني ومن
طلب غيري لم يجدني فارفضوا يا اهل الارض ما انتم عليه من غرورها وهلموا
الى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي وانسوا بي او انسكم واسارع الى محبتكم فاني
خلقت طينة احبابي من طينة ابرهيم خليلي وموسى نجيي ومحمد صفيي اي
خلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي ۞ وروي بعض السلف
ان الله تعالى اوحى الى بعض الصديقين ان لي عبادا من عبادي يحبوني واحبهم
ويشتاقون الي واشتاق اليهم ويذكروني واذكرهم وينظرون الي وانظر
اليهم فان حذوت طريقهم احببتك وان عدلت عنهم مقتك قال يا رب وما
علاماتهم قال عز وجل يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه
ويحنون الى غروب الشمس كما يحن الطير الى اوكارها عند الغروب فاذا
جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الاسرة وخلا
كل حبيب بحبيبه نصبوا الي اقدامهم وافترشوا الي وجوههم وناجوني
بكلامي وتملقوا الي بانعامي فبين صارخ وباك وبين متاوه وشاك وبين
قائم وقاعد وبين راكع وساجد بعيني ما يتحملون من اجلي وبسمعي ما يشتكون
من حبي واول ما اعطيهم ثلاثا اقذف في قلوبهم من نوري فيخبرون عني كما
اخبر عنهم والثانية لو كانت السموات والارض وما فيهما في موازينهم لاستقللتها
لهم والثالثة اقبل بوجهي عليهم فترى من اقبلت بوجهي عليه يعلم احد ما اريد ان
اعطيه ۞ وفي اخبار داود عليه السلام ان الله تعالى اوحى اليه يا داود الى
كم تذكر الجنة ولا تسالني الشوق الي قال يا رب من المشتاقون اليك قال ان
المشتاقين الي الذين صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت قلوبهم
الي خرقا ينظرون الي واني لاحمل قلوبهم بيدي فاضعها على سمائي ثم ادعوا
نجباء ملائكتي فاذا اجتمعوا سجدوا الي فاقول اني لم ادعكم لتسجدوا الي ولكني دعوتكم
لاعرض عليكم قلوب المشتاقين الي وابا هي بكم اهل الشوق الي فان قلوبهم

لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لاهل الارض يا داود اني خلقت
قلوب المشتاقين من رضواني ونعمتها بنور وجهي فاتخذتهم لنفسي محدثين
وجعلت ابدانهم موضع نظري الى الارض وقطعت من قلوبهم طريقا
ينظرون به الي يزدادون في كل يوم شوقا قال داود يا رب ارني اهل
محبتك فقال يا داود ائت جبل لبنان فان فيه اربعة عشر نفسا
فيهم شبان وكهول وفيهم شيوخ مشايخ فاذا اتيتهم فاقراهم
مني السلام وقل لهم ان ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم الا تسلوني
حاجة فانكم احبائي واصفيائي واوليائي افرح لفرحكم واسارع الى
محبتكم فاتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون
في عظمة الله تعالى فلما نظروا الى داود نهضوا ليتفرقوا عنه فقال داود
عليه السلام اني رسول الله اليكم جئتكم لابلغكم رسالة ربكم فاقبلوا نحوه
والقوا باسماعهم نحو قوله والقوا ابصارهم الى الارض فقال داود
اني رسول الله اليكم ان الله تعالى يقرئكم السلام ويقول لكم الا تسلوني
حاجة الا تنادوني اسمع صوتكم وكلامكم فانكم احبائي واصفيائي واوليائي
افرح لفرحكم واسارع الى محبتكم وانظر اليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة
الرفيقة قال فجرت الدموع على خدودهم فقال شيخهم سبحانك سبحانك نحن
عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من عمرنا
وقال الاخر سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر
فيما بيننا وبينك وقال الاخر سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك اانتجري على
الدعا وقد علمت انه لا حاجة لنا في شي من امورنا فادم لنا لزوم الطريق اليك
واتمم بذلك المنة علينا وقال الاخر نحن مقصرون في طلب رضاك فاعنا
عليه بجودك وقال الاخر من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر في عظمتك
افيجترئ على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر في جلالك وطلبتنا الدنو
من نورك وقال الاخر كلت السنتنا عن دعائك لعظم شانك وقربك من اوليائك
وكثرة منتك على اهل محبتك وقال الاخر انت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا
للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك وقال الاخر قد عرفت حاجتنا
انما هي النظر الى وجهك وقال الاخر كيف يجترئ العبد على سيده اذ
امرتنا بالدعا بجودك فهب لنا نورا نهتدي به في الظلمات من اطباق
السموات وقال الاخر ندعوك ان تقبل علينا وتديمه علينا وقال الاخر

وفيهم

نسالك

نسالك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا وقال الاخر لا حاجة لنا
في شي من خلقك فامنن علينا بالنظر الى جمال وجهك وقال الاخر اسالك من بينهم
ان تعمي عيني عن النظر الى الدنيا واهلها وقلبي عن الاشتغال بالاخرة وقال الاخر
قد علمت تباركت وتعاليت انك تحب اولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل
شي دونك فاوحى الله تعالى الى داود عليه السلام قل لهم قد سمعت كلامكم واجبتكم
الى ما احببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فاني
ساكشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا الى نوري وجلالي فقال داود يا رب
بم نالوا منك هذا قال بحسن الظن والكف عن الدنيا واهلها والخلوات بي ومناجاتهم
لي وان هذا منزل لا يناله الا من رفض الدنيا واهلها ولم يشتغل بشي من ذكرها
وفرغ قلبه لي واختارني على جميع خلقي فعند ذلك اعطف عليه وافرغ نفسه
واكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى ينظر الي نظر الناظر بعينه الى الشي واريه
كرامتي في كل ساعة واقربه من نور وجهي وان مرض مرضته كما تمرض الوالدة
الشفيقة ولدها وان عطش ارويته واذيقه طعم ذكري فاذا فعلت ذلك
يا داود عميت نفسه عن الدنيا واهلها ولم احببها اليه لا يفتر عن الاشتغال
بي يستعجلني القدوم وانا اكره ان اميته لانه موضع نظري من بين خلقي لا يرى غيري
ولا ارى غيره فلو رايته يا داود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتقطعت
اعضاؤه وانخلع قلبه اذا سمع بذكري اباهي به ملائكتي واهل سماواتي
يزداد خوفا وعبادة وعزتي وجلالي يا داود لاقعدنه في الفردوس
ولاشفين صدره من النظر الي حتى يرضى وفوق الرضا وفي اخبار داود
ايضا ان الله تعالى اوحى اليه يا داود تزعم انك تحبني فان كنت تحبني فاخرج
حب الدنيا من قلبك فان حبي وحبها لا يجتمعان في قلب يا داود خالص
محبتي مخالصة وخالط اهل الدنيا مخالطة ودينك فقلدنيه لا تقلده
الرجال اما ما استبان لك مما وافق محبتي فتمسك به واما ما اشكل عليك فقلدنيه
حقا علي ان اسارع الى سياستك وتقويمك واكون قائدك ودليلك اعطيك من غير ان
تسالني واعينك على الشدائد فاني قد حلفت على نفسي اني لا اثيب عبدا الا عبدا
قد عرفت من طلبته وارادته القاء كنفه بين يدي وانه لا غنى به عني فاذا
كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك واسكنت الغنى قلبك فاني قد حلفت
على نفسي انه لا يطمئن عبد لي الى نفسه ينظر الى افعالها الا وكلته اليها
اضف الاشياء الي لا تضاد عملك فتكون مستغنيا ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تحر

لمعرفتي احدًا التمسها لما غاية ومتى طلبته مني الزيادة اعطيتك ولا تجد لزيادتي مني
حدًّا انظر اعلم بني اسرائيل انه ليس بيني وبين احد من خلقي نسب فليعظم
رغبتهم وارادتهم فيما عندي ابيح لهم ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا
خطر على قلب بشر ضعني بين عينيك وانظر الي ببصر قلبك ولا تنظر بعينيك
في راسك الى الذين حجبت عقولهم عني فاخرجوها وسمعت بانقطاع ثوابي عنها
فاني حلفت بعزتي وجلالي لا افتح ابوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة والتسويف
تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريدين فلو علم اهل محبتي منزلة المريدين عندي
لكانوا لهم ارضا يمشون عليها يا داود لان تخرج مريدا من سكرة هو فيها تستنقذه
فاكتبك عندي جهبذا ومن كتبته جهبذا لا يكون عليه وحشة ولا فاقة الى المخلوقين
يا داود تمسك بكلامي وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فاحجب عنك محبتي ولا
تؤيس عبادي من رحمتي اقطع شهوتك لي فانما ابحت الشهوات لضعفة خلقي
ما بال الاقوياء ان ينالوا الشهوات فانها تنقص حلاوة مناجاتي وانما عقوبة
الاقوياء عندي في موضع التناول ادنى ما يصل اليهم انما حجب عقولهم عني فاني
لم ارض الدنيا لحبيبي ونزهته عنها يا داود يا داود لا تجعل بيني وبينك عالما
يحجبك بسكره عن محبتي اولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين استعن
على ترك الشهوات بادمان الصوم واياك والتجربة في الافطار فان محبتي للصوم
ادمانه يا داود تحبب الي بمعاداة نفسك امنعها الشهوات انظر اليك وترى
الحجب بيني وبينك مرفوعة انما اداريك مداراة لتقوى على ثوابي اذا مننته به عليك
واني احبسه عنك وانت متمسك بطاعتي واوحى الله تعالى الى داود عليه السلام
يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي الى ترك معاصيهم
لماتوا شوقا الي وتقطعت اوصالهم من محبتي يا داود هذه ارادتي في المدبرين
عني فكيف ارادتي في المقبلين علي يا داود احوج ما يكون العبد الي اذا استغنى
عني وارحم ما اكون بعبدي اذا ادبر عني واجل ما يكون عندي اذا رجع الي فهذه
الاخبار ونظايرها مما لا يحصى يدل على اثبات المحبة والشوق والانس واما تحقيق
معناها فينكشف بما سبق

بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها

اعلم ان شواهد القرآن متظاهرة على ان الله تعالى يحب عبده فلا بد من
معرفة ذلك ولنقدم الشواهد على محبته فقد قال تعالى يحبهم ويحبونه
وقال الله تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا وقال تعالى ان الله يحب
التوابين ويحب المتطهرين ولذلك رد سبحانه على من ادعى انه حبيب الله تعالى

عز وجل قل فلم يعذبكم بذنوبكم وقد روى انس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا
احب الله عبدا لم يضره ذنب والتايب من الذنب كمن لا ذنب له ثم تلا ان
الله يحب التوابين ومعناه انه اذا احب الله عبدا تاب عليه قبل الموت فلم تضره
الذنوب الماضية وان كثرت كما لا يضر الكفر الماضي بعد الاسلام وقد اشترط
الله للمحبة غفران الذنب فقال قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله
ويغفر لكم ذنوبكم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يعطي الدنيا من يحب
ومن لا يحب ولا يعطي الايمان الا من يحب وقال صلى الله عليه وسلم من تواضع لله تعالى رفعه
الله ومن تكبر وضعه الله ومن اكثر ذكر الله احبه الله وقال صلى الله عليه وسلم
قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت
سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به الحديث وقال زيد بن اسلم ان الله
تعالى ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له ان يقول اعمل ما شئت فقد غفرت لك
وما ورد من الالفاظ في المحبة خارج عن الحصر وقد ذكرنا ان محبة العبد لله تعالى
حقيقة وليس بمجاز اذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس
الى الشيء الموافق والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط وقد بينا ان الاحسان
موافق للنفس والجمال موافق ايضا وان الجمال والاحسان تارة يدرك بالبصر
وتارة بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر واما حب الله
للعبد فلا يمكن ان يكون بهذا المعنى اصلا بل الاسامي كلها اذا اطلقت على الله تعالى وعلى
غير الله لم يطلق عليهما بمعنى واحد اصلا حتى ان اسم الوجود الذي هو اعم الاسماء
اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله فوجوده مستفاد
من وجود الله تعالى فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع وانما الاستواء
في اطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم اذ معنى الجسمية
وحقيقتها متشابه فيهما من غير استحقاق احدهما لان يكون فيه اصلا فليست
الجسمية لاحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولخلقه
وهذا التباعد في ساير الاسامي اظهر كالعلم والارادة والقدرة وغيرها فكل ذلك
لا يشبه فيه الخالق الخلق وواضع اللغة انما وضع هذه الاسامي اولا للخلق
فان الخلق اسبق الى العقول والافهام من الخالق وكان استعمالها في حق الخالق
بطريق الاستعارة والتجوز والنقل والمحبة في وضع اللسان عبارة عن
ميل النفس الى موافق ملايم وهذا انما يتصور في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها
وتستفيد بنيله وهذا محال على الله تعالى فان كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن

في الالهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول ابدا ازلا لا يتصور تجدده
ولا زواله فلا يكون له الى غيره نظر من حيث انه غيره بل نظره الى ذاته والى
افعاله فقط وليس في الوجود الا ذاته وافعاله ولذلك قال الشيخ ابو سعيد الميهني
لما قرئ عليه قوله تعالى يحبهم ويحبونه فقال بحق يحبهم فانه ليس يحب الا نفسه
على معنى انه الكل وان ليس في الوجود غيره فمن لا يحب الا نفسه وافعال
نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هو
متعلق بذاته فهو اذن لا يحب الا نفسه وما ورد من الالفاظ في حبه لعباده
فهو مؤول ويرجع معناه الى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه والى تمكينه
اياه من القرب منه والى ارادته ذلك به في الازل فحبه لمن احبه ازلي مهما
اضيف الى الارادة الازلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق
القرب واذا اضيف الى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو
حادث يحدث بحدوث السبب المقتضي له كما قال لا يزال يتقرب الي بالنوافل
حتى احبه فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه
وحصوله في درجة القرب من ربه وكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى
حبه ولا يفهم هذا الا بمثال وهو ان الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن
له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك اليه اما لينصره بقوته او ليستريح
بمشاهدته او ليستشيره في رايه او ليهيئ اسباب طعامه وشرابه
فيقال ان الملك يحبه ويكون معناه ميله اليه لما فيه من المعنى الموافق الملايم
له وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به والاستنجاد
به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفا من الاخلاق المرضية والخصال
الحميدة بما يليق به ان يكون قريبا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه
مع ان الملك لا غرض له فيه اصلا فاذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه
يقال قد احبه واذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب
يقال قد توصل وحبب نفسه الى الملك فحب الله للعبد انما يكون
انما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الاول وانما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط
ان لا يسبق الى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب فان الحبيب
هو القريب من الله عز وجل والقرب من الله في البعد عن صفات البهايم
والسباع والشياطين والتخلق بمكارم الاخلاق التي هي الاخلاق الالهية
فهو قرب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير

فربما يظن بهذا ان القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا اذ صار
قريبا بعد ان لم يكن وهو محال في حق الله تعالى اذ التغير عليه محال بل لا يزال
في نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه في الازل ولا ينكشف هذا الا بمثال القرب
بين الاشخاص فان الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا وقد يكون احدهما ثابتا
فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في احدهما من غير تغير في الآخر بل القرب
في الصفات ايضا كذلك فان التلميذ يطلب القرب من درجة استاذه في كمال
العلم وجماله والاستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالنزول الى درجة
تلميذه والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل الى ارتفاع العلم
فلا يزال دائبا في التغير والترقي الى ان يقرب من استاذه والاستاذ ثابت
غير متغير فكذلك ينبغي ان يفهم ترقي العبد في درجات القرب فكلما صار
اكمل صفة واتم علما واحاطة بحقايق الامور واثبت وصفا وقوة
في قهر الشيطان وقمع الشهوات واظهر نزاهة عن الرذايل صار
اقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله تعالى وقرب كل واحد من الله
بقدر كماله نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الاستاذ وعلى مساواته
وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال فانه لا نهاية لكماله وسلوك العبد
في درجات الكمال متناهي ولا ينتهي الا الى حد محدود فلا مطمع له في المساواة
ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتا لا نهاية له ايضا لاجل انتفاء النهاية
عن ذلك الكمال فاذن محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل
والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه
حتى يشاهده كانه يراه بقلبه واما محبة العبد لله فهو ميله الى
درك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشتاق الى ما فاته
واذا ادرك منه شيئا يلتذ به والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على
الله تعالى فان قلت محبة الله للعبد امر ملتبس فبم يعرف العبد
انه حبيب الله تعالى فاقول يستدل عليه بعلاماته وقد قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم اذا احب الله عبدا ابتلاه فان احبه الحب البالغ اقتناه
قيل وما اقتناه قال لم يترك له مالا ولا اهلا فعلامة محبة الله للعبد
ان يوحشه من غيره ويشغله ويحول بينه وبين غيره وقيل
لعيسى عليه السلام لم لا تشتري حمارا تركبه فقال انا اعز على الله تعالى من
ان يشغلني عن نفسه بحمار وفي الخبر اذا احب الله عبدا ابتلاه فان صبر

اجتباه وان رضي اصطفاه وقال بعض العلماء اذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم انه يريد يصافيك وقال بعض المريدين لاستاذه قد طولعت بشيء من المحبة فقال يا بني هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه اياه قال لا فقال لا تطمع في المحبة فانه لا يعطيها عبدا حتى يبلوه وقال صلى الله عليه وسلم اذا احب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه وقال صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه فاخص علاماته حبه لله فان ذلك يدل على حب الله تعالى له واما الفعل الدال على كونه محبوبا فهو ان يتولى الله امره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو المشير عليه والمدبر لامره والمزين لاخلاقه والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه والجاعل لهمومه هما واحدا والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فهذا وامثاله هو علامة حب الله للعبد فلنذكر الآن علامات محبة العبد لله فانها ايضا علامات حب الله للعبد

القول في علامات محبة العبد لله تعالى

اعلم ان المحبة يدعيها كل احد وما اسهل الدعوى وما اعز المعنى فلا ينبغي ان يغتر الانسان بتلبيس الشيطان وخداع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والادلة والمحبة شجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء وثمارها تظهر على القلب واللسان والجوارح وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الاشجار وهي كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام فلا يتصور ان يحب القلب محبوبا الا ويحب مشاهدته ولقاءه واذا علم انه لا وصول الا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغي ان يكون محبا للموت غير فار منه فان المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه الى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول الى المشاهدة قال صلى الله عليه وسلم من احب لقاء الله احب الله لقاءه وقال حذيفة عند الموت حبيب جاء على فاقة لا افلح من ندم وقال بعض السلف ما من خصلة احب الى الله تعالى ان تكون في العبد بعد حب لقائه من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله حيث قالوا انا نحب الله تعالى

فجعل

فجعل القتل في سبيل الله تعالى وطلب الشهادة علامته وقال ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا وقال يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وفي وصية ابي بكر لعمر رضي الله عنهما الحق ثقيل وهو مع ثقله مرئ والباطل خفيف وهو مع خفته وبي فان حفظت وصيتي لم يكن غائب احب اليك من الموت وهو مدركك وان ضيعت وصيتي لم يكن غائب ابغض اليك من الموت ولن تعجزه ويروى عن اسحق بن سعد بن ابي وقاص قال حدثني ابي ان عبد الله بن جحش قال له يوم احد الا ندعو الله تعالى فخلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يا رب اني اقسم عليك اذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده اقاتله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فيجدع انفي واذني ويبقر بطني فاذا لقيتك غدا قلت يا عبد الله فيم جدع انفك واذنك فاقول فيك وفي رسولك فتقول صدقت قال سعد فلقد رأيته آخر النهار وان انفه واذنه لمعلقتان في خيط وقال سعيد بن المسيب ارجو ان يبر الله آخر قسمه كما بر اوله وقد كان الثوري وبشر الحافي رحمة الله عليهما يقولان لا يكره الموت الا مريب لان الحبيب على كل حال لا يكره لقاء الحبيب وقال البويطي رحمه الله لبعض الزهاد اتحب الموت فكأنه توقف فقال لو كنت صادقا لاحببته وتلا قوله تعالى فتمنوا الموت ان كنتم صادقين فقال الرجل فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يتمنين احدكم الموت فقال انما قاله لضر نزل به لان الرضا بقضاء الله افضل من طلب الفرار منه فان قلت فمن لا يحب الموت فهل يتصور ان يكون محبا لله فاقول كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الاهل والمال والولد وهذا ينافي كمال حب الله تعالى لان الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ولكن لا يبعد ان يكون مع حب الاهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة فان الناس متفاوتون في الحب ويدل على التفاوت ما روي ان ابا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج اخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك وقالوا انكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى فقال والله لقد انكحته اياها واني لاعلم انه خير منها فكان قوله اشد عليهم من فعله فقالوا وكيف وهي اختك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من اراد ان ينظر الى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر الى سالم فهذا يدل على ان من الناس من لا يحب الله تعالى بكل قلبه فيحبه ويحب ايضا غيره فلا جرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها واما

السبب الثاني لكراهة الموت فهو ان يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وانما يكره عجلته قبل ان يستعد للقاء الله تعالى فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالمحب الذي وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه فاحب ان يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره ويعد له اسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب اصلا وعلامته الدؤوب في العمل واستغراق الهم في الاستعداد ومنها ان يكون مؤثرا ما احبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه فيجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ولا يزال مواظبا على طاعة الله تعالى ومتقربا اليه بالنوافل وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبوبه وقد وصف الله تعالى المحبين بالايثار فقال جل وعز يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة الآية ومن بقي مستمرا على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل اريد وصاله ويريد هجري فاترك ما اريد لما يريد بل الحب اذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب كما روي ان زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت الى الله عز وجل فكان يدعوها الى فراشه نهارا فتدفعه الى الليل فاذا دعاها الى فراشه ليلا سوفت به الى النهار ثم قالت يا يوسف انما كنت احبك قبل ان اعرفه فاما اذ عرفته فما ابقت محبته محبة لسواه وما اريد به بدلا حتى قال لها ان الله تعالى امرني بذلك واخبرني انه مخرج منك نبيين فقالت له اذا كان الله تعالى امرك بذلك وجعلني طريقا اليه فطاعة لامر الله تعالى فعندها سكنت اليه فاذن من احب الله تعالى لا يعصيه ولذلك قال ابن المبارك فيه تعصي الاله وانت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع لو كان حبك صادقا لاطعته ان المحب لمن يحب مطيع وفي هذا المعنى قيل ايضا واترك ما اهوى لما قد هويته وارضى بما ترضى وان سخطت نفسي وقال سهل علامة الحب ايثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله تعالى صار حبيبا وانما الحبيب من اجتنب المناهي وهو كما قال لان محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال الله عز وجل يحبهم ويحبونه واذا احبه الله تعالى تولاه ونصره على اعدائه وانما عدوه نفسه وشهواته فلا يخذله الله عز وجل ولا يكله الى نفسه وهواه وشهواته ولذلك قال الله تعالى والله اعلم باعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا فان قلت والعصيان هل يضاد اصل المحبة فاقول انه يضاد كمالها

ولا يضاد اصلها فكم من انسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بانه يضره وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل عليه ما روي ان نعيمان كان يؤتى به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيحده في معصية يرتكبها الى ان اتي به يوما فحده فلعنه رجل وقال ما اكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب وقد قال بعض العارفين اذا كان الايمان في ظاهر القلب احب الله حبا متوسطا واذا دخل سويداء القلب احبه الحب البالغ وترك المعاصي وعلى الجملة في دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل اذا قيل لك اتحب الله تعالى فاسكت فانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت ولقد قال بعض العلماء ليس في الجنة نعيم اعلى من نعيم اهل المعرفة ولا في جهنم عذاب اشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك ومنها ان يكون مستهترا بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه فمن احب شيئا اكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به فعلامة حب الله تعالى حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسوله صلى الله عليه وسلم وحب كل ما ينسب اليه فان من يحب انسانا يحب كلب محلته فالمحبة اذا قويت تعدت من المحبوب الى كل ما يكتنفه بالمحبوب ويحيط به ويتعلق باسبابه وذلك ليس شركة في الحب فان من احب رسول المحبوب لانه رسوله وكلامه لانه كلامه فلم يجاوز حبه الى غيره بل هو دليل كمال حبه ومن غلب حب الله تعالى على قلبه احب جميع خلق الله تعالى لانهم خلقه فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الاخوة والصحبة ولذلك قال الله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله وقال صلى الله عليه وسلم احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه واحبوني لله تعالى وقال سفيان رحمه الله من احب من يحب الله تعالى فانما احب الله تعالى ومن اكرم من يكرم الله تعالى فانما يكرم الله تعالى وحكي عن بعض المريدين قال كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في بدء الارادة فادمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتني فترة فانقطعت عن التلاوة قال فسمعت قائلا يقول في المنام ان كنت تزعم انك تحبني فلم

بحقوق كتابي أما تدبرته فيه من لطيف عتابي قال فانتبهت وقد اشرب
في قلبي محبة القران فعاودت الى حالي وقال ابن مسعود لا ينبغي ان يسال
احدكم عن نفسه الا القران فان كان يحب القران فهو يحب الله تعالى وان
لم يكن يحب القران فليس يحب الله تعالى والقران هو الميعاد وقال سهل
علامة حب الله حب القران وعلامة حب الله وحب القران حب النبي صلى الله
عليه وسلم وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة وعلامة حب
السنة حب الاخرة وعلامة حب الاخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا
ان لا ياخذ منها الا زادا او بلغة الى الاخرة ومنها ان يكون انسه بالخلوة
ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويغتنم هدو الليل
وصفا الوقت به بانقطاع العوائق فاقل درجات الحب التلذذ بالخلوة
بالحبيب والتنعم بمناجاته فمن كان النوم والاشتغال بالحديث الذ عنده
واطيب من مناجاة الله عز وجل كيف تصح محبته قيل لابن ادهم رحمه الله
وقد نزل من الجبل من اين اقبلت فقال من الانس بالله وفي اخبار داود
عليه السلام لا تستانس الى احد من خلقي فاني اقطعك عني فاني انا اقطع
عني رجلين رجل استبطا ثوابي فانقطع ورجل نسيني ورضي بحاله
وعلامة ذلك ان الكله الى نفسه وان ادعه في الدنيا حيرانه ومنها
انه من انس بغير الله كان بقدر انسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا
عن درجة محبته وفي قصة برخ رحمه الله عليه وهو العبد الاسود الذي
استسقى به موسى عليه السلام ان الله تعالى قال لموسى ان برخا نعم العبد
هو لي الا ان فيه عيبا قال يا رب وما عيبه قال يعجبه نسيم الاسحار
فيسكن اليه ومن احبني لم يسكن الى شي وروي ان عابدا عبد الله في
غيضة دهرا فنظر الى طير قد عشش في شجرة ياوي اليها ويصفر
عندها فقال لو حولت مسجدي الى تلك الشجرة وكنت انس بصوت هذا
الطير قال ففعل فاوحى الله تعالى الى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد استانست
بمخلوق لاحطنك درجة لا تنالها بشي من عملك ابدا فاذن علامة المحبة
كمال الانس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به وكمال الاستيحاش
من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة وعلامة الانس
مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة كالذي يخاطب
معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاة

وقع الحريق في داره فلم يشعر به وقطع رجل بعضهم بسبب علة اصابته
وهو في الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب الحب والانس صارت الخلوة والمناجاة جاه
قرة عين يدفع جميع الهموم بل يستغرق الانس والحب قلبه حتى لا يفهم
امور الدنيا ما لم تتكرر على سمعه مرارا مثل العاشق الولهان فانه يكلم الناس
بلسانه وانسه في الباطن بذكر حبيبه فالمحب من لا يطمين الا بمحبوبه وقال
قتادة في قوله تعالى الذين امنوا وتطمين قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمين
القلوب قال هشت اليه واستانست به وقال الصديق رضي الله عنه من ذاق
خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا واوحشه عن جميع البشر
وقال مطرف بن ابي بكر المحب لا يسام من حديث حبيبه واوحى الله تعالى
الى داود عليه السلام قد كذب من ادعى محبتي اذا جنه الليل نام عني اليس
كل محب يحب لقا حبيبه فها انا موجود لمن طلبني وقال موسى عليه السلام
يا رب اين انت فاقصدك فقال عز وجل اذا قصدت فقد وصلت وقال
يحيى بن معاذ الرازي من احب الله تعالى ابغض نفسه وقال ايضا من
لم يكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب يوثر كلام الله على كلام الخلق ولقا الله
تعالى على لقا الخلق والعبادة على خدمة الخلق ومنها ان لا يتاسف على
ما يفوته مما سوى الله تعالى ويعظم تاسفه على فوت كل ساعة خلت من
ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب
والتوبة قال بعض العارفين ان لله عبادا احبوه فاطمانوا اليه فذهب
عنهم التاسف على الفايت فلم يتشاغلوا بحظ انفسهم اذ كان ملك مليكهم
تاما وما شاء كان فما كان لهم فهو واصل اليهم وما فاتهم فبحسن تدبيره
لهم وحق المحب اذا رجع من غفلته في لحظته ان يقبل على محبوبه ويشتغل
بالعتاب ويساله ويقول يا رب باي ذنب قطعت برك عني وابعدتني عن
حضرتك وشغلتني بنفسي وبمتابعة الشيطان فيستخرج ذلك منه صفا
ذكر ورقة قلب يكفر عنه ما سبق من الغفلة وتكون هفوته سببا
لتجدد ذكره وصفا قلبه ومهما لم ير المحب الا المحبوب ولم ير شيا الا منه
لم ياسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم ان المحبوب لم يقدر له
الا ما فيه خيرته ويذكر قوله تعالى وعسى ان تكرهوا شيا وهو خير لكم وقوله
ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ومنها انه يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط
عنه تعبها كما قال بعضهم كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة

وقال الجنيد علامة الحب دوام النشاط والدوب بشهوة وان تغير بدنه
فلا يتغير قلبه وقال بعضهم العمل على المحبة لا يدخله الفتور وقال بعض العلماء
والله ما اشتفى محب الله تعالى من طاعته ولو حل بعظيم الوسايل وكل هذا
مثاله موجود في المشاهدات فان العاشق لا يستثقل السعي في هوى معشوقه
ويستلذ خدمته بقلبه وان كان شاقا على بدنه ومهما عجز بدنه كان احب
الاشيا اليه ان تعاوده القدرة وان يفارقه العجز حتى يشتغل به فهكذا
يكون حب الله تعالى فان كل حب صار غالبا قهر لا محالة ما هو دونه فمن كان محبوبه
احب اليه من الكسل ترك الكسل في خدمته وان كان احب اليه من المال ترك
المال في حبه وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم
يبق له شيا ما كان سبب حالك هذه في المحبة فقال سمعت يوما محبا وقد
خلا بمحبوبه وهو يقول انا والله احبك بقلبي كله وانت معرض عني بوجهك كله
فقال له المحبوب ان كنت تحبني فايش تنفق علي فقال يا سيدي املكك ما املك
ثم انفق عليك روحي حتى تهلك فقلت حب خلق لخلق وعبد لعبد فكيف
بعبد لمعبود فكان هذا سببه ومنها ان يكون مشفقا على جميع عباد الله
رحيما لهم شديدا على جميع اعدا الله وعلى كل من يقارف شيا مما يكرهه الله تعالى
كما قال عز وجل اشدا على الكفار رحما بينهم ولا تاخذه في الله لومة لايم ولا يصرفه
عن الغضب لله صارف وبه وصف الله تعالى اولياه اذ قال في بعض الكتب
الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشي وياوون الى ذكري كما ياوي النسر
الى وكره ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر اذا حرد فانه لا يبالي قل الناس
او كثروا وانظر الى هذا المثال فان الصبي اذا كلف بالشي لم يفارقه اصلا وان
اخذ منه لم يكن له شغل الا البكا والصياح حتى يرد اليه فان نام اخذه معه
في ثيابه فاذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده فرح وضحك
ومن نازعه فيه ابغضه ومن اعطاه اياه احبه واما النمر فانه لا يملك نفسه
عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه ان يهلك نفسه فهذه علامات
المحبة فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفى
في الاخرة شرابه وعذب مشربه ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم
في الاخرة بقدر حبه اذ يمزج شرابه بقدره من شراب المقربين كما قال
تعالى في الابرار ان الابرار لفي نعيم ثم قال يسقون من رحيق مختوم ختامه
مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب

بها المقربون فانما طاب شراب الابرار لشوب الشراب الصرف الذي هو
للمقربين والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما ان الكتاب عبر به عن
جميع الاعمال فقال تعالى كلا ان كتاب الابرار لفي عليين ثم قال يشهده المقربون
فكان امارة علو كتابه انه ارتفع الى حيث يشهده المقربون وكما كان الابرار
يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ومشاهدتهم لهم فكذلك
يكون حالهم في الاخرة لقوله ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وقال تعالى
كما بدانا اول خلق نعيده وقال تعالى جزا وفاقا اي وافق الجزا اعمالهم
فقوبل الخالص بالصرف من الشراب وقوبل المشوب بالمشوب وشوب
كل شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبه واعماله فمن يعمل مثقال ذرة
خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا
ما بانفسهم وان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها وان تك
حسنة يضاعفها وانه كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين
فمن كان حبه في الدنيا ورجاوه لنعيم الجنة والحور العين والقصور
مكن من الجنة ليتبوا منها حيث يشا فيكون فيلعب مع الولدان ويتمتع
بالنسوان ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه الا
حبه بالاخلاص والصدق انزل في مقعد صدق عند مليك مقتدر فالابرار
يرتعون في البساتين ويتنعمون في الجنان مع الحور والولدان والمقربون
ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالاضافة
الى ذرة منها فقوم نقضا شهوة البطن والفرج مشغولون وللمجالسة اقوام
اخرون ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اكثر اهل الجنة البله وعليون لذوي الالباب
ولما قصرت الافهام عن درك معنى عليين عظم امره فقال وما ادريك ما عليون
كما قال القارعة ما القارعة وما ادريك ما القارعة ومنها ان يكون في حبه
خايفا متضايلا تحت الهيبة والتعظيم وقد يظن ان الخوف يضاد
الحب وليس كذلك بل ادراك العظمة يوجب الهيبة كما ان ادراك
الجمال يوجب الحب ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست
لغيرهم وبعض مخاوفهم اشد من بعض فاولها خوف الاعراض واشد
منه خوف الحجاب واشد منه خوف الابعاد وهذا المعنى من سورة
هود هو الذي شيب سيد المحبين صلى الله عليه وسلم اذ سمع قوله تعالى
الا بعدا لعاد قوم هود الا بعدا لثمود الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود

وانما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من الف القرب وذاقه وتنعم به
فحديث البعد في حق المبعدين شيب سماعه اهل القرب في القرب ولا يحن
الى القرب من الف البعد ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب
ثم خوف الوقوف وسلب المزيد فانا قدمنا ان درجات القرب لا نهاية لها
وحق العبد ان يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من امسه فهو ملعون
وكذلك قال ايضا صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم
والليلة سبعين مرة وانما كان استغفاره من القدم الاول فانه كان بعدا
بالاضافة الى القدم الثاني ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق
والالتفات الى غير المحبوب كما روي في بعض الكتب ان الله تعالى يقول
ان ادنى ما اصنع بالعالم اذا آثر شهوات الدنيا على طاعتي ان اسلبه لذة
مناجاتي فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة العموم فاما الخصوص
فيحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى والعجب والركون الى ما ظهر من
مبادي اللطف وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه الا
ذوو الاقدام الراسخة ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته سمع ابراهيم
ابن ادهم رحمه الله قايلا ينشد في سياحته على الجبل

كل شي لك مغفور … سوي الاعراض عنا
قد وهبنا لك ما فات … بقي ما فات منا

فاضطرب وغشي عليه فلم يفق يوما وليلة وطرت عليه احوال ثم قال
سمعت النداء من الجبل يا ابرهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت
ثم خوف السلو عنه فان المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر
عن طلب المزيد ولا يتسلي الا بلطف جديد فان تسلى عن ذلك كان ذلك
سبب وقوفه او سبب رجعته والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر
كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر فان هذه التقلبات في القلب
لها اسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها واذا اراد الله
تعالى المكر به واستدراجه اخفى عنه ما ورد عليه من السلو فيقف مع
الرجا ويغتر بحسن الظن او بغلبة الغفلة والهوي والنسيان
وكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملايكة من العلم والعقل
والذكر والبيان وكما ان من اوصاف الله تعالى ما يظهر فيه فيقتضي

هيجان الحب وهي اوصاف اللطف والرحمة والحكمة فمن اوصافه ما يلوح فيورث
السلو كاوصاف الجبرية والعزة والاستغناء وذلك من مقدمات المكر
والشقاء والحرمان ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه الى حب
غيره وذلك هو المقت والسلو مقدمة هذا المقام والاعراض والحجاب مقدمة
السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملالة وظايف
الاوراد اسباب هذه المعاني ومقدماتها وظهور هذه الاسباب دليل على
النقل من مقام الحب الى مقام المقت نعوذ بالله منه وملازمة الخوف لهذه الامور
وشدة الحذر منه بصفا المراقبة دليل صدق الحب فان من احب شيا خاف
لا محالة فقده فلا يخلو المحب عن خوف اذا كان المحبوب مما يمكن فواته وقد قال
بعض العارفين من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالعجب
والبسط والادلال ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه
بالبعد والاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والخوف احبه الله تعالى
فقربه الله تعالى وعلمه ومكنه فالمحب لا يخلو عن خوف والخايف لا يخلو عن
محبة ولكن الذي غلب عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف الا يسير
يقال هو في مقام المحبة ويعد من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلا
من سكر الحب فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم يثبت لذلك طاقة البشر
فانما الخوف يعدله ويخفف عنه وقعه على القلب فقد روي في الاخبار ان بعض
الصديقين سأله بعض الابدال ان يسال الله تعالى ان يرزقه ذرة من معرفته
ففعل ذلك فهام في الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقي شاخصا سبعة ايام
لا ينتفع بشي ولا ينتفع به شي فسال له الصديق ربه فقال يا رب انقصه
من الذرة بعضها فاوحى الله تعالى اليه انما اعطيناه جزا من ماية الف
جزء من ذرة من المعرفة وذلك ان ماية الف عبد سالوني شيا من المحبة
في الوقت الذي سالني هذا فاخرت اجابتهم الى ان شفعت انت لهذا فلما اجبتك
فيما سالت اعطيتهم كما اعطيته فقسمت ذرة من المعرفة بين ماية الف
عبد فهذا ما اصابه من ذلك فقال سبحانك يا احكم الحاكمين انقصه مما اعطيته
فاذهب الله عنه جملة الجزء وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من
عشرة الاف الف جزء من ذرة فاعتدل خوفه وحبه ورجاوه وسكن وصار
كساير العارفين وقد قيل في وصف حال العارف

قريب الوجد ذو مرمي بعيد … عن الاحرار منهم والعبيد

غريب الوصف ذو علم غريب … كان فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه فغابت … عن الابصار الا للشهيد
يري الاعياد في الاوقات تجري … له في كل يوم الف عيد
وللاحباب افراح بعيد … ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد ينشد ابياتا يشير بها الى اسرار احوال العارفين وان ذلك لا
يجوز اظهاره

سرت باناس في الغيوب قلوبهم … فحلوا بقرب الماجد المتفضل
عراصا بقرب الله في ظل عرشه … تجول بها ارواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهي … ومصدرهم عنها لما هو اكمل
تروح بعز مفرد من صفاته … وما كتمه لديه اولى واعدل
سأكتم من علمي به ما يصونه … وابذل منه ما اري الحق يبذل
واعطي عباد الله منه حقوقهم … وامنع منه ما اري المنع افضل
على ان للرحمن سرا يصونه … الى اهله في السر والصون اجمل

فامثال هذه المعارف التي اليها الاشارة لا يجوز ان يشترك الناس فيها ولا يجوز
ان يظهرها من انكشف له شي منها لمن لم ينكشف بل لو اشترك الناس فيها لخربت
الدنيا فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا بل لو اكل الناس كلهم الحلال اربعين
يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها وبطلت الاسواق والمعايش بل لو اكل العلما من
الحلال لاشتغلوا بانفسهم ولوقفت الالسنة والاقلام عن كثير مما انتشر
من العلوم ولكن لله في ما هو شر في الظاهر اسرار وحكم كما ان له في الخير اسرارا وحكما
ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقي
من اظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب واجلالا له وهيبة منه وغيرة على سره
فان الحب سر من اسرار الحبيب ولانه قد يدخل في الدعوى ما يجاوز حد المعنى
ويزيد عليه فيكون ذلك من الافترا وتعظم العقوبة عليه في العقبي وتعجل
عليه البلوي في الدنيا نعم قد يكون للمحب سكرة في حبه حتى يدهش فيه
ويضطرب احواله فيظهر عليه حبه فان وقع ذلك عن غير تعمل واكتساب
فهو معذور لانه مقهور وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد
يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه فالقادر على الكتمان يقول

وقالوا قريب قلت ما انا صانع … بقرب شعاع الشمس لو كان في حجري
فما لي منه غير ذكر بخاطر … يهيج نار الشوق والحب في صدري

والعاجز عنه يقول يخفي فيبدي الدمع اسراره … ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول ومن قلبه مع غيره كيف حاله … ومن سره في جفنه كيف يكتم
وقال بعض العارفين اكثر الناس من الله بعدا اكثرهم اشارة به كانه اراد من يكثر
التعريض به في كل شي ويظهر التصنع بذكره عند كل احد فهو ممقوت عند المحبين
والعلماء بالله تعالى ودخل ذو النون على بعض اخوانه ممن كان يذكر المحبة
فراه مبتلا ببلاء فقال لا يحبه من وجد الم الضر به فقال الرجل لكني اقول
لا يحبه من لم يتنعم بضره فقال ذو النون ولكني اقول لا يحبه من شهر نفسه
بحبه فقال الرجل استغفر الله واتوب اليه فان قلت المحبة منتهى المقامات
واظهارها اظهار للخير فلماذا تستنكر فاعلم ان المحبة محمودة وظهورها
ايضا محمود وانما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار
وحق المحب ان ينم على حبه الخفي افعاله واحواله دون اقواله وافعاله بل ينبغي ان
يظهر حبه من غير قصد منه الى اظهار الحب ولا الى اظهار الفعل الدال على الحب
بل ينبغي ان يكون قصد المحب اطلاع الحبيب واما ارادته اطلاع غيره فشرك
في الحب وقادح فيه كما ورد في الانجيل اذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم
شمالك ما صنعته يمينك والذي يري الخفيات يجزيك به علانية واذا
صمت فاغسل وجهك وادهن راسك لئلا يعلم بذلك غير ربك فاظهار
القول والفعل كله مذموم الا اذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت
الاعضا فلا يلام فيه صاحبه وحكي ان رجلا راي من بعض المجانين ما
استجهله فيه فاخبر بذلك معروف الكرخي فتبسم ثم قال يا اخي له محبون
صغار وكبار وعقلا ومجانين فهذا الذي رايته من مجانينهم
ومما يكره التظاهر بالحب فسببه ان المحب ان كان عارفا وعرف احوال
الملايكة في حبهم الدايم وشوقهم اللازم الذي به يسبحون الليل والنهار
لا يفترون لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يومرون لاستنكف من
نفسه ومن اظهار حبه وعلم قطعا انه اخس المحبين في مملكته وان حبه
انقص من حب كل محب لله تعالى قال بعض المكاشفين من المحبين
عبدت الله تعالى ثلاثين سنة باعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود
واستفراغ الطاقة حتى ظننت ان لي عند الله شيا وذكر اشيا من
مكاشفات ايات السموات في قصة طويلة قال في اخرها فبلغت صفا من
الملايكة بعدد جميع ما خلق الله من شي فقلت ما انتم فقالوا نحن المحبون لله
تعالى نعبده ههنا منذ ثلاثماية الف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه ولا ذكرنا غيره

فاستحييت من اعمالي فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنهم في جهنم فاذًا من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحيا خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته واقدامه واحجامه وتردداته كما حكي عن الجنيد رحمة الله عليه قال مرض استاذنا السري رحمة الله عليه فلم نعرف لعلته دوا ولا عرفنا لها سببا فوصف لنا طبيب حاذق فاخذنا قارورة مايه فنظر اليه الطبيب مليا ثم قال اراه بول عاشق قال الجنيد فصعقت وغشي علي ووقعت القارورة من يدي ثم رجعت الى السري فاخبرته فتبسم ثم قال قاتله الله ما ابصره قلت يا استاذ وتتبين المحبة في البول قال نعم وقد قال السري مرة لو شيت ان اقول ما ايبس جلدي على عظمي ولا اسل جسمي الا حبه لقلت ثم غشي عليه وتدل الغشية على انه افصح في غلبة الوجد ومقدمات الغشية فهذه مجامع علامات المحبة وثمراته ومنها الانس والرضى كما سياتي وبالجملة جميع محاسن الاخلاق ثمرة الحب وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذايل الاخلاق نعم قد يحب الله لاحسانه اليه وقد يحبه لجلاله وجماله وان لم يحسن اليه والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد الناس في محبة الله تعالى عام وخاص فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام احسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا ان ارضوه الا انهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والاحسان فاما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك فلما عرفوا صفاته الكاملة واسماءه الحسنى لم يمتنعوا ان احبوه اذ استحق عندهم المحبة بذلك لانه اهل لها ولو ازال عنهم جميع النعم نعم من الناس من يحب هواه وعدو الله ابليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل فيظن انه محب لله تعالى وهو الذي فقد منه العلامات او يلبس بها نفاقا وريا وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك كعلماء السوء والقراء السوء اوليك بغضا الله في ارضه وكان سهل اذا تكلم مع انسان قال يا دوست اي حبيب فقيل له قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا فقال في اذن القايل سرا لا يخلوا اما ان يكون مومنا او منافقا فان كان مومنا فهو حبيب الله وان كان منافقا فهو حبيب ابليس وقال ابو تراب النخشبي رحمه الله في علامات المحبة ابيات وهي هذه لا تخدعن فللحبيب دلايل ولديه من تحف الحبيب

منها تنعمه بما يبليه وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة والفقر اكرام ولطف عاجل
ومن الدلايل ان يرى من عزمه طوع الحبيب وان الح العاذل
ومن الدلايل ان يرى متبسما والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلايل ان يرى متقشفا متحفظا من كل ما هو قايل
ومن الدلايل ان يرى متفهما لكلام من يحظى لديه السايل
وقيل انها ليحيى بن معاذ قال
ومن الدلايل ان تراه مشمرا في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلايل حزنه ونحيبه جوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلايل ان تراه مسافرا نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلايل زهده فيما يرى من دار ذل والنعيم الزايل
ومن الدلايل ان تراه مسلما كل الامور الى المليك العادل
ومن الدلايل ان تراه باكيا ان قد راه على قبيح فاعل
ومن الدلايل ان تراه راضيا بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلايل ضحكه بين الورى والقلب محزون كقلب الثاكل

بيان معنى الانس بالله عز وجل قد ذكرنا ان الانس والخوف والشوق من اثار المحبة الا ان هذه اثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته فاذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب الى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب الى الطلب وانزعج له وهاج اليه فتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقا وهو بالاضافة الى امر غايب واذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت الى ما لم يدركه بعد استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره انسا وان كان نظره الى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر امكان الزوال والبعد تالم قلبه بهذا الاستشعار فيسمى تالمه خوفا وهذه الاحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لاسباب تقتضيها لا يمكن حصرها فالانس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى انه اذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هاهنا

نظر بعضهم حيث قيل له انت مشتاق فقال لا انما الشوق الى غايب فاذا كان الغايب حاضرا فالى من يشتاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت الى ما بقي في الامكان من مزايا الالطاف ومن غلب عليه حال الانس لم تكن شهوته الا في الانفراد والخلوة كما حكي ان ابراهيم بن ادهم رحمه الله نزل من الجبل فقيل من اين اقبلت فقال من الانس بالله وذلك لان الانس بالله يلازمه التوحش من غير الله بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من اثقل الاشيا على القلب كما روي ان موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرا لا يسمع كلام احد من الناس الا اخذه الغشيان لان الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج عن القلب عذوبة ما سواه ولذلك قال بعض الحكما في دعايه يا من انسني بذكره واوحشني من خلقه وقال الله تعالى لداود عليه السلام كن بي مستانسا ومن سواي مستوحشا وقيل لرابعة بم نلت هذه المنزلة قالت بتركي ما لا يعنيني وانسي بمن لم يزل وقال عبد الواحد بن زيد مررت براهب فقلت له يا راهب لقد اعجبتك الوحدة فقال يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت اليها من نفسك الوحدة راس العبادة فقلت يا راهب ما اقل ما تجد في الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم قلت يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الانس بالله تعالى قال اذا صفا الود وخلصت المعاملة قلت متى يصفو الود قال اذا اجتمع الهم فصار هما واحدا في الطاعة وقال بعض الحكما عجبا للخلايق كيف ارادوا بك بدلا عجبا للقلوب كيف استانست بسواك عنك فان قلت فما علامة الانس فاعلم ان علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو يكون كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة وغريب في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغايب في حضور ومخالط بالبدن منفرد بالقلب المستغرق بعذوبة الذكر كما قال علي رضي الله عنه في وصفهم هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون وانسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بابدان ارواحها معلقة بالمحل الاعلى اوليك خلفا الله في ارضه والدعاة الى دينه فهذا معنى الانس بالله تعالى وهذه علامته وهذه شواهده وقد ذهب بعض المتكلمين الى انكار الانس والشوق والحب لظنه ان ذلك يدل على التشبيه وجهله بان جمال المدركات بالبصاير اكمل من جمال المبصرات ولذة معرفتها اغلب على ذوي القلوب ومنهم احمد بن غالب يعرف بغلام الخليل انكر على

الجنيد وعلى ابي الحسين النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى انكر بعضهم مقام الرضى وقال ليس الا الصبر واما الرضا فغير متصور وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين الا على القشور فظن انه لا وجود الا للقشر فان المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الحس قشر مجرد ووراها اللب المطلوب فمن لم يصل من الجوز الا الى قشره ظن ان الجوز خشب كله واستحال عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل

الانس بالله لا يحويه بطال وليس يدركه بالحول محتال
والانسون رجال كلهم نجب وكلهم صفوة لله عمال

بيان معنى الانبساط والادلال الذي تثمره غلبة الانس

اعلم ان الانس اذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب فانه يثمر نوعا من الانبساط في الاقوال والافعال والمناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراة وقلة الهيبة لكنه محتمل ممن اقيم في مقام الانس ومن لم يقم في ذلك المقام وتشبه بهم في الفعل والكلام هلك به واشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الاسود رحمه الله عليه الذي امر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام ان يساله ليستسقي لهم لبني اسرايل بعد ان قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام ليستسقي لهم في سبعين الفا فاوحى الله تعالى اليه كيف استجيب لهم وقد اظلمت عليهم ذنوبهم سرايرهم خبيثة يدعونني على غير يقين ويامنون مكري ارجع الى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له يخرج حتى استجيب له فسال عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينا موسى عليه السلام ذات يوم يمشي في طريق اذا بعبد اسود قد استقبله بين عينيه تراب من اثر السجود في شملة قد عقدها على عنقه فعرفه موسى عليه السلام بنور الله فسلم عليه وقال ما اسمك فقال اسمي برخ قال فانت طلبتنا منذ حين اخرج فاستسق لنا فخرج فقال في كلامه ما هذا من فعالك ولا هذا من حلمك وما الذي بدا لك انقصت عليك عيونك ام عاندت الرياح عن طاعتك ام نفد ما عندك ام اشتد غضبك على المذنبين الست كنت غفارا قبل خلق الخطايين خلقت الرحمة وامرت بالعطف ام ترينا انك ممتنع ام تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة فما برح حتى اخضلت بنو اسرايل بالقطر وانبت الله تعالى العشب في نصف يوم

حتى بلغ الركب فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فاوحى الله تعالى اليه
ان برخ يضحكني كل يوم ثلاث مرات ۞ وعن الحسن قال احترقت
اخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خص لم يحترق وابو موسى يومئذ
امير بالبصرة فاخبر بذلك فبعث الى صاحب الخص فاتي بشيخ فقال له
يا شيخ ما بال خصك لم يحترق فقال اني اقسمت على ربي تعالى لا يحرقه
فقال ابو موسى رضي الله عنه اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
يكون في امتي قوم شعثة رؤسهم دنسة ثيابهم لو اقسموا على الله لابرهم
وقيل وقع حريق بالبصرة فجاء ابو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار
فقال له امير البصرة انظر لا تحرق بالنار فقال اني اقسمت على ربي
لا يحرقني بالنار قال فاعزم عليها ان تطفى فعزم عليها فطفئت ۞ وكان
ابو حفص يمشي ذات يوم فاستقبله رستاقي مدهوش فقال له
ابو حفص ما اصابك فقال ضل حماري ولا املك غيره فوقف ابو
حفص وقال وعزتك لا اخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره
قال فظهر الحمار في الوقت ومشى ابو حفص رحمه الله فهذا وامثاله
يجري لذوي الانس وليس لغيرهم ان يتشبه بهم قال الجنيد
اهل الانس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم اشياء
هي كفر عند العامة وقال مرة لو سمعها العموم لكفروهم وهم
يجدون المزيد في احوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ويليق بهم
واليه اشار القايل ۞

قوم تخالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ولا يستبعدن رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف
مقامهما ففي القران تنبيهات على هذه المعاني لو فطنت وفهمت
فجميع قصص القران تنبيهات لاولي البصاير والابصار حتى ينظرون
اليها بعين الاعتبار وانما هي عند ذوي الاغترار من الاسمار فاول القصص
قصة آدم عليه السلام وابليس اما تراهما كيف اشتركا في اسم المعصية
والمخالفة ثم تباينا في الاجتباء والعصمة اما ابليس فابلس من رحمته
وقيل انه من المبعدين واما آدم عليه السلام فقيل وعصى آدم
ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وقد عاتب الله

نبيه صلى الله عليه وسلم في الاعراض عن عبد والاقبال على عبد آخر وهما في العبودية
سيان ولكن في الحال مختلفان فقال تعالى واما من جاءك يسعى وهو يخشى فانت عنه تلهى
وفي الآية الاخرى واما من استغنى فانت له تصدى وكذلك امره بالقعود مع طايفة فقال
تعالى واذا جاءك الذين يؤمنون باياتنا فقل سلام عليكم وامره بالاعراض عن غيرهم
فقال الله تعالى واذا رايت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى قال فلا تقعد بعد
الذكرى مع القوم الظالمين وقال تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة
والعشي يريدون وجهه وكذا الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون
بعض فمن انبساط الانس قول موسى عليه السلام ان هي الا فتنتك تضل بها من
تشاء وتهدي من تشاء وقوله في التعلل والاعتذار لما قيل له اذهب الى فرعون فقال ولهم
علي ذنب وقوله اخاف ان يكذبون ويضيق صدري وقوله اننا نخاف ان يفرط علينا
او ان يطغى وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الادب لان الذي اقيم مقام
الانس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام ما دون هذا لما اقيم مقام القبض
والهيبة فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ونودي عليه الى يوم القيمة
ولولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم قال الحسن العراء هو القيمة
ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم ان يقتدي به وقيل واصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب
الحوت اذ نادى وهو مكظوم وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الاحوال والمقامات
وبعضها لما سبق في الازل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد وقد قال الله
تعالى ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وقال تعالى منهم من كلم الله وقال ورفع
بعضهم درجات وكان عيسى عليه السلام من المفضلين ولادلاله سلم على نفسه
فقال والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا وهذا الانبساط منه
لما شاهد من اللطف في مقام الانس واما يحيى بن زكريا عليهما السلام اقيم مقام الهيبة
والحياء فلم ينطق حتى سلم عليه خالقه جل وعز فقال وسلام عليه وانظر كيف احتمل
لاخوة يوسف ما فعلوه بيوسف وقد قال بعض العلماء قد عددت من اول قوله
اذ قالوا ليوسف واخوه احب الى ابينا منا الى راس العشرين من اخباره تعالى عن زهدهم
فيه نيفا واربعين خطيئة بعضها اكبر من بعض وقد تجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث
والاربع فغفر لهم وعفى عنهم ولم يحتمل لعزير عليه السلام مسئلة واحدة سأل
عنها في القدر حتى قيل انه محي من ديوان النبوة وكذلك كان بلعم بن باعورا من اكابر
العلماء فاكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك وكان آصف رحمه الله عليه من المسرفين
وكانت معصيته في الجوارح فعفي عنه فقد روي ان الله تعالى اوحى الى سليمن بن داود عليهما السلام

يا راس العابدين ويا ابن محجة الزاهدين الى كم يعصيني ابن خالتك آصف وانا احلم
عنه مرة بعد مرة فوعزتي وجلالي لئن اخذته عصفة من عصفاتي
عليه لاتركنه مثلة لمن معه ونكالا لمن بعده فلما دخل آصف على سليمن عليه السلام
اخبره بما اوحى الله تعالى اليه فخرج حتى علا كثيبا من رمل ثم رفع راسه ويديه
نحو السماء وقال الهي وسيدي انت انت وانا انا فكيف اتوب ان لم تتب علي وكيف
استعصم ان لم تعصمني وانه لم تعصمني لاعودن فاوحى الله تعالى اليه صدقت
يا آصف انت انت وانا انا استقبل التوبة فقد تبت عليك وانا التواب الرحيم وهذا
كلام مدل به عليه وهارب منه اليه وناظر اليه به ۞ وفي الخبر ان الله تعالى اوحى الى
عبد تداركه بعد ان كان اشفا على الهلكة يا عبدي كم من ذنب واجهتني به غفرته
لك قد اهلكت في دونه امة من الامم فهذه سنة الله في عباده بالتفضيل والتقديم
والتاخير على ما سبقت به مشيته الازلية وهذه القصص اوردت في القران
ليعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل فما في القران شيء الا وهو هدى ونور
وتعرف من الله تعالى الى خلقه فتارة يتعرف اليهم بالتقديس فيقول قل هو الله احد الله
الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد وتارة يتعرف اليهم بصفات جلاله فيقول
الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر وتارة يتعرف اليهم في افعاله
المخوفة والمرجوة فيتلو عليهم سنته في انبيائه واعدائه فيقول الم تر كيف
فعل ربك بعاد ارم ذات العماد الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل ولا يعدو القران
هذه الاقسام الثلاثة وهي الارشاد الى معرفة الله تعالى وتقديسه او معرفة صفاته
واسمائه او معرفة افعاله وسنته مع عباده ولما اشتملت سورة الاخلاص على
احد هذه الاقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث
القران وقال من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القران لان منتهى التقديس
ان يكون واحدا في ثلاثة امور لا يكون حاصلا منه من هو من نوعه وشبهه
ودل عليه قوله لم يلد ولا يكون هو حاصلا ممن هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله
تعالى ولم يولد ولا يكون في درجته وان لم يكن اصلا له ولا فرعا من هو مثله ودل
عليه قوله ولم يكن له كفوا احد ويجمع جميع ذلك قوله تعالى قل هو الله احد وجملته
تفصيل قولك لا اله الا الله فهذه اسرار القران ولا تتناهى امثال هذه الاسرار
في القران فلا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ولذلك قال ابن مسعود ثوروا القران
والتمسوا غرايبه ففيه علم الاولين والآخرين وهو كما قال ولا يعرفه الا من طال
في آحاد كلماته فكره وصفى له فهمه حتى يشهد له كل كلمة منه بانه كلام جبار

قاهر مليك قادر مقتدر وانه خارج عن حد استطاعة البشر واكثر اسرار القران
معناه في طي القصص والاخبار فكن حريصا على استنباطها لينكشف لك منها
من العجايب ما يستحقر معها العلوم المزخرفة الخارجة عنه فهذا ما اردنا ذكره
من معنى الانس والانبساط الذي هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه

القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته

اعلم ان الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من اعلى مقامات المقربين وحقيقته
غامضة على الاكثرين وما يدخل عليه من التشابه والايهام غير منكشف الا لمن
علمه الله التاويل وفقهه في الدين فقد انكر المنكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى
ثم قالوا ان امكن الرضا بكل شيء لانه فعل الله فينبغي ان يرضى بالكفر والمعاصي وانخدع
بذلك قوم فراوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الانكار والاعتراض من باب التسليم
لقضاء الله تعالى ولو انكشفت هذه الاسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع
لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال صلى الله عليه وسلم اللهم فقهه
في الدين وعلمه التاويل فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ثم بحكايات الاحوال من اهل الرضا
ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى ثم نذكر ما يظن انه من تمام
الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصي ۞

بيان فضيلة الرضا

اما من الآيات فقوله تعالى رضي الله عنهم ورضوا عنه وقد قال تعالى هل جزاء الاحسان
الا الاحسان ومنتهى الاحسان رضا الله تعالى عن عبده وهو ثواب رضا العبد عنه
وقال تعالى ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر فقد رفع الله تعالى
الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال ان الصلاة تنهى عن
الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر فكما ان مشاهدة المذكور في الصلاة اكبر من الصلاة
فرضوان رب الجنة اعلى من الجنة بل هو غاية مطالب سكان الجنان وفي الحديث
ان الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك يا ربنا فسؤالهم الرضا
بعد النظر نهاية التفضيل واما رضا العبد فسنذكر حقيقته واما رضوان الله عن
العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله تعالى للعبد ولا يجوز ان يكشف عن
حقيقته اذ تقصر افهام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بادراكه من نفسه
وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر اليه عز وجل وانما سألوا الرضا لانه سبب
دوام النظر فكانهم راوا غاية الغايات واقصى الاماني لما ظفروا بنعيم النظر
فلما امروا بالسؤال لم يسألوا الا دوامه وعلموا ان الرضا هو سبب دوام رفع

الحجاب وقال تعالى ولدينا مزيد قال بعض المفسرين ياتي اهل الجنة في وقت المزيد
ثلاث تحف من عند رب العالمين احدها هدية من عند الله تعالى ليس عندهم
في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين والثانية
السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهدية وهو قوله تعالى سلام قولا من
رب رحيم والثالثة يقول الله تعالى اني عنكم راض فيكون ذلك افضل من الهدية
والتسليم فذلك قوله تعالى ورضوان من الله اكبر اي من النعيم الذي هم فيه
فهذا فضل رضا الله وهو ثمرة رضا العبد واما الاخبار فقد روي ان النبي
صلى الله عليه وسلم سال طايفة من اصحابه ما انتم فقالوا مومنون فقال صلى الله عليه وسلم
ما علامة ايمانكم قالوا نصبر على البلا ونشكر عند الرخا ونرضى بمواقع القضا
فقال صلى الله عليه وسلم مومنون ورب الكعبة وفي خبر اخر انه قال صلى الله عليه وسلم
حكما علما كادوا من فقههم ان يكونوا انبيا وفي الخبر طوبى لمن هدي للاسلام وكان
رزقه كفافا ورضي به وقال صلى الله عليه وسلم من رضي من الله تعالى بالقليل من
الرزق رضي الله منه بالقليل من العمل وقال صلى الله عليه وسلم اذا احب الله عبدا
ابتلاه فان صبر اجتباه وان رضي اصطفاه وقال صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم
القيمة انبت الله تعالى لطايفة من امتي اجنحة فيطيرون من قبورهم الى الجنان
فيسرحون فيها ويتنعمون كيف شاوا فتقول لهم الملايكة هل رايتم الحساب
فيقولون ما راينا حسابا فيقولون هل جزتم الصراط فيقولون ما راينا صراطا فيقولون
لهم هل رايتم جهنم فيقولون ما راينا جهنم فتقول الملايكة من امة من انتم فيقولون
من امة محمد صلى الله عليه وسلم فيقولون نشدناكم الله حدثونا ما كانت اعمالكم
في الدنيا فيقولون خصلتان كانتا فينا فبلغنا الله تعالى هذه المنزلة بفضل
رحمته فيقولون وما هما فيقولون كنا اذا خلونا نستحي ان نعصيه ونرضى
باليسير مما قسم لنا فتقول الملايكة يحق لكم هذا وقال صلى الله عليه وسلم اعطوا
الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا وفي اخبار موسى
عليه السلام انه قيل له سل لنا ربك امرا اذا نحن فعلناه يرضى به عنا فقال موسى
عليه السلام الهي قد سمعت ما قالوا فقال تعالى يا موسى قل لهم يرضون عني حتى
ارضى عنهم ويشهد لهذا ما روي عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال من احب
ان يعلم ما له عند الله تعالى فلينظر ما لله تعالى عنده فان الله تعالى ينزل العبد
منه حيث انزله العبد من نفسه وفي اخبار داود عليه السلام ما

لاوليائي والهم بالدنيا ان الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم يا داود ان
محبتي من اوليائي ان يكونوا روحانيين لا يغتمون وروي ان موسى عليه السلام
قال يا رب دلني على امر فيه رضاك حتى اعمله فاوحى الله تعالى اليه ان رضاي في كرهك
وانت لا تصبر على ما تكره قال يا رب دلني عليه قال فان رضاي في رضاك بقضائي وفي
مناجاة موسى عليه السلام اي رب اي خلقك احب اليك قال من اذا اخذت منه المحبوب
سالمني قال فاي خلقك انت عليه ساخط قال من يستخيرني في الامر فاذا قضيت
له سخط قضائي وقد روي ما هو اشد منه ان الله تعالى قال انا الله لا اله الا انا
من لم يصبر على بلائي ولم يشكر لنعمائي ولم يرض بقضائي فليتخذ ربا سوائي
ومثله ايضا في الشدة قوله تعالى فيما اخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال قال تعالى
قدرت المقادير ودبرت التدبير واحكمت الصنع فمن رضي فله الرضا مني حتى
يلقاني ومن سخط فله السخط مني حتى يلقاني وفي الخبر المشهور يقول الله تعالى
خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير واجريت الخير على يديه وويل
لمن خلقته للشر واجريت الشر على يديه وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف
وفي الاخبار السالفة ان نبيا من الانبيا شكا الى الله عز وجل الجوع والفقر
والقمل عشر سنين فما اجيب له ثم اوحى الله تعالى اليه كم تشكوا هذا كان بدوك
عندي في ام الكتاب قبل ان اخلق السموات والارض وهكذا سبق لك مني وهكذا
قضيته عليك قبل ان اخلق الدنيا افتريد ان اعيد خلق الدنيا من اجلك ام تريد
ان ابدل ما قدرته عليك فيكون ما تحب فوق ما احب ويكون ما تريد فوق
ما اريد وعزتي وجلالي لئن تلجلج هذا في صدرك مرة اخرى لامحونك من ديوان
النبوة وروي ان آدم عليه السلام كان بعض اولاده الصغار يصعدون
على بدنه وينزلون يجعل احدهم رجله على اضلاعه كهيئة الدرج فيصعد
الى راسه ثم ينزل على اضلاعه كذلك وهو مطرق الى الارض لا ينطق
ولا يرفع راسه فقال له بعض ولده يا ابت اما ترى ما يصنع هذا بك
لو نهيته عن هذا فقال يا بني اني رايت ما لم تروا وعلمت ما لم تعلموا اني تحركت
حركة واحدة فاهبطت من دار الكرامة الى دار الهوان ومن دار النعيم الى دار
الشقا فاخاف ان اتحرك حركة اخرى فيصيبني ما لا اعلم وقال انس بن مالك
خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لشي فعلته لم فعلته
ولا لشي لم افعله الا فعلته ولا قال صلى الله عليه وسلم في شي كان ليته لم يكن ولا لشي

لم يكن ليته كان وكان اذا خاصمني مخاصم من اهله يقول صلى الله عليه وسلم دعوه
لو قضي شي لكان ويروى انه اوحى الى داود عليه السلام يا داود تريد واريد
وانما يكون ما اريد فان سلمت لما اريد كفيتك ما تريد وان لم تسلم لما اريد اتعبتك
فيما تريد ثم لا يكون الا ما اريد واما الاثار فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما
اول من يدعى الى الجنة يوم القيمة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال وقال عمر بن
عبد العزيز ما بقي لي سرور الا في مواقع القدر وقيل له ما تشتهي فقال ما يقضي الله
وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضا فليس لحمقه دوا وقال الفضيل
ان لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك وقال عبد العزيز بن ابي
رواد ليس الشان في اكل خبز الشعير والخل ولا في لبس الصوف والشعر
ولكن الشان في الرضا عن الله تعالى وقال عبد الله بن مسعود لان الحس جمرة
احرقت ما احرقت وابقت ما ابقت احب الي من ان اقول لشي كان ليته لم يكن
او لشي لم يكن ليته كان ونظر رجل الى قرحة في رجل محمد بن واسع فقال
له اني لارحمك من هذه القرحة فقال اني لاشكرها مذ خرجت اذ لم تخرج
في عيني وروي في الاسرائيليات ان عابدا عبد الله تعالى دهرا طويلا فاري
في المنام فلانة الراعية رفيقتك في الجنة فسال عنها الى ان وجدها واستضافها
ثلاثا لينظر الى عملها فكان يبيت قايما وتبيت نايمة ويظل صايما وتظل
مفطرة فقال اما لك عمل غير ما رايت فقالت هو والله ما رايت لا اعرف
غيره فلم يزل يقول تذكري حتى قالت خصيلة واحدة هي في ان كنت
في شدة لم اتمنى ان اكون في رخا وان كنت في مرض لم اتمنى ان اكون في صحة
وان كنت في شمس لم اتمنى ان اكون في الظل فوضع العابد يده على راسه
وقال اهذه خصيلة هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد
وعن بعض السلف ان الله تعالى اذا قضى من السما قضا احب من اهل الارض
ان يرضوا بقضايه وقال ابو الدردا ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر
قال عمر رضي الله عنه ما ابالي على اي حال اصبحت وامسيت من شدة او رخا
وقال الثوري يوما عند رابعة اللهم ارض عنا فقالت اما تستحيي من الله تعالى
ان تساله الرضا وانت عنه غير راض فقال استغفر الله ثم قال جعفر
بن سليمان الضبعي فمتى يكون العبد راضيا عن الله تعالى فقالت اذا كان سروره
بالمصيبة مثل سروره بالنعمة وكان الفضيل يقول اذا استوى
عنده المنع والعطا فقد رضي عن الله تعالى وقال احمد بن ابي الحواري قال

ابو سليمان الداراني ان الله تعالى من كرمه قد رضي من عبيده بما رضي العبيد من مواليهم
منه وكيف ذلك قال اليس مراد العبد من الخلق ان يرضى عنه مولاه قلت نعم
قال فان محبة الله من عبيده ان يرضوا عنه وقال سهل حظ العبيد من اليقين
على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله تعالى وقد قال صلى الله عليه وسلم
ان الله تعالى بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل الغم والحزن
في الشك والسخط

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

اعلم ان من قال ليس فيما يخالف الهوى وانواع البلا الا الصبر فاما الرضا فلا يتصور فانما
اتي من ناحية انكار المحبة فاما اذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به
فلا يخفى ان الحب يورث الرضا بافعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين احدهما ان
يبطل الاحساس بالالم حتى يجري المولم ولا يحس فتصيبه جراحة ولا يدرك المها
ومثاله الرجل المحارب فانه في حال غضبه او حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا
يحس بها حتى اذا راى الدم استدل به على الجراحة بل الذي يغدو في شغل قد
تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بالم ذلك لشغل قلبه بل الذي يحجم او يحلق راسه
بحديدة كالة يتالم به فان كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين او الحجام
وهو لا يشعر به وكل ذلك لان القلب مشغول اذا صار مستغرقا بامر من الامور
مستوفى به لم يدرك ما عداه وكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه
او بحبه قد يصيبه ما كان يتالم به او يغتم له لولا عشقه ثم لا يدرك غمه والمه
لفرط استيلا الحب على قلبه هذا اذا اصابه من غير حبيبه فكيف اذا اصابه من
حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من اعظم الشواغل واذا تصور هذا في الم
يسير بسبب حب خفيف تصور في الالم العظيم بالحب العظيم فان الحب ايضا
يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الالم وكما يقوى حب الصور
الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذلك يقوى حب الصورة الجميلة الباطنة المدركة
بنور البصيرة وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال
فمن ينكشف له شي منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه ولا يحس بما يجري
عليه فقد روي ان امراة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها
اما تجدين الوجع فقالت ان لذة ثوابه ازالت عن قلبي مرارة وجعه وكان سهل
به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقيل له في ذلك فقال يا دوست
ضرب الحبيب لا يوجع واما الوجه الثاني فهو ان يحس به ويدرك المه ولكن
يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له اعني بعقله وان كان كارها له بطبعه

كالذي يلتمس من الفاصد الفصد والحجامة فانه يدرك الم ذلك ولكن يكون راضيا
به راغبا فيه مريدا له ومتقلدا من الفصاد منة بفعله فهذا حاله حال الراضي
بما يجري عليه من الالم وكذلك كل من سافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر
ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضيا به ومهما
اصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بان ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته
رضي به ورغب فيه واحبه وشكر الله تعالى عليه هذا اذا كان يلاحظ الثواب والا
فيجوز ان يغلب عليه الحب بحيث يكون حظ المحب في مراد
الذي يجازي به عليه لا لمعنى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده
جبيبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده
ومطلوبا وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق وقد تواصفها المتواصفون
في نظمهم ونثرهم ولا معنى له الا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر
فان نظر الى الجمال فما هو الا جلد على لحم ودم مشحون بالاقذار والاخباث
بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة
وان نظر الى المدرك للجمال فهي العين الخسيسة التي تغلط فيما ترى كثيرا
فترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقبيح جميلا فاذا تصور
استيلاء الحب فمن اين يستحيل ذلك في حب الجمال الازلي الابدي الذي لا
منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط ولا يدركها الموت
بل تبقى بعد الموت حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت
مزيد تنبه واستكشاف فهذا امر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار
ويشهد لذلك الوجود وحكايات احوال المحبين واقوالهم فقد قال سمنون
بودي ثواب الذرة لا يشتهي المخرج منها وقد قال الجنيد سالت سريا السقطي
هل يجد المحب الم البلا قال لا قلت وان ضرب بالسيف قال نعم وان ضرب
بالسيف سبعين ضربة ضربة على ضربة وقال بعضهم احببت كل شيء بحبه حتى لو احب
النار احببت دخول النار وقال بشر بن الحارث مررت برجل وقد ضرب الف سوط
في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل الى الحبس فتبعته فقلت له لم ضربت
قال لاني عاشق قلت ولم سكت قال لان معشوقي بحذائي ينظر الي قلت ولو
نظرت الى المعشوق الاكبر قال فزعق زعقة خر ميتا وقال يحيى بن معاذ الرازي
رضي الله عنه اذا نظر اهل الجنة الى الله تعالى ذهبت عقولهم في قلوبهم من لذة
النظر الى الله تعالى ثمان مائة سنة لا ترجع اليهم فما ظنك بقلوب وقعت
بين جماله وجلاله اذا لاحظت جلاله هابت واذا لاحظت جماله تاهت

هذا م

وقال

وقال بشر قصدت عبادان في بدايتي فاذا انا برجل اعمى مجذوم مجنون قد صرع
والنمل تاكل لحمه فرفعت راسه فوضعته في حجري وانا اردد الكلام فلما افاق
قال من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي لو قطعني اربا اربا ما ازددت له
الا حبا قال بشر فما رايت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فانكرتها وقال
ابو عمرو محمد بن الاشعث ان اهل مصر مكثوا اربعة اشهر لم يكن لهم غذاء الا
النظر الى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا اذا جاعوا نظروا الى وجهه
فشغلهم جماله عن الاحساس بالم الجوع بل في القران ما هو ابلغ من ذلك وهو قطع
النسوة ايديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما احسسن بالقطع وقال
سعيد بن احمد رايت بالبصرة في دار عطاء بن مسلم شابا وفي يده مدية وهو ينادي
باعلا صوته والناس حوله وهو يقول

يوم الفراق من القيامة اطول • والموت من الم التفرق اجمل •
قالوا الرحيل فقلت لست براحل • لكن مهجتي التي تترحل •

ثم بقر بالمدية بطنه وخر ميتا فسالت عن امره فقيل انه كان يهوى فتى لبعض
الملوك حجبه عنه يوما واحدا وروي ان يونس صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام
دلني على اعبد اهل الارض فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب
ببصره وسمعه وهو يقول الهي متعتني بها ما شئت انت وسلبتني ما شئت انت
وابقيت لي فيك الامل يا برا يا وصول ويروى عن عبد الله بن عمر انه اشتكى
له ابن فاشتد وجده عليه حتى قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ
ان حدث بهذا الغلام حدث فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل
ابدا اكثر سرورا منه فقيل له في ذلك فقال ابن عمر انما كان حزني رحمة له فلما وقع
امر الله رضيت به وقال مسروق كان لرجل بالبادية كلب وحمار وديك فالديك
يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم والكلب يحرسهم
فجاء الثعلب فاخذ الديك فحزنوا له وكان الرجل صالحا فقال عسى ان يكون خيرا
ثم جاء ذيب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل عسى ان يكون خيرا
ثم اصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى ان يكون خيرا ثم اصبحوا ذات يوم
فنظروا فاذا قد سبي من حولهم وبقوا هم قالوا وانما اخذوا اولئك لما كان عندهم
من اصوات الكلب والديك والحمار وانما كانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات
كما قدره الله تعالى فمن عرف خفي لطف الله رضي بفعله على كل حال ويروى
ان عيسى عليه السلام مر برجل اعمى ابرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد

تناثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من خلقه فقال
له عيسى عليه السلام يا هذا اي شيء من البلاء اراه مصروفا عنك فقال يا روح الله
انا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته فقال له صدقت هات يدك
فناوله يده فاذا هو احسن الناس وجها وافضلهم هيئة قد اذهب الله عنه
ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه • وقيل ان عروة بن الزبير
رضي الله عنهما قطع رجله من ركبته من آكلة خرجت بها ثم قال الحمد لله الذي اخذ مني
واحدة وايم الله لئن كنت اخذت لقد ابقيت ولئن كنت ابتليت
لقد عافيت ثم لم يدع ورده تلك الليلة • وكان ابن مسعود يقول الفقر
والغنى مطيتان ما ابالي ايهما ركبت ان كان الفقر كان فيه الصبر وان كان الغنى
كان فيه البذل وقال ابو سليمن الداراني قد نلت من كل مقام حالا الا الرضا فما لي
منه الا مشام الريح وعلى ذلك لو ادخل الخلائق كلهم الجنة وادخلني النار كنت بذلك
راضيا وقيل لعارف آخر هل نلت غاية الرضا عنه فقال اما الغاية فلا ولكن
مقام من الرضى قد نلته لو جعلني جسرا على جهنم يعبر عليه الخلائق الى الجنة ثم ملأ
بي جهنم تحلة لقسمه وبدلا من خليقته لاحببت ذلك من حكمه ورضيت به
من قسمه • وهذا كلام من علم ان الحب قد استغرق همه حتى منعه الاحساس
بالم النار وان بقي احساس فيغمره ما يحصل من لذته في استشعار حصول رضا
محبوبه بالقائه اياه في النار واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وان كان
بعيدا من احوالنا الضعيفة ولكن لا ينبغي ان يستنكر الضعيف المحروم احوال
الاقوياء ويظن ان ما هو عاجز عنه عجز عنه الاولياء وقال الروذباري قلت
لابي عبد الله بن الجلا الدمشقي قول فلان وددت ان جسدي قرض بالمقاريض
وان هذا الخلق اطاعوه ما معناه فقال يا هذا ان كان هذا من طريق الاشفاق
والنصح للخلق فاعرف وان كان من طريق التعظيم والاجلال فلا اعرف قال
ثم غشي عليه وقد كان عمران بن الحصين رضي الله عنه قد استسقى بطنه فبقي
على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد قد نقب له في سرير من جريد كان عليه
موضع لقضاء الحاجة فدخل عليه مطرف واخوه العلاء فجعل يبكي لما يرى من حاله
فقال لم تبكي قال لاني اراك على هذه الحالة العظيمة قال لا تبك فان احبه الى الله تعالى
احبه الي ثم قال احدثك شيئا لعل الله ان ينفعك به واكتم علي حتى اموت ان الملائكة
لتزورني فآنس بهم وتسلم علي فاسمع تسليمها فاعلم بذلك ان هذا البلاء
ليس بعقوبة اذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة فمن يشاهد هذا في بلائه

كيف

كيف لا يكون هذا راضيا به قال ودخلنا على سويد بن شعبة نعوده فراينا ثوبا
ملقى فما ظننا ان تحته شيئا حتى كشف وجهه فقالت له امراته اهلي فداؤك
ما نطعمك ما نسقيك فقال طالت الضجعة ودبرت الجراقيف واصبحت نضوا
لا اطعم طعاما ولا اسيغ شرابا منذ كذا فذكر اياما وما يسرني اني نقصت من هذا
قلامة ظفر ولما قدم سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه الى مكة وكان قد كف
بصره جاءه الناس يهرعون كل واحد يساله ان يدعو لهم فيدعو لهذا
ولهذا وكان مجاب الدعوة فقال عبد الله بن السايب فاتيته وانا غلام فتعرفت
اليه فعرفني وقال انت قارئ اهل مكة قلت نعم فذكر قصة قال في آخرها
فقلت له يا عم انت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك
فتبسم وقال يا بني قضاء الله عندي احسن من بصري • وضاع لبعض
الصوفية ولد صغير ثلاثة ايام لم يعرف له خبر فقيل له لو سالت الله تعالى
ان يرده عليك فقال اعتراضي عليه فيما قضى اشد علي من ذهاب ولدي
وعن بعض العباد انه قال اذنبت ذنبا عظيما فانا ابكي عليه منذ ستين
سنة وكان قد اجتهد في العبادة لاجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له وما هو
قال قلت مرة لشيء كان ليته لم يكن وقال بعض السلف لو قرض جسمي
بالمقاريض لكان احب الي من ان اقول لشيء قضاه الله ليته لم يقضه
وقيل لعبد الواحد ابن زيد ها هنا رجل قد تعبد خمسين سنة فقصده
فقال له حبيبي اخبرني عنك هل قنعت به قال لا قال فهل انست به قال لا قال
فهل رضيت عنه قال لا قال فانما مزيدك منه الصوم والصلاة قال نعم
قال لولا اني استحيي منك لاخبرتك بان معاملة خمسين سنة مدخولة •
ومعناه انك لم يفتح لك باب القلب فتترقى الى درجات القرب باعمال
القلوب وانما انت تعبد في طبقة اصحاب اليمين لان مزيدك منه في اعمال
الجوارح التي هي مزيد اهل العموم • ودخل جماعة من الناس رحمهم الله على الشبلي
في البيمارستان وقد حبس وقد جمع بين يديه حجارة فقال من انتم
قالوا محبوك فاقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال ما لكم ادعيتم
محبتي ان صدقتم فاصبروا على بلائي وانشد واله

ان المحبة للرحمن اسكرني • وهل رايت محبا غير سكران •

وقال بعض عباد اهل الشام كلكم يلقى الله تعالى وقد كذبه
وذلك ان احدكم لو كان له اصبع من ذهب ظل يشير بها ولو كان بها

يتفاخرون
ظل يوازيها • يعني بذلك ان الذهب من جوهر عند الله تعالى والناس يتفاخرون
به والبلا زينة اهل الاخرة وهم يستنكفون منه • وقيل انه وقع الحريق
في السوق ببغداد فقيل للسري احترق السوق وما احترق دكانك فقال
الحمد لله ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين فتاب من التجارة
وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله على هذا
فاذا تاملت هذه الحكايات عرفت قطعا ان الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا
بل هو مقام عظيم من مقامات اهل الدين ومهما كان ذلك ممكنا في حب
الخلق وحظوظهم كان ممكنا في حب الله تعالى وحظوظ الاخرة قطعا وامكانه
من وجهين احدهما الرضا بالالم لما يتوقع من الثواب الموعود كالرضا
بالفصد والحجامة وشرب الدوا انتظارا للشفاء والثاني الرضا به
لا لحظ وراه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له فقد يغلب الحب بحيث
ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب فيكون الذ الاشيا عنده سرور قلب
محبوبه ورضاه ونفوذ ارادته ولو في هلاك روحه كقول القايل
وما لجرح اذا ارضاكم الم • وهذا ممكن مع الاحساس بالالم وقد يستولي
الحب بحيث يدهش عن ادراك الالم فالقياس والتجربة والمشاهدة
دالة على وجوده فلا ينبغي ان ينكره من فقده من نفسه لانه انما فقده
لفقد سببه وهو فرط حبه ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجايبه
فللمحبين عجايب اعظم مما وصفناه وقد روي عن عمرو بن الحارث
الرافقي قال كنت في مجلس بالرقة عند صديق وكان معنا فتى يتعشق
جارية مغنية وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت

علامة ذل الهوى • على العاشقين البكا
ولاسيما عاشق • اذا لم يجد مشتكا

فقال لها الفتى احسنت والله يا سيدتي افتاذنين لي ان اموت فقالت
مت راشدا قال فوضع راسه على الوسادة واطبق فمه وغمض عينيه
فحركناه فاذا هو ميت وقال الجنيد رحمه الله رايت رجلا متعلقا
بكم صبي وهو يتضرع اليه ويظهر له المحبة فالتفت اليه الصبي وقال
الى متى هذا النفاق الذي تظهر فقال قد علم الله اني صادق فيما
اورده حتى لو قلت لي مت لمت قال ان كنت صادقا فمت قال
فتنحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا وقال سمنون المحب كان في

جيراننا

جيراننا رجل له جارية يحبها غاية الحب فاعتلت الجارية فجعل الرجل يصلح لها حيسا
فبينا هو يحرك القدر اذ قالت الجارية آه قال فدهش الرجل وسقطت الملعقة
من يده وجعل الرجل يحرك باصابعه في القدر حتى تساقطت اصابعه فقالت له
الجارية ما هذا فقال لها هذا من موضع قولك آه وحكي محمد بن عبد الله البغدادي
قال رايت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد اشرف على الناس وهو يقول

من مات عشقا فليمت هكذا • لا خير في عشق بلا موت

ثم رمى الفتى بنفسه الى الارض فحملوه ميتا فهذا وامثاله قد يصدق به في حب
المخلوقين والتصديق به في حب الله تعالى اولى لان البصيرة الباطنة اصدق
من البصر الظاهر وجمال الحضرة الربانية اوفى من كل جمال بل كل جمال في
العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال نعم الذي فقد البصر ينكر
جمال الصور والذي فقد السمع ينكر لذة الالحان والنغمات الموزونة
والذي فقد القلب لا بد وان ينكر ايضا هذه اللذات التي لا مظنة لها
سوى القلب

بيان ان الدعا غير مناقض للرضا ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا

وكذلك كراهية المعاصي ومقت اهلها ومقت اسبابها
والسعي في ازالتها بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه وقد غلط في
ذلك بعض البطالين وزعموا ان المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله تعالى
وقدره فيجب الرضا به وهذا جهل بالتاويل وغفلة عن اسرار الشرع
فاما الدعا فقد تعبدنا به وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وساير
الانبياء عليهم السلام على ما نقلناه في كتاب الدعوات تدل عليه ولقد كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم في اعلى مقامات الرضى وقد اثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله
تعالى يدعوننا رغبا ورهبا واما انكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها
فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال تعالى رضوا بالحياة الدنيا واطمانوا
بها وقال تعالى رضوا بان يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم وفي الخبر المشهور
من شهد منكرا ورضي به فكانه قد فعله وفي الحديث الدال على الشر كفاعله
وعن ابن مسعود ان العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر من حضره
قيل وكيف ذاك قال يبلغه فيرضى به وفي الخبر لو ان عبدا قتل بالمشرق ورضي
بقتله اخر في المغرب كان شريكه في قتله وقد امر الله تعالى بالحسد والمنافسة
في الخيرات وتوقي الشرور فقال تعالى وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وقال
النبي صلى الله عليه وسلم لا حسد الا في اثنتين رجل اتاه الله حكمة فهو يبثها في الناس

ويعـ

ويعلمها ورجل اتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق وفي لفظ اخر ورجل
اتاه الله تعالى القران فهو يقوم به اناء الليل واطراف النهار فيقول الرجل لو اتاني الله
مثل ما اتى هذا لفعلت كما يفعله واما بغض الكفار والفجار والانكار عليهم
ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القران والاخبار لا يحصى مثل قوله تعالى لا يتخذ المؤمنون
الكافرين اوليا وقال تعالى يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اوليا وكذلك
نولي بعض الظالمين بعضا وفي الخبر ان الله تعالى اخذ الميثاق على كل مومن ان يبغض بغض
كل منافق وعلى كل منافق ان يبغض كل مومن وقال ايضا المرء مع من احب وقال
من احب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيمة وقال صلى الله عليه وسلم اوثق عرى
الايمان الحب في الله والبغض في الله وشواهد هذا قد ذكرناها في كتاب اداب
الصحبة في بيان الحب في الله تعالى والبغض في الله تعالى وفي كتاب الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر فلا نعيده فان قلت فقد وردت الايات والاخبار بالرضى
بقضا الله تعالى فان كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح
في التوحيد وان كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضا الله تعالى
فكيف السبيل الى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع
بين الرضا والكراهة في شي واحد فاعلم ان هذا مما يلتبس على الضعفا
القاصرين عن الوقوف على اسرار العلوم وقد التبس على قوم حتى راوا السكوت
على المنكرات مقاما من مقامات الرضا وسموه حسن الخلق وهو جهل محض
بل نقول الرضا والكراهة يتضادان اذا تواردا على شي واحد من جهة واحدة
على وجه واحد وليس في المتضاد في شي واحد ان يكره من وجه ويرضى به من
وجه اذ قد يموت عدوك الذي هو ايضا عدو بعض اعدائك وساع في اهلاكه
فتكره موته من حيث انه مات عدو عدوك وترضاه من حيث انه مات
عدوك وكذلك المعصية لها وجهان وجه الى الله تعالى من حيث انه فعله واختياره
وارادته فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك الى مالك الملك ورضا
بما يفعله فيه ووجه الى العبد من حيث انه كسبه ووصفه وعلامة
كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه اسباب البعد والمقت
فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ولا ينكشف لك هذا الا بمثال فلنفرض محبوبا من
الخلق قال بين يدي محبيه اني اريد ان اميز بين من يحبني ويبغضني وانصب
فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو اني اقصد الى فلان فاضربه واوذيه
واضربه ضربا يضطره ذلك الى الشتم لي حتى اذا شتمني ابغضته واتخذته

عدوا

عدوا لي فكل من احبه فاعلم ايضا انه عدوي وكل من ابغضه فاعلم انه صديقي
ومحبي ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض
الذي هو سبب العداوة فحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة
ان يقول اما تدبيرك في ايذاء هذا الشخص وضربه وابعاده وتعرضك اياه للبغض
والعداوة فانا محب له وراض به فانه رايك وتدبيرك وفعلك وارادتك واما شتمه اياك
فانه عدوان من جهته اذ كان حقه ان يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه
فانك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث انه حصل
على وفق مرادك الذي دبرته فانا راض به ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانا في
تدبيرك وتعويقا في مرادك وانا كاره لفوات مرادك ولكنه من حيث انه وصف
لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك
اذ كان ذلك يقتضي ان يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فانا كاره له من حيث نسبته
اليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك واما بغضك له
بسبب شتمك فانا راض به ومحب له لانه مرادك وانا على موافقتك ايضا مبغض
له لان شرط المحب ان يكون حبيب المحبوب حبيبا وعدوه عدوا واما بغضه
لك فاني ارضاه من حيث انك اردت ان يبغضك اذ ابعدته عن نفسك
وسلطت عليه دواعي البغض ولكني ابغضه من حيث انه وصف ذلك المبغض
وكسبه وفعله وامقته لذلك فهو ممقوت عندي لمقته اياك وبغضه ومقته
لك ايضا مكروه عندي من حيث انه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه
ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ونظاير ذلك لا تحصى
فاذن تسليط الله دواعي الشهوة والمعصية عليه حتى يجره ذلك الى حب المعصية
ويجره الحب الى فعل المعصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلا
ليجره الضرب الى الغضب والغضب الى الشتم ومقت الله لمن عصاه وان كانت
معصيته بتدبيره يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وان كان شتمه انما حصل
بتدبيره واختياره لاسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده اعني
تسليط دواعي المعصية عليه يدل على انه سبقت مشيته بابعاده ومقته
فواجب على كل عبد محب لله تعالى ان يبغض من ابغضه الله ويمقت من مقته
الله ويعادي من ابعده الله عن حضرته وان اضطره بقهره وقدرته الى معاداته تم
ومخالفته فانه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة وان كان بعيدا بابعاده قهرا ومطرودا
بطرده اضطرارا والمبعد عن درجات القرب ينبغي ان يكون مقيتا بغيضا الى الجميع

المحبين موافقة للمحبوب باظهار الغضب على من اظهر المحبوب الغضب عليه بابعاده
وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الاخبار من البغض في الله والحب في الله تعالى والتشديد
على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث انه قضاء الله عز وجل
وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في افشائه وهو ان الشر والخير كلاهما داخلان
في المشيئة والارادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضي به فمن قال ليس الشر
من الله تعالى فهو جاهل وكذا من قال انهما جميعا منه من غير افتراق في الرضا والكراهة
فهو ايضا مقصر وكشف الغطاء عنه غير ماذون فيه فالاولى السكوت والتادب
بادب الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم القدر سر الله فلا تفشوه وذلك يتعلق بعلم
المكاشفة وغرضنا الآن بيان الامكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا
بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع انها من قضاء الله تعالى وقد ظهر الغرض من غير حاجة
الى كشف السر فيه وبهذا يعرف ايضا ان الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وساير
الاسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى فان الله تعالى
تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة
التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف
كما ان حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله في العطش وشرب الماء
طلبا لازالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب الاسباب فكذلك الدعاء
سبب رتبه الله تعالى وامر به وقد ذكرنا ان التمسك بالاسباب جريا على سنة الله
لا يناقض التوكل واستقصيناه في كتاب التوكل فهو ايضا لا يناقض الرضا
لان الرضا مقام ملاصق بالتوكل ويتصل به نعم اظهار البلاء في معرض الشكوى
وانكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا واظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف
عن قدرة الله تعالى لا تناقض فيه وقد قال السلف من حسن الرضا بقضاء الله
تعالى ان لا يقول هذا يوم حار اي في معرض الشكاية وذلك في الصيف فاما في الشتاء
فهو شكر والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الاطعمة وعيبها مناقض
للرضا بقضاء الله تعالى لان مذمة الصنعة مذمة الصانع والكل من صنع الله
تعالى وقول القائل الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف
كد ومشقة كل ذلك قادح في الرضا بل ينبغي ان يسلم التدبير لمدبره والمملكة
لمالكها ويقول كما قال عمر رضي الله عنه لا ابالي اصبحت فقيرا او غنيا

بيان ان الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا

اعلم ان الضعيف قد يظن ان نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون يدل على النهي من بلد ظهر فيه المعاصي
لان كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة في النهي عن
مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون انه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الاصحاء
وبقي فيه المطعونون مهملين لا متعهد لهم فيهلكون هزلا وضرا ولذلك شبهه
رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الاخبار بالفرار من الزحف ولو كان ذلك للفرار من
القضاء لما اذن لمن قارب البلدة في الانصراف عنها وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل
واذا عرف المعنى ظهر ان الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فرارا من القضاء
بل من القضاء الفرار مما لا بد من الفرار منه وكذلك مذمة المواضع التي تدعو الى المعاصي
والاسباب التي تدعو اليها لاجل التنفير عن المعصية ليس مذموما فما زال السلف
الصالحون يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد واظهار ذلك وطلب الفرار
منها فقال ابن المبارك رحمه الله قد طفت الشرق والغرب فما رايت بلدا اشر من بغداد شرّام
قيل وكيف قال هو بلد تزدرى فيه نعمة الله تعالى وتستصغر فيه معصية الله
ولما قدم خراسان قيل له كيف رايت بغداد قال ما رايت بها الا شرطيا غضبان
او تاجرا لهفان او قارئا حيران ولا ينبغي ان يظن ان ذلك من الغيبة لانه لم يتعرض
لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وانما قصد بذلك تحذير الناس وكان
يخرج الى مكة وكان مقامه ببغداد يتربص استعداد القافلة ستة عشر يوما
وكان يتصدق بستة عشر دينارا كفارة لمقامه وقد ذم العراق جماعة
كعمر بن عبد العزيز وكعب الاحبار وقال ابن عمر لمولى له اين تسكن فقال العراق
فقال ما تصنع هناك بلغني انه ما من احد يسكن العراق الا قيض له قرين من البلاء
وذكر كعب الاحبار يوما العراق فقال فيه تسعة اعشار الشر وفيه الداء
العضال وقيل قسم الخير عشرة اجزاء فتسعة اعشاره بالشام وعشره بالعراق
وقسم الشر بالعكس من ذلك وقال بعض اصحاب الحديث كنا يوما عند الفضيل فجاءه
صوفي متدرع بعباءة فاجلسه الى جانبه واقبل عليه ثم قال اين تسكن فقال بغداد
فاعرض عنه وقال ياتينا احدكم في زي الرهبان فاذا سالناه اين تسكن قال في
عش الظلمة وكان بشر بن الحارث يقول مثل المتعبد ببغداد مثل المتعبد
في الحش وكان يقول لا تقتدوا بي في المقام بها من اراد ان يخرج فليخرج
وكان احمد رضي الله عنه يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من
هذا البلد آثر في نفسي قيل له واين تختار السكنى قال بالثغور وقال بعضهم
وقد سئل عن اهل بغداد زاهدهم فقال زاهدهم زاهد وشريرهم شرير

نعم هذا يدل على انه من بلي ببلدة يكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له
في المقام بها بل ينبغي ان يهاجر عنها الى غيرها من البلاد قال الله تعالى الم
تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فان منعه عن ذلك عيال او علاقة
فلا ينبغي ان يكون راضيا بحاله مطمئن النفس اليه بل ينبغي ان يكون منزعج القلب
منها قائلا على الدوام ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها وذلك لان
الظلم اذا عم نزل البلاء ودمر على الجميع وشمل المطيعين والعاصين قال الله تعالى
واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة فاذا ليس في شيء من اسباب
نقصان الدين البتة رضا مطلق الا من حيث اضافتها الى فعل الله تعالى فاما
هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال وقد اختلف العلماء في الافضل من اهل
مقامات ثلاثة رجل يحب الموت شوقا الى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة
المولى ورجل قال لا اختار شيئا بل ارضى بما اختاره الله تعالى ورفعت هذه المسألة
الى بعض العارفين فقال صاحب الرضا افضلهم لانه اقلهم فضولا واجتمع ذات
يوم وهيب بن الورد والثوري ويوسف بن اسباط فقال الثوري كنت
اكره موت الفجاءة قبل اليوم واليوم فوددت اني ميت فقال له يوسف لم
قال لما اتخوف من الفتنة فقال يوسف لكني لا اكره طول البقاء فقال سفيان
لم قال لعلي اصادف يوما اتوب فيه واعمل صالحا فقيل لوهيب ايش تقول
فقال انا لا اختار شيئا احب ذلك الي احبه الى الله تعالى فقبل الثوري بين
عينيه وقال روحانية ورب الكعبة

بيان جملة من حكايات المحبين واقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين انك محب فقال لست محبا
انما انا محبوب والمحب متعوب وقيل له ايضا الناس يقولون انك واحد من السبعة
فقال انا كل السبعة وكان يقول اذا رايتموني فقد رايتم اربعين بدلا قيل وكيف
وانت شخص واحد قال لاني رايت اربعين بدلا واخذت عن كل بدل خلقا
من اخلاقه وقيل له بلغنا انك ترى الخضر عليه السلام فتبسم وقال ليس العجب
ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر ان يراه فيحتجب عنه ويحكى
عن الخضر عليه السلام انه قال ما حدثت نفسي يوما قط انه لم يبق ولي لله تعالى
الا عرفته الا ورايت في ذلك اليوم وليا لم اعرفه وقيل لابي يزيد البسطامي
رحمة الله عليه حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى فصاح وقال ويلكم لا يصلح لكم ان
تعلموا ذلك قيل فحدثنا باشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى فقال وهذا ايضا
لا يجوز ان اطلعكم عليه قيل فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم دعوت

نفسي الى الله تعالى فجمحت علي فعزمت عليها ان لا اشرب الماء سنة ولا اذوق
النوم سنة فوفت لي بذلك ويحكى عن يحيى بن معاذ انه راى ابا يزيد في بعض
مشاهداته من بعد صلاة العشاء الى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه
رافعا اخمصيه مع عقبيه عن الارض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا
بعينيه لا يطرف قال ثم سجد عند السحر فاطال ثم قعد فقال اللهم ان قوما
طلبوك فاعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك واني اعوذ
بك من ذلك وان قوما طلبوك فاعطيتهم طي الارض فرضوا بذلك واني اعوذ بك
من ذلك وان قوما طلبوك فاعطيتهم كنوز الارض فرضوا بذلك واني اعوذ
بك من ذلك حتى عدد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الاولياء ثم التفت فرآني
فقال يا يحيى قلت نعم يا سيدي فقال مذ متى انت ههنا قلت منذ حين
فسكت فقلت يا سيدي حدثني بشيء فقال احدثك بما يصلح لك ادخلني في الفلك
الاسفل فدورني في الملكوت السفلي واراني الارضين وما تحتها الى الثرى
ثم ادخلني في الفلك العلوي فطوف بي في السموات واراني ما فيها من الجنان
الى العرش ثم اوقفني بين يديه فقال سلني اي شيء رايته حتى اهبه لك فقلت
يا سيدي ما رايت شيئا استحسنته فاسالك اياه فقال انت عبدي حقا تعبدني
لاجلي صدقا لافعلن بك ولافعلن فذكر اشياء قال يحيى فهالني ذلك وامتلات به
رعبا وعجبت منه فقلت يا سيدي لم لا سالته المعرفة به وقد قال لك ملك
الملوك سلني ما شئت قال فصاح بي صيحة وقال اسكت ويلك غرت عليه
مني لا احب ان يعرفه سواه ويحكى ان ابا تراب النخشبي كان معجبا ببعض
المريدين وكان يدنيه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجيده
فقال له ابو تراب يوما لو رايت ابا يزيد فقال المريد اني مشغول عنه فلما اكثر
عليه ابو تراب من قوله لو رايت ابا يزيد هاج وجد المريد فقال ويحك ما اصنع
بابي يزيد وقد رايت الله تعالى فاغناني عن ابي يزيد قال ابو تراب فهاج طبعي
ولم املك نفسي فقلت ويلك تغتر بالله تعالى لو رايت ابا يزيد مرة واحدة كان
انفع لك من ان ترى الله سبعين مرة قال فبهت الفتى من قوله وانكره فقال وكيف
ذاك قال له ويلك اما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى ابا يزيد
عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ما قلت فقال احملني اليه فذكر قصة
قال في آخرها فوقفنا على تل ننتظره ليخرج الينا من الغيضة وكان ياوي
الى غيضة فيها سباع قال فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى هذا

ابو يزيد فلما نظر اليه تنظر اليه الفتى فصعق فحركناه فاذا هو ميت فتعجبنا من ذلك
ودفنته فقلت لابي يزيد يا سيدي نظرة الى البكر قتلته قال لا ولكن كان
صاحبك صادقا فاستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رآنا انكشف
له سر قلبه فضاق عن حمله لانه في مقام الضعفاء المريدين فقتله ذلك
ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الانفس ونهبوا الاموال اجتمعوا الى سهل
اخوانه فقالوا لو سالت الله تعالى دفعهم فسكت ثم قال لله عباد في هذه البلدة
لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الارض ظالم الا مات في ليلة واحدة ولكن لا
يفعلون قيل لم قال لانهم لا يحبون ما لا يحب ثم ذكر من اجابة الله تعالى اشياء
لا يستطاع ذكرها حتى قال ولو سالوه ان لا تقيم الساعة لم يقمها ومن هذه
امور ممكنة في انفسها فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي ان يخلو عن التصديق
والايمان بامكانها فان القدرة واسعة والفضل عظيم وعجايب الملك
والملكوت كثيرة ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده
الذين اصطفى لا غاية له ولذلك كان ابو يزيد يقول ان اعطاك مناجاة
موسى وروحانية عيسى وخلة ابرهيم فاطلب ما وراء ذلك وان عنده فوق
ذلك اضعافا مضاعفة فان سكنت الى ذلك حجبك به وهذا بلاء مثلهم
ومن هو في مثل حالهم لانهم الامثل فالامثل وقد قال بعض العارفين كوشفت
باربعين حوراء رايتهن يتساعين في الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة
وجوهر يتخشخش ويتثنى معهن فنظرت اليهن نظرة فعوقبت اربعين
يوما ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن من الحسن والجمال
فقيل انظر اليهن قال فسجدت وغمضت عيني في سجودي لئلا
انظر وقلت اعوذ بك مما سواك لا حاجة لي بهذا فلم ازل اتضرع
حتى صرفهن عني فامثال هذه المكاشفات لا ينبغي ان ينكرها المؤمن
لافلاسه عن مثلها فلو لم يؤمن كل واحد الا بما يشاهده من نفسه المظلمة
وقلبه القاسي لضاق مجال الايمان بل هذه احوال تظهر بعد مجاوزة
عقبات ونيل مقامات كثيرة ادناها الاخلاص واخراج حظوظ النفس
وملاحظة الخلق عن جميع الاعمال ظاهرا وباطنا ثم مكاتمة ذلك عن الخلق
بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحصن الخمول فهذه اوايل سلوكهم واقل
مقاماتهم وهي اعز موجود في الاتقياء من الناس وبعد تصفية القلب
عن كدورات الالتفات الى الخلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادي

انكشاف

الحق وانكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجري مجرى انكار من انكر امكان
الصورة في الحديد اذا تشكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المراة فنظر
المنكر الى ما في يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدا والخبث وهو لا
يحكي صورة من الصور فانكر امكان انكشاف المرائي فيها عند ظهور جوهرها
وانكار ذلك غاية الجهل والضلال فهذا حكم كل من انكر كرامات الاولياء اذ لا
مستند له الا قصوره عن ذلك وقصور من راه وبئس المستند ذلك في
انكار قدرة الله تعالى بل انما يشم روايح المكاشفة من سلك شيئا ولو من مبادي
الطريق كما قيل لبشر باي شيء بلغت هذه المنزلة فقال كنت اكاتم الله حالي
معناه اساله ان يكتم علي ويخفي امري وروي انه راى الخضر عليه السلام فقال له
ادع الله تعالى فقال يسر الله عليك طاعته قلت زدني قال وسترها عليك فقيل
معناه سترها عن الخلق وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت انت اليها وعن
بعضهم انه قال اقلقني الشوق الى الخضر عليه السلام فسالت الله تعالى مرة
ان يريني اياه ليعلمني شيئا كان اهم الاشياء علي قال فرايته فما غلب علي همي
ولا همتي الا ان قلت له يا ابا العباس علمني شيئا اذا قلته حجبت عن قلوب
الخليقة فلم يكن لي فيها قدر ولم يعرفني احد بصلاح ولا ديانة فقال
قل اللهم اسبل علي كثيف سترك وحط علي سرادقات حجبك واجعلني في
مكنون غيبك واحجبني عن قلوب خلقك قال ثم غاب عني فلم اره ولم اشتق
اليه بعد ذلك فما تركت ان اقول هذه الكلمات في كل يوم فحكي انه صار بحيث
كان يستذل ويمتهن حتى كان اهل الذمة يتسخرون به ويستسخرونه
في الطرق يحمل الاشيا لسقوطه عندهم وكان الصبيان يولعون به وكانت
راحته وجود قلبه واستقامة حاله في ذله وخموله فهكذا حال اولياء
الله تعالى ففي امثال هولاء ينبغي ان يطلبوا والمغرورون انما يطلبونهم تحت
المرقعات والطيالسة وفي المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة
وغيرة الله تعالى على اوليائه تابى الا اخفاءهم كما قال تعالى اوليائي تحت قبائي
لا يعرفهم غيري وقال صلى الله عليه وسلم رب اشعث اغبر ذي طمرين لا يوبه
له لو اقسم على الله لابره وبالجملة فابعد القلوب عن مشاهدة هذه المعاني
القلوب المتكبرة المعجبة بانفسها المستبشرة بعملها واقرب القلوب اليها
القلوب المنكسرة المستشعرة ذل انفسها استشعارا اذا ذل احدهم
واهتضم لم يحس بالذل كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه

كنوز

فاذا لم يحس بالذل ولم يشعر ايضا لعدم التفاته الى الذل بل كان عند
نفسه اخس منزلة من ان يرى جميع انواع الاذلال ذلا في حقه بل يرى
نفسه دون ذلك حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاته فمثل هذا القلب
يرجى له ان يستنشق مبادي هذه الروايح فان فقدنا مثل هذا القلب
وحرمنا مثل هذا الروح فلا ينبغي ان نطرح الايمان بامكان ذلك لاهله فمن
لا يقدر ان يكون من اولياء الله تعالى فليكن محبا لاولياء الله مومنا بهم
فعسى ان يحشر مع من احب ويشهد لهذا ما روي ان عيسى عليه السلام قال
لبني اسرائيل اين ينبت الزرع قالوا في التراب فقال بحق اقول لكم لا
تنبت الحكمة الا في قلب مثل التراب ولقد انتهى المريدون لولاية الله
تعالى في طلب شروطها باذلال النفس الى منتهى الضعة والخسة حتى روي
ان استاذا للجنيد وهو ابن الكريني رحمه الله تعالى دعاه رجل ثلاث مرات
الى طعامه وكان يرده ثم يستدعيه فيرجع اليه بعد ذلك حتى ادخله في
المرة الرابعة فساله عن ذلك فقال قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة
حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود
ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لاجبت وعنه ايضا انه قال
نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح فتشتت علي قلبي فدخلت الحمام
وعدلت على ثياب فاخرة فسرقتها فلبستها ثم لبست مرقعتي فوقها
وخرجت وجعلت امشي قليلا قليلا حتى راوا ذيل الثياب من تحت
المرقعة فلحقوني واخذوا الثياب وصفعوني واوجعوني ضربا وصرت
بعد ذلك اعرف بلص الحمام فسكنت نفسي فهكذا كانوا يروضون
انفسهم حتى يخلصهم الله تعالى من النظر الى الخلق ثم من النظر الى النفس
فان الملتفت الى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له
فليس بين القلب وبين الله تعالى حجاب بعد وتخلل حايل وانما بعد
القلوب شغلها بغيره او بنفسها فاعظم الحجب شغل النفس ولذلك حكي
ان شاهدا عظيم القدر من اعيان اهل بسطام كان لا يفارق مجلس ابي يزيد
فقال له يوما يا ابا يزيد انا منذ ثلاثين سنة اصوم الدهر لا افطر واقوم
الليل لا انام ولا اجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا وانا اصدق به
واحبه فقال ابو يزيد ولو صمت ثلاثماية سنة وقمت لياليها ما وجدت
من هذا ذرة قال ولم قال لانك محجوب بنفسك قال فلهذا دوا قال نعم قال

قل حتى اعمله قال لا تقبله قال فاذكره لي حتى اعمل قال اذهب الساعة الى المزين
واحلق راسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك مخلاة
مملوءة جوزا واجمع الصبيان حولك وقل كل من صفعني صفعة اعطيته جوزة
وادخل السوق وطف الاسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وانت على ذلك
فقال الرجل سبحان الله تقول لي مثل هذا فقال ابو يزيد قولك سبحان الله شرك
قال كيف قال لانك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك فقال هذا لا افعله
ولكن دلني على غيره فقال ابتدي بهذا قبل كل شي فقال لا اطيقه فقال قد قلت لك انك
لا تقبل فهذا الذي ذكره ابو يزيد هو دوا من اعتل بنظره الى نفسه ومرض
بنظر الناس اليه ولا ينجي من هذا المرض دوا سوى هذا وامثاله فمن لا يطيق
الدوا فلا ينبغي ان ينكر امكان الشفا في حق من داوى نفسه بعد المرض او لم
يمرض بمثل هذا المرض اصلا فاقل درجات الصحة الايمان بامكانها فويل
لمن حرم هذا القدر القليل ايضا وهذه امور جلية من الشرع واضحة
وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علما الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم
لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون قلة الشي احب اليه من كثرة الشي
حتى يكون ان لا يعرف احب اليه من ان يعرف وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث
من كن فيه استكمل ايمانه لا يخاف في الله لومة لايم ولا يرائي بشيء من عمله
واذا عرض له امران احدهما للدنيا والاخر للاخرة اثر امر الاخرة على امر الدنيا
وقال صلى الله عليه وسلم لا يكمل ايمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال اذا غضب
لم يخرجه غضبه من الحق واذا رضي لم يدخله رضاه في باطل واذا قدر لم
يتناول ما ليس له وفي حديث اخر ثلاث من اوتيهن فقد اوتي مثل ما اوتي
ال داود العدل في الرضا والغضب والقصد في الغنا والفقر وخشية
الله في السر والعلانية فهذه شروط ذكرها صلى الله عليه وسلم لاهل الايمان
والعجب ممن يدعي علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم
يكون نصيبه من علمه وعقله ان يجحد ما لا يكون الا بعد مجاوزة مقامات
عظيمة وراء الايمان وفي الاخبار ان الله تعالى اوحى الى بعض انبيايه عليهم السلام
انما اتخذ لخلتي من لا يفتر عن ذكري ولا يكون له هم غيري ولا يوثر علي شيا
من خلقي وان احرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا وان قطع بالمناشير
لم يجد لمس الحديد الما فمن لم يبلغ الى ان يغلبه الحب الى هذا الحد فمن
اين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات وكل ذلك وراء الحب

والحب ورآ كمال الايمان ومقامات الايمان متفاوتة في الزيادة والنقصان
لا حصر له ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للصديق رضي الله عنه ان الله قد اعطاك
مثل ايمان كل من آمن به من امتي واعطاني مثل ايمان كل من آمن به من
ولد ادم وفي خبر آخر عنه صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى ثلثماية خلق من لقيه
بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة فقال ابو بكر يا رسول الله هل في خلق منها
فقال صلى الله عليه وسلم كلها فيك يا ابا بكر واحبها الى الله السخا وقال صلى الله
رايت ميزانا دلي من السما فوضعت في كفة ووضعت الامم في كفة
فرجحت بهم ووضع ابو بكر في كفة وجي بامتي فوضعت في كفة فرجح
بهم ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى
بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذا من
الناس خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله تعالى يعني نفسه
خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها
قال سفين المحبة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وقال غيره دوام
الذكر وقال غيره ايثار المحبوب وقال بعضهم كراهية البقا في الدنيا
وهذا كله اشارة الى ثمرات المحبة فاما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها
وقال بعضهم المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب تعجز القلوب عن
ادراكه ويمتنع الالسن عن عبارته وقال الجنيد حرم الله تعالى المحبة
على صاحب العلاقة وقال كل محبة تكون بعوض فاذا زال العوض زالت
المحبة وقال ذو النون قل لمن اظهر حب الله تعالى احذر ان تذل لغير الله
وقيل للشبلي صف لنا العارف والمحب فقال العارف ان تكلم هلك والمحب
ان سكت هلك وقال الشبلي
يا ايها السيد الكريم حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني انت بما مر بي عليم
وقال آخر
عجبت لمن يقول ذكرت ربي وهل انسى فاذكر ما نسيت
اموت اذا ذكرتك ثم احيا ولولا حسن الظن ما حييت
فاحيا بالمنى واموت شوقا فكم احيا عليك وكم اموت
شربت الحب كاسا بعد كاس فما نفد الشراب وما رويت
فليت خياله نصب لعيني فان قصرت في نظري عميت

وقالت رابعة العدوية يوما من يدلنا على حبيبنا فقالت خادمة لها حبيبنا معنا
ولكن الدنيا قطعتنا عنه وقال ابن الجلا اوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام اني
اذا اطلعت على سر عبدي فلم اجد فيه حب الدنيا والاخرة ملاته من حبي وتوليته
بحفظي وقيل تكلم سمنون يوما في المحبة فاذا بطاير نزل بين يديه فلم يزل ينقر
بمنقاره الارض حتى سال منه الدم فمات وقال ابرهيم بن ادهم الهي انك
تعلم ان الجنة لا تسوي عندي جناح بعوضة في جنب ما اكرمتني به من محبتك
وآنستني بذكرك وفرغتني للتفكر في عظمتك وقال السري من احب الله تعالى
عاش ومن مال الى الدنيا طاش والاحمق يروح ويغدو في لاش وقيل
لرابعة كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم قالت والله اني احبه حبا شديدا
ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين وسيل عيسى عليه السلام عن افضل
الاعمال فقال الرضا عن الله والحب له وقال ابو يزيد المحب لا يحب الدنيا ولا الاخرة
انما يحب من مولاه مولاه وقال الشبلي الحب دهش في لذة وحيرة في تعظيم
وقيل المحبة ان تمحوا اثرك عنك حتى لا يبقى فيك شي راجع منك اليك وقيل المحبة
قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح وقال الخواص المحبة محو
الارادات واحتراق جميع الصفات والحاجات وسيل سهل عن المحبة فقال
عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل معاملة المحب
على اربع منازل على المحبة والهيبة والحيا والتعظيم وافضلها التعظيم
والمحبة لان هاتين المنزلتين يبقيان مع اهل المحبة في الجنة ويرفع عنهم
غيرهما وقال هرم بن حيان المومن اذا عرف ربه عز وجل احبه واذا احبه
اقبل اليه واذا وجد حلاوة الاقبال اليه لم ينظر الى الدنيا بعين الشهوة
ولم ينظر الى الاخرة بعين الفترة وهو بجسده في الدنيا وبروحه في
الاخرة وقال عبد الله بن محمد سمعت امراة من المتعبدات تقول وهي باكية
والدموع على خدها جارية والله لقد سيمت من الحياة حتى لو وجدت الموت
يباع لاشتريته شوقا الى الله تعالى وحبا للقايه قال فقلت لها فعلى ثقة
انت من عملك قالت لا ولكن بحبي اياه وحسن ظني به افتراه يعذبني وانا
احبه واوحى الله تعالى الى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عني
كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الي
وتقطعت اوصالهم من محبتي يا داود هذه ارادتي في المدبرين عني فكيف ارادتي في المقبلين علي يا داود احوج ما يكون العبد الي اذا استغنى
عني وارحم ما اكون بعبدي اذا ادبر عني واجل ما يكون عندي اذا رجع

الي وقال ابو خالد الصفار لقي نبي من الانبيا عليه السلام عابدا فقال له
انكم معاشر العباد تعملون على امر لسنا معاشر الانبيا نعمل عليه انتم تعملون
على الخوف والرجا ونحن نعمل على المحبة والشوق وقال الشبلي اوحى الله تعالى
الى داود يا داود ذكري للذاكرين وجنتي للمطيعين وزيارتي للمشتاقين
وانا خاصة للمحبين واوحى الله تعالى الى ادم عليه السلام يا ادم من
احب حبيبا صدق قوله ومن انس بحبيبه رضي فعله ومن اشتاق اليه
جد في مسيره وكان الخواص يضرب على صدره ويقول وا شوقاه الى
من يراني ولا اراه وقال الجنيد بكا يونس عليه السلام حتى عمي وقام حتى
انحنى وصلى حتى اقعد وقال وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار
لخضته اليك شوقا مني اليك وعن علي رضي الله عنه قال سالت رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن سنته فقال صلى الله عليه وسلم المعرفة راس مالي والعقل اصل ديني والحب
اساسي والشوق مركبي وذكر الله انيسي والثقة كنزي والحزن رفيقي والعلم
سلاحي والصبر ردائي والرضا غنيمتي والفقر فخري والزهد حرفتي واليقين
قوتي والصدق شفيعي والطاعة حسبي والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلاة
وقال ذو النون سبحان من جعل الارواح جنودا مجندة فارواح العارفين
جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا الى الله تعالى وارواح المومنين روحانية
فلذلك حنوا الى الجنة وارواح الغافلين هوايية فلذلك مالوا الى الدنيا وقال بعض
المشايخ رحمه الله رايت في جبل لكام رجلا اسمر اللون ضعيف البدن وهو
يقفز من حجر الى حجر ويقول
الشوق والهوى صيراني كما ترى
ويقال الشوق نار الله اشعلها في قلوب اوليايه حتى يحرق بها ما في قلوبهم
من الخواطر والارادات والعوارض والحاجات فهذا القدر
كاف في شرح المحبة والانس والشوق والرضا فلنقتصر عليه

اخر كتاب المحبة والانس والشوق والرضا
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على
سيدنا محمد واله وصحبه وسلم
وحسبنا الله ونعم الوكيل

يتلوه ان شا الله كتاب النية والاخلاص والصدق

كتاب النية والاخلاص والصدق
وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من
كتاب احيا علوم الدين للامام
حجة الاسلام الغزالي
قدس الله روحه

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين، ونؤمن به ايمان الموقنين، ونقر بوحدانيته اقرار الصادقين، ونشهد ان لا اله الا الله رب العالمين، وخالق السموات والارضين، ومكلف الجن والانس والملايكة المقربين، ان يعبدوه عبادة المخلصين، فقال تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين، فما لله الا الدين الخالص المتين، فانه اغنى الاغنيا عن شركة المشاركين، والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين، وعلى جميع النبيين، وعلى اله واصحابه الطيبين الطاهرين، وسلم تسليما الى يوم الدين، اما بعد فقد انكشف لارباب القلوب ببصيرة الايمان، وانوار القران، ان لا وصول الى السعادة الا بالعلم والعبادة فالناس كلهم هلكى الا العالمون، والعالمون كلهم هلكى الا العاملون، والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، فالعمل بغير نية عنا، والنية بغير اخلاص ريا، وهو للنفاق كفا، ومع العصيان سوا، والاخلاص من غير صدق وتحقيق هبا، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بارادة غير الله مشوبا مغمورا، وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هبا منثورا، وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية ام كيف يخلص من صحح النية اذا لم يعرف حقيقة الاخلاص او كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق اذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الاولى على كل عبد اراد طاعة الله تعالى ان يتعلم النية اولا ليحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والاخلاص اللذين هما وسيلتا العبد الى النجاة والخلاص ونحن نذكر معاني الصدق والاخلاص في ثلاثة ابواب

الباب الاول في حقيقة النية ومعناها الباب الثاني في الاخلاص وحقايقه الباب الثالث في الصدق وحقيقته

الباب الاول في النية وفيه بيان فضيلة النية وبيان حقيقة النية وبيان كون النية خيرا من العمل وبيان تفضيل الاعمال المتعلقة بالنية وبيان خروج النية عن الاختيار

بيان فضيلة النية

قال الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه والمراد بتلك الارادة هي النية وقال صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات ولكل امرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امراة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه وقال صلى الله عليه وسلم اكثر شهدا امتي اصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله اعلم بنيته وقال الله تعالى ان

يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم واموالكم وانما ينظر الى قلوبكم واعمالكم وانما نظر الى القلوب لانها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل اعمالا حسنة فتصعد بها الملايكة في صحف مختمة فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول الله تعالى القوا هذه الصحيفة فانه لم يرد بما فيها وجهي ثم ينادي الملايكة اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا انه لم يعمل شيا من ذلك فيقول عز وجل انه نواه انه نواه وقال صلى الله عليه وسلم الناس اربعة رجل اتاه الله تعالى علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول رجل لو اتاني الله تعالى مثل ما اتاه لعملت كما يعمل فهما في الاجر سوا ورجل اتاه الله مالا ولم يوته علما فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجل لو اتاني الله تعالى مثل ما اتاه عملت كما يعمل فهما في الوزر سوا الا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساويه وكذلك في حديث انس لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال ان بالمدينة اقواما ما قطعنا واديا ولا وطينا موطيا يغيظ الكفار ولا انفقنا نفقة ولا اصابتنا مخمصة الا شركونا في ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا قال صلى الله عليه وسلم حبسهم العذر فشركونا بحسن النية وفي حديث ابن مسعود من هاجر يبتغي شيا فهو له فهاجر رجل فتزوج امراة منا فكان يسمى مهاجر ام قيس وكذلك جا في الخبر ان رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار لانه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فاضيف الى نيته وفي حديث عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم من غزا وهو لا ينوي الا عقالا فله ما نوى وقال ابي استعنت رجلا يغزو معي فقال لا حتى تجعل لي جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه واخرته الا ما جعلت له وروي في الاسرايليات ان رجلا مر بكثبان من رمل في مجاعة فقال في نفسه لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس فاوحى الله تعالى الى نبيهم ان قل له ان الله قد قبل صدقتك وشكر حسن نيتك واعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقت به وقد ورد في اخبار كثيرة من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة وفي حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا همته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها ارغب ما يكون فيها ومن كانت الاخرة نيته جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها ازهد ما يكون فيها وفي حديث ام سلمة ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم بالبيدا فقلت يا رسول الله يكون فيهم المكره والاجير فقال يحشرون على نياتهم وقال عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما يقتتل المقتتلون على النيات

وقال عليه الصلاة والسلام اذا التقى الصفان نزلت الملايكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا وفلان يقاتل حمية وفلان يقاتل عصبية الا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال يحشر كل عبد على ما مات عليه وفي حديث الاحنف عن ابي بكرة اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لانه اراد قتل صاحبه وفي حديث ابي هريرة رضي الله عنه من تزوج امراة على صداق وهو لا ينوي اداه فهو زان ومن ادان دينا وهو لا ينوي قضاه فهو سارق وقال صلى الله عليه وسلم من تطيب لله تعالى جا يوم القيمة وريحه اطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جا يوم القيمة وريحه انتن من الجيفة واما الاثار فقد قال عمر بن الخطاب افضل الاعمال ادا ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله وصدق النية فيما عند الله تعالى وكتب سالم بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز اعلم ان عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وان نقصت نقص بقدره وقال بعض السلف رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية وقال داود الطائي البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما الى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك وقال الثوري كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل وقال بعض العلما اطلب النية للعمل قبل العمل وما دمت تنوي الخير فانت بخير وكان بعض المريدين يطوف على العلما رضي الله عنهم ويقول من يدلني على عمل لا ازال فيه عاملا لله تعالى فاني لا احب ان ياتي علي ساعة من ليل او نهار الا وانا عامل من عمال الله تعالى فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فاذا فترت او تركته فهم بعمله فان الهام بعمل الخير كعامله ولذلك قال بعض السلف ان نعمة الله عليكم اكثر من ان تحصوها وان ذنوبكم اخفى من ان تعلموها ولكن اصبحوا توابين وامسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك وقال عيسى عليه السلام طوبى لعين نامت ولم تهم بمعصية وانتبهت الى غير اثم وقال ابو هريرة يبعثون يوم القيمة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض اذا قرا ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا اخباركم يبكي ويرددها ويقول انك ان بلوتنا فضحتنا وهتكت استارنا وقال الحسن انما خلد اهل الجنة في الجنة واهل النار في النار بالنيات وقال

ابو هريرة مكتوب في التوراة ما اريد به وجهي فقليله كثير وما اريد به غير وجهي فكثيره قليل وقال بلال بن سعد ان العبد ليقول قول مومن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله فاذا عمل لم يدعه حتى ينظر في ورعه فان تورع لم يدعه حتى ينظر فيما ذا نوى فان صلحت النية فبالحري ان يصلح ما دون ذلك فاذن عماد الاعمال النيات فالعمل مفتقر الى النية ليصير بها خيرا والنية في نفسها خير وان تعذر العمل بعايق

بيان حقيقة النية

اعلم ان النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها امران علم وعمل فالعلم يقدمه لانه اصله وشرطه والعمل يتبعه لانه ثمرته وفرعه وذلك لان كل عمل اعني كل حركة وسكون اختياري فانه لا يتم الا بثلاثة امور علم وارادة وقدرة لانه لا يريد الانسان ما لا يعلمه فلابد وان يعلم ولا يعمل ما لا يريد فلابد من ارادة ومعنى الارادة انبعاث القلب الى ما يراه موافقا للغرض اما في الحال او في المال فقد خلق الانسان بحيث يوافقه بعض الامور ويلايم غرضه ويخالفه بعض الامور فاحتاج الى جلب الملايم الموافق الى نفسه ودفع الضار المنافي عن نفسه فافتقر بالضرورة الى معرفة وادراك للشي المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فان من لا يبصر الغذا ولا يعرفه لا يمكنه ان يتناوله ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها فخلق الله تعالى الهداية والمعرفة وجعل لها اسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو ابصر الغذا وعرف انه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن ميل اليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه اذ المريض يرى الغذا ويعلم انه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الشهوة الباعثة المحركة اليه فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والارادة واعني به نزوعا في نفسه اليه وتوجها في قلبه اليه ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاما هو راغب فيه يريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا فخلقت له القدرة والاعضا المتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك الا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم والمعرفة او الظن والاعتقاد وهو ان يقوى في نفسه كون الشي موافقا له فاذا جزمت المعرفة بان الشي موافق ولابد وان يفعل وسلمت عن معارضة باعث اخر صارف عنه انبعثت الارادة وتحقق الميل فاذا انبعثت الارادة انتهضت القدرة لتحريك الاعضا فالقدرة خادمة للارادة والارادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة والنية عبارة عن

الصفة المتوسطة وهي الارادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل الى ما
هو موافق للغرض اما في الحال واما في المال فالمحرك الاول هو الغرض المطلوب وهو
الباعث والغرض الباعث هو المقصد المنوي والانبعاث هو القصد والنية
وانتهاض القدرة لخدمة الارادة بتحريك الاعضا هو العمل الا ان انتهاض القدرة للعمل
قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد واذا كان بباعثين
فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بانهاض القدرة وقد يكون كل واحد
قاصرا عنه الا بالاجتماع وقد يكون احدهما كافيا لولا الاخر لكن الاخر انتهض
عاضدا له ومعاونا له فيخرج من هذا التقسيم اربعة اقسام فلنذكر لكل واحد
مثالا واسما اما الاول فهو ان ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما اذا هجم على
الانسان سبع ضاريا فانبعثت نفسه الى الهرب ورغبت فيه فانتهضت
القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقال نيته الفرار من السبع لا نية له في
العمل غيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها اخلاصا
بالاضافة الى الغرض الباعث ومعناه انه خلص عن مشاركة غيره ومما زجته
واما الثاني فهو ان يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالانهاض لو انفرد ومثاله
من المحسوس ان يتعاون رجلان على حمل شي بمقدار من القوة كانت كافية
في الحمل لو انفردت ومثاله في غرضنا ان يساله قريبه الفقير حاجة فيقضيها
لفقره ولقرابته وعلم انه لولا فقره لكان يقضيها لمجرد القرابة وانه لولا قرابته
لكان يقضيها لمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بان يحضره قريب غني فيرغب
في قضا حاجته وفقير اجنبي فيرغب ايضا فيه وكذلك من امره الطبيب
بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم انه لو لم يكن يوم عرفة
لكان يترك الطعام حمية ولولا الحمية لكان يترك لاجل انه يوم عرفة وقد
اجتمعا جميعا فاقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الاول فلنسم هذا
مرافقة البواعث الثالث ان لا يستقل كل واحد لو انفرد ولكن قوي مجموعهما
على انهاض القدرة ومثاله في المحسوس ان يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد
احدهما به ومثاله من غرضنا ان يقصده قريبه الغني فيطلب درهما فلا
يعطيه ويقصده الاجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ثم يقصده القريب
الفقير فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة
والفقر وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثنا
ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطا ولو كان

الطالب فاسقا لا ثواب في التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الريا على العطا ولما اجتمعا
اورثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة والرابع ان يكون احد الباعثين
مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل ولكن لما انضاف اليه لم ينفك عن تاثير
بالاعانة والتسهيل ومثاله في المحسوسات ان يعاون الضعيف الرجل القوي
على الحمل ولو انفرد القوي لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل فان ذلك بالجملة
يسهل العمل ويوثر في تخفيفه ومثاله في غرضنا ان يكون للانسان ورد في الصلوات
وعادة في الصدقات فاتفق ان حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل اخف
عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه انه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله
وعلم ان عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الريا يحمله عليه فهو شوب تطرق الى
النية ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثاني اما ان يكون رفيقا او شريكا
او معينا وسنذكر حكمها في باب الاخلاص والغرض الان بيان اقسام النيات فان
العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ولذلك قيل انما الاعمال بالنيات لانها
تابعة لا حكم لها في نفسها وانما الحكم للمتبوع بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم نية
المومن خير من عمله اعلم انه قد يظن ان سبب هذا الترجيح ان النية سر لا يطلع
عليه الا الله تعالى والعمل ظاهر ولعمل السر فضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد
لانه لو نوى ان يذكر الله تعالى بقلبه او يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث
ان يكون نية التفكر خيرا من التفكر وقد يظن ان سبب الترجيح ان النية تدوم الى
اخر الاعمال والاعمال لا تدوم وهو ضعيف لان ذلك يرجع معناه الى ان العمل الكثير
خير من القليل بل ليس كذلك فان نية اعمال الصلاة قد لا تدوم الا في لحظات
معدودة والاعمال تدوم والعموم يقتضي ان يكون نيته خيرا من عمله وقد يقال ان
معناه ان النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد
ان يكون هو المراد اذ العمل بلا نية او على الغفلة لا خير فيه اصلا والنية بمجردها
خير وظاهر الترجيح للمشتركين في اصل الخير بل المعنى به ان كل طاعة تنتظم
بنية وعمل كانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن
النية من جملة الطاعة خير من العمل اي لكل واحد منهما اثر في المقصود واثر
النية اكثر من اثر العمل فمعناه نية المومن من جملة طاعته خير من عمله
الذي هو من جملة طاعته والغرض ان للعبد اختيارا في النية وفي العمل فهما
عملان والنية من الجملة خيرهما فهذا معناه واما سبب كونها خيرا ومترجحا
على العمل فلا يفهمه الا من فهم مقصد الدين وطريق مبلغ اثر الطريق
في الاتصال الى المقصد وقاس به بعض الاثار بالبعض حتى يظهر له بعد

ذلك الارجح بالاضافة الى المقصود فمن قال الخبز خير من الفاكهة فانما يعني به
انه خير بالاضافة الى مقصود القوت والاغتذا ولا يفهم ذلك الا من فهم ان للغذا مقصودا
وهو الصحة والبقا وان الاغذية مختلفة الاثار فيهما وفهم اثر كل واحد وقاس بعضها
بالبعض فالطاعات غذا القلوب والمقصود شفاها وبقاوها وسلامتها في الاخرة
وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله تعالى فقط
ولن يتنعم بلقاء الله تعالى الا من مات محبا لله سبحانه عارفا بالله تعالى
ولن يحبه الا من عرفه ولن يانس به الا من طال ذكره له فالانس يحصل بدوام
الذكر والمعرفة بدوام الفكر والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ولن يتفرغ القلب
لدوام الذكر والفكر الا اذا فرغ من شواغل الدنيا ولن يتفرغ من شواغلها الا اذا
انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا الى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له وانما
يميل الى الخيرات والطاعات اذا علم ان سعادته في الاخرة منوطة بها كما يميل
العاقل الى الفصد والحجامة لعلمه بان سلامته فيهما واذا حصل اصل الميل بالمعرفة
فانما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه فان المواظبة على مقتضى صفات القلب
وارادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترسخ الصفة وتقوى
بسببها فالمائل الى طلب العلم او طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتدا الا ضعيفا فان
اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والاعمال المطلوبة لذلك تاكد ميله
ورسخ وعسر عليه النزوع وان خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما
زال وانمحق بل الذي ينظر الى وجه حسن مثلا فيميل اليه طبعه ميلا ضعيفا
فلو اتبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تاكد
ميله حتى يخرج امره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ولو فطم نفسه ابتدا
وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ويكون ذلك
زجرا ودفعا في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه او ينقمع وينمحي وهكذا جميع
الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي يراد بها الاخرة والشرور كلها
هي التي يراد بها الدنيا لا للاخرة وميل النفس الى الخيرات الاخروية
وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ولن يتاكد ذلك الا
بالمواظبة على اعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح لان بين الجوارح وبين القلب
علاقة حتى انه يتاثر كل واحد منهما بالاخر فترى العضو اذا اصابته جراحة تالم
بها القلب وترى القلب اذا تالم بعلمه بموت عزيز من اعزته او بهجوم امر
مخوف تاثرت به الاعضا وارتعدت الفرايص وتغير اللون الا ان القلب هو
الاصل المتبوع وكانه الامير والراعي والجوارح كالخدم والرعايا والاتباع

فالجوارح خادمة للقلب بتاكيد صفاتها فيه فالقلب هو المقصود والاعضا
الات موصلة الى المقصود ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ان في الجسد لمضغة
اذا صلحت صلح لها ساير الجسد وقال عليه الصلاة والسلام اللهم اصلح الراعي والرعية
واراد بالراعي القلب وقال تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماوها ولكن يناله التقوى
منكم وهو صفة القلب فمن هذا الوجه يجب لا محالة ان يكون اعمال القلب على الجملة
افضل من حركات الجوارح ثم يجب ان يكون النية من جملتها افضل لانها عبارة عن
ميل القلب الى الخير وارادته له وغرضنا من الاعمال بالجوارح ان يعود القلب
ارادة الخير ويوكد فيه الميل اليه ليتفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر
فبالضرورة يكون خيرا بالاضافة الى الغرض لانه متمكن من نفس المقصود وهذا
كما ان المعدة اذا تالمت فقد تداوى بان يوضع الطلا على الصدر وتداوى بالشرب
والدوا الواصل الى المعدة بالشرب خير من طلاء الصدر لان طلا الصدر ايضا
انما اريد به ان يسري منه الاثر الى المعدة فما يلاقي عين المعدة فهو خير وانفع فهكذا
ينبغي تاثير الطاعات كلها اذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون
الجوارح فلا تظنن ان في وضع الجبهة على الارض غرضا من حيث انه جمع بين الجبهة
والارض بل من حيث انه بحكم العادة يوكد صفة التواضع فان من يجد في نفسه تواضعا فاذا استعان باعضائه وصورها بصورة التواضع تاكد تواضعه ومن وجد
في قلبه رقة على يتيم فاذا مسح راسه وقبله تاكدت الرقة في قلبه ولهذا لم يكن
العمل بغير نية مفيدا اصلا لان من يمسح راس يتيم وهو غافل بقلبه او ظان انه
يمسح ثوبا لم ينتشر من جسده وضعها اثر الى قلبه بتاكيد التواضع وكان وجود
ذلك كعدمه وما ساوى وجوده عدمه بالاضافة الى الغرض المطلوب منه يسمى
باطلا فيقال العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه هذا اذا فعل عن غفلة فان
قصد به رياء او تعظيم شخص اخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرا
فانه لم يوكد الصفة المطلوبة تاكيدها حتى اكد الصفة المطلوب قمعها وهو
صفة الريا التي هي من الميل الى الدنيا فهذا وجه كون النية خيرا من العمل وبهذا
ايضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة
لان هم القلب هو ميله الى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية
الحسنات وانما الاتمام بالعمل يزيدها تاكيدا فليس المقصود من اراقة دم
القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها ايثارا لوجه الله
تعالى وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وان عاق عن العمل
عايق فلن ينال الله لحومها ولا دماوها ولكن يناله التقوى منكم والتقوى هاهنا

عمل القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ان قوما بالمدينة قد شركونا في جهادنا
كما رويناه لان قلوبهم في صدق ارادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في
طلب الشهادة واعلاء كلمة الله كقلوب الخارجين وانما فارقوهم بالابدان لعوائق
تخص الاسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب الا لتاكيد هذه الصفات
بهذه المعاني وبهذه المعاني تفهم جميع الاحاديث التي اوردناها في فضيلة
النية فاعرضها عليه لينكشف لك اسرارها فلا نطول بالاعادة

بيان تفصيل الاعمال المتعلقة بالنية اعلم ان الاعمال وان انقسمت اقساما
كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وذكر وفكر وغير ذلك مما
لا يتصور احصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة اقسام طاعات ومعاص
ومباحات القسم الاول المعاصي وهي لا تتغير عن موضوعاتها بالنية
فلا ينبغي ان يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات
فيظن ان المعصية تنقلب طاعة بالنية كالذي يغتاب انسانا مراعاة لقلب
غيره او يطعم فقيرا من مال غيره او يبني مسجدا او مدرسة او رباطا
بمال حرام وقصده الخير فهذا كله جهل والنية لا تؤثر في اخراجه عن كونه
ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر
آخر فان عرفه فهو معاند للشرع وان جهله فهو عاص بجهله اذ طلب
العلم فريضة على كل مسلم والخيرات انما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف
يمكن ان يكون الشر خيرا هيهات بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن
الهوى فان القلب اذا كان مائلا الى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر
حظوظ النفوس توسل الشيطان به الى التلبيس على الجاهل ولذلك قال سهل
ما عصي الله تعالى بمعصية اعظم من الجهل قيل يا ابا محمد هل تعرف شيئا
اشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لان الجهل بالجهل يسد
بالكلية باب التعلم فمن يظن بنفسه انه عالم فكيف يتعلم وكذلك افضل
ما اطيع الله سبحانه به العلم وراس العلم العلم بالعلم كما ان راس الجهل الجهل
بالجهل فان من لم يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما اكب الناس عليه من
العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم الى الدنيا وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد
العالم والمقصود ان من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور
الا اذا كان قريب العهد بالاسلام ولم يجد بعد مهلة التعلم وقد قال الله سبحانه
فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وقال صلى الله عليه وسلم لا يعذر الجاهل على الجهل

ولا يحل للجاهل ان يسكت على جهله ولا للعالم ان يسكت عن علمه ويقرب من
هذا تقرب السلطان ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام وتقرب العلماء
السوء بتعليم العلم للسفهاء والاشرار المشغولين بالفسق والفجور القاصرين
هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام
الدنيا واخذ اموال السلاطين والمساكين واليتامى فان هؤلاء اذا تعلموا كانوا
قطاع طريق الله وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال يتكالب على
الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرئ الناس بسبب مشاهدته على
معاصي الله تعالى ثم قد ينتشر ذلك العلم الى مثله وامثاله ويتخذونه ايضا
آلة ووسيلة الى الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك ووبال جميعه يرجع
الى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته انواع
المعاصي من اقواله وافعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم
وتبقى آثار شره منتشرة في العالم الف سنة مثلا والفي سنة واكثر وطوبى
لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول انما الاعمال
بالنيات وقد قصدت بذلك نشر العلم علم الدين فان استعمله هو في الفساد
فالمعصية منه لا مني وما قصدت به الا ان يستعين على الخير وانما حب الرياسة
والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه والشيطان بواسطة
حب الرياسة يلبس عليه وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفا من
قاطع طريق واعد له خيلا واسبابا يستعين بها على مقصوده ويقول انما
اردت البذل والسخاء والتخلق بالاخلاق الجميلة وقصدت به ان يغزو
بهذا السيف والفرس في سبيل الله فان اعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة
من افضل القربات فان هو صرفه الى قطع الطريق فهو العاصي وقد اجمع
الفقهاء على ان ذلك حرام مع ان السخاء هو احب الاخلاق الى الله تعالى حتى قال صلى الله
عليه وسلم ان لله تعالى ثلثمائة خلق فمن تقرب اليه بواحد منها دخل الجنة واحبها
اليه السخاء فليت شعري لم حرم هذا السخاء ولم وجب عليه ان ينظر
الى قرينة الحال من هذا الظالم فاذا لاح له من عادته انه يستعين بالسلاح
على الشر فينبغي ان يسعى في سلب سلاحه لا في ان يمده بغيره والعلم
سلاح يقاتل به الشيطان واعداء الله تعالى وقد يعاون به اعداء الله
وهو الهوى فمن لا يزال موثرا للدنيا على دينه ولهواه على آخرته وهو
عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز امداده بنوع علم يتمكن به من الوصول

الى شهواته بل لم يزل علماء السلف يتفقدون احوال من يتردد اليهم فلو راوا منهم
تقصيرا في نفل من النوافل انكروه وتركوا اكرامه واذا راوا منه فجورا واستحلالا
لحرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه لعلمهم
بان من تعلم مسئلة ولم يعمل بها وجاوزها الى غيرها فليس يطلب الا آلة الشر
وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العليم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر
الجاهل وحكي عن بعض اصحاب احمد رضي الله عنه انه كان يتردد اليه سنين
ثم اتفق ان احمد اعرض عنه وهجره وصار لا يكلمه فلم يزل يساله عن تغيره
وهو لا يذكره حتى قال بلغني انك طينت حائط دارك من جانب الشارع فقد اخذت
قدر سمك الطين من الطريق وهو انملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم
فهكذا كانت مراقبة السلف لاحوال طلاب العلم هذا وامثاله مما يلبس على
الاغبياء واتباع الشيطان وان كانوا ارباب الطيالسة والاكمام الواسعة
واصحاب الالسنة الطويلة والفضل الكثير اعني الفضل من العلوم التي
لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء
اليها بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ويتوصل بها الى جمع الحطام واستتباع
الناس والتقدم على الاقران فاذن قوله صلى الله عليه وسلم الاعمال بالنيات مختص من
الاقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي اذ الطاعة تنقلب معصية
بالقصد وتكون طاعة بالقصد اصلا نعم للنية دخل فيها وهو انه اذا انضاف اليها
قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة القسم
الثاني الطاعات وهي مرتبطة بالنيات في اصل صحتها وفي تضاعف فضلها اما
الاصل فهو ان ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير فان نوى الرياء صارت معصية
واما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة يمكن ان
ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب اذ كل واحدة منها حسنة
ثم تضاعف كل حسنة عشر امثالها كما ورد به الخبر ومثاله القعود في المسجد
فانه طاعة ويمكن ان ينوي به نيات كثيرة حتى يصير من فضائل اعمال المتقين ويبلغ
به درجات المقربين اولها ان يعتقد انه بيت الله وان داخله زائر الله سبحانه
فيقصد به زيارة مولاه عز وجل رجاء لما وعد به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال
من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور اكرام زائره وثانيها ان
ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة المرابطين انتظاره للصلاة لقوله
تعالى ورابطوا وثالثها الترهب بكف السمع والبصر والاعضاء عن الحركات

والترددات فان الاعتكاف كف وهو في معنى الصوم وهو نوع ترهب ولذلك قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم رهبانية امتي القعود في المساجد ورابعها عكوف الهم
على الله تعالى ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال
الى المسجد وخامسها التجرد لذكر الله سبحانه او لاستماع ذكره او للتذكير به كما روي
في الخبر من غدا الى المسجد ليذكر الله او يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله عز وجل
وسادسها ان يقصد افادة علم بامر بمعروف ونهي عن منكر اذ المسجد لا يخلو
عمن يسيء في صلاته او يتعاطى ما لا يحل له فيامره بالمعروف ويرشده الى الدين
فيكون شريكا معه في خيره الذي تعلم منه فتتضاعف خيراته وسابعها
ان يستفيد اخا في الله تعالى فان ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد
معشش اهل الدين المحبين لله تعالى وفي الله عز وجل وثامنها ان يترك الذنوب
حياء من الله تعالى وخوفا من ان يتعاطى في بيت الله تعالى ما يقتضي هتك الحرمة
وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما من ادمن الاختلاف الى المسجد رزقه الله تعالى
احدى سبع خصال اخا مستفادا في الله عز وجل او رحمة يستنزلها او علما
مستطرفا او كلمة تدله على هدى او تصرفه عن ردى او يترك الذنوب
خشية او حياء فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات
اذ ما من طاعة الا وتحتمل نيات كثيرة وانما تحضر في قلب العبد بقدر جده
في طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه فبهذا تزكو الاعمال وتتضاعف
الحسنات ⊙ القسم الثالث المباحات وما من شيء من المباحات الا
ويحتمل نية او نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات فما
اعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة
ولا ينبغي ان يستحقر العبد الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسال
عنها في القيمة انه لم فعله وما الذي قصد به هذا في مباح محض لا يشوبه
كراهية ولذلك قال صلى الله عليه وسلم حلالها حساب وحرامها عذاب وفي حديث
معاذ بن جبل انه صلى الله عليه وسلم قال ان العبد ليسال يوم القيمة عن كل شيء حتى عن
كحل عينيه وعن فتات الطينة باصبعه وعن لمسه ثوب اخيه وفي خبر
من تطيب لله تعالى جاء يوم القيمة وريحه اطيب من المسك ومن تطيب لغير الله
جاء يوم القيمة وريحه انتن من الجيفة فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد
من نية فان قلت فما الذي يمكن ان ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ
النفس وكيف يتطيب لله تعالى فاعلم ان من تطيب مثلا يوم الجمعة

التفاخر
او في ساير الاوقات يتصور ان يقصد التنعم بلذات الدنيا او يقصد به اظهار
بكثرة المال ليحسده الاقران او يقصد به ريا الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم
ويذكر بطيب الرايحة او ليتودد به الى قلوب النساء الاجنبيات اذا كان مستحلا
للنظر اليهن ولامور اخر لا تحصى وهذا كله يجعل التطيب معصية فيه يكون انتن
من الجيفة في القيمة الا القصد الاول وهو التلذذ والتنعم فان ذلك ليس بمعصية
الا انه يسال عنه ومن نوقش في الحساب عذب ومن اوتي شيا من مباح الدنيا
لم يعذب عليه في الاخرة ولكن ينقص له من نعيم الاخرة بقدره وناهيك خسرانا
بان يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم يبقى واما النيات الحسنة فان ينوي به
اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وان ينوي بذلك ايضا
تعظيم المسجد واحترام بيت الله تعالى فلا يرى ان يدخله زاير الله تعالى الا
طيب الرايحة وان يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته
وان يقصد به دفع الروايح الكريهة عن نفسه التي تودي الى ايذاء
مخالطيه وان يقصد حسم باب الغيبة على المغتابين اذا اغتابوا بالروايح الكريهة
فيعصون الله بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها
فهو شريك في تلك المعصية كما قيل * اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ان لا
تفارقهم فالراحلون هم * وقال الله تعالى ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا
الله عدوا بغير علم اشار به الى ان التسبب الى الشر شر وان يقصد به معالجة دماغه
ليزيد به فطنته وذكاه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر فقد قال الشافعي
من طاب ريحه زاد عقله فهذا وامثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها اذا كا
تجارة الاخرة وطلب الخير غالبا على قلبه واذا لم يغلب على قلبه الا نعيم الدنيا
لم تحضره هذه النيات وان ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها الا حديث
النفس وليس ذلك من النية في شي والمباحات كثيرة ولا يمكن احصاء النيات فيها فقس
بهذا الواحد ما عداه ولهذا قال بعض العارفين من السلف اني لاستحب ان يكون لي
في كل شي نية حتى في اكلي وشربي ونومي ودخولي الخلا وكل ذلك مما يمكن ان يقصد به التقرب
الى الله تعالى لان كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين
فمن قصده من الاكل التقوي على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب اهله والتوصل
به الى ولد يعبد الله تعالى بعده فيكثر به امة محمد صلى الله عليه وسلم كان مطيعا باكله ونكاحه واغلب
حظوظ النفس الاكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الاخرة ولذلك
ينبغي ان يحسن نيته مهما ضاع له مال فيقول هو في سبيل الله واذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب
بانه

بانه سيحمل سياته وسينقل الى ديوانه حسناته ولينو ذلك بسكوته عن الجواب ففي الخبر
ان العبد ليحاسب فتبطل اعماله لدخول الافة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الاعمال
الحسنة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول يا رب هذه اعمال ما عملتها قط فيقال هي اعمال
الذين اغتابوك واذوك وظلموك وفي الخبر ان العبد ليوافي القيمة بحسنات امثال
الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فياتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص
لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة فيقول الملايكة قد فنيت حسناته
وبقي طالبون فيقول الله عز وجل القوا عليه من سياتهم ثم صكوا له صكا الى النار وبالجملة
فاياك ثم اياك ان تستحقر شيا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعد جوابها
يوم السوال والحساب فان الله تعالى مطلع عليك وشهيد ... وما يلفظ من قول الا
لديه رقيب عتيد وقال بعض السلف كتبت كتابا واردت ان اتربه من حايط جار لي
فتحرجت ثم قلت تراب وما تراب فاتربته فهتف بي هاتف سيعلم من استخف
بتراب ما يلقى غدا من سوء الحساب وصلى رجل مع الثوري فراه مقلوب الثوب فعرفه فمد
اليه يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوه فساله عن ذلك فقال اني لبسته لله تعالى ولا
اريد ان اسويه لغير الله تعالى وقد قال الحسن ان الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيمة فيقول
بيني وبينك الله تعالى فيقول والله ما اعرفك فيقول بلى انت اخذت لبنة من حايطي واخذت
خيطا من ثوبي فهذا وامثاله من الاخبار قطع قلوب الخايفين فان كنت من اولي الحزم
والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الان ودقق الحساب عليها قبل ان يدقق
عليك وراقب احوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتامل اولا انك لم تتحرك وماذا تقصد به وما
الذي تنال به من الدنيا وما الذي يفوتك به من الاخرة وبماذا ترجح الدنيا على الاخرة فاذا
علمت انه لا باعث لك الا الدين فامض عزمك وما خطر ببالك والا فامسك ثم راقب ايضا
قلبك في امساكك وامتناعك فان ترك الفعل فعل ولا بد من نية صحيحة فلا ينبغي ان يكون
الداعي هوى خفي لا تطلع عليه ولا يغرنك ظواهر الامور ومشهورات الخيرات وافطن
للاغوار والاسرار تخرج من حيز اهل الاغترار فقد روي عن زكريا عليه السلام انه كان
يعمل في حايط قوم بالطين وكان اجير القوم فقدموا له رغيفين اذ كان لا ياكل الا من كسب يده
فدخل عليه قوم فلم يدعهم الى الطعام حتى فرغ فتعجبوا منه لما علموا من سخايه وزهده
فظنوا ان الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال اني اعمل للقوم بالاجرة وقدموا الي الرغيفين
لاتقوى بهما على عملهم فلو اكلتم معي لم يكفيكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا
ينظر الى البواطن بنور الله تعالى فان ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة
الى الطعام نقص في فضل فلا حكم للفضايل مع الفرايض وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو يا كل

سفين
فما كلمني حتى لعق اصابعه ثم قال لولا اني اخذته بدين لاحببت ان تاكل منه وقال
من دعا رجلا الى الطعام وليس له رغبة في ان ياكل فان اجابه فاكل فعليه وزران وان
لم ياكل فعليه وزر واحد واراد باحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه اخاه لما يكره لو علم
فهكذا ينبغي ان يتفقد العبد نيته في ساير الاعمال ولا يقدم ولا يحجم الا بنية وان لم تحضر
النية توقف فان النية لا تدخل تحت الاختيار * بيان ان النية غير داخلة
تحت الاختيار * اعلم ان الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية
وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات فيقول في نفسه عند تدريسه او
تجارته او اكله نويت ان ادرس لله تعالى او اتجر او اكل لا تقوى على طاعة ويظن ان
ذلك نية وهيهات فذلك حديث نفس او حديث لسان او فكر وانتقال من خاطر
الى خاطر والنية بمعزل من جميع ذلك وانما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها
الى ما ظهر لها ان فيه غرضها اما عاجلا واما اجلا والميل اذا لم يكن لا يمكن
اختراعه واكتسابه بمجرد الارادة بل ذلك كقول الشبعان نويت ان اشتهي الطعام
واميل اليه او قول الفارغ نويت ان اعشق فلانا واحبه واعظمه بقلبي فذلك
محال بل لا طريق الى اكتساب صرف القلب الى الشي وميله اليه وتوجهه نحوه
الا باكتساب اسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وانما تنبعث
النفس الى الفعل اجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملايم لها وما لم يعتقد
الانسان ان غرضه منوط بفعل من الافعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك
مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين واذا اعتقد فانما يتوجه القلب اذا كان فارغا
غير مصروف عنه بغرض شاغل اقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت والدواعي
والصوارف لها اسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالاشخاص والاحوال
وبالاعمال فاذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد
دينا ودنيا لا يمكنه ان يواقع على نية الولد بل لا يمكن الا على نية قضاء الشهوة
اذ النية هي اجابة الباعث ولا باعث له الا الشهوة فكيف ينوي الولد واذا
لم يغلب على قلبه ان اقامة سنة النكاح اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
يعظم فضله لا يمكن ان ينوي بالنكاح اتباع السنة الا ان يقول ذلك بلسانه
وقلبه وهو حديث محض وليس بنية نعم طريق اكتساب هذه النية
مثلا ان يقوي اولا ايمانه بالشرع ويقوي ايمانه بعظم ثواب من
سعى في تكثير امة محمد صلى الله عليه وسلم ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد
من ثقل المونة وطول التعب وغيره فاذا فعل ذلك ربما انبعث من
قلبه

قلبه رغبة الى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتحرك اعضاءه لمباشرة
العقد فاذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث
الغالب على القلب كان ناويا فان لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده
في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف
من جملة من الطاعات اذا لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرني
فيه نية حتى ان ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري رحمهما الله تعالى
وقال ليس تحضرني نية ونادى بعضهم امراته وكان يسرح شعره ان هات
المدرى فقالت اجي بالمراة فسكت ساعة ثم قال نعم فقيل له في ذلك فقال كان
لي في المدرى نية ولم تحضرني في المراة نية فتوقفت حتى هياها الله تعالى ومات
حماد بن ابي سليمن وكان احد علما الكوفة فقيل للثوري الا تشهد جنازته فقال
لو كان لي نية لفعلت وكانوا اذا سيلوا عملا من اعمال البر قالوا ان رزقنا الله
تعالى نية فعلنا وكان طاوس لا يحدث الا بنية وكان يسال ان يحدث فلا يحدث
ولا يسال فيبتدي فقيل له في ذلك فقال افتحبون ان احدث بغير نية اذا حضرتني
نية فعلت وحكي ان داود بن المحبر لما صنف كتاب العقل جاءه احمد بن
حنبل فطلبه منه فنظر فيه احمد صفحا ورده فقال ما لك قال فيه اسانيد ضعاف
فقال له ابن المحبر انا لم اخرجه على الاسانيد فانظر فيه بعين الخبر انما
نظرت فيه بعين العمل فانتفعت قال احمد فرده علي حتى انظر فيه
بالعين التي نظرت فاخذه ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا فقد
انتفعت به وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى اجد له نية وقال بعضهم انا
في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد وقال عيسى بن كثير مشيت
مع ميمون بن مهران فلما انتهى الى باب داره انصرفت فقال ابنه الا تعرض عليه
العشاء قال ليس في نيتي وهذا لان النية تتبع النظر فاذا تغير النظر تغيرت
النية وكانوا لا يرون ان يعملوا عملا الا بالنية لعلمهم بان النية روح الاعمال وان
العمل بغير نية صادقة ريا وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وقد
علموا ان النية ليس هو قول القايل بلسانه نويت بل هو انبعاث القلب يجري
مجرى الفتوح من الله تعالى فقد يتيسر في بعض الاوقات وقد يتعذر نعم
من كان الغالب على قلبه امر الدين تيسر عليه في اكثر الاحوال احضار
النية للخيرات فان قلبه مايل بالجملة الى اصل الخير فينبعث الى التفصيل
غالبا ومن مال قلبه الى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا

يبشره في الفرايض الا بجهد جهيد وغايته ان يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها
او نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون
ثوابه بقدر رغبته ونيته واما الطاعة على نية اجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة
والعبودية فلا تتيسر للراغب في الدنيا وهذه اعز النيات واعلاها ويعز على
بسيط الارض من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها ونيات الناس في الطاعات اقسام
اذ منهم من يكون عمله اجابة لباعث الخوف فانه يتقي النار ومنهم من يعمل اجابة
لباعث الرجا وهو الرغبة في الجنة وهذا وان كان نازلا بالاضافة الى قصد
طاعة الله تعالى وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لامر سواه فهو من جملة النيات الصحيحة
لانه ميل الى الموعود في الاخرة وان كان من جنس المالوفات في الدنيا واغلب
البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضا وطرها الجنة فالعامل لاجر
الجنة عامل لبطنه وفرجه كالاجير السوء ودرجته درجة البله وانه لينالها
بعمله اذ اكثر اهل الجنة البله واما عبادة ذوي الالباب لا تجاوز ذكر الله تعالى
والفكر فيه حبا لجلاله وكماله وجلاله وساير الاعمال تكون موكدات وروادف
وهو اارفع درجة من الالتفات الى المنكوح والمطعوم في الجنة فانهم لم
يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط
وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر الى وجهه الكريم ويسخرون
ممن يلتفت الى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر الى الحور العين
ممن يتنعم بالنظر الى وجه الصور المصنوعة من الطين بل اشد فان التفاوت
بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين اشد واعظم كثيرا من
التفاوت بين جمال الحور العين والصورة المصنوعة من الطين بل استعظام
النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان واخراجها
عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفسا لصاحبتها والفها لها والاعراض
عن النظر الى جمال وجوه النسا فعمى اكثر القلوب عن ابصار جمال الله سبحانه وجلاله
عما الخنفسا عن ادراك جمال النسا فانه لا يشعر به اصلا ولا يلتفت اليه ولو كان
له عقل وذكاء لاستخف عقل من يلتفت اليهن ولا يزالون مختلفين كل حزب
بما لديهم فرحون ولذلك خلقهم وحكي ان احمد بن حضرويه راى ربه عز وجل في
المنام فقال له كل الناس يطلبون مني الا ابو يزيد فانه يطلبني وراى ابو يزيد
ربه عز وجل فقال يارب كيف الطريق اليك فقال اترك نفسك وتعال وروي الشبلي
في المنام وقيل ما فعل الله بك فقال لم يطالبني على الدعاوي بالبرهان الا على قول

واحد قلت يوما اي خسارة اعظم من خسران الجنة فقال اي خسارة اعظم من
خسران لقايي والغرض ان هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على
قلبه واحدة منها ربما لم يتيسر له العدول الى غيرها ومعرفة هذه الحقايق
تورث اعمالا وافعالا لا ينكرها الا الظاهريون من الفقها فانا نقول من حضرت
له نية في مباح ولم تحضره في فضيلة فالمباح اولى وانتقلت الفضيلة اليه وصارت
الفضيلة في حقه نقيصة لان الاعمال بالنيات وذلك مثل العفو فانه افضل
من الانتصار في الظلم وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك
افضل ومثل ان يكون له نية في التنزه والاكل والنوم والشرب ليريح نفسه
ويتقوي على العبادة في المستقبل وليس تنبعث نيته في الحال للصوم والصلاة
فالاكل والنوم هو الافضل له بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه
وضعفت رغبته وعلم انه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو
افضل له من الصلاة ها هنا قال ابو الدردا اني لاستجم نفسي بشي من اللهو فيكون
ذلك عونا لي على الحق وقال علي رضي الله عنه روحوا القلوب فانها اذا اكرهت عميت
وهذه دقايق لا يدركها الا سماسرة العلما دون الحشوية منهم بل الحاذق
بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب وانما
يبتغي به ان يعيد اولا قوته ليحتمل المعالجة بالضد والحاذق في لعب الشطرنج
مثلا قد يترك الرخ والفرس مجانا ليتوصل بذلك الى الغلبة والضعيف
البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرنه
يوليه دبره حيلة منه ليستجره الى مضيق فيكر عليه فيقهره وكذلك
سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير
الموفق يقف فيها على لطايف من الحيل يستبعدها الضعفا فلا ينبغي
للمريد ان يضمر انكارا على ما يراه من شيخه ولا للمتعلم ان يعترض على
استاذه بل ينبغي ان يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من احوالهما
يسلمه لهما الى ان ينكشف له اسرار ذلك بان يبلغ رتبتهما وينال درجتهما

الباب الثاني في الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الاخلاص قال الله تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وقال تعالى
الا لله الدين الخالص وقال تعالى الا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا
دينهم لله وقال تعالى فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة
ربه احدا نزلت فيمن يعمل لله ويحب ان يحمد عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث

لا يغل عليهن قلب رجل مسلم اخلاص العمل لله سبحانه وتعالى وعن مصعب بن سعد
قال ظن ابي ان له فضلا على من دونه من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قال
لي رسول الله صلى الله عليه وسلم انما نصر الله هذه الامة بضعفايها ودعوتهم واخلاصهم
وصلاتهم وعن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى الاخلاص
سر من سري استودعته قلب من احببته من عبادي وقال علي رضي الله عنه لا تهتموا
لقلة العمل واهتموا للقبول فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ اخلص العمل
يجزك منه القليل وقال صلى الله عليه وسلم ما من عبد يخلص العمل لله تعالى اربعين
يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال صلى الله عليه وسلم اول من
يسال يوم القيمة ثلاثة رجل اتاه الله العلم فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيما
علمت فيقول يارب كنت اقوم به انا الليل واطراف النهار فيقول الله سبحانه كذبت وتقول
الملايكة كذبت بل اردت ان يقال فلان عالم الا فقد قيل ذلك ورجل اتاه الله مالا
فيقول الله تعالى لقد انعمت عليك فماذا صنعت فيقول يارب كنت اتصدق
انا الليل واطراف النهار فيقول الله سبحانه كذبت وتقول الملايكة كذبت بل اردت
ان يقال فلان جواد الا فقد قيل ذلك ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى
ماذا صنعت فيقول يارب امرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت فيقول الله
كذبت وتقول له الملايكة كذبت بل اردت ان يقال فلان شجاع الا فقد قيل
قال ابو هريرة ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي وقال يا ابا هريرة اولئك
اول خلق تسعر بهم نار جهنم يوم القيمة فدخل راوي الحديث على معوية وروى
له ذلك فبكى حتى كادت تخرج نفسه ثم قال صدق الله تعالى اذ قال عز وجل من
كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها الاية وفي الاسرايليات ان عابدا كان يعبد الله
تعالى دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا ان ها هنا قوما يعبدون شجرة من
دون الله تعالى فغضب لذلك فاخذ فاسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها
فاستقبله ابليس في صورة شيخ فقال اين تريد رحمك الله تعالى فقال اريد ان اقطع
هذه الشجرة قال وما انت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت
لغير ذلك فقال ان هذا من عبادتي قال فاني لا اتركك ان تقطعها
فقاتله فاخذه العابد فطرحه الى الارض وقعد على صدره فقال له
ابليس اطلقني حتى اكلمك فقام عنه فقال ابليس يا هذا ان الله تعالى
قد اسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها انت وما عليك من
غيرك ولله تعالى انبيا في الارض ولو شاء لبعثهم الى اهلها وامرهم

بقطعها قال العابد لا بد لي من قطعها فنابذه القتال فغلبه العابد وصرعه
وقعد على صدره فعجز ابليس فقال هل لك في امر فصل بيني وبينك وهو خير
لك وانفع قال وما هو قال اطلقني حتى اقول لك فاطلقه فقال ابليس انت
رجل فقير لا شي لك انما انت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب ان تتفضل
على اخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس قال نعم قال
فارجع عن هذا الامر ولك علي ان اجعل عند راسك في كل ليلة دينارين
اذا اصبحت اخذتهما فانفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على اخوانك
فيكون ذلك انفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها
غيرها ولا يضرهم قطعها شيا ولا ينفع اخوانك المومنين قطعك اياها
فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست نبيا فيلزمني قطع هذه
ولا امرني الله تعالى ان اقطعها فاكون عاصيا بتركها وما
ذكره اكثر منفعة فعاهده على الوفا بذلك وحلف له فرجع العابد
الى متعبده فبات فلما اصبح راى دينارين عند راسه فاخذهما
وكذلك الغد ثم اصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيا فغضب واخذ
فاسه على عاتقه وخرج يريد قطع الشجرة فاستقبله ابليس في صورة
الشيخ فقال الى اين قال لقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما انت بقادر
على ذلك ولا سبيل لك اليها قال فتناوله العابد ليفعل كما فعل اول مرة
فقال هيهات فاخذه ابليس وصرعه فاذا هو كالعصفور بين رجليه
وقعد ابليس على صدره وقال لتنتهين عن هذا الامر او لاذبحنك فنظر
العابد فاذا لا طاقة له به قال يا هذا غلبتني فخل عني واخبرني كيف غلبتك
اولا وغلبتني الان فقال لانك غضبت اول مرة لله عز وجل وكانت نيتك
الاخرة فسخرني الله لك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك
وهذه الحكاية تصديق قوله تعالى الا عبادك منهم المخلصين اذ لا يتخلص العبد
من حبايل الشيطان الا بالاخلاص ولذلك كان معروف الكرخي يضرب نفسه
ويقول يا نفس اخلصي تتخلصي وقال يعقوب المكفوف المخلص من يكتم حسناته
كما يكتم سيياته وقال ابو سليمان طوبي لمن صحت له خطوة من عمره لا يريد بها الا الله تعالى
وكتب عمر رضي الله عنه الى ابي موسى الاشعري من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه
وبين الناس وكتب بعض الاوليا الى اخ له اخلص النية في اعمالك يكفيك القليل من العمل

وقال ايوب السختياني تخليص النيات على العمال اشق عليهم من جميع الاعمال وكان
مطرف يقول من صفا صُفي له ومن خلط خُلط عليه ورُئي بعضهم في المنام فقيل له
كيف وجدت اعمالك فقال كل شي عملته لله تعالى وجدته حتى حبة رمان التقطتها
من طريق وحتى هرة ماتت لنا رايتها في كفة الحسنات وكان في قلنسوتي خيط حرير
فرايته في كفة السيئات وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة درهم فما رايت له ثوابا
فقلت موت سنور في الحسنات وموت حمار ليس فيها فقيل لي انه قد وجه
حيث بعثته فانه لما قيل لك قد مات قلت في لعنة الله عز وجل فبطل اجرك
ولو قلت في سبيل الله لوجدته في حسناتك وفي رواية قال وكنت قد تصدقت
بصدقة بين الناس فاعجبني نظرهم الي فوجدت ذلك لا علي ولا لي فقال سفيان
لما سمع هذا ما احسن حاله اذ لم يكن عليه فقد احسن اليه وقال يحيى بن معاذ الاخلاص
تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم وقيل كان رجل يخرج في زي النساء
ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس او مأتم فاتفق ان حضر يوما موضعا فيه
مجمع النساء فسرقت درة فصاحوا ان اغلقوا الباب حتى نفتش فكانوا
يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة الى الرجل والى امراة معه فدعا الله
تعالى بالاخلاص وقال ان نجوت من هذه الفضيحة لا اعود الى مثل هذا فوجدت
الدرة مع تلك المراة وصاحوا ان اطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة وقال بعض الصوفية
كنت قائما مع ابي عبيد التستري وهو يحرث ارضه بعد العصر من يوم عرفة
فمر به بعض اخوانه من الابدال فساره بشي فقال ابو عبيد لا فمر كالسحاب
يمسح الارض حتى غاب عن عيني فقلت لابي عبيد ما قال لك قال سالني ان احج معه
فقلت لا فقلت فهلا فعلت قال ليس لي في الحج نية وقد نويت ان اتمم هذه
الارض العشية فاخاف ان حججت معه لاجله اتعرض لمقت الله تعالى
لاني ادخل في عمل الله تعالى شيئا غيره فيكون ما انا فيه اعظم عندي من سبعين
حجة ○ وروي عن بعضهم قال غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة فقلت
اشتريها فانتفع بها في غزوتي فاذا دخلت مدينة كذا بعتها وربحت فيها فاشتريتها
فرايت تلك الليلة في النوم كان شخصين نزلا من السماء فقال احدهما لصاحبه اكتب
الغزاة فاملى عليه خرج فلان متنزها وفلان مرائيا وفلان تاجرا وفلان
في سبيل الله تعالى ثم نظر الي فقال اكتب خرج فلان تاجرا فقلت الله الله في امري ما خرجت نظر
اتجر ولا معي تجارة اتجر فيها ما خرجت الا للغزو فقال لي يا شيخ قد اشتريت امس
مخلاة تريد ان تربح فيها فبكيت وقلت لا تكتبوني تاجرا فنظر الى صاحبه فقال

ما

ما ترى فقال اكتب خرج فلان غازيا الا انه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى
يحكم الله تعالى فيه ما يرى ○ وقال سري السقطي رضي الله عنه لان تصلي ركعتين في خلوة
تخلصهما خير لك من ان تكتب سبعين حديثا او سبعمائة بعلو وقال بعضهم في
اخلاص ساعة نجاة الابد ولكن الاخلاص عزيز وقيل العلم بذر والعمل زرع
وماؤه الاخلاص وقال بعضهم اذا ابغض الله عبدا اعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا
اعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم واعطاه الاعمال الصالحة ومنعه
الاخلاص فيها واعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها وقال السوسي مراد الله من عمل
الخلق الاخلاص فقط وقال الجنيد ان لله عبادا عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا اخلصوا فاستدعاهم
الاخلاص الى ابواب البر اجمع وقال محمد بن سعيد المروزي الامر كله يرجع الى اصلين
فعل منه بك وفعل منك له فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل فاذا انت قد سعدت
بهذين وفزت في الدارين ○ بيان

حقيقة الاخلاص

اعلم ان كل شي يتصور ان يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا
ويسمى الفعل المصفى المخلص اخلاصا قال الله تعالى من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا
للشاربين فانما خلوص اللبن ان لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن ان
يمتزج به والاخلاص يضاده الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك الا ان الشرك درجات
فالاخلاص في التوحيد يضاده الشرك في الالهية والشرك منه خفي ومنه جلي وكذا الاخلاص
والاخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب وانما يكون ذلك في القصود والنيات
وقد ذكرنا حقيقة النية وانها ترجع الى اجابة البواعث فمهما كان الباعث واحدا على التجرد سمي
الفعل الصادر عنها اخلاصا بالاضافة الى المنوي فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص
ومن كان غرضه محض التقرب الى الله تعالى فهو مخلص ولكن العادة جارية بتخصيص
اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب الى الله تعالى عن جميع الشوائب كما ان الالحاد عبارة عن الميل
ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك
ولسنا نتكلم فيه اذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربع المهلكات واقل امره
ما ورد في الخبر من ان المرائي يدعى في القيامة باربعة اسامي يا مرائي يا مخادع يا مشرك
يا كافر وانما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث
آخر اما من الرياء او من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك ان يصوم لينتفع بالحمية
الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب او يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه
او يحج ليصح مزاجه بحركة السفر او ليتخلص من شر يعرض له في بلده او ليهرب
من عدو له في منزله او يتبرم باهله وولده او بشغل هو فيه فاراد ان يستريح

عنه اياما او يغزو ليمارس الحرب ويتعلم اسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها
او يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه بها ليراقب رحله او اهله او
يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال او ليكون عزيزا بين العشيرة او
ليكون عقاره وامواله محروسا بعز العلم عن الاطماع او اشتغل بالدرس والوعظ
ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث او يتكفل بخدمة العلماء والصوفية
ليكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس او لينال به رفقا في الدنيا او كتب
مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتبة خطه او حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكرا
او توضا لينظف او يتبرد او اغتسل لتطيب رائحته او روى الحديث ليعرف
بعلو الاسناد او اعتكف في المسجد ليخف عليه كرا المسكن او صام ليخفف عن نفسه
التردد في طبخ الطعام او ليتفرغ لاشغاله فلا يشغله الاكل عنها او تصدق على السائل
لينقطع ابرامه في السؤال عن نفسه او يعود مريضا ليعاد اذا مرض او يشيع
جنائز اهله او يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر اليه بعين الصلاح
والوقار فمهما كان باعثه هو التقرب الى الله تعالى ولكن انضاف اليه خطرة من
هذه الخطرات حتى صار العمل اخف عليه بسبب هذه الامور فقد خرج عمله
عن حد الاخلاص وخرج عن ان يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق الشرك اليه
وقد قال تعالى انا اغنى الشركاء عن الشركة وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح
اليه النفس ويميل اليه القلب قل ام كثر اذا تطرق الى العمل تكدر به صفوه وزال
به اخلاصه والانسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من افعاله
وعبادة من عباداته عن حظوظ واغراض عاجلة من هذه الاجناس فلذلك
قيل من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجا وذلك لعزة الاخلاص
وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذي لا باعث عليه الا طلب
القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ ان كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدة
الامر على صاحبها فيه وانما نظرنا فيما اذا كان القصد الاصلي هو التقرب الى الله
وانضافت هذه الامور اليه ثم هذه الشوائب اما ان تكون في رتبة الموافقة او في رتبة
المشاركة او في رتبة المعاونة كما سبق في النية وبالجملة فاما ان يكون الباعث النفسي
مثل الباعث الديني او اقوى منه او اضعف منه ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره
وانما الاخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد
التقرب فلا يكون فيه باعث سواه وهذا لا يتصور الا من محب لله تعالى مستهتر به
مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يحب الاكل والشرب

ايضا

ايضا بل يكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث انه ضرورة الجبلة فلا
يشتهي الطعام لانه طعام بل لانه يقويه على عبادة الله تعالى ويتمنى لو كفي شر الجوع
حتى لا يحتاج الى الاكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون
قدر الضرورة مطلوبا عنده لانه ضرورة دينه فلا يكون له هم الا الله تعالى فمثل
هذا الشخص لو اكل او شرب او قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع
حركاته وسكناته فلو نام مثلا ليريح نفسه فيتقوى على العبادة بعده كان نومه
عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص في الاعمال
كالمسدود عليه الا على الندور وكما ان من غلب عليه حب الله تعالى وحب الآخرة
فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت اخلاصا فالذي يغلب على نفسه
الدنيا والعلو والرياسة وبالجملة غير الله سبحانه فقد اكتسبت جميع حركاته
تلك الصفة فلم تسلم له عباداته من صومه وصلاته وغير ذلك الا نادرا فاصل
الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث
يغلب ذلك على القلب فاذ ذاك يتيسر الاخلاص وكم من اعمال يتعب الانسان
فيها ويظن انها خالصة لوجه الله تعالى ويكون فيها مغرورا لانه لا يرى وجه
الآفة فيها كما حكي عن بعضهم انه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها
في المسجد في الصف الاول لاني تاخرت يوما لعذر وصليت في الصف الثاني
فاعترتني خجلة من الناس حيث راوني في الصف الثاني فعرفت ان نظر
الناس الي في الصف الاول كان يسرني وسبب استراحة قلبي من حيث
لا اشعر وهذا دقيق غامض وقل ما تسلم الاعمال عن امثاله وقل من يتنبه
له الا من وفقه الله تعالى والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها في الآخرة
سيئات وهم المرادون بقوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون
وبدا لهم سيئات ما عملوا وبقوله تعالى قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الذين
ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا واشد الخلق
لهذه الفتنة العلماء فان الباعث للاكثرين منهم على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح
بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء والشيطان يلبس عليهم ذلك
ويقول غرضكم نشر دين الله تعالى والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم
وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح
بقبول الناس قوله واقبالهم عليه وهو يدعي انه يفرح بما يسر له من
نصرة الدين ولو ظهر من اقرانه من هو احسن منه وعظا وانصرف الناس

عنه واقبلوا عليه بالثناء فذلك وغمه ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى
اذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول انما غمك
لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف الناس الى غيرك اذ لو اتعظوا بقولك لكنت
انت المثاب واغتمامك لفوت الثواب محمود ولا يدري المسكين ان انقياده
للحق وتسليمه الامر للافضل اجزل ثوابا واعود عليه في الآخرة من انفراده
وليت شعري لو اغتم عمر رضي الله عنه بتصدي ابي بكر رضي الله عنه للامامة
اكان غمه محمودا او مذموما ولا يستريب ذو دين ان كان ذلك لكان مذموما لان انقياده للحق
وتسليمه الامر الى من هو اصلح اعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب
الجزيل بل فرح عمر رضي الله عنه باستقلال من هو اولى منه بالامر فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك
وقد ينخدع بعض اهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بانه لو ظهر من هو اولى منه لفرح
به واخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان وذلك محض الغرور والجهل فان النفس
سهلة الانقياد في الوعد بامثال ذلك قبل نزول الامر فاذا دهاه الامر تغير ورجع ولم
يف بالوعد وذلك لا يعرفه الا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله
بامتحانها فمعرفة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع الا الشاذ
النادر والفرد الفذ وهو المستثنى في قوله الا عبادك منهم المخلصين فليكن العبد
شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق والا التحق باتباع الشيطان وهو لا
يشعر ●

بيان اقاويل الشيوخ في الاخلاص

قال السوسي الاخلاص فقد رؤية الاخلاص لان من شاهد في اخلاصه الاخلاص فقد احتاج
اخلاصه الى اخلاص وما ذكره اشارة الى تصفية العمل عن العجب بالفعل فان الالتفات
الى الاخلاص والنظر اليه عجب وهو من جملة الآفات والخالص ما صفي عن جميع الآفات
فهذا تعرض لآفة واحدة ● وقال سهل الاخلاص ان يكون سكون العبد وحركاته لله
تعالى خاصة وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض وفي معناه قول ابراهيم بن ادهم الاخلاص
صدق النية مع الله تعالى وقيل لسهل اي شيء اشد على النفس فقال الاخلاص اذ ليس لها
فيه نصيب وقال رويم الاخلاص في العمل هو ان لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين
وهذا اشارة الى ان حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا والعابد لاجل تنعم النفس بالشهوات
في الجنة معلول بل الحقيقة ان لا يراد بالعمل الا وجه الله تعالى وهو اشارة الى اخلاص
الصديقين وهو الاخلاص المطلق فاما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص
بالاضافة الى الحظوظ العاجلة والا فهو في طلب حظ البطن والفرج وانما المطلوب
الحق لذوي الالباب وجه الله تعالى فقط وقول القائل لا يتحرك الانسان الا لحظ

والبراءة

١٨٠

والبراءة من الحظوظ من صفة الالهية ومن ادعى ذلك فهو كافر وقد قضى القاضي
ابو بكر الباقلاني بتكفير من يدعي البراءة من الحظوظ وقال هذا من صفات الالهية
وما ذكره حق ولكن القوم انما ارادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا وهو
الشهوات الموصوفة في الجنة فقط فاما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر
الى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء وهذا لا يعده الناس حظا بل يتعجبون منه
وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة الشهود
للحضرة الالهية سرا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا اليه فحركتهم
لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره وقال ابو عثمان
الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر الى الخالق وهو اشارة الى آفة الرياء فقط
ولذلك قال بعضهم الاخلاص في العمل ان لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك
فيكتبه فانه اشارة الى مجرد الاخفاء وقد قيل الاخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا
عن العلائق وهذا القول اجمع للمقاصد وقال المحاسبي الاخلاص هو اخراج الخلق
من معاملة الرب وهو اشارة الى مجرد نفي الرياء وكذلك قول الخواص من شرب
من كاس الرياسة فقد خرج عن اخلاص العبودية وقال الحواريون
لعيسى عليه السلام ما الخالص من الاعمال فقال الذي يعمل لله تعالى لا يحب ان يحمده
عليه احد وهذا ايضا تعرض لترك الرياء وانما خصه بالذكر لانه اقوى الاسباب
المشوشة للاخلاص وقال الجنيد الاخلاص تصفية الاعمال من الكدورات وقال
الفضيل ترك العمل من اجل الناس رياء والعمل من اجل الناس شرك والاخلاص ان
يعافيك الله منهما وقيل الاخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا
هو البيان الكامل والاقاويل في هذا كثيرة فلا فائدة في تكثير النقل وتكثيره بعد
انكشاف الحقيقة وانما البيان الشافي في بيان سيد الاولين والآخرين صلى الله عليه وسلم
اذ سئل عن الاخلاص فقال صلى الله عليه وسلم ان تقول ربي الله ثم تستقيم كما امرت
اي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد الا ربك وتستقيم في عبادته كما امرت
وهذه اشارة الى قطع كل ما سوى الله عز وجل عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا ●

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للاخلاص

اعلم ان الآفات المشوشة للاخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضعيف
مع الجلاء وبعضها قوي مع الخفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء الا بمثال
واظهر مشوشات الاخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا فنقول الشيطان يدخل الآفة
على المصلي مهما كان مخلصا في صلاته ثم نظر اليه جماعة او دخل عليه داخل فيقول له حسن

له

صلاتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك
فتخشع جوارحه وتسكن اطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرياء الظاهر ولا
يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين ● الدرجة الثانية ان يكون المريد قد فهم هذه
الآفة واخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيه ولا يلتفت اليه ويستمر في صلاته
كما كان فياتيه في معرض الخير ويقول انت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وما
تفعله يؤثر عنك ويتاسى بك غيرك فيكون لك ثواب اعمالهم ان احسنت وعليك
الوزر ان اسات فاحسن عملك بين يديه فعساه ان يقتدي بك في الخشوع
وتحسين العبادة وهذا اغمض من الاول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالاول
وهو ايضا عين الرياء ومبطل للاخلاص فانه ان كان يرى الخشوع وحسن
العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتضه لنفسه في الخلوة ولا يمكن ان يكون
نفس غيره اعز عليه من نفسه فهذا محض التلبيس بل المقتدى به هو
الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره الى غيره فيكون له ثواب
عليه فاما هذا فمحض النفاق والتلبيس فمن اقتدى به اثيب عليه واما هو فيطالب
بتلبيسه ويعاقب على اظهاره من نفسه ما ليس متصفا به ● الدرجة
الثالثة وهي ادق مما قبلها ان يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان
ويعلم ان مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء ويعلم ان الاخلاص
في ان تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملا ويستحيي من نفسه ومن ربه
ان يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته فيقبل على نفسه في الخلوة
ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملا ويصلي في الملا ايضا مثل ذلك
فهذا ايضا من الرياء الغامض لانه حسن صلاته في الخلوة ليحسن في الملا فلا يكون
قد فرق بينهما والتفاته في الخلوة والملا الى الخلق بل الاخلاص ان يكون مشاهدة
البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة فكان نفس هذا ليس
تسمح باساءة الصلاة بين اظهر الناس ثم يستحيي من نفسه ان يكون في صورة
المرائين ويظن ان ذلك يزول بان تستوي صلاته في الخلا والملا وهيهات بل زوال
ذلك بان لا يلتفت الى الخلق كما لا يلتفت الى الجمادات في الخلا والملا جميعا وهذا شخص
مشغول الهم بالخلق في الملا والخلا جميعا وهذا من المكايد الخفية للشيطان
● الدرجة الرابعة وهي ادق واخفى ان ينظر اليه الناس وهو في صلاته
فيعجز الشيطان عن ان يقول له اخشع لاجلهم فانه قد عرف انه تفطن لذلك ويستحيي
من ان ينظر الله تعالى الى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه

ويظن

١٨١

ويظن ان ذلك عين الاخلاص وهو عين المكر والخداع فان خشوعه لو كان لنظره
الى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكن لا يختص حضورها بحالة حضور
غيره وعلامة الامن من هذه الآفة ان يكون هذا الخاطر مما يالفه في الخلوة كما يالفه
في الملا ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور
البهيمة سببا فما دام يفرق في احواله بين مشاهدة انسان ومشاهدة بهيمة
فهو بعد خارج عن صفو الاخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء وهذا
الشرك اخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة
الصماء كما ورد به الخبر ولا يسلم من الشيطان الا من دق نظره وسعد بعصمة الله
تعالى وتوفيقه وهدايته والا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى
لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين
وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن في اوقات
مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع
بها فيدعو الشيطان الى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي ان تتركها ويكون
انبعاث القلب باطنا لها لاجل تلك الشهوة الخفية او مشوبة بها فيخرج
عن حد الاخلاص بسببه وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص بل
من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يانس الطبع به فالشيطان يرغبه
فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الانس
بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع اليه ويتبين ذلك في ميله الى احد المسجدين
او احد الموضعين اذا كان احسن من الآخر وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع
وكدورات النفس ومبطل حقيقة الاخلاص ولعمري الغش الذي يمزج بخالص الذهب
له درجات متفاوتة فمنها ما يغلب ومنها ما يقل ولكن يسهل دركه ومنها
ما يدق بحيث لا يدركه الا الناقد البصير وغش القلب ودغل الشيطان وخبث
النفس اغمض من ذلك وادق كثيرا ولهذا قيل ركعتان من عالم افضل من عبادة
سنة من جاهل واريد به العالم البصير بدقائق آفات الاعمال حتى يخلص
منها فان الجاهل نظره الى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي الى
حمرة الدينار المموه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه وقيراط
من الخالص الذي يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبي فهكذا
يتفاوت امر العبادات بل اشد واعظم ومداخل الآفات المتطرقة الى فنون
الاعمال لا يمكن حصرها واحصاؤها فلننتفع بما ذكرناه مثالا والفطن يغنيه

الغش

القليل عن الكثير والبليغ لا يغنيه التطويل ايضا فلا فايدة في التفصيل

بيان حكم العمل المشوب في استحقاق الثواب به

اعلم ان العمل اذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شي من الريا وحظوظ النفس فقد اختلف في ان ذلك هل يقتضي ثوابا ام يقتضي عقابا ام لا يقتضي شيا اصلا فلا يكون له ولا عليه اما الذي لم يرد به الا الريا فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب واما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وانما النظر في المشوب وظاهر الاخبار يدل على انه لا ثواب له وليس تخلو الاخبار عن تعارض فيه والذي ينقدح لنا فيه والعلم عند الله تعالى ان ينظر الى قدر قوة البواعث فان كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه وان كان باعث الريا اغلب واقوى فهو ليس بنافع بل هو مع ذلك مضر ومقتضي للعقاب نعم العقاب الذي فيه اخف من عقاب العمل الذي تجرد للريا ولم يمتزج به شايبة التقرب وان كان قصد التقرب اغلب بالاضافة الى الباعث الاخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ولقوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة فلا ينبغي ان يضيع قصد الخير بل ان كان غالبا على قصد الريا حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة وان كان مغلوبا سقط بسببه شي من عقوبة القصد الفاسد وكشف الغطا عن هذا ان الاعمال تاثيرها في القلوب بتاكيد صفاتها فداعية الريا من المهلكات وانما غذا هذا المهلك وقوته العمل على وفقه وداعية الخير من المنجيات وانما قوتها بالعمل على وفقها فاذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان فاذا عمل على وفق مقتضى الريا فقد قوى تلك الصفة واحدهما مهلك والاخر منج فان كان تقوية هذا بقدر تقوية الاخر فقد تقاوما فكان كالمستضر بالحرارة اذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كانه لم يتناولهما وان كان احدهما غالبا فالغالب لا يخلو عن اثر وكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والادوية ولا ينفك عن اثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تاثير في انارة القلب او تسويده وفي تقريبه من الله تعالى او ابعاده واذا جا بما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا فقد عاد الى ما كان فلم يكن له ولا عليه وان كان الفعل مما يقربه شبرين والاخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتبع السية الحسنة تمحها فاذا كان الريا المحض يمحوه الاخلاص المحض عقيبه فاذا اجتمعا فلا بد

وان يتدافعا بالضرورة ويشهد لهذا اجماع الامة على ان من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه واثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن ان يقال انما يثاب على اعمال الحج عند انتهايه الى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وانما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب ان يقال مهما كان الحج هو المحرك الاصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثوابه وما عندي ان الغزاة لا يدركون في انفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة يكثر فيها الغنايم وبين جهة لا غنيمة فيها ويبعد ان يقال ادراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم بل العدل ان يقال اذا كان الباعث الاصلي والمزعج القوي هو اعلا كلمة الله تعالى وانما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه الى الغنيمة اصلا فان هذا الالتفات نقصان لا محالة فان قلت فالايات والاخبار تدل على ان شوب الريا محبط للثواب وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وساير الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين ان رجلا سال رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف او قال يتصدق فيحب ان يحمد ويوجر فلم يدر ما يقول له حتى نزل قوله تعالى فمن كان يرجو لقا ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا وقد قصد الاجر والحمد جميعا وروى معاذ انه صلى الله عليه وسلم قال ادنى الريا شرك وقال ابو هريرة قال صلى الله عليه وسلم يقال لمن اشرك في عمله خذ اجرك ممن عملت له وروي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ان الله تعالى يقول انا اغنى الاغنيا عن الشركة من عمل لي عملا فاشرك معي غيري تركت نصيبي لشريكي وروى ابو موسى ان اعرابيا اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تعالى وقال عمر رضي الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله ان يكون قد ملا دفتي راحلته ورقا وقال ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم من هاجر يبتغي شيا من الدنيا فهو له فنقول هذه الاحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك الا الدنيا كقوله صلى الله عليه وسلم من هاجر يبتغي شيا من الدنيا وكان ذلك هو الاغلب على همه وقد ذكرنا ان ذلك عصيان وعدوان لا لان طلب الدنيا حرام ولكن طلبها باعمال الدين حرام لما فيه من الريا وتغيير العبادة عن وضعها واما لفظ الشركة حيث ورد فمطلقه للتساوي وقد بينا انه اذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغي ان يرجى عليه ثواب ثم ان الانسان عند الشركة ابدا في خطر فانه لا يدري اي الامرين اغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى فمن كان يرجو لقا ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه

حلم

ودعت

احدا اي لا يرجو اللقا مع الشركة التي هي احسن احوالها التساقط ويجوز ان يقال ايضا منصب الشهادة لا ينال الا بالاخلاص في الغزو وبعيد ان يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه الى مجرد الغزو وان لم يكن غنيمة وقدر على غزو طايفتين من الكفار احداهما غنية والاخرى فقيرة فمال الى جهة الاغنيا لاعلا كلمة الله تعالى وللغنيمة انه لا ثواب له على غزوه البتة ونعوذ بالله ان يكون الامر كذلك فان هذا حرج في الدين ومدخل للياس على المسلمين لان امثال هذه الشوايب التابعة قط لا ينفك الانسان عنها الا على الندور فيكون تاثير هذا في نقصان الثواب فاما ان يكون في احباطه فلا نعم الانسان فيه على خطر عظيم لانه ربما يظن ان الباعث الاقوى هو قصد التقرب ويكون الاغلب على سره الحظ النفسي وذلك مما يخفى غاية الخفا فلا يحصل الاجر الا بالاخلاص والاخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وان بالغ في الاحتياط فلذلك ينبغي ان يكون ابدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خايفا ان يكون في عبادته افة يكون وبالها اكثر من ثوابها وهكذا كان الخايفون من ذوي البصاير وهكذا ينبغي ان يكون كل ذي بصيرة ولذلك قال سفيان لا اعتد بما ظهر من عملي وقال عبد العزيز بن ابي رواد جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شي من اعمال الله الا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان اوفى من نصيب الله ليته لا لي ولا علي ومع هذا فلا ينبغي ان يترك العمل عند خوف الافة والريا فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه اذ المقصود ان لا يفوت الاخلاص ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكي انه كان بعض الفقرا يخدم ابا سعيد الخراز ويخف في اعماله فتكلم ابو سعيد يوما في اخلاص الحركة فاخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالاخلاص فتعذر عليه قضا الحوايج فاستضر الشيخ بذلك فسأله عن امره فاخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الاخلاص وانه يعجز عنها في اكثر اعماله فيتركها فقال ابو سعيد لا تفعل ان الاخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الاخلاص فما قلت لك اترك العمل وانما قلت لك اخلص العمل وقال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق ريا وفعله لاجل الخلق شرك

الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق قال الله تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وان الكذب يهدي الى الفجور والفجور يهدي الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا ويكفي في فضيلة الصدق ان

الصديق مشتق منه والله تعالى وصف به الانبيا عليهم السلام في معرض المدح والثنا فقال تعالى واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا وقال تعالى واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا وقال تعالى واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا وقال ابن عباس اربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحيا وحسن الخلق والشكر وقال بشر بن الحارث من عامل الله تعالى بالصدق استوحش من الناس وقال ابو عبد الله الرملي رايت منصورا الدينوري في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال غفر لي ورحمني واعطاني ما لم اومل فقلت له احسن ما توجه العبد به الى الله تعالى ماذا قال الصدق واقبح ما توجه به الكذب وقال ابو سليمان اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك وقال رجل لحكيم ما رايت صادقا فقال لو كنت صادقا لعرفت الصادقين وعن محمد بن علي الكتاني قال وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة اركان على الحق والصدق والعدل فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول وقال الثوري في قوله تعالى ويوم القيمة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة قال هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين واوحى الله سبحانه وتعالى الى داود يا داود من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في الدجلة فقال الشبلي ان كان صادقا فالله ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وان كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما اغرق فرعون وقال بعضهم اجمع العلما والفقها على ثلاث خصال انها اذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها الا ببعض الاسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الاعمال وطيب المطعم وقال وهب بن منبه رحمه الله عليه وجدت على حاشية التورية اثني عشر حرفا كان صلحا بني اسرايل يجتمعون فيقرؤونها ويتدارسونها لا كنز انفع من العلم ولا مال اربح من الحلم ولا حسب اوضع من الغضب ولا قرين ازين من العقل ولا رفيق اشين من الجهل ولا شرف اعز من التقوى ولا كرم اوفى من ترك الهوى ولا عمل افضل من الفكر ولا حسنة اعلى من الصبر ولا سية اخزى من الكبر ولا دوا الين من الرفق ولا دا اوجع من الخرق ولا رسول اعدل من الحق ولا دليل انصح من الصدق ولا فقر اذل من الطمع ولا غنى اشقى من الجمع ولا حياة اطيب من الصحة ولا معيشة اهنى من العفة ولا عبادة احسن من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس احفظ من الصمت ولا غايب اقرب من الموت وقال محمد بن سعيد المروزي اذا طلبت الله تعالى بالصدق اتاك الله تعالى مراة بيدك حتى تبصر كل شي من عجايب الدنيا والاخرة وقال ابو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين خلق الله تعالى وقيل لذي النون

الرقي

هل لعبد الى صلاح اموره سبيل فقال
قد بقينا مذ بدين حيارى نطلب الصدق ما اليه سبيل
فدعاوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل
وقيل لسهل ما اصل هذا الامر الذي نحن عليه فقال الصدق والسخاء والشجاعة فقيل زدنا فقال الحياء والتقى وطيب الغذاء وروى ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق وقال الكتاني في قوله تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم قال ليسأل الصادقين عند انفسهم عن صدقهم عند ربهم وهذا امر على خطر

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم ان لفظ الصدق يستعمل في ستة معان صدق في القول وصدق في النية والارادة وصدق في العزم وصدق في الوفاء بالعزم وصدق في العمل وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لانه مبالغة من الصدق ثم هم ايضا على درجات ومن كان له حظ من الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالاضافة الى ما فيه صدقه ❊ الصدق الاول صدق اللسان وذلك لا يكون الا في الاخبار او فيما يتضمن الاخبار وينبه عليه والخبر اما ان يتعلق بالماضي او بالمستقبل وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد ان يحفظ الفاظه فلا يتكلم الا بالصدق وهذا هو اشهر انواع الصدق واظهره فمن حفظ لسانه عن الاخبار عن الاشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان احدهما الاحتراز عن المعاريض فقد قيل في المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لانها تقوم مقام الكذب اذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه الا ان ذلك مما تمس اليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الاحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الاعداء والاحتراز عن اطلاعهم على اسرار الملك فمن اضطر الى شيء من ذلك فصدقه فيه ان يكون نطقه فيه لله تعالى فيما يأمر الحق به ويقتضيه الدين فاذا نطق به فهو صادق وان كان كلامه مفهما غير ما هو عليه لان الصدق ما اريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه نعم في مثل هذا الموضع ينبغي ان يعدل الى المعاريض ما وجد اليه سبيلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا توجه الى سفر ورى بغيره وذلك كيلا ينتهي الخبر الى الاعداء فيقصد وليس هذا من الكذب في

شيء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بكذاب من اصلح بين اثنين وقال خيرا او نمى خيرا ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع من اصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان في مصالح الحرب والصدق ها هنا يتحول الى النية فلا يراعى فيه الا صدق النية وارادة الخير فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير ارادته كان صادقا وصديقا كيف ما كان لفظه ثم التعريض فيه اولى وطريقه ما حكي عن بعضهم انه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته خطي باصبعك دائرة وضعي الاصبع عليها وقولي ليس ها هنا واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا وافهم الظالم انه ليس في الدار فالكمال الاول في اللفظ ان يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض ايضا الا عند الضرورة والكمال الثاني ان يراعي معنى الصدق في الفاظه التي يناجي بها ربه كقوله وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض فان قلبه ان كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا باماني الدنيا وشهواتها فهو كاذب وكقوله اياك نعبد واياك نستعين وقوله انا عبد الله عز وجل فانه اذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله تعالى لم يكن كلامه صدقا ولو طولب يوم القيمة بالصدق في قوله انا عبد الله لعجز عن تحقيقه فانه ان كان عبدا لنفسه او عبدا للدنيا او عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة فسمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له وانما العبد الحق لله عز وجل من عتق اولا عن غير الله سبحانه فصار حرا مطلقا فاذا تقدمت له الحرية صار القلب فارغا فحلت فيه العبودية لله تعالى فيشغله بالله تعالى وبمحبته ويقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد الا الله تعالى ثم قد يجاوز هذا الى مقام آخر اسنى منه يسمى الحرية وهو ان يعتق ايضا عن ارادته لله تعالى من حيث هو بل يقنع بما يريد الله سبحانه له من تقريب او ابعاد فتفنى ارادته في ارادة الله تعالى وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه ان حركه تحرك وان سكنه سكن وان ابتلاه رضي لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية والعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين واما الحرية عن غير الله تعالى فدرجات الصادقين وبعدها تتحقق العبودية

لله تعالى وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه ان يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق في القول ❊ الصدق الثاني في النية والارادة ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو ان لا يكون له باعث في الحركات والسكنات الا الله تعالى فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز ان يسمى كاذبا كما رويناه في فضيلة الاخلاص في حديث الثلاثة حين يسأل العالم ماذا عملت فيما علمت فقال فعلت كذا وكذا فقال الله تعالى كذبت بل اردت ان يقال فلان عالم فانه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكن كذبه في ارادته ونيته وقد قال بعضهم الصدق صحة التوجه في القصد وكذلك قوله تعالى والله يشهد ان المنافقين لكاذبون وقد قالوا انك لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق الى الخبر وهذا القول يتضمن اخبارا بقرينة الحال اذ صاحبه يظهر من نفسه انه يعتقد ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه فانه كذب في ذلك ولم يكذب فيما نطق به فيرجع احد معاني الصدق الى خلوص النية وهو الاخلاص فكل صادق فلابد وان يكون مخلصا ❊ الصدق الثالث صدق العزم فان الانسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه ان رزقني الله مالا تصدقت بجميعه او بشطره او لقيت عدوا في سبيل الله عز وجل قاتلت ولم ابال وان قتلت وان اعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم اعص الله تعالى بظلم وميل الى خلق فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة فكان الصدق ها هنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لفلان شهوة صادقة ويقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم يكن شهوته عن سبب ثابت قوي او كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى فالصادق والصديق هو الذي يصادف عزيمته في الخيرات كلها قوية تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد بل تسخو نفسه ابدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه لان اقدم فتضرب عنقي احب الي من ان اتأمر على قوم فيهم ابو بكر فانه قد وجد في نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بانه لا يتأمر مع وجود ابي بكر رضي الله عنه واكد ذلك بما ذكره من القتل ومراتب الصديقين في العزم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهي به الى ان يرضى بالقتل فيه ولكن اذا خلي ورأيه لم يتقدم ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين ان يقتل هو او ابو بكر كانت حياته احب اليه من حياة ابي بكر الصديق رضي الله

الصدق الرابع في الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم في الحال اذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فاذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا ايضا يضاد الصدق فيه ولذلك قال الله تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فقد روي عن انس ان عمه انس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه فقال اول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه اما والله لئن اراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله تعالى ما اصنع قال فشهد احدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا ابا عمرو الى اين فقال واها لريح الجنة اني اجدها دون احد فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من رمية بسهم او ضربة وطعنة فقالت بنته النضر اختي ما عرفت اخي الا ببنانه فنزلت هذه الاية قوله تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير رضي الله عنه وقد سقط على وجهه يوم احد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الشهداء اربعة رجل مؤمن جيد الايمان لقي العدو فصدق الله عز وجل حتى قتل فذلك الذي يرفع الناس اليه اعينهم يوم القيمة هكذا ورفع راسه حتى وقعت قلنسوته قال الراوي فلا ادري قلنسوة عمر او قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل جيد الايمان اذا لقي العدو فكانما يضرب وجهه بشوك الطلح اتاه سهم غائر فقتله فهو في الدرجة الثانية ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله تعالى حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة ورجل مؤمن اسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة وقال مجاهد رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا ان رزقنا الله تعالى لنتصدقن ولنكونن من الصادقين فبخلوا به فنزلت ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به الى آخر الاية وقال بعضهم انما هو شيء نووه في انفسهم لم يتكلموا به فنزل ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن الى قوله بما اخلفوا الله ما وعدوه الى آخر الايات فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا وهذا الصدق اشد من الصدق الثالث فان النفس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها ولهيجان الشهوات عند التمكن وحصول الاسباب ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال لان اقدم فتضرب عنقي احب الي من ان اتأمر على قوم فيهم ابو بكر اللهم الا ان تسول لي نفسي عند القتل شيئا لا اجده الآن لاني لا آمن ان يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها اشار بذلك الى شدة الوفاء بالعزم وقال ابو سعيد الخراز رأيت في المنام كان ملكين نزلا من السماء فقالا لي

صدقته وعوجا الى السعادة ❊ الصدق الخامس في الاعمال وهو ان يجتهد حتى لا تدل
اعماله الظاهرة على امر في باطنه لا يتصف به لا بان يترك الاعمال ولكن بان يستجر الباطن
الى تصديق الظاهر وهذا يخالف ما ذكرنا من ترك الريا لان المرائي هو الذي يقصد ذلك
فرب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه
غافل عن الصلاة فمن ينظر اليه يراه قائما بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق
بين يدي شهوة من شهواته فهذه اعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن اعرابا هو فيه
كاذب وهو مطالب بالصدق في الاعمال وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار
وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذا غير صادق في عمله وان لم يكن ملتفتا الى الخلق
ولا مرائيا به اياهم ولا ينجو عن هذا الا باستوا السريرة والعلانية بان يكون باطنه
مثل ظاهره او خيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب
الاشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا في دلالة الظاهر على الباطن
فاذن مخالفة الظاهر للباطن ان كان عن قصد سمي ريا ويفوت به الاخلاص وان
كان عن غير قصد فيفوت به الصدق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل سريرتي
خيرا من علانيتي واجعل علانيتي صالحة وقال يزيد بن الحارث اذا استوت سريرة العبد
وعلانيته فذلك النصف وان كانت سريرته افضل من علانيته فذلك الفضل
وان كانت علانيته افضل من سريرته فذلك الجور وانشد
❊ اذا السر والاعلان في المومن استوى ❊ فقد عز في الدارين واستوجب الثنا ❊
❊ فان خالف الاعلان سرا فما له ❊ على سعيه فضل سوى الكد والعنا ❊
❊ كما خالص الدينار في السوق نافق ❊ ومغشوشه المردود لا يقتضي المنى ❊
وقال عطية بن عبد الغافر اذا وافقت سريرة المومن علانيته باهى الله به الملايكة
يقول عز وجل هذا عبدي حقا وقال معوية بن قرة من يدلني على بكا بالليل بسام
بالنهار وقال عبد الواحد كان الحسن اذا امر بشي كان من اعمل الناس به واذا نهى
عن شي كان من اترك الناس له ولم ار احدا قط اشبه سريرة بعلانية منه
وكان ابو عبد الرحمن الزاهد يقول الهي عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالامانة
وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ويبكي وقال ابو يعقوب النهرجوري الصدق
موافقة الحق في السر والعلانية فاذن مساواة السريرة العلانية احد انواع
الصدق ❊ الصدق السادس وهو اعلى الدرجات واعزها الصدق
في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجا والتعظيم والزهد والرضا
والحب والتوكل وساير هذه الامور فان هذه الامور لها مباد ينطلق عليها

الاسم

الاسم ولكنه خوف غير صادق او غير بالغ درجة الحقيقة اما تراه اذا خاف
سلطانا ليلا يتطهر بالتوبة كالغايات وحقايق فالصادق المحقق من نال
حقيقتها واذا غلب على شي وتمت حقيقته يسمى صاحبها صادقا فيها
كما يقال فلان صدق القتال ويقال هذا الخوف الصادق وهذه هي الشهوة
الصادقة وقال تعالى انما المومنون الذين امنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا الى
قوله اولئك هم الصادقون وقال تعالى ولكن البر من امن بالله واليوم الاخر
الى قوله والصابرين في الباسا والضرا الى قوله اولئك الذين صدقوا وسيل ابو ذر
عن الايمان فقرا هذه الاية فقيل سالناك عن الايمان فقال سالت رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقرا هذه الاية ولنضرب للخوف مثلا فما من
عبد يومن بالله الا وهو خايف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف
غير صادق اي غير بالغ درجة الحقيقة اما تراه اذا خاف سلطانا او
قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرايصه ويتنغص
عليه عيشه ويتعذر عليه اكله ونومه ويتقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به
اهله وولده وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالانس الوحشة وبالراحة
التعب والمشقة والتعرض للاخطار كل ذلك خوفا من درك المحذور
ثم انه لا يخاف النار ولا يظهر عليه شي من ذلك عند جريان معصية
عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لم ار مثل النار نام هاربها ولم ار مثل
الجنة نام طالبها فالتحقيق في هذه الامور عزيز جدا ولا غاية لهذه
المقامات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله اما
ضعيف واما قوي فاذا قوي سمي صادقا فيه فمعرفة الله وتعظيمه
والخوف منه لا نهاية له ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام
احب ان اراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطيق ذلك قال بلى
ارني قال فواعده البقيع في ليلة مقمرة فاتاه فنظر النبي صلى الله عليه وسلم
فاذا هو قد سد الافق يعني جوانب السما فوقع النبي صلى الله عليه وسلم مغشيا
عليه فافاق وقد عاد جبريل لصورته الاولى فقال صلى الله عليه وسلم ما ظننت
ان احدا من خلق الله هكذا قال كيف لو رايت اسرافيل ان العرش لعلى كاهله
وان رجليه قد خرقتا تخوم الارضين السفلى وانه ليتصاغر من عظمة الله
حتى يصير كالوصع يعني كالعصفور الصغير فانظر ما الذي يغشاه من
العظمة والهيبة حتى يرجع الى ذلك الحد وساير الملايكة ليسوا كذلك

لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم وقال جابر قال صلى الله عليه وسلم
مررت ليلة اسري بي وجبريل بالملا الاعلى كالحلس البالي من خشية الله
يعني الكسا الذي يلقى على ظهر البعير وكذلك الصحابة كانوا خايفين وما كانوا
بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك قال ابن عمر لا يبلغ عبد حقيقة الايمان
حتى ينظر الى الناس كلهم حمقى في دين الله وقال مطرف ما من الناس احد الا وهو
احمق فيما بينه وبين ربه الا ان بعض الحمق اهون من بعض وقال صلى الله
عليه وسلم لا يبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر الى الناس كالاباعر في جنب الله
ثم يرجع الى نفسه فيجدها احقر حقير فالصادق اذن في جميع هذه المقامات
عزيز ثم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون العبد صادقا في بعض الامور
دون بعض فان كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا قال سعد بن معاذ ثلاثة
انا فيهن قوي وفيما سواهن ضعيف ما صليت صلاة منذ اسلمت فحدثت
نفسي حتى افرغ منها ولا شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قايلة وما
هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولا
الا علمت انه حق فقال ابن المسيب ما ظننت ان هذه الخصال تجتمع الا في
النبي صلى الله عليه وسلم فهذا صدق في هذه الامور وكم من جلة الصحابة قد ادوا
الصلاة وتبعوا الجنايز ولم يبلغوا هذا المبلغ فهذه هي درجات الصدق
ومعانيه والكلمات الماثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الاغلب
لا تتعرض الا لاحاد هذه المعاني نعم قد قال ابو بكر الوراق الصدق ثلاثة
صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لعامة
المومنين قال الله تعالى والذين امنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون وصدق
الطاعة لاهل العلم والورع وصدق المعرفة لاهل الولاية الذين هم اوتاد الارض وكل
هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ولكن ذكر اقساما مما فيه الصدق
وهذا غير محيط بجميع الاقسام وقال جعفر الصادق رضي الله عنه الصدق هو المجاهدة
وان لا تختار على الله تعالى غيره سبحانه وتعالى كما لم يختر عليك غيرك قال
الله تعالى هو اجتباكم وقيل انه تعالى اوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام اني اذا
احببت عبدا ابتليته ببلايا لا يقوم لها الجبال لانظر كيف صدقه
فان وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا وان وجدته جزوعا يشكوني
الى خلقي خذلته ولا ابالي فاذن من علامات الصدق كتمان المصايب
والطاعات جميعا وكراهية اطلاع الخلق عليها والله اعلم ❊ تم الكتاب بحمد الله ❊

وهو كتاب المحاسبة والمراقبة

كتاب المحاسبة والمراقبة من كتاب احيا علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم ❊
كتاب المحاسبة والمراقبة ❊ وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات
الحمد لله القايم على كل نفس بما كسبت ❊ الرقيب على كل جارحة بما اجترحت ❊ المطلع على ضماير
القلوب اذا هجست ❊ الحسيب على خواطر عباده اذا اختلجت ❊ الذي لا يعزب عن علمه مثقال
ذرة في السموات والارض تحركت او سكنت ❊ المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير
من الاعمال وان خفيت ❊ المتفضل بقبول طاعات العباد وان صغرت ❊ المتطول
بالعفو عن معاصيهم وان كثرت ❊ وانما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما احضرت ❊ وتنظر
فيما قدمت واخرت ❊ فتعلم انه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد
القيمة وهلكت ❊ وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضل الله تعالى بقبول
بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت ❊ فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت ❊
واستغرقت رحمته الخلايق في الدنيا والاخرة وغمرت ❊ فبنفحات فضله اتسعت
القلوب للايمان وانشرحت ❊ وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتادبت ❊
وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت ❊ وبتاييده ونصرته
انقطعت مكايد الشيطان واندفعت ❊ وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات
اذا ثقلت ❊ وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت ❊ فمنه العطا والجزا والابعاد
والادنا ❊ والاسعاد والاشقا ❊ والصلاة على محمد سيد الانبيا ❊ وعلى اله سادة
الاصفيا ❊ وقادة الاتقيا ❊ وسلم كثيرا ❊ اما بعد فقد قال الله تعالى ونضع الموازين
القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيا وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها الاية
وقال تعالى ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا
الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها الاية وقال تعالى يوم يبعثهم الله
جميعا فينبيهم بما عملوا احصاه الله ونسوه والله على كل شي شهيد وقال تعالى
يوميذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة الايتين
وقال تعالى يوم توفى كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سو تود
لو ان بينها وبينه امدا بعيدا ويحذركم الله نفسه الاية وقال تعالى واعلموا
ان الله يعلم ما في انفسكم فاحذروه ❊ فعرف ارباب البصاير من جملة العباد
ان الله لهم بالمرصاد وانهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل
الذر من الخطرات واللحظات وتحققوا انه لا ينجيهم من هذه الاخطار
الا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الانفاس
والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل

ما كسبت وهو الرقيب ... يعلمون ... يوم تجد كل نفس

منقلبه
ان يحاسب خفّ في القيامة حسابه وحضر عند السوال جوابه وحسن
منقلبه ومآبه ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات
القيمة وقفاته وقادته الى الخزي والمقت سيّاته فلما انكشف لهم
ذلك علموا انه لا ينجيهم منه الا طاعة الله تعالى وقد امرهم بالصبر والمرابطة
فقال سبحانه وتعالى يا ايها الذين امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا فرابطوا
نفوسهم اولا بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة
ثم بالمعاتبة فكانت لهم في المرابطة ستة مقامات ولا بد من شرحها
وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الاعمال فيها واصل ذلك المحاسبة
ولكن كل حساب بعده مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاقبة
والمعاتبة فلنذكر شرح هذه المقامات المقام الاول من المرابطة
المشارطة اعلم ان مطلب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع
عند المحاسبة سلامة الربح وكما ان التاجر يستعين بشريكه فيسلم اليه المال
حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الاخرة وانما مطلبه
وربحه تزكية النفس لان بذلك فلاحها قال الله تعالى قد افلح من زكاها وقد
خاب من دساها وانما فلاحها بالاعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس
في هذه التجارة اذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر
بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله وكما ان الشريك يصير خصما منازعا
يجاذبه في الربح فيحتاج الى ان يشارطه اولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه
ثالثا ويعاقبه او يعاتبه رابعا فكذلك العقل يحتاج الى مشارطة النفس
اولا فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها الى
طريق الفلاح ويجزم عليها الامر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها
لحظة فانه لو اهملها لم ير منها الا الخيانة وتضييع راس المال كالعبد
الخائن اذا خلي له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي ان يحاسبها
ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فان هذه تجارة ربحها الفردوس الاعلى
وبلوغ سدرة المنتهى مع الانبياء والشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع
النفس اهم كثيرا من تدقيقه في ارباح الدنيا مع انها محتقرة بالاضافة
الى نعيم العقبى ثم كيف ما كانت فمصيرها الى التصرم والانقضاء
ولا خير في خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لان الشر الذي
لا يدوم اذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر والخير

الذي

الذي لا يدوم يبقى الاسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير ولذلك قيل
اشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا
فحتم على كل ذي حزم امن بالله واليوم الاخر ان لا يغفل عن محاسبة
نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها ولحظاتها فان
كل نفس من انفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن ان
يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمها ابد الاباد فانقضاؤها ضائعة
او مصروفة الى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل
فاذا اصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي ان يفرغ قلبه ساعة
لمشارطة النفس كما ان التاجر عند تسليم البضاعة الى الشريك العامل
يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس ما لي بضاعة الا العمر ومهما
فني فقد فني راس المال ووقع الياس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم
الجديد قد امهلني الله فيه وانسا في اجلي وانعم علي به ولو توفاني لكنت
اتمنى ان يرجعني الى الدنيا يوما واحدا حتى اعمل فيه صالحا فاحسبي انك قد توفيت
ثم رددت فاياك ثم اياك ان تضيعي هذا اليوم فان كل نفس من الانفاس
بس
هو جوهرة لا قيمة لها واعلمي يا نفس ان اليوم والليلة اربع وعشرون
ساعة وقد ورد في الخبر انه ينشر للعبد بكل يوم وليلة اربع وعشرون
خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوة نورا من حسناته
التي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة
تلك الانوار التي هي وسيلة عند الملك الجبار ما لو وزع على اهل النار لادهشهم
ذلك الفرح عن الاحساس بالم النار ويفتح له خزانة اخرى
سوداء مظلمة يفوح نتنها ويتغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى الله
سبحانه فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على اهل الجنة لنغص عليهم
نعيمها ويفتح له خزانة اخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه
وهي الساعة التي نام فيها او غفل او اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر
على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير
اذا اهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا وهكذا تعرض
عليه خزائن اوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجتهدي اليوم في ان تعمري
خزائنك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي اسباب ملكك ولا تميلي الى الكسل
والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى

كانت
عندك حسرته لا تفارقك وان دخلت الجنة فالم الغبن والحسرة لا يطاق وان
كان دون الم النار وقد قال بعضهم هب ان المسيء قد عفي عنه اليس قد فاته ثواب
المحسنين اشار به الى الغبن والحسرة وقال الله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك
يوم التغابن فهذه وصيته لنفسه في اوقاته ثم استانف لها وصية في اعضائه
السبعة وهي العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ويسلمها
اليها فانها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وان لجهنم سبعة ابواب لكل
باب منهم جزء مقسوم وانما تتعين تلك الابواب لمن عصى الله تعالى بهذه
الاعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها اما العين فيحفظها عن النظر الى وجه
من ليس له بمحرم او الى عورة مسلم او النظر الى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل
فضول مستغنى عنه فان الله تعالى يسال عبده عن فضول النظر كما يساله عن
فضول الكلام ثم اذا صرفها عن هذا لم يقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها
وربحها وهو ما خلقت له من النظر الى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر
الى اعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم
ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة وهكذا ينبغي ان يفصل عليها
الامر في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن اما اللسان فلانه منطلق
بالطبع ولا مؤونة عليه في الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة
وتزكية النفس ومذمة الخلق والاطعمة واللعن والدعاء على الاعداء والمماراة
في الكلام وغير ذلك مما ذكرناه في افات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع انه
خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وارشاد عباد الله تعالى الى طريق الله عز وجل
واصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه ان لا يحرك اللسان
طول نهاره الا في الذكر وينطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكر وما يلفظ
من قول الا لديه رقيب عتيد واما البطن فيكلفه ترك الشره وتقليل الاكل
من الحلال واجتناب الشبهات ويمنعه من الشهوات ويقتصر على قدر
الضرورة ويشترط عليها ان خالفت شيئا من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات
البطن ليفوتها اكثر مما نالته بشهوتها وهكذا يشترط عليها في جميع الاعضاء
واستقصاء ذلك يطول ولا يخفى معاصي الاعضاء وطاعاتها ثم يستانف
وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في
النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها
وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها باسبابها وهذه شروط يفتقر اليها

كل

كل يوم ولكن اذا تعود الانسان شرط ذلك على نفسه اياما وطاوعته نفسه
في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها وان اطاع في بعضها بقيت الحاجة
الى تجديد المشارطة فيما بقي ولكن لا يخلو كل يوم من مهم جديد وواقعة
حادثة لها حكم جديد ولله عليه في ذلك حق ويكثر هذا ممن يشتغل بشيء من
اعمال الدنيا من ولاية او تجارة او تدريس اذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة
يحتاج الى ان يقضي حق الله تعالى فيها فعليه ان يشترط على نفسه الاستقامة فيها
علم
والانقياد للحق في مجاريها ويحذرها مغبة الاهمال ويعظها كما يعظ العبد الابق
المتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية
ولكن الوعظ والتاديب يؤثر فيها وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين فهذا وما يجري
مجراه هو اول مقام المرابطة مع النفس وهي المحاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة
تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى واعلموا ان الله يعلم ما في انفسكم فاحذروه
وهذا للمستقبل وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فانه يسمى
محاسبة فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من
المحاسبة وقد قال الله تعالى يا ايها الذين امنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا وقال تعالى
يا ايها الذين امنوا ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة الاية وقال تعالى
ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه الاية ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها
للاحتراز منه في المستقبل وروى عبادة بن الصامت انه صلى الله عليه وسلم قال لرجل
كان يساله ان يوصيه ويعظه اذا اردت امرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا
فامضه وان كان غيا فانته عنه وقال حكيم اذا اردت ان يكون العقل غالبا للهوى
فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فان مكث الندامة في القلب اكثر
من مكث خفة الشهوة وقال لقمان عليه السلام ان المؤمن ابصر العاقبة فامن
الندامة وروى شداد بن اوس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الكيس من دان
نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله عز وجل
دان نفسه اي حاسب نفسه فيوم الدين هو يوم الحساب وقوله تعالى انا
لمدينون اي لمحاسبون وقال عمر رضي الله عنه حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا
وزنوها قبل ان توزنوا وتهيؤوا للعرض الاكبر وكتب الى ابي موسى الاشعري
حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة وقال لكعب كيف تجدها في كتاب الله قال
ويل لديان الارض من ديان السماء فعلاه بالدرة وقال الا من حاسب نفسه
فقال كعب والله يا امير المؤمنين انها الى جنبها في التوراة ما بينهما حرف الا من

حاسبه نفسه وهذا كله اشارة الى المحاسبة للمستقبل اذ قال صلى الله عليه وسلم من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الامور اولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم اقدم عليها فباشرها

المرابطة الثانية المراقبة

اذا اوصى الانسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى الا المراقبة لها عند الخوض في الاعمال وملاحظتها بالعين الكالية فانها ان تركت طغت وفسدت ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها اما الفضيلة فقد سال جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم عن الاحسان فقال ان تعبد الله كانك تراه وقال ايضا صلى الله عليه وسلم اعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وقد قال الله تعالى افمن هو قايم على كل نفس بما كسبت وقال تعالى الم يعلم بان الله يرى وقال تعالى ان الله كان عليكم رقيبا وقال تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قايمون وقال ابن المبارك لرجل راقب الله تعالى فساله عن تفسيره فقال كن ابدا كانك ترى الله عز وجل وقال عبد الواحد بن زيد اذا كان سيدي رقيبا علي فما ابالي بغيره وقال ابو عثمن المغربي افضل ما يلزم الانسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم وقال ابن عطا افضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الاوقات وقال الجريري امرنا هذا مبني على اصلين ان يلزم نفسك المراقبة لله تعالى ويكون العلم على ظاهرك قايما وقال ابو عثمن قال لي ابو حفص اذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله سبحانه رقيب على باطنك وحكي انه كان لبعض مشايخ هذه الطايفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض اصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طيرا وسكينا وقال ليذبح كل واحد منكم طيره في موضع لا يراه احد ودفع الى الشاب مثل ذلك وقال له مثل ما قال لهم فرجع كل واحد بطيره مذبوحا ورجع الشاب والطير حي في يده فقال ما لك لم تذبح كما ذبح اصحابك فقال لم اجد موضعا لا يراني فيه احد اذ الله تعالى مطلع علي في كل مكان وموضع فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا حق لك ان تكرم وحكي ان زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف عليه السلام ما لك اتستحيين من مراقبة جماد ولا استحيي من مراقبة الملك الجبار وحكي عن بعض الاحداث انه راود جارية عن نفسها فقالت له الا تستحيي فقال ممن استحيي ولا يرانا الا الكواكب فقالت فاين مكوكبها وقال رجل للجنيد بم استعين على غض

البصر

البصر فقال بعلمك ان نظر الناظر اليك اسبق من نظرك الى المنظور اليه وقال الجنيد انما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل وعن مالك بن دينار قال جنات عدن وجنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له ومن يسكنها قال يقول الله تعالى انما يسكن جنات عدن الذين اذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني والذين انثنت اصلابهم من خشيتي وعزتي وجلالي اني لاهم بعذاب اهل الارض فاذا نظرت الى اهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب وسيل المحاسبي رحمه الله عن المراقبة فقال اولها علم القلب بقرب الرب تعالى وقال المرتعش المراقبة مراعاة السر لملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة ويروى في بعض الكتب ان الله تعالى قال لملايكته انتم موكلون بالظواهر وانا رقيب على البواطن وقال محمد بن علي الترمذي اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره اليك واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه وقال سهل لم يتزين القلب بشي افضل ولا اشرف من علم العبد بان الله شاهده حيث كان وسيل بعضهم عن قوله تعالى رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه فقال معناه ذلك لمن راقب ربه تعالى وحاسب نفسه وتزود لمعاده وسيل ذو النون بم ينال العبد الجنة فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتاهب له ومحاسبة نفسك قبل ان تحاسب وقيل

اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا ان ما تخفي عليه يغيب
الم تر ان اليوم اسرع ذاهب ... وان غدا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمن بن علي عظني فقال لين كنت اذا عصيت الله خاليا ظننت انه يراك لقد اجترات على امر عظيم ولين كنت تظن انه لا يراك فلقد كفرت وقال الثوري عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية وعليك بالرجا لمن يملك الوفا وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة وقال فرقد السبخي ان المنافق ينظر فاذا لم ير احدا دخل مدخل السوء وانما يراقب الناس ولا يراقب الله وقال عبد الله بن دينار خرجت مع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الى مكة فعرسنا في بعض الطريق فانحدر عليه راعي من الجبل فقال له يا راعي بعني شاة من هذه الغنم فقال اني مملوك فقال قل لسيدك اكلها الذيب قال فاين الله عز وجل فبكى عبد الله بن

عمر رضي الله عنهما ثم غدا الى المملوك فاشتراه من مولاه واعتقه وقال اعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وارجو ان تعتقك في الآخرة

بيان حقيقة المراقبة

اعلم ان حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم اليه فمن احترز من امر من الامور بسبب غيره يقال انه يراقب فلانا ويراعي جانبه ونعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة اعمالا في الجوارح وفي القلب اما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته اليه وملاحظته اياه وانصرافه اليه واما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بان الله مطلع على الضماير عالم بالسراير رقيب على اعمال العباد قايم على كل نفس بما كسبت وان سر القلب في حقه مكشوف كما ان ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل اشد من ذلك فهذه المعرفة اذا صارت يقينا اعني انها خلت عن الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت فاذا استولت على القلب استجرت القلب الى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه اليه والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون الى الصديقين والى اصحاب اليمين فمراقبتهم على درجتين الدرجة الاولى مراقبة المقربين من الصديقين وهي مراقبة التعظيم والاجلال وهي ان يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات الى الغير اصلا وهذه مراقبة لا نطول النظر في تفصيل اعمالها فانها مقصورة على القلب اما الجوارح فانها تتعطل عن التلفت الى المباحات فضلا عن المحظورات واذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج الى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد بل تسدد الرعية من ملك كلية الراعي والقلب هو الراعي فاذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذي صار همه هما واحدا فكفاه الله ساير الهموم ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ولا يسمع ما يقال له مع انه لا صمم به وقد يمر عليه ابنه مثلا فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجري عليه ذلك فقال لمن عاتبه اذا مررت بي فحركني ولا تستبعد هذا فانك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الارض حتى ان خدم الملوك قد لا يحسون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشتغل القلب بحقير من مهمات الدنيا

فيغوص

فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي فربما يجاوز الموضع الذي قصده وينسى الشغل الذي نهض اليه وقد قيل لعبد الواحد بن زيد هل تعرف في زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق قال ما اعرفه الا رجلا سيدخل عليكم الساعة فما كان الا سريعا حتى دخل عليه عتبة الغلام فقال له عبد الواحد من اين جيت يا عتبة فقال من موضع كذا وكان طريقه على السوق فقال من لقيت في الطريق فقال ما لقيت احدا وحكي عن بعضهم انه قال مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيدا منهم فتقدمت اليه فاردت ان اكلمه فقال ذكر الله عز وجل اشهى فقلت انت وحدك فقال معي ربي وملكاي فقلت من سبق من هولاء فقال من غفر الله له فقلت اين الطريق فاشار نحو السما وقام ومشى وقال اكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم الا منه ولا يسمع الا فيه فهذا لا يحتاج الى مراقبة لسانه وجوارحه فانها لا تتحرك الا بما هو فيه ومر الشبلي على ابي الحسين النوري وهو معتكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شي فقال له من اين اخذت هذه المراقبة والسكون فقال من سنور كانت لنا فكانت اذا ارادت الصيد رابضة راس الحجر لا تتحرك لها شعرة وقال ابو عبد الله بن خفيف خرجت من مصر اريد الرملة للقا ابي علي الروذباري فقال لي عيسى بن يونس المصري المعروف بالزاهد ان في صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة فلو نظرت اليهما نظرة لعلك تستفيد منهما فدخلت صور وانا جايع عطشان وفي وسطي خرقة وليس على كتفي شي فدخلت المسجد فاذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما اجاباني فسلمت ثانية وثالثة فلم اسمع الجواب فقلت نشدتكما بالله تعالى الا رددتما علي السلام فرفع الشاب راسه من مرقعته فنظر الي وقال يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقي من القليل الا قليل فخذ من القليل الكثير يا ابن خفيف ما اقل شغلك حتى تتفرغ الى لقاينا قال فاخذ بكليتي ثم طاطا راسه في مكانه فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعي وعطشي وعناي فلما كان وقت العصر قلت عظني فرفع راسه الي وقال يا ابن خفيف نحن اصحاب المصايب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة ايام لا اكل ولا اشرب ولا انام ولا رايتهما اكلا ولا شربا ولا ناما فلما كان في اليوم الثالث قلت في سري احلفهما ان يعظاني لعلي انتفع بعظتهما فرفع الشاب راسه وقال لي يا ابن خفيف عليك بالصمت وصحبة من يذكرك الله تعالى رويته ويقع هيبته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الاجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك

الدرجة الثانية مراقبة الورعين من اصحاب اليمين وهم قوم غلب يقين
اطلاع الله تعالى على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة
الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت الى الاحوال والا
الاعمال الا انها مع ممارسة الاعمال لا تخلو عن المراقبة نعم غلب عليهم الحيا من الله تعالى
فلا يقدمون ولا يحجمون الا بعد التثبت فيه ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به
في القيمة فانهم يرون الله في الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون الى انتظار القيمة ويعرف
اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فانك في خلوتك قد تتعاطى عملا فيحضرك صبي او امرأة
فتعلم انه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعي احوالك لا عن اجلال وتعظيم
بل عن حيا فان مشاهدته وان كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فانها تهيج الحيا منك
وقد يدخل عليك ملك من الملوك او كبير من الاكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل
ما انت فيه شغلا به لا حيا منه فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى ومن كان
في هذه الدرجة فيحتاج الى ان يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته
وبالجملة جميع اختياراته وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر في العمل اما قبل العمل فلينظر
ان ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله تعالى خاصة او هو في هوى النفس ومتابعة
الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق فان كان لله تعالى امضاه
وان كان لغير الله استحيى من الله عز وجل وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته
فيه وهمه وميله اليه وعرفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها فانها عدوة
نفسها ان لم يتداركها الله تعالى بعصمته وهذا التوقف في بداية الامور الى حد البيان
واجب محتوم لا محيص لاحد عنه فان في الخبر انه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته
وان صغرت ثلاثة دواوين الديوان الاول لم والثاني كيف والثالث لمن
ومعنى لم اي لم فعلت هذا أكان عليك ان تفعله لمولاك او ملت اليه لشهوتك وهواك
فان سلم عنه بان كان عليه ان يعمله لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له كيف فعلت
هذا فان لله تعالى في كل عمل شرطا وحكما لا يدرك قدره ووقته وصفته الا بعلم فقال له كيف
فعلت ابعلم محقق ام بجهل وظن فان سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة
بالاخلاص فقال لمن عملت الوجه الله تعالى خالصا وفاء بقولك لا اله الا الله فيكون
اجرك على الله او لمراءاة خلق مثلك فخذ اجرك منه ام عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفينا
نصيبك من الدنيا ام عملت لسهو وغفلة فقد سقط اجرك وحبط عملك وخاب سعيك
وان عملته لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي اذ كنت عبدي تاكل رزقي وتترفه
بنعمتي ثم تعمل لغيري اما سمعتني اقول ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم
وقال تعالى ان الذين تدعون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه

واشكروا

واشكروا له ويحك اما سمعتني اقول الا لله الدين الخالص فاذا عرف العبد هذه انه بصدد
المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل ان يطالب واعد للسؤال جوابا وللجواب صوابا
فلا يبتدي ولا يعيده الا بعد التثبت ولا يحرك جفنا ولا انملة الا بعد التأمل فقد قال النبي
صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه ان الرجل ليسأل يوم القيمة عن كحل عينيه وعن فتة
الطين باصبعيه وعن لمسه ثوب اخيه وقال الحسن كان احدهم اذا اراد ان يتصدق
بصدقة تفكر وتثبت فان كان لله تعالى امضاه وقال الحسن رحم الله عبدا وقف عند همه
فان كان لله مضى وان كان لغيره تأخر وقال في حديث سعد حين اوصاه سلمان اتق الله
عند همك اذا هممت وقال محمد بن علي ان المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس
كحاطب ليل فهذا هو النظر الاول في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا الا العلم المتين
والمعرفة الحقيقية باسرار الاعمال واغوار النفس ومكايد الشيطان فمتى لم يعرف
نفسه وربه وعدوه الشيطان ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين
ما يحب الله تعالى ويرضاه في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم
في هذه المراقبة بل الاكثرون يرتكبون الجهل فيما يقدر على التعلم منه بعذر فيها
بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم افضل من الف
ركعة من غير عالم لانه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواقع الغرور
فيتقي ذلك والجاهل لا يعرفها فكيف يحترز منها فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان
منه في فرح وشماتة فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو راس كل شقاوة
واساس كل خسران فحكم الله تعالى على كل عبد ان يراقب نفسه عند همه
بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف
له بنور العلم انه لله تعالى فيمضيه او هو لهوى النفس فيتقيه وينزجر
القلب عن الفكر فيه وعن الهم به فان الخطرة الاولى في الباطل اذا لم تدفع
اورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد
يورث الفعل والفعل يورث البوار والمقت فينبغي ان يحسم مادة الشر
عن منبعه الاول وهو الخاطر فان جميع ما وراءه يتبعه ومهما اشكل على العبد
ذلك واظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر في ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله
من مكر الشيطان بواسطة الهوى فان عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضي
بنور علماء الدين وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان
بل اشد فقد اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام لا تسأل عني عالما اسكره حب الدنيا
فيقطعك عن محبتي اولئك قطاع الطريق على عبادي فالقلوب المظلمة بحب الدنيا

وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ... فلا تظنن انه

يحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فان
مستضا انوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضي بها من استدبرها
واقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها وهي شهوات الدنيا فليكن هم المريد
اولا في احكام العلم او في طلب عالم معرض عن الدنيا او ضعيف الرغبة فيها ان لم
يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يحب البصر
الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات فجمع بين
الامرين وهما متلازمان فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له
بصر ناقد في الشبهات ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من قارف ذنبا فارقه عقل لا
يعود اليه ابدا فما قدر العقل الضعيف الذي يسعد الادمي به حتى يحتاج
ان يمحقه بالخطوة ويحقه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الاعمال قد اندرست
في هذه الاعصار فان الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط
بين الخلق في الخصومات الثائرة من اتباع الشهوات وقالوا هذا هو الفقه واخرجوا
هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذي ما
قصد به الا دفع الشواغل عن القلوب لتتفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا
من الدين بواسطة هذا الفقه وفي الخبر انكم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع
وسياتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبت ولهذا توقف طائفة من الصحابة في
القتال مع اهل العراق واهل الشام لما اشكل عليهم الامر كسعد بن ابي وقاص وعبد الله
بن عمر واسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة وغيرهم فمن لم يتوقف عند الاشتباه
فانه يكون متبعا لهواه معجبا برايه وكان ممن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم
اذ قال اذا رايت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذي راي برايه فعليك
بخاصة نفسك فكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قول الله تعالى
ولا تقف ما ليس لك به علم وقوله صلى الله عليه وسلم اياكم والظن فان الظن اكذب
الحديث واراد به ظنا بغير دليل كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما اشكل
عليه ويتبع ظنه ولصعوبة هذا الامر وعظمه كان دعاء الصديق رضي الله عنه
اللهم ارني الحق حقا وارزقني اتباعه وارني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه
ولا تجعله متشابها علي فاتبع الهوى وقال عيسى عليه السلام الامور ثلاثة
امر استبان رشده فاتبعه وامر استبان غيه فاجتنبه وامر اشكل
عليك فكله الى عالمه وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اني اعوذ
بك ان اقول في الدين بغير علم فاعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف

الحق

الحق والايمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال الله تعالى امتنانا على عبده
ونبيه صلى الله عليه وسلم وكان فضل الله عليك عظيما واراد به العلم وقال تعالى
فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وقال تعالى ان علينا للهدى وقال ثم ان علينا
بيانه وقال وعلى الله قصد السبيل وقال علي رضي الله عنه الهوى شريك العمى
ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب
الندم وفي الصدق السلامة رب بعيد اقرب من قريب وغريب من لم يكن له
حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يعدمك من حبيب سوء ظن نعم الخلق
التكرم والحياء سبب الى كل جميل واوثق العرى التقوى واوثق سبب اخذت
به سبب بينك وبين الله تعالى انما لك من دنياك ما اصلحت به مثواك والرزق رزقان
رزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم تاته اتاك وان كنت جازعا على ما افلت من
يديك فلا تجزع على ما لم يصل اليك واستدل على ما لم يكن بما كان فانما الامور اشباه
وانما المرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فما نالك
من دنياك فلا تكثرن به فرحا وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك اسفا وليكن سرورك
بما قدمت واسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك بما بعد الموت وغرضنا
من نقل هذه الكلمات قوله رضي الله عنه ومن التوفيق التوقف عند الحيرة فاذن النظر
الاول للمراقب نظره في الهم والحركة أهي لله تعالى ام للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم
ثلاث من كن فيه استكمل ايمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرائي بشيء من عمله واذا
عرض له امران احدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا واكثر ما ينكشف
له في حركاته ان يكون مباحا ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم من حسن اسلام
المرء تركه ما لا يعنيه النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل
وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضي حق الله تعالى فيه ويحسن النية في اتمامه ويكمل
صورته ويتعاطاه على اكمل ما يمكنه وهذا ملازم له في جميع احواله فانه لا يخلو في
جميع احواله عن حركة وسكون فاذا راقب الله في جميع ذلك قدر على عبادة الله فيها
بالنية وحسن الفعل ومراعاة الادب فان كان قاعدا مثلا فينبغي ان يقعد
مستقبل القبلة لقوله صلى الله عليه وسلم خير المجالس ما استقبل به القبلة ولا
يجلس متربعا اذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه قال ابراهيم بن ادهم جلست
متربعا فسمعت هاتفا يقول هكذا تجالس الملوك فلم اجلس بعد ذلك متربعا وان كان
ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها في موضعها

وكل ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة
فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة أو معصية أو مباح فمراقبته في الطاعة
بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات وإن كان في معصية
فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتكفير وإن كان في مباح
فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد
في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها
وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض لله عليه وهو ثلاثة أشياء إما
فعل يلزمه مباشرته أو محظور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة
الله عز وجل ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون
له على طاعة الله عز وجل ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام
المراقبة ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه فينبغي أن يتفقد العبد نفسه
في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغا من الفرائض وقدر على
الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإن من فاته مزيد ربح
وهو قادر على دركه فهو مغبون فبالأرباح تنال مزايا الفضائل فبذلك يأخذ
العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى ولا تنس نصيبك من الدنيا وكل ذلك إنما يكون
بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث ساعة مضت لا تعب على
العبد فيها كيف ما انقضت في مشقة أو رفاهية وساعة مستقبلة لم تأت
بعد لا يعيش إليها ويراقب فيها ربه فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر
على فوات هذه الساعة فإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من
الأولى ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته
كأنه في آخر أنفاسه ولعله آخر أنفاسه وهو لا يدري وإذا أمكن أن يكون آخر
أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة ويكون جميع
أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله عنه لا يكون المؤمن ظاعنا إلا في ثلاث تزود لمعاد
أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم ومعناه على العاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة
يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر في صنع الله تعالى وساعة
يخلو فيها للمطعم والمشرب فإن هذه الساعة عون له على بقية الساعات ثم هذه الساعة
التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال
وهو الذكر والفكر فإن الطعام الذي يتناوله مثلا فيه من العجائب ما لو تفكر فيه
وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه على أقسام قسم
ينظرون إليه بعين البصيرة والاعتبار فينظرون في عجائب صنعته وكيفية

ارتباط

ارتباط قوام الحيوانات بها وكيفية تقدير الله لأسبابها وخلق الشهوة الباعثة عليها
وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيها كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا
مقام ذوي الألباب وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه
الاضطرار إليه ويودون لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيها
مسخرين لشهواتها وهذا مقام الزاهدين وقوم يرون في الصنعة الصانع
ويترقون منها إلى صفات الخالق فيكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر أبواب من
الفكر تنفتح عليه بسببه وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامة
المحبين إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة
واشتغل قلبه بالصانع وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله النظر منه إلى
الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جدا وقسم رابع
ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم
من جملته ويذمون منها ما لا يوافق هواهم ويعيبونها ويذمون فاعلها فيذمون
الطبيخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ وقدرته وبعلمه هو الله تعالى
وأن من ذم شيئا من خلق الله عز وجل بغير إذن الله تعالى فقد ذم الله عز وجل ولذلك قال
لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر فهذه هي المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام
والاتصال وشرح ذلك يطول وفي ما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول

المرابطة الثالثة محاسبة النفس بعد العمل ولنذكر فضيلة المحاسبة
ثم حقيقتها أما الفضيلة فقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر
نفس ما قدمت لغد وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال ولذلك قال
عمر رضي الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا
وفي الخبر أنه صلى الله عليه وسلم جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصني فقال صلى الله عليه وسلم
أمستوص أنت قال نعم قال صلى الله عليه وسلم إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته
فإن كان رشدا فأمضه وإن كان غيا فانته عنه وفي الخبر ينبغي أن
يكون للعاقل أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه وقال الله
تعالى وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون والتوبة نظر في الفعل بعد
الفراغ منه بالندم عليه وقال صلى الله عليه وسلم إني لأستغفر الله تعالى
وأتوب إليه في اليوم مائة مرة وقال الله تعالى إن الذين اتقوا إذا مسهم
طيف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون وروي أن عمر رضي الله عنه كان
يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم

وقال ميمون بن مهران لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من
محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل وروي عن عائشة رضي الله عنها
أن أبا بكر قال لها عند الموت ما أحد من الناس أحب إلي من عمر ثم قال لها كيف قلت
فقالت قلت ما أحد من الناس أحب إلي من عمر ثم قال لها كيف قلت فقالت قلت ما
أحد من الناس أحب إلي من عمر فقال ما أحد أعز علي من عمر رضي الله عنهما فانظر
كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها وحديث أبي طلحة
حين شغله الطائر في حائطه عن الصلاة فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندما
ورجاء للعوض مما فاته وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب
فقيل له يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا فقال أردت أن
أجرب قلبي هل ينكره وقال الحسن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله تعالى وإنما
خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وإنما شق الحساب يوم القيامة
على قوم أخذوا هذا الأمر عن غير محاسبة ثم فسر المحاسبة فقال إن المؤمن يفجؤه
الشيء يعجبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك لمن حاجتي ولكن هيهات حيل بيني
وبينك فهذا حساب قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول
ما أردت إلى هذا والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله وقال أنس سمعت عمر رضي الله عنه
وقد خرجت معه يوما حتى دخل حائطا فسمعته يقول وبيني وبينه الجدار
وهو في الحائط عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله تعالى
أو ليعذبنك وقال الحسن في قوله تعالى ولا أقسم بالنفس اللوامة قال لا يلقى
المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي ماذا أردت بشربتي ماذا أردت
بأكلتي والفاجر يمضي قدما لا يعاتب نفسه وقال مالك بن دينار رحمة الله عليه
رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا
ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله عز وجل فكان له قائدا وهذا من معاتبة
النفس كما سيأتي بيانه وقال ميمون بن مهران التقي أشد محاسبة لنفسه
من سلطان عاص ومن شريك شحيح وقال إبراهيم التيمي مثلت نفسي في الجنة آكل
من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ثم مثلت نفسي في النار
آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها فقلت
لنفسي يا نفسي أي شيء تريدين فقالت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا
قلت فأنت في الأمنية فاعملي وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب
وهو يقول رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره

وامرأ

وامرأ أخذ بعنان نفسه فنظر ماذا يريد به امرأ نظر في مكياله امرأ نظر في ميزانه
فما زال امرأ امرأ حتى أبكاني وقال رجل كان يصحب الأحنف بن قيس قال كنت
أصحبه بالليل فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجيء إلى المصباح
فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما
صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه
على سبيل التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس
ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة
أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت
الخيرة لهم في فواته ولو حصل ذلك لهم لم يبق إلا أياما قلائل فكيف لا يحاسب
العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ما هذه
المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك ومعنى
المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة
من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وإن كان من خسران طالبه
بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه
النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعامله
نفسه الأمارة بالسوء فليحاسبها على الفرائض أولا فإن أداها على وجهها شكر الله
تعالى عليه ورغبها في مثلها وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلفها
الجبران بالنوافل فإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها وتعذيبها ومعاتبتها
ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش في حساب
الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها
فينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فإنها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها
أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره وليتكفل بنفسه من الحساب
ما يتولاه غيره في صعيد القيامة وهكذا عن كل نظرة بل عن خواطره وأفكاره وقيامه
وقعوده ومواكلته وشربه ونومه وحتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكونه لم
سكن فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر الواجب فيه كان ذلك
القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة
قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه ثم إن النفس غريم
يمكن أن يستوفي منه الديون أما بعضها فبالغرامة والضمان وبعضها برد عينه

وبعضها فبالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن شيء من ذلك الا بعد تحقيق الحساب
وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه فاذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة
والاستيفاء ثم ينبغي ان يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة
ساعة في جميع الاعضاء الظاهرة والباطنة كما نقل عن توبة بن الصمة وكان بالرقة
وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فاذا هو ابن ستين سنة فحسب ايامها
فاذا هي احد وعشرون الف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال يا ويلتا القى الملك
باحد وعشرين الف ذنب وفي كل يوم عشرة الف ذنب ثم صرخ وخر مغشيا
عليه فاذا هو ميت فسمعوا قائلا يقول يا لك ركضة الى جنة الفردوس الاعلى
فهكذا ينبغي ان يحاسب نفسه على الانفاس وعن معصيته بالقلب والجوارح
في كل ساعة ولو رمى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلأت داره
في مدة قريبة من عمره ولكن يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان
عليه ذلك كله احصاه الله ونسوه

المرابطة الرابعة

في معاقبة النفس على تقصيرها مهما حاسب نفسه فلم يسلم عن مقارفة معصية
وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي ان يهملها فانه ان اهملها سهل عليه مقارفة
المعاصي وانست بها نفسه وعسر عليه فطامها عنه وكان ذلك سبب هلاكها
بل ينبغي ان يعاقبها فاذا اكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي ان يعاقب البطن
بالجوع واذا نظر الى غير محرم ينبغي ان يعاقب العين بمنع النظر وكذلك يعاقب
كل طرف من الاطراف بمنعها عن شهواتها هكذا كانت عادة سالكي طريق الاخرة
فقد روي عن منصور بن ابراهيم ان رجلا من العباد كلم امراة فلم يزل حتى
وضع يده على فخذها فادركه الحيا من الله ثم ندم فوضع يده في النار
حتى نشت وروي انه كان في بني اسرائيل رجل يتعبد في صومعته فمكث
كذلك زمانا طويلا فاشرف ذات يوم من صومعته فراى امراة فافتتن
بها وهم فاخرج رجله لينزل اليها فادركه الله عز وجل بسابقة علمه
فقال ما هذا الذي اريد ان اصنع فرجعت اليه نفسه وعصمه الله
فندم فلما اراد ان يعيد رجله الى الصومعة قال هيهات هيهات رجل
خرجت تريد ان تعصي الله تعالى تعود معي في صومعتي لا يكون ذلك والله
ابدا فتركها معلقة من الصومعة يصيبها الامطار والرياح والشمس
والثلج حتى تقطعت وسقطت فشكر الله تعالى له ذلك وانزل في بعض
الكتب ذكره ويحكى عن الجنيد رحمه الله عليه قال سمعت ابن الكريبي

يقول اصابتني ليلة جنابة احتجت ان اغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت
في نفسي تاخرا وتقصيرا وحدثتني نفسي بالتاخير حتى اصبح واسخن الماء
او ادخل الحمام ولا اعنت على نفسي فقلت واعجباه انا اعامل الله تعالى في طول
عمري فيجب له علي حق فلا اجد في المسارعة واجد الوقوف والتاخير آليت
لا اغتسلت الا في مرقعتي هذه وآليت ان لا انزعها ولا اعصرها ولا
اجففها في الشمس وحكي ان غزوان وابا موسى كانا في بعض مغازيهما
فتكشفت جارية فنظر اليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى نفرت وقال انك
للحاظة الى كل ما يضرك ونظر بعضهم نظرة واحدة الى امراة فجعل على
نفسه ان لا يشرب الماء البارد طول حياته وكان يشرب الماء الحار لينغص على
نفسه العيش وحكي ان حسان بن ابي سنان مر بغرفة فقال متى بنيت
هذه ثم اقبل على نفسه وقال تسالين عما لا يعنيك لاعاقبنك بصوم سنة فصامها
وقال مالك بن ضيغم جاء رباح القيسي يسال عن ابي بعد العصر فقلنا انه نائم
فقال نوم هذه الساعة هذا وقت نوم ثم ولى منصرفا فاتبعناه رسولا
وقلنا الا نوقظه لك فجاء الرسول وقال هو اشغل من ان يفهم عني شيئا ادركته
وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول اقلت اوقت نوم هذه الساعة
افكان هذا عليك ينام الرجل متى شاء وما يدريك ان هذا ليس وقت نوم تتكلمين
بما لا تعلمين اما ان لله علي عهدا لا انقضه ابدا الا اوسدك الارض لنوم حولا
الا لمرض حائل او لعقل زائل سوءة لك اما تستحيين كم توبخين وعن غيك
لا تنتهين قال وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكاني فلما رايت ذلك انصرفت وتركته
وحكي ان تميم الداري رحمه الله عنه نام ليلة لم يقم يتهجد فيها فقام سنة لم ينم
فيها عقوبة للذي صنع وعن طلحة رضي الله عنه قال انطلق رجل ذات يوم فنزع
ثيابه وتمرغ في الرمضاء ويقول لنفسه ذوقي نار جهنم اشد حرا اجيفة
بالليل بطالة بالنهار قال فبينما هو كذلك اذ ابصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة
فاتاه فقال غلبتني نفسي فقال له النبي صلى الله عليه وسلم الم يكن لك بد من الذي صنعت
اما انه لقد فتحت لك ابواب السماء ولقد باهى بك الملائكة ثم قال صلى الله عليه وسلم
لاصحابه تزودوا من اخيكم فجعل الرجل يقول له يا فلان ادع لي والاخر يقول
ادع لي يا فلان فقال النبي صلى الله عليه وسلم عمهم فقال اللهم اجعل التقوى زادهم
واجمع على الهدى امرهم فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم سدده فقال الرجل
اللهم اجعل الجنة مآبهم وقال حذيفة بن قتادة قيل لرجل كيف تصنع بنفسك

في شهواتها فقال ما على وجه الارض نفس ابغض الي منها فكيف اعطيها شهواتها
ودخل ابن السماك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب فقال يا داود
سجنت نفسك قبل ان تسجن وعذبتها قبل ان تعذب واليوم ترى ثواب من كنت
له تعمل وعن وهب بن منبه ان رجلا تعبد زمانا ثم بدت له الى الله حاجة فقام
سبعين سبتا ياكل في كل سبت احدى عشرة تمرة ثم سال حاجته فلم يعطها فرجع
الى نفسه وقال منك اتيت فلو كان فيك خير لاعطيت حاجتك فنزل اليه ملك
وقال يا ابن ادم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله تعالى
حاجتك وقال عبد الله بن قيس كنا في غزاة لنا فحضر العدو فصيح في الناس
فقاموا الى المصاف في يوم شديد الريح واذا رجل امامي وهو يخاطب نفسه
ويقول اي نفس الم اشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي اهلك وعيالك
فاطعتك فرجعت الم اشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي اهلك وعيالك فاطعتك فرجعت
اخذ كي او نتركك تقلبت لا رمتينك اليوم فرمتك لحمل على الناس على العدو
فكان في اوايلهم ثم ان العدو حمل على الناس فانكشفوا وكان في موضعه
حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل فوالله ما زال ذلك دابه حتى رايته
صريعا فعددت به وبدابته اكثر من ستين طعنة وقد ذكرنا حديث ابي
طلحة لما اشتغل قلبه في الصلاة بطاير طار في حائط فتصدق بالحائط كفارة
لذلك وان عمر رضي الله عنه كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول لنفسه ما
ذا عملت اليوم وعن مجمع انه رفع راسه الى السطح فوقع بصره على امراة
فجعل على نفسه ان لا يرفع راسه الى السماء ما دام في الدنيا وكان الاحنف
ابن قيس لا يفارقه المصباح بالليل وكان يضع اصبعه عليه ويقول
لنفسه ما حملك على ان صنعت يوم كذا كذا وكذا وانكر وهيب بن الورد
شيئا على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم المه ثم جعل
يقول لنفسه ويحك انما اريد بك الخير وراى محمد بن بشر داود
الطائي وهو ياكل عند افطاره خبزا بغير ملح فقال له لو اكلته
بملح فقال ان نفسي لتدعوني الى الملح منذ سنة ولا ذاق داود
ملحا ما دام في الدنيا فهكذا كانت عقوبة اولي الحزم لانفسهم
والعجب انك تعاقب عبدك وامتك واهلك وولدك على ما يصدر
منهم من سوء الخلق وتقصير في امر وتخاف انك لو تجاوزت عنهم
لخرج امرهم عن الاختيار وبغوا عليك ثم تهمل نفسك وهي خُلُق
اعظم عدوا لك واشد طغيانا عليك وضررك من طغيانها

اعظم من ضرر كل من طغيان اهلك فان غايتهم ان يشوشوا عليك معيشة
الدنيا ولو عقلت لعلمت ان العيش عيش الاخرة وان فيه النعيم المقيم
الذي لا اخر له ونفسك التي تنغص عليك عيش الاخرة فهي بالمعاقبة
اولى من غيرها

المرابطة الخامسة

المجاهدة وهو انه اذا حاسب
نفسه فراها قد قارفت معصية فينبغي ان يعاقبها بالعقوبات التي
مضت وان راها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل او ورد من
الاوراد فينبغي ان يؤدبها بتثقيل الاوراد عليها ويلزمها فنونا من
الوظايف جبرا لما فات منه وتداركا لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله
تعالى فقد عاقب عمر رضي الله عنه نفسه حين فاتته صلاة العصر
في جماعة بان تصدق بارض كانت له قيمتها مائتا الف درهم وكان ابن عمر اذا فاتته صلاة في
جماعة احيا تلك الليلة واخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فاعتق رقبتين وفاتت ابن ابي
ربيعة ركعتا الفجر فاعتق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة او الحج ماشيا
او التصدق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومواخذة لها بما فيه نجاتها فان قلت
ان كانت لا تطاوعني نفسي على المجاهدة والمواظبة على الاوراد فما سبيل معالجتها فاقول
سبيلك في ذلك ان تسمعها ما ورد في الاخبار من فضل المجتهدين ومن انفع اسباب العلاج
ان تطلب صحبة عبد من عباد الله تعالى مجتهد في العبادة فتلاحظ احواله وتقتدي به
كان بعضهم يقول كنت اذا اعترتني فترة في العبادة نظرت الى محمد بن واسع والى
اجتهاده فعملت على ذلك اسبوعا الا ان هذا علاج قد تعذر اذ قد فقد في هذا الزمان
في عباد الله تعالى من يجتهد في العبادة اجتهاد الاولين فينبغي ان يعدل عن المشاهدة
الى السماع فلا شيء انفع من سماع احوالهم ومطالعة اخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد
وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم ابد الاباد لا ينقطع فما اعظم ملكهم
وما اشد حسرة من لا يقتدي بهم فيمتع نفسه اياما قلائل بشهوات مكدرة
ثم ياتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه ابد الاباد نعوذ بالله تعالى من ذلك
ونحن نورد من اوصاف المجتهدين وفضايلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد
اقتداء بهم فقد قال صلى الله عليه وسلم رحم الله اقواما يحسبهم الناس مرضى وما
هم بمرضى قال الحسن اجهدتهم العبادة وقال الله تعالى والذين يؤتون ما اتوا
وقلوبهم وجلة قال الحسن يعملون ما عملوا من اعمال البر ويخافون ان لا ينجيهم ذلك
من عذاب الله عز وجل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن طال عمره وحسن
عمله ويروى ان الله تعالى يقول لملائكته ما بال عبادي مجتهدين فيقولون
الهنا خوفتهم شيئا فخافوه وشوقتهم الى شيء فاشتاقوا اليه فيقول الله تبارك

وجل وعلا فكيف لو رأى عبادي لكانوا اشد اجتهادًا وقال الحسن ادركت
اقوامًا وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا اقبل ولا يتأسفون
على شيء منها ادبر ولهي كانت اهون في اعينهم من هذا التراب الذي تطؤونه بارجلكم
ان كان احدهم ليعيش عمره كله ما طوي له ثوب ولا امر اهله بصنعة طعام قط
ولا جعل بينه وبين الارض شيئا قط فادركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة
نبيهم اذا جنهم الليل فقيام على اطرافهم يفترشون وجوههم تجري دموعهم
على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم اذا عملوا الحسنة فرحوا بها
ودابوا في شكرها وسألوا الله تعالى ان يتقبلها واذا عملوا السيئة احزنتهم وسألوا
الله ان يغفرها لهم والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك فوالله ما سلموا من الذنوب
ولا نجوا الا بالمغفرة وحكي ان قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يعودونه
في مرضه واذا فيهم شاب ناحل الجسم فقال له عمر يا فتى ما الذي بلغ بك ما ارى فقال
يا امير المؤمنين اسقام وامراض فقال سالتك بالله الا صدقتني فقال يا امير
المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها
واستوى عندي ذهبها وحجرها وكاني انظر الى عرش ربي والناس يساقون
الى الجنة والنار فاظمأت لذلك نهاري واسهرت له ليلي وقليل حقير كل ما
انا فيه في جنب ثواب الله تعالى وعقابه وقال ابو نعيم كان داود الطائي يشرب
الفتيت ولا ياكل الخبز فقيل له في ذلك فقال بين مضغ الخبز وشرب الفتيت
قراءة خمسين اية ودخل رجل عليه يوما فقال ان في سقف بيتك جذعا مكسورا
فقال يا ابن اخي اني في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت الى السقف وكانوا
يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام وقال محمد بن عبد العزيز
جلسنا الى احمد بن رزين من غدوة الى العصر فما التفت يمنة ولا
يسرة فقيل له في ذلك فقال ان الله خلق العينين لينظر بهما العبد الى
عظمة الله تعالى فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة وقالت امراة
مسروق ما كان يوجد مسروق الا وساقاه منتفختان من طول الصلاة
وقالت والله ان كنت لاجلس خلفه فابكي رحمة له وقال ابو الدرداء لولا ثلاث
ما احببت العيش يوما واحدا الظما لله بالهواجر والسجود في جوف
الليل ومجالسة اقوام ينتقون اطايب الكلام كما ينتقى اطايب التمر
وكان الاسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحر حتى يخضر جسده
ويصفر وكان علقمة بن قيس يقول له لم تعذب هذا الجسد فيقول كرامته
اريد وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلي حتى يسقط فدخل

عليه انس بن مالك والحسن فقالا له ان الله لم يامرك بكل هذا فقال انما
انا عبد مملوك لا ادع من الاستكانة شيئا الا جئت به وكان بعض
المجتهدين يصلي كل يوم الف ركعة حتى اقعد من رجليه وكان يصلي جالسا
الف ركعة فاذا صلى العصر احتبى ثم قال عجبت للخليقة كيف ارادت
بك بدلا منك عجبت للخليقة كيف انست بسواك بل عجبت للخليقة كيف
استنارت قلوبها بذكر سواك وكان ثابت البناني قد حببت اليه الصلاة
وكان يقول اللهم ان كنت اذنت لاحد ان يصلي لك في قبره فاذن لي ان اصلي
في قبري وقال الجنيد ما رايت اعبد من السري اتت عليه ثمان وتسعون سنة
ما رئي مضطجعا الا في علة الموت وقال الحرث ابن سعد مر قوم براهب
فراوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه في ذلك فقال وما هذا
عندما يراد بالخلق من ملاقاة الاهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ
انفسهم ونسوا حظهم الاكبر من ربهم فبكا القوم من اخرهم وعن ابي محمد المغازلي
قال جاور ابو محمد الجريري بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند الى عمود ولا الى
حائط ولم يمد رجليه فعبر عليه ابو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له يا ابا محمد
بم قدرت على اعتكافك هذا فقال علم صدق باطني فاعانني على ظاهري فاطرق
الكتاني ومضى متفكرا وعن بعضهم قال دخلت على فتح الموصلي فرايته مد كفيه
يبكي حتى رايت الدموع تنحدر من بين اصابعه فدنوت منه فاذا دموعه قد
خالطها صفرة فقلت له بالله يا فتح بكيت الدم فقال لولا انك حلفتني بالله
ما اخبرتك نعم بكيت دما فقلت له على ما بكيت الدموع فقال على تخلفي عن
واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا تكون ما صحت لي الدموع
قال فرايته بعد موته في المنام فقلت له ما صنع الله بك قال غفر لي فقلت له فما ذا
صنع في دموعك فقال قربني ربي تعالى وقال لي يا فتح الدمع على ماذا قلت يا رب على
تخلفي عن واجب حقك فقال الله عز وجل والدم على ماذا قلت على دموعي
ان لا تصح لي فقال عز وجل يا فتح ما اردت بهذا كله وعزتي وجلالي لقد صعد
حافظاك اربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة وقيل ان قوما ارادوا سفرا
فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب منفرد عن الناس فنادوه فاشرف
عليهم من صومعته فقالوا يا راهب انا اخطانا الطريق فكيف الطريق
فاوما براسه الى السماء فعلم القوم ما اراد فقالوا يا راهب انا سائلوك
فهل انت مجيبنا فقال سلوا ولا تكثروا فان النهار لن يرجع والعمر لا يعود

والطالب حثيث فعجب القوم من كلامه فقالوا يا راهب على ما الخلق غدا عند
مليكهم فقال على قدر نياتهم فقالوا اوصنا فقال تزودوا على قدر سفركم فان خير
الزاد ما بلغ البغية ثم ارشدهم الى الطريق وادخل راسه في صومعته وقال
عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة فيها راهب من رهبان الصين فناديته
يا راهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فاشرف علي وقال
يا هذا ما انا براهب انما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر
على بلائه ورضي بقضائه وحمده على الائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته
وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر في حسابه وعقابه فنهاره
صائم وليله قائم قد اسهره ذكر النار ومسايلة الجبار فذلك هو الراهب واما
انا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا اعقرهم
فقلت يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله تعالى بعد اذ عرفوه فقال يا اخي لم يقطع الخلق
عن الله الا حب الدنيا وزينتها لانها محل المعاصي والذنوب والعاقل من رمى بها
عن قلبه وتاب الى الله تعالى من ذنبه واقبل على ما يقربه من ربه وقيل لداود الطائي
لو سرحت لحيتك فقال اني اذا لفارغ وكان اويس القرني يقول هذه ليلة الركوع
فيحيي الليل كله في ركعة فاذا الليلة الاتية قال وهذه ليلة السجود فيحيي الليل كله
في سجدة وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهنا بالطعام والشراب فقالت له امه
لو رفقت بنفسك فقال الرفق اطلب دعيني اتعب قليلا واتنعم كثيرا وقيل حج مسروق
فما نام قط الا ساجدا وقال عبد الله بن داود كان احدهم اذا بلغ اربعين سنة طوى
فراشه اي كان لا ينام طول الليل وقال سفيان الثوري عند الصباح يحمد القوم السرى
وعند الممات يحمد القوم التقوى وقال عمر بن اخت بشر بن الحارث سمعت خالي
يقول لامي يا اختي جوفي وخواصري تضرب علي فقالت له امي يا اخي تاذن لي ان اصلح
لك قليل حسا بكف دقيق عندي فتحساه ليصلح جوفك فقال لها ويحك اخاف ان يقول
لي من اين لك هذا الدقيق فلا ادري ايش اقول له فبكت امي وبكى وبكيت معهما
قال عمر ورات امي ما ببشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت امي
يا اخي ليت امك لم تلدني واني ولدتني فلم يدر ثديها علي قال عمر وكانت امي تبكي عليه
الليل والنهار وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم الف ركعة ثم يقول لنفسه
قومي يا ماوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان يبكي ويقول ذهب نصف
عملي وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له يا ابة ما لي ارى الناس ينامون واراك لا تنام
فقال يا بنتاه ان اباك يخاف البيات ويخاف النار ولما رات امه ما يلقى من البكا

والسهر نادته وقالت يا بني لعلك قتلت قتيلا فقال نعم يا والدتي قالت فمن هو
حتى نطلب اهله فيعفوا عنك فوالله لو يعلمون ما انت فيه لرحموك وعفوا
عنك فقال يا اماه هي نفسي وقال الربيع اتيت اويسا فوجدته جالسا قد صلى
الفجر فجلست وقلت لا اشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ثم
قام يصلي حتى صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه
حتى صلى العشاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلس فغلبته عيناه فقال اللهم
اني اعوذ بك من عين نوامة ومن بطن لا يشبع فقلت حسبي هذا منه ثم
رجعت ونظر رجل الى اويس فقال يا ابا عبد الله ما لي اراك كانك مريض
فقال وما لاويس ان لا يكون مريضا يطعم المريض واويس غير طاعم
وينام المريض واويس غير نائم وقيل كان ورد سمنون في كل يوم خمسمائة
ركعة وقال ابو بكر المطوعي كان وردي في شبيبتي كل يوم وليلة الف ركعة اقرا
فيها قل هو الله احد احدا وثلاثين الف مرة او احدا واربعين الف مرة شك
الراوي وكان منصور بن المعتمر اذا رايته قلت رجل اصيب بمصيبة
منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين ان حركته جادت عيناه
باربع ولقد قالت له امه ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لا تسكت
لعلك يا بني اصبت نفسا او قتلت قتيلا فيقول يا اماه انا اعلم ما صنعت
بنفسي وقال احمد بن حرب يا عجبا لمن يعرف ان الجنة تزين فوقه وان النار
تسعر تحته كيف ينام بينهما وقال رجل من النساك اتيت ابن ادهم فوجدته قد
صلى العشاء فقعدت ارقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب
من جنب الى جنب الليل كله حتى طلع الفجر فاذن المؤذن فوثب الى
الصلاة ولم يحدث وضوءا فحاك ذلك في صدري فقلت له رحمك الله قد نمت
الليل كله مضطجعا ثم لم تجدد الوضوء فقال كنت الليل كله جائلا
في رياض الجنة احيانا وفي اودية النار احيانا فهل في ذلك نوم وقال
ثابت البناني ادركت رجالا كان احدهم يصلي فيعجز حتى ما ياتي فراشه
الا حبوا وقيل مكث ابو بكر بن عياش اربعين سنة لا يضع جنبه على فراش
ونزل الماء في احدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به اهله وقيل لعامر
بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظما الهواجر فقال هل هو الا اني
صرفت طعام النهار الى الليل ونوم الليل الى النهار وليس في ذلك خطير امر
وكان يقول ما رايت مثل الجنة نام طالبها وما رايت مثل النار نام هاربها

وكان اذا جا الليل قال اذهب حر النار للنوم فما ينام حتى يصبح واذا جا النهار قال اذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسي ثم اذا جاء الليل قال من خاف ادلج فعند الصباح يحمد القوم السرى وقال بعضهم صحبت عامر بن عبد القيس اربعة اشهر فما رايته نام بليل ولا نهار ويروى عن رجل من اصحاب علي رضي الله عنه قال صليت خلفه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلع الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رايت اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما ارى اليوم شيا يشبههم كانوا يصبحون شعثا غبرا صفرا قد باتوا لله تعالى سجدا وقياما يتلون كتاب الله تعالى يراوحون بين اقدامهم وجباههم وكانوا اذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجر في يوم الريح وهملت اعينهم حتى تبل ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين يعني من كان حوله ○ وكان ابو مسلم الخولاني قد علق سوطا في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لازحفن بك زحفا حتى يكون الكل منك لا مني فاذا دخلته الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول انت اولى بالضرب من دابتي وكان يقول ايظن اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ان يستاثروا به دوننا كلا والله لنزاحمهم زحاما يعلمونه حتى يعلموا انهم قد خلفوا وراهم رجالا وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيمة غدا ما وجد مزيدا وكان اذا جا الشتا اضطجع على السطح ليضربه البرد وفي الصيف يضطجع داخل البيوت فيجد الحر والغم فلا ينام وهو ساجد وكان يقول اللهم اني احب لقاك فاحب لقاي وقال القسم بن محمد غدوت يوما وكنت اذا غدوت بدات بعايشة رضي الله عنها اسلم عليها فغدوت يوما اليها فاذا هي تصلي صلاة الضحى وهي تقرا فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم وهي تبكي وتدعوا وتردد الاية فقمت حتى مللت وهي كما هي فلما رايت ذلك ذهبت الى السوق فقلت افرغ من حاجتي ثم ارجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الاية وتبكي وتدعوا وقال محمد بن اسحق لما ورد علينا عبد الرحمن بن الاسود حاجا اعتلت احدى قدميه فقام يصلي على قدم واحد حتى صلى الصبح بوضوء العشاء وقال بعضهم ما اخاف من الموت الا من حيث انه يحول بيني وبين قيام الليل وقال علي رضي الله عنه سيما الصالحين صفرة الالوان من السهر وعمش العيون من البكا وذبول الشفاه من الصوم عليهم غبرة الخاشعين

وقيل

وقيل للحسن ما بال المتهجدين احسن الناس وجوها فقال انهم خلوا بالرحمن فالبسهم نورا من نوره ○ وكان عامر بن عبد القيس يقول الهي خلقتني ولم تؤامرني وتميتني ولم تعلمني وخلقت معي عدوا وجعلته يجري مني مجرى الدم وجعلته يراني ولا اراه ثم قلت لي استمسك الهي كيف استمسك ان لم تمسكني الهي في الدنيا الهموم والاحزان وفي الاخرة العقاب والحساب فاين الراحة والفرح وقال جعفر بن محمد كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات كان اذا صلى العتمة وضع راسه بين ركبتيه يتفكر وكذلك في الليل الثاني فاذا كان وقت السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد فحدثت به بعض البصريين فقال لا تنظر الى صياحه ولكن انظر الى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح وعن القاسم بن راشد الشيباني قال كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب وكان له اهل وبنات وكان يقوم فيصلي ليلا طويلا فاذا كان السحر نادى باعلا صوته ايها الركب المعرسون اكل هذا الليل ترقدون فلا تقومون وترحلون فيتواثبون فيسمع من هاهنا باك ومن هاهنا داعي ومن هاهنا قاري ومن هاهنا متوضي فاذا طلع الفجر نادى باعلا صوته عند الصباح يحمد القوم السرى وقال بعض الحكماء ان لله عبادا انعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فاطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والامر اليه فصارت قلوبهم معادن لصفا اليقين وبيوتا للحكمة وتوابيت للعظمة وخزاين للقدرة فهم بين الخلايق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوب ثم ترجع ومعها طرايف من لطيف الفوايد ما لا يمكن واصفا ان يصفها يصفه فهم في باطن امورهم كالديباج حسنا وهم في الظاهر مناديل مبذلون لمن ارادهم تواضعا وهذه طريقة لا يبلغ اليها بالتكلف وانما هو فضل الله يوتيه من يشا وقال بعض الصالحين بينما انا اسير في بعض جبال بيت المقدس اذ هبطت الى واد هنالك فاذا انا بصوت قد علا واذا تلك الجبال تجيبه لها دوي فاتبعت الصوت فاذا انا بروضة عليها شجر ملتف واذا انا برجل قايم يردد هذه الاية يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا الى قوله ويحذركم الله نفسه قال فجلست خلفه اسمع كلامه وهو يردد هذه الاية ثم صاح صيحة وخر مغشيا عليه فقلت وا اسفاه هذا لشقايي ثم انتظرت افاقته فافاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول اعوذ بك من مقام الكذابين اعوذ بك من اعمال البطالين اعوذ بك من اعراض الغافلين ثم قال لك خشعت قلوب الخايفين واليك يرغب امال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفض يديه وقال ما لي وللدنيا وما للدنيا ولي عليك يا دنيا بابناء

الان نجعل الى محبيك فادهبي وابا هوى فاخدعي ثم قال ابن القرون الماضية واهل الدهور السالفة في التراب يبلون وعلى مر الزمان يفنون فنا ديتني يا عبد الله انا منذ اليوم خلفك انتظر فراغك فقال وكيف يفرغ من بادر الاوقات وتبادره مخافة سبقها بالموت الى نفسه ام كيف يفرغ من ذهبت ايامه وبقيت اثامه ثم قال انت لها ولكل شدة اتوقع نزولها ثم لها عني ساعة وقرا وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ثم صاح صيحة اخرى اشد من الاولى ثم خر مغشيا عليه فقلت قد خرجت نفسه فدنوت منه فاذا هو مضطرب ثم افاق وهو يقول من انا ما خطري هب لي اساتي بفضلك وجللني بسترك واعف عن ذنوبي بكرم وجهك اذا وقفت بين يديك فقلت له بالذي ترجوه لنفسك وتثق به الا كلمتني فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام من اوثقته ذنوبه اني لفي هذا الموضع منذ شا الله اجاهد ابليس ويجاهدني فلم يجد عونا علي ليخرجني مما انا فيه غيرك فاليك عني يا مخدوع فقد عطلت علي لساني وميلت الى حديثك شعبة من قلبي فانا اعوذ بالله من شرك ثم ارجو ان يعيذني من سخطه ويتفضل علي برحمته قال فقلت هذا ولي الله تعالى اخاف ان اشغله فاعاقب في موضعي هذا فانصرفت وتركته وقال بعض الصالحين بينما انا اسير في مسيري اذ ملت الى شجرة لاستريح تحتها فاذا شيخ قد اشرف علي فقال لي يا هذا قم فان ملك الموت لم يمت ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعته وهو يقول كل نفس ذايقة الموت اللهم بارك لي في الموت فقلت وفيما بعد الموت فقال من انتهى لما بعد الموت شمر من الحذر ولم يكن له في الدنيا مستقر ثم قال يا من لوجهه عنت الوجوه بيض وجهي بالنظر اليك واملا قلبي من المحبة لك واجرني من ذلة التوبيخ غدا عندك فقد ان لي الحيا منك وجاز لي الرجوع عن الاعراض عنك ثم قال لولا حلمك لم يسعني اجلي ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك املي ثم مضى وتركني وقد انشدوا في هذا المعنى

○ نحيل الجسم مكتيب الفواد ○ تراه بقنة او بطن واد ○
○ ينوح على معاصيه فادحات ○ يكدر ثقلها صفو الرقاد ○
○ فان هاجت مخاوفه وزادت ○ فدعوته اغثني يا عمادي ○
○ فانت بما الاقيه عليم ○ كثير الصفح عن زلل العباد ○

وقيل ايضا

○ الذ من التلذذ بالغواني ○ اذا اقبلن في حلل حسان ○
○ منيب فر من اهل ومال ○ يسيح الى مكان من مكان ○
○ ليخمل ذكره ويعيش فردا ○ ويظفر في العبادة بالاماني ○

تلذذه

○ تلذذه التلاوة اين ولى ○ وذكر بالفواد وباللسان ○
○ وعند الموت ياتيه بشير ○ يبشر بالنجا من الهوان ○
○ فيدرك ما اراد وما تمنى ○ من الراحات في غرف الجنان ○

وكان كرز بن وبرة يختم القران في كل يوم ثلاث مرات وجاهد نفسه في العبادة غاية المجاهدة فقيل له قد اجهدت نفسك فقال كم عمر الدنيا فقيل سبعة الاف سنة فقال فكم مقدار يوم القيمة فقيل خمسون الف سنة قال فكيف يعجز احدكم ان يعمل سبع يوم حتى يامن ذلك اليوم يعني انك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة الف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين الف سنة لكان ربحك كثيرا وكنت بالرغبة فيه جديرا فكيف وعمرك قصير والاخرة لا غاية لها فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها فطالع احوالهم فانه قد عز الان وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم نفع انجع في القلب وابعث على الاقتدا فليس الخبر كالمعاينة واذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع احوال هولا فان لم يكن ابل فمعز فخير نفسك بين الاقتدا بهم والكون في زمرتهم وغمارهم وهم العقلا والحكما وذوو البصاير في الدين وبين الاقتدا بالجهلة الغافلين من اهل عصرك ولا ترضى لها بان تنخرط في سلك الحمقى وتقنع بالتشبه بالاغبيا وتوثر مخالفة العقلا فان حدثتك نفسك بان هولا رجال اقويا لا يطاق الاقتدا بهم فطالع احوال النسا المجتهدات فقل لها يا نفس استنكفين ان تكوني اقل من امراة فاخسس برجل يقصر عن امراة في امر دينها ودنياها ولنذكر الان نبذة من احوال المجتهدات فقد روي عن حبيبة العدوية انها كانت اذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت الهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك ابوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك ثم تقبل على صلاتها فاذا طلع الفجر قالت الهي هذا الليل قد ادبر وهذا النهار قد اسفر فليت شعري اقبلت مني ليلتي فاهنا ام رددتها علي فاعزي وعزتك ان هذا دابي ودابك ما ابقيتني وعزتك لو انتهرتني من بابك ما برحته لما وقع في نفسي من جودك وكرمك ○ ويروى عن عجردة انها كانت تحيي الليل وكانت مكفوفة البصر فاذا كان السحر نادت بصوت لها محزون اليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون الى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا الهي اسالك لا بغيرك ان تجعلني في اول زمرة السابقين وان ترفعني لديك الى اعلا عليين في درجة المقربين وان تلحقني بعبادك الصالحين فانت ارحم الرحما واعظم العظما واكرم الكرما ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا

تزال تدعوا وتبكي الى الصبح وقال يحيى بن بسطام كنت اشهد مجلس شعوانة
وكنت ارى ما تصنع من النياحة والبكاء فقلت لصاحب لي لو اتيناها اذا خلت
فامرناها بالرفق بنفسها فقال له انت وذاك قال فاتيناها فقلنا لها لو رفقت
بنفسك واقصرت عن هذا البكاء شيئا لكان ذلك اقوى لك على ما تريدين
قال فبكت ثم قالت والله لوددت اني ابكي حتى تنفد دموعي ثم ابكي دما حتى لا
تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي واني لي بالبكاء فلم تزل تردد اني لي
بالبكاء حتى غشي عليها وقال محمد بن معاذ حدثتني امراة من المتعبدات
قالت رايته في منامي كاني ادخلت الجنة واذا اهل الجنة قيام على ابوابهم فقلت ما
شان اهل الجنة قيام فقال لي قائل خرجوا ينظرون الى هذه المراة التي زخرفت الجنان
لقدومها فقلت ومن هي فقيل امة سوداء من اهل الابلة يقال لها
شعوانة فقلت اختي والله فبينا انا كذلك اذ اقبل بها على نجيبة تطير بها في
الهواء فلما رايتها ناديتها يا اختي اما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك
فالحقني بك قال فتبسمت وقالت لم يات لقدومك وقت ولكن احفظي عني اثنتين الزمي
الحزن قلبك وقدمي محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت وقال عبيد الله بن
الحسن كانت لي جارية رومية وكنت بها معجبا وكانت في بعض الليالي نائمة الى
جنبي فانتبهت فالتمستها فلم اجدها فقمت اطلبها فاذا هي ساجدة وهي تقول
بحبك لي الا ما غفرت لي ذنوبي فقلت لها لا تقولي بحبك لي ولكن قولي بحبي لك
فقالت يا مولاي بحبه لي اخرجني من الشرك الى الاسلام وبحبه لي ايقظ عيني
وكثير من خلقه نيام وقال ابو هاشم القرشي قدمت علينا امراة من
اهل اليمن يقال لها سرية فنزلت في بعض دورنا وكنت اسمع لها من الليل انينا وشهيقا
فقلت يوما لخادمي اشرف على هذه المراة ماذا تصنع قال فاشرف عليها
فما رآها تصنع شيئا غير انها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول
خلقت سرية ثم غذيتها بنعمك من حال الى حال وكل احوالك لها حسنة وكل بلائك
عندها جميلة وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلعلة بعد فلعلة
اتراها تظن انك لا ترى سوء فعالها وانت عليم خبير وانت على كل شي قدير وقال ذو النون
رحمه الله عليه خرجت ليلة من وادي كنعان فلما علوت الوادي اذا سواد مقبل
علي وهو يقول وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ويبكي فلما قربت من السواد
اذا هي امراة عليها جبة صوف وبيدها ركوة فقالت لي من انت غير فازعة مني
قلت رجل غريب فقالت يا هذا وهل يوجد مع الله تعالى غربة قال فبكيت
لقولها فقالت ما الذي ابكاك قلت وقع الدواء على داء قد قرح فاسرع في

نجاحه قالت فان كنت صادقا فلم بكيت قلت يرحمك الله والصادق لا يبكي قالت لا
قلت ولم ذاك قالت لان البكاء راحة القلب فسكت متعجبا من قولها وقال احمد بن
علي استاذنا على عفيرة فحجبتنا فلازمنا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح لنا الباب
فسمعتها وهي تقول اللهم اني اعوذ بك ممن جا يشغلني عن ذكرك ثم فتحت الباب ودخلنا
عليها فقلنا لها يا امة الله ادعي لنا فقالت جعل الله قرى الكرام بيتي المغفرة ثم قالت
لنا مكث عطاء السليمي اربعين سنة لا ينظر الى السماء فحانت منه نظرة فخر مغشيا عليه
فاصابه فتق في بطنه فيا ليت عفيرة اذا رفعت راسها الى السماء لم تعص ويا ليتها
اذ عصت لم تعد وقال يحيى الصائغ خرجت يوما الى السوق ومعي جارية
حبشية فاجلستها في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجي وقلت لا
تبرحي حتى انصرف اليك فانصرفت فلم اجدها في الموضع فانصرفت الى منزلي وانا شديد
الغضب عليها فلما راتني عرفت الغضب في وجهي فقالت يا مولاي لا تعجل علي انك
اجلستني في موضع لم ار فيه ذاكرا لله تعالى فخفت ان يخسف بذلك الموضع فعجبت
لقولها وقلت لها انت حرة لوجه الله تعالى فقالت بئس ما صنعت معي كنت اخدمك مع
سيدي الاكبر فيكون لي اجران فاما الآن فقد ذهب عني احدهما وقال ابن العلا السعدي
كانت لي ابنة عم يقال لها بريرة تعبدت وكانت القراءة في المصحف فكلما اتت على اية فيها
ذكر النار بكت فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا الى
هذه المراة حتى نعذلها في كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا لها يا بريرة كيف اصبحت
فقالت اصبحنا اضيافا منيخين بارض غربة ننتظر حتى ندعى فنجيب فقلنا لها كم هذا
البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت ان يكن لعيني عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما
في الدنيا وان كان لهما شر فسيزيدهما بكاء اطول من هذا واعرضت عنا فقال القوم قوموا بنا
فهي والله في شيء غير ما نحن فيه وكانت معاذة العدوية اذا جاء النهار تقول هذا يومي
الذي اموت فيه فما تطعم حتى تمسي فاذا جاء الليل تقول هذه الليلة التي اموت فيها
فتصلي حتى تصبح وقال ابو سليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت الى محراب
لها وقمت انا الى ناحية من البيت فلم تزل قائمة الى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من
قوانا على قيام هذه الليلة قالت جزاؤه ان نصوم له غدا وكانت شعوانة تقول
في دعائها الهي ما اشوقني الى لقائك واعظم رجائي لجزائك وانت الكريم الذي لا يخيب لديك
امل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين الهي ان كان دنا اجلي ولم يقربني منك
عملي فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللي فان عفوت فمن اولى منك بذلك
وان عذبت فمن اعدل منك هنالك الهي قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها

حسن نظرك فالويل لها ان لم تسعدها الهي انك لم تزل بي برا ايام حياتي فلا
تقطع عني برك بعد مماتي ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي باحسانه ان يشفعه
عند مماتي بغفرانه الهي كيف ايأس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني الا الجميل
في حال حياتي الهي ان كانت ذنوبي قد اخافتني فان محبتي لك قد اجارتني فتول في
امري ما انت اهله وعد بفضلك على من غره جهله الهي لو اردت اهانتي لما
هديتني ولو اردت فضيحتي لما سترتني فمتعني بما له هديتني وادم لي ما به سترتني
الهي ما اظنك تردني في حاجة افنيت فيها عمري الهي لولا ما قارفت من الذنوب ما
خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك وقال الحواري رحمه الله
دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت
حتى اقعدت وكانت تصلي قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئا من العفو ليهون
عليها الامر فشهقت ثم قالت علمي بنفسي قرح فؤادي وكلم كبدي والله لوددت
ان الله تعالى لم يخلقني ولم اك شيئا مذكورا ثم اقبلت على صلاتها فعليك ان كنت
من المرابطين المراقبين لنفسك ان تطالع احوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث
نشاطك ويزيد حرصك واياك ان تنظر الى اهل عصرك فانك ان تطع اكثر من في الارض
يضلوك عن سبيل الله تعالى وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية
للمعتبر وان اردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الاولياء فهو مشتمل
على شرح احوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك
بعدك وبعد اهل عصرك عن اهل الدين فان حدثتك نفسك بالنظر الى اهل زمانك
وقالت انما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الاعوان والآن فان خالفت اهل زمانك
راوك مجنونا وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجري عليك الا ما يجري
عليهم والمصيبة اذا عمت طابت فاياك ان تنخدع بحيل غرورها وتنخدع بتزويرها
وقل لها ارايت لو هجم سيل جارف يغرق اهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم ياخذوا
حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال وقدرت انت على ان تفارقهم وتركبي سفينة تنجي
من الغرق فهل تختلجي في نفسك ان المصيبة اذا عمت طابت ام تتركين موافقتهم
وتستجهلهم في صنعهم وتاخذين حذرك مما دهاك فاذا كنت تتركين موافقتهم خوفا
من الغرق وعذاب الغرق لا يتمادى الا ساعة فكيف لا تهربين من عذاب الابد
وانت متعرضة له في كل حال ومن اين تطيب المصيبة اذا عمت ولاهل النار
شغل شاغل عن الالتفات الى العموم والخصوص ولم يهلك الكفار الا موافقة
اهل زمانهم حيث قالوا انا وجدنا اباءنا على امة وانا على اثارهم مهتدون فعليك

اذا اشتغلت بمعاتبة نفسك او حملها على الاجتهاد فاستعصت ان لا تترك معاتبتها
وتوبيخها وتخويفها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها ان تنزجر عن طغيانها
المرابطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها اعلم ان اعدى
عدوك نفسك التي بين جنبيك وقد خلقت امارة بالسوء ميالة الى الشر فرارة
عن الخير وامرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر الى عبادة ربها
وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها فان اهملتها شردت وجمحت
ولم تظفر بها بعد ذلك وان لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة
كانت نفسك هي النفس اللوامة التي اقسم الله تعالى بها ورجوت ان تصير النفس
المطمئنة المدعوة الى ان تدخل في زمرة عباد الله تعالى راضية مرضية فلا تغفلن
ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل اولا بوعظ
نفسك اوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ
الناس والا فاستحي مني وقال تعالى وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين وسبيلك
ان تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وحماقتها فانها ابدا تتعزز بفطنتها وهدايتها
وتشتد انفتها واستنكافها اذا نسبت الى الحمق فتقول لها يا نفس ما اعظم
جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وانت اشد الناس غباوة وحماقة اما
تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وانك صائرة الى احداهما على القرب فما لك تفرحين
وتضحكين وتشتغلين باللهو وانت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم
تختطفين او غدا فاراك ترين الموت بعيدا ويراه الله تعالى قريبا اما تعلمين ان كل
ما هو آت قريب وان البعيد ما ليس بآت اما تعلمين ان الموت ياتي بغتة من غير
تقديم رسول ومن غير مواعدة ومن غير مواطاة وانه لا ياتي في شتاء دون
صيف ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار ولا ياتي
في الصبي دون الشباب ولا في الشباب دون الصبي بل كل نفس من الانفاس يمكن
ان يكون فيه الموت فجاة فان لم يكن الموت فجاة فيكون المرض فجاة ثم يفضي الى الموت
فما لك لا تستعدين للموت وهو اقرب اليك من كل قريب اما تتدبرين قوله تعالى
اقترب للناس حسابهم الآيات الثلاث ويحك يا نفس ان كانت جراتك على معصية
الله تعالى لاعتقادك ان الله تعالى لا يراك فما اعظم كفرك وان كان مع علمك باطلاعه
عليك فما اشد وقاحتك واقل حياءك ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل
اخ من اخوانك بما تكرهينه كيف كان مقتك له وغضبك عليه فباي جسارة تتعرضين
لغضب الله تعالى ومقته وشديد عقابه افتظنين انك تطيقين عذابه

فهيهات هيهات جوزي نفسك ان الهلاك البطر وعن ألمٍ عند ابو فاجلسي ساعة في الشمس او في بيت الحمام الحار او قربي اصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك اوَ تغترين بكرم الله تعالى وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك فاذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه الى كرم الله تعالى واذا ارهقتك حاجة الى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي الا بالدينار والدرهم ما لك تنزعين الروح في طلبه وتحصيله من وجوه الحيل فلِمَ لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يشهد لك او يعثر بك على كنز او يسخر عبدا من عبيده ليحمل حاجتك من غير سعيك وطلبك افتحسبين ان الله تعالى كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت ان سنة الله تعالى لا تبديل لها وان رب الدنيا والآخرة واحد وان ليس للانسان الا ما سعى ويحك يا نفس ما اعجب نفاقك ودعاويك الباطلة فانك تدعين الايمان بلسانك واثر النفاق ظاهر عليك الم يقل لك سيدك ومولاك وما من دابة في الارض الا على الله رزقها وقال عز وجل في امر الآخرة وان ليس للانسان الا ما سعى وقد تكفل لك بامر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبتيه باحوالك فاصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ووكل امر الآخرة الى سعيك فاعرضت عنها اعراض المغرور المستحقر ما بعد امن علامات الايمان ولو كان الايمان باللسان كافيا فلماذا كان المنافقون في الدرك الاسفل من النار ويحك يا نفس كانك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين انك اذا مت انفلت وتخلصت وهيهات اتحسبين ان تتركين سدى الم تكوني نطفة من مني يمنى ثم كنت علقة فخلقك الله تعالى فسوى اليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى اللهم بلى فان كان هذا من اضمارك فما اكفرك واجهلك اما تتفكرين انه سبحانه مما ذا خلقك من نطفة خلقك فقدرك ثم السبيل يسرك ثم اماتك فاقبرك افتكذبينه في قوله سبحانه ثم اذا شاء انشرك فان لم تكوني مكذبة فما لك لا تاخذين حذرك ولو ان يهوديا اخبرك في الذ اطعمتك بانه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه افكان قول الانبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله في كتبه المنزلة اقل عندك تاثيرا من قول اليهودي الذي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقله وقصور علمه بل العجب انه لو اخبرك طفل بان في ثوبك عقربا لرميته في الحال من غير مطالبة له ببرهان ودليل افكان قول الانبياء والعلماء والحكماء وكافة الاولياء اقل عندك من قول صبي من جملة الاغبياء ام صار حر جهنم واغلالها وانكالها وزقومها ومقامعها وصديدها

وسعوبها وافاعيها وعقاربها احقر عندك من عقرب لا تحسين بالمها الا يوما او اقل منه ما هذا افعال العقلاء بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فان كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يخطفك من غير مهل فماذا امنت استعجال الاجل وهب انك وعدت بالامهال مائة سنة افتظنين ان من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ان ظننت ذلك فما اعظم جهلك ارايت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فاقام فيها سنين متعطلا بطالا يعد نفسه بالتفقه في السنة الاخيرة عند رجوعه الى وطنه هلا كنت تضحكين من عقله وظنه ان تفقه النفس من غير تفقه ودرس وتكرار عما يطمع فيه لمدة قريبة او حسابه ان مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتمادا على كرم الله تعالى هب ان الجهد في اخر العمر نافع وانه موصل الى الدرجات العلى فلعل اليوم اخر عمرك فلم لا تشتغلين به فان اوحي اليك بالامهال فما المانع لك من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب الا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيه من التعب والمشقة افتنتظرين يوما ياتيك لا يعسر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه فلا تكون الجنة قط الا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس هذا محال وجوده اما تتاملين منذ كم تعدين نفسك وتقولين غدا غدا فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدته اوما علمت ان الغد الذي جاء وصار يوما كان له حكم الامس بل ما تعجزين عنه اليوم فانت غدا عنه اعجز واعجز لان الشهوة كالشجرة الراسخة التي يتعبد العبد بقلعها فاذا عجز عن قلعها للضعف واخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي فاخرها الى سنة اخرى مع العلم بان طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا فما لا يقدر عليه في الشباب فلا يقدر عليه في المشيب قط ومن العنا رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب والقضيب الرطب يقبل الانحنا فاذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك ولا يمكن تقويم المعوج الا بالقلع فاذا كنت لا تفهمين هذه الامور الجلية وتركنين الى التسويف فما لك تدعين الحكمة اي حماقة وجهل يزيد على هذه الحماقة والجهل ولعلك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة الا حرصي على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام والمشقات فما اشد غباوتك واقبح اعتذارك ان كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوة

الصافية عن الكدورات الدائمة ابد الآباد ولا مطمع في ذلك الا في الجنة فان كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها فرب اكلة تمنع اكلات وما قولك في عقل من يمرض اشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة ايام ليصح ويتهيا لشربه طول العمر واخبره انه ان شرب ذلك مرض مرضا مزمنا وامتنع عليه شربه الى الابد طول عمره فما مقتضى العقل في قضاء حق هذه الشهوة ان يصبر هذه الايام ليتنعم طول العمر ام تقضي شهوته في الحال خوفا من الم المخالفة ثلاثة ايام حتى يلزمه الم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة الاف يوم واكثر وجميع عمرك بالاضافة الى الابد الذي هو مدة نعيم اهل الجنة وعذاب النار اقل مثلا من ثلاثة ايام بالاضافة الى جميع العمر وان طال مدته وليت شعري الم الصبر عن الشهوات اعظم شدة واطول مدة ام الم النار في دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على الم المجاهدة كيف يطيق الصبر على الم عذاب الله تعالى وينشد

جسمي على البرد ليس يقوى ولا على ايسر الحرارة
فكيف يقوى على جحيم وقودها الناس والحجارة

ما اراك تتوانين عن النظر لنفسك الا لكفر خفي او لجهل جلي اما الكفر الخفي فهو ضعف ايمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب واما الجهل الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات الى مكره واستغنائه عن عبادتك مع انك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز او حبة من المال او كلمة واحدة تسمعينها من الخلق بل تتوصلين الى غرضك في ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى ويحك يا نفس لا ينبغي ان تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور فانظري لنفسك فانظري لنفسك فما امرك بمهم لغيرك ولا تضيعي اوقاتك فالانفاس معدودة واذا مضى منك نفس فقد ذهب منك بعضك واغتنمي الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها اما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب واللبد والجبة وجميع الاسباب ولا تتكلين في ذلك على فضل الله تعالى وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فانه قادر على ذلك افتظنين ايتها النفس ان زمهرير جهنم اخف بردا او اقصر مدة من زمهرير الشتاء ام تظنين ان العبد ينجو منها بغير سعي هيهات كما لا يندفع برد الشتاء الا بالجبة والنار وسائر الاسباب فلا يندفع حر النار وبردها الا بحصن التوحيد

وخندق الطاعات وانما كرم الله تعالى في ان عرفك طريق التحصين ويسر لك اسبابه لا في ان يدفع عنك العذاب دون حصنه كما ان كرم الله في دفع برد الشتاء ان خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى يدفع بها برد الشتاء عن نفسك وكما ان شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك وانما تشترينه لنفسك اذ خلقه سببا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك ايضا هو مستغن عنها وانما هي طريقك الى نجاتك فمن احسن فلنفسه ومن اساء فعليها والله غني عن العالمين ويحك يا نفس انزعي عن جهلك وقيسي آخرتك بدنياك ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة كما بدانا اول خلق نعيده كما بداكم تعودون وسنة الله لن تجد لها تبديلا ولا تحويلا ويحك يا نفس ما اراك الا الفت الدنيا وانست بها فعسر عليك مفارقتها وانت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين في نفسك مودتها فاحسبي انك غافلة عن عقاب الله تعالى وثوابه وعن اهوال القيامة واحوالها فما انت موقنة بالموت المفرق بينك وبين محابك افترى ان من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمد بصره الى وجه مليح يعلم انه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لا محالة الى مفارقته اهو معدود من العقلاء ام الحمقى اما تعلمين ان الدنيا دار لملك الملوك وما لك فيها الا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم ان روح القدس نفث في روعي احبب من احببت فانك مفارقه وعش ما شئت فانك ميت واعمل ما شئت فانك مجزي به ويحك يا نفس اما تعلمين ان كل من يلتفت الى ملاذ الدنيا ويانس بها مع ان الموت من ورائه فانما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وانما يتزود من السم المهلك وهو لا يدري او ما تنظرين الى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف اورث الله ارضهم وديارهم اعداءهم اما تراهم كيف يجمعون ما لا ياكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لا يدركون يبني كل واحد قصرا مرفوعا الى السماء ومقره قبر محفور تحت الارض فهل في الدنيا حمق وانتكاس اعظم من هذا يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويخرب آخرته وهو صائر اليها قطعا اما تستحيين من مساعدة هؤلاء على حماقتهم واحسبي انك لست ذات بصيرة تهتدين الى هذه الامور وانما تميلين بالطبع الى التشبه والاقتداء فقيسي عقل الانبياء والحكماء والعلماء بعقل هؤلاء المكبين على الدنيا واقتدي من الفريقين بمن هو اعقل عندك ان كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء يا نفس ما اعجب امرك واشد جهلك واظهر طغيانك عجبا لك كيف تعمين عن هذه الامور الواضحة

جمعتهم

الجليه ولعلك يا نفس اسكرك حب الجاه وادهشك عن التفهم فيه او ما تتفكرين ان الجاه لا معنى له الا ميل القلوب من بعض الناس اليك فاحسبي ان كل من على وجه الارض سجد لك واطاعوك افما تعرفين انه بعد خمسين سنة لا تبقين انت ولا احد من على وجه الارض ممن عبدك وسجد لك وسياتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما اتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فهل تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزا فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى ابد الاباد بما لا يبقى اكثر من خمسين سنة ان بقي هذا اذا كنت ملكا من ملوك الارض سلم لك الشرق والغرب حتى اذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الاسباب وكيف وبادبارك وشقاوتك لم يسلم لك امر محلتك بل امر دارك فضلا عن محلتك فان كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الاخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفعا عن خسة شركائها وتنزها عن كثرة عنائها وتوقيا من سرعة فنائها ام ما لك لا تزهدين في قليلها بعد ان زهد فيك كثيرها وما لك تفرحين بدنيا ان ساعدتك فلا تخلو بلدك عن جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها فاف لدنيا يسبقك بها هولاء الاخساء فما اجهلك واخس همتك واسقط رايك اذ رغبت عن ان تكوني في زمرة المقربين من النبيين والصديقين في جوار رب العالمين ابد الابدين لتكوني في صف النعال بين الحمقى الجاهلين ايام قلائل فيا حسرة عليك اذ خسرت الدنيا والدين فبادري ويحك يا نفس فقد اشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ويحك يا نفس ما لك الا ايام معدودة هي بضاعتك ان اتجرت فيها وقد ضيعت اكثرها فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف اذا ضيعت البقية واصررت على عادتك اما تعلمين يا نفس ان الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود انيسك والفزع الاكبر بين يديك اما علمت يا نفس ان عسكر الموتى على باب البلد ينتظرونك وقد الوا على انفسهم بالايمان المغلظة انهم لا يبرحون من مكانهم ما لم ياخذوك معهم الى ما هم فيه اما تعلمين يا نفس انهم يتمنون الرجعة الى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وانت في امنيتهم ويوم من عمرك

لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه وانت تضيعين ايامك في الغفلة والبطالة ويحك يا نفس اما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم افتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الله تعالى ويحك اهو اهون الناظرين عليك اتامرين الناس بالخير وانت متلطخة بالرذائل تدعين الى الله وانت عنه فارة وتذكرين بالله تعالى وانت له ناسية اما تعلمين يا نفس ان المذنب انتن من العذرة وان العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطييب غيرك وانت غير طيبة في نفسك ويحك يا نفس فلو جعلت نفسك حمارا لابليس يقودك الى حيث يريد ويسخر بك ومع هذا تعجبين بعملك وفيه من الافات ما لو نجوت راسا براس لكان الربح في يديك وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وقد لعن الله ابليس بخطيئة واحدة بعد ان عبد الله تعالى مائتي الف سنة واخرج ادم صلى الله عليه وسلم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه ويحك يا نفس ما اغدرك ويحك يا نفس ما اوقحك واجهلك وما اجراك على المعاصي ويحك يا نفس كم تعقدين فتنقضين كم تعهدين فتغدرين ويحك يا نفس اتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كانك غير مرتحلة عنها اما تنظرين الى اهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيرا وبنوا مشيدا واملوا بعيدا فاصبح جمعهم بورا وبنيانهم قبورا واملهم غرورا ويحك يا نفس اما لك بهم عبرة اما لك اليهم نظرة اتظنين انهم دعوا الى الاخرة وانت من المخلدين هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ما انت الا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن امك فابني على ظهر الارض قصرك فان بطنها عن قليل يكون قبرك اما تخافين اذا بلغت النفس منك التراقي ان يبدو رسل ربك منحدرة بسواد الالوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم او يقبل منك الحزن او يرحم منك البكا والعجب كل العجب منك يا نفس انك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك انك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ويحك يا نفس تعرضين عن الاخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك فكم من مستقبل يوما لم يستكمله وكم من مومل لغد لم يبلغه وانت تشاهدين ذلك في اخوانك واقاربك وجيرانك وترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذري ايتها النفس المسكينة يوما الى الله فيه على نفسه عز وجل الا يترك عبدا امره في الدنيا بطاعة حتى يساله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته فانظري يا نفس باي بدن تقفين بين يديه وباي لسان تجيبين واعدي للسوال جوابا وللجواب صوابا واعملي بقية عمرك في ايام قصار لايام طوال وفي دار زوال لدار مقامة وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود واعملي قبل ان لا تعملي اخرجي من الدنيا اختيارا خروج الاحرار قبل ان تخرجي منها على الاضطرار

بين الله

ولا تفرحي بدنياك بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر فويل لمن له الويل ثم لا يشعر يضحك ويفرح ويلهو ويمرح وياكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله انه من وقود النار فليكن نظرك يا نفس الى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للاخرة ابتدارا ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما اوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي وينهى الناس ولا ينتهي واعلمي يا نفس انه ليس للدين عوض ولا للايمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان لم يسر فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة فان من اعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار وما اراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية فان كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام فان لم تزل فبالمواظبة على الصيام فان لم تزل فبقلة المخالطة والكلام فان لم تزل فبصلة الارحام واللطف بالايتام فان لم تزل فاعلمي ان الله قد طبع على قلبك واقفل عليه وانه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطني نفسك على النار فقد خلق الله الجنة واهلا وخلق النار واهلا وكل ميسر لما خلق له فان لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله منها فلا سبيل لك الى القنوط ولا سبيل لك الى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فان ذلك اغترار وليس برجاء فانظري الان هل ياخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فان سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة فقد بقي فيك موضع الرجا فواظبي على النياحة والبكا واستغيثي بارحم الراحمين واشتكي الى اكرم الاكرمين وادمني الاستغاثة ولا تملي طول الشكاية لعله ان يرحم ضعفك ويغيثك فان مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وزاحت عنك العلل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا منجا ولا ملجا الا الى مولاك فافزعي اليه بالتضرع واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لانه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطر الذليل وقد اصبحت اليه مضطرة والى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم ينجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم والمسوول جواد والمستغاث به بر رؤوف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وتولي يا ارحم الراحمين يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم انا المذنب المصر انا الجري الذي لا يقلع انا المتمادي الذي لا يستحي هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجل يا مولاي اغاثتي وفرجي وارني اثار رحمتك واذقني

عفوك ومغفرتك وارزقني قوة عصمتك يا ارحم الراحمين اقتدا بابيك ادم عليه السلام فقد قال وهب بن منبه لما اهبط الله تعالى ادم عليه الصلاة والسلام الى الارض مكث لا يرقى له دمعه فاطلع الله تعالى عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس راسه فاوحى الله سبحانه اليه يا ادم ما هذا الجهد الذي ارى بك قال يا رب عظمت مصيبتي واحاطت بي خطيئتي واخرجت من ملكوت ربي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار الشقا بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلا بعد العافية وفي دار الزوال بعد القرار وفي دار الموت والفنا بعد الخلود والبقا فكيف لا ابكي على خطيئتي فاوحى الله تعالى اليه يا ادم الم اصطفك لنفسي واحللتك داري وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي الم اخلقك بيدي ونفخت فيك من روحي واسجدت لك ملائكتي فعصيت امري ونسيت عهدي وتعرضت لسخطي فوعزتي وجلالي لو ملات الارض رجالا كلهم مثلك يعبدونني ويسبحونني ثم عصوني لانزلتهم منازل العاصين فبكى ادم عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام الى ان غفر الله تعالى له وكان عبد الله البجلي كثير البكا يقول في بكائه في طول ليله الهي انا الذي كلما طال عمري زادت ذنوبي انا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة اخرى واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها في طلب اخرى واعبيداه ان كانت النار لك مقيلا وماوى واعبيداه ان كانت المقامع لراسك تهيا واعبيداه قضيت حاجة الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى وقال منصور بن عمار رحمه الله سمعت في بعض الليالي عابدا بالكوفة يناجي ربه ويقول يا رب وعزتك ما اردت بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك اذ عصيتك وانا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لي نفسي واعانني على ذلك شقوتي وغرني سترك المرخى علي فعصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي فمن عذابك الان من يستنقذني او بحبل من اعتصم ان قطعت حبلك عني واسوتاه من الوقوف غدا اذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطوا امع المخفين اجوز ام مع المثقلين احط ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي ويلي كلما طال عمري كثرت معاصي فالى متى اعود الى متى اتوب اما ان لي ان استحيي من ربي فهذه طرق القوم في مناجاتهم وفي معاتبة نفوسهم وانما مطلبهم من المناجاة الاسترضا ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعا فمن اهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك ان لا يكون الله سبحانه وتعالى عنه راضيا

تم كتاب المراقبة والمحاسبة بحمد الله وعونه

وصلى الله على محمد واله وصحبه وسلم

يتلوه ان شا الله تعالى كتاب التفكر

بسم الله الرحمن الرحيم ٥

الحمد لله الذي لم يقدّر لانتهاء عزته نحواً ولا قطراً ولم يجعل لمرقى اقدام الاوهام ومرمى سهام الافهام الى حمى عظمته مجرى بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسراً واذا همّت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً صبراً ثم قيل لها اجيلي في ذل العبودية فكراً لانك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدري له قدراً وان طلبت وراء التفكر في صفاتك امراً فانظري في نعم الله واياديه كيف توالت عليك تترى وجددي لكل نعمة منها ذكراً وشكراً وتاملي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيراً وشراً ونفعاً وضراً وعسراً ويسراً وفوزاً وخسراً وجبراً وكسراً وطياً ونشراً وايماناً وكفراً وعرفاناً ونكراً وان جاوزت النظر في الافعال الى النظر في الذات فقد حاولت امراً امراً وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلماً وجوراً فقد انبهرت العقول دون مبادي اشراقه وانتكصت على اعقابها اضطراراً وقهراً والصلاة على محمد سيد ولد آدم وان كان لم يعد سيادته فخراً صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدة وذخراً وعلى آله وصحابته الذين اصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدراً ولطوائف المسلمين صدراً وسلم كثيراً اما بعد فقد وردت السنة بان تفكر ساعة خير من عبادة سنة وكثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ولا يخفى ان التفكر هو مفتاح الانوار ومبدا الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم واكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته ولكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلم انه كيف يتفكر وفيما ذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به اهو مراد لعينه او لثمرة تستفاد منه وان كان لثمرة فما تلك الثمرة اهي من العلوم او من الاحوال او منهما جميعا وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر اولا فضيلة التفكر ثم حقيقة التفكر وثمرته ثم مجاري الفكر ومسارحه ان شاء الله تعالى

بيان فضيلة التفكر

قد امر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى واثنى على المتفكرين فقال ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا وقد قال ابن عباس ان قوما تفكروا في الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره وعن النبي صلى الله عليه وسلم وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال ما لكم لا تكلمون

فقالوا

فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل فقال كذلك فافعلوا وتفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه فان بهذا المغرب ارضا بيضاء نورها بياضها او بياضها نورها مسيرة الشمس اربعين يوما بها خلق من خلق الله تعالى لم يعصوا الله عز وجل طرفة عين قالوا يا رسول الله فاين الشيطان عنهم قال ما يدرون خلق الشيطان ام لا قالوا من ولد آدم هم قال لا يدرون خلق آدم ام لا وعن عطاء قال انطلقت انا وعبيد بن عمير الى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا قال قول النبي صلى الله عليه وسلم زر غبا تزدد حبا قال ابن عمير فاخبرينا باعجب شيء رايته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكت ثم قالت كل امره كان عجيبا اتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال ذريني اتعبد لربي عز وجل فقام الى القربة فتوضا منها ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الارض ثم اضطجع على جنبه حتى اتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر فقال ويحك يا بلال وما يمنعني ان ابكي وقد انزل الله تعالى علي في هذه الليلة ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب ثم قال ويل لمن قراها ولم يتفكر فيها فقيل للاوزاعي ما غاية التفكر فيهن قال يقراهن ويعقلهن وعن محمد بن واسع ان رجلا من اهل البصرة ركب الى ام ذر بعد موت ابي ذر فسالها عن عبادة ابي ذر فقالت كان نهاره اجمع في ناحية البيت يتفكر وعن الحسن قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة وعن الفضيل قال الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك وقيل لابراهيم انك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل ويقول

اذا المرء كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى عليه السلام يا روح الله هل على الارض اليوم مثلك فقال نعم من كان منطقه ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فانه مثلي وقال الحسن من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو وفي قول الله تعالى ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق قال امنع قلوبهم التفكر في امري وعن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اعطوا اعينكم حظها من العبادة قالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة قال النظر في المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه وعن امراة كانت تسكن البادية قريبا من مكة انها قالت لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها الى ما قد ذخر في حجب الغيوب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقر لهم في الدنيا عين وكان لقمان عليه السلام يطيل الجلوس

وحده فكان يمر به مولاه فيقول يا لقمان انك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان ان طول الوحدة افهم للفكرة وطول الفكرة دليل على طريق الجنة وقال وهب بن منبه ما طالت فكرة امرئ قط الا علم وما علم امرؤ قط الا عمل وقال عمر بن عبد العزيز الفكرة في نعم الله عز وجل من افضل العبادة وقال عبد الله بن المبارك يوما لسهل بن علي ورآه ساكتا متفكرا اين بلغت قال الصراط وقال بشر لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوا الله عز وجل وعن ابن عباس انه قال ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب وبينا ابو شريح يمشي اذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقيل ما يبكيك قال تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب اجلي وقال ابو سليمان عودوا اعينكم البكاء وقلوبكم التفكر وقال ابو سليمان الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لاهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب وقال حاتم من العبرة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف وقال ابن عباس رضي الله عنهما التفكر في الخير يدعو الى العمل به والندم على الشر يدعو الى تركه ويروى ان الله تعالى قال في بعض كتبه اني لست اقبل كلام كل حكيم ولكن انظر الى همه وهواه فاذا كان همه وهواه لي جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وان لم يتكلم وقال الحسن ان اهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة وقال اسحق ابن خلف كان داود الطائي رحمه الله على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السموات والارض وهو ينظر الى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا وبيده سيف فظن انه لص فلما نظر الى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح قال ما شعرت بذلك وقال الجنيد اشرف المجالس واعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكاس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن بالله تعالى وقال الشافعي رضي الله عنه استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة وقال ايضا صحة النظر في الامور نجاة من الغرور والعزم في الراي سلامة من التفريط والندم والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ففكر قبل ان تعزم وتدبر قبل ان تهجم وشاور قبل ان تقدم وقال الفضائل اربعة احداها الحكمة وقوامها الفكرة والثانية العفة وقوامها في الشهوة والثالثة

القوة

القوة وقوامها في الغضب والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس فهذه اقاويل العلماء في الفكرة وما شرع احد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها

بيان حقيقة الفكر وثمرته

اعلم ان معنى الفكر هو احضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة ومثاله ان من مال الى العاجلة وآثر الحياة الدنيا واراد ان يعرف ان الآخرة اولى بالايثار من العاجلة فله طريقان احدهما ان يسمع من غيره ان الآخرة اولى بالايثار فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الامر فيميل بعمله الى ايثار الآخرة اعتمادا على مجرد قوله وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة والطريق الثاني ان يعرف ان الابقى اولى بالايثار ثم يعرف ان الآخرة ابقى فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو ان الآخرة اولى بالايثار ولا يمكن تحقق المعرفة بان الآخرة اولى الا بالمعرفتين السابقتين فاحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به الى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا وتاملا وتدبرا اما التدبر والتامل والتفكر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة واما اسم التذكر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني وان كان اصل المسمى واحدا كما ان الصارم والمهند والسيف يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع والمهند يدل على السيف من حيث نسبته الى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير اشعار بهذه الزوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على احضار المعرفتين من حيث انه يعبر منهما الى معرفة ثالثة فان لم يقع العبور ولم يكن الا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار واما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث ان فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكرا وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ ويثبت ولا ينمحي عن القلب وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر والمعارف اذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص اثمرت معرفة اخرى فالمعرفة نتاج المعرفة فاذا حصلت معرفة اخرى وازدوجت مع معرفة اخرى حصل من ذلك نتاج آخر وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر الى غير نهاية وانما ينسد طريق زيادة المعارف بالموت او العوائق هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي الى طريق التفكر واما

اكثر الناس فانما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم راس المال وهو المعارف
التي بها تستثمر العلوم كالذي لا بضاعة له فانه لا يقدر على الربح وقد يملك
البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا فكذلك قد يكون
معه من المعارف ما هو راس مال العلوم ولكنه ليس يحسن استعمالها
وتاليفها وايقاع الازدواج المفضي الى النتاج منها ومعرفة طريق الاستعمال
والاستثمار تارة يكون بنور الهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للانبيا
صلوات الله عليهم وذلك عزيز جدا وقد يكون بالتعلم والممارسة وهو الاكثر
ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها
ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الايراد فكم من انسان
يعلم ان الاخرة اولى بالايثار فرجع حاصل حقيقة الفكر الى احضار معرفتين ليتوصل
بهما الى معرفة ثالثة واما ثمرة الفكر فهي العلوم والاحوال والاعمال ولكن ثمرته
الخاصة العلم لا غير نعم اذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب واذا تغير
حال القلب تغيرت اعمال الجوارح فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم
تابع الفكر فالفكر اذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها وهذا هو الذي يكشف
لك عن فضيلة التفكر وانه خير من الذكر والتذكر لان في الفكر ذكرا وزيادة
وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر فاذن التفكر
افضل من جملة الاعمال ولذلك قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة فقيل
هو الذي ينقل من المكاره الى المحاب ومن الرغبة والحرص الى الزهد
والقناعة وقيل هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى لعلهم
يتقون او يحدث لهم ذكرا وان اردت تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله
ما ذكرناه من امر الاخرة فان الفكر فيه يعرفنا ان الاخرة اولى بالايثار فاذا
رسخت هذه المعرفة يقينا في قلوبنا تغيرت القلوب الى الرغبة في الاخرة
والزهد في الدنيا وهذا ما عنيناه بالحال اذ كان حال القلب قبل هذه
المعرفة حب العاجلة والميل اليها والنفرة عن الاخرة وقلة الرغبة فيها
وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت ارادته ورغبته ثم اثمر تغير
الارادة اعمال الجوارح في اطراح الدنيا والاقبال على اعمال الاخرة فههنا
خمس درجات اولها التذكر وهو احضار المعرفتين في القلب وثانيها
التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما والثالثة حصول المعرفة المطلوبة
واستنارة القلب بها والرابعة تغير حال القلب عما كان عليه بسبب حصول

نور المعرفة والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال
فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع فتصير العين
مبصرة بعد ان لم تكن مبصرة وتنتهض الاعضاء للعمل فكذلك زناد
نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ويولف
بينهما تاليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا فينبعث نور
المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى
يميل الى ما لم يكن يميل اليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه
ثم تنتهض الاعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل
بسبب الظلمة للعمل عند ادراك البصر ما لم يكن يبصره فاذن ثمرة
الفكر العلوم والاحوال والعلوم لا نهاية لها والاحوال التي تتصور ان تتقلب على
القلب لا يمكن حصرها ولهذا لو اراد مريد ان يحصر فنون الفكر ومجاريه
وانه فيماذا يتفكر لم يقدر عليه لان مجاري الفكر غير محصورة وثمراته ايضا
غير متناهية نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالاضافة الى مهمات العلوم
الدينية وبالاضافة الى الاحوال التي هي مقامات السالكين ويكون ذلك
ضبطا جمليا فان تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب
كالشرح لبعضها فانها مشتملة على علوم تلك العلوم تستفاد من افكار مخصوصة
فلنشر الى الضبط الجامع فيها فيه يحصل الوقوف على مجاري الفكر

بيان مجاري الفكر

اعلم ان الفكر يجري في امر يتعلق بالدين وقد
يجري فيما يتعلق بغير الدين وانما غرضنا فيما يتعلق بالدين فلنترك القسم الاخر
ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى فجميع افكار العبد
اما ان تتعلق بالعبد وصفاته واحواله واما ان تتعلق بالمعبود وصفاته
وافعاله لا يمكن ان تخرج عن هذين القسمين وما يتعلق بالعبد اما ان يكون
نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى او فيما هو مكروه ولا حاجة الى الفكر في
غير هذين القسمين وما يتعلق بالرب تعالى اما ان يكون نظرا في ذاته وصفاته
واسمائه الحسنى واما ان يكون نظرا في افعاله وملكه وملكوته وجميع ما في
السموات والارض وما بينهما وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الاقسام
بمثال وهو ان حال السائرين الى الله تعالى والمشتاقين الى لقائه يضاهي
حال العشاق فلنتخذ العاشق المستهتر مثالا فنقول العاشق المستغرق

الهم بعشقه لا يعدو فكره من ان يتعلق بمعشوقه او يتعلق بنفسه فان
تفكر في معشوقه فاما ان يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم
بالفكر فيه وبمشاهدته واما ان يتفكر في افعاله اللطيفة الحسنة الدالة على
اخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفا للذته ومقويا لمحبته وان تفكر في نفسه
فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها او في
الصفات التي تقربه منه وتحببه اليه حتى يتصف بها فان تفكر في شيء خارج
عن هذه الاقسام فذلك خارج عن حد العشق وهو نقصان فيه لان العشق
التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متسعا
لغيره فمحب الله تعالى ينبغي ان يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره في محبوبه
ومهما كان تفكره محصورا في هذه الاقسام الاربعة لم يكن خارجا عن مقتضى
المحبة اصلا فلنبدا بالقسم الاول وهو تفكره في صفات نفسه
وافعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه فان هذا الفكر هو الذي يتعلق
بعلم المعاملة الذي هو مقصود هذا الكتاب واما القسم الاخر فيتعلق بعلم المكاشفة
ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله تعالى او محبوب ينقسم الى ظاهر كالطاعات
والمعاصي والى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب وذكرنا
تفصيلها في ربع المهلكات والمنجيات والطاعات والمعاصي تنقسم الى ما يتعلق
بالاعضاء السبعة والى ما ينسب الى جميع البدن كالفرار من الزحف عن
صف القتال وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام ويجب في كل واحد
من هذه المكاره التفكر في ثلاثة امور الاول التفكر في انه هل هو مكروه
عند الله ام لا فرب شيء لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر
والثاني التفكر في انه ان كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه والثالث ان هذا
المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه او هو متعرض له في الاستقبال
فيحترز عنه او قارفه فيما مضى من الاحوال فيحتاج الى تداركه وكذلك كل واحد
من المحبوبات ينقسم هذه الانقسامات فاذا جمعت هذه الاقسام زادت مجاري
الفكر في هذه الاقسام على مائة والعبد مدفوع الى التفكر اما في جميعها او في اكثرها
وشرح هذه الاقسام يطول ولكن انحصر هذا القسم في اربعة انواع الطاعات
والمعاصي والصفات المنجيات والصفات المهلكات فلنذكر في كل نوع
مثالا ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه
النوع الاول المعاصي ينبغي ان يفتش العبد صبيحة كل يوم جميع اعضائه

السبعة تفصيلا ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها
فيتركها او لابسها بالامس فيتداركها بالترك والندم او هو متعرض لها في نهاره
فيستعد للاحتراز والتباعد منها فينظر في اللسان ويقول انه متعرض للغيبة
والكذب وتزكية النفس والاستهزاء والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني
الى غير ذلك من المكاره فيقرر اولا في نفسه انها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر
في شواهد القران والسنة على شدة العذاب فيها ثم يتفكر في احواله انه كيف يتعرض
لها من حيث لا يشعر ثم يتفكر انه كيف يحترز منها ويعلم انه لا يتم له ذلك الا بالعزلة
والانفراد وان لا يجالس الا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله
والا فيضع حجرا في فيه اذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له فهكذا
يكون الفكر في حيلة الاحتراز ويتفكر في سمعه ايضا انه يصغي به الى الغيبة
والكذب وفضول الكلام والى اللهو والبدعة وان ذلك انما يسمعه من زيد
ومن عمرو وانه كيف ينبغي ان يحترز منهم بالاعتزال او بالنهي عن المنكر
مهما سمع ذلك ويتفكر في بطنه انه انما يعصي الله فيه بالاكل والشرب
اما بكثرة الاكل من الحلال فان ذلك مكروه عند الله ومقو للشهوة التي
هي سلاح الشيطان عدو الله واما باكل الحرام او الشبهة فينظر من اين
مطعمه وملبسه ومسكنه وما مكسبه ويتفكر في طرق الحلال ومداخله
ثم يتفكر في وجوه الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ويقرر
على نفسه ان العبادات كلها ضائعة مع اكل الحرام وان اكل الحلال هو اساس
العبادات كلها وان الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام
كما ورد به الخبر فهكذا يتفكر في اعضائه ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء
فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الاحوال اشتغل بالمراقبة طول
النهار حتى يحفظ الاعضاء عنها واما النوع الثاني وهو الطاعات
فينظر اولا في الفرائض المكتوبة عليه انه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان
والتقصير وكيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ثم يرجع الى عضو عضو فيتفكر
في الافعال التي تتعلق بها مما يحبه الله فيقول مثلا ان العين خلقت للنظر
في ملكوت السموات والارض عبرة ولتستعمل في طاعة الله وتنظر في
كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وانا قادر على ان اشغل
العين بمطالعة القران والسنة فلم لا افعله وانا قادر على ان انظر الى فلان
المطيع بعين التعظيم فادخل السرور على قلبه وانظر الى فلان الفاسق بعين

الازدراء فازجره بذلك عن معصية الله فلم لا افعله وكذلك يقول في سمعه
اني قادر على استماع كلام ملهوف او استماع حكمة وعلم او استماع قراءة وذكر
فما لي اعطله وقد انعم الله به علي واودعنيه لاشكره فما لي اكفر نعمة الله
فيه بتضييعه وتعطيله • وكذلك يتفكر في اللسان ويقول اني قادر على ان
انقرب الى الله تعالى بالتعليم والوعظ وبالتودد الى قلوب اهل الصلاح
وبالسؤال عن احوال الفقراء وادخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو
العالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فانها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول
انا قادر على ان اتصدق بالمال الفلاني فاني مستغن عنه ومهما احتجت اليه
رزقني الله مثله خيرا منه وان كنت الآن محتاجا اليه فانا الى ثواب
الايثار احوج مني الى ذلك المال وهكذا يفتش على اعضائه وجملة
بدنه وامواله بل عن دوابه وغلمانه واولاده فان كل ذلك ادواته
واسبابه ويقدر على ان يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه
الطاعات ويتفكر في اخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق
حتى يزكوا بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات • واما النوع
الثالث فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب فيعرفها بما ذكرناه في ربع
ربع المهلكات وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والريا
والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ويتفقد من قلبه هذه الصفات
فان ظن ان قلبه منزه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات
عليه فان النفس ابدا تعد بالخير من نفسها وتخلف فاذا ادعت التواضع
والبراءة من الكبر فينبغي ان يجربه نفسه بحمل حزمة حطب في السوق كما كان
الاولون يجربون به انفسهم واذا ادعت الحلم تعرض لغضب ينالها من
غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات وهذا تفكر في انه
هل هو موصوف بالصفة المكروهة ام لا ولذلك علامات ذكرناها في ربع المهلكات
فاذا دلت العلامة على وجودها فكر في الاسباب التي تقبح تلك الصفات عنده
وتبين ان منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة كما لو راي في نفسه عجبا
بالعمل فيتفكر ويقول انما عملي ببدني وجارحتي وبقدرتي وارادتي وكل ذلك ليس
مني ولا الي وانما هو من خلق الله وفضله علي فهو الذي خلقني وخلق جارحتي
وخلق قدرتي وارادتي وهو الذي حرك اعضائي بقدرته وكذا قدرتي وارادتي
قدرتي وارادتي فكيف اعجب بعملي او بنفسي ولا قوام لنفسي بنفسي واذا احس

علي

في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة وقال لها لم ترين نفسك اكبر
والكبير من هو كبير عند الله وذلك ينكشف بعد الموت وكم من كافر في الحال يموت
مقربا الى الله بنزوعه عن الكفر وكم من مسلم يموت شقيا بتغير حاله عند الموت
بسوء الخاتمة فاذا عرف ان الكبر مهلك وان اصله الحماقة فيتفكر في علاج ازالة
ذلك بان يتعاطى افعال المتواضعين واذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر
في ان هذا صفة البهائم ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من
صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما اتصف به البهائم ومهما كان
الشره عليه اغلب كان بالبهائم اشبه وعن الملائكة المقربين ابعد وكذلك
يقرر على نفسه في الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه في هذه
الكتب فمن اراد ان يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب واما
النوع الرابع وهو المنجيات فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على
البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد في الدنيا والاخلاص والصدق
في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بافعاله والشوق اليه والخشوع والتواضع
له وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع وذكرنا اسبابه وعلاماته فليتفكر العبد كل يوم
في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة الى الله تعالى فاذا افتقر
الى شيء منها فليعلم انها احوال لا يثمرها الا علوم وان العلوم لا يثمرها الا افكار فاذا
اراد ان يكتسب لنفسه حال التوبة والندم فليفتش ذنوبه اولا وليتفكر فيها
وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي
ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه انه متعرض لمقت الله به حتى ينبعث
له حال الندم واذا اراد ان يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في احسان الله اليه
واياديه عليه وفي ارساله جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه في كتاب
الشكر فليطالع ذلك منه واذا اراد حال المحبة والشوق فليتفكر في جلال الله وجماله
وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير
الى طرف منه في القسم الثاني من الفكر واذا اراد حال الخوف فلينظر اولا في ذنوبه
الظاهرة والباطنة ثم لينظر في الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال
منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه ثم في هول النداء
عند نفخة الصور ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم في
المناقشة في الحساب والمضايقة في النقير والقطمير ثم في الصراط
ودقته وحدته ثم في خطر الامر عنده انه يصرف الى الشمال فيكون من

من اصحاب النار او يصرف الى اليمين فينزل دار القرار ثم ليحضر بعد اهوال
القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها واهوالها وسلاسلها واغلالها
وزقومها وصديدها وانواع العذاب فيها وقبح صورة الزبانية الموكلين بها
وانه كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها وانهم كلما ارادوا ان يخرجوا
منها اعيدوا فيها وانهم اذا راوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا
وهلم جرا الى جميع ما ورد في القران من شرحها واذا اراد ان يستجلب حال
الرجا فلينظر الى الجنة ونعيمها واشجارها وانهارها وحورها وولدانها
ونعيمها المقيم وملكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي
تثمر اجتلاب احوال محبوبة او التنزه عن صفات مذمومة وقد ذكرنا في كل
واحد من هذه الاحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر اما بذكره مجامعه
فلا يوجد فيه انفع من قراءة القران بالتفكر فانه جامع لجميع المقامات والاحوال
وفيه شفاء للعالمين ففيه ما يورث الخوف والرجا والصبر والشكر والمحبة
والشوق وسائر الاحوال وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة فينبغي
ان يقراه العبد ويردد الاية التي هو محتاج الى التفكر فيها مرة بعد اخرى
ولو مائة مرة فقراءة اية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم
وليتوقف في التامل فيها ولو ليلة واحدة فان تحت كل كلمة منها اسرارا لا
تنحصر ولا يوقف عليها الا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة
وكذلك مطالعة اخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قد اوتي جوامع الكلم وكل
كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تاملها العالم حق التامل لم ينقطع فيها
نظره طول عمره وشرح احاد الايات والاخبار يطول فانظر الى قوله
صلى الله عليه وسلم ان روح القدس نفث في روعي احبب من احببت فانك
مفارقه وعش ما شئت فانك ميت واعمل ما شئت فانك مجزي به فان هذه
الكلمات جامعة حكم الاولين والاخرين وهي كافية للمتاملين فيها طول العمر
اذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ولحال
ذلك بينهم وبين التلفت الى الدنيا بالكلية فهذا هو طريق الفكر في علوم
المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله او مكروهة والمبتدي
ينبغي ان يكون مستغرق الوقت في هذه الافكار حتى يعمر قلبه بالاخلاق
المحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره وليعلم
ان هذا مع انه افضل من سائر العبادات فليس هو غاية المطلب بل المشغول

به محجوب عن مطلب الصديقين وهو التنعم بالفكر في جلال الله تعالى وجماله
واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه اي ينسى نفسه واحواله ومقاماته
وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب
فانه لا يتفرغ للنظر في احوال نفسه واوصافها بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه
وهو منتهى لذة العشاق فاما ما ذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب
والوصال فاذا ضيع جميع عمره في اصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب ولذلك كان
الخواص يدور في البوادي فلقيه الحسين بن منصور وقال له فيم انت قال ادور في
البوادي اصحح حالي في التوكل فقال انفنيت عمرك في عمران باطنك فاين الفنا في
التوحيد فالفنا في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين
واما التنزه عن الصفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن العدة في النكاح واما
الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجري مجرى تهيئة المراة جهازها
وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها فان استغرقت
جميع عمرها في تبرية رحمها وتزيين وجهها كان ذلك حجابا لها عن لقاء
المحبوب فهكذا ينبغي ان تفهم طريق الدين ان كنت من اهل المجالسة وان كنت
كالعبد السوء لا يتحرك الا خوفا من الضرب او طمعا في الاجرة فدونك واتعاب
البدن بالاعمال الظاهرة فان بينك وبين القلب حجابا كثيفا فاذا قضيت حق
الاعمال كنت من اهل الجنة ولكن للمجالسة اقوام اخرون واذا عرفت مجال
الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغي ان تتخذ ذلك عادتك
ودايدنك صباحا ومساء فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة عن الله عز وجل
واحوالك المقربة اليه سبحانه وتعالى بل كل مريد فينبغي ان يكون له جريدة يثبت
فيها جميع الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي
والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة
فانه ان سلم منها سلم من غيرها وهي البخل والكبر والعجب والريا والحسد
وشدة الغضب وشره الطعام وشره الوقاع وحب المال وحب الجاه
ومن المنجيات عشرة الندم على الذنوب والصبر على البلا والرضا بالقضا
والشكر على النعماء واعتدال الخوف والرجا والزهد في الدنيا والاخلاص
في الاعمال وحسن الخلق مع الخلق وحب الله تعالى والخشوع له فهذه
عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة فمهما كفى من المذمومات

زها

واحدة فيخط عليها في جريدته ويدع الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايتها اياها وتنزيه قلبه عنها ويعلم ان ذلك لم يتم الا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله الى نفسه لم يقدر على محو اقل الرذايل عن نفسه فيقبل على العشرة الباقية وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات فاذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها واشتغل بالباقي وهذا يحتاج اليه المريد المتشمر واما اكثر الناس من المعدودين في اليوم من الصالحين فينبغي ان يثبتوا في جرايدهم المعاصي الظاهرة كاكل الشبهة واطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس والافراط في معاداة الاعداء وموالاة الاولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فان اكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما لم تطهر الجوارح عن الاثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغي ان يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا في معاص هم بمعزل عنها مثاله العالم الورع فانه لا يخلو في غالب الامر عن اظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت اما بالتدريس او بالوعظ ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها الا الصديقون فانه ان كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الاعجاب والخيلاء والتزين والتصنع وذلك من المهلكات وان رد كلامه لم يخل عن انفة وغيظ وحقد على من يرده هو اكثر من غيظه على من يرد كلام غيره وقد يلبس الشيطان عليه ويقول ان غيظك لله عز وجل من حيث انه رد الحق وانكره فان وجد تفرقة بين ان يرد عليه كلامه او يرد على عالم اخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد والاعراض لم يخل عن تكلف وتصنع بتحسين اللفظ والايراد حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين والشيطان قد يلبس عليه ويقول انما حرصك على تحسين الالفاظ والتلطف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب اعلاء لدين الله فان كان فرحه بحسن الفاظه وثناء الناس عليه اكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من اقرانه فهو مخدوع وانما يدندن حول طلب الجاه وهو يظن ان مطلبه الدين ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات المذمومة

ظهر

ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون الموقر له والمعتقد لفضله اكثر احتراما ويكون بلقايه اشد فرحا واستبشارا ممن يغلو في موالاة غيره وان كان ذلك الغير مستحقا للموالاة وربما ينتهي الامر باهل العلم الى ان يتغايرون تغاير النساء فيشق على احدهم ان يختلف بعض تلامذته الى غيره وان كان يعلم انه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه وكل هذا رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب الذي قد يظن العالم النجاة منها لنفسه وهو مغرور فيها وانما ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة وهو اما مالك واما هالك ولا مطمع له في سلامة العوام فمن احس من نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه الانفراد والعزلة وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سيل فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة رضي الله عنهم جمعا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون وكانوا يتدافعون الفتوى وكل من كان يفتي كان يود ان يكفيه غيره وعند هذا ينبغي ان يتقي شياطين الانس اذا قالوا لا تفعل هذا فان هذا الباب لو انفتح لاندرست العلوم من بين الخلق وليقل لهم ان دين الاسلام مستغن عني فانه قد كان معمورا قبلي وكذلك يكون بعدي ولو مت لم ينهدم اركان الاسلام فالدين مستغن عني واما انا فلست مستغنيا عن اصلاح قلبي واما اداء ذلك الى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل فان الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب العلوم والرياسة يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبب الى الخلق الرياسة والشيطان لا يفتر عن عمله الى يوم القيامة بل ينتهض لنشر العلم اقوام لا خلاق لهم في الاخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر فلا ينبغي ان يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الدنيا والجاه والثناء والتعظيم فان ذلك بذر النفاق قال صلى الله عليه وسلم حب الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل وقال صلى الله عليه وسلم ما ذيبان ضاريان ارسلا في زريبة غنم باكثر فسادا فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم ولا ينقلع حب الجاه من القلب الا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم فليكن فكر العالم في

بالخوان الاخلاق لهم زادت العبيد هنا الدرس

التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها وهذه وظيفة العالم المتقي فاما امثالنا فينبغي ان يكون تفكرنا فيما يقوي ايماننا بيوم الحساب فلو راىنا السلف الصالحون لقالوا قطعا ان هولاء لا يومنون بيوم الحساب فما اعمالنا اعمال من يومن بالجنة والنار فان من خاف شيا هرب منه ومن رجا شيا طلبه وقد علمنا ان الهرب من النار بترك الشبهات والحرام وترك المعاصي ونحن منهمكون فيها وان طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقتصرون في الفرايض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم الا انه يقتدي بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها ويقال لو كان هذا مذموما لكان العلماء اولى باجتنابه منا فليتنا كنا كالعوام اذا متنا ماتت معنا ذنوبنا فما اعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا فنسال الله تعالى ان يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل ان يتوفانا انه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا فهذه مجاري افكار العلماء الصالحين في علم المعاملة فان فرغوا منها انقطع التفاتهم عن انفسهم وارتقوا منها الى التفكر في جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك الا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات وان ظهر شي منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا مكدرا مقطوعا وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه عقارب تلدغه مرة بعد اخرى فينغص عليه لذة المشاهدة ولا طريق له في اكمال التنعم الا باخراج العقارب من ثيابه وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهي موذيات ومشوشات وفي القبر يزيد الم لدغها على لدغ العقارب والحيات فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند الله تعالى

القسم الثاني الفكر في جلال الله وعظمته وكبريايه وفيه مقامات

المقام الاعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني اسمايه وهذا مما منع منه حيث قال تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله وذلك لان العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر اليه الا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر بل ساير الخلق احوال ابصارهم بالاضافة الى جلال الله كحال بصر الخفاش بالاضافة الى نور الشمس فانه لا يطيقه البتة بل يختفي نهارا وانما يتردد ليلا لينظر في بقية نور الشمس اذا وقع على الارض واحوال الصديقين كحال الانسان في النظر الى الشمس فانه يقدر على النظر اليها

ولكن

ولكن لا يطيق دوامه ويخشى على بصره لو دام النظر ونظره المختطف اليها يورث العمش ويفرق البصر وكذلك النظر الى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل فالصواب اذا ان لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته فان اكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو ان الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الاقطار والجهات وانه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول اقوام حتى انكروه اذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته بل ضعفت طايفة عن احتمال اقل من هذا اذ قيل لهم انه يتعالى عن ان يكون له راس ورجل ويد وعين وعضو وان يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم فانكروا هذا وظنوا ان ذلك قدح في عظمة الله تعالى وجلاله حتى قال بعض الحمقى من العوام ان هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الاله لظن المسكين ان الجلالة والعظمة في هذه الاعضاء وهذا لان الانسان لا يعرف الا نفسه فلا يستعظم الا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه نعم غايته ان يقدر نفسه جميل الصورة جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون امره فلا جرم غايته ان يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لانكر ذلك وقال كيف يكون خالقي انقص مني افيكون مقصوص الجناح او يكون زمنا لا يقدر على الطيران او يكون لي الة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري وعقول اكثر الخلق قريب من هذا العقل وان الانسان لظلوم جهول كفار ولذلك اوحى الله تعالى الى بعض انبيايه لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن اخبرهم عني بما يفهمون ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته مخطرا من هذا الوجه اقتضى ادب الشرع وصلاح الخلق ان لا نتعرض لمجاري الفكر فيه لكنا نعدل الى المقام الثاني وهو النظر الى افعاله وعجايب صنعه وبدايع امره في خلقه فانها تدل على جلاله وكبريايه وتقدسه وتعاليه وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيته وقدرته فينظر الى صفاته من اثار صفاته فانا لا نطيق النظر الى صفاته كما انا لا نطيق النظر الى الشمس ونطيق النظر الى الارض مهما استنارت بنور الشمس ويستدل بذلك على عظم نور الشمس بالاضافة الى نور القمر وساير الكواكب لان نور الارض من اثار نور الشمس والنظر في الاثر يدل على المؤثر دلالة ما وان كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر وجميع

موجودات الدنيا اثر من قدرة الله ونور من انواره بل لا ظلمة اشد من العدم ولا نور
اظهر من الوجود ووجود الاشيا كلها نور من انوار ذاته تعالى وتقدس اذ قوام
وجود الاشيا بذات القيوم بنفسه كما ان قوام نور الاجسام بنور الشمس المضية
بنفسها ومهما انكشف بعض الشمس جرت العادة بان يوضع طست ما حتى ترى
الشمس فيه ويمكن النظر اليها فيكون الما واسطة يغض قليلا من نور الشمس حتى
يطاق النظر اليها فكذلك الافعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بانوار
نور الذات بعد ان تباعدنا عنها بواسطة الافعال فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم تفكروا
في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله سبحانه وتعالى **بيان** كيفية التفكر في خلق الله
اعلم ان كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه وكل ذرة من الذرات
من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجايب وغرايب تظهر بها حكمة
الله تعالى وقدرته وجلاله وعظمته واحصا ذلك غير ممكن لانه لو كان البحر
مدادا لذلك لنفد البحر قبل ان ينفد عشر عشيره ولكنا نشير الى جمل منه ليكون ذلك
كالمثال لما عداه فنقول **الموجودات** المخلوقة منقسمة الى ما لا يعرف
اصلها فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التي لا نعلمها كما قال الله تعالى سبحان الذي
خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون وقال وننشيكم فيما
لا تعلمون والى ما يعرف اصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا ان نتفكر في
تفصيلها وهي منقسمة الى ما ادركناه بحس البصر والى ما لا ندركه بالبصر اما الذي لا
ندركه بالبصر فكالملايكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك ومجال
التفكر في هذه الاشيا مما يضيق ويغمض فلنعدل الى الاقرب الى الافهام وهي المدركات
بحس البصر وذلك هو السموات السبع والارض وما بينهما فالسموات مشاهدة
بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها والارض مشاهدة بما
من جبالها ومعادنها وانهارها وبحارها وحيواناتها ونباتاتها وما بين السما والارض وهو
الجو مدرك بغيومها وامطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها
وعواصف رياحها فهذه هي الاجناس المشاهدة من السموات والارض وما بينهما وكل
جنس منها ينقسم الى انواع وكل نوع ينقسم الى اقسام ويتشعب كل قسم الى اصناف
ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيئاته ومعانيه
الظاهرة والباطنة وجميع ذلك مجال الفكر فلا تتحرك ذرة في السموات والارض
من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب الا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة او
حكمتان او عشرة او الف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله
وكبريائه وهي الايات الدالة عليه وقد ورد القران بالحث على التفكر في هذه الايات

كما قال تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات وكما قال تعالى
ومن اياته ومن اياته من اول القران الى اخره فلنذكر كيفية الفكر في بعض الايات
فمن اياته الانسان المخلوق من النطفة واقرب شي اليك نفسك وفيك من العجايب
الدالة على عظمة الله ما تنقضي الاعمار في الوقوف على عشر عشيره وانت غافل عنه
فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك وقد امرك الله تعالى
بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال وفي انفسكم افلا تبصرون وذكر انك مخلوق
من نطفة قذرة فقال قتل الانسان ما اكفره من اي شي خلقه من نطفة خلقه فقدره
ثم السبيل يسره ثم اماته فاقبره ثم اذا شا انشره وقال تعالى ومن اياته ان خلقكم
من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون وقال تعالى الم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة
فخلق فسوى وقال تعالى الم نخلقكم من ما مهين فجعلناه في قرار مكين الى قدر معلوم وقال تعالى
او لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وقال انا خلقنا الانسان
من نطفة امشاج ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة
عظاما فقال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين
ثم خلقنا النطفة علقة الاية فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع
لفظه ويترك التفكر في معناه فانظر الان الى النطفة وهي قطرة من الما قذرة
لو تركت ساعة ليضربها الهوا فسدت وانتنت كيف اخرجها رب الارباب
من الصلب والترايب وكيف جمع بين الذكر والانثى والقى الالف والمحبة في
قلوبهم وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة الى الاجتماع وكيف استخرج
النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من اعماق العروق وجمعه
في الرحم ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بما الحيض وغذاه حتى نما وربى
وكبر وكيف جعل النطفة وهي بيضا مشرقة علقة حمرا ثم كيف جعلها مضغة
ثم كيف قسم اجزا النطفة وهي متشابهة متساوية الى العظام والاعصاب
والعروق والاوتار واللحم ثم كيف ركب من اللحوم والاعصاب والعروق الاعضا الظاهرة
فدور الراس وشق السمع والبصر والانف والفم وساير المنافذ ثم مد اليد والرجل
وقسم روسها بالاصابع وقسم الاصابع بالانامل ثم كيف ركب الاعضا الباطنة
من القلب والمعدة والكبد والطحال والرية والرحم والمثانة والامعا كل واحد
على شكل مخصوص ثم كيف قسم كل عضو من هذه الاعضا باقسام اخر فركب العين
من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهية مخصوصة لو فقدت طبقة

منها او زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الابصار فلو ذهبنا نصف ما في
هذه الاعضا من العجايب والايات لانقضى فيها الاعمار فانظر الان الى العظام
وهي اجسام قوية صلبة كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواما
للبدن وعمادا له ثم قدرها وقدرها بمقادير مختلفة واشكال متفاوتة فمنه
صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ولما كان
الانسان محتاجا الى الحركة بجملة بدنه وببعض اعضايه للتردد في حاجاته لم
يجعل عظمه عظما واحدا بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة
وقدر شكل كل واحد منها على قدر وفق الحركة بجملة بدنه وببعض اعضايه
للتردد في حاجاته المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها بالبعض باوتار
انبتها من احد طرفي العظم والصقه بالطرف الاخر كالرباط له ثم خلق في احد
طرفي العظم زوايد خارجة منه وفي الاخر حفرا غايصة فيه موافقة لشكل
الزوايد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار العبد ان اراد تحريك جز من بدنه
لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الراس
وكيف جمعها وركبها وقد ركبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الاشكال
والصور فالف بعضها الى بعض بحيث استوى به كرة الراس كما تراه فمنها
ستة تختص بالقحف واربعة عشر للحي الاعلى واثنان للحي الاسفل والبقية
هي الاسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع
وهي الانياب والاضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبا للراس وركبها
من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تحريفات وزيادات ونقصانات
لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ثم ركب الرقبة
على الظهر وركب الظهر من اسفل الرقبة الى منتهى عظم العجز من اربع وعشرين
خرزة وركب عظم العجز من ثلاثة اجزا ثم وصل عظام الظهر بعظام
الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز
ثم عظام الفخذين والساقين واصابع الرجلين فلا نطول بذكر عدد ذلك ومجموع عدد
العظام في بدن الانسان مايتا عظم وثمانية واربعون عظما سوى العظام
الصغار التي حشي بها خلال المفاصل كما نظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة
رقيقة وليس المقصود من ذكر اعداد العظام ان تعرف عددها فان هذا علم
قريب يعرفه الاطبا والمشرحون وانما الغرض ان تنظر منها في مدبرها

وخالقها انه كيف قدرها ودبرها وخالف بين اشكالها واقدارها وخصصها بهذا
العدد المخصوص لانه لو زاد عليه واحدا لكان وبالا على الانسان يحتاج الى قلعه
ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج الى جبره فالطبيب ينظر فيها ليعرف
وجه العلاج في جبرها واهل البصاير ينظرون فيها ليستدلون بها على جلالة
خالقها ومصورها فشتان بين النظرين ثم انظر كيف خلق الله تعالى الات
لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الانسان خمسماية عضلة وتسعا
وعشرين عضلة والعضلة هي مركبة من لحم وعصب ورباط واغشية وهي
مختلفة المقادير والاشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فاربع
وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين واجفانها لو نقصت واحدة منها
اختل امر العين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص وامر
الاعصاب والعروق والاوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها
اعجب من هذا كله وشرحه يطول فللتفكر مجال في احاد هذه الاجزا ثم في احاد
الاعضا ثم في جملة البدن وكل ذلك نظر الى عجايب اجسام البدن وعجايب المعاني
والصفات التي لا تدرك بالحواس اعظم فانظر الان الى ظاهر الانسان وباطنه
والى بدنه وصفاته فترى فيه من الصنعة ما تقضي به العجب وكل ذلك صنع
الله تعالى في قطرة ما قذرة فترى هذا صنعه في قطرة ما فما صنعه في ملكوت
السموات وكواكبها وما حكمته في اوضاعها واشكالها ومقاديرها واعدادها
واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها
ومغاربها فلا تظنن ان ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل
هي احكم خلقا واتقن صنعا واجمع للعجايب من بدن الانسان بل لا نسبة
لجميع ما في الارض الى عجايب السموات ولذلك قال تعالى االنتم اشد خلقا ام السما
بناها فارجع الان الى النطفة وتامل حالها اولا وما صارت اليه ثانيا وتامل لو اجتمع
الجن والانس على ان يخلقوا للنطفة سمعا او بصرا او عقلا او قدرة او علما او روحا
او يخلقوا فيها عظما او عرقا او عصبا او جلدا او شعرا هل يقدرون على شي
من ذلك بل لو ارادوا ان يعرفوا كنه حقيقة شي منه وكيفية خلقته بعد
ان خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك انك لو نظرت الى صورة
انسان مصور على حايط تانق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة
الانسان وقال الناظر اليها كانه انسان عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه
وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله مع انك تعلم ان تلك الصورة انما

لبيب
تمثلت بالصبغ والقلم وبالحايط واليد وبالقدرة وبالعلم وبالارادة وشي من ذلك من فعل النقاش والخلقة وخفية بل هو نافذ خطنه من خلق غيره وانما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحايط على ترتيب مخصوص فيكثر تعجبك منه وتستعظمه وانت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الاصلاب والترايب ثم اخرجها منها وشكلها فاحسن تشكيلها وقدرها فاحسن تقديرها وتصويرها وقسم اجزاها المتشابهة الى اجزاء مختلفة فاحكم العظام في ارجائها وحسن اشكال اعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها واعصابها وجعلها مجرى لغذايها ليكون ذلك سبب بقايها وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة وخلق لها الظهر اساسا لبدنها والبطن حاويا لالات غذايها والراس جامعا لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها واحسن شكلها ولونها وهيئاتها ثم حماها بالاجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الاقذاء عنها ثم اظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع اكنافها وتباعد اقطارها فهو ينظر اليها ثم شق اذنيه واودعهما ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الاذن لتجمع الصوت فترده الى صماخها ولتحس بدبيب الهوام اليها وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه عن النوم صاحبها اذا قصدها دابة في حال النوم ثم رفع الانف من وسط الوجه واحسن شكله وفتح منخريه واودع فيها حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروايح على مطاعمه ومشاربه واغذيته وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهوا غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه وفتح الفم واودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما في القلب وزين الفم بالاسنان لتكون آلة للطحن والكسر والقطع فاحكم اصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كانها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونهما وشكلهما لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بهما حروف الكلام ثم خلق الحنجرة وهياها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة الحركات والتقطيعات لينقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع طريق النطق بكثرتها ثم خلق الحناجر مختلفة الاشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلف بسببها الاصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ثم زين الراس بالشعور

والاصداغ وزين الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالاهداب ثم خلق الاعضا الباطنة وسخر كل واحد منها لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذا والكبد لاحالة الغذا الى الدم والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد فالطحال تخدمها بجذب السودا عنها والمرارة تخدمها بجذب الصفرا عنها والكلية تخدمها بجذب المايية والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ثم تخرجه في طريق الاحليل والعروق تخدم الكبد في ايصال الدم الى ساير اطراف البدن ثم خلق اليدين وطولهما لتمتدا الى المقاصد وعرض الكف وقسم الاصابع الخمس وقسم كل اصبع بثلاث انامل ووضع الاربعة في جانب والابهام في جانب ليدور الابهام على الجميع ولو اجتمع الاولون والآخرون على ان يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر في وضع الاصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الابهام عن الاربع وتفاوت الاربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه اذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والاعطا فان بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد وان جمعها كانت آلة للضرب وان ضمها ضما غير تام كانت مغرفة له وان بسطها وضم اصابعها كانت مجرفة له ثم خلق الاظفار على رؤسها زينة للانامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع وليلتقط بها الاشيا الدقيقة التي لا تتناولها الانامل وليحك بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو اخس الاعضا لو عدمه الانسان وظهر به حكة لكان اعجز الخلق واضعفهم ولم يقم احد مقامه في حك بدنه ثم هدى اليد الى موضع الحك حتى تمتد اليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة الى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك الا بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ولو كشف الغشا والغطا وامتد البصر اليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليه شيا فشيا ولا يرى المصور ولا آلته فهل رايت مصورا او فاعلا لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو متصرف فيه فسبحانه ما اعظم شانه واظهر برهانه ثم انظر مع كمال قدرته الى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كانه عاقل بصير بما يحتاج اليه ثم انه لما خرج واحتاج الى الغذا كيف هداه الى التقام الثدي ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الاغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سايغا خالصا وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وانبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليه فم الصبي ثم فتح في حلمة الثدي ثقبا ضيقا جدا

حتى لا يخرج اللبن منه الا بعد المص تدريجا فان الطفل لا يطيق منه الا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع به ثم انظر الى عطفه ورافته كيف اخر خلق الاسنان الى تمام الحولين لانه في الحولين لا يتغذى الا باللبن فيستغني عن السن واذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج الى طعام غليظ ويحتاج الطعام الى المضغ والطحن فانبت له الاسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها فسبحانه كيف اخرج تلك العظام الصلبة من تلك اللثات اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزا عن تدبير نفسه فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل اعجز الخلق عن تدبير نفسه ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجا حتى بلغ وتكامل فصار مراهقا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا اما كفورا واما شكورا مطيعا او عاصيا مومنا او كافرا تصديقا لقوله تعالى هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيا مذكورا انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا فانظر الى اللطف والكرم ثم الى القدرة والحكمة تبهرك عجايب الحضرة الربانية والعجب كل العجب ممن يرى خطا حسنا او نقشا على حايط فيستحسنه فينصرف جميع همه الى التفكر في النقاش والخطاط وانه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه ويقول ما احذقه وما اكمل صنعته واحسن قدرته ثم ينظر الى هذه العجايب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ولا تحيره جلالته وحكمته فهذه نبذة من عجايب بدنك التي لا يمكن استقصاوها فهو اقرب مجال لفكرك واجلى شاهد على عظمة خالقك وانت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك لا تعرف من نفسك الا ان تجوع فتاكل وتشبع فتنام وتشتهي فتجامع وتغضب فتقاتل والبهايم والسباع كلها تشاركك في معرفة ذلك وانما خاصية الانسان التي حجبت البهايم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والارض وعجايب الآفاق والانفس اذ بها يدخل العبد في زمرة الملايكة المقربين ويحشر في زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين وليست هذه المنزلة للبهايم ولا لانسان رضي من الدنيا بشهوات البهايم فانه شر من البهيمة بكثير اذ لا قدرة للبهايم على ذلك واما هو فقد خلق له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها فاولئك كالانعام بل هم اضل سبيلا واذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر

في الارض التي هي مقرك ثم في انهارها واشجارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها الى ملكوت السما ❁ اما الارض فمن اياته ان خلق الارض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها وجعلها قارة لا تتحرك وارسى فيها الجبال اوتادا لها تمنعها ان تميد ثم وسع اكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وان طالت اعمارهم وكثر تطوافهم قال تعالى والسما بنيناها بايد وانا لموسعون والارض فرشناها فنعم الماهدون وقال تعالى هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وقال تعالى الذي جعل لكم الارض فراشا وقد اكثر في كتابه العزيز من ذكر الارض لتتفكر في عجايبها فظهرها مقر للاحيا وبطنها مرقد للاموات قال تعالى الم نجعل الارض كفاتا احيا وامواتا فانظر الى الارض وهي ميتة فاذا انزل عليها الما اهتزت وربت واخضرت وانبتت عجايب النبات وخرجت منها اصناف الحيوانات ثم انظر كيف احكم جوانب الارض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف اودع المياه تحتها ففجر العيون واسال الانهار تجري على وجهها واخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ما رقيقا عذبا صافيا زلالا وجعل به كل شي حيا فاخرج به فنون الاشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الاشكال والالوان والطعوم والصفات والارايح تفضل بعضها على بعض في الاكل تسقى جميعا بما واحد وتخرج من ارض واحدة ❁ فان قلت [red line] ان اختلافها لاختلاف بذورها واصولها فمتى كان في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة ماية حبة ثم انظر الى اراضي البوادي وفتش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابها فاذا انزل عليها الما اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج الوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر الى كثرتها واختلاف اصنافها وكثرة اشكالها ثم اختلاف طبايع النبات وكثرة منافعه وكيف اودع الله العقاقير المنافع الغريبة فهذا النبات يغذي وهذا يقوي وهذا يحيي وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا اذا حصل في المعدة قمع الصفرا من اعماق العروق وهذا يستحيل الى الصفرا وهذا يقمع البلغم والسودا وهذا يستحيل اليها وهذا يصفي الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يقوي وهذا يضعف فلم تنبت من الارض ورقة ولا نبتة الا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات تحتاج

الفلاح في تربيته الى عمل مخصوص فالنخيل تؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى
عنه الحشيش والدغل وبعض ذلك يستنبت ببث البذر في الارض
وبعضه بغرس الاغصان وبعضه يركب في الشجر ولو اردنا ان نذكر
اختلاف اجناس النبات وانواعه ومنافعه واحواله وعجايبه لانقضت الايام
في وصف ذلك فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر
فهذه عجايب النبات ومنافعه واحواله ومن اياته الجواهر المودعة
تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الارض ففي الارض قطع متجاورات مختلفة
فانظر الى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج
واللعل وغيرها فبعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والنحاس
والرصاص والحديد وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل وكيف هدى الله الناس
الى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الاواني والالات والنقود والحلي منها ثم انظر
الى معادن الارض من النفط والكبريت والقير وغيرها واقلها الملح ولا يحتاج
اليه الا لتطييب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك اليها فانظر
الى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الاراضي سبخة بجوهرها بحيث يجتمع
فيها الماء الصافي من المطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول وزن مثقال
منه ليكون ذلك تطييبا لطعامك اذا اكلته فيتهنا عيشك وما من جماد ولا
حيوان ولا نبات الا وفيه حكمة محكمة وحكم من هذا الجنس ما خلق شي منها عبثا
ولا لعبا ولا هزلا بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي كما
يليق بجلاله وكرمه ولطفه ولذلك قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون
وقال تعالى وما خلقنا السما والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق • ومن
اياته اصناف الحيوانات وانقسامها الى ما يطير والى ما يمشي وانقسام ما يمشي
الى ما يمشي على رجلين والى ما يمشي على اربع وعلى عشر وعلى مائة رجل كما تشاهده
في بعض الحشرات والديدان ثم انقسامها في المنافع والصور والاشكال والاخلاق
والطباع فانظر الى طيور الجو والى وحوش البر والى البهايم الاهلية ترى فيها من
العجايب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها
وكيف يمكن ان نستقصي ذلك بل لو اردنا ان نذكر عجايب البقة او النملة او النحلة
او العنكبوت وهي من صغار الحيوانات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاها
وفي الفها لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها
وفي هدايتها الى حاجاتها لم نقدر على ذلك فترى العنكبوت تبني بيتها على

طرف

طرف نهر فتطلب اولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما
دونه حتى يمكنه ان يصل بالخيط بين طرفيه ثم يبتدي فيلقي اللعاب الذي
هو خيطها على جانب ليلتصق به ثم تغدو الى الجانب الاخر فتحكم الطرف الاخر
من الخيط ثم كذلك تتردد ثانيا وثالثا وتجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسبا
هندسيا حتى اذا احكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة
فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه الى بعض ويحكم العقد على موضع
التقاء اللحمة بالسدى ويراعي في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك
شبكة يقع فيها البق والذباب ويقعد في زاوية مترصدا لوقوع الصيد
في الشبكة فاذا وقع الصيد فيه بادر الى اخذه واكله وان عجز عن الصيد
كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق
نفسه منه بخيط اخر وبقي منتكسا في الهواء ينتظر ذبابة تطير فاذا طار ذباب
رمى نفسه اليه فاخذه ولف خيطه على رجليه واحكمه ثم اكله وما من حيوان
صغير ولا كبير الا وفيه من هذه العجايب ما لا يحصى افترى انه تعلم هذه الصنعة
من نفسه او تكون بنفسه او كونه ادمي وعلمه او لا هادي له ولا معلم
افيشك ذو بصيرة في انه مسكين ضعيف عاجز بل الفيل العظيم شخصه
الظاهرة قوته عاجز عن امر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف افلا يشهد
هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجايب صنعته لفاطره الحكيم
وخالقه القادر العليم فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق
المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الالباب والعقول
فضلا عن ساير الحيوانات وهذا الباب ايضا لا حصر له فان الحيوانات
واشكالها واخلاقها وطباعها غير محصورة وانما سقط تعجب القلوب منها لانسها
بكثرة المشاهدة نعم اذا راى حيوانا غريبا ولو دودا تجدد تعجبه وقال سبحان الله
ما اعجبه والانسان اعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر الى الانعام
التي الفها ونظر الى اشكالها وصورها ثم الى منافعها وفوايدها من جلودها
واصوافها واوبارها واشعارها التي جعلها الله لباسا لخلقه واكنانا لهم في
ظعنهم واقامتهم وانية لاشربتهم واوعية لاغذيتهم وصوانا لاقدامهم
وجعل البانها ولحومها اغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة
للاثقال قاطعة للبوادي والمفازات لاكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها
فانه ما خلقها الا بعلم محيط بجميع منافعها ومضارها سابق على خلقه اياها •

فسبحان من الامور مكشوفة في علمه من غير تفكر ومن غير تامل وتدبر ومن
غير استعانة بوزير او مشير فهو العليم الخبير الحكيم القوي القدير فلقد
استخرج باقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده
فما للخلق الا الاذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والاقرار بالعجز
عن معرفة جلاله وعظمته فمن الذي يحصي ثناء عليه بل هو كما اثنى على
نفسه وانما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسال الله تعالى
ان يكرمنا بهدايته بمنه وكرمه ورافته • ومن • اياته البحار العميقة
المكتنفة لاقطار الارض التي هي قطع من البحر الاعظم المحيط بجميع الارض حتى
ان جميع المكشوف من البوادي والجبال عن الماء بالاضافة الى الماء كجزيرة صغيرة
في بحر عظيم وبقية الارض مستورة بالماء قال النبي صلى الله عليه وسلم الارض في البحر
كالاصطبل في الارض فانسب اصطبلا الى جميع الارض واعلم ان الارض بالاضافة
الى البحر مثله • وقد شاهدت عجايب الارض وما فيها فتامل الان عجايب البحر
فان عجايب ما فيه من الحيوان والجواهر اضعاف عجايب ما تشاهده على
وجه الارض كما ان سعته اضعاف سعة الارض ولعظم البحر كان فيه
من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فيظن انها جزيرة فتنزل
الركاب عليها فربما تحس بالنيران اذا اشتعلت فتتحرك فيعلم انه حيوان
وما من صنف من حيوان البر من فرس او طير او بقر او انسان الا وفي البحر
امثاله واضعافه وفيه اجناس لا يعهد لها نظير في البر وقد ذكرت اوصافها
في مصنفات وجمعها اقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجايبه ثم انظر كيف
خلق اللؤلؤ ودوره في صدفه تحت الماء وانظر كيف انبت المرجان من صم
الصخور تحت الماء وانما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ثم تامل ما عداه
من العنبر واصناف النفايس التي يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر الى
عجايب السفن كيف امسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب
الاموال وسخر لهم الفلك لتحمل اثقالهم ثم ارسل الرياح لتسوق السفن ثم عرف
الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها ولا تستقصي على الجملة عجايب
صنع الله في البحر في مجلدات • واعجب من ذلك كله ما هو اظهر من كل ظاهر وهو
كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الاجزاء
كانه شي واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كانه منفصل مسخر
للتصرف قابل للانفصال والاتصال به حياة كل ما على وجه الارض من

حيوان

حيوان او نبات فلو احتاج العبد الى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزاين الدنيا
في تحصيلها لو ملك ذلك واذا شربها ومنع من اخراجها لبذل جميع خزاين الارض
وملك الدنيا في اخراجها فالعجب من الادمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفايس
الجواهر ويغفل عن نعمة الله تعالى في شربة ماء اذا احتاج الى شربها او الاستفراغ
عنها لبذل جميع الدنيا فيها فتامل في عجايب المياه والانهار والابار والبحار
ففيها متسع للفكر ومجال وكل ذلك شواهد متظاهرة وايات متناصرة ناطقة
بلسان حالها مفصحة عن جلال باريها معربة عن كمال حكمته فيها منادية ارباب
القلوب بنغماتها قايلة لكل ذي لب اما تراني وترى صورتي وتركيبي وصفاتي
ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة فوايدي اتظن اني تكونت بنفسي او خلقني احد
من جنسي اوما تستحي ان تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة احرف فتقطع انه صنعة
ادمي عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر الى عجايب الخطوط الالهية المرقومة على
صفحات وجهي بالقلم الالهي الذي لا يدرك الابصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله
بمحل الخط ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه وتقول النطفة لارباب السمع والقلب
لا للذين هم عن السمع لمعزولون توهمني في ظلمة الاحشا مغموسة في دم الحيض
في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش حدقتي
واجفاني وجبهتي وخدي وشفتي فترى النقوش تظهر شيئا فشيئا على التدريج
ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجها ولا خبر
للام ولا للاب ولا للنطفة ولا للرحم افما هذا النقاش باعجب ممن يشاهده
ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت اليها مرة او مرتين لتعلمته فهل تقدر
على ان تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها
وجميع اجزايها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لا من داخل
ولا من خارج فان كنت لا تتعجب من هذه العجايب ولا تفهم به ان الذي صور
ونقش وقدر لا نظير له ولا يساويه نقاش ومصور كما ان نقشه وصنعته
لا يساويه صنع ونقش فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين
فان كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فانه اعجب من كل
عجيب فان الذي اعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبين مع هذا
البيان جدير بان يتعجب منه • فسبحان من هدى واضل واغوى وارشد
واشقى واسعد وفتح بصاير احبابه فشاهدوه في جميع ذرات العالم واجزايه
واعمى قلوب اعدايه واحتجب عنهم بعزته وعلايه فله الخلق والامر والامتنان
والفضل واللطف والقهر لا راد لحكمه ولا معقب لقضايه ومن اياته

الهوى اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الارض يدرك بحس
اللمس عند هبوب الريح جسمه ولا يرى بالعين شخصه وجملته مثل البحر الواحد
والطيور محلقة في جو الهوا ومستقة سباحة فيه باجنحتها كما تسبح حيوانات
البحر في الما وتضطرب جوانبه وامواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب
امواج البحر فاذا حرك الله الهوا وجعله ريحا هابة فان شا جعله نشرا بين
يدي رحمته كما قال سبحانه وارسلنا الرياح لواقح فيصل بحركته روح الهوا الي
الحيوانات والنبات فتستعد للنما وان شا جعله عذابا على العصاة من
خليقته كما قال تعالى انا ارسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع
الناس كانهم اعجاز نخل منقعر ثم انظر الى لطف الهوا ثم شدته وقوته
مهما غيض في الما فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الما
فيعجز عنه والحديد الصلب تضعه على الما فيرسب فيه فانظر كيف تنقبض
الهوا من الما بقوته مع لطافته وبهذه الحكمة امسك الله تعالى السفن على وجه
الما وكذلك كل مجوف فيه هوا لا يغوص في الما لان الهوا ينقبض عن الغوص
في الما فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة
مع قوتها وصلابتها متعلقة من الهوا اللطيف كالذي يقع في بير فيتعلق بذيل
رجل قوي ممتنع عن الهوي في البير فالسفينة بمقعرها تتشبث باذيال
الهوا القوي حتى يمتنع من الهوي والغوص في الما فسبحان من علق المركب
الثقيل من هوا لطيف من غير علاقة تشاهد ولا عقدة تشد ثم انظر
الى عجايب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والامطار
والثلوج والشهب والصواعق فهي عجايب ما بين السما والارض وقد اشار
القران الى جملة ذلك في قوله تعالى وما خلقنا السما والارض وما بينهما لاعبين
وهذا هو الذي بينهما واشار الى تفصيله في مواضع شتى حيث قال والسحاب
المسخر بين السما والارض وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر
فاذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة الا ان ترى المطر بعينك وتسمع الرعد
باذنك فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم
البهايم الى عالم الملا الاعلى فقد فتحت عينيك فادركت ظاهرها فغمض
عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجايب باطنها وغرايب
اسرارها وهذا ايضا باب يطول الفكر فيه ولا مطمع في استقصايه فتامل
السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف
يخلقه الله اذا شا ومتى شا وهو مع رخاوته حامل للما الثقيل وممسك له في جو

السما

السما الى ان ياذن الله تعالى في ارسال الما وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي
اراده الله تعالى وعلى الشكل الذي شاه فترى السحاب يرش الما على الارض
ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا يتصل واحدة
باخرى بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه فلا يتقدم
المتاخر ولا يتاخر المتقدم حتى يصيب الارض قطرة قطرة فلو اجتمع الاولون
والاخرون على ان يخلقوا منها قطرة او يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة
او قرية واحدة لعجز حساب الجن والانس عن ذلك فلا يعلم عددها الا الذي
اوجدها ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الارض ولكل حيوان فيها من
طير ووحش وجميع الحشرات والدواب مكتوب على تلك القطرة بخط
الهي لا يدرك بالبصر الظاهر انها رزق الدودة الفلانية التي في ناحية الجبل
الفلاني تصل اليها عند عطشها في الوقت الفلاني هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب
من الما اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجايب التي لا تحصى
كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر ما لاحد من الخلق
فيه شرك ولا مدخل بل ليس للمومنين من خلقه الا الاستكانة والخضوع
تحت جلاله وعظمته ولا للعميان الجاحدين الا الجهل بكيفيته ورجم الظنون
بذكر سببه وعلته فيقول الجاهل المغرور انما ينزل الما لانه ثقيل بطبعه
وانما هذا سبب نزوله ويظن ان هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها
ولو قيل له ما معنى الطبع وما الذي خلقه ومن الذي خلق الما الذي طبعه الثقل
وما الذي رقى الما المصبوب في اسافل الاشجار الى اعالي الاغصان وهو ثقيل
بطبعه فكيف هوى الى اسفل ثم ارتفع الى فوق في داخل تجاويف الاشجار شيا
شيا بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع اطراف الاوراق فيغذي
كل جزء من كل ورقة ويجري اليها في تجاويف عروق شعرية صغار يرى
منه العرق الذي هو اصل الورقة ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول
الورقة عروق صغار فكان الكبير نهر وما انشعب عنه جداول ثم ينشعب
من الجداول سواقي اصغر منها ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية رقيقة
تخرج عن ادراك البصر حتى ينبسط في جميع عرض الورقة فيصل الما
في اجوافها الى ساير اجزا الورقة ليغذيها وينميها ويزينها ويبقى طراوتها
ونضارتها وكذلك الى ساير اجزا الفواكه فان كان الما يتحرك بطبعه الى
اسفل فكيف تحرك الى فوق فان كان ذلك بجذب جاذب فما الذي سخر ذلك

الجاذب فان كان ينتهي بالاخرة الى خالق السموات والارض وجبار الملك والملكوت
فلم لا يحال عليه في اول الامر فنهاية الجاهل بداية العاقل ومن اياته
ملكوت السموات وما فيها من الكواكب وهو الامر كله ومن ادرك الكل وفاته عجايب
السموات فقد فاته الكل تحقيقا فالارض والبحار والهوا وكل جسم سوى السموات
بالاضافة الى السموات كقطرة في بحر واصغر ثم انظر كيف عظم الله امر السموات
والنجوم في كتابه فما من سورة الا وتشتمل على تفخيمها في مواضع وكم من قسم في
القران بها كقوله تعالى والسما ذات البروج والسما والطارق والسما ذات
الحبك والسما وما بناها وقوله والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها وكقوله فلا
اقسم بالخنس الجوار الكنس وقوله والنجم اذا هوى فلا اقسم بمواقع النجوم
وانه لقسم لو تعلمون عظيم فقد علمت ان عجايب النطفة القذرة عجز
عن معرفتها الاولون والاخرون وما اقسم الله بها فما ظنك بما اقسم الله به
واحال الارزاق عليه واضافها اليه فقال تعالى وفي السما رزقكم وما توعدون واثنى
على المتفكرين فيه فقال ويتفكرون في خلق السموات والارض وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ويل لمن قرا هذه الاية ثم مسح بها سبلته اي تجاوزها من غير فكر وتدبر
وذم المعرضين عنها فقال وجعلنا السما سقفا محفوظا وهم عن اياتها معرضون فاي
نسبة لجميع البحار والارض الى السما وهي متغيرات على القرب والسموات
صلاب شداد محفوظات عن التغير الى ان يبلغ الكتاب اجله ولذلك سماه الله تعالى
محفوظا فقال وجعلنا السما سقفا محفوظا وقال وبنينا فوقكم سبعا شدادا
وقال انتم اشد خلقا ام السما بناها رفع سمكها فسواها فانظر الى الملكوت
لترى عجايب العز والجبروت ولا تظنن ان معنى النظر الى الملكوت بان
تمد البصر اليه فترى زرقة السما وضوء الكواكب وتفرقها فان البهايم
تشاركك في هذا النظر فان كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى ابراهيم
عليه السلام بقوله وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض لا بل كل ما
يدرك بحاسة البصر فالقران يعبر عنه بالملك والشهادة وما غاب عن
الابصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت والله تعالى عالم الغيب والشهادة
وجبار الملك والملكوت ولا يحيط احد بشي من علمه الا بما شا وهو عالم الغيب
فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول فاجل ايها العاقل فكرك في
الملكوت فعسى يفتح لك ابواب السما فتجول بقلبك في اقطارها الى ان يقوم
قلبك بين يدي عرش الرحمن فعند ذلك ربما يرجى لك ان تبلغ رتبة عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

رضي الله عنه حيث قال راى قلبي ربي وهذا لان بلوغ الاقصى لا يكون الا بعد مجاوزة
الادنى وادنى شي اليك نفسك ثم الارض التي هي مقرك ثم الهوا المكتنف لك ثم النبات
والحيوان وما على وجه الارض ثم عجايب الجو وما بين السما والارض ثم السموات
السبع بكواكبها ثم الكرسي ثم العرش ثم الملايكة الذين هم حملة العرش وخزان
السموات ثم منه تجاوز الى النظر الى رب العرش والكرسي والسموات والارض وما
بينهما فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة
وانت لم تفرغ بعد من العقبة القريبة النازلة وهي معرفة ظاهر نفسك ثم
صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعي معرفة ربك وتقول قد عرفته وعرفت
خلقه ففيماذا اتفكر والى ماذا اتطلع فارفع الان راسك الى السما وانظر فيها
وفي كواكبها وفي دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها
ومغاربها ودووبها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغير
في سيرها بل تجري جميعها في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص
الى ان يطويها الله تعالى طي السجل للكتاب وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف
الوانها فبعضها يميل الى الحمرة وبعضها الى البياض وبعضها الى اللون الرصاصي
ثم انظر كيفية اشكالها فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور
والاسد والانسان وما من صورة في الارض الا ولها مثال في السما ثم انظر الى مسير الشمس في فلكها
في مدة سنة ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بسير اخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها
لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولاطبق الظلام على الدوام او الضيا على الدوام
وكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر الى الله كيف جعل الليل لباسا والنوم
سباتا والنهار معاشا وانظر الى ايلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وادخاله الزيادة
والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر الى امالته مسير الشمس عن وسط السما
حتى اختلف بسببه الصيف والشتا والربيع والخريف فاذا انخفضت الشمس عن وسط
السما في مسيرها برد الهوا وظهر الشتا واذا استوت في وسط السما اشتد القيظ واذا كا
فيما بينهما اعتدل الزمان وعجايب السموات لا مطمع في احصا عشر عشير جزء من اجزايها
وانما هذا تنبيه على طريق الفكر واعتقد على الجملة انه ما من كوكب من الكواكب الا ولله تعالى
حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ثم في شكله ثم في لونه ثم في وضعه من السما بالموضع الذي هو
به وقربه من وسط السما وبعده وقربه من الكواكب التي بجنبه وبعده وقس ذلك
بما ذكرناه من اعضا بدنك اذ ما من جزء الا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وامر السما
اعظم بل لا نسبة لعالم الارض الى عالم السما لا في كبر جسم ولا في التفاوت الذي بينهما

واتساع

في كثرة المعاني مما بينها من التفاوت في كبر الارض فانت تعرف من كبر الارض حتى اطرافها لانه لم يقدر آدمي على ان يدور بجوانبها وقد اتفق الناظرون على ان الشمس مثل الارض مائة ونيف وستون مرة وفي الاخبار ما يدل على عظمها والكواكب التي تراها اصغرها مثل الارض ثماني مرات واكبرها ينتهي الى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الارض وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها اذ للبعد صارت ترى صغارا ولذلك اشار الله تعالى الى بعدها فقال رفع سمكها فسواها وفي الاخبار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان بين كل سماء الى الاخرى مسيرة خمسمائة عام فاذا كان هذا مقدار كوكب واحد من الارض فانظر الى كثرة الكواكب ثم انظر الى السماء التي الكواكب مركوزة فيها والى عظمها ثم انظر الى سرعة حركتها وانت لا تحس بحركتها فضلا عن ان تدرك سرعتها لكن لا تشك انه في لحظة يسيرة يسير مقدار عرض كوكب لان الزمان من طلوع اول جزء من كوكب الى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الارض مائة مرة وزيادة فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الارض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وانت غافل عنه وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته اذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال كيف تقول لا نعم فقال من حيث قلت لا الى ان قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام فانظر الى عظم شخصها ثم الى خفة حركتها ثم انظر الى قدرة الفاطر الحكيم كيف اثبت صورتها مع اتساع اكنافها في حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الارض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر اليها بل انظر الى باريها كيف خلقها ثم امسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك انك تدخل بيت غني فتراه مزوقا بالصبغ مموها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وانت ابدا تنظر الى هذا البيت العظيم والى ارضه والى سقفه والى هوائه والى عجائب امتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك اليه فما هذا البيت دون البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو ايضا جزء من الارض التي هي اخس اجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر اليه ليس له سبب الا انه بيت ربك وهو الذي انفرد ببنائه وترتيبه وانت قد نسيت نفسك وربك واشتغلت ببطنك وفرجك ليس لك هم الا شهوتك او حشمتك وغاية شهوتك ان تملأ بطنك ولا تقدر ان تاكل عشر ما تاكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات وغاية حشمتك ان يقبل عليك عشرة او مائة من معارفك فينافقون بالسنتهم بين يديك ويضمرون خبائث الاعتقادا

عليك

موتا

عليك وان صدقوك في مودتهم اياك فلا يملكون لك ولا لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وقد يكون في بلدك من اغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والارض ثم غفلت عن النظر الى جلال المالك والملك وما مثلك ومثل غفلتك الا كمثل النملة تخرج من حجرها الذي حفرته في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الاركان مزين بالجواري والغلمان وانواع الذخائر والنفائس فانها اذا خرجت من حجرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لو قدرت على النطق الا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها فاما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها الى غيره كما غفلت النملة عن القصر وعن ارضه وسقفه وحيطانه وغفلت ايضا عن سكانه فانت ايضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته فلا تعرف من السماء الا ما تعرفه النملة من سقف بيتها ولا تعرف من ملائكة السموات الا ما تعرفه النملة منك ومن سكان بيتك نعم ليس للنملة طريق الى ان تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه واما انت فلك قدرة على ان تجول بفكرك في الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فانه مجال لا اخر له ولو استقصينا اعمارا طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله علينا بمعرفته وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالاضافة الى ما عرفه جملة العلماء والاولياء وما عرفوه قليل نزر بالاضافة الى ما عرفه الانبياء وجملة ما عرفوه قليل بالاضافة الى ما عرفه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وما عرفه الانبياء كلهم قليل بالاضافة الى ما عرفه الملائكة المقربون كاسرافيل وجبريل وغيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والانس اذا اضيفت الى علم الله سبحانه وتعالى لم تستحق ان تسمى علما بل هو الى ان يسمى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا اقرب فسبحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال وما اوتيتم من العلم الا قليلا فهذا بيان مجاري الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته اتم وهذا كما انك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبة غريبة

مالک جر

من تصنيفه او شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسبه له توقيرا وتعظيما واحتراما حتى ان كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من ابيات شعره يزيده محلا في قلبك ويستدعي التعظيم له في نفسك فهكذا تامل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتاليفه وكل ما في الوجود فمن خلق الله تعالى وتصنيفه والنظر فيه والفكر لا يتناهى ابدا وانما لكل عبد منها بقدر ما رزق فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضف الى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر فانا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو احسان الينا وانعام علينا وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث انه فعل الله فقط وكل ما نظرنا فيه فان الطبيعي ايضا ينظر فيه فيكون نظره سبب ضلالته وشقاوته والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرة في السماء والارض الا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء فمن نظر في هذه الامور من حيث انها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تاثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الاسباب فقد شقي وارتدى ونعوذ بالله من الضلال ونسال الله ان يجنبنا مزلة اقدام الجهال بمنه وفضله ٭ اخر كتاب التفكر ٭ ويتلوه ان شاء الله تعالى ٭

كتاب ذكر الموت ٭ وهو اخر كتب الاحيا ٭

والحمد لله وحده ٭ وصلى الله على سيدنا محمد

واله وصحبه وسلم ٭

٭ بسم الله الرحمن الرحيم ٭

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة ٭ وكسر به ظهور الاكاسرة ٭ وقصر به امال القياصرة ٭ الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ٭ حتى جاءهم الوعد الحق فارداهم في الحافرة ٭ فنقلوا من القصور الى القبور ٭ ومن ضياء المهود الى ظلمة اللحود ٭ ومن ملاعبة الجواري والغلمان ٭ الى مقاساة الهوام والديدان ٭ ومن التنعم بالطعام والشراب ٭ الى التمرغ في التراب ٭ ومن انس العشرة ٭ الى وحشة الوحدة ٭ ومن المضجع الوثير ٭ الى المصرع الوبيل ٭ فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ٭ او اتخذوا من دونه حجابا وحرزا ٭ وانظر هل تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزا ٭ فسبحان من تفرد بالقهر والاستيلاء ٭ واستاثر باستحقاق البقاء ٭ واذل اصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ٭ ثم جعل الموت مخلصا للاتقياء ٭ وموعدا في حقهم للقاء ٭ وجعل القبر سجنا للاشقياء ٭ وحبسا ضيقا عليهم الى يوم الفصل والقضاء ٭ فله الانعام بالنعم المتظاهرة ٭ وله الانتقام بالنقم القاهرة ٭ وله الشكر في السموات والارض ٭ وله الحمد في الاولى والاخرة ٭ والصلاة على سيدنا محمد ذي المعجزات الظاهرة ٭ والايات الباهرة ٭ وعلى اله واصحابه وسلم كثيرا اما بعد فجدير بمن الموت مصرعه ٭ والتراب مضجعه ٭ والدود انيسه ٭ ومنكر ونكير جليسه ٭ والقبر مقره ٭ وبطن الارض مستقره ٭ والقيامة موعده ٭ والجنة او النار مورده ٭ ان لا يكون له فكر الا في الموت ٭ ولا ذكر الا له ٭ ولا استعداد الا لاجله ٭ ولا تدبير الا فيه ٭ ولا تطلع الا اليه ٭ ولا تعريج الا عليه ٭ ولا اهتمام الا به ٭ ولا حوم الا حوله ٭ ولا انتظار وتربص الا له ٭ وحقيق بان يعد نفسه من الموتى ويراها في اصحاب القبور فان كل ما هو ات قريب والبعيد ما ليس باتي وقد قال صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ولن يتيسر الاستعداد للشيء الا عند تجدد ذكره على القلب ولا يتجدد ذكره الا عند التذكر بالاصغاء الى المذكرات له والنظر في المنبهات عليه ونحن نذكر من امر الموت ومقدماته ولواحقه واحوال الاخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بد للعبد من تذكاره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ليكون ذلك مستحثا على الاستعداد فقد قرب الرحيل فما بقي من العمر الا القليل والخلق غافلون اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين الشطر الاول في مقدماته وتوابعه الى نفخة الصور وفيه ثمانية ابواب الباب الاول في فضل ذكر الموت والترغيب فيه الباب الثاني في ذكر طول

الامل وقصره الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الاحوال عنده الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده الباب الخامس في كلام المحتضرين من الخلفاء والامراء والصالحين الباب السادس في اقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر الى نفخة الصور الباب الثامن فيما عرف من احوال الموتى بالمكاشفة في المنام

الباب الاول في ذكر الموت والترغيب في الاكثار من ذكره

اعلم ان المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره واذا ذكر به كرهه ونفر منه اولئك هم الذين قال الله تعالى فيهم قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ثم الناس اما منهمك واما تائب مبتدئ او عارف منتهي اما المنهمك فلا يذكر الموت وان ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا واما التائب فانه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة ان يختطفه قبل تمام التوبة وقبل اصلاح الزاد وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم من كره لقاء الله كره الله لقاءه فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وانما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارها للقائه وعلامته في هذا ان يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه والا التحق بالمنهمك في الدنيا واما العارف فانه يذكر الموت دائما لانه موعد لقائه لحبيبه والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا في غالب الامر يستبطئ مجيء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل الى جوار رب العالمين كما روي عن حذيفة رضي الله عنه انه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لا افلح من ندم اللهم ان كنت تعلم ان الفقر احب الي من الغنى والسقم احب الي من الصحة والموت احب الي من العيش فسهل علي الموت حتى القاك فاذن التائب معذور في كراهة الموت وهذا معذور في حب الموت وتمنيه واعلى منهما رتبة من فوض امره الى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة بل يكون احب الاشياء

المنهمك

اليه

اليه احبها الى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل فان المنهمك في الدنيا ايضا يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا اذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته وكل ما يكدر على الانسان اللذات والشهوات فهو من اسباب النجاة

بيان فضل ذكر الموت

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكثروا من ذكر هاذم اللذات معناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم اليها فتقبلوا على الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم لو تعلم البهائم من الموت ما تعلمون ما اكلتم منها سمينا وقالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء احد قال نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة وانما سبب هذه الفضيلة كلها ان ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة والغفلة عن الموت تدعو الى الانهماك في شهوات الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم تحفة المؤمن الموت وانما قال هذا لان الدنيا سجن المؤمن اذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه فالموت اطلاق له من هذا العذاب والاطلاق تحفة في حقه وقال صلى الله عليه وسلم الموت كفارة لكل مسلم واراد بهذا المسلم المؤمن حقا الذي سلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه اخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصي الا باللمم والصغائر فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر واقامته الفرائض وقال عطاء الخراساني مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات قالوا وما مكدر اللذات قال الموت وقال انس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكثروا من ذكر الموت فانه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم كفى بالموت مفرقا وقال صلى الله عليه وسلم كفى بالموت واعظا وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت اما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فاحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكر صاحبكم للموت قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال فان صاحبكم ليس هنالك وقال ابن عمر اتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الانصار من اكيس الناس واكرم الناس يا رسول الله فقال اكثرهم ذكرا للموت واشدهم استعدادا له اولئك هم الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة واما الآثار فقد قال الحسن فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحا وقال الربيع بن خثيم ما غائب ينتظره المؤمن خير له من الموت وكان يقول لا تشعروا بي احدا وسلوني الى ربي سلا وكتب بعض الحكماء الى رجل من اخوانه يا اخي احذر

الموت في هذه الدار قبل ان تصير الى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده وكان ابن سيرين اذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون حتى كأن بين ايديهم جنازة وقال ابراهيم التيمي شيئان قطعا عني لذاذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله تعالى وقال كعب من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها وقال مطرف رأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول في وسط مسجد البصرة قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم الا والهين وقال اشعث كنا ندخل على الحسن فانما هو النار وامر الآخرة وذكر الموت وقالت صفية ان امرأة اشتكت الى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت لها اكثري ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها وكان عيسى عليه السلام اذا ذكر عنده الموت يقطر جلده دما وكان داود عليه السلام اذا ذكر الموت والقيامة بكى حتى تنخلع اوصاله فاذا ذكر الرحمة رجعت اليه نفسه وقال الحسن ما رأيت عاقلا قط الا اصبته من الموت حذرا وعليه حزينا وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء عظني فقال انت اول خليفة تموت قال زدني قال ليس من آبائك احد الى آدم الا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك فبكى عمر لذلك وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبرا في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات حتى يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير ان هذا الموت قد نغص على اهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لا موت فيه وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة اكثر ذكر الموت فان كنت واسع العيش ضيقه عليك وان كنت ضيق العيش وسعه عليك وقال ابو سليمان الداراني قلت لام هارون اتحبين الموت قالت لا قلت لم قالت لو عصيت آدميا ما اشتهيت لقاءه فكيف وقد عصيته

بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب

اعلم ان الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه فالطريق فيه ان يفرغ العبد قلبه عن كل شيء الا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يريد ان يسافر الى مفازة مخطرة او يركب البحر فانه لا يتفكر الا فيه فاذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك ان يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه وانفع طريق فيه ان يكثر ذكر اشكاله واقرانه الذين مضوا

قبله

قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم واحوالهم ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت اجزاؤهم في قبورهم وكيف ارملوا نساءهم وايتموا اولادهم وضيعوا اموالهم وخلت منهم مجالسهم ومساجدهم وانقطعت آثارهم فمهما تذكر رجلا رجلا وفصل في قلبه حاله وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وامله للعيش ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الاسباب وركونه الى القوة والشباب وميله الى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع وانه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وكيف كان ينطق وقد اكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد اكل التراب اسنانه وانه كيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج اليه الى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت الا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء اما بالجنة او بالنار فعند ذلك ينظر في نفسه انه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم قال ابو الدرداء اذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم وقال ابن مسعود السعيد من وعظ بغيره وقال عمر بن عبد العزيز الا ترون انكم تجهزون كل يوم غاديا او رائحا الى الله عز وجل تضعونه في صدع من الارض قد توسد التراب وخلف الاحباب وقطع الاسباب فملازمة هذه الافكار وامثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه فعند ذلك يوشك ان يستعد له ويتجافى عن دار الغرور والا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي ان يتذكر في الحال انه لا بد من مفارقته ونظر ابن مطيع ذات يوم الى داره فاعجبه حسنها ثم بكى فقال والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير اليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا اعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته

الباب الثاني في طول الامل وفضيلة قصر الامل وسبب طوله وكيفية معالجته

بيان فضيلة قصر الامل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر اذا اصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء واذا امسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فانك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غدا وروى علي كرم الله وجهه انه صلى الله عليه وسلم قال ان اشد ما اخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الامل فاما اتباع الهوى فانه يصد عن الحق واما طول الامل فانه يورث حب الدنيا ثم قال الا ان الله يعطي الدنيا من يحب ويبغض واذا احب عبدا اعطاه الايمان الا ان

للدين ابناءً وللدنيا ابنا فكونوا من ابنا الدين ولا تكونوا من ابناء الدنيا الا ان الدنيا قد
ارتحلت موليه الا ان الاخرة قد ارتحلت مقبلة الا وانكم في يوم عمل ليس فيه حساب الا
وانكم توشكون ان تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل وقالت ام المنذر اطلع رسول الله
صلى الله عليه وسلم ذات عشية الى الناس فقال ايها الناس اما تستحيون من الله قالوا
وما ذاك يا رسول الله قال تجمعون ما لا تاكلون وتاملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون
وقال ابو سعيد الخدري اشترى اسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار
الى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الا تعجبون من اسامة المشتري الى
شهر ان اسامة لطويل الامل والذي نفسي بيدي ما طرفت عيناي الا ظننت ان شفري
لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي ولا رفعت طرفي فظننت اني واضعه حتى اقبض
ولا لقمت لقمة الا ظننت اني لا اسيغها حتى اغص بها من الموت ثم قال يا بني ادم
ان كنتم تعقلون فعدوا انفسكم من الموتى والذي نفسي بيده انما توعدون لات وما انتم
بمعجزين وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق
الما فيتمسح بالتراب فاقول له يا رسول الله ان الما منك قريب فيقول ما يدريني لعلي
لا ابلغه وروى انه صلى الله عليه وسلم اخذ ثلاثة اعواد فغرز عودا بين يديه
والاخر الى جنبه واما الثالث فابعده فقال هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله
اعلم قال هذا الانسان وهذا الاجل وذاك الامل يتعاطاه ابن ادم ويختلجه الاجل
دون الامل وقال عليه الصلاة والسلام مثل ابن ادم والى جنبه تسع وتسعون
منية ان اخطاته المنايا وقع في الهرم وقال ابن مسعود هذا المرء وهذه الحتوف
حوله شوارع اليه والهرم وراء الحتوف والامل وراء الهرم فهو يامل وهذه
الحتوف شوارع اليه فايها امر به اخذه فان اخطاته الحتوف قتله الهرم
وهو ينظر الى الامل وقال عبد الله بن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا
مربعا وخط وسطه خطا وخط خطوطا الى جنب الخط وخط خطا خارجا فقال
اتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله اعلم قال هذا الانسان للخط الذي في الوسط وهذا
الاجل محيط به وهذه الاعراض للخطوط التي حوله تنهشه ان اخطاه هذا نهشه
هذا وذاك الامل يعني الخط الخارج وقال انس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرم
ابن ادم ويبقى معه اثنان الحرص والامل وفي رواية ويشب معه اثنان الحرص
على المال والحرص على العمر وقال صلى الله عليه وسلم نجا اول هذه الامة باليقين
والزهد ويهلك اخر هذه الامة بالبخل والامل وقيل بينا عيسى عليه السلام
جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الارض فقال عيسى اللهم انزع منه الامل فوضع
الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى عليه السلام اللهم اردد اليه

الامل

الامل فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال بينما انا اعمل قالت لي نفسي الى متى تعمل
وانت شيخ كبير فالقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي والله لا بد لك من عيش
ما بقيت فقمت الى مسحاتي وقال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكلكم يحب ان يدخل الجنة
قالوا نعم يا رسول الله قال قصروا من الامل وثبتوا اجالكم بين ابصاركم واستحيوا من الله حق الحياء وكان
صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه اللهم اني اعوذ بك من دنيا تمنع خير الاخرة واعوذ بك من حياة تمنع
خير الاخرة الممات واعوذ بك من امل يمنع خير العمل الاثار قال مطرف بن عبد الله لو علمت متى اجلي
لخشيت على ذهاب عقلي ولكن الله من على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تهنوا
بعيش ولا قامت بينهم الاسواق وقال الحسن السهو والامل نعمتان عظيمتان على بني ادم ولولا
ما مشى المسلمون في الطرق وقال الثوري بلغني ان الانسان خلق احمق ولولا ذاك لما تهنى
العيش وقال سعيد بن عبد الرحمن انما عمرت الدنيا بقلة عقول اهلها وقال سلمان الفارسي
رضي الله عنه ثلاث اعجبتني حتى اضحكتني مؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس يغفل عنه
وضاحك ملء فيه ولا يدري اساخط رب العالمين عنه ام راض وثلاث احزنني حتى ابكتني
فراق الاحبة محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدي الله لا ادري الى الجنة يؤمر بي او الى
النار وقال بعضهم رايت زرارة بن ابي اوفى بعد موته في المنام فقلت اي الاعمال ابلغ عندكم
قال التوكل وقصر الامل وقال الثوري الزهد في الدنيا قصر الامل ليس باكل الغليظ ولا لبس العبا
وسال المفضل بن فضالة ربه عز وجل ان يرفع عنه الامل فذهب عنه شهوة الطعام والشراب
ثم دعا ربه فرد عليه الامل فرجع الى الطعام والشراب وقيل للحسن يا ابا سعيد الا تغسل
قميصك فقال الامر اعجل من ذلك وقال الحسن الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى
من ورائكم وقال بعضهم انا كرجل ماد عنقه والسيف عليه ينتظر متى يضرب عنقه
وقال داود الطائي لو املت ان اعيش شهرا لرايتني قد اتيت عظيما وكيف اومل
ذلك واري الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار وحكي انه جاء شقيق البلخي
الى استاذ له فقال له ابو هاشم الرماني وفي طرف كسائه شي مصرور فقال له استاذه
ايش هذا معك قال لوزات دفعها الي اخ لي وقال احب ان تفطر عليها فقال يا شقيق
وانت تحدث نفسك انك تبقى الى الليل لا كلمتك ابدا قال فاغلق في وجهي الباب ودخل وقال
عمر بن عبد العزيز في خطبته ان لكل سفر زادا لا محالة فتزودوا لسفركم من الدنيا الى الاخرة
التقوى وكونوا كمن عاين ما اعد الله له من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ولا يطولن
عليكم الامل فتقسوا قلوبكم وتنقادوا لعدوكم فانه والله ما بسط امل من لا يدري لعله
لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا وكم
رايت ورايتم من كان بالدنيا مغترا وانما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله وانما

يفرح من امن اهوال يوم القيمة واما من لا يداوي كلما الا اصابه جرح من ناحية اخرى
فكيف يفرح اعوذ بالله ان امركم بما لا انهى عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر عيبتي
وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغني والفقير والموازين فيه منصوبة لقد عنيتم بامر
لو عنيت به النجوم لانكدرت ولو عنيت به الجبال لذابت ولو عنيت به الارض لتشققت
اما تعلمون انه ليس بين الجنة والنار منزلة وانكم صائرون الى احدهما وكتب رجل الى
اخ له اما بعد فان الدنيا حلم والاخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في اضغاث
احلام والسلام وقال الحسن كان ادم عليه السلام قبل ان يخطئ امله خلف ظهره واجله
بين عينيه فلما اصاب الخطيئة حول فجعل امله بين عينيه واجله خلف ظهره
وقال عبد الله بن سميط سمعت ابي يقول ايها المغتر بطول صحته اما رايت ميتا قط
من غير سقم ايها المغتر بطول المهلة اما رايت ماخوذا قط من غير عدة انك لو فكرت
في طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك ابالصحة تغترون ام بطول العافية
تمرحون ام من الموت تامنون ام على ملك الموت تجترئون ان ملك الموت اذا جاء لا يمنعه
منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك اما علمت ان ساعة الموت ذات كرب وغصص
وندامة على التفريط ثم يقول رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت وقال ابو زكريا
التيمي بينا سليمن بن عبد الملك في المسجد الحرام اذ اتي بحجر منقور فطلب من يقراه
فاتي بوهب بن منبه فقراه فاذا فيه ابن ادم انك لو رايت قرب ما بقي من اجلك
لزهدت في طويل املك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك
وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك واسلمك اهلك وحشمك فعارقك الولد والقريب
ورفضك الوالد والنسيب فلا انت الى دنياك عائد ولا في حسناتك زائد فاعمل
ليوم القيمة قبل الحسرة والندامة فبكى سليمن بكاء شديدا وقال بعضهم رايت
كتابا من محمد بن يوسف الى عبد الرحمن بن يوسف سلام عليك فاني احمد الله اليك الذي
لا اله الا هو اما بعد فاني احذرك متحولك من دار مهلتك الى دار اقامتك وجزاء اعمالك فتصير
في قرار باطن الارض بعد ظاهرها فياتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك فان يكن الله
معك فلا باس ولا وحشة ولا فاقة وان يكن غير ذلك فاعاذني الله واياك من سوء
مصرع وضيق مضجع ثم تبلغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل
قضاء الخلائق وخلاء الارض من اهلها والسموات من سكانها فباحت الاسرار واسعرت
النار ووضعت الموازين وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله
رب العالمين فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم
فياليت شعري ما حالي وحالك يومئذ ففي هذا ما هدم اللذات واسلا عن الشهوات

الي م

صيحة

وقصر

وقصر من الامل وايقظ النائمين وحذر الغافلين اعاننا الله واياك على هذا الخطر العظيم
واوقع الدنيا والاخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين فانما نحن به وله والسلام
وخطب عمر بن عبد العزيز فحمد الله واثنى عليه وقال ايها الناس انكم لم تخلقوا عبثا
ولن تتركوا سدى وان لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم
فخاب وشقي غدا عبد اخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شي وجنته التي عرضها
السموات والارض وانما يكون الامان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وفانيا بباق
وشقوة بسعادة الا ترون انكم في اسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقون الا ترون
انكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا الى الله عز وجل قد قضى نحبه وانقطع امله
فتضعونه في بطن صدع من الارض غير موسد ولا ممهد قد خلع الاسباب وفارق
الاحباب وواجه الحساب وايم الله اني لاقول مقالتي هذه ولا اعلم عند احد منكم من
الذنوب اكثر مما اعلم من نفسي ولكنها سنن من الله عادلة امر فيها بطاعته ونهى فيها
عن معصيته واستغفر الله ووضع كمه على وجهه فبكى حتى بلت دموعه لحيته
وما عاد الى مجلسه حتى مات رحمه الله وقال القعقاع بن حكيم قد استعددت
للموت منذ ثلاثين سنة فلو اتاني ما احببت تاخير شي عن شي وقال الثوري
رايت شيخا في مسجد الكوفة يقول انا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة انتظر الموت
ان ينزل بي لو اتاني ما امرته بشي ولا نهيته عن شي ولا لي على احد شي ولا لاحد عندي
شي وقال عبد الله بن ثعلبة تضحك ولعل اكفانك قد خرجت من عند القصار وقال
ابو محمد الزاهد خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فانتبذ فقعد
ناحية وهي تدفن فجئت فقعدت قريبا منه فتكلم فقال من خاف الوعيد قصر عليه
البعيد ومن طال امله ضعف عمله وكل ما هو ات قريب واعلم يا اخي ان كل شي يشغلك
عن ربك فهو عليك مشوم واعلم ان اهل الدنيا جميعا من اهل القبور انما يندمون على ما
يخلفون ويفرحون بما يقدمون فما ندم عليه اهل القبور اهل الدنيا عليه يقتتلون
وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون وروي ان معروف الكرخي رحمه الله
اقام الصلاة قال محمد بن ابي توبة قال لي تقدم فقلت اني ان صليت بكم هذه الصلاة لم
اصل بكم غيرها فقال معروف وانت تحدث نفسك ان تصلي صلاة اخرى نعوذ بالله من
طول الامل فانه يمنع خير العمل وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته ان الدنيا
ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء وكتب على اهلها الظعن منها فكم
من عامر موثوق به عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن فاحسنوا
رحمكم الله منها الرحلة باحسن ما بحضرتكم من النقلة وتزودوا فان خير الزاد

التقوى انما الدنيا كفيء ظلال قلص فذهب بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير عين اذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه ان الدنيا لا تسر بقدر ما تضر انها تسر قليلا وتحزن طويلا وعن ابي بكر الصديق رضي الله عنه انه كان يقول في خطبته اين الوضاءة الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم اين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان اين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب قد تضعضع بهم الدهر فاصبحوا في ظلمات القبور الوحا الوحا ثم النجا النجا

بيان السبب في طول الامل وعلاجه

اعلم ان طول الامل له سببان احدهما الجهل والآخر حب الدنيا اما حب الدنيا فهو انه اذا انس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه عن الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه والانسان مشغوف بالاماني الباطلة فيمني نفسه ابدا بما يوافق مراده وانما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج اليه من اهل وولد ودار واصدقاء ودواب وسائر اسباب الدنيا فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قربه فان خطر له في بعض الاحوال امر الموت والحاجة الى الاستعداد له سوف ووعد نفسه وقال الايام بين يديك فالى ان تكبر ثم تتوب واذا كبر فيقول الى ان تصير شيخا فاذا صار شيخا قال الى ان تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة او ترجع من هذه السفرة او تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له او تفرغ عن قهر هذا العدو الذي يشمت بك فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض في شغل الا ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة اشغال اخر وهكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويفضي به شغل الى شغل بل الى اشغال الى ان تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته واكثر اهل النار صياحهم من سوف يقولون واحزناه من سوف والمسوف المسكين لا يدري ان الذي يدعوه الى التسويف اليوم هو معه غدا وانما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ويظن انه يتصور ان يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات فما يفرغ منها الا من اطرحها

فما قضى احد منها لبانته ... وما انتهى ارب الا الى ارب

واصل هذه الاماني كلها حب الدنيا والانس بها والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم احبب من احببت فانك مفارقه. واما الجهل فان الانسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس يتفكر المسكين ان مشايخ بلده لو عدوا لكانوا اقل من عشر رجال البلد وانما قلوا لان الموت في الشباب اكثر فالى ان يموت

شيخ

شيخ يموت الف صبي وشاب وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجاءة ولا يدري ان ذلك غير بعيد وان كان ذلك بعيدا فالمرض فجاءة غير بعيد وكل مرض فانما يقع فجاءة واذا مرض لم يكن الموت بعيدا ولو تفكر هذا الغافل وعلم ان الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع ومن ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له ولكن الجهل بهذه الامور وحب الدنيا دعواه الى طول الامل والى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو ابدا يظن ان الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه وهو ابدا يظن انه يشيع الجنائز ولا يقدر ان تشيع جنازته لان هذا قد تكرر عليه والفه وهو مشاهدة موت غيره فاما موت نفسه فلم يالفه ولا يتصور ان يالفه فانه لم يقع واذا وقع لم يقع دفعة اخرى بعد هذا فهو الاول وهو الآخر وسبيله ان يقيس نفسه بغيره ويعلم انه لا بد وان تحمل جنازته ويدفن في قبره ولعل اللبن الذي يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض واذا عرفت ان سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه اما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة واما حب الدنيا فالعلاج في اخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذي اعيا الاولين والآخرين علاجه ولا علاج له الا الايمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فان حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير فاذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف ان يلتفت الى الدنيا كلها وان اعطي ملك الارض من المشرق الى المغرب فكيف وليس لكل عبد من الدنيا الا قدر يسير مكدر منغص فكيف يفرح بها او يترسخ في القلب حبها مع الايمان بالآخرة فنسال الله تعالى ان يرينا الدنيا كما اراها الصالحين من عباده ولا علاج في تقرير الموت في القلب مثل النظر الى من مات من الاقران والاشكال وانهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا اما من كان مستعدا فقد فاز فوزا عظيما واما من كان مغرورا بطول الامل فقد خسر خسرانا مبينا ولينظر الانسان كل ساعة في اطرافه واعضائه وليتدبر كيف تاكلها الديدان لا محالة وكيف تتفتت عظامها وليتفكر في الدود يبدا ام بحدقته اليمنى اولا او باليسرى فما على بدنه شيء الا وهو طعمة الدود وماله من نفسه الا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سيورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر واهوال يوم القيامة وقرع النداء يوم العرض الاكبر فامثال هذه الافكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه الى الاستعداد له

بيان مراتب الناس في طول الامل وقصره

اعلم ان الخلق في ذلك يتفاوتون فمنهم من يامل البقاء ويشتهي ذلك ابدا قال الله تعالى يود احدهم لو يعمر الف سنة ومنهم من يامل البقاء الى الهرم وهو اقصى العمر الذي شاهده وراه وهو الذي يحب الدنيا حبا شديدا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وان التفت ترقوتاه من الكبر الا الذين اتقوا وقليل ما هم ومنهم من يامل الى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها ولا يقدر لنفسه وجودا في عام قابل ولكن هذا يستعد للصيف في الشتاء وللشتاء في الصيف واذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة ومنهم من يامل مدة الصيف او الشتاء فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع امله الى يوم وليلة فلا يستعد الا لنهاره واما الغد فلا قال عيسى عليه السلام لا تهتموا برزق غد فان يكن غد من آجالكم فسياتي فيه ارزاقكم مع آجالكم وان لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم ومنهم من لا يجاوز امله ساعة كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم لابن عمر يا عبد الله اذا اصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء واذا امسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ومنهم من لا يقدر البقاء ساعة ايضا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول لعلي لا ابلغه ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كانه واقع به فهو ينتظره وهذا الانسان هو الذي يصلي صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ رضي الله عنه لما ساله عن حقيقة ايمانه فقال ما خطوت خطوة الا ظننت اني لا اتبعها اخرى وكما نقل عن الاسود وهو حبشي انه كان يصلي ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل ما هذا قال انتظر ملك الموت من اي جهة ياتيني فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من امله مقصور على شهر كمن امله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله فان الله لا يظلم مثقال ذرة ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ثم يظهر اثر قصر الامل في المبادرة الى العمل وكل انسان يدعي انه قصير الامل وهو كاذب وانما يظهر ذلك باعماله فانه يعتني باسباب ربما لا يحتاج اليها في سنة فيدل ذلك على طول امله وانما علامة التوفيق ان يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة فيستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت فان عاش الى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بانه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ثم يستانف مثله الى الصباح وهكذا اذا اصبح ولا يتيسر هذا الا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا اذا مات سعد وغنم وان عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة والحياة له مزيد فليكن الموت

على

على بالك يا مسكين فان السير حاث بك وانت غافل عن نفسك ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك الا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس امهلت فيه

بيان المبادرة الى العمل وحذر آفة التاخير

اعلم ان من له اخوان غائبان ينتظر قدوم احدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر او سنة فلا يستعد للذي يقدم الى شهر او سنة وانما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسي ما وراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي مضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل ابدا فانه يرى لنفسه متسعا في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ما ينتظر احدكم من الدنيا الا غنى مطغيا او فقرا منسيا او مرضا مفسدا او هرما مفندا او موتا مجهزا او الدجال فالدجال شر غائب ينتظر او الساعة والساعة ادهى وامر وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك وقال صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ اي انه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وقال صلى الله عليه وسلم من خاف ادلج ومن ادلج بلغ المنزل الا ان سلعة الله غالية الا ان سلعة الله الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه وكان صلى الله عليه وسلم اذا آنس من اصحابه غفلة او غرة نادى فيهم بصوت رفيع اتتكم المنية راتبة لازمة اما بشقاوة واما بسعادة وقال ابو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا النذير والموت المغير والساعة الموعد وقال ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على اطراف السعف فقال ما بقي من الدنيا الا مثل ما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه وقال صلى الله عليه وسلم مثل الدنيا مثل ثوب شق من اوله الى آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط ان ينقطع وقال جابر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كانه منذر جيش يقول صبحتكم ومسيتكم بعثت انا والساعة كهاتين وقرن بين اصبعيه وقال ابن مسعود تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان النور اذا دخل الصدر انفسح فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف قال نعم التجافي عن دار الغرور

والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله قال السدي في قوله الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا اي ايكم اكثر للموت ذكرا واحسن له استعدادا واشد منه خوفا وحذرا وقال حذيفة ما من صباح ولا مساء الا ومناد ينادي يا ايها الناس الرحيل الرحيل وتصديق ذلك قوله تعالى انها لاحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم ان يتقدم او يتاخر في الموت وقال سحيم مولى بني تميم جلست الى عامر بن عبد الله وهو يصلي فاوجز في صلاته ثم اقبل علي فقال ارحني بحاجتك فاني ابادر قلت ما تبادر قال ملك الموت رحمك الله قال فقمت عنه وقام الى صلاته ● ومر داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال دعني انما ابادر خروج نفسي وقال عمر رضي الله عنه التؤدة في كل شيء خير الا في اعمال الاخرة وقال المنذر سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ويحك بادري قبل ان ياتيك الامر حتى كرر ذلك ستين مرة اسمعه ولا يراني وكان الحسن يقول في موعظته المبادرة المبادرة فانما هي الانفاس لو حبست لانقطعت عنكم اعمالكم التي تتقربون بها الى الله عز وجل رحم الله امرأ نظر لنفسه وبكى على ذنوبه ثم قرأ هذه الآية انما نعد لهم عدا يعني الانفاس آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق اهلك آخر العدد دخولك في قبرك ● واجتهد ابو موسى الاشعري رضي الله عنه قبل موته اجتهادا شديدا فقيل له لو امسكت او رفقت بنفسك بعض الرفق فقال ان الخيل اذا ارسلت فقاربت راس مجراها اخرجت جميع ما عندها والذي بقي من اجلي اقل من ذلك قال فلم يزل على ذلك حتى مات وكان يقول لامراته شدي رحلك فليس على جهنم معبر وقال بعض الخلفاء على منبره عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا واعلموا ان الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد اظلكم وترحلوا فقد جد بكم وان غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة وان غائبا يحدوه الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الاوبة وان قادما يحل بالفوز او الشقوة لمستحق لافضل العدة فرحم الله عبدا اتقى ربه ونصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فان اجله مستور عنه وامله خادع له والشيطان موكل به يمنيه التوبة ليسوفها ويزين له المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه اغفل ما يكون عنها وانه ما بين احدكم وبين الجنة والنار الا الموت ان ينزل به فيا لها حسرة على ذي غفلة ان يكون

عمره عليه حجة وان تؤديه ايامه الى شقوة جعلنا الله واياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة انه سميع الدعاء وانه بيده الخير دائما فعال لما يشاء ● وقال بعض المفسرين في قوله تعالى فتنتم انفسكم قال بالشهوات واللذات وتربصتم قال بالتوبة وارتبتم قال شككتم حتى جاء امر الله قال الموت وغركم بالله الغرور قال طول الامل وقال الحسن تصبروا وتشددوا فانما هي ايام قلائل وانما انتم ركب وقوف يوشك ان يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم وقال ابن مسعود ما منكم من احد اصبح الا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة وقال ابو عبيدة الناجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم واهلا وحياكم الله بالسلام واحلنا واياكم دار المقام هذه علانية حسنة ان صبرتم وصدقتم واتقيتم فلا يكن حظكم من هذا الخير رحمكم الله ان تسمعوه بهذه الاذن وتخرجوه من هذه الاذن فانه من راى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد راه غاديا ورائحا لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر اليه الوحا الوحا النجا النجا على ما تعرجون اتيتم ورب الكعبة كانكم والامر معا رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا واكل كسرة ولبس خلقا ولزق بالارض واجتهد في العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى ياتيه اجله وهو على ذلك ● وقال عاصم الاحول قال لي فضيل الرقاشي وانا سائل له يا هذا لا يشغلك كثرة الناس عن نفسك فان الامر يخلص اليك دونهم ولا تقل اذهب ها هنا وها هنا فينقطع عنك النهار في لا شيء فان الامر محفوظ عليك ولم تر شيئا احسن طلبا ولا اسرع ادراكا من حسنة حديثة لذنب قديم ●

الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الاحوال عنده

اعلم انه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديرا بان يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقا بان يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لا سيما وهو في كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك وقال لقمان لابنه يا بني امر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل ان يفجاك ● والعجب ان الانسان لو كان في اعظم اللذات واطيب مجالس اللهو فانتظر ان يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته

وفسد عليه عيشه وهو في كل نفس بصدد ان يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل فما لهذا سبب الا الجهل والغرور واعلم ان شدة الالم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة الا من ذاقها ومن لم يذقها فانما يعرفها اما بالقياس الى الالام التي ادركها واما بالاستدلال باحوال الناس في النزع على شدة ما هم فيه فاما القياس الذي يشهد له فهو ان كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالالم فاذا كان فيه الروح فالمدرك للالم هو الروح فمهما اصاب العضو جرح او حريق سرى الاثر الى الروح فبقدر ما يسري الى الروح يتالم والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الاجزاء فلا يصيب الروح الا بعض الاثر فان كان في الالام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما اعظم ذلك الالم وما اشده والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع اجزائه حتى لم يبق جزء من اجزاء الروح المنتشر في اعماق البدن الا وقد حل به الالم فلو اصابته شوكة فالالم الذي يجده انما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي اصابته الشوكة وانما يعظم اثر الاحتراق لان اجزاء النار تغوص في سائر اجزاء البدن ولا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا الا وتصيبه النار فتحسه الاجزاء الروحانية المنتشرة في سائر اجزاء اللحم واما الجراحة فانما تصيب الموضع الذي مسه الحديد فقط فكان لذلك الم الجرح دون الم النار فالم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع اجزائه فانه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الاعصاب وجزء من الاجزاء ومفصل من المفاصل ومن اصل كل شعرة وبشرة من الفرق الى القدم فلا تسال عن كربه والمه حتى قالوا ان الموت لاشد من ضرب بالسيف ونشر بالمنشار وقرض بالمقاريض لان قطع البدن بالسيف انما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف اذا كان المتناول المباشر نفس الروح وانما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه ولسانه وانما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة المه لان الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وغلب على كل موضع منه فهد كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة للاستغاثة اما العقل فقد غشيه وشوشه واما اللسان فقد ابكمه واما الاطراف فقد ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالانين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه واربد حتى كانه ظهر منه التراب

الذي هو اصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالالم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان الى اعالي اجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان الى اصله وترتفع الانثيان الى اعالي موضعهما وتخضر انامله فلا تسال عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان المه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح لا من عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من اعضائه تدريجا فتبرد اولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها الى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا واهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تقبل توبة العبد ما لم يغرغر وقال مجاهد في قوله تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال اني تبت الان قال اذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسال عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم هون على محمد سكرات الموت والناس انما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فان الاشياء قبل وقوعها انما تدرك بنور النبوة والولاية ولذلك عظم خوف الانبياء عليهم السلام والاولياء من الموت حتى قال عيسى يا معشر الحواريين ادعوا الله ان يهون علي هذه السكرة يعني الموت فقد خفت الموت مخافة اوقفني خوفي من الموت على الموت وروي ان نفرا من بني اسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض لو دعوتم الله تعالى ان يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسالونه فدعوا الله عز وجل فاذا هم برجل قد قام بين عينيه اثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال يا قوم ما اردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي وقالت عائشة رضي الله عنها لا اغبط احدا يهون عليه الموت بعد الذي رايت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروي انه عليه الصلاة والسلام كان يقول اللهم انك تاخذ الروح من بين العصب والقصب والانامل اللهم فاعني على الموت وهونه علي وعن الحسن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته والمه فقال هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدته فقال ان اهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف الا ومعها صوف ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال اني اعلم ما يلقى ما منه عرق الا ويالم للموت على حدته وكان علي رضي الله عنه يحض على القتال ويقول ان لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لالف ضربة بالسيف اهون من موت على فراش وقال

وقال الاوزاعي بلغنا ان الميت يجد الم الموت ما لم يبعث من قبره وقال شداد
ابن اوس الموت افظع هول في الدنيا والاخرة على المومن وهو اشد من نشر
بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلي في القدور ولو ان الميت نشر فاخبر اهل الدنيا
بالم الموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم • وعن زيد بن اسلم عن ابيه قال
اذا بقي على المومن من درجاته شي لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ
بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة واذا كان للكافر معروف لم يجز به
في الدنيا هون عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير الى النار وعن
بعضهم انه كان يسال كثيرا عن المرضى كيف يجدون الموت فلما مرض قيل له فانت
كيف تجده فقال كان السموات مطبقة على الارض وكان نفسي تخرج من ثقب
ابرة وقال صلى الله عليه وسلم موت الفجاة راحة للمومن واسف على الفاجر وروي
عن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لو ان شعرة من شعرات الميت وضعت
على اهل السموات والارض لماتوا باذن الله لان في كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشي
الا مات ويروى لو ان قطرة من الم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت
وروي ان ابرهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له كيف وجدت الموت يا خليلي
قال كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب فقال تعالى اما انا قد هونا عليك وروي
عن موسى عليه السلام انه لما صارت روحه الى الله تعالى قال له ربه يا موسى كيف وجدت
الموت قال وجدت نفسي كالعصفور حيث يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا
ينجوا فيطير وروي عنه انه قال وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان عنده قدح من ما عند الموت فجعل يدخل
يده في الما ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون على سكرات الموت وفاطمة رضي الله عنها
تقول واكرباه لكربك يا ابتاه وهو يقول لا كرب على ابيك بعد اليوم وقال عمر رضي الله عنه
لكعب الاحبار يا كعب حدثنا عن الموت فقال نعم يا امير المومنين الموت كغصن كثير الشوك
ادخل في جوف رجل واخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب فاخذ
ما اخذ وابقى ما ابقى وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعالج كرب الموت وسكرات
الموت وان مفاصله ليسلم بعضها على بعض يقول عليك السلام تفارقني وافارقك
الى يوم القيمة فهذه سكرات الموت على اوليا الله تعالى واحبابه فما حالنا ونحن
المنهمكون في المعاصي ويتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي فان
دواهي الموت ثلاث الاولى شدة النزع كما ذكرناه • الداهية
الثانية مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب

فلو

فلو راى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب اعظم الرجال قوة لم يطق
رويته فقد روي عن ابرهيم الخليل عليه السلام انه قال لملك الموت هل تستطيع
ان تريني صورتك التي تقبض فيها روح الفاجر قال لا تطيق ذلك قال بلى قال
فاعرض عني فاعرض عنه ثم التفت فاذا هو برجل اسود قائم الشعر منتن
الريح اسود الثياب يخرج من فيه ومن مناخره لهيب النار والدخان فغشي
على ابرهيم ثم افاق وقد عاد ملك الموت الى صورته الاولى فقال يا ملك الموت
لو لم يلق الفاجر عند موته الا صورة وجهك لكان حسبه وروى ابو هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم ان داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان اذا خرج
غلق الابواب فاغلق ذات يوم بابه وخرج فاشرفت امراته فاذا هي برجل في
الدار فقالت من ادخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عنتا فجاء داود
فراه فقال من انت فقال انا الذي لا اهاب الملوك ولا يمتنع مني الحجاب فقال انت
والله اذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه • وروي ان عيسى عليه السلام
مر بجمجمة فضربها برجله فقال تكلمي باذن الله فقالت يا روح الله انا ملك
زمان كذا وكذا بينا انا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودي وحشمي على
سرير ملكي اذ بدا الي ملك الموت فزال مني كل عضو على حياله ثم
خرجت نفسي اليه فيا ليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة ويا ليت ما كان من ذلك ما كان
الانس كان وحشة فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون
فقد حكى الانبيا عليهم السلام مجرد سكرة النزع دون الروعة التي يدركها
من يشاهد صورة ملك الموت لذلك ولو راها في منامه ليلة لتنغص عليه
بقية عمره فكيف برويته في مثل تلك الحال واما المطيع فانه يراه في احسن صورة
واجملها فقد روى عكرمة عن ابن عباس عن ابرهيم عليه السلام انه كان رجلا
غيورا وكان له بيت يتعبد فيه فاذا خرج اغلقه فرجع ذات يوم فاذا رجل
في جوف البيت فقال من ادخلك داري فقال ادخلنيها ربها فقال انا ربها
فقال ادخلنيها من هو املك بها مني ومنك فقال فمن انت من الملايكة قال انا
ملك الموت قال هل تستطيع ان تريني الصورة التي تقبض فيها روح المومن قال نعم
فاعرض عني فاعرض عنه ثم التفت فاذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه
وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال يا ملك الموت لو لم يلق المومن عند الموت الا
صورتك لكان حسبه • ومنها مشاهدة الملكين الحافظين قال وهيب
بلغنا انه ما من ميت يموت حتى يترايا له ملكاه الكاتبان عمله فان كان مطيعا

قالا له جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق اجلستنا وعمل صالح احضرتنا وان
كان فاجرا قالا له لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سو اجلستنا وعمل غير صالح قد
احضرتنا وكلام قبيح قد اسمعتنا فلا جزاك الله عنا خيرا فذلك شخوص بصر الميت
اليهما ولا يرجع الى الدنيا ابدا • الثالثة مشاهدة العصاة مواضعهم في
النار وخوفهم قبل المشاهدة فانهم في حال السكرات وقد تخاذلت قواهم واستسلمت
للخروج ارواحهم ولن تخرج ارواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت باحد البشريين
اما ابشر يا عدو الله بالنار او ابشر يا ولي الله بالجنة ومن هذا كان خوف ارباب الالباب
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم من احب لقا الله احب الله لقاه ومن كره لقا الله كره الله لقاه
فقالوا كلنا نكره الموت قال ليس ذلك بذلك ان المومن اذا فرج له عما هو قادم عليه احب
لقا الله واحب الله لقاه وروي ان حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من اخر الليل
قم فانظر اي ساعة هي فقام ابن مسعود ثم جا فقال قد طلعت الحمرا فقال حذيفة اعوذ بالله
من صباح الى النار ودخل مروان على ابي هريرة فقال مروان اللهم خفف عنه فقال ابو
هريرة اللهم شدد ثم بكى ابو هريرة وقال والله ما ابكي حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم لكن انتظر
احدى البشريين من ربي بجنة ام بنار وروي في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله
اذا رضي عن عبد قال يا ملك الموت اذهب الى فلان فاتني بروحه لاريحه حسبي من عمله
قد بلوته فوجدته حيث احب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملايكة معهم
قضبان الريحان واصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه
وتقوم الملايكة صفين لخروج روحه معهم الريحان فاذا نظر اليهم ابليس وضع يده
على راسه ثم صرخ فيقول له جنوده ما لك يا سيدنا فيقول اما ترون ما اعطي هذا العبد
من الكرامة اين كنتم عن هذا قالوا جهدنا فكان معصوما وقال الحسن لا راحة للمومن
الا في لقا الله ومن كانت راحته في لقا الله فيوم الموت يوم سروره وفرحه وامنه
وعزه وشرفه وقيل لجابر بن زيد عند الموت ما تشتهي قال نظرة الى الحسن فلما دخل
عليه الحسن قيل له هذا الحسن فرفع طرفه اليه وقال يا اخوتاه الساعة والله افارقكم
الى النار او الى الجنة وقال محمد بن واسع عند الموت يا اخوتاه عليكم السلام الى النار او يعفو الله
عني • وتمنى بعضهم ان يبقى في النزع ابدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب • فخوف سوء
الخاتمة قطع قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء
الخاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجا وهو لايق بهذا الموضع ولكنا
لا نطول بذكره واعادته • بيان ما يستحب من احوال المحتضر
عند الموت اعلم ان المحبوب عند الموت من صورة المحتضر ان يكون الهدو والسكون

ومن

ومن لسانه ان يكون ناطقا بالشهادة ومن قلبه ان يكون حسن الظن بالله تعالى
اما الصورة فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ارقبوا الميت عند ثلاث
اذا رشح جبينه وذرفت عيناه ويبست شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به
واذا غط غطيط المخنوق واحمر لونه وازبدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل
به واما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير قال ابو سعيد الخدري قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لقنوا موتاكم لا اله الا الله وفي رواية حذيفة فانها تهدم ما قبلها من
الخطايا وقال عثمن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات وهو يعلم ان لا اله الا الله دخل
الجنة وقال عبيد الله وهو يشهد وقال عثمن رضي الله عنه اذا احتضر الميت فلقنوه لا اله الا
الله فانه ما من عبد يختم له بها عند الموت الا كانت زاده الى الجنة وقال عمر رضي الله عنه احضروا
موتاكم وذكروهم فانهم يرون ما لا ترون ولقنوهم لا اله الا الله وقال ابو هريرة سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيا ففك لحييه فوجد
طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول لا اله الا الله فغفر له بكلمة الاخلاص • وينبغي للملقن
ان لا يلح في التلقين ولكن يتلطف فربما لا ينطلق لسان المريض فيشق عليه ذلك
ويودي الى استثقاله التلقين وكراهيته الكلمة ويخشى ان يكون ذلك سبب سوء
الخاتمة وانما معنى هذه الكلمة ان يموت الرجل وليس في قلبه غير الله فاذا لم يبق له مطلوب
سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه وان كان القلب
مشغوفا بالدنيا ملتفتا اليها متاسفا على لذاتها وكانت الكلمة على راس اللسان
ولم ينطبق القلب على تحقيقها وقع الامر في خطر المشية فان مجرد حركة اللسان
قليل الجدوى الا ان يتفضل الله تعالى بالقبول • واما حسن الظن فهو مستحب
في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجا وقد وردت الاخبار بفضل حسن
الظن ودخل واثلة بن الاسقع رضي الله عنه على مريض فقال اخبرني كيف ظنك
بالله قال اغرقتني ذنوب لي واشفيت على هلكة ولكني ارجو رحمة ربي فكبر
واثلة وكبر اهل البيت بتكبيره وقال الله اكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول قال الله تعالى انا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شا • ودخل النبي صلى الله عليه وسلم
على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك قال ارجو الله واخاف ذنوبي فقال صلى الله
عليه وسلم ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن الا اعطاه الله الذي يرجوا
وامنه من الذي يخاف وقال ثابت البناني كان شاب به حدة وكان له ام
تعظه كثيرا فتقول له يا بني ان لك يوما فاذكر يومك فلما نزل به امر الله اكبت
عليه امه فجعلت تقول له يا بني قد كنت احذرك مصرعك هذا واقول ان لك يوما

فقال يا امة ان لي ربا كثير المعروف واني لارجوا ان لا يعدمني اليوم بعض معروفه
قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه وقال جابر بن وداعة كان شاب به
رهق فاحتضر فقالت له امه يا بني توصي بشيء قال نعم خاتمي لا تسلبينيه فان
فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني فلما دفن رئي في المنام فقال اخبروا امي
ان الكلمة قد نفعتني وان الله قد غفر لي • ومرض اعرابي فقيل له انك تموت
فقال اين يذهب بي قالوا الى الله قال فما كراهتي ان اذهب الى من لا يرى
الخير الا منه • وقال المعتمر بن سليمن قال ابي حين حضرته الوفاة يا بني حدثني
بالرخص لعلي القى الله تعالى وانا حسن الظن به • وكانوا يستحبون ان
يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه • بيان
الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات تعرب بلسان الحال عنها قال الاشعث
بن اسلم سال ابرهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرايل وله عينان عين
في وجهه وعين في قفاه فقال يا ملك الموت ما تصنع اذا كان نفس بالمشرق ونفس
بالمغرب ووقع الوبا بارض والتقى الزحفان قال ادعوا الارواح باذن الله فتكون بين
اصبعي هاتين قال ودحيت له الارض فتركت مثل الطست بين يديه يتناول منها
حيث يشا قال وهو بشره بانه خليل الله وقال سليمن بن داود عليهما السلام
لملك الموت عليه السلام ما لي لا اراك تعدل بين الناس تاخذ هذا وتدع هذا قال
ما انا بذلك باعلم منك انما هي صحف او كتب تلقى الي فيها اسما وقال وهب بن منبه
رحمه الله كان ملك من الملوك اراد ان يركب الى ارض فدعا بثياب ليلبسها فلم
تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما اعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فاتي بها
فلم تعجبه حتى اتي بدواب فركب احسنها فجاء ابليس فنفخ في منخره فملاه كبرا
ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر الى الناس كبرا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم
فلم يرد عليه السلام فاخذ بلجام دابته فقال ارسل اللجام فقد تعاطيت امرا عظيما
قال ان لي اليك حاجة قال اصبر حتى انزل قال لا الآن فقهره على لجام دابته فقال
اذكرها فقال هو سر فادنى اليه راسه فساره وقال انا ملك الموت فتغير لون
الملك واضطرب لسانه وقال دعني حتى ارجع الى اهلي واقضي حاجتي واودعهم قال لا
والله لا ترى اهلك وثقلك ابدا فقبض روحه فخر كانه خشبة ثم مضى فلقي عبدا
مؤمنا في تلك الحال فسلم عليه فرد السلام وقال ان لي اليك حاجة اذكرها في اذنك فقال
هات

٢٣٦

هات فساره وقال انا ملك الموت فقال مرحبا واهلا بمن طالت غيبته علي فوالله
ما كان في الارض غايب احب الي ان القاه منك فقال ملك الموت اقض حاجتك
التي خرجت لها فقال ما لي حاجة اكبر عندي ولا احب من لقاء الله تعالى قال فاختر
على اي حال شئت ان اقبض روحك فقال تقدر على ذلك قال نعم اني امرت بذلك
قال فدعني حتى اتوضا واصلي فاقبض روحي وانا ساجد فقبض روحه
وهو ساجد وقال ابو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني اسرايل مالا فلما اشرف على
الموت قال لبنيه اروني اصناف اموالي فاتي بشيء كثير من الخيل والابل والرقيق
وغيره فلما نظر اليه بكى تحسرا عليه فراه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك فوالذي
خولك ما خولك ما انا بخارج من منزلك حتى افرق بينك وبين روحك قال فالمهلة حتى افرقه قال هيهات انقطعت عنك المهلة فهلا كان ذلك قبل
حضور اجلك فقبض روحه • ويروى ان رجلا جمع مالا فاوعى ولم يدع
صنفا من المال الا اتخذه وابتنى قصرا وجعل عليه بابين وثيقين وجعل عليه
حرسا من غلمانه ثم جمع اهله وصنع لهم طعاما وقعد على سريره ورفع
احدى رجليه على الاخرى وهم ياكلون فلما فرغوا قال يا نفس انعمي بسنين
قد جمعت لك ما يكفيك فلم يفرغ من كلامه حتى اقبل اليه ملك الموت في هيئة
رجل عليه خلقان من الثياب في عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين فقرع الباب
بشدة عظيمة قرعا افزعه وهو على فراشه فوثب اليه الغلمة وقالوا ما
شانك قال ادعوا الي مولاكم قالوا والى مثلك يخرج مولانا قال نعم فاخبروه بذلك
فقال هلا فعلتم به وفعلتم فقرع الباب قرعة اشد من الاولى فوثب اليه
الحرس فقال اخبروه اني ملك الموت فلما سمعوه القي عليهم الرعب ووقع على
مولاهم الذل والتخشع فقال قولوا له قولا لينا وقولوا له هل تاخذ به احدا
فدخل عليه وقال اصنع في مالك ما انت صانع فلست بخارج منها حتى اخرج
نفسك فامر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين راه لعنك الله من مال انت
شغلتني عن عبادة ربي ومنعتني ان اتخلى لربي فانطق الله المال فقال لم تسبني
وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد المتقون عن بابك وكنت تنكح
المتنعمات بي وتجلس مجالس الملوك بي وترد المتقين وتنفقني في سبيل
الشر فلا امتنع منك ولو انفقتني في سبيل الخير نفعتك وخلقت وابن ادم
من تراب فمنطلق ببر ومنطلق باثم ثم قبض ملك الموت روحه فسقط
وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الارض مثله

ثم عرج الى السما فقالت الملايكة لمن كنت اشد رحمة ممن قبضت روحه قال
امرت بقبض نفس امراة في فلاة من الارض فاتيتها وقد ولدت مولودا فاني
رحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لا متعهد به فقالت الملايكة
الجبار الذي قبضت الان روحه هو ذلك المولود الذي رحمته فقال ملك الموت
سبحان اللطيف لما يشا • وقال عطا بن يسار اذا كان ليلة النصف من شعبان
دفع الى ملك الموت صحيفة فقال اقبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال
فان العبد ليغرس الغراس وينكح الازواج ويبني البنيان وان اسمه في تلك الصحيفة
وهو لا يدري • وقال الحسن ما من يوم الا وملك الموت يتصفح كل بيت
ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى اجله قبض روحه فاذا
قبض روحه اقبل اهله برنة وبكاء فياخذ ملك الموت بعضادتي الباب فيقول
والله ما اكلت له رزقا ولا افنيت له عمرا ولا انقصت له اجلا وان لي فيكم لعودة
ثم عودة ثم عودة حتى لا ابقي منكم احدا قال الحسن فوالله لو يرون مقامه ويسمعون
كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على انفسهم • وقال يزيد الرقاشي بينا جبار
من الجبابرة من بني اسرايل جالس في منزله قد خلا ببعض اهله اذ نظر الى
شخص قد دخل من باب بيته فثار اليه فزعا مغضبا فقال من انت ومن
ادخلك على داري فقال اما الذي ادخلني الدار فربها واما انا فالذي لا يمنع مني
الحجاب ولا استاذن على الملوك ولا اخاف صولة المتسلطين ولا يمتنع مني كل
جبار عنيد ولا شيطان مريد قال فاسقط في يدي الجبار وارعد حتى سقط
منكبا لوجهه ثم رفع اليه راسه مستخذيا متذللا له فقال له انت اذن
ملك الموت قال انا هو قال فهل انت ممهلي حتى احدث عهدا قال هيهات انقطعت
مدتك وانقضت انفاسك ونفدت ساعاتك فليس الى تاخيرك سبيل قال الى اين
تذهب بي قال الى عملك الذي قدمته والى بيتك الذي مهدته قال فاني لم اقدم
عملا صالحا ولم امهد بيتا حسنا قال فالى لظى نزاعة للشوى ثم قبض روحه فسقط
بين اهله فمن بين صارخ وباك قال يزيد الرقاشي لو تعلمون سوء المنقلب كان
العويل على ذلك اكثر • وعن الاعمش عن خيثمة قال دخل ملك الموت على سليمن بن
داود فجعل ينظر الى رجل من جلسايه يديم النظر اليه فلما خرج قال الرجل لسليمن
عليه السلام من هذا قال ملك الموت قال لقد رايته ينظر الي كانه يريدني قال فما
ذا تريد قال اريد ان تخلصني منه فتامر الريح ان تحملني الى اقصى الهند ففعلت
الريح ثم قال سليمن لملك الموت بعد ان اتاه ثانيا رايتك تديم النظر الى واحد من
جلساي

٢٣٧

جلساي قال نعم كنت اتعجب منه لاني كنت امرت ان اقبضه باقصى الهند في ساعة
قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك •

الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

اعلم ان في رسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة حسنة حيا وميتا وفعلا وقولا
وجميع احواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين اذ لم يكن احد اكرم على الله
عز وجل منه اذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل امهله
ساعة عند انقضا مدته وهل اخره لحظة بعد حضور منيته لا بل ارسل اليه الملايكة الكرام
الموكلين بقبض ارواح الانام فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها وعالجوها ليرحلوها
عن جسده الطاهر الى رحمة ورضوان وخيرات حسان بل الى مقعد صدق في جوار
الرحمن فاشتد مع ذلك في النزع كربه وظهر انينه وترادف قلقه وارتفع حنينه وتغير لونه
وعرق جبينه واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه حتى بكى لمصرعه من
حضره وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره فهل رايت منصب النبوة دافعا عنه
مقدورا او هل راقب الملك فيه اهلا وعشيرا او هل سامحه اذ كان للحق نصيرا وللخلق
بشيرا ونذيرا هيهات بل امتثل ما كان به مامورا واتبع ما وجده في اللوح مسطورا فهذا كان
حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود والحوض المورود وهو اول من تنشق عنه الارض وهو
صاحب الشفاعة يوم العرض والعجب انا لا نعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن اسرا الشهوات
وقرنا المعاصي والسيات فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وامام المتقين وحبيب رب العالمين
لعلنا نظن انا مخلدون او نتوهم انا مع سو افعالنا عند الله مكرمون هيهات هيهات
بل نتيقن انا جميعا على النار واردون ثم لا ينجو منها الا المتقون فنحن للورود مستيقنون
وللصدر عنها متوهمون لا بل ظلمنا انفسنا ان كنا كذلك بغالب الظن منتظرين فما نحن والله
المتقين وقد قال الله تعالى رب العالمين وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين
اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا فلينظر كل عبد الى نفسه انه الى الظالمين اقرب ام الى المتقين
انظر الى نفسك بعد ان تنظر الى سيرة السلف الصالحين فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخايفين
ثم انظر الى سيد المرسلين فانه كان من امره على يقين اذ كان سيد النبيين وقايد المتقين
واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد امره عند الانقلاب الى جنة الماوى
قال ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت امنا عايشة رضي الله عنها حين دنا
الفراق فنظر الينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال مرحبا بكم حياكم الله اواكم الله
نصركم الله اوصيكم بتقوى الله واوصي الله بكم اني لكم منه نذير مبين ان لا تعلوا على الله في عباده
وبلاده وقد دنا الاجل والمنقلب الى الله والى سدرة المنتهى والى جنة الماوى والكاس

الاوفى فاقرؤا على انفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي مني السلام ورحمه وروى انه صلى الله عليه وسلم
قال لجبريل عند موته من لامتي بعدي فاوحى الله تعالى الى جبريل ان بشر حبيبي اني لا اخذله
في امته وبشره انه اسرع الناس خروجا من الارض اذا بعثوا وسيدهم اذا جمعوا
وان الجنة محرمة على الامم حتى تدخلها امته فقال الآن قرت عيني وقالت عايشة رضي الله عنها
امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نغسله بسبع قرب من سبع ابار ففعلنا ذلك فوجد راحة
فخرج فصلى بالناس واستغفر لاهل احد ودعى لهم واوصى بالانصار فقال اما بعد يا معاشر
المهاجرين فانكم تزيدون واصبحت الانصار لا تزيد على هيئتها التي هي عليها اليوم فان الانصار
عيبتي التي اويت اليها فاكرموا كريمهم يعني محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ثم قال ان عبدا خير
بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكا ابو بكر رضي الله عنه وظن انه يريد نفسه
فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا ابا بكر سدوا هذه الابواب الشوارع في المسجد الا باب
ابي بكر فاني لا اعلم امرءا افضل عندي في الصحبة من ابي بكر قالت عايشة رضي الله عنها
قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين
ريقي وريقه عند الموت فدخل علي اخي عبد الرحمن وبيده سواك فجعل ينظر اليه فعرفت
انه يعجبه ذلك فقلت آخذه لك فاومى براسه اي نعم فلينته بريقي وكان بين يديه
ركوة ماء فجعل يدخل يده فيها ويقول لا اله الا الله ان للموت لسكرات ثم نصب يده
يقول الرفيق الاعلى الرفيق الاعلى فقلت اذن والله لا يختارنا وروى سعيد بن عبد الله
عن ابيه قال لما رات الانصار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا طافوا بالمسجد
فدخل العباس رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فاعلمه بمكانهم واشفاقهم ثم دخل عليه
الفضل فاعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه علي كرم الله وجهه فمد يده وقال ها فتناولوه
فقال ما يقولون قالوا يقولون نخشى ان يموت وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم الى
النبي صلى الله عليه وسلم فثار رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج متوكيا على علي والفضل والعباس
امامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الراس يخط برجليه حتى جلس على اسفل مرقاة
من المنبر وثاب الناس اليه فحمد الله واثنى عليه وقال ايها الناس انه بلغني انكم تخافون
علي الموت كانه استنكار منكم للموت وما تنكرون من موت نبيكم الم انع لكم وتنعى اليكم
انفسكم هل خلد نبي قبلي فيمن بعث فاخلد فيكم الا اني لاحق بربي وانكم لاحقون به واني
اوصيكم بالمهاجرين الاولين خيرا واوصي المهاجرين فيما بينهم فان الله عز وجل قال والعصر
ان الانسان لفي خسر الا الذين امنوا وعملوا الصالحات الى اخرها وان الامور تجري باذن الله
فلا يحملنكم استبطاء امر على استعجاله فان الله عز وجل لا يعجل لعجلة احد ومن غالب الله غلبه
ومن خادع الله خدعه فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا ارحامكم

واوصيكم

واوصيكم بالانصار خيرا فانهم الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلكم ان تحسنوا اليهم الم يشاطروكم
الثمار الم يوسعوا عليكم في الديار الم يوثروكم على انفسهم وبهم الخصاصة الا فمن ولي
ان يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم الا ولا تستاثروا عليهم
الا واني فرط لكم وانتم لاحقون بي الا وان موعدكم الحوض حوضي اعرض ما بين بصرى الى
الشام وصنعاء اليمن يصب فيه ميزاب الكوثر اشد بياضا من اللبن والين من الزبد
واحلى من الشهد من شرب منه لم يظما بعده ابدا حصباه اللولو وبطحاه من مسك
من حرمه في الموقف غدا حرم الخير كله الا فمن احب ان يرده علي غدا فليكفف لسانه
ويده الا فيما ينبغي وقال العباس رضي الله عنه يا نبي الله اوص بقريش فقال انما اوصي بهذا
الامر قريشا والناس تبع لقريش برهم لبرهم وفاجرهم لفاجرهم فاستوصوا آل
قريش بالناس خيرا يا ايها الناس الذنوب تغير النعم وتبدل القسم فاذا بر الناس برهم
ايمتهم واذا فجر الناس عقوهم قال الله عز وجل وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا
يكسبون وروى ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لابي بكر سلني يا ابا بكر فقال يا رسول الله
دنا الاجل فقال قد دنا الاجل وتدلى فقال ليهنك يا نبي الله ما عند الله فليت شعري
عن منقلبنا فقال الى الله والى سدرة المنتهى والى جنة الماوى والعرش الاعلى والكاس الاوفى
والرفيق الاعلى والحظ والعيش المهنا فقال يا نبي الله من يلي غسلك فقال رجال من اهل
بيتي الادنى فالادنى قال ففيم نكفنك فقال في ثيابي هذه او في حلة يمنية او في بياض مصر
فقال كيف الصلاة عليك منا وبكينا وبكى ثم قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا
اذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري
ثم اخرجوا عني ساعة فان اول من يصلي علي الله عز وجل هو الذي يصلي عليكم وملائكته ثم يأذن
للملائكة في الصلاة علي فاول من يدخل علي من خلق الله ويصلي علي جبريل ثم ميكائيل
ثم اسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ثم الملائكة باجمعها صلى الله عليهم اجمعين ثم انتم
فادخلوا علي افواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ولا تؤذوني بتزكية ولا صيحة ولا رنة
وليبدا منكم الامام واهل بيتي الادنى فالادنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم قوموا فادوا
عني الى من بعدي وقال عبد الله بن زمعة جاء بلال في اول شهر ربيع الاول فاذنه بالصلاة
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مروا ابا بكر يصلي بالناس فخرجت فلم ار بحضرة الباب الا عمر
في رجال ليس فيهم ابو بكر فقلت قم يا عمر فصل بالناس فقام عمر فلما كبر وكان رجلا
صيتا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال اين ابو بكر يابى الله ذلك والمسلمون قالها
ثلاث مرات مروا ابا بكر فليصل بالناس فقالت عايشة يا رسول الله ان ابا بكر رجل رقيق
اذا قام في مقامك غلبه البكا فقال انكن صواحبات يوسف مروا ابا بكر فليصل بالناس
قال فصلى ابو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر وكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك ويحك

ماذا صنعت بي والله لولا اني ظننت ان رسول الله امرك ما فعلت فيقول عبد الله اني
لم ار احدا اولى بذلك منك قالت عايشة وما قلت ذلك ولا صرفته عن ابي بكر
الا رغبة به عن الدنيا ولما في الولاية من المخاطرة والهلكة الا ما سلم الله وخشيت
ايضا ان لا يكون الناس يحبون رجلا صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حي ابدا
الا ان شاء الله ويحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فاذا الامر امر الله والقضاء
قضاؤه وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من امر الدنيا والدين وقالت عايشة
رضي الله عنها فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم راوا منه خفة
في اول النهار فتفرق عنه الرجال الى منازلهم وحوائجهم مستبشرين واخلوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم بالنساء فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح
قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجن عني هذا الملك يستاذن علي فخرج
من في البيت غيري وراسه في حجري فجلس وتنحيت في ناحية البيت فقلت
ما هذا الحس جبريل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجل يا عايشة هذا ملك الموت
جاني فقال ان الله عز وجل ارسلني وامرني ان لا ادخل عليك الا باذن فان لم تاذن لي
رجعت وان اذنت لي دخلت وامرني ان لا اقبضك حتى تامرني فما ذا امرك فقلت
اكفف عني حتى ياتيني جبريل فهذه ساعة جبريل قالت عايشة فاستقبلنا بامر لم يكن
لنا عندنا جواب ولا راي فوجمنا وكانما ضربنا بصاخة ما نحير اليه شيا وما يتكلم
احد من اهل البيت اعظاما لذلك الامر وهيبة ملات اجوافنا قالت وجا جبريل
في ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج اهل البيت فدخل فقال ان الله عز وجل يقرا
عليك السلام ويقول لك كيف تجدك وهو اعلم بالذي تجد منك ولكن اراد ان يزيدك كرامة
وشرفا وان يتم كرامتك وشرفك على الخلق وان يكون سنة في امتك فقال اجدني وجعا
قال ابشر فان الله اراد ان يبلغك ما اعد لك فقال يا جبريل ان ملك الموت استاذن علي
واخبره الخبر فقال جبريل يا محمد ان ربك اليك مشتاق الم اعلمك الذي يريد بك لا والله
ما استاذن ملك الموت على احد قط ولا يستاذن عليه ابدا الا ان ربك متم
شرفك وهو اليك مشتاق قال فلا تبرح اذن حتى يجيء واذن للنساء فقال اذني
يا فاطمة فاكبت عليه فناجاها فرفعت راسها وعيناها تدمع ما تطيق الكلام
وكان الذي راينا منها عجبا فسالناها بعد ذلك فقالت اخبرني وقال اني ميت اليوم فبكيت
ثم قال اني دعوت الله ان يلحقك بي في اول اهلي وان يجعلك معي فاضحكني واذنت
ابنيها منه فشمهما قالت وجا ملك الموت فسلم واستاذن فاذن له فقال الملك يا احمد
يا محمد قال الحقني بربي الآن فقال بلى من يومك هذا الا ان ربك اليك مشتاق ولم يتردد
عن احد ترددة عنك ولم ينهني عن الدخول على احد الا باذن غيرك ولكن ساعتك امامك

وخرج

وخرج قالت وخرج جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا اخر ما انزل فيه الى الارض
ابدا طوي الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الارض حاجة غيرك وما لي فيها حاجة
الا حضورك ثم لزوم موقفي ولا والذي بعث محمدا بالحق ما في البيت احد يستطيع
ان يحير اليه في ذلك كلمة ولا يبعث الى احد من رجاله لعظم ما يسمع من حسه ووجدنا
واشفاقنا قالت فقمت الى النبي صلى الله عليه وسلم حتى اضع راسه بين ثديي وامسكت
بصدره وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحا ما رايته من انسان قط
فجعلت اسلت ذلك العرق وما وجدت رائحة شي قط اطيب منه فكنت اقول
له اذا افاق بابي وامي واهلي ونفسي ما تلقى جبهتك من الرشح فقال يا عايشة ان
نفس المومن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدقه كنفس الحمار فعند ذلك
ارتعنا وبعثنا الى اهلينا فكان اول رجل جانا ولم يشهده اخي بعثه الي ابي فمات
رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان يجيني احد وانما صدهم الله عنه لانه ولاه جبريل
وميكائيل وجعل اذا اغمي عليه قال بل الرفيق الاعلى كان الخيرة تعاد عليه فاذا اطاق
الكلام قال الصلاة الصلاة انكم لا تزالون متماسكين ما صليتم جميعا الصلاة الصلاة
كان يوصي بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة قالت عايشة رضي الله عنها مات
رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين قالت فاطمة
رضي الله عنها ما لقيت من يوم الاثنين والله لا تزال الامة تصاب فيه بعظيمة
وقالت ام كلثوم يوم اصيب علي رضي الله عنه بالكوفة مثلها ما لقيت من يوم الاثنين قالت
عايشة رضي الله عنها لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حتى ارتفعت الرنة
وسجي رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبي واختلفوا فكذب بعضهم بموته واخرس
بعضهم فما تكلم الا بعد الغد وخلط اخرون فلاثوا الكلام بغير بيان وبقي اخرون
ومعهم عقولهم واقعد اخرون فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته
وعلي فيمن اقعد وعثمن فيمن اخرس فخرج عمر على الناس وقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
لم يمت وليرجعنه الله عز وجل وليقطعن ايدي وارجل من رجال المنافقين يتمنون
لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت انما واعده ربه عز وجل كما واعد موسى وهو اتيكم وفي
رواية انه قال يا ايها الناس كفوا السنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يمت والله لا
اسمع احدا يذكر ان رسول الله قد مات الا علوته بسيفي هذا واما علي فانه اقعد فلم يبرح في
البيت واما عثمن فجعل لا يكلم احدا يوخذ بيده فيجا به ويذهب به ولم يكن احد من
المسلمين في مثل حال ابي بكر والعباس فان الله تعالى عزم لهما على التوفيق والسداد وان كان
الناس لم يرعووا الا بقول ابي بكر حتى جا العباس فقال والله لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم

وبلغ ابا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجا فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم
فنظر اليه فاكب عليه فقبله ثم قال بابي انت وامي ما كان الله ليذيقك الموت
مرتين فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج الى الناس فقال ايها
الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد رب محمد فانه حي
لا يموت قال الله تعالى وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات
او قتل انقلبتم على اعقابكم فكان الناس لم يسمعوا هذه الاية الا يوميذ وفي
رواية ان ابا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على
النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقطع الجرع وهو في
جلد الفعل والمقال فاكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح
وجهه وجعل يبكي ويقول بابي انت وامي ونفسي واهلي طبت حيا وميتا انقطع
لموتك ما لم ينقطع لموت احد من الانبيا وهو النبوة فعظمت عن الصفة وجللت
عن البكا وخصصت حتى صرت مسلاه وعممت حتى صرنا فيك سوا ولولا ان
موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس ولولا انك نهيت عن البكا لانفدنا ما
الشوون فاما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وادكار محالفان لا يبرحان اللهم فابلغه
عنا اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ولنكن من بالك فلولا ما خلفت من السكينة
لم نقم لما خلفت من الوحشة اللهم ابلغ نبيك عنا واحفظه فينا • وعن
ابن عمر انه لما دخل ابو بكر البيت واثنى وصلى ضج اهل البيت ضجيجا سمعه اهل المصلى
كلما ذكر شيا ازدادوا فما سكن ضجيجهم الا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال السلام
عليكم يا اهل البيت كل نفس ذايقة الموت الاية ان في الله خلفا من كل احد
ودركا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة فالله فارجوا وبه فثقوا فاستمعوا له
وانكروه وقطعوا البكا فلما انقطع البكا فقد صوته فاطلع احدهم فلم يرا احدا
ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد اخر لا يعرفون صوته يا اهل البيت اذكروا
الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ان في الله عزاء من كل
مصيبة وعوضا من كل رغبة فالله فاطيعوا وبامره فاعملوا فقال ابو بكر
هذا الخضر واليسع حضرا النبي صلى الله عليه وسلم واستوفي القعقاع بن عمرو
حكاية خطبة ابي بكر رضي الله عنه فقال قام ابو بكر في الناس خطيبا حين قضى
الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله على كل حال
واثنى عليه وقال اشهد ان لا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب
الاحزاب وحده فلله الحمد وحده واشهد ان محمدا عبده ورسوله وخاتم انبيايه

واشهد ان الكتاب كما نزل وان الدين كما شرع وان الحديث كما حدث وان القول كما
قال وان الله هو الحق المبين اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك
واميك وخيرتك وصفوتك بافضل ما صليت به على احد من خلقك اللهم واجعل
صلواتك ومعافاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وامام
المتقين محمد قايد الخلق وامام الخير ورسول الرحمة اللهم قرب زلفته وعظم برهانه
وكرم مقامه وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الاولون والاخرون وانفعنا
بمقامه المحمود يوم القيمة واخلفه فينا في الدنيا والاخرة وبلغه الدرجة والوسيلة
من الجنة اللهم صل على محمد وعلى ال محمد وبارك على محمد وال محمد كما صليت وباركت على
ابرهيم انك حميد مجيد ايها الناس انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان
يعبد الله فان الله حي لم يمت وان الله قد تقدم اليكم في امره فلا تدعوه جزعا فان الله
عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ما عنده على ما عندكم وقبضه
الى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن اخذ بهما عرف ومن فرق
بينهما انكر يا ايها الذين امنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم
ولا يفتننكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم
ويفتنكم وقال ابن عباس لما فرغ ابو بكر رضي الله عنه من خطبته قال يا عمر انت الذي
بلغني انك تقول ما مات نبي الله اما ترى ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا كذا وكذا ويوم كذا
وكذا وقال الله تعالى في كتابه انك ميت وانهم ميتون فقال والله لكاني لم اسمع بها
في كتاب الله قبل الان لما نزل بنا اشهد ان الكتاب كما نزل وان الحديث كما حدث وان الله حي
لا يموت انا لله وانا اليه راجعون وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله
ثم جلس الى ابي بكر وقالت عايشة رضي الله عنها لما اجتمعوا لغسله قالوا والله ما ندري
كيف نغسل رسول الله انجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا او نغسله في ثيابه قال فارسل
الله عليهم النوم حتى ما بقي منهم رجل الا وضع لحيته في صدره نايما قال قايل لا ندري من هو
غسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل صلى الله عليه وسلم
في قميصه حتى اذا فرغ من غسله كفن وقال علي كرم الله وجهه اردنا خلع قميصه
فنودينا لا تخلعوا عن رسول الله ثيابه فاقررناه فغسلناه في قميصه كما نغسل موتانا
مستلقيا ما نشا ان يقلب لنا عضو منه لم نبالغ فيه الا قلب لنا حتى نفرغ منه وان
معنا لحفيفا في البيت كالريح الرخا فيصوت بنا ارفقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فانكم ستكفون
فهكذا كان وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك سبدا ولا لبدا الا دفن معه قال
ابو جعفر فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس

يقظانا على القطيفة والمفرش ثم وضع عليها في اكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا
بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة ففي وفاته عبرة تامة وللمسلمين
به اسوة حسنة **وفاة ابي بكر الصديق رضي الله عنه** لما احتضر ابو بكر رضي الله
عنه جات عايشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت • لعمرك ما يغني الثرا عن الفتى
اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر • فكشف عن وجهه وقال ليس كذلك ولكن
قولي وجات سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما
وكفنوني فيهما فان الحي الى الجديد احوج من الميت وقالت عايشة عند موته •
• وابيض يستسقى الغمام بوجهه • ربيع اليتامى عصمة للارامل •
فقال ابو بكر ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه فقالوا الا ندعوا لك طبيبا ينظر اليك
قال قد نظر الي طبيبي وقال اني فعال لما اريد ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه يعوده فقال
يا ابا بكر اوصنا فقال ان الله فاتح عليكم الدنيا فلا تاخذن منها الا بلاغك واعلم انه من صلى صلاة
الصبح فهو في ذمة الله فلا تخفرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك • ولما ثقل ابو بكر
رضي الله عنه واراد الناس منه ان يستخلف فاستخلف عمر رضي الله عنه قال الناس له
استخلفت علينا فظا غليظا فماذا تقول لربك قال اقول له استخلفت على خلقك خير خلقك
ثم ارسل الى عمر رضي الله عنه فجاء فقال اني موصيك بوصية اعلم ان لله حقا في النهار لا
يقبله في الليل وان له حقا بالليل لا يقبله في النهار وانه لا يقبل النافلة حتى تودي الفريضة
وانما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيمة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله
عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحق ان يثقل وانما خفت موازين من خفت
موازينهم يوم القيمة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل
ان يخف وان الله ذكر اهل الجنة باحسن اعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القايل
انا دون هولا ولا ابلغ مبلغ هولا وان الله ذكر اهل النار باسوء اعمالهم ورد عليهم
صالح الذي عملوا فيقول العاصي انا افضل من هولا وان الله ذكر ~~اهل النار~~ اية الرحمة
واية العذاب ليكون المومن راغبا راهبا ولا يلقي بيديه الى التهلكة ولا يتمنى على الله
غير الحق فان حفظت وصيتي فلا يكونن غايب احب اليك من الموت ولا بد لك
منه وان ضيعت وصيتي فلا يكونن غايب ابغض اليك من الموت ولست بمعجزه وقال
سعيد بن المسيب لما احتضر ابو بكر رضي الله عنه اتاه اناس من اصحابه فقالوا يا
خليفة رسول الله زودنا فانا نراك لما بك فقال ابو بكر من قال هولا الكلمات ثم مات جعل الله
روحه في الافق المبين قالوا وما الافق المبين قال قاع بين يدي العرش فيه رياض
وانهار واشجار يغشاه كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه في ذلك

المكان اللهم انك ابتدات الخلق من غير حاجة بك اليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا
للنعيم وفريقا للسعير فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير اللهم انك خلقت الخلق فرقا
وميزتهم قبل ان تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلا تشقني
بمعاصيك اللهم انك علمت ما تكسب كل نفس قبل ان تخلقها فلا محيص لها مما علمت
فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك اللهم ان احدا لا يشا حتى تشا فاجعل مشيتك ان
اشا ما يقربني اليك اللهم انك قدرت حركات العباد فلا يتحرك شي الا باذنك فاجعل
حركاتي في تقواك اللهم انك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل
به فاجعلني من خير القسمين اللهم انك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما
اهلا فاجعلني من سكان جنتك اللهم انك اردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم
فاشرح صدري للايمان وزينه في قلبي اللهم انك دبرت الامور فجعلت مصيرها اليك
فاحيني بعد الموت حياة طيبة وقربني اليك زلفى اللهم من اصبح وامسى وثقته
ورجاوه غيرك فانك ثقتي ورجايي ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم •
وفاة عمر رضي الله عنه قال عمرو بن ميمون كنت قاعدا غداة اصيب عمر
رضي الله عنه ما بيني وبينه الا عبد الله بن عباس وكان اذا مر بين الصفين قام بينهما
حتى اذا راى فيهم خللا قال استووا حتى اذا لم ير فيهم خللا تقدم فكبر قال وربما قرا سورة
يوسف او النحل او نحو ذلك في الركعة الاولى حتى اجتمع الناس فما هو الا ان كبر فسمعته
يقول قتلني او اكلني الكلب حين طعنه ابو لولوة فطار العلج بسكين ذات طرفين
لا يمر على احد يمينا ولا شمالا الا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا فمات منهم تسعة
وفي رواية سبعة فلما راى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن العلج انه
ماخوذ نحر نفسه وتناول عمر عبد الرحمن بن عوف فقدمه فاما من كان يلي
عمر فقد راى ما رايت واما نواحي المسجد لا يدرون ما الامر غير انهم فقدوا صوت
عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن
صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن عباس انظر من قتلني قال فجال ساعة
ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة قال قاتله الله لقد كنت امرت به معروفا ثم قال
الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل مسلم قد كنت انت وابوك تحبان ان تكثر
العلوج بالمدينة وكان العباس اكثرهم رقيقا فقال ابن عباس ان شيت فعلت اي
ان شيت قتلناهم قال بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا الى قبلتكم وحجوا حجكم واحتمل الى
بيته فانطلقنا معه قال وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يوميذ قال
فقايل يقول اخاف عليه وقايل يقول لا باس عليه فاتي بنبيذ فشرب منه فخرج من

جوفه ثم أتي بلبن فشرب منه فخرج من جرحه فعرفوا انه ميت قال فدخلنا عليه وجاء
الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال ابشر يا امير المومنين ببشرى من الله عز وجل
لقد كان لك من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم في الاسلام ما قد علمت
ثم وليت فعدلت ثم شهادة قال وددت ان ذلك كان كفافا لا علي ولا لي فلما ادبر
الرجل اذا ازاره يمس الارض فقال ردوا علي الغلام فقال يا ابن اخي ارفع ثوبك فانه
انقى لثوبك واتقى لربك ثم قال يا عبد الله بن عمر انظر ما علي من الدين فحسبوا
فوجدوه ستة وثمانين الفا او نحوه فقال ان وفاه مال عمر والا فسل في بني آل عم
عدي بن كعب فان لم تف اموالهم فسل في قريش ولا تعدهم الى غيرهم واد
عني هذا المال انطلق الى ام المومنين عائشة فقل عمر يقرا عليك السلام
ولا تقل امير المومنين فاني لست اليوم للمومنين اميرا وقل يستاذن عمر بن الخطاب
ان يدفن مع صاحبيه فذهب عبد الله فسلم واستاذن ثم دخل عليها فوجدها
قاعدة تبكي فقال يقرا عليك عمر بن الخطاب السلام ويستاذن ان يدفن مع صاحبيه
فقالت كنت اريده لنفسي ولاوثرنه اليوم على نفسي فلما اقبل قيل هذا عبد الله
بن عمر قد جاء فقال ارفعوني فاسنده رجل اليه فقال ما لديك قال الذي تحب يا امير
المومنين اذنت قال الحمد لله ما كان شيء اهم الي من ذلك فاذا انا قبضت فاحملوني
ثم سلم وقل يستاذن عمر فان اذنت لي فادخلوني وان ردتني فردوني الى مقابر المسلمين
وجاءت ام المومنين حفصة والنساء يسترنها فلما رايناها قمنا فولجت عليه فبكت
عنده ساعة واستاذن الرجال فولجت داخلا فسمعنا بكاها من داخل فقالوا اوص
يا امير المومنين استخلف فقال ما ارى احق بهذا الامر من هولاء النفر الذين توفي
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمن والزبير وطلحة وسعدا
وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شيء كهيئة التعزية
له فان اصابت الامارة سعدا فذاك والا فليستعن به ايكم امر فاني لم اعزله
من عجز ولا خيانة وقال اوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الاولين ان يعرف
لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمتهم واوصيه بالانصار خيرا الذين تبووا الدار
والايمان من قبلهم ان يقبل من محسنهم وان يعفو عن مسيئهم واوصيه باهل
الامصار خيرا فانهم ردء الاسلام وجباة المال وغيظ العدو وان لا يوخذ
منهم الا فضلهم عن رضى منهم واوصيه بالاعراب خيرا فانهم اصل العرب
ومادة الاسلام ان يوخذ من حواشي اموالهم ويرد على فقرائهم واوصيه
بذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ان يوفى لهم بعهدهم وان يقاتل من

ورائهم ولا يكلفوا الا طاقتهم قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر
قال يستاذن عمر بن الخطاب فقالت ادخلوه فادخل فوضع هنالك مع صاحبيه
الحديث وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال لي جبريل عليه السلام ليبك الاسلام
على موت عمر وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال وضع عمر على سريره فتكنفه الناس
يدعون ويصلون قبل ان يرفع وانا فيهم فلم يرعني الا رجل قد اخذ منكبي فالتفت
فاذا هو علي بن ابي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال ما خلفت احدا احب الي
ان القى الله بمثل عمله منك وايم الله ان كنت لاظن ليجعلنك الله مع صاحبيك وذلك
اني كنت كثيرا اسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذهبت انا وابو بكر وعمر ودخلت
انا وابو بكر وعمر وخرجت انا وابو بكر وعمر فان كنت لارجوا ولاظن ان يجعلك
الله معهما **وفاة عثمن رضي الله عنه** الحديث في قتله مشهور وقد قال
عبد الله بن سلام رضي الله عنه اتيت اخي عثمن لاسلم عليه وهو محصور فدخلت عليه
فقال مرحبا باخي رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة خوخة في
البيت فقال يا عثمن حصروك قلت نعم فقال عطشوك قلت نعم قال فادلى لي دلوا
فيه ماء فشربت حتى رويت حتى اني لاجد برده بين ثديي وبين كتفي وقال
لي ان شئت نصرت عليهم وان شئت افطرت عندنا فاخترت ان افطر عنده
فقتل ذلك اليوم وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمن في الموت حين
خرج ماذا قال عثمن وهو يتشحط قالوا سمعناه يقول اللهم اجمع امة محمد صلى الله عليه وسلم
ثلثا قال والذي نفسي بيده لو دعا الله ان لا يجتمعوا ابدا ما اجتمعوا الى يوم القيمة
وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الدار حين اشرف عليهم عثمن
رضي الله عنه فقال ايتوني بصاحبيكم اللذين البا كم علي قال فجيء بهما كانهما جملان او حماران
فاشرف عليهم عثمن فقال انشدكم بالله والاسلام هل تعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بير رومة فقال من يشتري بير رومة
يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالي
فانتم اليوم تمنعوني ان اشرب منها ومن ماء البحر قالوا اللهم نعم قال انشدكم الله والاسلام
هل تعلمون ان المسجد كان قد ضاق باهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشتري
بقعة ال فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالي
فانتم اليوم تمنعوني ان اصلي فيها ركعتين قالوا اللهم نعم ثم قال انشدكم الله والاسلام
هل تعلمون اني جهزت جيش العسرة من مالي قالوا اللهم نعم ثم قال اللهم انشدكم
الله والاسلام هل تعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ومعه ابو بكر

وعمر وانا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال فركضه برجله
وقال اسكن ثبير فما عليك الا نبي وصديق وشهيدان قالوا اللهم نعم قال الله اكبر
اشهدوا لي ورب الكعبة اني شهيد وروي عن شيخ من ضبة ان عثمن رضي الله عنه
حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين
اللهم اني استعينك عليهم واستعينك على جميع اموري واسالك الصبر على ما ابتليتني
وفاة علي كرم الله وجهه قال الاصبغ الحنظلي لما كانت الليلة التي
اصيب فيها علي رضي الله عنه اتاه ابن التياح حين طلع الفجر يوذنه بالصلاة وهو
مضطجع متثاقل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام علي يمشي وهو يقول
اشدد حيازيمك للموت فان الموت لاقيك ولا تجزع من الموت اذا حل بواديك
فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت ام كلثوم ابنة علي فجعلت
تقول ما لي ولصلاة الغداة قتل زوجي امير المومنين صلاة الغداة وقتل ابي
صلاة الغداة وعن شيخ من قريش ان عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال
فزت ورب الكعبة وعن محمد بن علي الباقر انه لما ضرب اوصى بنيه ثم
لم ينطق الا بلا اله الا الله حتى قبض ولما ثقل الحسن بن علي رضي الله عنهما دخل عليه
الحسين رضي الله عنهما فقال يا اخي لاي شيء تجزع تقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وعلى علي بن ابي طالب وهما ابواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما
امك وعلى حمزة وجعفر وهما عماك قال يا اخي اقدم على امر لم اقدم على مثله
وعن محمد بن الحسن قال لما نزل القوم بالحسين رضي الله عنه وايقن انهم
قاتلوه قام في اصحابه خطيبا فحمد الله واثنى عليه ثم قال قد نزل من الامر ما ترون
وان الدنيا قد تغيرت وتنكرت وادبر معروفها واشمرت حتى لم يبق
منها الا كصبابة الاناء الا خسيس عيش كالمرعى الوبيل الا ترون الحق لا يعمل به
والباطل لا يتناهى عنه ليرغب المومن في ثواب الله تعالى واني لا ارى الموت الا
سعادة والحياة مع الظالمين الا برما

الباب الخامس
في كلام المحتضرين من الخلفاء والامراء والصالحين

لما حضرت معوية بن ابي سفيان رضي الله عنه الوفاة قال اقعدوني فاقعد
فجعل يسبح الله ويذكره ثم بكى ثم قال تذكر ربك يا معوية بعد الهرم والانحطاط
الا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان وبكى حتى علا بكاوه وقال يا رب
ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي اللهم اقل العثرة وارحم العبرة واغفر الزلة

وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولم يثق باحد سواك وروي عن شيخ من قريش
انه دخل مع جماعة عليه في مرضه فراوا في جلده غضونا فحمد الله واثنى عليه ثم قال اما
بعد فهل الدنيا اجمع الا ما جربنا ورأينا اما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدتنا
وباستلذاذنا بعيشنا فما لبثت الدنيا ان نقضت ذلك منا حالا بعد حال وعروة
بعد عروة فاصبحت الدنيا وقد وترتنا واخلقتنا واستلامت الينا فاف للدنيا من دار
واف لها من دار وروي ان اخر خطبة خطبها معوية انه قال ايها الناس
اني من زرع قد استحصد واني قد وليتكم ولن يليكم احد بعدي الا من هو شر مني
كما كان من قبلي خيرا مني ويا يزيد اذا وفى اجلي فول غسلي رجلا لبيبا فان اللبيب
من الله بمكان فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير ثم اعمد الى منديل في الخزانة فيه ثوب
من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره واظفاره فاستودع القراضة
انفي وفمي واذني وعيني واجعل الثوب على جلدي دون اكفاني ويا يزيد احفظ وصية
الله في الوالدين فاذا ادرجتموني في جديدتي ووضعتموني في حفرتي فخلوا معوية
وارحم الراحمين وقال بعضهم عقبة لما نزل بمعوية الموت قال يا ليتني كنت رجلا
من قريش بذي طوى واني لم ال من هذا الامر شيا ولما حضرت عبد الملك
بن مروان الوفاة نظر الى غسال بجانب دمشق يلوي ثوبا بيده ثم يضرب به
المغسلة فقال عبد الملك والله ليتني كنت غسالا اكل كسب يدي يوما بيوم
ولم ال من امر الناس شيا فبلغ ذلك ابا حازم فقال الحمد لله الذي جعلهم اذا حضرهم
الموت يتمنون ما نحن فيه واذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه وقيل
لعبد الملك بن مروان في مرضه كيف تجدك يا امير المومنين قال اجدني كما قال الله عز وجل
ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم الاية
وقالت فاطمة بنت عبد الملك امراة عمر بن عبد العزيز كنت اسمع عمر في مرضه
الذي مات فيه يقول اللهم اخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار فلما كان اليوم قبض فيه
خرجت من عنده فجلست في بيت اخر بيني وبينه باب وهو في قبة له
فسمعته يقول تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا
فسادا والعاقبة للمتقين ثم هدا فجعلت لا اسمع له حركة ولا كلاما فقلت لوصيف
له انظر انايم هو فلما دخل صاح فوثبت فاذا هو ميت وقيل له لما حضره
الموت اعهد يا امير المومنين قال احذركم مثل مصرعي هذا فانه لا بد لكم منه
وروي انه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعي له طبيب فلما نظر اليه قال ارى
الرجل قد سقي السم ولا امن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال لا تامن الموت

ايضا على من لم نبيق السم قال الطبيب هل احسست بذلك يا امير المومنين قال نعم
قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال فتعالج يا امير المومنين قال اني اخاف ان تذهب
نفسك فقال ربي خير مذهوب اليه والله لو علمت ان شفاي عند شحمة اذني
ما رفعت يدي الى اذني فتناولته اللهم خر لعمر في لقايك فلم يلبث الا اياما
حتى مات رحمه الله ● وقيل لما حضرته الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك يا امير المومنين
ابشر فقد احيا الله بك سننا واظهر بك عدلا فبكى ثم قال اليس اوقف فاسال
عن امر هذا الخلق فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسي الا تقوم بحجتها بين
يدي الله الا ان يلقنها حجتها فكيف على نفسي بكثير مما ضيعنا وفاضت عيناه
فلم يلبث الا يسيرا حتى مات ● ولما قرب وقت موته قال اجلسوني فاجلسوه
فقال انا الذي امرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ثلاث مرات ولكن لا اله الا الله
ثم رفع راسه فاحد النظر فقيل له في ذلك فقال اني لارى حضرة ما هم بانس
ولا جن ثم قبض ● وحكي عن هرون الرشيد انه انتقى اكفانه عند الموت
بيده فكان ينظر اليها ويقول ما اغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه ● وفرش المامون
رمادا واضطجع عليه وكان يقول يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه
وكان المعتصم يقول عند موته لو علمت ان عمري قصير ما فعلت ما فعلت هكذا
وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له لا باس عليك يا امير
المومنين فقال ليس الا هذا لقد ذهبت الدنيا والآخرة ● وقال عمرو بن العاص
رضي الله عنه في الوفاة وقد نظر الى صناديق لبنيه من ياخذها بما فيها ليته
كان بعرا ● وقال الحجاج عند موته اللهم اغفر لي فان الناس يقولون انك
لا تغفر لي فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها
ولما حكي ذلك للحسن قال اقالها قال نعم قال عسى ● بيان اقاويل
جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن
بعدهم من اهل التصوف رضي الله عنهم اجمعين لما حضر
معاذا رضي الله عنه الوفاة قال اللهم اني قد كنت اخافك وانا اليوم ارجوك اللهم انك
تعلم اني لم اكن احب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الانهار ولا لغرس الاشجار
ولكن لظماء الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند
حلق الذكر ولما اشتد به النزع ونزع نزعا لم ينزعه احد فكان كلما افاق
من غمرة فتح طرفه ثم قال رب اخنقني خنقك فوعزتك انك لتعلم ان قلبي يحبك
ولما حضر سلمان الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك قال ما ابكي جزعا على الدنيا

ولكن

ولكن عهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يكون بلغة احدنا من الدنيا كزاد
الراكب فلما مات سلمان نظر في جميع ما ترك فاذا قيمته بضعة عشر درهما
ولما حضر بلالا الوفاة قالت امراته واحزناه قال بل واطرباه غدا نلقى الاحبة
محمدا وحزبه ● وقيل فتح عبد الله بن المبارك عينيه عند الوفاة وضحك وقال
لمثل هذا فليعمل العاملون ولما حضر ابرهيم النخعي الوفاة بكى فقيل ما يبكيك
فقال انتظر من الله رسولا يبشرني بالجنة او بالنار ولما حضر ابن المنكدر الوفاة
بكى فقيل له ما يبكيك فقال والله ما ابكي لذنب اعلم اني اتيته ولكن اخاف ان اكون
اتيت شيا حسبته هينا وهو عند الله عظيم ولما حضر عامر بن قيس الوفاة
بكى فقيل ما يبكيك قال ما ابكي جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا ولكن ابكي ما يفوتني
من ظما الهواجر وعلى قيام ليل الشتاء ولما حضر فضيلا الوفاة غشي عليه ثم
فتح عينيه وقال وا بعد سفراه وا قلة زاده ولما حضر ابن المبارك الوفاة
قال لنصر مولاه اجعل راسي على التراب فبكى نصر فقال له ما يبكيك قال ذكرت ما
كنت فيه من النعيم وانت هوذا تموت فقيرا غريبا قال اسكت فاني سالت الله تعالى
ان يحييني حياة الاغنيا وان يميتني موت الفقرا ثم قال لقنني ولا تعد علي
ما لم اتكلم بكلام ثان ● وقال عطا بن يسار تبدى ابليس لرجل عند الموت فقال
له نجوت فقال له ما امنتك بعد ● وبكى بعضهم عند الموت فقيل له ما يبكيك
قال اية في كتاب الله تعالى وهو قوله انما يتقبل الله من المتقين ● ودخل الحسن على
رجل يجود بنفسه فقال ان امرا هذا اوله لجدير ان يتقى اخره وان امرا هذا اخره
لجدير ان يزهد في اوله ● وقال الجريري كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان
يوم الجمعة ويوم النيروز وهو يقرا القران فختم فقلت في هذه الحالة يا ابا القاسم
فقال ومن اولى بذلك مني وهوذا تطوى صحيفتي وقال رويم حضرت وفاة
ابي سعيد الخراز وهو يقول

حنين قلوب العارفين الى الذكر ● وتذكارهم وقت المناجاة للسر
اديرت كؤوس للمنايا عليهم ● فاغفوا عن الدنيا كاغفا ذي السكر
همومهم جوالة بمعسكر ● به اهل ود الله كالانجم الزهر
فاجسامهم في الارض قتلى بحبه ● وارواحهم في الحجب نحو العلى تسري
فما عرسوا الا بقرب حبيبهم ● وما عرجوا من مس بوس ولا ضر

وقيل للجنيد ان ابا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت فقال لم يكن
بعجب ان تطير روحه اشتياقا ● وقيل لذي النون عند موته ما تشتهي قال ان

اعرفه قبل موتي بلحظة ● وقيل لبعضهم وهو في النزع قل الله قال الى متى
تقولون وانا محترق بالله ● وقال بعضهم كنت عند ممشاد الدينوري فقدم فقير
وقال السلام عليكم هل ها هنا موضع نظيف يمكن للانسان ان يموت فيه قال فاشاروا
اليه بمكان فكان ثم عين ما فجدد الفقير الوضوء وركع ما شاء الله ومضى الى ذلك
المكان ومد رجليه ومات ● وكان ابو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه
فصاحت امراة تواجدا فقال لها موتي فقامت المراة فلما بلغت باب الدار
التفتت اليه وقالت قد مت ووقعت ميتة ● وحكي عن فاطمة اخت ابي
علي الروذباري انها قالت لما قرب اجل ابي علي الروذباري وكان راسه في حجري
فتح عينيه وقال هذه ابواب السما قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قايل
يقول يا ابا علي قد بلغناك الرتبة القصوى وان لم تردها ثم انشا يقول

وحقك لا نظرت الى سواكا ● بعين مودة حتى اراكا
اراك معذبي بفتور لحظ ● وبالخد المورد من جناكا

وقيل للجنيد قل لا اله الا الله فقال ما نسيته فاذكره وسال جعفر بن نصير بكران
الدينوري خادم الشبلي ما الذي رايته منه عند موته فقال علي درهم مظلمة وتصدقت
عن صاحبه بالوف فما على قلبي شغل اعظم منه ثم قال وضيني للصلاة ففعلت
فنسيت تخليل لحيته وقد امسك على لسانه فقبض على يدي وادخلها في لحيته ثم مات
فبكى جعفر وقال ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره ادب من اداب الشريعة
وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر وكان يشق عليه كانك تحب الحياة فقال القدوم
على الله شديد ● وقيل لصالح بن مسمار الا توصي بابنك وعيالك فقال اني لاستحيي
من الله ان اوصي بعبيده الى غيره ● ولما احتضر ابو سليمن الداراني اتاه
اصحابه فقالوا ابشر فانك تقدم على رب غفور رحيم فقال لهم الا تقولون احذر
فانك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير ولما احتضر الواسطي
قيل له اوصنا فقال احفظوا مراد الحق فيكم ● واحتضر بعضهم فبكت
امراته فقال لها ما يبكيك قالت عليك ابكي فقال ان كنت باكية فابكي على
نفسك فلقد بكيت لهذا اليوم اربعين سنة ● وقال الجنيد دخلت على
سري السقطي اعوده في مرض موته فقلت كيف تجدك فانشا يقول

كيف اشكو الى طبيبي ما بي ● والذي اصابني من طبيبي

فاخذت المروحة لاروحه فقال كيف يجد روح المروحة من جوفه يحترق

ثم

ثم انشا يقول ● القلب محترق والدمع مستبق ● والكرب مجتمع والصبر مفترق
كيف القرار على من لا قرار له ● مما جناه الهوى والشوق والقلق
يا رب ان يك شي فيه لي فرج ● فامنن علي به ما دام لي رمق

وحكي ان قوما من اصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له قل لا اله الا الله
فانشا يقول ● ان بيتا انتم سكانه ● غير محتاج الى السرج
وجهك المامول حجتنا ● يوم ياتي الناس بالحجج
لا اتاح الله لي فرجا ● يوم ادعو منك بالفرج

وحكي ان ابا العباس بن عطا دخل على الجنيد في وقت نزعه فسلم فلم يجبه
ثم اجاب بعد ساعة وقال اعذرني فاني كنت في وردي ثم ولى وجهه الى القبلة
وكبر ومات ● وقيل للكتاني لما حضرته الوفاة ما كان عملك فقال لو لم يقترب
اجلي ما اخبرتكم به وقفت على باب قلبي اربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته
عنه ● وحكي عن المعتمر قال كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق
فقلت اللهم هون عليه سكرات الموت فانه كان وكان فذكرت محاسنه فافاق
فقال من المتكلم فقلت انا فقال ان ملك الموت عليه السلام يقول لي اني بكل سخي رفيق
ثم طفي ● ولما حضرت يوسف بن اسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلقا
فقال يا ابا محمد هذا اوان الجوع والقلق فقال يا عبد الله وكيف لا اقلق ولا
اجزع واني لا اعلم اني صدقت الله في شي من عملي فقال حذيفة واعجبا لهذا الرجل
الصالح يحلف عند موته انه لا يعلم انه صدق الله تعالى في شي من عمله ● وعن المغازلي
قال دخلت على شيخ من اصحاب هذه الصفة وهو عليل وهو يقول يمكنك ان تفعل
ما تريد فارفق بي ● ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينوري في وقت وفاته
فقال له فعل الله تعالى بك وصنع من باب الدعا فضحك وقال منذ ثلاثين سنة تعرض
علي الجنة بما فيها فما اعرتها طرفي ● وقيل لرويم عند الموت قل لا اله الا الله فقال
لا احسن غيره ● ولما حضر الثوري الوفاة قيل له قل لا اله الا الله فقال اليس الى
ثم ثما امر ● ودخل المزني على الشافعي رحمه الله في مرضه الذي توفي فيه فقال له
كيف اصبحت يا ابا عبد الله قال اصبحت من الدنيا راحلا وللاخوان مفارقا ولسوء
عملي ملاقيا وبكاس المنية شاربا وعلى الله تعالى واردا ولا ادري اروحي تصير
الى الجنة فاهنيها ام الى النار فاعزيها ثم انشا يقول

ولما قسى قلبي وضاقت مذاهبي ● جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ● بعفوك ربي كان عفوك اعظما

فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ۞ تجود وتعفو منة وتكرما

ولولاك لم يقوى بابليس عابد ۞ وكيف وقد اغوى صفيك ادما

ولما حضرت احمد بن خضرويه الوفاة سيل عن مسالة فدمعت عيناه وقال يا بني باب كنت ادقه خمسا وتسعين سنة هو ذا يفتح لي الساعة ولا ادري ايفتح بالسعادة او بالشقاوة فانى لي اوان الجواب فهذه اقاويلهم وانما اختلفت بحسب احوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجا وعلى بعضهم الشوق والحب فتكلم كل احد على مقتضى حاله والكل صحيح بالاضافة الى احوالهم

الباب السادس في اقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور

اعلم ان الجنازة عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير الا لاهل الغفلة فانها لا تزيدهم مشاهدتها الا قساوة لانهم يظنون انهم ابدا الى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون انهم لا محالة على الجنائز يحملون او يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون ولا يتفكرون ان المحمولين على الجنائز كلهم هكذا كانوا يحسبون فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم فلا ينظرن عبد الى جنازة الا ويقدر نفسه محمولا عليها فانه محمول عليها على القرب وكان قد ولعله في غد او بعد غد ويروى عن ابي هريرة رضي الله عنه انه كان اذا راى جنازة قال امضوا فانا على الاثر وكان مكحول الدمشقي اذا راى جنازة قال اغدوا فانا رايحون موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الاول والاخر لا عقل له وقال اسيد بن حضير ما شهدت جنازة فحدثت نفسي بشي سوى ما هو مفعول به وما هو صاير اليه ولما مات اخو مالك بن دينار خرج مالك بن دينار في جنازته يبكي ويقول والله لا تقر عيني حتى اعلم الى ما ذا صرت ولا اعلم ما دمت حيا وقال الاعمش كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي لحزن الجميع وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلا نرى الا متقنعا باكيا فهكذا كان خوفهم من الموت والان لا تنظر الى جماعة يحضرون جنازة الا واكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلمون الا في ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر اقرانه واقاربه الا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه ولا يتفكر واحد منهم الا ما شا الله في جنازة نفسه وفي حاله اذا حمل عليها ولا سبب لهذه الغفلة الا قسوة القلب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله واليوم الاخر والاهوال التي بين ايدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا فنسال الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فان احسن احوال الحاضرين على الجنائز اليوم بكاوهم على الميت ولو عقلوا لبكوا على انفسهم لا على الميت نظر ابرهيم الزيات

الى اناس يترحمون على ميت فقال لو ترحمون على انفسكم كان خيرا لكم انه نجا من اهوال ثلاثة وجه ملك الموت قد راى ومرارة الموت قد ذاق وخوف الخاتمة قد امن وقال ابو عمرو بن العلا جلست الى جرير وهو يملي على كاتبه شعرا فاطلعت جنازة فامسك وقال شيبتني هذه الجنائز ثم انشا يقول

ترو عنا الجنائز مقبلات ۞ ونلهو حين تذهب مدبرات

كروعة ثلة لمغار ذيب ۞ فلما غاب عادت راتعات

ومن اداب حضور الجنازة التفكر والتنبه والاستعداد والمشي امامها على هيئة التواضع كما ذكرنا ادابه وسننه في فن الفقه ومن ادابه حسن الظن بالميت وان كان فاسقا واساة الظن بالنفس وان كان ظاهرها الصلاح فان الخاتمة مخطرة لا تدرى حقيقتها ولذلك روي عن عمر بن ذر انه مات واحد من جيرانه وكان مسرفا على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها فلما دلي في قبره وقف على قبره وقال يرحمك الله يا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود وان قالوا مذنب وذو خطايا فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا ويحكى ان رجلا من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة فلم تجد امراته من يعينها على حمل جنازته اذ لم يدر بها احد من جيرانه لكثرة فسقه فاستاجرت حمالين وحملتها الى المصلى فما صلى عليه احد فحملتها الى الصحرا للدفن وكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار فراوه كالمنتظر للجنازة ثم قصد ان يصلي عليه فانتشر الخبر في البلد ان الزاهد نزل ليصلي على فلان فخرج اهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فسيل عن ذلك فقال قيل لي في المنام انزل الى موضع كذا ترى فيه جنازة ليس معها الا امراة فصل عليها فانه مغفور له فتعجب الناس فاستدعى الزاهد امراته وسالها عن حاله وانه كيف كانت سيرته قالت كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولا بشرب الخمر فقال انظري هل تعرفين منه شيا من اعمال الخيرات قالت نعم ثلاثة اشيا كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح فيبدل ثيابه ويتوضا ويصلي الصبح في جماعة ثم يعود الى الماخور ويشتغل بالفسق والثاني انه كان ابدا لا يخلو بيته عن يتيم او يتيمين وكان احسانه اليهم اكثر من احسانه الى اولاده وكان شديد التفقد لهم والثالث انه كان يفيق في اثنا سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول يا رب اي زاوية من زوايا جهنم تريد ان تملاها بهذا الخبيث يعني نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع اشكاله من امره وعن صلة بن اشيم

وقد دفن اخ له فقال على قبره ۞ فان تنج منها تنج من ذي عظيمة ۞ والا فاني لا اخالك ناجيا ۞

بيان حال القبور واقاويلهم على القبور

قال الضحاك قال رجل يا رسول الله من ازهد الناس قال من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا واثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعد غدا من ايامه وعد نفسه من اهل القبور وقيل لعلي كرم الله وجهه ما شانك جاورت المقبرة قال اني اجدهم خير جيران اجدهم جيران صدق يكفون الالسنة ويذكرون الاخرة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رايت منظرا الا والقبر افظع منه وقال عمر بن الخطاب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقابر فجلس الى قبر وكنت ادنى القوم منه فبكى وبكيت وبكوا فقال ما يبكيكم قلنا بكينا لبكايك قال هذا قبر امي امنة بنت وهب استاذنت ربي في زيارتها فاذن لي واستاذنته في ان استغفر لها فابى علي فادركني ما يدرك الولد من الرقة وكان عثمن بن عفان رضي الله عنه اذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فسيل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتبكي اذا وقفت على قبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان القبر اول منزل من منازل الاخرة فان نجا منه صاحبه فما بعده ايسر منه وان لم ينج فما بعده اشد وقيل ان عمرو بن العاص رضي الله عنه نظر الى المقبرة فنزل فصلى ركعتين فقيل له هذا شي لم تكن تصنعه فقال ذكرت اهل القبور وما حيل بينهم وبينه فاحببت ان اتقرب الى الله بهما وقال مجاهد اول ما يكلم ابن ادم حفرته فتقول انا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الوحشة وبيت الغربة وبيت الظلمة هذا ما اعددت لك فما ذا اعددت لي وقال ابو ذر الا اخبركم بيوم فقري يوم اوضع في قبري وكان ابو الدردا يقعد الى القبور فقيل له في ذلك فقال اجلس الى قوم يذكروني معادي وان قمت لم يغتابوني وكان جعفر بن محمد ياتي القبور ليلا ويقول يا اهل القبور ما لي اذا دعوتكم لا تجيبوني ثم يقول حيل والله بينهم وبين جوابي وكاني بي اكون مثلهم ثم يستقبل القبلة الى طلوع الفجر وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسايه يا فلان لقد ارقت الليلة تفكرا في القبر وساكنه انك لو رايت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الانس منك به ولرايت بيتا تجول فيه الهوام ويجري فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الاكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب قال ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه وكان يزيد الرقاشي يقول ايها المقبور في حفرته والمتخلي في القبر بوحدته والمستانس في بطن الارض باعماله ليت شعري باي اعمالك استبشرت وباي اخوانك اغتبطت ثم يبكي حتى يبل عمامته ثم يقول استبشر والله باعماله الصالحة واغتبط والله باخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى

وكان اذا نظر الى القبور خار كما يخور الثور وقال حاتم الاصم من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم وكان بكر العابد يقول يا اماه ليتك كنت بي عقيما ان لابنك في القبر حبسا طويلا ومن بعد ذلك منه رحيلا وقال يحيى بن معاذ يا ابن ادم دعاك ربك الى دار السلام فانظر من اين تجيبه ان اجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة اليه دخلتها وان اجبته من قبرك منعتها وكان الحسن بن صالح اذا اشرف على المقابر يقول ما احسن ظواهرك انما الدواهي في بواطنك وكان عطا السلمي اذا جن عليه الليل خرج الى المقبرة فوقف عليها ثم يقول يا اهل القبور متم فيا موتاه وعاينتم اعمالكم فوا عملاه ثم يقول غدا عطا في القبر غدا عطا في القبر فلا يزال ذلك دابه حتى يصبح وقال سفين من اكثر ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار وكان الربيع بن خثيم قد حفر في داره قبرا فكان اذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شا الله ثم يقول رب ارجعوني لعلي اعمل صالحا فيما تركت يرددها على نفسه ثم يرد على نفسه قد رجعتك فاعمل وقال احمد بن حرب تتعجب الارض من رجل يمهد مضجعه ويسوي فراشه للنوم فتقول يا ابن ادم الا تذكر طول بلاك وما بيني وبينك شي وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز الى المقبرة فلما نظر الى القبور بكى ثم اقبل علي فقال يا ميمون هذه قبور ابائي بني امية كانهم لم يشاركوا اهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم اما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلا واصابت الهوام مقيلا في ابدانهم ثم بكى وقال والله ما اعلم احدا انعم ممن صار الى هذه القبور وقد امن من عذاب الله وقال ثابت البناني دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فاذا بصوت قايل يقول يا ثابت لا يغرنك صموت اهلها فكم من نفس مغمومة فيها ويروى ان فاطمة بنت الحسين نظرت الى جنازة زوجها الحسن بن الحسين فغطت وجهها وقالت

وكانوا رجا ثم امسوا رزية ۞ لقد عظمت تلك الرزايا وجلت ۞

وقيل انها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعت الفسطاط ودخلت المدينة فسمعوا صوتا من جانب البقيع هل وجدوا ما فقدوا فسمعوا من الجانب الاخر بل يئسوا فانقلبوا وقال ابو موسى التميمي توفيت امراة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن فقال له الحسن يا ابا فراس ما ذا اعددت لهذا اليوم فقال شهادة ان لا اله الا الله

منذ ستين سنة فلما دفنت قال الفرزدق وهو قايم على قبرها

اخاف وراء القبر ان لم يعافني ... اشد من القبر التهابا واضيقا
اذا جاءني يوم القيمة قايد ... عنيف وسواق بسوق الفرزدقا
لقد خاب من اولاد آدم من مشى ... الى النار مغلول القلادة ازرقا

وقد انشد واعظ اهل القبور

قف بالقبور وقل على ساحاتها ... من منكم المغموم في ظلماتها
ومن المكرم منكم في قعرها ... قد ذاق برد الامن من روعاتها
اما السكون لذي العيون فواحد ... لا يستبين الفضل في درجاتها
لو جاوبوك لاخبروك بالسن ... تصف الحقايق بعد من حالاتها
اما المطيع فنازل في روضة ... يفضي الى ما شا من راحاتها
والمجرم الطاغي بها متقلب ... في حفرة ياوي الى حياتها
وعقارب تسعى اليه فروحه ... في شدة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطاي رحمه الله على امراة وهي تبكي على قبر وهي تقول

عدمت الحياة ولا نلتها ... اذا كنت في القبر قد الحدوكا
فكيف اذوق طعم الكرى ... وانت بيمناك قد وسدوكا

ثم قالت يا ابتاه ليت شعري باي خديك بدا الدود فصعق داود مكانه وخر مغشيا عليه

وقال مالك بن دينار مررت بالمقبرة فانشات اقول

اتيت القبور فناديتها ... فاين المعظم والمحتقر
واين المدل بسلطانه ... واين المزكي اذا ما افتخر

قال فنوديت من بينهم اسمع صوتا ولا ارى شخصا وهو يقول

تفانوا جميعا فما مخبر ... وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى ... وتمحوا محاسن تلك الصور
فيا سايلي عن اناس مضوا ... اما لك فيمن مضى معتبر

ثم قال فرجعت وانا باك

[margin: لقد علمت ... تلك المواعظ ... وانا ... [illegible]]

ابيات وجدت على القبور وجد على قبر مكتوب

تناجيك اجداث وهن سكوت ... وسكانها تحت التراب خفوت
ايا جامع الدنيا لغير بلاغة ... لمن تجمع الدنيا وانت تموت

ووجد على قبر آخر

ايا غانم اما ذراك فواسع ... وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره ... اذا كان فيه جسمه يتهدم

وقال ابن السماك مررت بالمقابر فاذا على قبر مكتوب

بمر

بمر اقاربي جنبات قبري ... كان اقاربي لم يعرفوني
وذو الميراث يقتسمون مالي ... وما يالون ان جحدوا ديوني
وقد اخذوا سهامهم وعاشوا ... فيا لله اسرع ما نسوني

ووجد على قبر مكتوب

ان الحبيب من الاحباب مختلس ... لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها ... يا من يعد عليه اللفظ والنفس
اصبحت يا غافلا في النقص منغمسا ... وانت دهرك في اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته ... ولا الذي كان منه العلم يقتبس
كم اخرس الموت في قبر وقفت به ... عن الجواب لسانا ما به خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف ... فقبرك اليوم في الاجداث مندرس

ووجد على قبر آخر

وقفت على الاحبة حين صفت ... قبورهم كافراس الرهان
فلما ان بكيت وفاض دمعي ... رات عيناي بينهم مكاني

ووجد على قبر طبيب مكتوب

يا ايها الناس قد قلت لما مال لي ... قد سار نعمان الى رمسه
فاين ما يوصف من طبه ... وحذقه في المكر بجنسه
هيهات لا يدفع عن غيره ... من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوب

يا ايها الناس كان لي امل ... قصر بي عن بلوغه الاجل
فليتق الله ربه رجل ... امكنه في حياته العمل
ما انا وحدي نقلت حيث ترى ... كل الى مثله سينتقل

فهذه ابيات كتبت على القبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت والبصير هو الذي ينظر الى قبر غيره فيرى مكانه بين اظهرهم فيستعد للحوق بهم ويعلم انهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم وليتحقق انه لو عرض عليهم يوم واحد من ايام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك احب اليهم من الدنيا بحذافيرها لانهم عرفوا قدر الاعمال وانكشفت لهم الاغطية وحقايق الامور فانما حسرتهم يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص عن العقاب وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب فانهم انما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم ساعة من الحياة وانت قادر على تلك الساعة ولعلك القادر على امثالها ثم انت مضيع لها فوطن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الامر من الاختيار ان لم تاخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار فقد قال بعض الصالحين رايت اخا لي في الله فيما يرى النايم فقلت يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال لان نقدر على ان نقولها يعني الحمد لله احب الي من الدنيا وما فيها

ثم قال المرتجئ كانوا يقولون يعني ثلاثا فاقام فصلى ركعتين لان اكون اقدر على ان
اصليهما احب الي من الدنيا وما فيها **بيان اقاويلهم عند موت الولد**
حق على من مات ولده او قريب من اقاربه ان ينزله في تقدمه عليه في الموت منزلة ما
لو كانا في سفر فسبقه ولده الى البلد الذي هو مستقره ووطنه فانه لا يعظم
عليه تاسفه لعلمه بانه لاحق به على القرب وليس بينهما الا تقدم وتاخر وهكذا الموت
فان معناه السبق الى الموطن الى ان يلحق المتاخر واذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه
لا سيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزي به كل مصاب قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لان اقدم سقطا احب الي من ان اخلف مائة فارس كلهم يقاتل في
سبيل الله وانما ذكر السقط تنبيها بالادنى على الاعلى والا فالثواب على قدر محل الولد
من القلب وقال زيد بن اسلم توفي ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزنا
شديدا فقيل له ما كان عدله عندك قال ملء الارض ذهبا قيل فان لك من الاجر مثل
ذلك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت لاحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم
الا كانوا له جنة من النار فقالت امراة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم او اثنان قال
او اثنان وليخلص الوالد الدعاء لولده عند موته فانه ارجى دعاء واقرب الى الاجابة
ووقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال اللهم اصبحت ارجوك له واخافك عليه
فحقق رجائي وآمن خوفي ووقف ابو سنان على قبر ابنه فقال اللهم اني قد
غفرت له ما وجب لي عليه فاغفر له ما وجب لك عليه فانك اجود واكرم ووقف
اعرابي على قبر ابنه فقال اللهم اني وهبت له ما قصر فيه من بري فهب لي
ما قصرت فيه من طاعتك ولما مات ذر بن عمر بن ذر قام ابوه عمر بن ذر بعدما
وضع في لحده فقال يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ما
ذا قلت وما ذا قيل لك ثم قال اللهم ان هذا ذر متعتني به ما متعتني ووفيته
اجله ورزقه ولم تظلمه اللهم وقد كنت الزمته طاعتك وطاعتي اللهم وما
وعدتني عليه من الاجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا
تعذبه فابكى الناس ثم قال عند انصرافه ما علينا بعدك من خصاصة يا ذر وما
بنا الى انسان حاجة مع الله فلقد مضينا وتركناك ولو اقمنا ما نفعناك ۞ ونظر
رجل الى امراة بالبصرة فقال ما رايت مثل هذه النضارة وما ذاك الا من قلة
الحزن فقالت يا عبد الله اني لفي حزن ما يشركني فيه احد قال وكيف قالت ان زوجي
ذبح شاة في يوم الاضحى وكان لي صبيان مليحان يلعبان فقال الاكبر للاخر اتريد
اريك كيف ذبح ابي الشاة قال نعم فاخذه وذبحه فما شعرنا به الا متشحطا في

دمه فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ الى الجبل فرهقه ذئب فاكله وخرج
ابوه يطلبه فمات عطشا من شدة الحر قالت فافردني الدهر كما ترى وعن
انس رضي الله عنه قال لما كان يوم احد حاص اهل المدينة حيصة وقالوا قتل محمد
صلى الله عليه وسلم حتى كثرت الصوارخ في ناحية المدينة فخرجت امراة من الانصار
متحزمة فاستقبلت بابنها وابيها وزوجها واخيها لا ادري بايهم استقبلت
به فلما مرت على آخرهم قالت من هذا قالوا ابوك واخوك وزوجك وابنك وهي
تقول ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون امامك حتى وقفت الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فاخذت بناحية ثوبه ثم جعلت تقول بابي انت وامي يا رسول الله
لا ابالي اذ سلمت من عطب ۞ فامثال هذه المصائب ينبغي ان تذكر عند موت
الاولاد ليتسلى بها عند شدة الجزع فما من مصيبة الا ويتصور اعظم منها
وما يدفعه الله في كل حال فهو الاكثر ۞ **بيان زيارة القبور
والدعاء للميت وما يتعلق به** زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار
وزيارة قبور الصالحين مستحبة لاجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم اذن في ذلك بعد فقد روي علي رضي الله عنه
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها
فانها تذكركم الآخرة غير ان لا تقولوا هجرا وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم
قبر امه في الف مقنع فلم ير باكيا اكثر من يومئذ وفي هذا اليوم قال اذن لي في
الزيارة دون الاستغفار كما رويناه من قبل وقال ابن ابي مليكة اقبلت عايشة
رضي الله عنها يوما من المقابر فقلت يا ام المومنين من اين اقبلت قالت من قبر
اخي عبد الرحمن فقلت اليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم
ثم امر بها ولا ينبغي ان يتمسك به فيوذن للنسا في الخروج الى المقابر فانهن
يكثرن الهجر على رؤس المقابر فلا يفي خير زيارتهن بشرها ولا يخلون في الطريق
عن تكشف وتبرج وهذه عظايم والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لاجلها نعم
لا باس بخروج المراة في ثياب بذلة ترد اعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار
على الدعاء وترك الحديث على راس القبر وقال ابو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
زر القبور تذكر بها الآخرة واغسل الموتى فان في معالجة جسد خاو موعظة
بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك ان يحزنك فان الحزين في ظل الله وقال ابن ابي
مليكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم زوروا موتاكم فسلموا عليهم وصلوا عليهم فان لكم
فيهم عبرة وعن نافع ان ابن عمر كان لا يمر بقبر احد الا وقف وسلم عليه وعن

جعفر بن محمد عن ابيه ان فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها
حمزة في الايام فتصلي وتبكي عنده وقال النبي صلى الله عليه وسلم من زار قبر ابويه
او احدهما في كل جمعة غفر له وكتب له برا وعن ابن سيرين قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما
فيكتبه من البارين وقال صلى الله عليه وسلم من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي
وقال من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيمة
وقال كعب ما من فجر يطلع الا نزل عليه سبعون الفا من الملايكة حتى يحفوا
بالقبر يضربون باجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى اذا
امسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا كذلك حتى اذا انشقت الارض خرج
في سبعين الفا من الملايكة يوقرونه ۞ والمستحب في زيارة القبور ان يقف
مستدبر القبلة مستقبلا لوجه الميت وان يسلم ولا يمسح القبر ولا يقبله
ولا يمسه فان ذلك من عادة النصارى قال نافع رايت ابن عمر مائة مرة او اكثر
يجي الى القبر فيقول السلام على النبي السلام على ابي بكر السلام على ابي وينصرف
وعن ابي امامة قال رايت انس بن مالك اتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف
فرفع يديه حتى ظننت انه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف
وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من رجل من المسلمين
يزور قبر اخيه ويجلس عنده الا استانس به ورد عليه حتى يقوم وقال سليمان بن شحيم رايت
النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله هولاء الذين ياتونك ويسلمون عليك اتفقه سلامهم قال
نعم وارد عليهم وقال ابو هريرة اذا مر الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلم عليه رد السلام عليه وعرفه
واذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد السلام وقال رجل من آل عاصم الجحدري رايت عاصما
في منامي بعد موته بسنتين فقلت اليس قد مت قال بلى قلت فاين انت قال انا والله
في روضة من رياض الجنة انا ونفر من اصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها
الى بكر بن عبد الله المزني فنتلاقى اخباركم قلت اجسامكم ام ارواحكم قال هيهات بليت الاجسام
وانما تتلاقى الارواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا اياكم قال نعلم بها عشية الجمعة ويوم
الجمعة كله ويوم السبت الى طلوع الشمس قلت وكيف ذاك دون الايام كلها قال لفضل يوم
الجمعة وعظمه وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل له لو اخرت الى الاثنين
فقال بلغني ان الموتى يعلمون بزواره يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده وقال الضحاك
من زار قبرا يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته فقيل له كيف ذلك قال لمكان
الجمعة وقال بشر بن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف الى الجبانة فيشهد الصلاة

على الجنائز فاذا امسى وقف على باب المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم الله غربتكم
وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هولاء الكلمات قال الرجل فامسيت
ذات ليلة فانصرفت الى اهلي ولم آت المقابر فادعو كما كنت ادعو فبينما انا
نايم اذا انا بخلق كثير قد جاوني فقلت من انتم وما حاجتكم قالوا نحن اهل المقابر
قلت ما جاء بكم قالوا انك كنت قد عودتنا منك هدية عند انصرافك الى اهلك
قلت وما هي قالوا الدعوات التي كنت تدعو بها قلت فاني اعود لذلك فما
تركتها بعد ذلك وقال بشار بن غالب النجراني رايت رابعة العدوية
العابدة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشار بن غالب هداياك
تاتينا على اطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذاك قالت وهكذا
دعاء المومنين الاحياء اذا دعوا للموتى المومنين فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء
على اطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم اتي به الميت فقيل هذه هدية
فلان اليك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الميت في قبره الا كالغريق المتغوث
ينتظر دعوة تلحقه من ابيه او اخيه او صديق له فاذا لحقته كانت
احب اليه من الدنيا وما فيها وان هدايا الاحياء للاموات الدعاء والاستغفار
وقال بعضهم مات اخ لي فرايته في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت
في قبرك قال اتاني آت بشهاب من نار فلولا ان داعيا دعا لي لرايت انه سيضربني
به وعلى هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله
الاودي شهدت ابا امامة الباهلي وهو في النزع فقال يا سعيد اذا مت فاصنعوا
بي كما امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذا مات احدكم فسويتم عليه التراب
فليقم احدكم على راس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة فانه يسمع ولا يجيب ثم
ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية فانه يستوي قاعدا ثم ليقل يا فلان ابن فلانة
فانه يقول ارشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له اذكر ما خرجت
عليه من الدنيا شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وانك رضيت
بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن اماما فان
منكرا ونكيرا يتاخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا
وقد لقن حجته ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما فقال رجل يا رسول الله
فان لم يعرف اسم امه قال فلينسبه الى حواء ۞ ولا باس بقراءة القرآن
على القبر روي عن علي بن موسى الحداد قال كنت مع احمد بن حنبل في جنازة ومحمد
بن قدامة الجوهري معنا فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرا عند القبر فقال

لم احد ماهذا ان القراة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامه الجوهري لاحمد يا ابا عبد الله ما تقول في مبشر بن اسمعيل الحلبي قال ثقة قال هل كتبت عنه شيا قال نعم قال اخبرني مبشر بن اسمعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن ابيه انه اوصى اذا دفن ان يقرا عند راسه بفاتحة البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصي بذلك فقال له احمد فارجع الى الرجل وقل له يقرا • وقال محمد بن احمد المروزي سمعت احمد رحمه الله يقول اذا دخلتم المقابر فاقراوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله احد واجعلوا ثواب ذلك لاهل المقابر فانه يصل اليهم • وقال ابو قلابة اقبلت من الشام الى البصرة فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت راسي على قبر فنمت ثم انتبهت فاذا صاحبه يشتكي فيقول لقد اذيتني منذ الليلة ثم قال انكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال للركعتين اللتين ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال جزى الله اهل الدنيا عنا خيرا اقراهم السلام فانه قد يدخل علينا من دعايهم نور امثال الجبال فالمقصود من زيارة القبور للزاير الاعتبار وللمزور الانتفاع بدعايه فلا ينبغي ان يغفل الزاير عن الدعا لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وانما يحصل له الاعتبار بان يصور في قلبه الميت كيف تفرقت اجزاؤه وكيف يبعث من قبره وانه على القرب سيلحق به كما روي عن مطرف بن ابي بكر الهذلي قال كانت عجوز في عبد القيس متعبدة وكان اذا جا الليل تحزمت ثم قامت الى المحراب واذا جا النهار خرجت الى القبور فبلغني انها عوتبت في كثرة اتيانها المقابر فقالت ان القلب القاسي اذا جفا لم يلينه الا رسوم البلى واني لاتي القبور فكاني انظر وقد خرجوا من بين اطباقها وكاني انظر الى تلك الوجوه المعفرة والى تلك الاجسام المتغيرة والى تلك الاكفان الدسمة فيا لها من نظرة لو اشربها العباد قلوبهم ما انكل مرارتها للانفس واشد تلفها للابدان بل ينبغي ان يحضر في القلب من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة فقال له يا فلان لو رايتني بعد ثلاث وقد ادخلت قبري وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين وتقلصت الشفتان على الاسنان وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم ونتى البطن فعلا على الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج

الدود والصديد من المناخر لرايت اعجب مما تراه الآن ويستحب ايضا الثناء على الميت وان لا يذكر الا بالجميل قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه وقال صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الاموات فانهم قد افضوا الى ما قدموا وقال صلى الله عليه وسلم لا تذكروا موتاكم الا بخير فانهم ان يكونوا من اهل الجنة تاثموا وان يكونوا من اهل النار فحسبهم ما هم فيه وقال انس بن مالك مرت جنازة على النبي صلى الله عليه وسلم فاثنوا عليها شرا فقال عليه الصلاة والسلام وجبت ومروا باخرى فاثنوا عليها خيرا فقال وجبت فساله عمر عن ذلك فقال ان هذا اثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا اثنيتم عليه شرا فوجبت له النار وانتم شهداء الله في الارض • وقال ابو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد ليموت فيثني عليه القوم الثنا يعلم الله منه غيره فيقول الله عز وجل لملايكته اشهدكم اني قد قبلت شهادة عبيدي على عبدي وتجاوزت عن علمي في عبدي •

الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر الى نفخة الصور

بيان حقيقة الموت

اعلم ان للناس في حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد اخطاوا فيها فظن بعضهم ان الموت هو العدم وانه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر وان موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا راي الملحدين وكل من لا يومن بالله واليوم الاخر • وظن قوم انه ينعدم بالموت ولا يتالم بعقاب ولا يتنعم بثواب ما دام في القبر الى ان يعاد في وقت الحساب • وقال اخرون ان الروح باقية لا تنعدم بالموت وانما المثاب والمعاقب هي الارواح دون الاجساد وان الاجساد لا تبعث ولا تحشر وكل هذه الظنون فاسدة ومايلة عن الحق بل الذي يشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الايات والاخبار ان الموت معناه تغير حال فقط وان الروح باقية بعد مفارقة الجسد اما معذبة واما منعمة ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فان الاعضا الات للروح تستعملها حتى انها لتبطش باليد وتسمع بالاذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الاشيا بالقلب والقلب هاهنا عبارة عن الروح والروح تعلم الاشيا بنفسها من غير آلة ولذلك قد تتالم بنفسها بانواع الحزن والغم والكمد وتتنعم بانواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالاعضا وكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الاعضا فيتعطل بموت الجسد الى ان تعاد الروح الى الجسد ولا يبعد ان تعاد الى الجسد في القبر ولا يبعد ان تعاد

الى الجسد في القبر ولا يبعد ان تؤخر الى يوم البعث والله اعلم بما حكم به على كل عبد من عباده وانما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل اعضا الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تقع في الاعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الاعضا وقد استعصى عليه بعضها والموت عبارة عن استعصا الاعضا كلها وكل الاعضا الات والروح هي المستعملة لها واعني بالروح المعنى الذي يدرك من الانسان العلوم والام الغموم ولذات الافراح ومهما بطل تصرفها في الاعضا لم تبطل منها العلوم والادراكات ولا بطل منها الافراح والغموم ولا يبطل منها قبولها للالام واللذات والانسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللالام واللذات وذلك لا يموت اي لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن ان يكون آلة له كما ان معنى الزمانة خروج اليد او الرجل عن ان تكون آلة مستعملة فالموت زمانة مطلقة في الاعضا كلها وحقيقة الانسان نفسه وروحه وهي باقية نعم تغير حاله من جهتين احداهما انه سلبت منه عينه واذنه ولسانه ويده ورجله وجميع اعضائه وسلب منه اهله وولده واقاربه وساير معارفه وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وساير املاكه ولا فرق بين ان تسلب هذه الاشيا من الانسان وبين ان يسلب الانسان من هذه الاشيا فان المولم هو الفراق والفراق يحصل تارة بان ينهب مال الرجل وتارة بان يسبى الرجل عن المال والالم واحد في الحالين وانما معنى الموت سلب الانسان عن امواله بازعاجه الى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فان كان له في الدنيا شي يانس به ويستريح اليه ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاوه في مفارقته بل يلتفت قلبه الى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى الى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به وان لم يكن يفرح الا بذكر الله ولم يانس الا به عظم نعيمه وتمت سعادته اذ خلي بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوايق والشواغل اذ جميع اسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله فهذا احد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة والثاني انه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفا له في الحياة كما ينكشف للمستيقظ ما لم يكن مكشوفا في النوم والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا واول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسياته وقد كان ذلك مسطورا في كتاب مطوي في سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فاذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع اعماله فلا ينظر الى سيئة الا ويتحسر عليها تحسرا يوثر ان يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة وعند ذلك يقال له كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن وتشتعل فيه نيران الفراق اعني فراق ما كان يطمين اليه من هذه الدنيا الفانية

دون ما اراد منها لاجل الزاد والبلغة فان من طلب الزاد للبلغة فاذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد اذ لم يكن يريد الزاد لعينه وهذا حال من لم ياخذ من الدنيا الا بقدر الضرورة وكان يود ان تنقطع ضرورته ليستغني عنه فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه وهذه انواع من العذاب والالام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ثم عند الدفن قد ترد روحه الى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه ويكون حال المتنعم بالدنيا المطمين اليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحريمه اعتمادا على ان الملك يتساهل في امره او على ان الملك ليس يدري ما يتعاطاه من قبيح افعاله فاخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرة ذرة وخطوة خطوة والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت الى من يتشفع اليه في العصاة عليه فانظر الى حال هذا الماخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحيا والتحسر والندم فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمين اليها قبل نزول عذاب القبر به بل عند موته نعوذ بالله منه فان الخزي والافتضاح وهتك الستر اعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما فهذه اشارة الى حال الميت عند الموت شاهدها اولوا البصاير بمشاهدة باطنة اقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة نعم لا يمكن كشف الغطا عن كنه حقيقة الموت اذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وادراك ماهية ذاتها ولم يوذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتكلم فيها ولا ان يزيد على ان يقول الروح من امر ربي فليس لاحد من علماء الدين ان يكشف عن سر الروح وان اطلع عليه وانما الماذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت ويدل على ان الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام ادراكها ايات واخبار كثيرة اما الايات فما ورد في الشهدا اذ قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احيا عند ربهم يرزقون ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا فقيل يا رسول الله اتناديهم وهم اموات فقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده انهم لاسمع لهذا الكلام منكم الا انهم لا يقدرون على الجواب فهذا نص في بقا روح الشقي وبقا ادراكها ومعرفتها والاية نص في ارواح الشهدا ولا يخلو الميت عن سعادة او شقاوة وقال صلى الله عليه وسلم القبر اما حفرة من حفر النار او روضة من رياض الجنة وهذا نص صريح في ان الموت معناه تغير حال فقط وان ما يكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند

الموت من غير تاخير وانما تاخر بعض انواع العذاب والثواب دون اصله وروى
انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الموت القيمة من مات فقد قامت قيامته
وقال صلى الله عليه وسلم اذا مات احدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية ان كان
من اهل الجنة فمن اهل الجنة وان كان من اهل النار فمن اهل النار يقال هذا مقعدك
حتى تبعث اليه يوم القيمة وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في
الحال وعن ابي قيس قال كنا مع علقمة في جنازة فقال اما هذا فقد قامت قيامته
وقال علي كرم الله وجهه حرام على كل نفس ان تخرج من الدنيا حتى تعلم من اهل الجنة
هي ام من اهل النار وقال ابو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات غريبا مات
شهيدا ووقي فتان القبر وغدي وريح عليه برزقه من الجنة وقال مسروق ما غبطت
احدا ما غبطت مومنا في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وامن عذاب الله وقال
يعلي بن الوليد كنت امشي يوما مع ابي الدردا رضي الله عنه فقلت له ما تحب لمن تحب قال
الموت قلت فان لم يمت قال يقل ماله وولده وانما احب الموت لانه لا يحبه الا المومن
والموت اطلاق من السجن وانما احب قلة المال والولد لانه فتنة وسبب للانس بالدنيا
والانس بمن لا بد من فراقه غاية الشقاوة وكل ما سوى الله وذكره والانس به فلا بد
من فراقه عند الموت لا محالة ولهذا قال عبد الله بن عمر انما مثل المومن حين تخرج نفسه
او روحه مثل رجل كان في سجن فاخرج منه فهو يتفسح في الارض ويتقلب فيها
وهذا الذي ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له انس الا بذكر الله تعالى وكانت
شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاسات الشهوات توذيه فكان في الموت خلاصه
من جميع الموذيات وانفراده بمحبوبه الذي كان به انسه من غير عايق ولا دافع وما
اجدر ذلك بان يكون منتهى التنعم واللذات واكمل اللذات للشهدا الذين قتلوا في سبيل الله
لانهم ما اقدموا على القتال الا قاطعين التفاتهم عن علايق الدنيا مشتاقين الى لقا الله
راضين بالقتل في طلب مرضاته فان نظر الى الدنيا فقد باعها طوعا بالاخرة والبايع لا
يلتفت قلبه الى المبيع وما اقل التفاته الى ما باعه اذا فارقه وتجرد القلب لحب الله قد
يتفق في بعض الاحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير والقتال سبب الموت فكان
سببا لادراك الموت على مثل هذه الحالة فلهذا عظم النعيم اذ معنى النعيم ان ينال الانسان
ما يريد قال الله تعالى ولهم فيها ما يشتهون فكان هذا اجمع عبارة لمعاني لذات الجنة واعظم
العذاب ان يمنع الانسان عن مراده كما قال تعالى وحيل بينهم وبين ما يشتهون
فكان هذا اجمع عبارة لعقوبات اهل جهنم وهذا النعيم يدركه الشهيد
كما انقطع نفسه من غير تاخير وهذا امر انكشف لارباب القلوب بنور

اليقين وان اردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع احاديث الشهدا تدل عليه
وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة اخرى فقد روي عن عايشة
رضي الله عنها انها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر الا ابشرك يا جابر وكان
قد استشهد ابوه يوم احد قال بلى بشرك الله بالخير قال ان الله احيا اباك فاقعده
بين يديه فقال تمن علي عبدي ما شيت اعطيكه قال يا رب ما عبدتك حق عبادتك
اتمنى عليك ان تردني الى الدنيا فاقاتل مع نبيك فاقتل فيك مرة اخرى قال له انه قد سبق
مني انك اليها لا ترجع وقال كعب يوجد في الجنة رجل يبكي فيقال له لم تبكي وانت في الجنة
قال ابكي لاني لم اقتل في الله الا قتلة واحدة وكنت اشتهي ان ارد فاقتل فيه قتلات
واعلم ان المومن ينكشف له عقيب الموت عن سعة جلال الله ما تكون الدنيا
بالاضافة اليها كالسجن والمضيق ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب
الى بستان واسع الاكناف لا يبلغ طرفه اقصاه فيه انواع الاشجار والازهار والطيور
والثمار ولا يشتهي العود الى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم له مثلا
فقال لرجل مات اصبح هذا مرتحلا عن الدنيا وتركها لاهلها فان كان قد رضي فلا يسره
ان يرجع الى الدنيا كما لا يسر احدكم ان يرجع الى بطن امه فعرفك بهذا ان نسبة
سعة الاخرة الى الدنيا كنسبة سعة الدنيا الى ظلمة الرحم وقال صلى الله عليه وسلم
ان مثل المومن في الدنيا كمثل الجنين في بطن امه اذا خرج من بطنها بكى على مخرجه
حتى اذا راى الضوء ورضع لم يحب ان يرجع الى مكانه وكذلك المومن يجزع من الموت
فاذا افضى الى ربه لم يحب ان يرجع الى الدنيا كما لا يحب الجنين ان يرجع الى بطن امه
وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانا قد مات فقال مستريح او مستراح منه
اشار بالمستريح الى المومن وبالمستراح منه الى الفاجر اذ يستريح اهل الدنيا
منه وقال ابو عمر صاحب السقيا مر بنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر الى قبر
فاذا جمجمة بادية فامر رجلا فواراها ثم قال ان هذه الابدان ليس يضرها
هذا الثرى شيا وانما الارواح التي تعاقب وتثاب الى يوم القيمة وعن عمرو بن
دينار قال ما من ميت يموت الا وهو يعلم ما يكون في اهله بعده وانهم ليغسلونه
ويكفنونه وانه لينظر اليهم وقال مالك بن انس بلغني ان ارواح المومنين مرسلة
تذهب حيث شاءت وقال النعمن بن بشير سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر
يقول الا انه لم يبق من الدنيا الا مثل الذباب يمور في جوها فالله الله في اخوانكم
من اهل القبور ولذلك قال ابو الدردا رضي الله عنه اللهم اني اعوذ بك ان اعمل عملا اخزى
به عند عبد الله بن رواحة وكان قد مات وهو خاله وسيل عبد الله بن عمرو بن

العاص عن ارواح المومنين اذا ماتوا اين هي قال في صور طير بيض في ظل العرش وارواح
الكافرين في الارض السابعة وقال ابو سعيد الخدري سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ان الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره وقال صالح المري
بلغني ان الارواح تتلاقى عند الموت فتقول ارواح الموتى للروح التي تخرج
اليهم كيف كان ماواك وفي اي الجسدين كنت في طيب او خبيث وقال عبيد بن
عمير اهل القبور يتوكفون الاخبار فاذا اتاهم الميت قالوا ما فعل فلان فيقول الم
ياتكم او ما قدم عليكم فيقولون انا لله وانا اليه راجعون سلك به غير سبيلنا
وعن جعفر بن سعيد قال اذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغايب
وقال مجاهد ان الرجل ليبشر بصلاح ولده في قبره وروى ابو ايوب الانصاري
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان نفس المومن اذا قبضت تلقاها اهل الرحمة
من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا فيقولون انظروا اخاكم حتى يستريح فانه كان
في كرب شديد فيسالونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة وهل تزوجت فلانة
فاذا سالوه عن رجل مات قبله قالوا انا لله وانا اليه راجعون ذهب
الى امه الهاوية

بيان كلام القبر للميت وكلامه الموتى

اما بلسان المقال او بلسان الحال التي هي افصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم
الاحيا ~~التي هي افصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الاحيا~~ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك بي الم تعلم اني بيت الفتنة وبيت
الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك بي ~~الم تعلم~~ اذ كنت تمر بي فذاذا فان كان مصلحا
اجاب عنه مجيب القبر فيقول ارايت ان كان يامر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر اني اذا
اتحول عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصعد روحه الى الله تعالى والفذاذ هو الذي
يقدم رجلا ويوخر اخرى كذلك فسره الراوي وقال عبيد بن عمير الليثي ليس من ميت يموت الا نادته
حفرته التي يدفن فيها انا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فان كنت في حياتك لله مطيعا
كنت عليك اليوم رحمة وان كنت عاصيا فانا عليك اليوم نقمة انا الذي من دخلني مطيعا خرج
مسرورا ومن دخلني عاصيا خرج مثبورا وقال محمد بن صبيح بلغنا ان الرجل اذا وضع في قبره
فعذب واصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى ايها المتخلف في الدنيا بعد اخوانه وجيرانه
اما كان لك فينا معتبر او ما كان لك في تقدمنا اياك فكرة اما رايت انقطاع اعمالنا عنا وانت
في المهلة فهلا استدركت ما فات اخوانك وتناديه بقاع الارض ايها المغتر بظاهر الدنيا
هلا اعتبرت بمن غيب من اهلك في بطن الارض ممن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به اجله
الى القبور وانت تراه محمولا تهاداه احبته الى المنزل الذي لا بد له منه وقال
يزيد الرقاشي بلغني ان الميت اذا وضع في قبره احتوشته اعماله ثم انطقها الله

ايها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الاخلاء والاهلون فلا انيس لك اليوم عندنا
وقال كعب اذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته اعماله الصالحة الصلاة
والصيام والحج والجهاد والصدقة قال وتجي ملايكة العذاب من قبل رجليه فيقول
الصلاة اليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد اطال بي القيام لله عليهما فياتونه من
قبل راسه فيقول الصيام لا سبيل لكم عليه فقد اطال ظماه لله تعالى في دار الدنيا
فلا سبيل لكم عليه فياتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد اليكم عنه فقد انصب
نفسه واتعب بدنه وحج وجاهد لله تعالى لا سبيل لكم عليه قال فياتونه من قبل
يديه فيقول الصدقة كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين
اليدين حتى وقعت في يد الله ابتغا وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيقال له هنيا
طبت حيا وطبت ميتا قال وتاتيه ملايكة الرحمة فتفرش له فراشا من الجنة
ودثارا من الجنة ويفسح له في قبره مد بصره ويوتى بقنديل من الجنة فيستضي
بنوره الى يوم يبعثه الله من قبره وقال عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة بلغني ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال ان الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه ولا يكلمه شي الا قبره
يقول ويحك يا ابن ادم اليس قد حذرتني وحذرت ضيقي ونتني وهولي ودودي فما اعددت لي

بيان عذاب القبر وسوال منكر ونكير

قال البرا بن عازب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الانصار فجلس رسول الله
صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا راسه ثم قال اللهم اني اعوذ بك من عذاب القبر ثلاثا
ثم قال ان المومن اذا كان في قبل من الاخرة بعث الله ملايكة كان وجوههم الشمس معهم
حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره فاذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السما
والارض وكل ملك في السما وفتحت ابواب السما فليس منها باب الا يحب ان يدخل بروحه منه
فاذا صعد بروحه قيل اي رب عبدك فلان فيقول ارجعوه فاروه ما اعددت له من الكرامة
فاني وعدته منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى وانه ليسمع خفق
نعالهم اذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربي الله
وديني الاسلام ونبيي محمد قال فينتهرانه انتهارا شديدا وهي اخر فتنة تعرض
على الميت فاذا قال ذلك نادى مناد ان صدقت وهو معنى قوله تعالى يثبت الله الذين امنوا
بالقول الثابت الاية ثم ياتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول
ابشر برحمة من ربك وجنات فيها نعيم مقيم فيقول وانت فبشرك الله بخير
من انت فيقول انا عملك الصالح والله ما علمت ان كنت لسريعا في طاعة الله
بطيا عن معصية الله فجزاك الله خيرا ثم قال ينادي مناد ان افرشوا له من

الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة فيفرش له فرش الجنة ويفتح له باب الى الجنة فيقول
اللهم عجل قيام الساعة حتى ارجع الى اهلي ومالي قال واما الكافر فانه اذا كان في قبل من
الاخرة وانقطاع من الدنيا نزل اليه ملايكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرابيل
من قطران فيحتوشونه فاذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السما والارض
وكل ملك في السما وغلقت ابواب السما فليس منها باب الا ويكره ان تدخل بروحه
منه فاذا صعد بروحه نبذ وقيل اي رب عبدك فلان لم تقبله سما ولا ارض فيقول
ارجعوه فاروه ماذا اعددت له من الشر اني وعدته منها خلقناكم وفيها نعيدكم
الاية فانه ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حتى يقال له يا هذا من ربك وما
دينك ومن نبيك فيقول لا ادري فيقال لا دريت ثم ياتيه آت قبيح الوجه منتن
الريح قبيح الثياب فيقول ابشر بسخط من الله وبعذاب اليم فيقول بشرك الله بشر
من انت فيقول انا عملك الخبيث والله ان كنت لسريعا الى معصية الله بطيا
عن طاعة الله فجزاك الله شرا فيقول وانت فجزاك الله شرا ثم يقيض له اصم ابكم
اعمى معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على ان يقلوها ما استقلوها لم
يستطيعوا وهو يضرب بها جبل لصار ترابا فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ثم يعود
فيها الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الارض ليس الثقلين قال ثم
ينادي مناد ان افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له بابا الى النار فيفرش له لوحان
من نار ويفتح له باب الى النار وقال محمد بن علي ما من ميت يموت الا مثل له عند الموت
اعماله الحسنة واعماله السيئة قال فيشخص الى حسناته ويطرق عن سيئاته وقال
ابو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم ان المومن اذا حضرته الملائكة بحريرة فيها مسك
وضبائر الريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال ايتها النفس المطمينة
اخرجي راضية مرضية ومرضيا عنك الى روح الله وكرامته فاذا اخرجت روحه وضعت
على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها الى عليين وان الكافر اذا
حضرته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعا شديدا ويقال ايتها
النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوطا عليك الى هوان الله وعذابه فاذا اخرجت روحه
وضعت على تلك الجمرة فان لها نشيشا ويطوى عليها المسح ويذهب بها الى سجين
وعن محمد بن كعب القرظي انه كان يقرا قوله تعالى حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون
لعلي اعمل صالحا فيما تركت قال اي شي تريد في اي شي ترغب اتريد ان ترجع لتجمع المال وتغرس
الغراس وتبني البنيان وتشق الانهار قال لا لعلي اعمل صالحا فيما تركت قال فيقول
الجبار تعالى كلا انها كلمة هو قايلها اي ليقولها عند الموت وقال ابو هريرة رضي الله عنه

قال النبي صلى الله عليه وسلم المومن في قبره في روضة خضرا ويرحب له في قبره سبعون
ذراعا ويضي حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيما انزلت فان له معيشة ضنكا
قالوا الله ورسوله اعلم قال عذاب القبر للكافر يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون
ما التنين تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة روس يخدشونه ويلحسونه وينفخون
في جسمه الى يوم يبعثون ولا ينبغي ان يتعجب من هذا العدد على الخصوص فان اعداد هذه
الحيات والعقارب بقدر اعداد الاخلاق المذمومة من الكبر والريا والحسد والغل
والحقد وساير الصفات فان لها اصولا معدودة ثم تتشعب منها فروع معدودة
ثم تنقسم فروعها باقسام وتلك الصفات باعيانها هي المهلكات وهي باعيانها تنقلب
عقارب وحيات فالقوي منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقارب
وما بينهما يوذي ايذا الحيات وارباب القلوب والبصاير يشاهدون بنور البصيرة
هذه المهلكات وانشعاب فروعها الا ان مقدار عددها لا يوقف عليه الا بنور النبوة فامثال
هذه الاخبار لها ظواهر صحيحة واسرار خفية ولكنها عند ارباب البصاير واضحة
فمن لم ينكشف له حقايقها فلا ينبغي ان ينكر ظواهرها بل اقل درجات الايمان التصديق
والتسليم فان قلت فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيا
من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة فاعلم ان لك ثلث مقامات
في التصديق بامثال هذا احدها وهو الاظهر والاصح والاسلم ان تصدق بانها
موجودة وهي تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك فان هذه العين لا تصلح لمشاهدة
الامور الملكوتية وكل ما يتعلق بالاخرة فهو من عالم الملكوت اما ترى الصحابة
كيف كانوا يومنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ويومنون بانه عليه الصلاة
والسلام يشاهده فان كنت لا تومن بهذا فتصحيح اصل الايمان بالملايكة والوحي
اهم عليك وان امنت به وجوزت ان يشاهد النبي ما لا تشاهده الامة فكيف
لا يجوز هذا في الميت وكما ان الملك لا يشبه الادميين والحيوانات فالحيات
والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس اخر وتدرك
بحاسة اخرى المقام الثاني ان تتذكر امر النايم وانه قد يرى في نومه حية
تلدغه وهو يتالم بذلك حتى تراه في نومه يصيح ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه
كل ذلك يدركه من نفسه ويتاذى به كما يتاذى اليقظان وهو يشاهده وانت
ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواليه حية والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل
ولكنه في حقك غير مشاهد واذا كان العذاب في الم اللدغ حاصلا فلا فرق بين
حية تتخيل او تشاهد المقام الثالث تعلم ان الحية بنفسها لا تولم بل الذي

يلقاك منها وهو السم ثم السم ليس هو الالم بل عذابك في الاثر الذي يحصل فيك من السم فلو
حصل مثل ذلك الاثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك
النوع من العذاب الا بان يضاف الى السبب الذي يفضي اليه في العادة فانه لو خلق
في الانسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها الا بالاضافة
اليه ليكون الاضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وان لم تحصل
صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لذاته وهذه الصفات المهلكات تنقلب
موذيات ومولمات في النفس عند الموت فيكون الامها كالام لدغ الحيات من غير
وجود حيات وانقلاب الصفة موذية تضاهي انقلاب العشق موذيا عند موت
المعشوق فانه كان لذيذا فطرات حالة صار اللذيذ بنفسه مولما حتى ترد على القلب
من انواع العذاب ما يتمنى معه انه لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال بل هذا
بعينه هو احد انواع عذاب الميت فانه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه
فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده واقاربه ومعارفه ولو اخذ منه جميع
ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فما ذا ترى يكون حاله اليس يعظم
شقاوه ويشتد عذابه ويتمنى ويقول ليته لم يكن لي مال قط ولا جاه قط
فكنت لا اتاذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيا وسلبها
كلها دفعة واحدة ٭ ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد
فما حال من لا يفرح الا بالدنيا فتوخذ منه الدنيا وتسلم الى اعدايه ثم ينضاف الى
هذا العذاب تحسره على ما فاته من نعيم الاخرة والحجاب عن الله تعالى فان حب
غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به فيتوالى عليه الم الفراق من جميع
محبوباته وحسرة ما فاته من نعيم الاخرة ابد الاباد وذل الرد والحجاب
عن الله تعالى وذلك هو الذي يعذب به اذ لا يتبع نار الفراق الا نار جهنم
كما قال تعالى كلا انهم عن ربهم يوميذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم
واما من لم يانس بالدنيا ولم يحب الا الله وكان مشتاقا الى لقاء الله
فقد تخلص بالموت من سجن الدنيا ومقاسات الشهوات فيها وقدم على
محبوبه وانقطعت عنه العلايق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الامن
عن الزوال ابد الاباد ولمثل هذا فليعمل العاملون والمقصود ان الرجل قد
يحب فرسه بحيث لو خير بين ان يوخذ منه وبين ان يلدغه عقرب
اثر الصبر على لدغ العقرب فاذن الم الفراق للفرس عنده اعظم من
لدغ العقرب وحبه للفرس هو الذي يلدغه اذا اخذ منه فرسه فليستعد

لهذه اللدغات فان الموت ياخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره واهله
واحبابه وولده ومعارفه وياخذ منه جاهه وقبوله بل ياخذ منه سمعه
وبصره واعضاءه وييايس عن رجوع جميع ذلك اليه فاذا لم يحب
سواه وقد اخذ جميع ذلك منه فذلك اعظم عليه من العقارب والحيات
وكما لو اخذ منه وهو حي فيعظم عقابه فكذلك اذا مات لانا قد بينا ان المعني
الذي هو المدرك للالام واللذات لم يمت بل هو ابدا بعد الموت اشد لانه
في الحياة يتسلى باسباب تشتغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى
برجا العود اليه ويتسلى برجا العوض منه والسلو بعد الموت اذ قد اشتد عليه
طريق التسلي وحصل الياس فاذن كل قميص له ومنديل قد احبه بحيث كان
يشق عليه لو اخذ منه فانه يبقى متاسفا عليه ومعذبا به فان كان مخفا من
الدنيا سلم وهو المعني بقولهم نجا المخفون وان كان مثقلا عظم عذابه كما
ان حال من يسرق منه دينار اخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير فكذلك
صاحب الدرهم اخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعني بقوله صلى الله عليه وسلم
صاحب الدرهم اخف حسابا من صاحب الدرهمين وما من شي من الدنيا يتخلف
عنك عند الموت الا وهو حسرة عليك بعد الموت فان شيت فاستكثر
وان شيت فاستقلل فان استكثرت فلست مستكثرا الا من الحسرة
وان استقللت فلست تخفف الا عن ظهرك وانما تكثر الحيات والعقارب
في قلوب الاغنيا الذين استحبوا الحياة الدنيا على الاخرة وفرحوا بها واطمانوا
اليها فهذه مقامات الايمان في حيات القبر وعقاربه وفي ساير انواع
عذابه راى ابو سعيد الخدري ابنا له قد مات في المنام فقال له يا بني عظني
فقال لا تخالف الله فيما يريد قال يا بني زدني قال يا ابة لا تطيق قال قل قال
لا تجعل بينك وبين الله قميصا فما لبس قميصا ثلاثين سنة فان قلت
فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث فاعلم ان في الناس من لم
يثبت الا الاول وانكر ما بعده ومنهم من انكر الاول واثبت الثاني ومنهم
من لم يثبت الا الثالث واما الحق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار ان
كل ذلك في حيز الامكان وان من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله
باتساع قدرة الله تعالى سبحانه وعجايب تدبيره فينكر من افعال الله تعالى
ما لم يانس به ويالفه وذلك جهل وقصور بل هذه الطرق الثلاثة في
العقاب ممكنة والتصديق بها واجب ورب عبد يعاقب بنوع واحد

من هذه الانواع ورب عبد تجتمع عليه هذه الانواع الثلاثة نعوذ بالله من
عذابه الله قليله وكثيره هذا هو الحق فصدق به تقليدا فيعز على بسيط
الارض من يعرف ذلك جميعا والذي اوصيك به ان لا تكثر نظرك الى
تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته بل تشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيف ما
كان فان اهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت
كمن اخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع انفه فاخذ طول الليل
يتفكر في انه هل يقطعه بسكين او بسيف او بموسى واهمل طريق الحيلة
في دفع اصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل فقد علم قطعا ان العبد
بعد الموت لا يخلو عن عقاب عظيم او عن نعيم مقيم فينبغي ان يكون الاستعداد
له فاما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان

بيان سؤال منكر ونكير وضغطة القبر
وبقية القول في عذاب القبر

قال ابو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا مات العبد اتاه ملكان اسودان
ازرقان يقال لاحدهما منكر وللاخر نكير فيقولان له ما كنت تقول في النبي
فان كان مؤمنا قال هو عبد الله ورسوله اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان
محمدا رسول الله فيقولان له ان كنا لنعلم انك تقول ذلك ثم يفسح له في قبره
سبعون ذراعا في سبعين ذراعا وينور له في قبره ثم يقال له نم فيقول
دعوني ارجع الى اهلي فاخبرهم فيقال له نم فينام كنومة العروس الذي لا
يوقظه الا احب اهله اليه حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك وان كان منافقا
قال لا ادري كنت اسمع الناس يقولون شيئا وكنت اقوله فيقولان ان كنا
لنعلم انك تقول ذلك ثم يقال للارض التئمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف
فيها اضلاعه فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وعن
عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب يا عمر كيف
بك اذا انت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة اذرع في ذراع وشبر ثم
رجعوا اليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه
ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك فاذا انصرفوا عنك اتاك فتانا القبر
منكر ونكير اصواتهما كالرعد القاصف وابصارهما كالبرق الخاطف يجران
اشعارهما ويبحثان القبر بانيابهما فتلتلاك وترتراك كيف بك عند ذلك

يا عمر

يا عمر فقال عمر ويكون معي مثل عقلي الان قال نعم قال اذا اكفيكهما وهذا
نص صريح ان العقل لا يتغير بالموت انما يتغير البدن والاعضاء فيكون
الميت عاقلا مدركا عالما بالالام واللذات كما كان لا يتغير من عقله شيء
وليس العقل المدرك هذه الاعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا
عرض بل الذي لا ينقسم في نفسه هو المدرك للاشياء ولو تناثرت اعضاء
الانسان كلها ولم يبق الا الجزء المدرك الذي لا يتجزى ولا ينقسم لكان الانسان
العاقل بكماله قائما باقيا وهو كذلك بعد الموت فان ذلك الجزء لا يحله الموت
ولا يطرا عليه العدم وقال محمد بن المنكدر بلغني ان الكافر يسلط عليه في قبره
دابة عمياء صماء في يدها سوط من حديد في راسه مثل غرب الجمل يضربه
الى يوم القيامة لا يراها فيتقيها ولا يسمع صوتها فيرحمها وقال ابو هريرة
اذا وضع الميت في قبره جاءته اعماله الصالحة فاحتوشته فان اتاه من قبل
راسه جاءت قراءته القران وان اتاه من قبل رجليه جاء قيامه وان اتاه من
قبل يديه قالت اليدان والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء لا سبيل
لكم عليه وان جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه وكذلك تقف الصلاة
والصبر ناحية فتقول اما اني لو رايت خللا لكنت انا صاحبه قال
سفيان يحاج عنه اعماله الصالحة كما يحاج الرجل عن اخيه واهله وولده
ثم يقال له عند ذلك بارك الله في مضجعك فنعم الاخلاء اخلاؤك ونعم الاصحاب
اصحابك وعن حذيفة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على
راس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال يضغط المؤمن في هذا ضغطة ترد
منها حمايله وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان
للقبر ضغطة ولو سلم او نجا منها احد لنجا سعد بن معاذ وعن انس
قال توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امراة مسقامة
فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله فلما انتهينا الى القبر فدخله
التمع وجهه صفرة فلما خرج اسفر وجهه فقلنا يا رسول الله راينا منك
شيئا فمم ذاك قال ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر فاتيت
فاخبرت ان الله قد خفف عنها ولقد ضغطت ضغطة سمع
صوتها ما بين الخافقين

الباب الثامن فيما
عرف من احوال الموتى بالمكاشفة في المنام اعلم ان انوار
البصائر المستفادة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن

منابع الاعتبار تعرفنا احوال الموتى على الجملة وانقسامهم الى سعداء واشقياء
ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف به اصلا فانا ان عولنا على ايمان زيد
فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له وان عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى
محلها القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره فلا حكم
لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى انما يتقبل الله من المتقين
فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو الا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه
واذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة الى عالم الغيب والملكوت
فلا يرى بالعين الظاهرة وانما يدرك بعين اخرى خلقت تلك العين في
قلب كل انسان ولكن الانسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته
واشغاله الدنيوية وصار لا يبصر بها ولا يتصور ان يبصر
بها شيئا من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه ولما
كانت الغشاوة منقشعة عن اعين الانبياء عليهم الصلاة والسلام
فلا جرم نظروا الى الملكوت وشاهدوا عجائبه والموتى في عالم الملكوت
فشاهدوهم واخبروا عنهم ولذلك راى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة
القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال ابي جابر
لما استشهد اذ اخبر ان الله تعالى اقعده بين يديه ليس بينهما ستر
ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الانبياء والاولياء الذين تقرب درجتهم
منهم وانما الممكن من امثالنا مشاهدة اخرى ضعيفة الا انها ايضا
مشاهدة نبوية واعني بها المشاهدة في المنام وهو من انوار النبوة
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة واربعين جزءا
من النبوة وهو ايضا انكشاف لا يحصل الا بانقشاع الغشاوة
عن القلب فلذلك لا يوثق الا برؤيا الصالح الصادق ومن كثر كذبه
لم تصدق رؤياه قال عليه الصلاة والسلام اصدقكم رؤيا اصدقكم
حديثا ومن كثرت فساده ومعاصيه اظلم قلبه فكان ما يراه
اضغاث احلام ولذلك امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة
عند النوم لينام طاهرا وهو اشارة الى طهارة الباطن ايضا
فهو الاصل وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها ومهما صفا الباطن
انكشف في حدقة القلب ما سيكون في المستقبل كما انكشف دخول مكة لرسول الله
صلى الله عليه وسلم في النوم حتى نزل قوله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقلما يخلو

الانسان

الانسان عن منامات دلت على امور فوجدها صحيحة والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم
من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الادمي وهو من اوضح الادلة على عالم الملكوت
والخلق غافلون عنه لغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في
حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة ولكن
القدر الذي يمكن ذكره هاهنا مثال يفهمك المقصود وهو ان تعلم ان القلب
مثاله مثال مراة تتراءى فيها الصور وحقائق الامور وان كل ما قدره الله تعالى من ابتداء
خلق العالم الى اخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح
وتارة بالكتاب المبين وتارة بامام مبين كما ورد في القران فجميع ما جرى في العالم
وما سيجري فيه مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين ولا تظنن
ان ذلك اللوح من خشب او حديد او عظم وان الكتاب من كاغد او ورق
بل ينبغي ان تفهم قطعا ان لوح الله لا يشبه لوح الخلق وكتاب الله لا يشبه
كتاب الخلق كما ان ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم بل ان كنت
تطلب له مثالا تقربه الى فهمك فاعلم ان ثبوت المقادير في اللوح المحفوظ يضاهي
ثبوت كلمات القران وحروفه في دماغ حافظ القران وقلبه فانه مسطور فيه
حتى كانه حيث يقرؤه ينظر اليه ولو فتشت دماغه جزءا جزءا لم تشاهد
من ذلك الخط حرفا فمن هذا النمط ينبغي ان تفهم كون اللوح منقوشا بجميع
ما قدره الله وقضاه واللوح في المثال كمراة تظهر فيها الصور فلو وضع في
مقابلة المراة مراة اخرى لكانت صورة تلك المراة تتراءى في هذه الا ان
يكون بينهما حجاب فالقلب مراة تقبل رسوم العلوم واللوح مراة رسوم
العلوم كلها موجودة فيها واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب
مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو من عالم الملكوت فان هبت ريح
حركت هذا الحجاب ورفعته تلالا في مراة القلب شيء من عالم الملكوت
كالبرق الخاطف وقد يثبت ويدوم وقد لا يدوم وهو الغالب وما دام
متيقظا فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة وهو
حجاب عن عالم الملكوت ومعنى النوم ان تركد الحواس فلا تورد على القلب شيئا
فاذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين
اللوح المحفوظ فوقع في قلبه شيء مما في اللوح كما تقع الصورة من مراة في مراة
اخرى اذا ارتفع الحجاب بينهما الا ان النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس
مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه فما يقع في القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال

يقاربه ويكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ فإذا
انتبه لم يتذكر إلا الخيال فيحتاج المعبر أن ينظر أن هذا الخيال حكاية أي
معنى من المعاني بالمناسبة التي بين التخيل والمعاني وأمثلة ذلك ظاهرة
عند من نظر في علم التعبير فيكفيك مثال واحد وهو أن رجلا قال لابن سيرين
رأيت كأن بيدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النسا فقال إنك مؤذن
تؤذن قبل الصبح في رمضان فقال صدقت فانظر أن روح الختم هو المنع ولأجله
يراد الختم وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه
وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب والجماع ولكن الخيال ألف المنع عند
بالخاتم بالختم فتمثله بالصور الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ
إلا الصورة الخيالية فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا التي لا تنحصر عجائبه
وكيف لا وهو أخو الموت وإنما الموت هو عجيب من العجائب وهذا أنه أخو
يشبهه من وجه ضعيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب حتى صار النائم
يعرف ما سيكون في المستقبل فماذا ترى في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف
الغطاء بالكلية حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه
إما محفوفة بالأنكال والمخازي والفضائح نعوذ بالله من ذلك وإما محفوفة
بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له وعند ذلك يقال للأشقيا وقد انكشف الغطا
لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاك فبصرك اليوم حديد ويقال
أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم
إنما تجزون ما كنتم تعملون وإلى السعداء الإشارة بقوله تعالى وبدا لهم من الله
ما لم يكونوا يحتسبون فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له من العجائب
والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل
هم ولا غم إلا الفكرة في خطر تلك الحالة أن الحجاب عماذا يرتفع وما الذي ينكشف عنه
الغطا من شقاوة لازمة أو سعادة دائمة لكان ذلك كافيا في استغراق جميع العمر
والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا
وأهلينا وأسبابنا وأولادنا بل بأعضائنا وسمعنا وبصرنا مع أنا نعلم مفارقة
جميع ذلك يقينا ولكن أين من ينفث روح القدس في روعه فيقول له ما قال
لسيد النبيين أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت
واعمل ما شئت فإنك مجزي به فلا جرم لما كان ذلك مكشوفا له بعين اليقين
كان في الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولم

يخلف

لاتخذت

يخلف دينارا ولا درهما ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا نعم قال لو كنت متخذا خليلا
أبا بكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن فبين أن خلة الرحمن تخللت باطن قلبه
وأن حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعا لخليل ولا حبيب وقد قال
لأمته إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله فإنما أمته من اتبعه وما اتبعه الآم
إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة فإنه ما دعا إلا إلى الله واليوم الآخر وما
صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على
الآخرة فقد سلكت سبيله الذي سلكه وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتبعته وبقدر
ما اتبعته صرت من أمته وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت
عن متابعته والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا
فإن الجحيم هي المأوى فلو خرجت من مكمن الغرور وأنصفت نفسك يا رجل وكلنا
ذلك الرجل لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسي لا تسعى إلا في الحظوظ العاجلة
ولا تتحرك ولا تسكن إلا لعاجل الدنيا ثم تطمع في أن تكون غدا من أمته وأتباعه
ما أبعد ظنك وما أبرد طمعك أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ولنرجع
إلى ما كنا فيه وبصدده فقد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده ولنذكر الآن
من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوة
وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من
رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي وقال عمر بن الخطاب رأيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم في المنام فرأيته لا ينظر إلي فقلت يا رسول الله ما شأني فالتفت إلي
وقال ألست المقبل وأنت صائم فقال فوالذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم
أبدا وقال العباس رضي الله عنه كنت ودا لعمر رضي الله عنه فاشتهيت أن أراه
في المنام فما رأيته إلا عند رأس الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول
هذا أوان فراغي إن كان عرشي ليهد لولا أني رأيته رؤوفا رحيما وقال الحسن
بن علي رضي الله عنهما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنح لي الليلة في منامي فقلت
يا رسول الله ما لقيت من أمتك قال ادع عليهم فقلت اللهم أبدلني بهم من هو خير لي
منهم وأبدلهم بي من هو شر لهم مني فخرج فضربه ابن ملجم وقال بعض الشيوخ رأيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت يا رسول الله استغفر لي فأعرض عني فقلت
يا رسول الله إن سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أنك لم

تسل قط شيئا فقلت لا فاقبل علي فقال غفر الله لك • وروي عن العباس بن عبد المطلب
قال كنت مواخيا لابي لهب مصاحبا له فلما مات واخبر الله عنه بما اخبر حزنت عليه
واهمني امره فسالت الله حولا كاملا ان يريني اياه في المنام قال فرايته يلتهب
نارا فسالته عن حاله فقال صرت الى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروح عني
الا ليلة الاثنين في كل الليالي والايام قلت وكيف ذلك قال ولد في تلك الليلة
محمد فجاءتني اميمة وبشرتني بولادة آمنة ففرحت به واعتقت وليدة لي
فرحا به فاثابني الله بذلك ان رفع عني العذاب في كل ليلة الاثنين • وقال عبد الواحد
بن زيد خرجت حاجا فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن الا صلى
على النبي صلى الله عليه وسلم فسالته عن ذلك فقال اخبرك عن ذلك خرجت اول مرة الى مكة
ومعي ابي فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل فبينا انا نائم اذ اتاني آت فقال لي
قم فقد امات الله اباك وسود وجهه فقمت مذعورا فكشفت الثوب عن
وجهه فاذا هو ميت اسود الوجه فدخلني من ذلك رعب فبينما انا في ذلك الغم
اذ غلبتني عيني فنمت فاذا على راس ابي اربعة سود معهم اعمدة حديد
اذ اقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين اخضرين فقال لهم تنحوا فمسح وجهه
بيده ثم اتاني فقال قم فقد بيض الله وجه ابيك فقلت له من انت
بابي انت وامي فقال انا محمد صلى الله عليه وسلم • وعن عمر بن عبد العزيز
قال رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده
فسلمت وجلست فبينا انا جالس اذ اتي بعلي ومعوية رضي الله عنهما وادخلا
بيتا واجيف عليهما الباب وانا انظر فما كان باسرع ان خرج علي رضي الله عنه وهو يقول
قضي لي ورب الكعبة وما كان باسرع ان خرج معوية رضي الله عنه على اثره وهو يقول
غفر لي ورب الكعبة • واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما من نومه مرة فاسترجع
وقال قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله فانكره اصحابه فقال رايت رسول الله
صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال الا تعلم ما صنعت امتي بعدي
قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم اصحابه ارفعهما الى الله عز وجل فجاء
الخبر بعد اربعة وعشرين يوما بقتله في اليوم الذي راه • وروي
الصديق رضي الله عنه في المنام فقيل له انك كنت تقول ابدا في لسانك هذا اوردني
الموارد فما فعل الله بك قال قلت به لا اله الا الله فاوردني الجنة •
بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم وقال بعض المشايخ رايت
منتهم الدورقي في المنام فقلت يا سيدي ما فعل الله بك قال ديني بيعي للجنان فقيل
لي

لي يا منتهم هل استحسنت فيها شيئا قلت لا يا سيدي فقال لو استحسنت فيها
شيئا لوكلتك اليه ولم اوصلك اليه • وروي يوسف بن الحسين في المنام
فقيل له ما فعل الله بك فقال غفر لي فقيل بماذا قال ما خلطت جدا بهزل • وعن
منصور بن اسمعيل قال رايت عبد الله البزاز في النوم فقلت ما فعل الله بك قال
اوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب اقررت به الا ذنبا واحدا فاني استحييت
ان اقر به فوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي فقلت ما كان ذلك الذنب قال
نظرت الى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله تعالى ان اذكره • وقال
ابو جعفر الصيدلاني رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وحوله جماعة من
الفقراء فبينا نحن كذلك اذ انشقت السماء ونزل ملكان احدهما بيده طشت
والاخر بيده ابريق فوضع الطشت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل
يده ثم امر حتى غسلوا ثم وضع الطشت بين يدي فقال احدهما للاخر لا تصب على
يده فانه ليس منهم فقلت يا رسول الله فاني احبك واحب هولاء الفقراء فقال صلى الله عليه وسلم
صب على يده فانه منهم • وقال الجنيد رايت في النوم كاني اتكلم على الناس فوقف
علي ملك فقال اقرب ما تقرب به المتقربون الى الله تعالى ماذا فقلت عمل خفي
بميزان وفي فولى الملك وهو يقول كلام موفق والله • وروي مجمع في النوم
فقيل له كيف رايت الامر فقال رايت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا
والاخرة • وقال رجل من اهل الشام للعلاء بن زياد رايتك في النوم كانك في الجنة
فنزل عن مجلسه واقبل عليه ثم قال لعل الشيطان اراد امرا فعصمت منه فاشخص
رجلا يفتنني • وقال محمد بن واسع الرؤيا تسر المومن ولا تغره • وقال صالح بن
بشير رايت عطا السلمي في النوم فقلت له رحمك الله لقد كنت طويل الحزن
في الدنيا فقال اما والله لقد اعقبني ذلك راحة طويلة وفرحا دايما فقلت
في اي الدرجات انت فقال مع الذين انعم الله عليهم من النبيين الاية • وسئل زرارة
بن اوفى في المنام اي الاعمال افضل عندكم فقال الرضا وقصر الامل • وقال
يزيد بن مذعور رايت الاوزاعي في المنام فقلت يا ابا عمرو دلني على عمل
اتقرب به الى الله عز وجل قال ما رايت هناك درجة ارفع من درجة العلماء
ثم درجة المحزونين وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكي حتى اظلمت عيناه •
وقال ابن عيينة رايت اخي في المنام فقلت يا اخي ما فعل الله بك فقال كل
ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم استغفر منه لم يغفر لي • وقال علي
الطلحي رايت في المنام امراة لا تشبه نساء الدنيا فقلت من انت
فقالت حوراء فقلت زوجيني نفسك قالت اخطبني من سيدي وامهرني

قلت وما هو ذلك قالت حبس نفسك عن آفاتها وقال ابراهيم بن اسحق الحربي رايت
زبيدة في المنام فقلت ما فعل الله بك قالت غفر لي فقلت لها بما انفقت في طريق
مكة اما النفقات التي انفقتها رجعت اجورها الى اربابها وغفر لي بنيتي ولما
مات سفين الثوري رؤي في المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال وضعت اول قدمي
على الصراط والثاني في الجنة وقال احمد ابن ابي الحواري رايت فيما يرى النائم جارية
ما رايت قط احسن منها وكان يتلالا وجهها نورا فقلت لها ما ذا اضوء وجهك فقالت
تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها قلت نعم قالت اخذت دمعك فمسحت به وجهي فمن ثم
ضوء وجهي كما ترى وقال الكتاني رايت الجنيد في المنام فقلت ما فعل الله بك
فقال طاحت تلك الاشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا الا على ركعات
كنا نصليها في الليل ورايت زبيدة في المنام فقيل لها ما فعل الله بك قالت غفر لي
بهذه الكلمات الاربع لا اله الا الله افني بها عمري لا اله الا الله ادخل بها قبري
لا اله الا الله اخلو بها وحدي لا اله الا الله القى بها ربي ورؤي بشر في المنام
فقيل له ما فعل الله بك قال رحمني ربي عز وجل وقال يا بشر اما استحييت مني كنت
تخافني كل ذلك الخوف ورؤي ابو سليمان في النوم فقيل له ما فعل الله بك في النوم
قال رحمني وما كان شيء اضر علي من اشارات القوم الي وقال ابو بكر الكتاني
رايت في النوم شابا لم ار احسن منه فقلت من انت قال التقوى قلت فاين
تسكن قال كل قلب حزين ثم التفت فاذا امراة سوداء كاوحش ما يكون فقلت
من انت قالت السقم قلت فاين تسكنين قالت كل قلب فرح مرح قال
فانتبهت واعتقدت ان لا اضحك الا غلبة وقال ابو سعيد الخراز رايت
في المنام كان ابليس وثب علي فاخذت العصا لاضربه فلم يفزع منها فهتف
بي هاتف ان هذا لا يخاف من هذه وانما يخاف من نور يكون في القلب وقال الشيخ
رايت ابليس في النوم يمشي فقلت الا تستحي من الناس فقال بالله هؤلاء ناس
لو كانوا من الناس ما كنت العب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان
بالكرة بل الناس قوم غير هؤلاء قد اسقموا جسمي واشار بيده الى اصحابنا
الصوفية وقال ابو سعيد الخراز كنت في دمشق فرايت في المنام كان النبي
صلى الله عليه وسلم جاءني متكيا على ابي بكر وعمر رضي الله عنهما فجاء فوقف علي وانا
اقول شيا من الاصوات وادق على صدري فقال شره هذا اكثر من خيره وعن
ابن عيينة قال رايت سفين الثوري في النوم كانه في الجنة يطير من شجرة
الى شجرة يقول لمثل هذا فليعمل العاملون فقلت له اوصني قال اقل من معرفة
الناس وروى ابو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال رايت سفين الثوري

فقلت

فقلت ما فعل الله بك فقال منشدا

نظرت الى ربي كفاحا فقال لي ‹ هنيئا رضائي عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواما اذا اظلم الدجى ‹ بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر اي قصر اردته ‹ وزرني فاني منك غير بعيد

ورؤي الشبلي بعد موته بثلاثة ايام فقيل له ما فعل الله بك فقال ناقشني حتى
ايست فلما راى ياسي تغمدني برحمته ورؤي مجنون بني عامر بعد موته في المنام
فقيل له ما فعل الله بك فقال غفر لي وجعلني حجة على المحبين ورؤي الثوري في المنام
فقيل له ما فعل الله بك فقال رحمني فقيل له ما حال عبد الله بن المبارك فقال هو ممن يلج على
ربه في كل يوم مرتين ورؤي بعضهم فسئل عن حاله فقال

حاسبونا فدققوا ثم منوا فاعتقوا

ورؤي مالك ابن انس فقيل ما فعل الله بك فقال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان
رضي الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحي الذي لا يموت ورؤي في الليلة التي مات
فيها الحسن البصري كان ابواب السماء مفتحة وكان مناديا ينادي الا ان الحسن البصري
قدم على الله وهو عنه راض ورؤي الجاحظ فقيل ما فعل الله بك فقال ولا تكتب
بكفك غير شيء يسرك في القيامة ان تراه ورأى الجنيد ابليس في المنام عريانا
فقال الا تستحي من هؤلاء الناس فقال وهؤلاء ناس الناس اقوام في مسجد الشونيزية
قد اضنوا جسدي واحرقوا كبدي قال الجنيد فلما انتبهت غدوت الى المسجد
فرايت جماعة قد وضعوا رؤوسهم على ركبهم يتفكرون فلما راوني قالوا لا يغرنك
حديث الخبيث ورؤي النصراباذي ~~في المنام~~ بمكة بعد وفاته في النوم فقيل
له ما فعل الله بك قال عوتبت عتاب الاشراف ثم نوديت يا ابا القاسم ابعد الاتصال
انفصال فقلت لا يا ذا الجلال فما وضعت في اللحد حتى لحقت بالاحد ورأى
عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة انا لك عاشقة
فانظر لا تعمل من الاعمال شيا يحال بيني وبينك فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة
لي فيها حتى القاك وقيل راى ايوب السختياني جنازة عاص فدخل الدهليز
لئلا يصلي عليها فرآه بعضهم الميت في المنام فقال ما فعل الله بك فقال غفر لي
وقال قل لايوب لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي اذا لامسكتم خشية الانفاق
وقال بعضهم رايت في الليلة التي مات فيها داود الطائي وقد زخرفت الجنة
لقدوم روحه وقال ابو سعيد الشحام رايت سهل الصعلوكي في المنام فقلت
ايها الشيخ فقال دع التشييخ قلت فسالك عن تلك الاحوال التي شاهدتها فقال لم

تنغص عنا شيا فقلت ما فعل الله بك قال غفر لي بمسايل كانت تسئل عنها العجز
وقال ابو بكر الوسعدي رايت محمد الطوسي المعلم في النوم فقال لي قل لابي سعيد
الصفار المودب • وكنا على ان لانحول عن الهوى • فقد وحياة الحب حلتم وما حلنا
قال فانتبهت فذكرت ذلك له فقال كنت ازور قبره كل جمعة فلم ازره هذه
الجمعة وقال ابن راشد رايت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت اليس قد
مت قال بلى فقلت ما صنع الله بك قال غفر لي مغفرة احاطت بكل ذنب قلت
فسفيان الثوري قال بخ بخ ذلك من الذين انعم الله عليهم من النبيين الاية
وقال ابو الربيع بن سليمان رايت الشافعي رحمه الله بعد وفاته في المنام فقلت
يا ابا عبد الله ما صنع الله بك قال اجلسني على كرسي من ذهب ونثر علي اللولو الرطب
وراي رجل من اصحاب الحسن البصري ليلة مات الحسن كان مناديا ينادي
ان الله اصطفى ادم ونوحا وال ابرهيم وال عمران على العالمين واصطفى الحسن
ابن ابي الحسن البصري على اهل زمانه وقال ابو يعقوب القاري الدقيقي
رايت في منامي رجلا آدم طويلا والناس يتبعونه فقلت من هذا قالوا
اويس القرني فاتبعته فقلت اوصني رحمك الله فكلح في وجهي فقلت مسترشد
فارشدني ارشدك الله فاقبل علي وقال ابتغ رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته
عند معصيته ولا تنقطع رجاك منه في خلال ذلك ثم ولى وتركني وقال ابو بكر
بن ابي مريم رايت ورقا ابن بشر الحضرمي فقلت ما فعلت يا ورقا قال نجوت
بعد كل جهد قلت فاي الاعمال وجدتموها افضل قال البكا من خشية الله تعالى
وقال يزيد بن نعامة هلكت جارية في الطاعون الجارف فراها ابوها
في المنام فقال لها يا بنية اخبريني عن الاخرة قالت يا ابت قد قدمنا على امر عظيم
نعلم ولا نعمل وتعلمون وما تعملون والله لتسبيحة او تسبيحتان او ركعة
او ركعتان في صحيفة عملي احب الي من الدنيا وما فيها وقال بعض اصحاب
عتبة الغلام رايت عتبة في المنام فقلت ما صنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك
الدعوة التي في بيتك قال فلما اصبحت جيت الى بيتي فاذا خط عتبة في حايط
البيت مكتوب يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرة العاثرين
ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم اجمعين واجعلنا مع الاحيا المرزوقين
الذين انعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهدا والصالحين امين
يارب العالمين وقال موسى بن حماد رايت سفين الثوري في الجنة يطير من
نخلة الى نخلة ومن شجرة الى شجرة فقلت يا ابا عبد الله بم نلت هذا فقال

بالورع

٢٦٢

بالورع قلت ما بال علي بن عاصم قال ذلك لا يكاد يُرى الا كما يُرى الكوكب الدري في افق السما وراي
رجل من التابعين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال يا رسول الله عظني قال نعم من
لم يتفقد النقصان فهو في نقصان ومن كان في نقصان فالموت خير له وقال الربيع
رحمه الله دهمني في هذه الايام امر امضني وآلمني ولم يطلع عليه غير الله عز وجل فلما كان
البارحة اتاني آت في منامي فقال يا محمد بن ادريس قل اللهم اني لا املك لنفسي ضرا ولا نفعا
ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا استطيع ان اخذ الا ما اعطيتني ولا اتقي الا ما وقيتني اللهم فوفقني
لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية فلما اصبحت اعدت ذلك فلما ترحل النهار اعطاني الله
عز وجل طلبتي وسهل لي الخلاص مما كنت فيه فعليكم بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها فهذه
جملة من المكاشفات تدل على احوال الموتى وعلى الاعمال المقربة الى الله تعالى زلفى فلنذكر بعد هذا
ما بين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور الى اخر القرار اما في الجنة واما في النار الشطر الثاني

من كتاب ذكر الموت في احوال الميت من وقت نفخة الصور الى اخر الاستقرار في الجنة
او النار وتفصيل ما بين يديه من الاهوال والاخطار وفيه بيان نفخة الصور وصفة
ارض المحشر واهله وصفة عرق اهل المحشر وصفة طول يوم القيمة وصفة يوم القيمة ودواهيه
واساميه وصفة المسايلة عن الذنوب وصفة الميزان وصفة الخصما ورد المظالم وصفة
الصراط وصفة الشفاعة وصفة الحوض وصفة جهنم واهوالها وانكالها وحياتها وعقاربها
وصفة الجنة واصناف نعيمها وعدد الجنان وابوابها وغرفها وحيطانها وانهارها واشجارها
ولباس اهلها وفرشهم وسررهم وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان وصفة النظر الى
وجه الله تعالى وباب في سعة رحمة الله تعالى به ختم الكتاب ان شا الله تعالى صفة نفخ الصور
قد عرفت فيما سبق شدة احوال الميت في سكرات وخطره في خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر
وديدانه ثم لمنكر ونكير وسواله ثم لعذاب القبر وخطره ان كان مغضوبا عليه واعظم من ذلك
كله الاخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسوال عن القليل
والكثير ونصب الميزان لمعرفة المقادير ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ثم انتظار النداء عند فصل
القضاء اما بالاسعاد واما بالاشقاء فهذه احوال واهوال لا بد لك من معرفتها ثم الايمان بها
على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها واكثر
الناس لم يدخل الايمان باليوم الاخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويدا افيدتهم ويدل على ذلك
شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتا وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها
مع ما يكتنفه من المصاعب والاهوال ثم اذا سيلوا عن اليوم الاخر نطقت به السنتهم
ثم غفلت عنه قلوبهم ومن اخبر بان ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لمن اخبره
صدقت ثم مد يده لتناوله كان مصدقا بلسانه ومكذبا بعمله وتكذيب العمل ابلغ من

تكذيب اللسان وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى شتمني ابن ادم وما ينبغي له ان يشتمني
وكذبني وما ينبغي له ان يكذبني اما شتمه اياي فيقول ان لي ولدا واما تكذيبه فقوله لن
يعيدني كما بدأني واما فتور الباطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور فعلته
العدم في هذا العالم لامثال تلك الامور ولو لم يشاهد الانسان توالد الحيوانات وقيل له
ان صانعا يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الادمي المصور العاقل المتكلم المتصرف
لاشتد نفور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى او لم ير الانسان انا خلقناه من
نطفة فاذا هو خصيم مبين وقال تعالى ايحسب الانسان الن نجمع عظامه بلى قادرين على ان
نسوي بنانه وقال تعالى ايحسب الانسان ان يترك سدى الم يك نطفة من مني يمنى ثم كان
علقة فخلق فسوى فمن خلق الادمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب اعضائه اعاجيبه
تزيد على الاعاجيب في بعثه واعادته فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من شاهد
ذلك في صنعه وقدرته فان كان في ايمانك ضعف فقو الايمان بالنظر في النشأة الاولى
فان الثانية مثلها واسهل منها وان كنت قوي الايمان بها فاشعر قلبك تلك المخاوف والاخطار
واكثر فيها التفكر والاعتبار لتسلب عن قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالتشمر للعرض
على الجبار وتفكر فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور فانها صيحة واحدة تنفرج
بها القبور عن رؤوس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرا
وجهك مغبرا بدنك من قرنك الى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصعقة شاخصة
العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم وقد ازعجهم الفزع
والرعب مضافا الى ما كان عندهم من الغموم والهموم وشدة الانتظار لعاقبة الامر
كما قال تعالى ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى
فاذا هم قيام ينظرون وقال تعالى فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين
غير يسير وقال تعالى ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ما ينظرون الا صيحة واحدة
تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون ونفخ في الصور
فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد
الرحمن وصدق المرسلون فلو لم يكن بين يدي الموتى الا هول تلك النفخة لكان ذلك
جديرا بان يتقى فانها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والارض يعني يموتون بها
الا من شاء الله وهو بعض الملائكة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف انعم وصاحب
الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة واصغى بالاذن ينتظر متى يؤمر فينفخ قال مقاتل
الصور هو القرن وذلك ان اسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ودائرة
راس القرن كعرض السموات والارض وهو شاخص ببصره نحو العرش ينتظر متى

يؤمر